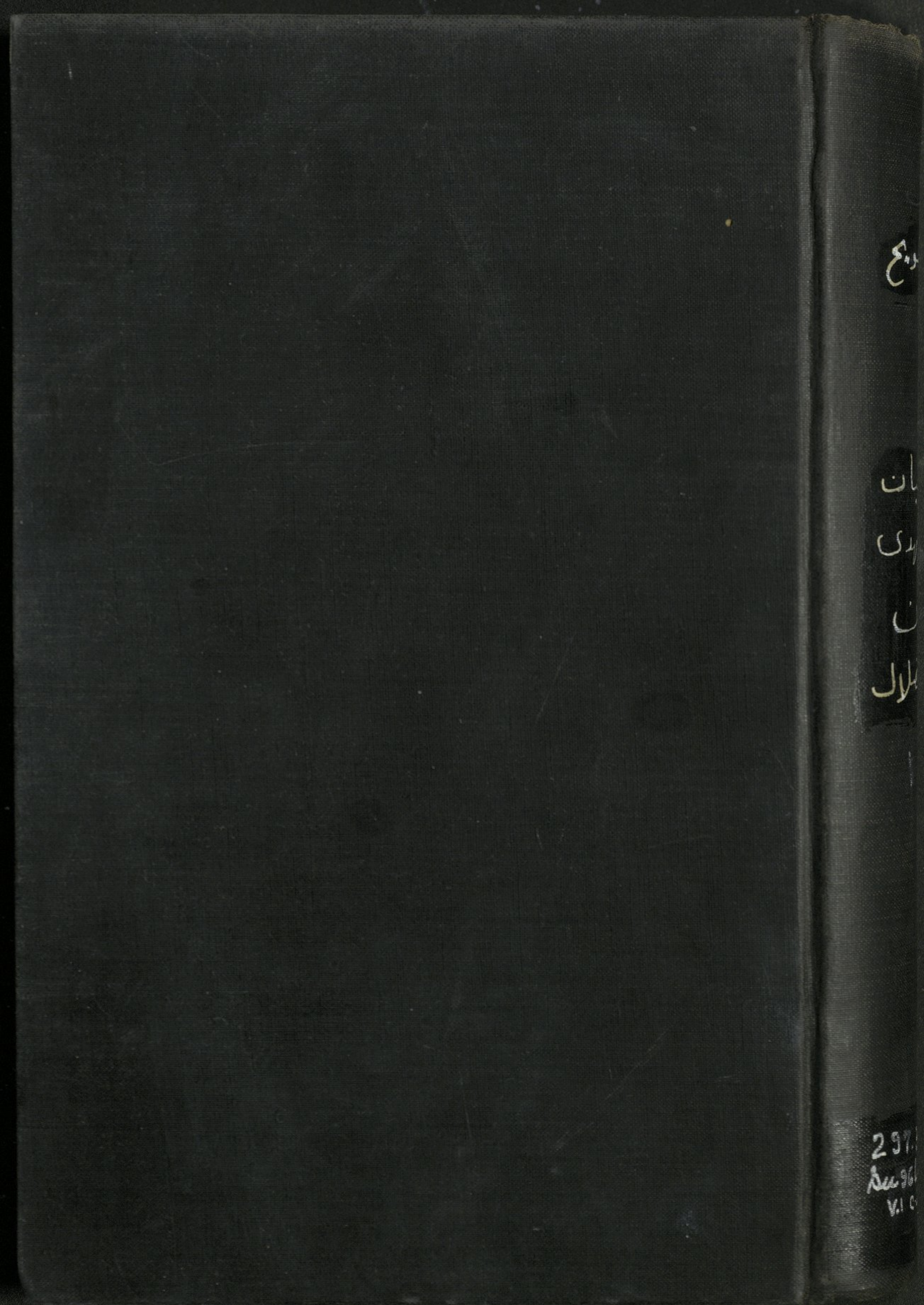
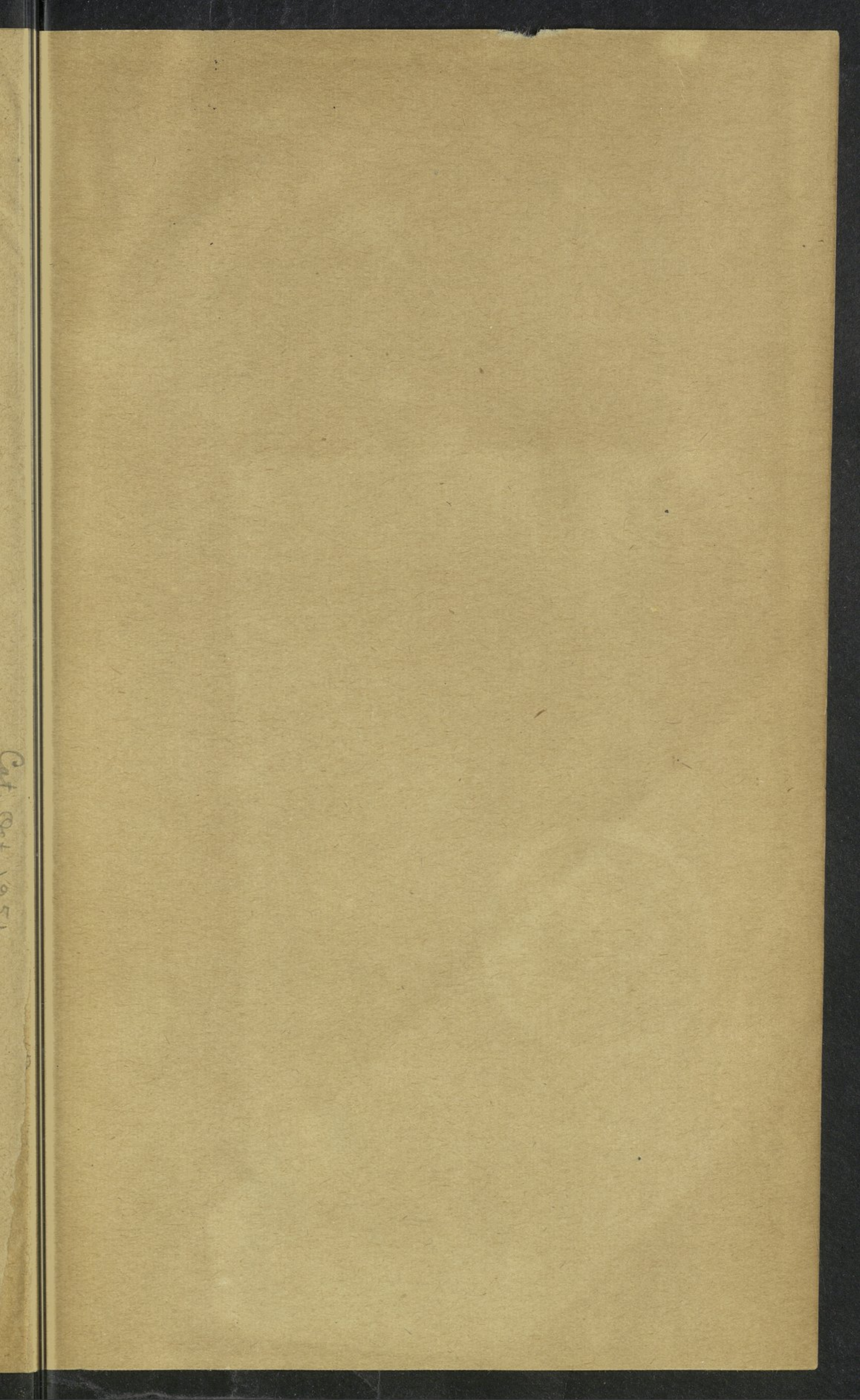




بيان الهدى من الضلال

في الرد على صاحب الاغلال

تأليف

العلامة المحقق الشيخ

ابراهيم بن عبد العزيز السويح النجدي

القاضي الشرعي

ورئيس محاكم المقاطعة الشمالية (في العلا و تبوك و ملحقاتها)

الجزء الأول



١٣٦٨

المطبعة السلفية ومكتبتها
٢١ شارع الفتح ✡ بجزيرة الروضة (القاهرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبةً ، ولنجزينهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾

النحل ٩٧

﴿ولله العزةُ ولرسولهِ وللمؤمنينَ ولكنَّ المنافقينَ لا يعلمون﴾

المنافقون ٨

﴿ولينصرنَّ الله من ينصره ، إنَّ الله لقوىٌّ عزيز ٭ الَّذينَ إنْ مكَّنَّاهم فى الأرضِ أقاموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونهوا عنِ المنكرِ ، ولله عاقبةُ الأمور﴾

الحج ٤٠ — ٤١

﴿فمنِ اتَّبعَ هداىَ فلا يضلُّ ولا يشقى ، ومَنْ أعرضَ عن ذكرى فانَّ له معيشةً ضنكا ونحشرهُ يومَ القيامةِ أعمى﴾

طه ١٢٣ — ١٢٤

القرآن الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين

أما بعد فإني وقفت على كتاب الفه عبد الله بن على القصيمى [1] سماه (هذى هى الاغلال) . ووجه تسميته بهذا الاسم - على زعمه - أنه نظر الى ما أصاب المسلمين من التأخر والضعف ، ففهم أن ذلك انما نشأ عن ارتكاب أمور أوثقت المسلمين عن العمل ، وعاقتهم عن اللحوق بمن سبقهم من الأمم الغربية ، فكانت هذه الأمور التى ارتكبوها كالأغلال التى تعوق الانسان عن السير الى غايته ، وقد ضل فى هذه التسمية كما زل فى موضوع مسماه

وقد ذكر فى أول كتابه هذا أنه بذل جهده فى البحث عن الأسباب التى أخرت المسلمين الى هذه الحالة ، وسأل كثيراً ممن اجتمع به عن أسباب هذا التأخر ، وما وجد أحدا عنده معرفة تكفى فى بيان الحقيقة . وليته طالع كتاب جمعية أم القرى [2] وأمثاله ليقتنع به ويسلم من التعب ان كان صادقا ، ولكنه - ويا للأسف - ذكر أنه وجد سبب هذا التأخر وعرفه حتى لم يكن لديه أدنى شك فيه ، فوهم هذا الوهم الخاطىء الذى أبرزه فى هذا الكتاب . وحاصله (أن التمسك بالدين هو الذى أخر المسلمين) فظفر بعد التعب بهذا الوهم المقلوب

---

(١) هو الذى لقب نفسه بهذا اللقب ، وإلا فلا يعرف له نسب من جهة أبيه فى القصيم

(٢) ويسمى أم القرى ايضا ، للعلامة المصلح السيد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي رحمه الله . وكتبه محمد نصيف

الذى وجهه الى الوراء وتصوره هو الحقيقة التى لا مرية فيها ، فسقط منتكسا على أم رأسه فى هاوية عميقة من أجل هذا الوهم المقلوب والتصور المعكوس ، ثم ادّعى أن ما صنعه هو الدواء الوحيد الناجح ، فضرب بذلك عقدة مشئومة على تلك العقد التى أراد حلها ، وزاد المريض وهنا على وهن والمصيبة بلاء على بلاء . وهكذا كل من أراد أن يصنع دواء وهو لا يعرف كيفية الداء وتشخيصه ولا يعرف الدواء وتركيب مفرداته ، فانه ولا بد أن يكون دواؤه مضرا إن لم يكن سما قاتلا

إن من أعظم فساد التصور عكس الحقيقة الواضحة التى لا شك فيها عند جميع العقلاء وتغييرها عن حالتها الوضعية ، وهذا التصور المعكوس قد تطور ظهوره فى كثير من ذوى العقول الضعيفة المعجبين بأنفسهم من العصريين الذين لم يستضيئوا بنور الوحى ولم تفهم قلوبهم تعاليم الديانة الصحيحة ، والقلب إن لم يستمد حياته من نور النبوة فانه لن يفلح بل يكون مظلما مريضا ، فتكون آراؤه وتصوراته كلها مظلمة مريضه لأنها صادرة عن تفكيره وارادته

وهذا الضرب فى الناس تجدهم بمجرد ما يبدو لهم أدنى لامع من لوامع المخترعات العصرية يقذفون بأنفسهم عليه كالفراش الذى يقذف بنفسه على ضوء المصباح الضئيل ، فيعشقونه ويظلون دائرين حوله دوران الفراش على مصباحه فلا ينزعهم عنه نازع ولا يردهم عنه رادّ مهما حاول واجتهد ، ما دام هذا اللامع الضئيل مضيئا ، حتى يحرقهم أو يطفأ ضوؤه . أما نور الشمس الواضح فانهم لا يرونه إلا صدفة أو كرها ، وإن قابلوه كاد أن يذهب بأبصارهم فتجدهم ينفرون منه ويهربون الى كل نفق وملجأ

لسنا بحاجة هنا الى الاستدلال على فساد تصور هذا الرجل وكثرة تقلب آرائه ، فان مضادّة كتابه هذا لكتبه السابقة فى كل شىء أمر لا يخفى على كل من تدبر ذلك . وقد أشار فى كتابه هذا الى أنه قضى عصرا من حياته وهو معتقد خلاف هذه الآراء التى نشرها فى هذا الكتاب . ولا شك أن اضطراب الرأى وتناقض الاعتقاد فى الأصول الضرورية الثابتة القطعية من أظهر

الدلائل على فساد التصور ، ولا سيما مع دعواه فى كل من هذه الكتب المتضادة بأن ما اعتقده وقرره فيها مبنى على براهين ثابتة صحيحة . ومعلوم أن البراهين الثابتة لا تتناقض ، وهذا بخلاف الآراء الجزئية التى تبنى على الظنون والقرائن وامثال ذلك

لقد استغرب الناس انقلاب هذا الرجل بهذه السرعة ، وانسلاخه من آيات الله التى تظاهر بنصرها من قبل ، فذهبوا يتساءلون عن الأسباب التى أحدثت هذا الانهيار الخلقى والانقلاب المفاجيء الغريب والانسلاخ البلعامى المنكر ، لأن هذا الرجل كان يتظاهر قبلا بنصر السنة وقد ألف فى ذلك كتبا معروفة طريقته فيها - كما قلنا - نقيض طريقته فى هذا الكتاب ، فكان كتابه هذا هدماً لها من أساسها ، كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً ، فساءت لذلك فيه الظنون ، وذهبوا يعللون هذا التراجع والتقهقر تعليلات شتى بحسب ما يظهر من القرائن ، فعلل كثير بأنه ارتشى من بعض الدعايات المحاربة للأديان واستدلوا على ذلك بأمور كثيرة ستتبين اكثرها فى ثنايا هذا الكتاب ، ثم هو ليس ممن عرف بالتقوى والديانة المتينة التى تحجزه عن الدخول فى هذه المزالق الخطرة ، فان من سبر حاله علم أن به زهوا واعجابا بنفسه غير قليل ، ينبيء عن ذلك قوله من قصيدة له (١) :

لو أنصفوا كنتُ المقدم فى الأمر ... ولم يطلبوا غيرى لدى الحادث النكرِ
ولم يرغبوا إلا الىّ اذا ابتغوا ... رشادا وحزما يعزبان عن الفكر
ولم يذكروا غيرى متى ذكر الذكا ... ولم يبصروا غيرى لدى غيبة البدر
فما أنا إلا الشمس فى غير برجها ... وما أنا الا الدرّ فى لجج البحر . .
أعلل نفسى بالأكاذيب والمنى ... وقد ينفع الكذاب فى ساعة الشر .
فلولا رجائى والرجاء مخادعى ... لعذت بشر لا يضيق به صدرى

(١) فى أول الفصل الحاسم

وقال فى أخرى :

متى جريت فكل الناس فى أثرى   وإن وقفت فما فى الناس من يجرى

وخليق بمن هذا عقله ورأيه أن يشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة وأن تكون عاقبته غير حميدة

إن من الغباوة الشديدة والبلادة المحققة أن ننخدع بتلك التمويهات التى خادع بهـا فى بعض كلامه فى كونه ما يريد الا الأحسان ، وأنه مؤمن بالله واليوم الآخر ، فكلا وهيهات وأنى ذلك ، بل هذه الدعوى جريمة فوق جريمة فكيف يجتمع الأيمان بالله واليوم الآخر مع محـاربة الدين وسبه وتشويهه ورفضه ، وكيف يصرح الانسان بقول واعتقاد أو يعمل عمـلا ثم يدعى أنه يريد خلاف ما يقول ويعمل ، فان هذا غير مقبول لا شرعا ولا عقـلا ولا عرفا ، فالمنافقون الذين قالوا للرسول ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ كاذبون فى شهادتهم بشهادة الله تعالى عليهم ، كما أن الذين بنوا مسجد الضرار وحلفوا أنهم ما أرادوا الا الحسنى كاذبون فى هذه الدعوى بشهادته تعالى عليهم أيضا ، لأن كلا من هؤلاء فعلوا ما يضادّ أقوالهم وادعاءهم ، فأصل النفاق مضادة القول للفعل ، ولو أن رجلا أهان المصحف أو سعى فى هدم الكعبة ثم ادعى أنه يريد بذلك التعظيم والاحسان لقطع الناس بكذبه ، وكما لو أن رجلا حارب نظاما محترما من الأنظمة المعمول بها وبذل جهـده فى ازالته وتشويهه وخلعه ورفضه ثم ادّعى مع ذلك أنه مؤمن به ومعظم له فـلا شك عند العقـلاء أنه كاذب متلاعب وأن دعواه هذه مكر ومخادعة ، وقد حذرنا الله سبحانه عن الاغترار بمثل هذا القول ممن فعل هذا الفعل بقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ الى آخر الآيات . وقال تعالى ﴿ اتخذوا أيمانهم جُنـــة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ والآيات فى هـذا كثيرة

واضحة . وقد صادف هذا الخداع البسيط المموه قلوبا غلفا ليس لها نصيب من البصيرة فى معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، فبقيت مضطربة فى أمره تتخبط فى ظلمات الجهل والريب ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون ﴾

إن أعظم جرم يجره الأنسان على نفسه وعلى أمته أن يذهب الى الكمالات السامية والمبادىء الأساسية العادلة العالية التى شهدت العقول السليمة بكمالها الكمال الذى لانهاية فوقه ، واتضح ذلك اتضاحا لا يمكن جحده ، فيفهم من هذه الكمالات خلاف حقائقها وخلاف أوضاعها المعقولة ، فيظل مندفعا بلا أدنى هوادة الى قلب صورتها وتحويلها الى ضدها سواء كان ذلك جهلا أو تجاهلا ، ثم يدعى مع ذلك أنه بفعله هذا صنع إحسانا الى قومه ، فيكون ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، وهذا غاية الضلال والبعد عن سواء السبيل

إن من تأمل مافى هذا الكتاب المنكر علم بلا أدنى شك أنه دعاية خبيثة مقصود بها هدم الأسلام والمروق منه بتشويه أوضاعه ومحاسنه بالكذب والتزوير والبهت والنفاق ، فيجب على كل ذى علم وصلاح وغيرة على ديانته أن يقوم ضده ويبذل غاية جهده فى محاربته والتحذير منه ، فان فيه خطرا كبيرا على كثير من الناس لما فيه من النفاق العميق ولبس الحق بالباطل بالدعاوى المزخرفة ، وفتنة للذين فى قلوبهم مرض من الطبقات المتطرفة الذين لم ترسخ علوم الشريعة فى قلوبهم ، ولم يفهموها فهما صحيحا ، والقلوب الفارغة أسرع قبولا للباطل من الحق ، فان القلب ان لم يكن مشغولا بمعرفة الديانة الصحيحة مستمداً حياته من نورها كما ذكرنا فانه يكون عرضة لتأثير الأوهام والخرافات المزخرفة بصوغ العبارات وبهرجة الاستدلال عليها

ولما كان هذا الرجل مصروفا عن الحق والهدى ، قد انصرف الى نصر دعايته التى هى غاية الجهل والردى ، بأقصى ما لديه وبكل ما يعول عليه ، ورأى ان الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كلها واقفة فى ردّ ما يرمى اليه وضد ما يدعو اليه أسهب فى تطويل المجادلة وأطنب فى اخفاء الحقائق بالمغالطة فى

كل كتابه فى هذا الغرض . محاولا صرف النصوص الشرعية عن مدلولاتها الى ما يوافق هواه ولو خرج عن الحدود اللغوية فضلا عن الحدود الشرعية ، فبعضا حرفه ، وقسما كذب به ، ونوعا آخر أعرض عنه ، فكان حاصل مقاله وحاله التكذيب بالكتاب وبما أرسل الله به رسله والجدال الطويل فى ذلك ، فجدير دخوله فيمن قال الله فيهم ﴿ ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، اذ الأغلال فى اعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم فى النار يسجرون ﴾ فكتابه هذا سلسلة أغلال صنعتها يد شقاوته لنفسه لما اختار العمى على الهدى وآثر الحياة الدنيا ، وما من شك لدينا أن له قصداً سيئاً فى ابراز هذا الكتاب الشنيع ، فمثله لا يجهل ما فيه من صرائح الكفر وقبائح الالحاد ، فان كلامه فى هذه الأمور واضح كالشمس لا يخفى الا على أعمى البصيرة كما سوف ترى وضوح ذلك فيما يأتى مفصلا

وقد عمد هذا الرجل الى كل ما كتبه الملاحدة من أعداء الدين وزنادقة الكتابيين الذين بذلوا وسعهم لتشويه الأديان لدى العامة ليلبسوا عليهم دينهم متذرعين بذلك الى نقلهم عنه تدريجيا الى الاباحية التى هى نهاية الكفر والالحاد ، فاخذ هذا الرجل عصارة تلك الآراء المسمومة ونشرها فى هذا الكتاب وموه عليها بشىء من النصوص التى ظن أنها توافق هواه ، فخلط الحق بالباطل ترويجا لقصده الخبيث ومكره السىء ﴿ ولا يحيق المكر السىء الا بأهله ﴾ . وقد جعل كتابه هذا عشرة مباحث وخلاصة ، وكل بحث يشتمل على مقالة ذكر فيها أنها من الأسباب التى أخرت المسلمين ، وذكر فى الخلاصة حاصل ما ذكره فى كتابه كله وسماها المشكلة التى لم تحل ، وأبان فيها صريحا مقصوده وما يرمى اليه ، وهو أن الايمان بالله وتصرفه فى العالم هو سبب التاخر ، وأن التدين مضاد للرقى

وفى مباحث سلسلة هذه الأغلال من الجنون والتخليط والجرءة الحادة

على الدين والاستهزاء به وبأهله والوقاحة والتهكم بأصوله وفضائله ما لا نعلم أحدا من الكافرين والمنافقين سبقه الى مثله ، حتى أنه تصرف فى النصوص المقدسة طبق ما يوافق هواه من المعانى ، فما خالفه حرفه أو كذب به ، وما ظن أنه موافق له قبله وصدقه واحتج به بكل حال ، وقد أدخل مع ذلك فى هذه المباحث من البهرجة والنفاق والتلبيس واخراج الباطل فى قالب الحق شيئا كثيرا جدا يتبين من ذلك انه من اعظم الدعايات الى الكفر والألحاد

وقد رأينا أن نسلك فى هذا الرد عليه مسلكا متوسطا مقبولا فنتكلم على تلك المباحث ونجيب عن كل ما اعتمد عليه فى الانتقاد على الدين والمتدينين ، كما نجيب عن كل ما ادعاه ونسبه الى الدين من الأمور الباطلة التى أضافها اليه بعد نقل كلامه بحروفه فى هذه الأمور ، ونحذف ما هو مكرر أوما لا حاجة ضرورية الى الرد عليه غالبا ، ونشير الى المحذوف أحيانا اذ تتبع كلامه يستدعى تطويلا قليل الفائدة ، وكلامه كله يدور على أصلين أحدهما الحث على رفض الأديان ، والثانى الانهماك فى تعلم نواميس الطبيعة والاعتماد الكلى عليها لأن ذلك عنده هو سبب التقدم والمجد المنشود

فصل

وهاهنا احدى عشرة ملاحظة تطلعك على أصول كلامه التى يدور عليها ، وتعرف بها كيفية ردنا عليه فيها ، وتسهل لك حل بعض مباحثه المعقدة :

﴿ الملاحظة الأولى ﴾ أن تعلم أن طريقتنا فى رد ما فى هذا الكتاب هى طريقة من يريد بيان الحق وازالة الباطل بالطريق الصحيحة الشرعية والعقلية المقنعة لكل منصف عارف يميز الحق من الباطل تمييزا صحيحا ، ليست بطريقة من يحاول اقناع خصمه فقط ، فان سلوك هذه الطريقة لا يفيد مع مثل هذا الرجل ، لأنه اعتقد اعتقادا شاذا وحصر الحق فيه وحده . ولبس أحيانا فى تعمية قصده وإرادته : تارة بالتجاهل ، وحينا بالمغالطة ، ومرة بالعناد

والمكابرة ، فانه رفض امرا وحاربه باطنا وظاهرا ، ثم ادعى احيانا فى الظاهر أنه يراه ويعمل به ، فكان قوله لاضطراب حالته وقصده معقدا ملتبسا متناقضا لا يستقر على حالة ثابتة ، ومثل من هذه حاله لا يمكن اقناعه بجميع الوسائل المبينة للحقيقة ، لأن قصده الحقيقى اتباع هواه ورأيه الشاذ لا الحق ، ولهذا فاننا نستدل بالنصوص الشرعية حقيقة كما استدل بها هو فى كتابه مخادعة ، ونستدل بالمعقولات الصريحة والقواعد الثابته والضرورة المحققة لأننا نتكلم بلسان المتدين الصادق كما أنه تكلم بلسان الملحد المنافق ، وقد وضع كتابه فى الحط على المتدينين فكان الرد عليه بلسان أحدهم (١) ولا يحسبن أحد أننا لا نعتمد على دلالة العقل مطلقا ، بل إننا نعتمد ذلك ونرى أن من الأدلة العقلية ما يفيد اليقين ، ونعلم من حيث الجملة أنه ليس فى الشريعة المطهرة ما يخالف المعقول الثابت فى نفس الأمر أبدا ، وما يزعمه البعض من وجود التعارض فى بعض الأشياء فليس لذلك حقيقة ، بل هو فساد فى فهم من زعم ذلك ، فإنه اما غلط فى فهم المنقول أو فى نظرية المعقول أو فساد فى إحدى مقدمات أحدهما ، وعند تحقيق البحث فى ذلك تتبين العلة وأنها خارجة عن حقيقة المعقول والمنقول كما بين ذلك الأمام شيخ الأسلام ابن تيمية فى كتاب العقل والنقل بالبراهين القاطعة الواضحة

« الملاحظة الثانية » اعلم أن روح كتابه وموضوعه هو الحث على رفض الدين بل الأديان كلها ، ودعوى أن الالحاد هو أساس الرقى والتقدم كما صرح بذلك فيما يأتى فى مواضع لا تحصر . وقد جره هذا المغزى الخبيث الى ما ادعاه إخوانه من ملاحدة العصر حيث ادعى أن الناس لا بد من أن يكونوا على ثلاث حالات : إما على دين صحيح ، واما على دين باطل ، واما على غير دين

---

(١) ولو أنه سلك مسلك الملاحدة المحض الذين لم يدخلوا فى الالحاد نفاقا وخداعا لسلكنا فى الرد عليه مسلكا آخر يبطل جميع ما يعتمد عليه من الباطل بادلة عقلية محضة

بل على الحاد محض . اما الدين الصحيح فقد صرح بأنه لا يعرف ، وأن الناس عاجزون عن معرفته ، فقد سد هذا الباب سدا محكما ولكنه استثنى النادر مخادعة ، ومعلوم أن النادر لا حكم له فوجوده كعدمه ، فعنده أن الله كلف الناس ما لا يطيقون حيث صرح بأنهم عاجزون عن معرفته فقد كلفهم ماهم عاجزون عنه . وأما الحالة الثانية فانه اجتهد غاية جهده فى أن يعزو الى الدين من القبائح والفساد وسوء السمعة ما لا يوجد فيه أبدا ، وتوسل الى ذلك ببعض كلمات للاتحادية من الصوفية ونحوهم وعزاها الى المسلمين ليثبت بذلك أن الدين قد فسد وأن الناس على دين باطل ، ليسهل لهم الطريق الى رفضه حيث صرح بأن الدين الباطل آلة ضعف وانحطاط ، وان الألحاد المحض لا يقف فى وجه الرقى والتقدم ، فحصر التقدم والرقى فى الدين الصحيح أو الالحاد الصريح ، والتأخر فى الدين الباطل ، ثم نفى معرفة الأول أى الدين الصحيح وأثبت وجود الحالة الثانية لتترك ، وسهل الوصول الى الحالة الثالثة أى الالحاد المحض لتسلك بل اوجب ذلك لأن الأولى غير معروفة ، والثانية لا يمكن الأقامة عليها ، والثالثة متيسرة والظروف تقتضيها . وسر المسئله أنه ادعى أنه وضع كتابه للبحث على التقدم وجعل التقدم محصورا فى حالتين إما فى الدين الصحيح أو فى الالحاد المحض ، ثم سد باب الحالة الأولى وادعى أن ذلك لا يكاد يعرف أو يوجد ، فاقتضى أن يكون الكتاب فى الحث على اعتناق الألحاد المحض بضرورة التقسيم ، لانه لم يبق الا حالة الدين الباطل وقد قرر أنها توجب التأخر فهو لا يريدها على دعوى وضع الكتاب ، بل جعلها وسيلة الى رفض ما عليه الناس اليوم لأنه قرر أنه دين محرف واهم فلابد من رفضه أى هو دين باطل فيجب خلعه ، فتأمل هذا يزل عنك تلبيس كثير مما خادع به ضعفاء البصائر . وستأتى مناقشته فى هذه الدعوى العريضة تفصيلا [1] ، وبيان ان

---

(١) فى المشكلة التى لم تحل فى آخر الكتاب

هذا التقسيم باطل من أصله ، وأن التفريع عليه ساقط سقوطا بينا

وقد حمله غلوه واسرافه فى تشويه سمعة الأسلام وإفساده لاجل رفضه على أن يخترع وهما كاذبا خاطئا فى أول كل بحث من مباحث هذه الاغلال ، فيدعى أن الناس والمسلمين على هذا الاعتقاد أو هذا الرأى أو العمل ، وأنهم يدينون ، به ولا يخص طائفة دون طائفة ولا قوما دون قوم ، ثم يستشهد لهذه الدعوى الكاذبة الخاطئة إما بحكاية عن صوفى أو بحديث باطل أو ضعيف لا أصل له أو صحيح لكن يجعل معناه على وفق هواه ـ وان كان المسلمون كلهم مخالفين هذا الرأى ـ ثم اذا اخترع هذا الكذب وسبكه على ما تقتضيه إرادته وشهوته وهواه رمى به المسلمين واضافه اليهم وجعله رأيا ومعتقدا لهم ، ثم أخذ فى الرد والتشنيع عليهم والتشمت والاستهزاء والسخرية بهم فيما نسبه اليهم زورا وفجورا . وهذه القاعدة المنكرة أصل كبير فى كتابه بنى عليها أكثر ضلاله وفرع عليها غالب أقواله ، وهى من أعظم العوامل التى تنفر عن الأسلام وتسىء السمعة وتشمت به الأعداء . وقد اقتبس هذه العملية من دعاية المبشرين من أضداد الاسلام وأعدائه للتنفير منه ، وهى من أعظم ما يرجح صواب قول من قال انه خدم بكتابه بعض الدعايات اللادينية لغرض دنيوى كما سلف

﴿ الملاحظة الثالثة ﴾ يجب أن يعلم أنه لحرصه على التلبيس وخلط الحق بالباطل ومزجه به مكرا وخداعا أنه كثيرا ما يعطف الجمل الكفرية والجمل المشتبهة والمسائل المباحة والصحيحة بعضها على بعض ثم يجعل الحكم عليها حكما واحدا من غير تفصيل ، فتارة يذكرها مضافة الى المسلمين ويدعى أن حكمها لديهم واحد ، وتارة يذكرها عنهم ويحكم عليها حكما واحداً بلا فرق ، وهذا التلبيس والمراوغة كثيرا ما ينتحلها فى مضايق كتابه فى مواضع لا تحصر كقوله ص ٢٨ « إن رقاب كل هؤلاء تخضع وهامهم تنحنى أمام المشكلات الأنسانية الكبرى كمشكلة الفقر ومشكلة المرض ومشكلة البطالة ومشكلة الجدب ومشكلة الجهل ومشكلة الأخلاق ومشكلة الاستقلال والسيادة الوطنية وكل

مشكلة ، ويرون أنهم ليسوا أهلا لحل مشكلة من هـذه المشاكل ، بل وانهم غير مخاطبين بحلها ، بل وأن محاولة حلها وعلاجها من التطاول على الله ومن محاولة الوثوب على مقام الألوهية المقدس . وما عليهم الا ان ينتظروا من الله أن يصنعها لهم كما يشاؤن ويشتهون الخ» فبالله عليك تأمل مافى هذا الكلمات من الخلط الفاحش والخبط المدهش والبهت والفجور العظيم فى دعواه أن المسلمين يرون أن حـل مشكلة الجهل والبطالة من التطاول على الله والوثوب على مقام الالوهية وأنهم يرون أنهم غير مخاطبين بحل ذلك ، فجعلهم يرون التعليم وبناء المدارس من الـكفر والشرك ومحاربة الله تعالى ، فاين العقول ؟ ثم انظر الى خلطه مشكلة الجدب مع مشكلة الجهل ، وأدنى رجـل من المسلمين يفرق بين هذه المسائل فيرى أن انزال المطر لا يقدر عليه الا الله ، وأن الجهل يجب على صاحبه أن يتعلم ، وأمثال هذه المواضع كثير جدا كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى (١)

﴿ الملاحظة الرابعة ﴾ يجب ان تعلم أن من أعظم أصوله أن كل حديث يخالف رأيه وهواه فهو باطل لا صحة له ولو اتفق المسلمون على صحته ، وكل تفسير يخالف فكرته وعقله فهو باطل سواء كان له أصل من كلام السلف أو لم يكن له اصل ، وكذلك كل قول أو رأى للفقهاء فى أى مسئلة كانت فهو رأى يضرب به عرض الحائط اذا كان لا يوافق هواه ولو أجمعوا كلهم عليه . ولهذا ادعى فى البحث الثامن أن الناس منذ عشرة قرون ضالون ، وأن اجماعهم على تقديم السلف إجماع باطل ، وأقر بأنهم غالطون جميعا ، وأنه مخالف لهم كلهم ولهذا هجم على كتب الدين كلها من غير استثناء وادعى بأنها كتب جهل وضلال

(١) ونظير هذه الجملة المتقدمة ما ذكر فى ص ٦٨ فى قوله ان من السخط المبين أن يظل خطباؤنا ووعاظنا ورجال الدين وغـير رجال الدين ينشدوننا الأناشيد ويقذفوننا بالخطب تلو الخطب مؤكدين لنا أن الانسان ما خلق ليكون عالما ولا ليكون شيئا كبيرا ولا ليغالب الطبيعة ولا لينازع الله فى علمه وقوته وقدرته .. الخ !

ولم يمدح كتابا واحدا من كتب علماء المسلمين على كثرتها وتنوعها ، كما انه لم يثن فى أصل كتابه على عالم واحد من علماء المسلمين على كثرتهم بل رماهم كلهم عن قوس واحدة بالجهل وعدم الفهم ، ولهذا كان من أعظم تلبيسه فى قلب الحقائق أن العلم والثقافة والتقدم والرقى والحياة كل ذلك هو علم الطبيعة والمادة وعلوم الالحاد والعلوم الدنيوية المحضة وما يتعلق بذلك ، وليس عنده مايسمى علما وحياة وتقدما وثقافة غير هذه العلوم ولواحقها ، أما علم أصول الدين من التفسير والحديث والفقه وجميع الدين فليست عنده بعلم ولا يقيم لها أدنى وزن بل هى الجهل بعينه كما سوف تقف على ذلك . ولهـــذا أكثر من السخرية والاستهزاء والازدراء بها ، وقد صرح بأن الدعاء ملهاة ومصرف خبيث وقد قال فى بعض عباراته فى الحط على الفقهاء واقوالهم (ص ٦٥) : « والأسلام لا يقبل شهادة الأطفال ، ونحن نفهم أنه انما رد شهادتهم لما جبلوا عليه من الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء ، أما قول بعض الفقهاء أوقولهم كلهم إنه رد شهادتهم لأمور أخرى ذكروها فهو من جملة أقوالهم الكثيرة التى تموج بها الكتب من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية » انتهى . فأقوال الفقهاء كلهم ليس لها قيمة فى العلم والعقل والدين عنده كما ترى . اذا فهمت هذا فاعلم أنه اذا أطلق العلم فى هذا الكتاب وأثنى عليه بالثناء الطويل العريض وذم الجهل كذلك فاعلم أنه يريد بالعلم ماذكرنا تعريفه وبالجهل ما شرحنا حقيقته ، وكذلك اذا ذكر الحياة والثقافة والتقدم فانه يريد بذلك هذا الذى ذكرنا ، فافهم هذا ولاحظه فى جميع فصول هذا الكتاب تجده صحيحا . ولقد بلغ به التعصب والغلوّ فى متابعة الهوى ولجاجة الخصومة والعناد الى حد أن حاول سلب اسم العلم والعلماء من علماء الدين ومنحه بطيب نفس للملاحدة ، ولم يكتف بذلك حتى كابر وادعى أن علماء الملاحدة هم العلماء الممدوحون فى القرآن كما يأتى ، وحاول أيضا سلب مسمى العقل والعقلاء من علماء الأمة وعقلائها وإعطاءه علماء الملاحدة الذين لهم معرفة فى أمور الطبيعة

ونحوها أو لهم معرفة فى بعض الأمور المحرمة ، فهؤلاء عنده هم أهل العلم والعقل والحياة الصحيحة والثقافة والسعادة ، ومن خالفهم من أئمة الدين فهم أهل الجهل والغباء والجنون والشقاء وكل وصف ذميم ، فلينظر العاقل المنصف هذا الخضوع التام والاستسلام الكامل والخدمة الصادقة للملاحدة ومروجيهم وهذا البغض المنكر والمقت الشديد لعلماء الملة ، ولينظر ماذا يراد من وراء هذا وما هو الدافع اليه ، فانه أمر لا ينبغى السكوت والأغضاء عنه

﴿ الملاحظة الخامسة ﴾ ينظر ما هى الأسباب التى دفعته الى هذا الحد البعيد فى التشنيع على المسلمين بتكرر الخطب أيام الجمع وترغيبهم فى العبادة والتقوى . ويدعى أن هذه الدعاية مخدرة عن العمل ، ثم ينظر الى سكوته الطويل عن جميع الدعايات الوقحة المزخرفة المرغبة فى الألحاد والفجور والفواحش وحضور مواضع اللهو من الرقص والغناء ونحو ذلك ، وقد ذكرت احدى مجلات (أم درمان) وغيرها ان عدد الذاهبين الى بيوت السينما أكثر من عدد الذاهبين الى المدارس فى الاحصاء ، هذا فى المدارس فكيف بالمساجد ، فرجل يدعى أنه يقصد الحث على العمل كيف يشنع على خطباء الدين أيام الجمع وعلى الذاهبين الى المساجد أوقات الصلوات ، ويسكت كانه أخرس على كثرة الدعايات الطويلة المتنوعة فى الحث على الفجور والألحاد وعن كثرة الذاهبين الى مواضع اللهو ونحوها واستغراق اكثر أوقاتهم فى ذلك ، لا شك أنه ماجن مستهتر منافق متلاعب فى دعايته ، فقد علم العقلاء كلهم أنه لا اشد ولا أعظم فى التخدير والتثبيط عن الأعمال النافعة من الأشتغال بأعمال اللهو والغرام والتعلق بالعشق والهيام والفتنه بحب الصور ، بل هذا بمنزلة السكر لا بمنزلة التخدير ، فانك لا تجد أعجز ولا أوهن ولا أكسل من المنهمكين فى الملاهى والمفتونين بالعشق والتعلق بالصور الفتانة ، ثم أى تخدير فى الخطب التى تحذر من الكسل ومن فتنة الدنيا والوقوع فى الأخلاق الرديئة . بل هى الدافع القوى لاثارة العواطف الدينية الباعثة على الأعمال النافعة ، لانها تلهب

الأيمان والدين الصحيح والفطرة المستقيمة الكامنة وتوقظها ، فان الدين الصحيح من لوازمه العمل لأعزاز الحق وحماية الفضائل وطلب مرضاة الله بالجهاد فى سبيله والفوز بجنته والنجاة من ناره ، فأين حالة هذا من حالة من فتن بصورة جميلة الهندام لا يهمه ولا يشغل قلبه من هذه الدنيا كلها الا الحصول عليها والانسجام معها وقضاء الوطر منها ، فأى الفريقين أشغل عن العمل وأحرى بالتخدير ، فلينظر المنصف ما هى الأسباب التى دفعته الى ما ذكر مع ما تقدم

﴿ الملاحظة السادسة ﴾ يجب أن يعلم أننا من أعظم الناس دعاية إلى الحث على العلم والعمل الدينى والدنيوى ، وأننا نرى أن التجارات والثراء المالى وتعلم الصناعات كلها من أعظم العوامل التى لها الأثر فى التقدم والتأخر ، وأنه يجب تعلم مبادىء هذه الامور بقدر الحاجة ، فلسنا ننكر شيئا من ذلك ، كما أنه ليس فى المسلمين ممن يعتدّ بقوله من ينكر ذلك ، بل المسلمون يقولون إن الواجب تعلم جميع الوسائل التى بها يحصل عز الاسلام وتقدمه ، وقد صرح غير واحد من علماء الملة أن تعلم الصناعات ونحوها مما به قوام الامة فرض من فروض الكفاية . ومن القواعد المعروفة فى كتب الأصول المعمول بها أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وقد نوه القرآن العزيز بهذا الأصل تنويها موجزا كافيا لم يبق وراءه مطلب لاحد قال الله تعالى ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وهذا يتناول جميع صور القوى ، ويتناول جميع ما فى استطاعتنا منها وما نستطيع أن نعمله ، فهو سبحانه أمرنا بالاستعداد بجميع ما نملكه من قوة وجهد ، ومعلوم أن هذا لا يحصل الا بمعرفة الوسائل التى تمكن من ذلك وتسهله . وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ وهذا أمر لنا بالحزم والاستعداد التام والتيقظ الدائم وسوء الظن بمقاصدهم المجهولة . ولكن علينا أن نعلم ونعتقد أن تحصيل هذه الامور من صناعات وغيرها لا يحصل به النفع الناجح المستقيم المطلوب إلا اذا أقيمت على الدين المتين ، وإذن فالواجب علينا أن نؤسس هذه الاعمال ونحوها كلها على الدين ،

وتأسيسه الصحيح هو الاجتهاد فى تطبيقه على ما كان عليه السلف الصالح أى الاخذ بالاخلاق الدينية الاولى وهو العمل بالكتاب والسنة ، وذلك سهل يسير ولله الحمد الا على القلوب المظلمة الخبيثة كما قال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للأسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصّعد فى السماء ﴾ . ويجب أن يعلم أنه لا تنافى بين الاخذ بعلوم الدين والعمل بالعلوم الصناعية والتجارية والمادية والاقتصادية ونحو ذلك ، فليس فى الدين حرف واحد ينهى عن الاخذ بهذه الامور ، وانما يدّعى عدم إمكان التوفيق بينهما زنادقة الملاحدة والمنافقون الذين لم يفهموا الدين على حقيقته ، ولهم مقاصد سيئة فى الصد عن سبيل الله فيتخذون ذلك ذريعة الى الانحلال والشك فيه والمروق منه كما فعل هذا الرجل فى هذه الاغلال

﴿ الملاحظة السابعة ﴾ اعلم أن هدفه الاكبر الذى وجه اليه جميع اللوم والذم والحط الشديد فى هذا الكتاب هم أولئك الذين أيقظوا فكرة المسلمين بان طريق المجد الاسلامى والقومى ينحصر فى العمل بالكتاب والسنة فى أصول الدين وما يتعلق به ، ثم بالأخذ بالأسباب المشروعة فيما يلزم الأمة ، وقد ذكرهم فى صدر كتابه فى دعواه أنه « يوجد جماعات عظيمة الشأن من حيث العدد والحماسة يرون أن طريق المجد الاسلامى المنشود ينحصر فى الرجوع إلى الأخذ بالاخلاق الدينية الاولى وفى تنفيذ الحدود الشرعية وفى أداء الزكاة وفى إقامة سائر الفروض اليومية والشهرية والسنوية والايمان بالله والجهاد الدينى فى سبيله » ، هكذا ذكر عنهم ، ثم انه خالفهم فادعى أن المجد القومى ينحصر فى الاخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية والعلمية ، ثم ذكر أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى أى غير نتائج المجد ، ولهذا فسرها فى الموضع الآخر بأنها ملهاة وتعويق ومصرف خبيث ، فجميع ما فى كتابه من سب وحط يوجه الى الجاحدين والجاهلين والهدامين والرجعيين والمغفلين والبائسين والخرافيين وامثال ذلك فكله موجه إلى هذا الهدف وهم هؤلاء

الجماعات الذين ذكرهم وذكر رأيهم ، وجميع ما يوجد فى كلامـــه من مسبة الجمود والرجوع إلى الوراء والحماقة والبؤس والشقاء والاوهام والخرافات والاباطيل وأمثال ذلك فهو موجه إلى مقالتهم التى قالوها وهى الاخذ بالاخلاق السلفية والعمل بالكتاب والسنة على ما كان عليه السلف الصالح كما قال الامام مالك « لا يصلح آخر هذه الامة إلا ما أصلح أولها » . والسبب الوحيد الذى دفعه إلى هذه الجراءة النكراء هو أنه رأى هؤلاء الجماعات العظيمة - بيض الله وجوههم - واقفين فى وجه دعايته وأقوالهم مضادة لما يحاوله ويجمح اليه فى الحث على المروق من الدين والاخذ بأخلاق العصريين الملاحدة كما سجله فى كتابه ، لهذا حرج صدره وضاق بهم ذرعا فلم يجد بدا من الطعن فيهم والحط عليهم وإساءة أقوالهم وآرائهم بهذا الهراء المنكر ليخلو له الطريق ، ولكن ما زاده هذا الصنيع إلا رجسا إلى رجسه وعاد سهمه فى نحره ، ويأبى الله إلا ان يتم نوره ولو كره الكافرون

﴿ الملاحظة الثامنة ﴾ اعلم أن قاعدته التى يعتمد عليها و نقطة دائرته التى يدور حولها فى دعايته أن التقدم كله والرقى والسيادة العالمية كلها وملاك ناصية الوجود كله محصور فى معرفة شىء واحد ، وهذا الشىء الواحد هو معرفة قوى الطبيعة ونواميسها كما صرح بذلك ، وهذه عبارته بحروفها فى ص ٨٢ : « وإن ضعف المسلمين وتأخرهم وفقدهم كل انواع الاستقلال والسيادة لا يعود إلى فساد فى الاخلاق ولا إلى خلاف فى الرأى والقلوب (١) ولا إلى شىء مما يحسبه الجاهلون ، إنما يعود إلى شىء واحد فقط ، يعود إلى الجهل بما به قوة الآخرين أى الجهل بقوة الطبيعة ونواميسها » انتهت عبارته . وهى إحدى سجداته العمياء للطبيعة ونواميسها ، فالمصيبة عنده والبــلاء الذى أصاب المسلمين هو جهلهم بقوى الطبيعة ونواميسها ، والعلم والقوة والسيادة العالمية وناصية الوجود كله

(١) كلامه صريح فى أنه لا يرى فساد الاخلاق ولا الخلاف فى الرأى ونحوه عائقا عن التقدم

بيد العارفين بقوة الطبيعة ونواميسها ، أما الأخلاق الدينية كلها من توحيد وغيره فكل ذلك بمعزل عن التقدم ، بل هو أوهام وملهاة وجهل وخرافات لها نتائج أخرى وهى التأخر والانحطاط ، وعلى هذه القاعدة المنكرة بنى جميع دعايته وجعل الدين مضادا لها وحض على رفضه ، فقد أطال فى تكرار هذه القاعدة فى كل صحيفة وجملة إلا ما ندر تكريرا مُمِلا بمغالاة زائدة ومجازفة حادة وأساليب متنوعة ، وكتابه كله يدور على هذا الغرض مع دعواه فيه بأنه حاول به فهم الدين ، فيكون قد فهم أن علم الطبيعة ونواميسها هو أصل الدين عنده ، فيكون الدين هو فهم الطبيعة ونواميسها ، فيكون الله خلقهم لذلك ويكون معنى ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ أى ليفهموا الطبيعة ونواميسها ، وهذا من آيات الله فيمن خرج عن نور كتابه المبين(١)

﴿ الملاحظة التاسعة ﴾ إذا علمت أن أصل دعايته وأساسها الذى يدور عليه كلامه كله هو الحث على معرفة الطبيعة ونواميسها ، فاعلم أنه سهل الحصول على ذلك فجعل معرفة هذا الاصل الكبير عنده موقوفة على شىء واحد ولا سبيل إلى الوصول إليه إلا بهذا السبب الوحيد ، وهذا السبب هو الاعتماد الكلى على الأسباب المادية والاعتقاد بأنها فاعلة بطبعها حتما ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، ولا يمكن الحصول على هذا الاعتقاد أيضا إلا من طريق واحد وهو الكفر بمشيئة الله وتدبيره لهذا العالم وتصرفه فيه بجميع أسبابه بالقطع والوصل والاعطاء والمنع ، فاذا كفر بهذه المشيئة المطلقة كان سببيا محضا والنجاح محتوم له ، ولا يمكن أن ينجح إلا إذا كان سببيا محضا ، فطريقة

(١) هذا مع أنه تناقض فادعى أن طريق المجد والسيادة محصور أيضا فى شىء واحد وهو تعليم المرأة ، حيث ادعى فى قوله « علموا المرأة ثم املأوا أنفسكم بالثقة والأمل ، ولا تخشوا بعد تعليمها شيئا » فجعل روح الرقى كله والتقدم بحذافيره فى تعليم المرأة ، فسبحان الخالق

الحصول على النجاح هى أن يكون الانسان سببيا محضا ، ولا يمكن أن يكون سببيا محضا إذا آمن أن الله يتصرف فى خلقه بما اقتضاه علمه ورحمته وحكمته تصرفا مطلقا بقوة قاهرة جبارة مهيمنة على كل أسباب الوجود تتحكم فى نهاياته وغاياته ، ثم انه تجاوز ذلك إلى ما هو أكبر منه(١) فأشار إلى أن الحصول على الكفر بالمشيئة موقوف على الكفر بوجوده تعالى ، فانه صرح بأنه لا إله بلا فعل ، وأن نفى فعله نفىٌ له . ثم ادعى أن الايمان بفعله يوجب عدم النجاح وهو خلاف المطلوب كما يأتى . وإنما طول هذه الطريق وجعلها ملتوية غمغمة وتلبيسا على الجهال وضعفاء البصائر ومن ضرب الله قلبه بالطمس والاقفال والعمى ، ولهذا بالغ هذا الملحد فى الغلو بالاعتماد على الأسباب والتعلق بها وحدها وصرح بأن تأثيرها لذاتها لا لمشيئة الله وإرادته ، وادعى بأنه يجب الجزم بأن الله لا قدرة له على تغييرها عن سبيلها فلا يمكن بحال أن يغيرها الله فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء جعلها غير أسباب ، أو أنه يفعل بدون الأسباب ، فان هذا عنده هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها . وقد كرر هذا الأصل مرار كثيرة ، قال فى بحث التوكل (ص ٢٦٨) : « لست أقول ان التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله يدخل فيها (٢) فيجعلها إن شاء أسبابا ويجعلها إن شاء غير أسباب ، أو مع الاعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير الأسباب ، فان هذا هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها » انتهى . فتأمل هذا فانه لم يجعل الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله فى حصول النتيجة كافيا فى نجاح العمل ، بل لا بد عند الأخذ بها من الكفر بقدرة الله على تغييرها ، فلا يمكن بحال أن

(١) ولكنه لما وصل الى هذه المرتبة أشار ولوح وحمجم وغمغم وجعل ذلك مشكلة لم تحل

(٢) انظر الى دقة الحاده ، فانه جعل لفظ « يدخل » بدل « يتصرف » تشويها لسمعة المشيئة ، قاتله الله ما أخبثه

يغيرها الله ابداً ، فانه جعل الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله له قدرة على تغييرها وقلبها أوله قدرة على أن يفعل بغيرها فوضى وسفها لا ضابط له كما يقولون ، وقد صرح بهذا فى المشكلة التى لم تحل كما سيأتى . ولا شك أن هذا يبطل جميع النبوات [١] لأن النبوة لم تثبت إلا بالمعجزة والمعجزة هى خرق للأسباب العادية أو قلب لها وإلا لم تكن معجزة ، وهذا يبطل جميع الأديان ولهذا كان روح الكتاب هو رفض الأديان . فتبين لك أن هذا الأصل الخبيث الوحيد الذى هو مفتاح الطريق إلى الوصول إلى تلك القاعدة التى اعتمدها هو جحد قدرة الله ومشيئته العامة بل وربوبيته . ومغزى هذا وفحواه إنكار وجود الرب جل جلاله ، أو على الأقل جحد كماله ، لأن الرب الذى لا يدبر ملكه ولا يتصرف فيه بالقطع والوصل على ما تقتضيه إرادته ورحمته وحكمته إما معدوم أو عاجز كالاصنام ، والمعدوم لا شىء ، والعاجز لا يكون إلها يستحق العبادة ولا الدعاء ، ولهذا صرح فيما يأتى بأن الدعاء لا فائدة فيه بعد ان قرر أنه عبادة ، فجعل دعاء الله كدعاء المعدوم او الاصنام الذى لافائدة فيه ، فهذا حل لغز هذا الكتاب المظلم وفك طلسمه المعقد ، وبه تعرف أن حقيقته الكفر بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء القدر

﴿ الملاحظة العاشرة ﴾ إذا علمت أن كلامه يدور على المغالاة فى التعلق بالأسباب المادية وتأثيرها بطبعها ، فيجب أن تعلم أننا لا ننكر تأثير الأسباب وارتباطها بالنتائج ، وأن تأثيرها بالقوة التى أودعها الله فيها ، فالماء عندنا يروى بنفسه ، والسكين تقطع بنفسها ، والنار تحرق بنفسها ، وهكذا جميع الأسباب مربوطة بنتائجها ، فهى عندنا كما هى عند جماهير المسلمين من أهل السنة وأصحاب الحديث مؤثرة بنفسها بالقوة التى أودعها الله فيها بمشيئته وقدرته ، ولا نقول

---

(١) بل ويبطل الاعتراف بالربوبية إذ الرب الذى لا يتصرف فى ملكه تصرفا مطلقا ليس بكامل ، بل هو ناقص مقهور

ان الأسباب لا تؤثر بنفسها أو بالقوة المودعة فيها ، وإنما ذلك التـــأثير بفعل الله عند اقتران السبب بالمسبب كما هو مذهب طائفة من المنتسبين إلى السنة ، فان هذا القول مرجوح وليس بصحيح كما سوف يجيء بيانه فى بحث الأسباب . وليعلم أن النزاع بيننا وبينه فى الأسباب إنما هو فى إمكان تغييرها عن طبعها وصرفها عن وجهتها بقطع أو وصل كخلق أسباب تعارضهـــا أو تفسدها ، فهو يدعى أن الله لا يغير فيها أبدا فلا يجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء جعلها غير أسباب ، بل هى عنده مطبوعة طبعا مؤبدا ليس لقوة من القوى صرفها عن سبيلها ، فلا يمكن أن يغيرها الله أو يغير فيها شيئا . ونحن ننازعه فى هذا فنقول : إن الله خلقها وأبدعها من العدم إلى الوجود ، فهى ملكه وتحت تصرفه ، فله القدرة الكاملة والمشيئة المطلقة عليها ، فهى بنتائجها تحت سيطرة المشيئة الالهية والقدرة الربانية ، فلا تجرى إلا على مقتضى مشيئته وإرادته ، فان شاء جعلها أسبابا موصلة إلى نتائجها كما هى العادة الأغلبية وإن شاء قطعها أو غيرها فجعلها غير أسباب نافعة بل قد يحولها إلى ضدها كما وقع كثيرا ، وقد حول الله النار بردا وسلاما بعد أن كانت حرارة محرقة ، ونظائر ذلك من المعجزات ، بل كون النتائج تتخلف عن الأسباب أمر معروف لدى الخاص والعام بالضرورة والحس ، بل ليس فى الدنيا سبب واحد مستقل بنتيجته بدون سبب آخر ، كما أنه ليس فى الدنيا سبب لا يبطله سبب آخر أو يفسده أو يغيره . وينبغى أن يعلم أننا إذا أطلقنا الأديان فنريد بذلك الأسلام ودين أهل الكتاب خاصة دون غيرهم من أهل النحل الأخرى ، لأنها لا تسمى أديانا الا مضافة الى أهلها . واذا أطلقنا الدين الصحيح فهو ما كان عليه السلف الصالح الأول والقرون المفضلة فى أصول الدين وإثبات الصفات دون تحريفها الذى يسميه المتأخرون تأويلا ، واذا أطلقنا الأسلام فالمراد به ما كان عليه السلف الصالح ومن اتبعهم ، ويدخل فى ذلك تبعا فى الجملة البدع التى لا تخرج من الملة دون الجهمية المحضة والاتحادية وأمثالهم فان هؤلاء كفار مرتدون

﴿ الملاحظة الحادية عشرة ﴾ ينبغى أن يعلم أن أهم ما قصدناه فى موضوع كتابنا هذا هو بيان مضادة كتابه للشريعة الاسلامية بل وغيرها من الشرائع السماوية ، وأنه مضاد لها من كل وجه ، لئلا يروج كلامه الذى خادع به فيه على من لم يعرف حقيقة أمره ، ولا سيما فانه لما أسقط فى يده وارتكس فى هذا المأزق الحرج حاول الخروج والتخلص منه فأكثر من اللجاجة والمغالطة والخداع فى مخاطباته ومكاتباته ، مدعيا أنه ليس فى كلامه ما يخالف الدين ، وأنه ما قال غير الحق ، وأن الناس لم يفهموا كلامه . فأردنا أن ننبهه على هذا الأهم ، وان كان فى كتابنا ما يتضمن مباحث أخرى متعلقه بهذا الاصل . وليعذرنا القارىء الكريم مما يراه فى بعض الكلمات من الشدة . فاننا لم نعامله أكثر مما اعتدى به علينا وعلى ديننا العظيم ، ولا بد من أن يكون الجواب مناسبا لكلامه ، ومن الواجب فى مثل هذا أن ينزل منزلته اللائقة به التى اختارها لنفسه ، ويكال له بالصاع الذى كال به لغيره . ولقد كان من الممكن له أن يبدى رأيه - كغيره - بدون بهت وسخرية وتهكم واستهزاء وكذب وافتراء لا طائل تحته ولا فائدة فيه ، وبدون أن يرتكب هذا الأمر الكبير ويقتحم هذا الشىء الخطير ، ومعاملة الانسان بجنس عمله من العدل ، وليس من العدل أن يحترم من لم يحترم شرع الله ونظامه ، فلا كرامة لمثل هذا ، وصنيعه فى كتابه صنيع المتهكم المتحدّى لا صنيع العاقل المستدل المرشد ، فلا بد من الاجابة بما يليق به وبكتابه ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل

مقـدمة

وقبل البدء فى نقض مباحثه نذكر قاعدة مهمة لابد من ذكرها لتكون كالأساس لما يأتى فى هدم جميع ما اعتمد عليه ، فنقول :

من المعلوم أن لكل مخلوق بداية ونهاية وغاية ، وأن المقصود من ايجاده غايته التى هى الثمرة المطلوبة منه ، فان الله لم يخلق خلقه عبثا ، وكل مخلوق فغايته تكون بحسب قدره فى العظمة أو الصغر وغير ذلك . ولما كان الانسان هو أرقى هذه الموجودات المشاهدة وأشرفها وأبدعها كانت الغاية المرادة منه هى الغاية فى الشرف والعظمة لشرف مآلها ونتيجتها ، فكان من الواجب أن يعرف الأنسان الغاية المطلوبة منه . وقد كان من حسن حظه أن الذى خلقه وأبدعه من العدم وأعطاه كل ما يحتاج اليه من النعم هو الذى بين له الغاية بكلامه بنفسه بأوضح بيان وأجله وأجمله فقال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون ﴾ فنص أنه خلقه لعبادته نصا صريحا . وقد بين سبحانه هذه الغاية الجليلة وفصلها فى كتابه تفصيلا واضحا جليا أعظمها وأجلها بل قطبها وروحها قصده بالدعاء والتضرع وما يتضمن ذلك من الأحوال الفعلية من التوجه والافتقار والاعتماد الكلى عليه فى كل مهمة ومقصد . وتفصيل هذا الأصل العظيم الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له مبسوطة فى النصوص لسنا بصدد تفصيلها هنا ، وانما نبين الأصل الذى هو الغاية المقصودة من ايجاد هذا المخلوق البديع ليعلم الأنسان المراد من إيجاده فيتبين له ان ما أصابه من سوء إنما هو لتفريطه واهماله لنفسه لعدم إتيانه بما طلب منه إما إعراضا وإما تقصيرا . ويجب عليه مع هذا أن يعلم أن الله سبحانه غنى عنه وعن عبادته ، وانما أمره بذلك لحكم عظيمة من أعظمها تزكيته وتطهيره وتقويته وتقديسه بالعبادة ليكون متأهلا لمجاورته تعالى فى المقامات العالية المقدسة فى الدار الآخرة مع ما يناله فى الدنيا من روح العبادة ونورها ولذتها وفرحها وعزتها

وكل هذه التكاليف الدينية السهلة اليسيرة المفروضة عليه والمعلقة بها سعادته لا تستفرغ معشار حياة الأنسان ، وتلك من مظاهر وآثار رحمته وفضله وإكرامه فلا بد من ظهور آثار أسمائه الحسنى المشتقة من صفاته العليا فى هذا الوجود

ولما كان الأنسان خلق ضعيفا جهولا مقذوفا به بين هذا العالم المظلم المملوء بالطغيان والظلم والجهل والعدوان ، وهو عرضة للتلف والمصادمات القاسية ، فلا يمكن بحال كما هو الواقع أن يرشد نفسه بنفسه وأن يمنعها من شر غيره ، فاقتضت رحمة من خلقه ورباه أن ينزل اليه فى هذه الظلمة نورا ساطعا كالشمس ويجعل له عقلا كالبصر يبصر به هذا النور المبين الذى هو الكتاب والسنة وهما أصل الدين ، فاعطى هذا النظام العظيم المقدس الذى هو فى غاية الإحكام والاتقان ليتمشى على ضوئه فيعدل ظلمه ويزيل جهله ويسلك به الطريق التى فيها خلاصه من كل سوء ومكروه ، فهو المصباح المنير والحرز الكبير والجنة الواقية ، وقد وعده ـ ومن اصدق من الله قيلا ـ بالسلامة والتوفيق والهداية والتمكين متى اعتصم بهذا النظام المحكم وعض عليه بالنواجذ ، وأعلمه أن رشده وعزه وتمكينه وحفظه موقوف على المحافظة عليه ، وأنه إن أعرض عنه فقد تلف لا محالة ، وأن التباب والخسار والدمار والهلاك المحتوم فى تركه والاعراض عنه فسماه نورا ، فان من فقد النور فهو فى معرض العطب ، وسماه روحا لأن من فقد الروح فهو فى حكم الميت ، والنور والروح هما أصل القوى كلها ، كما سماه ايضا برهانا وبينة وحقا وهدى وصراطا مستقيما ، فان من فقد هــذه الأمور فهو على باطل وفساد وجور وفوضى ، ومن حظى بهذه النعم فاز بالحياة الصحيحة النافعة المستمرة ، قال تعالى ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما﴾ وقال تعالى ﴿وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الأيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله

الذى له مافى السموات وما فى الأرض ، ألا الى الله تصير الأمور ﴾ . وقال تعالى ﴿ ياأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ﴾ وقال تعالى ﴿ كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بأذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض (١) وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا عن الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا اولئك فى ضلال بعيد ﴾ وقال تعالى ﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدوّ فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى : قال رب لمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة شهيرة . وعن على رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ « انها ستكون فتن . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله . قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس

---

(١) كثيرا ما يذكر الله سبحانه ملكه للسموات والأرض بعد الأمر بالاعتصام بكتابه ومدحه . وفى ذلك سر بديع وهو ارتباط سننه الكونية بسننه الشرعية وأن من اتبع سننه الدينية التى شرعها لخليق أن ينتفع بخيرات هذه السموات والارض نفعا صحيحا مستمرا . وفيه إشارة الى عظمته فانه اذا كان مالك هذه السموات والارض فيكون لا أعظم منه فيكون لا أعظم من تأثيره فان عظمة الرسالة تكون على قدر عظمة المرسل

بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء » وفى رواية « ولا تختلف به الآراء هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » رواه الترمذى وغيره . والاحاديث فى هذا كثيرة معروفة . فكل من تمسك بهذا الدين العظيم واعتصم به فقد سار على نور وبصيرة مستمسكا باسباب قوته ، ومن خرج عن هذا الدين أو تساهل فى الأخذ به فقد بعد عن هذا النور والروح والهداية والأمان بقدر خروجه وبعده وتساهله ولا يظلم ربك أحدا .

فاذا عرفت أن الله خلق الخلق لهذه الغاية الجليلة وأنه بين لهم الطريق التى توصلهم اليه والى ما خلقوا له فاعلم أنه سبحانه مكنهم فى الأرض وسخر لهم جميع ما فيها وأباح لهم من الطيبات وفعل الأسباب مالا يدخل تحت حصر ليتم نعمته عليهم بذلك وليتقووا به ويستعينوا به على عبادته وجهاد أعدائه ، فهذان أمران تجب ملاحظتهما : أحدهما أنه خلق الخلق لعبادته ، وثانيهما أنه سخر لهم ما فى الأرض جميعا ومكنهم فيها ودلهم على فعل الأسباب الممكنة النافعة ، كل ذلك لأجل العبادة بأنواعها . فالأمر الأول هو الغاية والثانى وسيلة اليها . وبهذا يتبين لك أن ما نال المسلمين من الوهن والضعف ليس ناشئا عن التدين بالدين ، وانما نشأ عن اضاعته والتقصير فى القيام به كما يجب ، فانهم لم يقوموا به على الوجه المطلوب ، بل منهم من أضاع ومنهم من قصر ، فلو طبقت التعاليم الدينية الصحيحة على أحوال غالب المسلمين أو من ينتسب الى الأسلام اليوم لوجد اختلاف كثير وخلل كبير ، فما نالهم من التأخر انما هو بسبب عدم المحافظة عليه والتضييع له . هذا هو أصل التأخر وأساسه ، فكيف

ينسب تأخرهم ووهنهم إلى التمسك بالدين وهم لم يتمسكوا به لا فى عبادة الله ولا فى فروعها كفعل الأسباب النافعة التى أرشدهم الله الى فعلها فقصروا فى الأمرين جميعا ، فنتج عن هذا التقصير العظيم قصورهم عن غيرهم ممن فعل أكثر الأمر الثانى ، وإلا فلو فعلوا الأمرين لنجحوا حتما ، فمن المحال أن يوجد شعب أو أمة حافظت على دينها كما ينبغى فنالها الضعف والوهن أبدا ، ولو أن هذه الشعوب الراقية فى الاسباب الصناعية ونحوها أضافت الى ذلك دينا صحيحا لازدادوا قوة الى قوتهم وحياة صحيحة الى حياتهم المنكدة المهددة ، ولكان ذلك أعظم عاصم لهم من الانهيار العظيم المتوقع ، ومن التورّط فى أسبابه التى عسر حلها وخشى كلّ عاقبة أمرها . ومما يبين لك بالبرهان الواضح القاطع أن الاعتصام بالدين ملازم للنصر والتقدم والتمكين أن الجاهلية الأولى التى كانت قبل النبوة لما كان الدين معدوما لديهم كانت العرب فى أسوأ حالة من الحالات المزرية الوضيعة جدا فلما جاء الأسلام ودخلوا فيه أفواجا فأخذوا بتعاليمه ومبادئه المقدسة على حالته الجديدة كان أولئك العرب الذين كانوا على تلك الحالة أعظم الناس استقامة فى أخلاقهم وأرواحهم وآرائهم ، فاثر فيهم هذا الدين القوى القويم انقلابا عجيبا عظيما فى أسرع وقت ممكن حتى غلبوا على قلتهم وفقرهم أعظم دولتين على وجه الأرض ، ونالوا من العز ما لم تنله أمة قبلهم ولا بعدهم فى أقصر وقت عرف ، وما زال المسلمون فى تقدم ورقى واتساع ملك عزيزين مستقيمين على تلك الحالة الصحيحة الطيبة حتى حرجت صدور أعدائهم من زنادقة اليهود والفرس وأمثالهم ممن سلبوا ملكهم لما علموا أنه لا طاقة لهم بحربه بالاسباب المادية ، فدخلوا فى الأسلام كيدا له ولأهله ، فنافقوا وخادعوا وأدخلوا على أصوله وتعاليمه السامية ما يناقضها من الدسائس الغريبة الخبيثة التى لا تناسبه بل تناقضه ، وادعوا أنها من أصول الدين ، فلبسوا على من قلّ نصيبه من العقل والدين ، فبدلوا قواعده وأصوله الثابتة بقواعد وأصول واهية ، كما بدلوا علوه تعالى فوق العرش بأنه لا داخل العالم

ولا خارجه ، وبدلوا كلامه لموسى وكلامه بالقرآن بأنه خلق كلاما فى غيره فتكلم عنه وأمثال ذلك من تحريف الصفات حتى غيروه ، وما زال هذا البلاء يزيد وينتشر فى صميم الاسلام حتى تناثرت أجزاؤه وتداعت أركانه

ومن المعلوم أنه من عهد الخلفاء الراشدين الى عهد المأمون والاسلام فى عزّ منيع وقوة قاهرة واتساع باهر ، فلما غلبت الجهمية على عقل المأمون فأدخلوا عليه العلوم الخبيثة التى هى علوم الزندقة وهى طريقة الجهمية النافين لعلو الله على خلقه فوق عرشه القائلين ان كلامه مخلوق أو أنه لم يتكلمه بحروفه ومعانيه ، وطريقة الرافضة التى مضمونها القدح فى الاسلام وأهله ، فحسنت الجهمية له القول بخلق القرآن وأنه تعالى ليس فوق العرش ، وأنكروا رؤيته فى الآخرة ، ونفوا كثيرا من الصفات حتى شغف المأمون بهذا الوباء الفاتك وأكره الناس على الدخول فى تلك التعاليم المنكرة الخبيثة وقتل وحبس وعذب كل من لم يدخل فى ذلك وجعل هذه القواعد الكفرية دينا يدان الله به بدلا عن قواعده الشرعية الثابتة فبدل قولا غير الذى قيل له : بدل قواعد الاسلام بقواعد الكفر ، واجبر الناس باتباعها قهرا واضطرارا ، فاضطرب الاسلام لذلك وتغيرت حالته فاخذ فى النقص والتدهور ونزل من أعلى قمة وصلها من وقت المأمون الى هذا الوقت الحاضر ﴿ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وكل هذا بسبب آراء الجهمية الزنادقة التى ارتكزت على قوة هذا الخليفة الضال الظالم الذى لا يعظمه الا جاهل لا خلاق له ، فانه أول خليفة سعى فى هدم الاسلام ، ثم لم تزل هذه العلل الخبيثة مصاحبة له سارية فيه تارة تضعف وحينا تقوى فان قويت ضعف وإن ضعفت قوى بحسب العوامل والظروف المقارنة له ، ولكنها كلما بعد العهد عن زمن الرسالة قويت هذه العلل فيتبعها الضعف ، ولهذا لما اجتمع التجهم والرفض وفروعهما فى وقت المستعصم بسبب تمكن دعاة هذه المذاهب من مقام الخلافة وتلاشى مذهب أهل الحديث والسنة فى العراق وما والاه جرى على تلك الاقطار ماهو معروف

من فتنة التتار الشنيعة ، فكان اجتماع هذه المذاهب الخبيثة فى أهلها كاجتماع الجذام والبرص فى الجسم ، وأنّى يحي جسم عمه هذا البلاء . فأكبر دهليز دخل منه الملاحدة وأعداء الدين على الاسلام دهليز التجهم والرفض ، وأعظم اعتقاد جرّ الى الالحاد اعتقاد التجهم والرفض ولم يستول الاجانب على الاقطار الاسلامية الا لما فشت فيها هذه المذاهب . ولا شك عند كل عارف بدينه أنهما يضادّان الاسلام أعظم مضادة وأن من أدخلهما فيه فهو لا يعرف دين الاسلام بحدوده الشرعية ، فمن أكبر الخطأ اذن إلصاق أعمال هاتين الطائفتين بدين الاسلام وهما أعظم أعدائه وأضداده ، ومجرد الانتساب بالدعوى لا يغنى فى الحقائق شيئا

اذا تقرر هذا فدين الاسلام هو النور والروح والحق والبرهان والهدى ، وهو دين الحكمة والعدل والعلم العقل والعز والتقدم والقوة الصارمة التى لا يقف فى وجهها شىء من أى قوة كانت ، فان مبناه على صلاح الأرواح وتقويتها وثباتها ، فليس فى الدنيا خير إلا والدين كفيل به ، وليس فى الدنيا شر إلا والدين كفيل ببيانه والتحذير منه ، فانه ينهى عن عبادة المخلوقات بأنواعها والخضوع المرذول والتملق لها ، وعن جميع الفواحش والمنكرات كالكذب والبهت والخيانة والنميمة والغش والنفاق والخداع والظلم وجميع الاخلاق الممقوته ، كما أنه يأمر بالمساواة فى الحقوق البشرية وانه لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى ، وهذه القاعدة الكبرى هى أصل العدالة والنظام فى الحقوق البشرية ، ويأمر بنصر المظلوم وإغاثة الملهوف والضعيف والبر والصلة والرفق بالضعفاء والبهائم ، ويأمر بالشجاعة والكرم والصبر والثبات والنصح فى الأعمال والصدق فى الاقوال والبعد عن الرذائل وأمثال ذلك ، وهذه هى اسس النهضات العلمية والعملية كلها ، وما دخل الناس الفشل إلا بسبب إهمالها أو إهمال أكثرها فما من خصلة حميدة إلا قد أمر بها وما من خصلة ذميمة الا وقد نهى عنها . والحث على هذه الأمور مشهور فى نصوص الكتاب والسنة ، فمن جعل هذه

الخصال أغلالا فقد عكس الحقائق عكسا بينا ، وانما جعلها هؤلاء أغلالا لأنهم وجدوها أغلالا تغل الانسان عما يحاوله ويجمح اليه من الانحدار في دركات الإلحاد والغي واللهو والفسوق والفجور التى تضادّ هذه الخصال من كل وجه ، فلولا أخـــلاق الدين الساميـة لم يكن بين الانسان وبين الحيوانات المنطلقة وراء شهواتها أدنى فرق إلا بمجرد الصورة الجسمية لا غيرها

وينبغى أن يعلم أننا لا نريد بالعبادة المذكورة هنا لزوم المساجد والزوايا والعكوف فيها دواما ومتابعة الصيام والانقطاع عن جميع الاعمـال الدنيوية وأمثال ذلك مما يظنه الجاهلون ، وانما نعنى بالعبادة اتبـاع أوامر الله سبحانه وتعالى التى أنزلها فى كتابه ، وهى ولله الحمد سهلة يسيرة على من باشر قلبه الايمان ، وكل عمل يكون يسره وعسره بحسب مافى قلب صاحبه من الاقبال عليه والرغبة فيه وحبه لذلك العمل ، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وفروض الشرع كلها يسيرة معروفة اعتقاداتها وأعمـــالها وأقوالها . ومن المعلوم أن هؤلاء الذين يتركون الأوامر الدينية يبتلون بأغلال القوانين القاسية وبالذهاب الى أعمال وإشغال لا نفع فيها من ملاه وخـلاعة وغيرها وهى تعطل عن العمل الدينى والدنيوى النـافع ، فهم كما لا يتقيدون بأوامر الشرع فلا بد أن يكونوا مقيدين بقوانين ضيقة عسيرة ، فان الانسان مهما بلغ فى الرقى لا يمكن أن يترك بلا نظام يمسك عنان أغراضه وشهواته . وعلى كل حال فان الله سبحانه وتعالى قد ضمن لكل من قام بشرعه أن ييسر له أمره ويجعل له فرجا وأن يعطيه من الفرح والسرور والراحة والطمأنينة ما يوجب أن تكون حياته سعيدة صحيحة ، وأن من رفض شرعه فلا بد أن يعاقب بقوانين ونظم كالأغلال والقيود الضيقة العسـيرة ستوصله الى أصفاد وأغلال جهنمية مستمرة وبيلة . والعاقل يختار لنفسه ما يخلصها ويسعدها ، والله لا يضيع أجر من احسن عملا .

وكما أن الدين هو أساس كل خير ونهوض وفلاح ونجاح وهو مصدره

ومنبعه كما ذكرنا فإن الالحاد ورفض الاديان هو أصل كل شر فى الدنيا وعنصره وعلته ، فلا يوجد فى الدنيا مصيبة وعناء وشر وبلاء الا وهى نتيجة الكفر وفروعه وأثره . وأنت اذا تأملت كل شر ونقمة وبلاء ومحنة حدثت فى الدنيا من أولها الى آخرها وجدت أن أصل ذلك عدم التدين أو البعد عن الدين . فالهلاك الذى أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وأمثالهم ما هو الا بسبب رفض الأديان التى جاءتهم بها رسلهم . ولما كان قوم لوط هم أشد الخلق انغماسا فى الاباحية وانطلاقا فى اتباع شهواتهم كانت عقوبتهم أشنع عقوبة وأفظعها فناسب أن تكون عقوبتهم بجريمتهم ، وكذلك الأمم التى جاءت بعد تلك الأمم الى هذا الوقت الحاضر فان العقوبات المتنوعة لا تزال متتابعة عليهم فهذه المجازر الواسعة النطاق والحروب الطاحنة المتصلة حلقها ما هى إلا نتيجة الكفر والالحاد ، وكل أمة من هذه الامم فانها تصاب بقدر ما معها من الالحاد والكفر . ولما ذكر الله سبحانه وتعالى تلك الامم السابقة وذكر ما حل بهم من العقوبات ذكر أن من سلك سبيلهم فسيحل به ما حل بهم فقال تعالى ﴿ فان للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴾ وقال تعالى ﴿ أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ وقال تعالى ﴿ قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾ وقد اخبرنا بسنته فى الأولين أنه الهلاك لا محالة لكل فى خالف الرسل ، وقال تعالى ﴿ فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قال الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فاصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين ﴾ فتأمل هاتين الآيتين وما فيهما من العبر ، فقوله ﴿ ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أو تيته على علم ﴾ فانه اذا استحصل على ما استحصل عليه من نعمة الدنيا قلت أو كثرت أسند ذلك الى نفسه وعمله وقوته وطبيعته

واستعداده ومواهبه لمعرفة ذلك . وحقيقة هذا أنه استحصل على هذا بعلمه الذى به استعمل الاسباب المحصلة له ذلك [1] ولم يقل هذا بفضل من الله وتوفيقه ، فقال الله تعالى ردا عليه ﴿ بل هى ﴾ اى هذه النعمة ﴿ إنما أوتيتها فتنة ﴾ لك لننظر كيف تعمل فيها ، فاما أن تعمل بالطاعة فهى متاع حسن الى حين ، وإما أن تكفر بها فتجازى بسلبهامنك وتعاقب بها كأسلافك . فلا بد من أحد الأمرين . ثم أخبر تعالى بان هذه القولة ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ أى من قبل هذا الانسان القائل بتلك المقالة الجائرة ، قال تعالى فى أولئك ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أى فما أغنى عنهم ما كسبوه من الاسباب التى اعتمدوها وهى هذه النعمة التى ادعوا أنهم أتوها على علم فلم يغن عنهم ما معهم من تلك الأسباب وغيرها شيئا ، بل ﴿ أصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ القائلين بمقالتهم ﴿ سيصيبهم ﴾ مثل ما أصاب اولئك ﴿ سيئات ما كسبوا ﴾ فانها سنة الله فى هذا النوع بانه يصاب بسيئات ما كسب حتما وما هم بمعجزيه سبحانه وتعالى

والمقصود أن من تأمل هذه الحروب الفظيعة المشتملة على المحن والمصائب المتنوعة وجدها عقوبات محضة من جنس العقوبات السابقة ، لما سلك هؤلاء سبيل أولئك وقالوا مقالتهم انما أتوه على علم ، وقد قال تعالى ﴿ وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيمة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ وقال تعالى ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة امرها خسرا ﴾ وقد وقع كل هذا الذى أخبر الله به عز وجل ووعد به الملحدين الظالمين ، فهذه المواضع التى طحنتها الحروب وترددت عليها كرة بعد كرة حتى سحقتها سحقا شنيعا هى التى بيتت فيها عناصر الالحاد وهى التى نبتت فيها أصوله ورسخ فيها وباؤه ، وأكثره مستمد من هذه المواضع ، ففيها الحظ الوافر من العتو عن

---

(١) وهذا عين كلام ملاحدة العصر كصاحب الأغلال

أمر ربها فلهذا اذيقت الحظ الوافر من البطش الشديد والفتك المفزع والعذاب الفظيع . والحكمة فى أن عذاب هؤلاء المتأخرين ليس كعذاب الامم السابقين فى الصفة المتحدة بل كان متنوعا هو ان كفر اولئك كان متحدا جنسا فكل أمة منهم كان كفرها نوعا واحدا فكان عذاب كل أمة نوعا واحدا بخلاف الأمم المتأخرة فان كفرهم كان متنوعا فمنهم الوثنى المشابه لقوم نوح وامثالهم ومنهم الإباحى كاللوطى ومنهم عباد الطبيعة كقوم ابراهيم ومنهم على غير ذلك فكان كفر هؤلاء ممتزجا من كفر اولئك فكان عذابهم ممتزجا من جنس عذاب اولئك كما امتزج كفرهم بكفرهم قال تعالى فى الامم السابقة ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من اغرقنا﴾ وهكذا كان عذاب الامم المتأخرة على هذه الصفة وايضا فان كفر الأمم المتأخرة كان اكثر أسبابه الافتتان بالطبيعة وجمالها ومظاهرها وموادها فكان عذابهم بهذا الشىء الذى فتنوا به وتوجهوا اليه وشغفوا بحبه والتعلق عليه والامل فيه والطبيعة مظلمة عاتية وهم لكفرهم وبعدهم عن نور الدين كانوا مظلمين عاتين مناسبين لها فى الطبيعة فصدمتهم واصطدموا بها فجرعتهم من علقم مرارتها اضعاف ماذاقوه من حلاوة عسلها . وايضا فان كفرهم كان بسبب الدعايات واللذات التى نالوها من هذه الانتاجات والصناعات المستخدمة فكان من الحكمة الالهية ان ياتيهم العذاب من الجهة التى جاءتهم منها الدعايات ونالوا منها اللذات وان يكون هلاكهم بجنس الآلات التى استخدموها وجعلوها سببا للحياة فانقلبت عليهم هذه الاسباب فصارت نقمة بعد أن حسبوها نعمة . وتأمل بعين البصيرة كيف كثرت آلات الفتك والقتل لما كثرت دعايات الكفر والالحاد ورفض الاديان ، وكلما توسعت دائرة الالحاد توسعت بازائها دائرة عوامل الهلاك والفتك والمحن والمصائب ولما فشت وتوسعت مذاهب الاباحية واللادينية ظهرت بازائها مخترعات القتل والفناء العام كالطاقة الذرية ونحوها فجنس هؤلاء الذين بثوا دعايات الالحاد ورفض

الاديان قد هيئوا بازائها للملحدين من الكيد والمكر والاستعداد اسبابا من جنس أسباب تلك الدعايات تقضى بهلاكهم وتكدير لذاتهم فهم كما أنهم يصنعون لهم من جانب آلات للذات فهم يعملون لهم من الجانب الآخر عوامل هلاك ودمار ومصائب وبلاء ومحن . وها نحن أولاء لا نزال نرى هولاء العاتين فى كل وقت وحين تصيبهم بما صنعوا قارعة تلو قارعة وقارعة قد حلت قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد

وبالجملة فكل سبب يغتمد عليه الانسان اعتمادا كليا غير ملتفت الى ربه الذى خلقه وخلق سببه بل يتخذ هذا السبب إلها من دون الله يتعلق به ويعتمد عليه وينسى الله وراءه فان سببه هذا سيكون وبالا عليه وسيعاقب به ولا بد ، وإن تأخر زمنا أو فترة فلا بد من وقوع سوء عقباه ، فقد يتأخر عذاب الملحدين وعقوبتهم زمنا أو فترة كما تأخر عذاب الامم السابقه ولكن لا يمكن بحال ان يتركوا بحالتهم مستمرين فى غيهم او ظاهرين على غيرهم من المتدينين فان سنة الله فى خلقه تأبى هذا كما انه لم يقع ابدا

فما أسفه رأى من ظن أن رفض الدين هو سبب الحياة والتقدم وهو يرى ما اثبته التاريخ والأبصار والبصائر من أن رفض الدين هو سبب الدمار والهلاك الأبدى ، كما أنه لا أضل رأيا ولا سعياً ممن ظن أن الله يخلق خلقا لعبادته وقصده والتوجه اليه والاعتماد عليه ثم يرفضون ذلك فيتركون هملا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ثم لا ينتقم منهم كما انتقم من أسلافهم وهو يقول فى كتابه العزيز ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ ويقول ﴿ أم حسب الذين أجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾

إذا عرف هذا كله فعلينا إذن من الواجب المحتم أن نعرف طريق المجد والنهوض والخلاص معرفة صحيحة محققة . نعم انها هى هذه الطريق النيرة الواضحة ، هى طريقة الدين ، هى الطريقة السلفية ، هى التمسك بالاخلاق الدينية

الاولى فى أصول الدين . يجب ان نعلم ونعتقد أن نهوض المسلمين ومجدهم واستقلالهم وخلاصهم كل ذلك معلق بهذا الحبل السماوى ، معلق بالقيام بهذا الدين المتين قياما صحيحا صادقا صارما ونفى الشكوك والأوهام الملصقة به وابعاده عن مضايق التأويلات والتحريفات والتعسفات المزيفة المولدة من المحاماة للمذاهب والأنساب والاسلاف ، فالقيام بهذا أعظم كفيل لتقدمهم ونجاحهم ولا يمكن لهم تقدم ولا نجاح مهما حاولوا وفعلوا بدون ذلك أبدا ، فان هذه الدولة الاسلامية لم توجد وتتكون إلا على روح الدين ، فبوجود روحه وقوتها يعظم ويقوى ، وبعدم روحه أو ضعفها يضعف ويتأخر ، وكل هذه الاحزاب والتعصبات القومية الثائرة الهائجة الطائشة فمآلها الفشل والهبوط ما لم تكن روحها عصبية دينية اسلامية ، وبهذا السلاح الجبار وبهذا النور الساطع وبهذه الروح الصارمة الوثابة الملتهبة يكتب لنا النصر والمجد المنشود ان شاء الله تعالى وبه الثقة والاعتماد

الكلام على اسم كتابه

(هذى هى الأغلال)

من عجيب أمر هذا الرجل أن الله لما قلب قلبه وعكس بصيرته تصور ما جعله الله نوراً وروحاً وفرحا وسرورا من تعاليم الدين الحنيف أغلالا وخرافات واوهاما ، فسمى كتابه (هذى هى الأغلال) ، ولهذا أطال فى تكرار ذكر الأغلال والخرافات والأوهام ، فرمى المسلمين بدائه ، وضرجهم بدمائه . ويا ليت هذا الأحمق فكر فى نفسه ليعلم أنه هو الذى أصيب بهذه الأدواء ، وأنه هو الذى غلت بها عنقه ويداه فالأولى له أن ينعى نفسه ولا يرمى ببلائه غيره ، وفى المثل « رمتنى بدائها وانسلت » فلقد كان من عظيم قدرة الله تعالى القاهرة وأنه يحول بين المرء وقلبه أنه لما طمس على بصيرة هذا الرجل وخسف بقلبه جعله يسمى كتابه (هذى هى الأغلال). وهذا من عجائب قدرته تعالى ، ولو لم يسمه بهذا الاسم لسميناه نحن به ، ذلك أن الناس كلهم اذا صنف أحد منهم مصنفا فأنه يسميه بما يتضمنه من الفوائد التى يحث عليها ذلك الكتاب فيختار له الأسم الحسن الذى يطابق مسماه كما يقال الشفاء والمصباح والمنهاج والدليل والأفراح وهكذا ، لأن الاسم عنوان على ما يتضمنه الكتاب ويحث عليه ، لا على ما يحذر منه ، ولهذا لا تكاد تجد رجلا يسمى كتابه هذى هى السموم أو الضلال أو الظلام أو القيود أو الأغلال إلا اذا كان يريد أن يحث على ذلك ويدعو اليه ، ثم انه لعظم شقائه أكده بقوله « هذى هى الأغلال » لئلا يظن ظان أنه يريد بيان الأغلال أو يكون المحذوف شيئا يصرف ما يفهم ظاهر هذا الاسم ، فدفع بهذا التأكيد هذا الاحتمال وبين بأوضح بيان أن كتابه هو الأغلال التى لا شك فيها كما لو أن ظرفا مملوءاً بالسموم فيكتب عليه عنوانا « هذى هى السموم » فلا يفهم أحد من هذا العنوان أن داخله دواء للسموم وهو مكتوب عليه ذلك ، فهكذا قوله « هذى هى الأغلال » فأنه ينفى أن يكون

المراد بيان إزالة الأغلال . ولو أن كتابا كتب عليه هذا هو التوحيد فليس المراد منه إلا الحث على التوحيد لا نفي التوحيد ، ولهذا لا تكتب على الكتب التي يحض فيها على التوحيد « هذا هو الشرك » ولو كان فيها التحذير من الشرك لأن المقصود هو الحث على التوحيد . نعم لو قيل بيان الشرك ونحو ذلك لكان له وجه كما لو أن هذا قال بيان الأغلال أو كسر الأغلال وأمثال ذلك فقد يكون له وجه أيضا ولكنه لعماية بصره أكده باسم الأشارة والضمير دفعاً لأزالة هذا الأحتمال البعيد . وطرد هذا ان الأنسان الذى عنده ظروف فيها سموم وأدوية وأغلال مرصودة فأنه يكتب عليها هذى هى السموم وهــذى هى الأدوية وهذى هى الأغلال فيعرف أن داخلها هذه المسميات ، وكل عاقل يعرف أن هذه الأشياء صنعت لأمورها الخاصة ، فلو أن رجلا وجد ظرفا مكتوبا عليه هذى هى السموم ثم أخذ مافى داخله فأكله فعطب لكان قد جرّ على نفسه البلاء ، ولو ظن أن داخله دواء للسموم لم يكن معذوراً بل يكون فاسد الفهم والذهن عند جميع العقلاء ، فلا أسخف عقلا وذهنا وفهماً ممن يرى كتابا مكتوبا عليه « هذى هى الأغلال » ، ثم يفتن فيأخذ أغلاله فيجعلها فى عنقه ويديه ثم مع ذلك يظن - لعماية بصيرته وبصره - أن الناس مثله ، فأن هــذا غاية الضلال

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى الأغلال فى مواضع من كتابه العزيز كلها اذا تأملها الأنسان وجد هذا الرجل متصفاً بصفات من استحقوها . منها قوله تعالى ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا فى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فأخبر تعالى عن هؤلاء الكفرة المكذبين بالبعث الكافرين بربهم أن فى أعناقهم أغلالا . ومعلوم أنهم إنما كفروا بآيات ربهم وكذبوا بالبعث لأنهم تصوروا كما تصور هذا الرجل أن الأيمان والأعمال الصالحة ومتابعة الرسول وتصديقه بالبعث أغلال تعوقهم عن التمادى فيما ألفوه من الأغراض والأهواء

والغى والضلال ، فكان هذا الرأى الذى رأوه هو فى الحقيقة الأغلال التى غلوا بها فى أعناقهم ، ولأنهم لشدة كراهتهم للحق وعدم الانقياد اليه كانوا كمن سلسلوا بالأغلال فلا يستطيعون المضى الى ما ينفعهم من الأعمال الصالحة والمتابعه للرسول . وهذا الرجل كفر بالله تعالى حيث رفض دينه ودعا الى رفضه وادعى أن عبادته ملهاة ومصرف خبيث وكذب بالبعث فأنه ذكر (١) ضرر الأيمان بالنعيم الأخروى وأنه عامل من عوامل التأخر لأن المؤمن يأمل النعيم الاخروى فيشغله أمله وعمله لهذا النعيم عن العمل لهذه الحياة ، فيكون أمله عائقا عن التقدم ، وكتابه فى الحث على التقدم ، فهو حث على التكذيب بالبعث كما هو ظاهر

ومنها قوله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ الى قوله ﴿ وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون ﴾ فهؤلاء الكفار الذين قالوا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه انما قالوا ذلك لانهم رأوا كما رأى هذا الرجل وكما رأى جميع الملاحدة والكفرة أن الايمان بالقرآن وبما بين يديه أغلال تمنعهم عن بلوغ ما يريدونه ويرونه نافعا لهم أو غير نافع ، فلهذا قالوا هذا القول وخالفوا القرآن لظنهم انه أغلال ، فجعل الله فى اعناقهم أغلالا حقيقية جزاء لهم على هذه الآراء التى هى الاغلال الحقيقية ، فما فروا منه بنظرهم المطموس ورأيهم المعكوس وقعوا فيه ، ولهذا كانت حالتهم كحالة العصاة المعتدين الذين أوقفوا لدى الحاكم العدل فى معاتبة بعضهم بعضا ومنازعة بعضهم بعضا ، فان الله تعالى يقول بعد قولهم ﴿ لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ : ﴿ ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم

(١) أى فى « المشكلة » فى آخر كتابه

مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له اندادا ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى اعناق الذين كفروا ، هل يجزون الا ما كانوا يعملون ﴾ فتأمل هذه المنازعة والعتاب الشديد بينهم فى هذه الحالة الذليلة تجد الأمر كما ذكر . وما أجمل قوله تعالى آخر الآية ﴿ هل يجزون الا ما كانوا يعملون ﴾ فانهم عملوا أعمالا هى الاغلال الحقيقية خوفا من الأفراح التى تصوروها أغلالا فكانت هذه الاغلال التى عملوها موصلة لهم الى الاغلال الجهنمية التى هى مسبباتها ونتائجها ، وهكذا كل مبطل يجازى من جنس عمله

ومنها قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ الى قوله ﴿ انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ فدل على أن كفرهم بالله ورفض الايمان والأعمال الصالحة هو الاغلال الحقيقية ، فان الله تعالى وصفهم بهذا الوصف الذى هو ضد الايمان والعمل الصالح ، ودل على أن من اتبع الذكر فهو سالم من الأغلال ، ومن رفض الذكر فقد جعل الله فى عنقه أغلالا مستمرة . وهذا الرجل رفض الذكر وعاداه وجعله ملهاة ومصرفا خبيثا ونكبة وشرا وخرافات وأوهاما وأغلالا عائقة عن التقدم فلم يخش الرحمن مطلقا . ومنها قوله تعالى ﴿ ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾ . فأخبر أن هؤلاء الذين يجادلون فى آيات الله مصروفون عن الحق وانهم كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ، ومعلوم أنهم ما فعلوا ذلك الا من اجل أنهم فكروا كما فكر هذا الرجل وأمثاله من الملاحدة والزنادقة فرأوا أن التصديق بالكتاب وبما أرسل الله به رسله واتباع ذلك أغلال تعوقهم عن التقدم والاستمرار فيما يريدونه ويهوونه كما قالوا ﴿ ان نتبع الهدى معك

تتخطف فى أرضنا ﴾ أى نكون ضعفاء أذلاء مغلولين عن مكافحة أعدائنا بالقوة كما يقول أتباعهم ، وهذا الرجل كل كتابه فى هذا الغرض فى التكذيب بالكتاب وما أرسل الله به رسوله والجدال والعناد والمكابرة فى ذلك ، فقد اتصف بهذه الصفات كلها حتى قلب الله قلبه فأخبر عما تصوره فى تعاليم الدين بأنها أغلال فسمى كتابه (هذى هى الأغلال) . فليس هو ببدع من إخوانه الكفار والمنافقين فى هذا التصور الذى تصوره فى الأخلاق الدينية من الأيمان والعمل الصالح ، بل هذه هى سجية كل كافر ومنافق ، فلهذا تبع سلفه فى هذا التصور كما تبع سلفه فى معاداة هذه الأخلاق ، تشابهت قلوبهم ، فقوله (هذى هى الأغلال) نقول « نعم هذى هى الأغلال التى فى عنقك » فهلا راجعت نفسك أو استرشدت من غيرك حتى تسعى أو يسعى لك فى الانفكاك منها ، لكنك رأيت صورتك فى غيرك فشنعت عليه توهماً وضلالا فى تصورك

قبيح من الأنسان ينسى عيوبه ... ويزعم عيباً فى أخيه قد اختفى
فلو كان ذا عقل لما عاب غيره ... وفيه عيوب لو رآها به اكتفى

هذا مع ملاحظة أنه كان قبل ذلك فيما يزعم فى هدوء وراحة وطمأنينة نفس ، فلما انسلخ والعياذ بالله وطفىء نوره غل بهذه الأغلال ، فأخبر عن حالته التى رسمها فى كتابه بما تضمنه هذا الاسم الواضح الصريح . نسأل الله السلامة بمنه تعالى وكرمه

(الكلام على فاتحة كتابه)

اعلم أن هذا الرجل لم يبتدىء كتابه ببسملة ولا حمدلة ، لأن ذلك عنده من القديم الذى يجب هجره ورفضه ، ولا يناسب الابتداء به موضوع كتابه فان موضوعه رفض هذه الأمور الاعتقادية الدينية . وأيضا فان كتابه لا يناسب الرحمة بل يناسب الغضب واللعنة والطرد والابعاد ، فكان من حكمة الله أن صرفه عن الابتداء بها ، وقدذكر جملة فى أول كتابه مستفتحا بها ومعجبا

بها ومستعيضا بها عن البسملة والتحميد والشهادتين والصلاة على النبي ﷺ كما يفعله المسلمون فى مصنفاتهم ، فذكر هذه الجملة عوضا عن ذلك ، ونحن ننقلها برمتها ونجيب عليها بما يبين مقدارها ، ونبين أنه لو لم يكن فى هذا الكتاب من الأدلة على فساده إلا هذه الجملة لكفى ، فكيف وفيه من السخافات الكثيرة مالا يدخل تحت حصر كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى

قال « ان الجهل الاعتقادى قد ضرب على قومنا عقدا فوق عقد ، وان أفضل ما يفعله المرء أن يحل عقدة من هذه العقد . إن للوهم الواحد فى الحياة ثلاث نتائج : اولاها أن يعوق عن السير الى الغاية المنشودة ، وثانيها أن يوجه الى جهة أخرى مضادة وهذا فيه ابعاد عن الغايه وضياع الجهد المبذول سدى ، وثالثها افساد العقل فإن الأوهام تأكل العقول وكل وهم يأخذ من العقل بقدره ولا تزال الأوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزا عن التمييز ويتخلى فى النهاية عن وظيفته . إن مافى هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التى تفقدها أمة فتهوى لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبعية وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة المليون المسلم يستغنى عن هذه الأفكار إذا اريدت له حياة صحيحة طبعية »

وهذه الجملة ابتدأ بها كتابه فى أول ورقة منه ، وقد أعجب بها جدا حتى أنه أعاد بعضها حرفيا فى وسط كتابه ، وهى جملة فاسدة من أولها الى آخرها . فدعواه « أن الجهل الاعتقادى قد ضرب على قومه عقدا فوق عقد ، وأن أفضل ما يفعله المرء أن يحل عقدة من هذه العقد » دعوى فى إمكان كل أحد أن يدعيها من محق ومبطل ، وانما الشأن فى بيان هذا الجهل الاعتقادى المشار اليه وبيان العقد ماهى وبيان الحل الذى يراد به حل هذه العقد ما هو ، فهو يريد بالجهل ما عليه المسلمون من الاعتقادات الدينية ، والعقد عقائدهم الدينية وحلها ازالة ذلك. هذا هو مراده على ما قرره فى كتابه . ومعلوم أن كل رجل يريد أن يتكلم فى مثل هذه الأمور فى امكانه ان يدعى بمثل هذه الدعوى بأن

يسمى ما يضاد رأيه جهلا وما يخالف اعتقاده عُقدا وما يقرره حلاً لها ، والمتدين لا يعسر عليه أن يعكس هذه الدعوى عليه فيقول ما ادّعيته جهلا فهو العلم ، وما ادعيته من الحل فهو العقد بعينه ، وليس قبول قولك بأولى من قبول قولنا لأن ما ذكرته مجرد دعوى تقابل بمثلها ، وما ذكرته من الأدلة فنحن معك فى نقضه بالبراهين الواضحة ، بل كل كتابنا فى حل عقدك التى عقدتها على عقول الأغبياء وضعفاء البصائر . وقوله «ان للوهم الواحد فى الحياة ثلاث نتائج » الى آخره ، فيقال : هذا التقسيم باطل كما ان المعنى الذى يريده فاسد ايضا فان عنى أن للوهم الذى هو تصور الشىء على خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر له ثلاث نتائج فليس بصحيح بل الوهم المطلق تختلف نتائجه كثيرا باختلاف متعلقاته وبواعثه فقد يكون للوهم الواحد نتيجة واحدة ونتيجتان وثلاث وأكثر من ذلك بحسب كثرة متعلقات الوهم وقلتها وضعفه وقوته ، وان عنى بالتقسيم أن الوهم الواحد الذى هو تصور غير الحقيقة بقطع النظر عن متعلقاته له ثلاث نتائج فالتقسيم باطل أيضا ، فالتقسيم المعقول أن يقال ان للوهم الواحد نتيجة ضارة وهى تأثيره فى العقل بالنقص أو الفساد ، فإما أن يعوق عن السير أو يوجه الى جهة أخرى مضادّة ، وذلك بحسب تأثيره فى ضعف العقل وافساده ، فان أضعفه نشأ عنه ضعف السير أو وهنه أو الوقوف وإن أفسده نشأ عنه انقلاب السير الى الجهة الأخرى المضادة أو المنحرفة ، أو يقال بعبارة أخرى ان للوهم الواحد - بالنظر الى كونه وهما محققا - نتيجة مفسدة للعقل او منقصة له ، وهما درجات إما تعطيل السير أو تضعيفه عن الوصول الى الغاية المطلوبة ، واما التوجيه الى الجهة المضادة او الانحراف عن الجهة المطلوبة بحسب قوة الوهم ، فان الأوهام تختلف اختلافا لا ينحصر كما تقدم ، فالتقسيم الذى ذكره مدخول فإن النتيجة الثالثة هى أصل النتيجتين الأولين فهما فرعان لها فكيف تكون قسما ثالثا . ثم ان تخصيص النتيجة الثانية بقوله « وهذا فيه ابعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول سدى » خطأ فى خطأ

فان هذا الضرر شامل للنتائج الثلاث على حسب تقسيمه الفاسد ، بل هو فى النتيجة الثالثة أظهر ، فلو أتى بهذه الجملة بعد الثلاث لتشملها جميعا لأنها تترتب عليها كلها ، او لو أنه خصص كل نتيجة بجملة مثلها لكان أولى على حسب تقسيمه الباطل ، أما تخصيص النتيجة الثانية بهذه الجملة والأتيان بها فى هذا المحل الذى أعجب به ففساد ظاهر فى تركيب العبارة لا سيما فى هذا المقام

وأما بطلانه من جهة المعنى فمن وجهين : أحدهما أنه تناقض فى هذه الدعوى فانه ادعى هنا أن للوهم الواحد ثلاث نتائج ، وحاصلها أنه ضرر بكل حال ، ثم نقض هذه الدعوى فذكر فى صحيفة ٣٨ عن بعض المسيحيين كلاما يتضمن أن الوهم الباطل يفيد ، واستحسن نتيجته مع دعواه بأنه باطل فى حقيقته فقال « ومن غريب الاستدلال الباطل فى حقيقته العجيب فى مرماه أنى قرأت فى كتاب مطبوع لأحد المسيحيين ما خلاصته : إن القول فى ألوهية المسيح وان كان باطلا فى نفسه الا أنه مفيد فى نتيجته ، وذلك أننا اذا أفهمنا الدائنين بالنصرانيه ففهموا أن بشرا فى مظهره ومولده وحياته وكل صفاته استطاع أن يترقى حتى صار إلها يفعل فعل الآلهة ويعلم علمهم ويخضع الأمم والشعوب الى أن تدين له بالألوهية والربوبية وتعبده فقد فتحنا مجالا للتسامى والرقى لا حدّ له يأخذ بالهمم والآمال ، فتتسامى هذا النسامى وتطمح بأبصارها الى هذا المرتقى العظيم ، وفى هذا من الحفز للهمة والأغراء بالوثوب مايعجز عن وصفه الواصفون . ولهذا فان الفرق فى عظمة الآمال واتساع المطامع عظيم بين الامم المسيحية وغيرها » ثم قال « هذا خلاصة قول هذا المدافع عن تأليه المسيح . وليس بخاف مافى هذا القول من محاولة التسامى بالمواهب الأنسانية والحقيقة الأنسانية . وكم من الفرق بين هذه الروح التى أملت هـــذا الكلام وبين تلك الروح التى أملت قولهم : ما للتراب وللعلوم الى آخره . لقـد عظم الفرق فى التوجيه والاتجاه ، فعظم الفرق فى النتيجة والغاية» انتهى . فانظر الى سياقه لهذه الجملة وكلامه بعدها ، مستدلا بذلك على أن الوهم وان كان باطلا فى حقيقته

الا انه مفيد فى نتيجته لان فيه محاولة للتسامى بالمواهب الانسانية . ولا شك أن محاولة التسامى بالمواهب الحقيقية الانسانية نتيجة نافعة مفيدة مطلوبة ، وهذا تصريح بأن الوهم وان كان باطلا فقد تكون نتيجته مفيدة ، فانه صرح بأن هذا الوهم باطل فى حقيقته وصرح بأنه مفيد وبأن فيه محـاولة للتسامى بالمواهب الانسانية والحقيقة الانسانية ، فكيف يدعى أن الوهم يفسد العقل وهنا يدعى أنه مفيد مع أن هذا الوهم كفر صريح ، ثم ان القول الذى حكاه عن المسيحى ـ ان صدق فى حكايته ـ ينقض أصله ، لأن المسيح لم يبلغ هـذه الغاية التى ادعاها ـ لو صحت ـ الا بالعبادة المحضة والتقشف والزهد فى الدنيا ، لم يبلغها بالاخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية ونحوها ، فهذا النقل حجة عليه لا له

الوجه الثانى أن يقال : ما هو الوهم الذى تريده ، فانه يجب عليك بيانه بصراحة وتفصيل ، لأن الوهم الذى نتائجه هذه النتائج السيئة لا بد من ايضاحه ليجتنب ، فان الوهم فى ألسنة الناس اليوم لا ضابط له ، فكل أهل ملة أو بدعة تدعى أن ما اعتقدته هو الحقيقة وما اعتقده مخالفها وهم لا حقيقة له ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عن أهل الكتاب فى قوله تعالى ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ الآية . فمجرد رميك لمخالفك بأن ما هو عليه من الاعتقاد وهم أو أوهام فى امكانه أن يقابلك بمثل دعواك عليه بل فى امكانه إقامة البراهين على أن ما تدعو اليه فى هـذا الكتاب أو أكثره أوهام لا حقيقة لها . ويكفيه برهانا على ذلك أنك معترف فى هذا الكتاب بأن هذه الأفكار لم تسبق اليها وانما هى شىء رأيته وحدك بعقلك وتفكيرك حتى ادعيت أن هذا الرأى قد يكون لسوء حظك ، فاذا كان هـذا شيئا قد اعترفت أنك منفرد به عن جميع الناس ولا سيما وهو فى أصل الدين فالحكم عليك بانك واهم أولى فى جميع العقول السليمة من أن ترمى جميع أهل الملل

بالوهم فيه وخصوصا اذا كنت معترفا بأن هذا الرأى مخالف لما كنت معتقده من قبل مع أنك قد أقمت البراهين على اعتقادك الاول ، وهذا يتضمن أنك لست على بصيرة من أمرك وأنك فى شك منه ، والشك فى الاسباب عندك من أعظم ما يصاب به الانسان فى علمه وعمله ، لان منشأه ضعف اليقين . وقد ختمت كتابك هذا أيضا بأن حاصله مشكلة لم يوجد لها حل الى اليوم ، فكان خلاصة كلامك كله وقوع فى الإشكال باعترافك صريحا ، فتبين بهذا أن ما ذكرته فى هذا الكتاب الشاذ أوهام لا حقيقة لها ، فما ذكرته من نتائج الوهم فانك أنت المتصف به ، وقد ظهرت صفته عليك فى مظهرك وأخلاقك وأقوالك ومجموع أحوالك وأغلالك ، فان هذه الاوهام قد أفسدت عقلك أو أكلته ـ كما تقول ـ حتى أصبح عقلك عاجزا عن التمييز حتى بين المسلم والكافر فانك سويت بينهما صريحا فيما يأتى [١] فصار عقلك متخليا عن وظيفته التى بها يدرك الاشياء على حقائقها ، ولا أبين فى الدلالة على تخلى العقل عن وظيفته من أن يعجز عن تمييز المسلم من الكافر ، فمن خفى عليه هذا فهو كمن خفى عليه التمييز بين الشمس والظلام والسماء والارض والنار والثلج ونحو ذلك من الاشياء المتضادة

وأما قوله « إن ما فى هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التى تفقدها أمة فتهوى لانها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية ، وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة ، ولن يوجد مسلم واحد بين الاربعمائة المليون المسلم يستغنى عن هذه الافكار اذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية »

---

(١) أى فى الأسباب المادية فى تناولها حيث جعل سير الكون وما فيه من الحوادث كالمسألة الرياضية لا يختلف فى حلها المسلم والكافر ، أما العلم والمعرفة فانه يفضل الكافر على المسلم بكثير

فيقال من تأمل هذا الكلام حقيقة التأمل فهم منه ان هـذا الرجل يحاول به وبغيره من الدسائس التى أدخلها فى مطاوى هذا الكتاب وغيره أن يكون بمنزلة الإله ، وأن يحل كتابه هذا محل الكتب السماوية ، فانه وصفه بوصف لا ينطبق إلا عليها ، وهذه الجملة الشنيعة نزعة انفلتت من سجاياه الكامنة العريقة التى يفكر بها أحيانا حين يغلب على شعوره الكبر والاعجاب والزهو والاختيال كقوله :

لو أنصفوا كنتُ المقدم فى الأمر ولم يطلبوا غيرى لدى الحادث النكر
ولم يرغبوا إلا الىّ اذا ابتغوا رشاداً وحزما يعزبان عن الفكر
ولم يذكروا غيرى متى ذكر الذكا ولم يبصروا غيرى لدى غيبة البدر

أضف الى ذلك قوله :

اذا قلت قولا أمن الدهر واستحيا وهاب مقالى أن ينازعه الدربا

واضف الى ذلك قوله أيضا :

متى جريت فكل الناس فى أثرى وان وقفت فما فى الناس من يجرى

وأضف الى ذلك قوله ايضا :

نثرى شفاء للنفوس وللحجى ورديء شعرى معجز الشعراء

وأضف الى ذلك ما كتبه تحت اسم كتابه حيث قال « سيقول مؤرخو الفكر انه بهذا الكتاب بدأت الامم العربية تبصر طريق العقل » الى أمثال هذه الدسائس التى لا تعد ولا تحصى ، فالأمة المحمدية منذ وقت محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى هذا الوقت الذى هو سنة ١٣٦٣ فى ظلمات الجهل والغفلة فالرسول صلى الله عليه وسلم ما أخرج الامة العربية وغيرها من الظلمات الى النور حتى أبصرت طريق العقل ، وجميع القرون المفضلة كذلك لم يبصروا طريق العقل والنور وكذلك من بعدهم حتى جاء بلعام زمانه فصنع هذه الاغلال فأخرج الناس بها من ظلمات الجهل الى أن عرفوا بها طريق العقل ، فياسبحان الله كيف العقول التى تروج عليها مثل هذه السخافات والمخازى التى هى فى غاية الوضوح . فهذه

الجملة التى قالها فى هذا الكتاب متولدة عن هذه الفكرة الخبيثة ونزعة منها ، فالناس على مقتضى هذه الجملة وهذه الابيات لن ينصفوا ويسلكوا طريق القسط والعدالة الا إذا قدّموه فى الامر ولم يطلبوا غيره ولم يرغبوا الا اليه ، فتقديمه وإفراده بالطلب والرغبة فرض لازم على الناس ، لان الإنصاف هو أعظم واجبات الامور لانه هو العدل ، وان لم يفعلوا ذلك فليسوا منصفين وليس لهم من الانصاف نصيب ، فالمنصفون اليوم هم الذين يقدمونه فى الامر الآخذون بحقائقه الازلية الابدية التى لن يستغنى عنها مسلم ، والجائرون هم الذين تركوا ذلك فخالفوه ولم يقبلوا كلامه . وهذا المسلك الذى سلكه هذا الملحد أخبث من المسلك الذين سلكه القاديانى الهندى الذى ادعى النبوة واخرج كتابا من عنده وادعى أن الحق فيه وأنه يجب الاخذ به على كل مسلم فلا شك أن هذا الرجل أشنع حالة منه ، فان هذا الهندى لم يحصر الطلب والرغبة فيه ولم يقدح فى الاديان ويدعى أن خطب الجمعة إحدى النكبات ، بل هو يدعى تعظيم الاديان وتعظيم الانبياء ، ويدعى انه وإن كان نبيا فان نبوّته تابعة لنبوة محمد ﷺ ، أما هذا الملحد فانه هجم على الاديان السماوية هجوما عنيفا لم يسبق له نظير ، وقدح فى الانبياء وجميع أتباعهم ، وادعى أنهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولا كانوا فيها مخلوقات متألقة ، وحصر الحق فى كتابه وجعل النهوض موقوفا على الاخذ به ، والسقوط موقوفا على تركه . وأن كل فرد من افراد المسلمين لن يستغنى عنه ، وطلب لنفسه مع ذلك التقديم فى كل أمر ، وأن تصرف اليه الرغبات والطلبات . فاين هذا الملحد من القاديانى فى الكفر وسوء الاعتقاد !

عمد هذا المختال الدجال فأخرج للناس هذا الكتاب الهزيل بدلا عن التنزيل ، فادعى فى فاتحته قبل كل شىء عوضا عن ذكر الله تعالى بالبسملة والتحميد والشهادة أن ما فى هذا الكتاب هو من الحقائق الازلية الابدية التى تفقدها أمة فتهوى وتأخذ بها أمة فتنهض ، ولن يستغنى عنه مسلم واحد

بين الاربعمائة المليون المسلم . ومعلوم أن هذا الوصف الذى وصف به كتابه لا ينطبق إلا على القرآن العزيز ، قال تعالى ﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدوّ فأما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ ولا شك أن الذى لا يضل ولا يشقى هو الذى نهض النهوض الصحيح ، والذى كانت معيشته ضنكا هو الذى ضل وهوى . وحسبك دليلا على فساد هذه الدعوى المرذولة أنه ذكر فى نحو خمس صحائف فى هذا الكتاب ما جرى له مع وزارة التموين المصرية وأقذع فى ثلبها ونقدها لما لم تساعده على بيع ورق ، فهل نقده وزارة التموين المصرية من الحقائق الأزلية الأبدية التى تفقدها الأمة فتهوى وتأخذ بها أمة فتنهض ولن يستغنى عنها مسلم واحد بين الاربعمائة المليون المسلم اذا أريدت له حياة صحيحة ، وكذلك ما ذكره من الأشياء الكثيرة أمثال هذه الرعونات الساقطة . فالحقائق الازلية الأبدية لا تنطبق إلا على الكتب السماوية ، فإنها هى الحقائق الازلية لانها ثابتة فى نفس الامر ليس لأحد أن يغيرها أو يبدّل فيها . فكونها أزلية يقتضى أن تكون قديمة النوع ، والأبدية هى الدائمة الخالدة التى لا يدخلها نسخ ولا تبديل ولا تعديل ، والذى يدخله هذا بعد انقضاء الوحى لا يسمى أبديا ككلام المخلوقين فانه ليس بازلى ولا أبدى وليس فى المسلمين بل ولا فى العقلاء من يتجاسر على أن يصف كتابه بهذا الوصف ، لأن الكلام الذى هو الأزلى الابدى المعلق على الأخذ به النهوض وتركه السقوط هو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وتصريحه بانه لا يوجد مسلم واحد يستغنى عن هذه الافكار وصف ثالث مؤكد لما قبله فى وجوب التمسك والاعتصام به . ولهذا قال : إذا اريدت له حياة صحيحة طبيعية ومعلوم أن كل فرد من الناس إنما يريد الحياة الصحيحة لا السقيمة ، ولكن كيف تكون صحيحة وهى طبيعية لا دينية ، فان هذا مبنى على وجود الحياة الصحيحة بدون أخلاق دينية ، وهذا لا يمكن . قال تعالى ﴿ من

عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ﴾ الآية . ثم على قوله هذا انه يجب على المسلمين ذكرهم وأنثاهم صغيرهم وكبيرهم من كل مكلف أن يحفظوا هذا الكتاب ويدرسوه ويطبعوه وينشروه ، فهو بمنزلة القرآن العظيم ، بل هو أولى ، لأنه قد يقول كما قال أمثاله من الملاحدة انه دخله التأويل واختلاف المفسرين ، أما هذا الكتاب الجديد ففيه الحقائق الازلية الأبدية وصاحبه حيّ سويّ معروف مكانه ففى الامكان مراجعته فى ما أشكل من المعانى والحقائق . وهذا صريح كلامه كما هو ظاهر ، فيجب أن نعرف أن سبب تأخر المسلمين كلهم فى هذه العصور هو عدم وجود هذا الكتاب عندهم ، فلقد حرم المسلمون منذ ثلاثة عشر قرنا من وجود هذا الكتاب لديهم ولم يتمتعوا برؤيته ويسرحوا أبصارهم وبصائرهم فى صفحاته وحقائقه

مضت هذه القرون الطويلة كلها وهى محرومة من ثمرات هذا الكتاب وقطوفه الدانية وأنهاره المتدفقة ، فلذلك هووا وأصيبوا بهذا الانحدار والدمار العام ، وصاروا على هذه الحالة المزرية من الشقاء والجهل والعناء ، فجميع ما أصاب المسلمين من التأخر والانحطاط فى القرون الماضية الى اليوم هو من أجل شيء واحد ، هذا الشيء الواحد هو عدم وجود هذا الرجل فيهم لارشادهم أو عدم وجود حقائقه بين أيديهم ليأخذوا بما فيها من الحقائق الازلية الابدية التى لن يستغنى عنها مسلم . فالطريقة الوحيدة اذن لأنقاذ المسلمين من هذه الورطات وتخليصهم من شباك العدوّ أمر واحد هو أن يأخذوا بهذه الحقائق وأن يعتصموا بها جميعا ولا يتفرقوا ، فاذا حصل هذا حصل النهوض التام والاخلاص الكامل ، وان أعرضوا عن هذا هووا فى دركات الويل والثبور فلا خلاص ولا نجاة ولا مفر ولا محيد عن ما هم فيه ، لأنه علق النهوض على الأخذ بما فى كتابه ، والسقوط على ترك ما فيه . وليس العجب ممن كتب هذه الآراء الجنونية ، فانها كتبت حين كتبت بمداد الأغراض والأهواء والشهوات

انما العجب ممن يدعى الاسلام أو المعرفه ثم تخفى عليه هذه الترّهات المخزية التى لا يقولها الا معتوه ، أو من يرى الناس كالمعتوهين لا يعلمون شيئا فيحقرهم ويلبس عليهم فيريد أن يؤمنوا به فيعظموه ويعزروه ويوقروه ويقدموه بل ويعبدوه . فليتنبه المسلمون ولينظروا ماذا يراد بهم وبدينهم من هذا البلاء المبين فى هذا الكتاب الشنيع ، ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حى عن بينة ، وان الله لسميع عليم

ولعل من أصيب بداء المعاكسة والجهالة العمياء يستبعد ويستغرب ما أجبنا به على كلامه هذا ، لشدة شناعته وفظاعته ، ويزعم أن ذلك ليس بلازم من قوله . فاذا اعترض معترض بهذا قلنا : يظهر الجواب عن هذا الاعتراض بثلاثه أمور : أحدها أنه انما يستغرب ما ذكره فيمن كان معروفا بخلاف ما ذكر عنه ، إما بديانته وتقواه ، وإما بوجود كلام يكذب ذلك تكذيبا صريحا غير متناقض ، أو يكون كلامه فى هذا مشتبها ليس صريحا ، وكل هذه الأمور منتفية عنه ، فان من أحاط علما بما تضمنه هذا الكتاب من صرائح الكفر وسب الأديان السماوية وأهلها وبهتهم والتهكم والاستهزاء والسخرية بهم وعرف مغزاه ومرماه فى ذلك فانه لا يستغرب هذا ولا يهولنه ما قلناه ويكفى فى ذلك أن نحيل القارىء الى ما قاله هذا الملحد على أبيات الزمخشرى « العلم للرحمن جل جلاله » الى آخره كيف ناقشه تلك المناقشة وألزمه بلوازم فظيعة مستبعدة ، وسيأتى كلامه ، ونحن ننقل لك شيئا قليلا من فظائعه الكثيرة الآتية وسيأتى جوابها المفصل فى مواضعها لتعرف جرأته على الدين وأهله وإلزامهم ما لم يقولوه ولا له أصل فى كلامهم بل يكفرون من ادعاه . فمن ذلك قوله ص ٣٢٥ : « ومن الواجب أن نعرف سبب هذا الاستسلام والضعف الفكرى لدى هؤلاء المتدينين . والذى يظهر لنا كثيرا أن من أسبابه أنهم ينكرون أن يكون بين أحداث هذا الوجود ترابط عقلى وتعليل ثابت ، بل يرون أن الوجود كله بما فيه من حوادث وأحداث محكوم بقوة مجنونة أو هى كالمجنونة

فى أفعالها وتصرفاتها ، ولهذا فلا قوانين ولا ضوابط المعجزات والخوارق فكل شىء جائز وكل شىء مستحيل » انتهى . فانظر الى هــذا البهت العظيم للمتدينين بأنهم يرون أن هذا العالم محكوم بقوة مجنونة أو كالمجنونة . فهل فى الدنيا مذهب معروف من مذاهب المتدينين يوجب هذا أو يعتقده أو يتفوه به . ففى أى كتاب وجده ومن هو الذى أشار اليه . وأدنى رجل من المسلمين من عالم وعامى وبليد وعجوز لا يعلم أن الله عليم حكيم فى صنعه وحكمه وقضائه . ثم ما هو الاعتقاد الذى يلزم منه هذا الذى ادعاه حتى يحكم على المتدينين بهذا الحكم الخبيث الجائر المزور الذى لا أساس له البتة ، بل هم يكفرون من يدعيه . ومن ذلك قوله ص ٣١٦ : « وجهــة أخرى هى أن المتدينين عجزوا عن أن يتصوروا إلههم تصورا يسمو كثيرا على ما يعرفون ويشاهدون من القادرين الآخرين ، فالله فى تقديرهم وتصويرهم — وان اختلفوا فى هذا وتخالفوا كثيرا — لا يعدو أن يكون فى أفعاله وقضائه وقضاياه وحكمه على الآخرين وعلى سائر عبيده ورعاياه بشرا مقتدرا كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم ، ولهذا فانه — أى الاله — يغضب عندهم ويرضى وينتقم ويثيب ويجازى ويعامل على مقتضى انفعالاته وعواطفه ويلجأ الى المحسوبية والى الاعطاء والمنع على الشفاعة ، ويتحكم فى هذا العالم كله على ما تشير به هذه الانفعالات والتطورات عنده ، وعلى مقتضى تطورها وتغيرها ، لا على مقتضى نواميس شاملة ثابتة . فاذا بلغوا هذا المكان من الايمان هبوا يلتمسون رضا هذا الاله على ما تصوروا ، وهبوا يتملقونه وينافقونه ويصنعون ما يحسبون أنه ينيلهم رضاه وعطفه » انتهى كلامه ، وهو سب صريح وقدح عظيم فى الله تعالى وفى أديانه وفى الدائنين بها فيا صاحب الأغلال غلت يداك ، من الذى تصوّر هذا فى ربه من المسلمين ، وفى أى دين وفى أى مذهب معتبر وجدت هذا حتى تحكم وتعمم فتدعى أن دين المتدينين ولو اختلفوا (١) لا يعدو أن يكون الله فى تصورهم بشرا مقتدرا

(١) قوله « ولو اختلفوا » صريح فى أن جميع المتدينين على هذا الاعتقاد

لا يسمو كثيراً على ما يعرفون ، وأنه يلجأ الى المحسوبية ، وأن هذه صفاته على ما ادعيته ووصفته . وانت قد قررت فى كتابك الصراع وغيره -صرعك الله تعالى- أن اعتقاد المسلمين فى الله تعالى وصفاته أنه ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، والمسلمون وان ذكروا أنه يغضب ويرضى وينتقم على ما ورد فى النصوص فهم لا يقولون ان رضاه وغضبه وسائر صفاته كسائر صفات المخلوقين ، بل صفاته كذاته ، كما أن ذاته موجودة وليست تشبه ذوات المخلوقين فكذلك صفاته لا تشبه صفات خلقه . فالقول فى الصفات كالقول فى الذات . والآن لما انقلبت على عقبك انقلبت الى هذا البهت والفجور ، ولعلك كنت تعتقد هذا باطنا فى ربك فيما سبق فكان سببا فى ردتك وانتكاسك ، وإلا فأى ملة أو نحلة معروفة هذا دينها قاتلك الله ، وهل هذا إلا من أعظم الجرءة على الله تعالى وعلى دينه وعباده المؤمنين . وكلامه على هذا النحو فى الأديان ومن دان بها كثير جدا يأتى الكلام عليه فى مواضعه ثم انه لم يذكر الملاحدة ولا أنظمتهم ولا أفعالهم وأخلاقهم الخبيثة بشىء يعابون به ، بل حث على الأخذ بآرائهم واقتفاء آثارهم كما يأتى ، فمن يتجاسر على هذه الخبائث الظاهرة والعظائم الكفرية كيف يستغرب منه ما ذكرنا

(الأمر الثانى) أن هذا الذى ذكرنا هو صريح كلامه ، ومدلوله الظاهر الواضح منه ليس كله من لوازمه ، أفليس أنه قال بصراحة إن ما فى هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية ، ومعلوم أنه يريد ما تضمنه كتابه من الأمور التى يدعو اليها ، وقد كان معلوما حكم الحقائق الأزلية الأبدية ووجوب الأخذ بها واتباعها واعتمادها ولا سيما اذا صرح بان تركها يوجب السقوط وأن الأخذ بها يوجب النهوض ، فانه قال بصراحة « تفقدها أمة فتهوى ، وتأخذ بها أمة فتنهض » ومعلوم أن النهوض من أوجب ما يطلبه الانسان ، والانحطاط من أوجب ما يحذره الانسان ويحذر أسبابه ، وقد جعل أسبابه عدم الأخذ بكتابه ، أو ليس أنه قال بصراحة «ولن يوجد مسلم واحد

من الأربعمائة المليون المسلم يستغنى عن هـــذه الافكار اذا أريدت له حياة صحيحة » فهـذا تصريح بأن الحقائق هى هـذه الافكار التى فكرها ورصدها فى هـذا الـكتاب ، فهو تصريح أيضا بان كل فرد من أفراد المسلمين مفتقر الى هذا الـكتاب (١) ومعرفة ما فيه وحفظه والعمل به ، لأن كل مسلم يجب عليه إرادة الحياة الصحيحة لا الحياة المريضة السقيمة . ولو أن هـذا المختال ظفر بمثل هـذه التصريحات لأحد علماء الدين لولد عليها من الالزامات والمسائل الشنيعة مالا يمكن حصره ، فانه يولد إلزامات على أوهام لا حقيقة لها يخترعها هو بنفسه مع علمه أن العلماء مصرحون بنفيها ، فكيف لو وجد لأحدهم مثل هذا القول ، فلقد ألزم المسلمين بأنهم اعتقدوا أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، حتى راح يجعل لذلك بحثا خاصا ويولد عليه من المسائل والالزامات المنكرة مالا يعدّ ولا يحصى ، وادعى أن الناس على هذا الاعتقاد مع أنه عجز عن أن ينسب هذا القول الى شخص معين ، ومـع علمه بأن أدنى كتـاب من كتب المسلمين يتناوله الانسان فيفتحه يجده مملوءاً بمدح العلم وذم الجهل ، ثم مع هذا أقدم على بهتهم ورميهم بأنهم يدعون أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، وولد على ذلك من الالزامات ما هو أبعد شيء عن معتقدهم بمجرد قول عزاه الى مجهول لا يعرف . ولقد شنع على الزمخشرى والرازى وغيرهما ورماهم بالفظائع والجرائم الـكبرى حين قال الزمخشرى :

العـــلم للرحمن جل جـلاله   وسواه فى غمراته يتقمقم الخ

وادعى عليه بأنه رمى البشرية بالدواهى والعظائم ، ثم ناقشه أعظم المناقشة كما يأتى ، وكل ذى مسكة من عقل يعلم الفرق بين أبيات أولئك وأبيات هـذا الملحد المتقدمة ، فكيف يلزمهم باشياء لعلها لم تكن تخطر على بالهم وينسى ما فى أبياته من صرائح الـكفر ودعوى الألوهية ، وما فى كلامه من مـدح كتابه

(١) قد صرح فى بعض مقالاته بذلك أى بوجوب الأخذ به ودراسته والاعتماد عليه

وتنزيله منزلة القرآن العزيز فى وجوب الأخذ به والتحذير من تركه ، وهذا ظاهر لا خفاء به

(الامر الثالث) أنه لو سلم على فرض التنزّل أن ما ذكرناه من لازم قوله لا من صريحه فلا يشك من له أدنى علم أن هذا اللازم هو مقتضى كلامه وأنه إن لم يكن صريحه فهو لازم له لزوما بيناً وأن إلزاماته التى ادّعاها على المسلمين أبعد منه ـ لو فرض أنها لازمة ـ فهو إما أن يتنازل عن الاحتجاج بلازم القول مطلقا فينقض تشنيعه الذى شنع به على المتدينين كلهم ، وإما أن يلتزم بالاحتجاج باللازم الذى ادعاه مع بعده واستحالته ، فيختنق بغله ، ويعامل بما عامل به غيره ، على فرض أن يكون ما ذكرناه من لازم قوله ، وإلا فقد ثبت ثبوتا كالشمس أنه صريحه ومقتضاه كما سبق

أما تعليل إفادة كتابه وحقائقه بأنه موافق للطبيعة الكاملة فمن أخذ به فقد قابل طبيعته الكاملة بطبيعة كاملة ، ومن فقده فقد حقيقة من حقائق طبيعته ، فهذا التعليل هو العلة التى أصابت فؤاده ، وهو مبنى على ضلالات ومقدمات كلها باطلة : أحدها أن الواجب على كل من أراد النهوض أن يقابل طبيعته بما يوافقها ، ولا يجوز له أن يعاكس طبيعته بل ينسجم معها انسجاما كاملا فى كل ما تريده وتصبو اليه [1] وهذا فى غاية الفساد كما هو فى غاية الضلال ، وكما هو فى غاية الاستحالة . فان من دعا الناس الى اتباع أهوائهم أو طباعهم مطلقا فقد ضل ضلالا بعيدا ، كما أنه مستحيل الوقوع فى كل فرد وشعب ، فانه يوقع فى الفوضى والهلاك ، فان شهوات النفوس وطبائعها لا تنضبط بحدود وقيود . الثانية أن طبائع جنس الانسان كلها متحدة فطبيعة الكافر كطبيعة المسلم لا فرق بينهما فى شىء ، وهذا فاسد أيضا كما هو معلوم . الثالثة أن جنس الانسان من

---

(١) هذا مع أنه قرر أن طبيعة الانسان هى الشرّ والخبث والظلم ، فعلى هذا يقابل طبيعته بالشر والخبث والظلم

حيث النظر العام ليس له إلا طبيعة واحدة ، وهذا فاسد أيضا فان الانسان له طبيعتان أو بعبارة أخرى له نفسان : عقليـة فطرية عاليـة وثابة تطلب معالى الامور وشريفها وتكره سفاسفها ورذائلهـا ، ونفس أو طبيعة بهيمية جشعة مكتسبة وهى عكس الاولى تحب الغى والفساد وقضـاء الشهوات النفسانية ، وهذا أمر موجود فى كل إنسان يجـده من نفسه ، فأن الانسان له دافعـان : دافع حب للمكارم ومعالى الامور ، ودافع عكسه . ولهذا كان كثير من الناس يستترون من فعل المعاصى وهم يفعلونها ويعيبون من يفعلها ويعلمون قبحهـا ويكرهون اطلاع الناس عليهم فى ذلك ، ولا شك أن هذا من أثر الدافعين المذكورين ، وقد ورد فى الشرع المطهر مـــدح النفس المطمئنة وذم النفس الأمارة ، كما ورد ذم متابعة الهوى ومدح نهى النفس عن الهوى ، وهذا ظاهر

اذا علمت هذا فاعلم أن الاديان وما فيها من المواعظ والتقييدات موافقة للطبيعة الاولى أى الفطرة الصحيحة الكامنة فى النفس ، فتعاليـم الأديان السماوية كلها تلهبها وتثيرها وتمدها بالحياة ، وهى معاكسـة للنفس أو الطبيعة الثانية لانها تعقلها وتمنعها من الانطلاق فى ميدان أغراضها ، فانها سفلية تنحدر فى مطالبها السفلية النفسانية فتفسد السجايا الطيبة الفطرية . وهذا الرجل يريد بالطبيعة هذه الثانية ، فانه شنّ الغارة على الخطب والخطباء ، وادعى أن الناس يخدّرون بها ، ولم يلاحظ أن الناس يشجعون بها بالنظر الى موافقتها للطبيعة الأولى التى هى الفطرة فان الانسان خلق حنيفيا مستعداً لقبول الدين باستعداد فطرته كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ﴾ فأخبر أن فطرته التى فطر الناس عليها هى الحنيفية ، وهى إقامة الوجه للدين ، أى الاخلاص الذى هو التوحيـد ، وذكر أن هذا هو الدين القيم ، كما قال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح فى حديث قدسى « إنى خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » فالأديان السماوية بما فيها من المواعظ والتقييدات موافقة للفطرة ـ وهى الطبيعة

عنده ـ وقد صرح الائمة بأن الأديان الصحيحة موافقة للفطرة المستقيمة ، بل قد صرح بذلك غيرهم من أهل الأديان الأخرى قالوا : ان الشرائع السماوية قد سارت على المبدأ الطبيعى السليق. فقد علمت أن هذا التعليل العليل المورث العلل القاتلة مبنى على هذه المقدمات والضلالات الباطلة وان الصحيح خلاف ما ادّعاه . ثم من أين له أن كتابه موافق للطبيعة الكاملة ، بل هو معاكس لها فان هذا لا يعلم الا بالوحى ، أو على فرض التنزل بالتجربة ، وهى لم توجد ولن توجد ، فالدعوى ساقطة على كل احتمال وتقدير . فقد ظهر لك بالأدلة الواضحة بطلان فاتحة كتابه التى أعجب بها مع العلم بأنها هى امثل كلام قرره فى كتابه ولذلك صدّره بها ، قال الشاعر :

أحسن ما فى سالم وجهه ووجهه الغاية فى القبح

ومما ينبغى ملاحظته هنا أن نعرف الأسباب التى رغبت بعض الجهلاء والاشقياء فى هذه الأغلال مع ما فيها من هذه الفضائح الظاهرة والضلال ، ذلك أن صاحبه لما كفر بعد اسلامه ، وهم بما لم ينل ولن ينال أبدا ، أقام دعايته هذه الخبيثة على اساس الترغيب فى الشهوات العاجلة ، وأنه سبب فى حصول المطالب الكبيرة المؤملة ، وهذا هو مسلك ملاحدة العصر الذين خدعوا الاغبياء وأفسدوا عليهم عقولهم ، فان النفس البسيطة الطموح الجاهلة تكون دائما بين أملين : أمل التمتع بالشهوة العاجلة بانغماس وراحة وأمل الحصول على الأمانى الطويلة العريضة المتسلسلة ، فهى دائما تسرع فى الاندفاع الى ما يلائم غرضها العاجل ويحقق آمالها العريضة المتجددة . لهذا فاننا نجد بعض الجماهير المبتلين بالمروق بالأخلاق والدين يندفعون الى كل من يغمسهم فى الشهوات العاجلة ، ويعدهم ويمنيهم بالمستحيلات الآجلة ، فيضرب لهم على وتر الآمال الكاذبة التى يتمنونها ويغنى لهم بأناشيد الشهوات التى يحصلونها . فاذا رأينا بعضا من هذه الجماهير الجاهلة مسرعة فى الطلب الى ما يلائم غرضها وأملها معتقدة أن تظفر بكل ما تريد عاجلا ، وأن تحصل على كل ما تأمله

آجلا بهذه الوعود الرخيصة ، متعلقة بهذه الخيوط العنكبوتية التى نسجها وسجلها هذا المغرور فى هذا الكتاب الهزيل ، ووصفها بما يستحيل وجوده - فانه معدود أحد الناعقين للجماهير الضالة ، وليس هو بأول أفاك أو دجال نعق وهذا بهذه الهذيانات الباردة ، حتى انخدع له بعض البسطاء المغفلين فدفعهم فى مهامه التلف ، حاسبين أن سرابه ماء يبل أكبادهم ويطفىء حرارتها المتوهجة ، وما هى إلا الهلاك المحتوم - يجب أن لا نعد شيوع هذه الاقاويل المزورة أو الفتنة بها دليلا على صحتها ، أو أن لها أدنى قيمة علمية أو عقلية ، بل يجب أن نعد أن صاحب هذه الآراء المزيفة عرف ناحية الضعف والغباء فى هؤلاء الجهلاء الأشقياء فأراد أن يركز دعايته الجوفاء فيه لاستثمار أغراضه وآماله منها ، وأن نعد هذه الأقاويل الفاسدة وافقت أمانى النفس الفارغة الجاهلة المنحطة المؤملة حصول حاجاتها من غير أبوابها الطبيعية بل من الأبواب المفتوحة بمفاتيح الوعود الكاذبة الخداعة

ليس من شك فى أن هؤلاء المصابين بالانهيار فى أديانهم وعقولهم هم أسرع الناس إجابة لهذا التلويح بهذه الدعايات المزيفة التى توافق شهواتهم ، ولا سيما اذا اقترن بذلك أن فى هذه الدعايات وجود كل ما يؤملونه ويتمنونه ، فيجتمع لهم داعى الشهوة الحاضرة وداعى الأمل العريض الذى يتلهفون لطلبه ويتعطشون اليه ، ولهذا كان هذا الرجل مؤسسا دعايته على هذين الغرضين المذكورين ، فوجد هؤلاء الاغبياء والسفهاء والحمقى والنوكى فيه مجالا واسعا لما يريدونه ويؤملونه ، فكانت هذه الطبقات المتطرفة مفتونة فيه لأنه صادف أغراضها وأهواءها وآمالها

لقد عرف أن هناك بعضا من هذا الضرب الذى ضرب عليه البؤس والشقاء الطويل الثقيل من جرّاء ما اجترحه من تمرّده وتطرفه فى دينه ومحاولة التملص والتخلص منه حتى أصابه من أجل ذلك من الوباء والبلاء والقروح والجروح والأحوال والاهوال المذهلة المزعجة ما حطه من مقامه الأعلى الى حضيضه الأدنى

حتى صار أسيرا لبلائه ونعالا لاعدائه ، فكلما أراد النهوض تعـــثر وتعذر وسقط لوجهه لما به من هذه الادواء الفظيعة

يريد هؤلاء الأغبياء المنكودون أن يعززوا هذا الكتاب الوضيع ، وأن يجعلوا أغلاله فى أعناقهم ، وأن يضعوا سمومه ووباءه فى طعمة المعافين منها .
يريد هؤلاء الاشقياء المضروبون بهذه الذلة والمسكنة أن يضعوا سموم هـذا الكتاب على قروحهم وجروحهم بل وعلى أسماعهم وأبصارهم ليستشفوا به من أسقامهم وأمراضهم فيذوقوا بذلك عذابا فوق العذاب ، وكلما أرادوا أن يخرجوا من غم أعيدوا فيه ، لا شك أنهم بهذا يريدون الموت الأبدى ، وقد حق ذلك عليهم ولا محالة كما فعل بأشياعهم من قبل ، انهم كانوا فى شك مريب

الكلام على المبحث الاول

عنوانه فى كتابه : (قبل البدء)

وحاصل هذا المبحث أنه ادعى فيه أن قضية تأخر المسلمين أهملت وأهمل التفكير فيها ، وأنه وحده فكر فيها تفكيراً لم يسبق اليه ، وهو ما قرره فى هذا الكتاب ، وذكر فيه أنه عرف العوائق التى منعت المسلمين من التقدم ، وعرف كيفية علاجها ، وعرف الطريق التى بها يمكنهم أن يتقدموا على غيرهم وهو بمنزلة المقدمة لكتابه فقال : (قبل البدء)

« لست أعلم قضية أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها - بينما هى أولى القضايا بالتفكير والعناية والبحث - من هذه القضية . وذلك أن جموعا بشرية هائلة قيل إن أعدادها تبلغ أربعمائة مليون منتشرة فى سهول فسيحة واسعة من أفريقيا وآسيا وأوربا ايضا تدين بدين مبادئه السليمة الأولى هى أسمى ما يتصوره العقل البشرى من القوة والحث على مواصلة السير فى سبيل المجد والكمال ، عاجزة منذ مئات السنين عن اللحاق بالركب الانسانى المغذ الخطا الى هذه الحياة التى تتفجر كل يوم عن ينبوع دفاق بالمثل الانسانية العلمية التى من ملكها فقد ملك ناصية الوجود واحتكم فيه وفيمن فيه من حيوان وجماد ونبات»

قلت : إن عنيت بأن قضية المسلمين أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها أن علماء المسلمين لم يفكروا فيها ويعتنوا بها كتفكيرك وعنايتك التى سجلتها فى أغلالك هذه فنعم ، وقد صانهم الله عن ذلك ، وهم أجل وأكبر من أن يرضوا لأنفسهم ودينهم ما رضيته لنفسك ودينك من هذه المخازى الممقوتة والآراء الخبيثة ، وليتك أهملتها وأهملت التفكير فيها والعناية بها ولم تتعرض لها بهذا التعرض الذى زادها ظلمة واستغلاقا وتعقيدا . وإن عنيت أن علماء المسلمين لم يفكروا فيها ويعتنوا بها التفكير المجدى والعناية الصحيحة النافعة فنقول : من أين لك أنهم لم يفكروا فيها ولم يعتنوا بها ، وهذه كتبهم مشهورة مشهودة ،

وقضاياهم الهامة مدونة معروفة ، وكونك لم تعلم بذلك - لو صدقت - لا يدل على عدم وقوعه ، فان عدم العلم ليس علما بالعدم ، فلا يجوز لك الحكم على ما لم تعلمه ، وقد قام فى هذه القضية من العلماء العظماء من يعسر حصرهم ، فهذه قضية الامام أحمد ومن فى عصره من الأئمة وعلماء الأمة لما حاول أعداء الاسلام من الجهمية - وغيرهم ممن أسسوا مبادىء الالحاد فى الأمة - قلب أصوله وتغييرها عن أوضاعها الشرعية فقاموا فى ذلك قياما عظيما مبرورا مشكورا ، ثم قام بعد هؤلاء من أئمة الدين امثالهم كشيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم والذهبي حين أظلم الجو من الشبهات والشكوك والأوهام التى اختلقها الزنادقة والمنافقون من الجهمية والرافضه ، وفشا الالحاد ، وشغف بهذه الاوهام التى يدعونها حقائق علماء الكلام ، وادعوها تجديدا وتوفيقا بين الدين والفلسفة . ثم قام بعد هؤلاء حين كثرت الخرافات الوثنية والعقائد الشركية شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه فرفعوا راية الدين الصحيح حتى اتضح ذلك واستبان لمن أراد الله هدايته وعرف الحق معرفة واضحة كالشمس . وقد خلف هؤلاء العلماء فى موضوع هذه القضية من الميراث العلمى النافع ما هو كفيل باعادة مجدهم واسترداده بأقرب الوسائل وأسهلها ، وكتبهم فى هذا الموضوع كثيرة شهيرة . وهذا كتاب (جمعية أم القرى) للسيد عبد الرحمن الكواكبى كله فى موضوع هذه القضية ، وفيه من العناية بها والتفكير فيها ما فيه مقتنع فى الجملة ، وهو موجود بكثرة ، فكيف يقال ان قضية المسلمين أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها ، وآلاف الكتب المتنوعة بل والمجلات والجرائد طافحة بالتفكير فيها والعناية بها ، ولكن انما أردت المعنى الاول وهو أنه لم يفكر فيها أحد كتفكيرك وعنايتك ، وقصدك من ذلك توجيه النظر الى كتابك وترك ما سواه كما أشرت الى ذلك فى دعواك أنه حقائق أزلية أبدية تتركها أمة فتهوى وتأخذ بها أمة فتنهض . وقد ذكرت فى نبذتك الهزيله (كيف ذل المسلمون) أن الناس قد كتبوا فى هذه القضية وبحثوا فيها كثيرا ،

وهذا يناقض دعواك هنا إلا على قصدك الذى أشرنا اليه وهو ساقط بلا ريب

ودعواه أن هذا العدد يدين بدين الاسلام دعوى تأتى مناقشته عليها فى آخر الكتاب عند دعواه أن المتدينين على اختلاف أجناسهم عجزوا أن يهبوا الحياة شيئا جديداً الخ . ودعواه أن هذه الجموع عاجزة منذ مئات السنين الخ يقال له ماذا تريد بدعواك انها عاجزة عن التقدم واللحاق بالركب الانسانى ، أتريد أنها عاجزة عن التقدم على غيرها فى الصناعات ونحوها ، أم تريد أنها عاجزة عن مباراة هذه الدول فيما وصلت اليه فى جميع تقدمها . فيقال نحن هنا لا نتكلم فى مسئلة عجزها عن اللحاق ، إنما نتكلم معك فى الأسباب التى أوجبت هذا العجز الذين تدعيه ، فالعجز عن الحصول على الشىء إما أن يكون لعلل ملازمة لنفس العاجز كالجمود والفتور والكسل ونحوه ، وإما أن يكون لعوارض وعلل خارجية كالاشتغال بمقاومة ضد أو جنس ، فان أردت المعنى الأول فغير مسلم على هذا الاطلاق ، بل فيه مناقشة تفهم مما يأتى . وإن أردت الثانى فصحيح ، لكن لا يفيدك شيئا ، فأكثر المسلمين اشتغلوا عن أسباب النهوض بالمصادمات الداخلية الكثيرة المتنوعة ، فانها صدمتهم عن التقدم وصدتهم عن استعمال ما يجب من القيام ، وكلا الأمرين منشؤهما ضعف التمسك بالدين الصحيح على ما ينبغى كما تقدم تفصيله . ودعواه أن هذه المثل الانسانية العلمية من ملكها فقد ملك ناصية الوجود واحتكم فيه وبمن فيه دعوى أقل ما يقال فى بطلانها أنها مخالفة للدين والعقل والحس ، فان ناصية الوجود بيد خالقه ومدبره الذى له ملك السموات والأرض كما قال تعالى ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ وهذا المسكين المغرور جعل من عرف شيئا تافها من هذه الصناعات التى كان أكثرها وبالا على أهلها لما تعلقوا عليها فقد ملك ناصية الوجود من حيوان وجماد ونبات ، مع أنه لم يملك ناصية نفسه فيدبرها على كل ما يشاء ويريد ، فكيف اذن يكون تدبير الله لملكه وعباده إذا كانت ناصية الوجود بيد غيره يعمل به كيف شاء ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

فصل

ثم قال «وقد غُلبت هذه الجموع على أمرها فى كل معنى من معانيها وضرب من ضروب حياتها ، فهى من الناحيــة السياسية خاضعة بل خاضع ما تحت أقدامها إما بالعقل وإما بالقوة - كما يقول المناطقة - للسلطان الأجنبى ، ومن الناحية العلمية عاجزة عن أن تقدم للتراث العلمى شيئا يمكن أن ينسب اليها ، وعاجزة عن أن تستغنى عن الآخرين فى أمر من أمورها الدقيقه والجليلة . وهى من الناحية الصناعية عاجزة عن ايجاد ملاعق لأفواهها وإبر لأثوابهـا ، ومن الناحية الزراعية عاجزة - لولا الآخرون - عن الانتفاع الصحيح بغزارة مياهها وخصب أراضها . أما من الناحية التجارية فان أكبر عاصمة من عواصمها عاجزة عن أن يكون لأحـد أبنائها متجر واحد يضارع أحـد متاجر هؤلاء الغزاة أو يغنى عنه ، وهكذا هى فى كل وجه من وجوه حياتهـا وغرض من أغراض وجودهـا »

قلت : كل هذه الأمور التى ذكرها ونسبها الى جملة المسلمين مجازفات لا حقيقة لها ، بل هى باطلة بالضرورة والمشاهدة ، كقوله انهـا عاجزة عن أن تستغنى عن الآخرين فى أمر من أمورها الدقيقة والجليلة ، فأين عاشت الأمة الاسلامية مئات السنين قبل دخول هؤلاء الأجانب منذ مائتى سنة تقريبـا ، وما هى حالتها فى تلك القرون المتقدمة بالنسبة الى غيرها . ولا شك أنه يقصد من وراء هذه المبالغة أغراضا خبيثة فى تحقيرهم وتصغير شأنهم فى أعين اعدائهم والا ففى إمكانه الاقتصار على الحث على الاعمـال وبيان منافعها بدون هـذه الشناعات التى لا أصل لها ولا طائل تحتها ، وليست معيشة المسلمين ولا حياتهم متوقفة اليوم وقبل اليوم عـلى ما يأتيهم من هؤلاء الأجـانب ، ولو تركوهم وبلادهم لما احتاجوا اليهم فى شىء ضرورى ، ولو قدر احتياجهم اليهم فى شىء من الأمور فهم محتاجون الى المسلمين فى أشياء أخرى أشد من حاجاتنا لهم ،

وما زالت الامم والشعوب يحتاج بعضهم الى بعضهم فى بعض الأشياء على اختلاف مذاهبهم ، ولم يكن ذلك عيبا تعاب به الأمم اذا لم يكن من الأمور الضرورية ، وهذا جعل هذه الأمور كلها عيوبا كبرى فى المسلمين مع أنها لم تختص بهم وحدهم ، فما ذكره من عدم الاستغناء عنهم وأن حياتنا بيد هؤلاء تشنيع محض لا فائدة فيه

ثم ذكر أن جموع المسلمين عاجزة أمما - كما هى عاجزة أفرادا - وإن التفاوت بيننا وبين الغربيين فى التقدم الصناعى أمر معلوم ، وهذا لا نزاع فيه ، انما النزاع فى الأسباب والنتائج التى أوجبت التقدم والتأخر ، ثم إن تقدمها هذا إنما هو تقدم صناعى لا غير كما اعترف بذلك فى نبذته (الثورة الوهابية) وليس هذا بأول زمان تقدم فيه الكافر على المسلم ، فان الله قد حكى فى كتابه العزيز عن تقدم الكافرين أعظم مما هو موجود الآن ، فليس تقدم الكفار على المسلمين وقتا أو برهة من الزمن دليلا على كونهم على حق وصواب دون المسلمين ، وأن من واجبنا أن نرفض ديننا من اجل هذا ، فان هذا لا يقوله من له أدنى مسكة من عقل ودين ، ونحن لم ندخل دين الاسلام بحجة التقدم والتأخر ، بل دخلناه عن بينة من ربنا وبصيرة من أمرنا بأنا على هدى من الله ، فلو أمطرت عليهم السماء ذهبا وأنبتت لهم الأرض لؤلؤا لم ننظر الى ذلك ولم يؤثر فى اعتقادنا ، لان ذلك لا يدل على استقامتهم ، كما لا يدل تأخرنا على أننا على غير هدى وصراط مستقيم . فمن يحتج بالتقدم والتأخر على الحق والباطل فهو مدخول فى عقله ولا يمكنه طرد هذا الدليل ، وفى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « عرضت علىَّ الأمم ، فرأيت النبيَّ ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد » الى آخر الحديث ، فدل على أن الله بعث الانبياء الى الأمم فكذبوا ولم يجبهم احد ، ومنهم من اجابه القليل كنوح عليه السلام ، ومع هذا فكل هؤلاء الذين خالفوا الرسل على الباطل وان بلغوا ما بلغوا من متاع الدنيا ، والذين اجابوا الرسل على حق وان بلغوا ما بلغوا

من التأخر فى اسباب المعيشة ، ولكن لا بد ان تكون العاقبة والنصر لأتباع الرسل كما قال تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز ﴾ وقال تعالى ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ أما التأخر حينا وزمنا فانه يقع تمحيصا وابتلاء ، وقد يقع بسبب التقصير فى متابعة الرسل ، وهذا هو الغالب لكن لا بد أن يكون لصاحب الحق تقدم بحسب ما معه من الديانة الصحيحة بخلاف الكافر والملحد المحض فلا بد من أن تكون عاقبته أسوا عاقبة

ثم ذكر أنه اجتمع بأناس بارزين ممن ظن أن لديهم معرفة من أهل الحجاز وغيرهم وسألهم عن أسباب التأخر ، وانه لم يجد عند احد منهم معرفة كافية ، وحق له ذلك فانه منعكس رايه لأنه راى شيئا وهم يرون شيئا يضاد رأيه وقصده ، فلهذا لم يوافقهم ولم يوافقوه ، وكل هذا حجة عليه لأنه لم يوافقه احد وليس معه دليل مقنع

ثم ذكر انه يوجد اناس يعللون التأخر بسبب سفور المراة واختلاطها بالرجل ، ثم رد هذا التعليل . ونحن نقول : ليس هذا هو السبب كله للتأخر ، بل هو سبب من اسباب كثيرة مذكورة فيما شرحناه فى هذا الكتاب ، وكلها ترجع الى مخالفة الدين الصحيح ، وقد نسى هذا الرجل انه ادعى فى بحث قضية المرأة ان سبب تأخرناهو عدم تعليم المرأة فقط ، فأين هذه الدعوى مما ادعاه هنا وسيأتى كلامه فى موضعه

فصل

قال : « ويوجد الى جانب هؤلاء جماعات اخرى عظيمة الشأن من حيث العدد والحماسة تكاد فى هذه الأيام تقيم الدنيا وتقعدها ، وانا اعنى ـ كما لا يخفى ـ دنيانا فقط لا دنيا الأعداء ، مبشرة برسالة روحية خلقية استاقت فى طريقها جماهير الشباب ، واوشكت تصيب فى معظمهم بنوع من جنون الفكرة والتقى

البار او الجنون المقدس (١). خلاصة هذه الرسالة ان طريق المجد الاسلامى المنشود ينحصر فى الرجوع الى الأخلاق الدينية الأولى وفى تنفيذ الحدود الشرعية وفى اداء الزكاة وفى اقامة سائر الفروض اليومية والشهرية والسنوية ، ثم فى الأيمان بالله والجهاد فى سبيله . وقد انطلقوا فى كل مكان يبشرون بهذه الرسالة ، واخذوا بأساليب قوية بارعة نشيطة لنشرها والدعوة اليها حتى كثر المؤمنون بها والمعجبون والمثنون »

قلت : هذا الذى نقله عن هؤلاء الجماعات العظيمة الشأن هو الحق الذى لا مرية فيه ، وهو الدين الصحيح الذى ندعو اليه ، فهو الدواء الوحيد الناجح لهذه الأمراض والعلل القاتلة التى قضت على المسلمين بالانحلال ، واوهنتهم واهلكت كثيرا منهم ، فليس لهم دواء غير هذا ، لأن الدولة الاسلامية لم تكون إلا على هذه الروح وهى روح القرآن والسنة . واعلم ان كتابه كله من اوله الى آخره يدور على ردّ ما ذكره عن هؤلاء الجماعات والحمل عليهم وعلى آراهم ، حتى انه لشدة عدوانه لهم وحقده عليهم افرد لذمهم مقالة خاصة فى آخر الكتاب عنوانها (امامنا لاوراءنا) ، ورماهم بكل ما خطر على باله من زور وفجور ، وهيهات وما كيد الكافرين الا فى ضلال

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها واوهى قرنه الوعل

وكتابنا هذا كله فى نصر هذه الدعاية الدينية المحضة الخالصة الجبارة الصارمة التى لا يقف فى وجه من عمل بها احد ، وانما جاءنا الوهن والضعف من تفريطنا فيها واهمالنا لأ كثرها . ثم ان هذا المخذول لما ساق هذه الجملة التى ذكرها عن هذه الجماعات الكريمة لم يرض بهذه الطريقة التى اختاروها ولم تطب بها نفسه ولم تملأ عينه ، بل شمخ بأنفه عنها واختار طريقة اخرى ، اختار العمى على الهدى والثوم والبصل على المن والسلوى ، وهكذا يكون كل من آثر الحياة

---

(١) تأمل هذا ، فانه جعل الفرح بفضل الله و رحمته جنونا مقدسا استهزاء

الدنيا، إذ لو كانت هذه الطريقة الدينية قد ملأت نفسه لما حصر المجد فى غيرها فقال :

« ويا ليت هؤلاء يعرفون ان الأخلاق الدينية المحض وكل ما يدعون اليه ويبشرون به من الفضائل هو سبيلنا بلا شك الى دخول ملكوت الله والى امتلاء انفسنا بالجمال والرضا والثقة »

فيقال : وياليتك تعلم ان هؤلاء العلماء العظماء النبلاء لم ينكروا مالا بد من الأخذ به من الأسباب الصناعية والتجارية والاقتصادية ونحوها، بل جثوا على استعمالها والأخذ بها فى جميع كتبهم ودعاياتهم، فلا معنى للاعتراض عليهم والاقتصار على قولك هذا الذى هو الدخول فى ملكوت الله تعالى وامتلاء النفس بالجمال والرضا والثقة فقط، فاعتراضك عليهم ثم اقتصارك على هذه الأخلاق دون ذكر التقدم والمجد والاستقلال فساد فى العقل وإعراض عن الشرع، فانك جعلت الأخلاق الدينية انما تفيد فيما يتعلق بالنفس من القناعة والرضا والثقة لا غير ذلك، وهذه هى نظرية الملاحدة فى تعاليم الدين، وقد حصر المجد والتقدم فى غير هذه الأخلاق الدينية كما يأتى. ولا ندرى عن مقصوده بملكوت الله والدخول فيه، فأن ملكوت الله ملكه كما قال تعالى ﴿ قل من بيده ملكوت كل شىء ﴾ وقال جل وعلا ﴿ فسبحان من بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون ﴾. فيكون معنى كلامه على هذا هو دخولنا فى ملك الله، وهذا لا مانع منه، فأننا فى ملك الله لا نخرج منه منذ خلقنا، وانما جاء بهذه العبارة تهكماً واستهزاء، ثم قال بعد عبارته السابقة :

« لكن السبيل الى المجد القومى المطلوب ينحصر فى اشياء اخرى، فى الأخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية والعلمية »

وقد علم من هذا التصريح ان هذا الرجل لم يقتنع بالطريقة الأولى التى مضمونها العمل بالأخلاق الدينية -كما ينبغى- اصلا وفرعا، بل اختار انحصار المجد فى هذه الأخلاق التى ذكرها، وهو يريد بعدم اقتناعه بالأولى واختياره

للثانية وحصر المجد فيها عدم امكان اتفاقهما ، وهذه المحاولة والقصد هو محور كلامه الذى يدور عليه ، وحقيقته عدم إمكان التدين والتقدم كما صرح بذلك مراراً لأن طريقة التدين هى الأخذ بالأخلاق الدينية الأولى ، وطريقة التقدم والمجد هى الأخذ بالأخلاق الثانية ، وهو قد حصر المجد فى الثانية ولو كان يرى إمكان اتفاقهما لم يحصر المجد فى الثانية ويدعى فيما يأتى ان الأخلاق الدينية لها نتائج اخرى لما ذكر ان الأخلاق الصناعية هى التى تعزّ الشعوب وتبلغها الذروة فادعى بعدها ان الأخلاق الدينية لها نتائج اخرى ، وهـذا صريح فى انه يرى ان الأخلاق الدينية آلة ضعف وانحطاط كما استشهد بذلك فى طرّة كتابه حيث نقل عن بعض مجهول اسمـه من فلاسفة الغرب ان الدين اذا فسد صار آلة ضعف وانحطاط ، وهو قد صرح فى آخر الكتاب ان ما عليـه المسلمون اليوم دين محرف واهم (يعنى باطل) فيكون آلة ضعف يجب رفضه . ولو انه يرى إمكان اتفاق الأخذ بالأخلاق الدينية والأخذ بالأخلاق الصناعية ونحوها التى هى عنده سبيل للمجد لكان فى إمكانه ان يقول هـذا حق وصحيح ولـكن يجب ان تعاضد هذه الروح وهذه الأخـــلاق اشياء اخرى لا بد منها هى الأخلاق الصناعية الى آخره او ما هذا معناه ، وكلامه فى « المشكلة التى لم تحل » آخر الـكتاب صريح جدا فى كونه يرى عدم اتفاق التدين والتقدم

اذا تبين هذا فاعلم ان كتابه كله قائم على رفض الدين ، لانه بزعمه لا يتفق مع هذه الأخلاق التى حصر المجد فيها . ونحن سلـكنا فى كتابنا هـذا مسلك الحق والأنصاف ، فنصرنا طريقة الأخلاق الدينية الأولى وجعلنـا الطريقة الثانية لا تخالفها ، بل هى فرع للطريقة الأولى بالقصد ، فالأخـلاق الصناعية والتجارية والمادية ونحوها لا تنافى الأخلاق الدينية أبدا ولا تضادها بل تشايعها وتؤيدها لأنها من فروعها ، والقاعدة عند المسلمين أن « مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب » وكل المعاملات والصناعات والتجارات ونحوها مباحة فى أصل الشرع ولا يحرم منها الا مادل النص على حظره والمنع منه ، ولا يوجد نص

يحرم الأخذ بهذه الأمور فى الجملة ، لكن قد يقع أشياء فى أفرادها يظن أنها نافعة فيكون هذا الظن خطأ ، فتكون ضرراً محضاً أو يكون ضرّها أكثر من نفعها فتمنع من أجل هذا . فالاخلاق الصناعية والمادية ونحوها لا تخالف أصول الدين أبدا ، فلا يظن الظان أننا نمنع الأخذ بالأخلاق الصناعية والتجارية ونحوها وندّعى أنها منافية للأخلاق الدينية ، فإن هذا لا يقوله أحد من المسلمين ممن يعتبر قوله ورأيه ، ولا يوجد فى شىء من الكتب المعتمدة ما يؤيده ، بل تعاليم الدين الصحيحة تحث على تحصيل هذه الأمور النافعة وترغب فى طلبها ، فكيف تكون مضادّة له وهى بالقصد تكون من فروعه . وهذا المسلك الذين سلكه الملحد فى التفريق بين الأخلاق الدينية والصناعية فى عدم اتفاقهما هو مسلك بعض ملاحدة العصر الذين اتخذوا أمثال هذه الدعاية الخبيثة أعظم آلة لهم فى هدم الأديان والتحلل منها ، فهذا الرجل سلك هذه الطريقة الملتوية المظلمة ، واجتهد فى توسيعها وترميمها وتسهيلها لغيره ، والله متم نوره ولو كره الكافرون

فصل

ثم قال « واذا كان لا أمل لنا فى أن يخرج صيام غاندى الانجليز من الهند فانه كذلك لا أمل لنا أن نخرجهم هم وسواهم من الغاصبين بصلاتنا وصيامنا وايماننا المجرّد وباخلاقنا الدينية الصرف »

قلت : هذا لا يصح دليلا على ما ذكرته إلا على اعتقادك أنت ومن على شاكلتك ممن يرون صيام من عبد البقر من جنس صيام من عبد ربّ العالمين ، وإلا فكيف يقاس صيام المسلمين على صيام الوثنيين ، واذا كان لا أمل لك أن تخرج عباداتنا الدينية وايماننا هؤلاء الغاصبين فان أملنا وثقتنا بالله تعالى أن ذلك هو الذى يخرجهم كما أخرجهم من قبل ، وأنه لا يمكن بحال من الأحوال أن نخرجهم الا بايماننا وإخلاصنا لله تعالى ، فمتى عملنا بالأخلاق الدينية التى

منها فعل ما يجب فعله من الاسباب المشروعة فان ذلك هو الطريق الوحيد لاخراجهم فانهم لم يدخلوا علينا إلا من هذا الثغر الذى هو التفريط فى القيام بالدين كما يجب ، فاننا لما كنا محافظين فيما سبق على هذا الأصل لم يدخلوا علينا فالاخلاق الدينية هى التى ترفع الشعوب وتحلها الذروة العليا ، والالحاد هو الذى يهوى بها فى الهاوية التى مالها من قرار ، ولو أنها تماسكت قليلا ونفعت برهة فلا بد من سقوطها وإصابتها بالكوارث المدمرة كما علم ذلك بالدلائل اليقينية التى لا ريب فيها

ثم قال « فالأخلاق الصناعية الاقتصادية العلمية المادية هى التى تعز الشعوب وتحلها الذروة ، ويؤسفنا أننا لانزال محتاجين الى فهم هذه الحقيقة والى تفهيم الآخرين إياها ، أما الاخلاق الدينية المحض فتلك أشياء أخرى لها نتائج اخرى »

قلت : هكذا ادعى هذا الرجل أن الاخلاق الصناعية ونحوها هى التى تعز الشعوب وتحلها الذروة ، ثم ادعى أن الأخلاق الدينية أشياء أخرى لها نتائج أخرى ، فهى لا تعز الشعوب ولا تحلها الذروة . وقد سبق قوله ان المجد ينحصر فى الاخلاق الصناعية ونحوها فحصر المجد فيها وادعى أنها تعز الشعوب وأن للأخلاق الدينية نتائج أخرى ، وهذا صريح فى أن الأخلاق الدينية آلة ضعف وتأخر ، وقد صرح بهذا فى مواضع من أغلاله هذه ، فقد فسر هذه النتائج الأخرى فى الكلام على الدعاء فى المبحث الثانى الآتى ، فانه صرّح أن الدعاء ملهاة وتعويق ومصرف خبيث ، ومعلوم أن الدعاء قطب العبادة وقطب الاخلاق الدينية التى تدور عليه كما اعترف بذلك فى كتبه كما يأتى ، كما قال ﷺ « الدعاء هو العبادة » فكانت نتائج الاخلاق الدينية التعويق والملهاة والصرف الخبيث لانها عنده تلهى عن العمل وتعوق عنه وتصد عن قضاء الشهوات النفسية ، وليس هناك من يجيب من دعاه ، بل هى الطبيعة تتفاعل بتفاعلها المستمر فلا حاجة الى الدعاء ، هذا روح دعايته كلها وكلامه يدور على هذا الاصل الخبيث الذى ليس وراءه كفر وزندقة ، وحقيقتها الحث على رفض

الأديان والاقبال على هذه الاخلاق الدنيوية فقط . ثم مع هذا يقول « ويؤسفنا أننا لا نزال محتاجين الى فهم هذه الحقيقة والى تفهيم الآخرين إياها » ، فيقال له لا حاجة الى الأسف فالمسلمون أجل من أن يغترّوا بهذا وأكبر من أن يرضوا لانفسهم ذلك ، فهم يتيقنون أنه لا نجاة ولا نجاح لهم إلا بحبل الله المتين والسير على مقتضى صراطه المستقيم ، وذلك يتضمن الأخذ بأصول الدين وفعل ما يجب فعله من الأسباب المادية المشروعة ، وأن الاعتماد على الأخلاق المادية وحدها ليس كافيا فى نيل استقلالهم وخلاصهم من استيلاء العدو ، ودعواه « أن الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى » صريح فى أنها لا ترفع ولا تكسب المجد ، فانه حصر المجد فى الأخلاق الصناعية ونحوها وذكر أنها تحل الشعوب الذروة والعزّ ، ثم ذكر أن الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى ، ومعلوم أنه لا واسطة بين المجد والعز والانحطاط والضعف ، وكتابه كله يدور على هذا المحور الخبيث ، فانه صرح فى مواضع لا تحصى بأن الأخذ بالأخلاق الدينية لا نفع فيه بل هو ضرر محض ، لانها عنده تشغل عن اتباع الشهوات والنظر فى العلوم المادية التى هى أساس التقدم ، ولم يلتفت الى فساد الاخلاق كلها وأثره فى التعويق والتثبيط بل جعل المصائب فى الأخلاق الدينية . فانظر الى هذا التحامل الزائد على الأعمال الصالحة والايمان بالله تعالى . وقد تقدم نحو هذا قريبا لكن أوضحناه هنا لشدة الحاجة اليه . والحق الذى لا شك فيه ولا مرية وهو واضح كالشمس أن المجد والتقدم منوط كله بالأخلاق الدينية الصحيحة ، فانها متى صحت وصلحت دفعت الى العمل المادى ، وبقدر الاستهانة وضعف الاخذ بالاخلاق الدينية فى الاسلام يكون الضعف والوهن ، لأن هذا مقتضى روح الاسلام ، أما وجود التقدم فى بعض الأمم التى لا دين لها أو غالبها الحاد فان ذلك انما يكون تقدما على جنسها أو الذين دونها فى أخلاقها ، ولأن الروح التى نشأت عليها غير روح دينية صحيحة طيبة ، بخلاف الاسلام فان روحه التى تكوّن عليها وقام صرحه روح سماوية دينية زكية فلا يمكنه أن يصح

أو يتقدم الا بالاعمال التى تناسب روحه وأصله ، والا كان عليلا ضعيفا ، لان الاخلاق الخبيثة لا تناسب روحه الطيبة فلا ينمو ولا يقوى عليها أبدا . ثم ان تقدم اولئك تقدم مؤقت لا بد أن ينهار كما تقوم بعض الأشياء على غير أساس صحيح ويكون قيامها وتقدمها على بعض الشعوب التى معها أخلاق دينية ضعيفة نوع ابتلاء وامتحان للصادق وللكاذب فيمن كان دينه على شفا جرف ولأن فى ذلك ايقاظا وتنبيها لمن له عقل كما قال تعالى ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرّعون ﴾ الى غير ذلك ، وتقدم الملاحدة على جنسهم وأمثالهم لسنا بصدد البحث فيه لأن الكلام فى الاخلاق الدينية وكونها آلة رقى وتقدم ، وكلامه يدور على نقطة واحدة وهى أن الدين آلة ضعف وانحطاط ، وان غمغم أحيانا وخادع ولبّس فهيهات أن يظن بنا الغباوة ثم تصدقه فى ظنه فنكون كالأنعام بل أضل سبيلا

فصل

ثم قال « وان المستعمرين والغاصبين والمنافسين وغيرهم من ضروب الاعداء لا يرهبون هذه الأخلاق ولا يخشون أصحابها ولا يؤلمهم كثرتهم وكثرتها . بل لعلهم يعملون على أن تكون الشعوب التى يريدون افتراسها أو بقاءها تحت سلطانهم وعدوانهم متدينة مسرفة فى تدينها محافظة على كل فضائلها الدينية »

فيقال لهذا الزائغ : هذا مخالف لما تدعيه فى مقالاتك السابقة فى مناظرتك مع من ترميهم بالالحاد فتدّعى أنهم آلات للمستعمرين فى افساد الأخلاق الدينية فهو تصريح منك أولا بان الأخلاق الدينية هى أعظم ما يضرهم ويؤلمهم ويسوؤهم لشدة عاقبة ذلك لانه انما ينبعث من قوة الايمان التى هى الأصل فى التحرر والقيام ضد الاعداء . ثم يقال على فرض التنزل هنا : وهل رأيك هذا ـ لو صح ـ يكون حجة على أن الاخلاق الدينية لا ترفع أهلها ، أو هل يجوز لنا أن نعاديهم ونرفض ديننا عنادا لهم اذا كانت هذه الاخلاق لا تهمهم

وهل تشير أو توجب علينا أن نترك كل مالا يؤذيهم حسدا لهم ، وهل هذا الاستدلال إلا من مهازل الدعايات المرذولة ، فان عدم اهتمامهم بالأمور الثابتة فى ديننا لا علاقة له بتقدم ولا تأخر ولا صحة ولا فساد ، هذا لو سلم صدق ما ادعاه ، وإلا فالدهاة من ملاحدة المستعمرين يعلمون أن هـذه الاخلاق الدينية هى أعظم سلاح يشهر فى وجوههم وكلامهم فى هذا كثير جدا ، ولهذا فانهم دائما يسعون فى تشويه الأخلاق الدينية الصحيحة وافسادها ومعاكسة من قام بها ودعا اليها . وأما كونهم يخشون الأخلاق الصناعية والمادية ونحوها فهذا لا ينافى عدم خشيتهم للاخلاق الدينية كما لا يدل على وجوب الاعتماد على الأخلاق المادية وحدهـــا ، ومجرد خشيتهم الشىء وعدمها ليس بدليل عند المسلمين بل ولا عند العقلاء على صحة الاعتماد على الشىء وتركه ، وإنما يستدل على صحة الشىء وفساده ببراهين الصحة والفساد وباتفاق العقلاء

فصل

قال « ومن الواضح المستغنى عن كل بيان أن ألمانيا واليابان وأشياعهم انما انتصروا فى بداية هذه الحرب المنتهية بصناعاتهم وجيوشهم المزوّدة بالقنابل والطائرات والمدافع والدبابات الكثيرة المتفوّقة ، وأن خصومهم انما انتصروا فى آخر الجولة بهذه الامور نفسها ، وان الفضائل والأخلاق الدينية وأشباهها لم تتدخل لافى البداية ولا فى النهاية »

فيقال : هذا حجة عليك ، فان عنيت أنه ليس معها أخلاق دينية مطلقـا لا صحيحة ولا فاسدة فهـذا ممنوع ، فانك ذكرت فى آخر الكتاب أن الدين الباطل سبب فى التأخر ، ومعلوم أن معها أديانا باطلة ، وهذه الدول المتقاتلة كلهادول كافرة ضرب الله بعضها ببعض انتقاما منها وعقوبة لها بنفس ما اعتمدت عليه . وعلى فرض أن لا يكون معها دين مطلقا فانها تكون سواء ، فانتصرت احدى القوتين على الأخرى ، وهذا لا نزاع فيه ، انما النزاع فى كون الأخلاق

الدينية آلة ضعف . وأنها لا تقدم أهلها ، وهذا الذى قلته خارج عن هذا ، فان حاصل ما معها قوتان مجردتان ، فانتصرت إحداهما على الأخرى بمشيئة الله ونحن لم ننكر قط تأثير زيادة القوة المادية على مايقابلها من جنسها من الصناعية المحض كهذه المسألة ، إنما ننكر تأثير زيادة القوة المادية فى القوة المادية المقابلة لها اذا أسست على دين صحيح لا يخرج الى دائرة الكفر فتنتصر عليها انتصارا نهائيا ، وهذه الدول ليس معها أخلاق دينية صحيحة كأخلاقنا حتى يصح قولك ان الفضائل والأخلاق الدينية وأشباهها لم تتدخل لا فى البداية ولا فى النهاية ، فان هذا القول لا محل له ، إنما يصح هذا لو كانت إحدى هذه الدول المهزومة معها دين صحيح وهذا لم يوجد ، فالدعوى ساقطة جداً لا محل لها ، فان هذه الدول ان كان لها ديانة متقاربة وهى باطلة وان لم يكن لها ديانة فكذلك ما عدا اليابان ، وقد عرف مآلها مع انك مدحت فى آخر الكتاب ديانتها وهى المهزومة ، أما روسيا فيأتى الكلام فيها وفى ديانتها فى محله [1] . وقد قدمنا أن الأخلاق الدينية الصحيحة المحض توجب وجود ما به تستقيم حالتها من الاخلاق الصناعية ، فان الأخلاق الدينية المحض تحث على الاستعداد والعمل وأخذ الحذر والحيطة كما تقدم ، ولا بد أن الله سبحانه يوفق من قام بدينه الى تحصيل ما ينفعه من الأسباب المادية كما وفقه الى الاسباب الدينية الصحيحة ، فان هذا من سنته التى لا تبديل لها ولا تحويل ، وانما أتى النقص فى الأسباب المادية من حيث جاء النقص فى الاسباب الدينية فانه الأصل والاساس ، فمن أقام دينه واستقام عليه فلا بد أن تستقيم حالته فى الاخلاق الصناعية ولا عكس كما يأتى

ثم قال : «أمريكا اليوم مثلا هى أقوى منا مع الفروق المخجلة بلا شك ، فالى ماذا ترجع قوتها وتفوّقها علينا ، وبماذا يرجع ضعفنا وعجزنا . من الجلى

(١) أى آخر الكتاب

المفروغ منه أن أمريكا لم تتفوّق علينا بسبب إيمانها بالله أو بسبب أخلاقها الدينية والروحية ، وانما نالت هذا التفوّق بأخلاقها الصناعية والاقتصادية والعلمية ، واننا إنما عجزنا من اللحاق بها لعجزنا عن اللحاق بأخلاقها هذه لا بعجز فى روحانيتنا أو فى إيماننا بالله أو فى فضائلنا الدينية » انتهى

وهذا القول الذى قاله تهوّر وهذيان لا قيمة له ، فلا حجة فيه على مراده فانه من الواضح الجلى أن أمريكا لم تتفوق علينا بسبب رفضها الأديان وبعدها عن أخلاقها حتى يصح الاحتجاج بهذا فان هناك دولا مخالفة لها فى الأخلاق والديانة وهى تقاربها فى القوة وانما تفوقها بالاخلاق الصناعية والمادية وغير ذلك ، وهذه الاخلاق ليست برفض للأديان ومعاداة لها ، وقد بينا أن هذه الأخلاق لا تنافى الديانة الصحيحة . بل تلائمها ، ولو كان مع هذه الدول ديانة صحيحة لازدادت قوة الى قوتها هذه قطعا

ودعواه أن تأخرنا عنها ليس لقصور فى ايماننا وفضائلنا الدينية دعوى فى غاية السقوط ، قد نقضها فى آخر الكتاب حيث ادّعى أن الناس اليوم على دين محرّف واهم ، فكيف يدعى هنا أنه غير ناقص ، هذا تناقض صريح اضطرته الحاجة واللجاجة الى السقوط فيه ، بل ان تأخرنا إنما هو لعجز فى إيماننا وفضائلنا الدينية ، وتقصيرنا فى ذلك تقصير واضح لا شك فيه ولا يلزم من تقصيرنا أن يكون ديننا محرفا فان الدين المحرف هو الدين الباطل المخرج عن الملة ، ولهذا يطلق علماء المسلمين على دين أهل الكتاب بأنه دين محرف أما دين المسلمين فلم يقل أحد منهم انه دين محرف ، ولا يلزم من التقصير فى طاعة الله أن نكون على عبادة محرفة فالفرق واضح . وبالجملة فدعواه أن تأخرنا ليس عجزا فى ديننا كلام باطل ، كما أنه نقضه نقضا صريحا كما تقدم ، فان كثيرا من المسلمين قصروا فى معرفة الأصل ، ثم العمل به ، وذلك فى تأويل صفات البارى ، وفى دعوة الأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم فى الشدائد عند قبورهم وغيرها ، ثم فى وضع ما يحل محل الاحكام الشرعية ، ثم فى فساد الأخلاق

كالكذب والفجور والفسوق والخيانات وغير ذلك ، ثم فى عدم القيام بالأسباب المادية كالأمور الصناعية والتجارية ونحوها ، فصار قصورنا من كل ناحية ، ثم مع ذلك لا بد من أسباب أخرى فى تفوقها علينا ككثرة عددها وزيادة ثروتها المادية وموقعها الطبيعى وغير ذلك ، مع ملاحظة أنه قد مضى عليها فى القدم مئات السنين أو آلاف السنين وهى فى غاية الانحطاط والخمول ، على حين قوة ورقى عظيم مطرد فى الشرق الاوسط وتفوق كبير عليها ، وقد جعل الله الدنيا دولا كما قال تعالى ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ إذ كلهم عبيده وملكه ، فلا بد أن تنال حظا من آثار الرحمة العامة سواء كان حظها دينيا أو دنيويا فتصيب من جنس ما أصاب غيرها من متاع الدنيا أسوة بامثالها وحجة عليها . ولقائل أن يعارضه أيضا ويقول : فلم تفوق العرب عليها وعلى غيرها فى القرون الاولى . وبماذا يرجع ضعفها هى وعجزها فى تلك القرون حين وجود الدين الصحيح النقى . من الواضح الجلى أن تفوق العرب عليها أو على غيرها فى ذلك الوقت ليس بكثرة عدد ولا قوة صناعية ولا بكثرة إنتاج ، بل إنما هو بالأخلاق الدينية فقط ، هذا أمر مفروغ منه ، ولا نحتاج فى تقرير هذا الى أن نقع فى تناقض كما وقع ، بل هى دعوى صحيحة كالشمس ، فلما أن انتشر على الشرق بلاؤها هى وأمثالها من دسائس الالحاد وفساد الاخلاق ضعفت كالجسم الذى يفقد غذاءه الملائم له ويستبدل عنه غذاء آخر غريبا خبيثا لا يلائم روحه ، فانه يضعف بقدر ما يبعد عما يلائم روحه . وكل ذى عقل ومعرفه يعلم أن الاندلس لم يسقط حتى دخله مذهب الجهمية فى انكار الصفات كالعلو ومذهب غلاة عباد القبور وأمثالهم ، ويدل على هذا كتبهم المتأخرة ، فمن طالع كتب ابن عبد البر وكتب من جاء بعده فى القرن الثامن وما بعده علم الفرق فى تحول علوم الأندلس وهبوط علوم الدين فيه هبوطا عظيما ، فلذلك هبطوا لانهم لم يرتفعوا إلا به ، والحكم يدور مع علته ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾

وقوله « وإنما نالت هذا التفوق باخلاقها الصناعية » يقال بهذه وبغيرها لا برفض الأديان وعداوتها ، ولو رفضت الأديان وتركت هذه الاخلاق لم تنل شيئا . وقد بينا أن هذه الأخلاق لا تنافى الدين ، وهـذا الملحد لم يحثّ على هذه الأخلاق فقط ويترك الأمور الدينية حتى يصح له الاحتجاج ، ونزاعنا معه ليس فى نفع هذه وضررها ، بل جدالنا فى كون الأخلاق الدينية آلة ضعف كما زعم ، حيث ادعى هذا وادعى أيضا أن الدعاء لا فائدة فيه ، وانه مصرف خبيث وملهاة وتعويق . هذا محل النزاع ، وجميع خصومه من علماء الدين يحثون على الأخلاق الصناعية ونحوها فلا حاجة الى الاستدلال عليهم بكونها تنفع ، فان هذا الاستدلال لا محل له ، بل حثهم عليها أعظم من حثه هو ، فان معظم كتابه شتم فى الأديان لا حثّ على الاعمال كما سنبينه ، وكون أولئك تقدموا بهذه الأسباب لا يدل على أن أسباب الدين لا تقدم أهلهـــا ، فان ثبوت تقدم الأديان أظهر من ثبوت تقدم هذه الأسباب ، لأن هـذه الأسباب كثيرا ما تكون نكبة على أهلها ، وقد تقدم تارة وتؤخر أخرى ، وقد يعارضها أسباب أكبر منها . أما الأخلاق الدينية فلا يعرف أنها أخرت أهلها أبدا ، ولم يتقدم على أهلها أحد ممن يضاد أخلاقهم الا اذا كانت ضعيفة جدا ، فقد يقع ذلك تمحيصا ، ولا بد أن يعود الحق الى نصابه . فهذه الدول الغربية لو اعتمدت على دين صحيح لازدادت قوة الى قوتهـا كما قال هود عليه السلام ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ فدل هـــذا على أن لديهم قوة مـع كفرهم ومخالفتهم لرسولهم ، ودل على أن القوة الدينية لا تنافى القوة المادية بل تزيدها ، فلهذا أرشدهم هود عليه الصلاة والسلام الى أن الايمان لا ينافى قوتهم بل يزيدها ، ولـكنهم كفروا بذلك لأنهم ظنوا ـ كما ظن هذا الرجل وكما ظن جميع الملاحدة ـ أن الايمان به واتباعه ينافى القوة المادية التى استحصلوا عليها ، وأن ذلك ملهاة وتعويق وأغلال تعوقهم عن الاستمرار فى هذه القوة وتطورها ، لهذا

عصوه واستكبروا عن اتباعه فرحين بما عندهم من العلم بهذه القوة التى تحصلوا عليها ، فلهذا حرمهم الله ثمرة هذه القوة فانهارت عليهم فجاءتهم قوة أعظم من قوتهم ودمروا تدميرا فظيعا كما دمر أمثالهم ممن ظن كما ظنوا ، وسيدمر من اتبعهم فى ذلك الى يوم الدين . ولا شك أن كثيرا من هذه الدول والحكومات التى حاقت بها الكوارث إنما تركت الايمان الصحيح لظنها أن التدين يضعف قوتها ويحرمها من الرقى والتقدم الذى تؤمله وتسعى اليه . وأعظم الاسباب فى ذلك أنها لا تعرف حقيقة الدين الصحيح ، ولكن ليس هذا عذرا سائغا لها فانها دائما تبذل أقصى ما لديها فى التنقيب والبحث عن كل ما فيه نفع دنيوى لها كما تفعل فى مكافحة الامراض بالاجتهاد فى العثور على الادوية القاطعة للأمراض القاتلة ، وكما تفعل فى المعادن وغيرها ، فكان من الواجب أن تتعب وتكوّن هيئات وجمعيات عظيمة للبحث والتنقيب والنظر فى العقائد والاديان النافعة ، ولو فعلت هذا لكان من المحتم أن يتبين لها الدين الصحيح الذى يعيش به العالم كله بسلام ، فهو الذى تطمئن اليه النفوس والفطرة المستقيمة كما هو موضح فى كتب الامام ابن تيمية وأمثاله . فمن طالع كتاب العقل والنقل له وغيره من كتبه وكتب تلميذه ابن القيم تبين له أصل الدين بيانا كالشمس . فهل فعلت شيئا من ذلك . أنها لم تفعله فهى اذن لم تعلمه علما صحيحا ، وذلك لضعف الداعى لا لعدم القدرة ، فان وجود القدرة والارادة الجازمة وقوة الداعى يوجب وقوع الفعل . وبالجملة فقد أخبر الله أنه يسر القرآن للذكر فهل من مدكر ، فكان التفريط وعدم التذكر هو السبب فى عدم معرفة الحق ، لا عسر فى معرفة الحق فى نفسه

ومما يجب التنبيه عليه والتفطن له أن تقدم الكافر على المسلم فى الدنيا بالامور الصناعية والتجارية ونحوها لا يقتضى أنه سيستمر ، أو أن الكافر على صواب فى أخلاقه ونظامه ، بل إن ذلك يقع ولكنه لا يستمر ، فلا بد من وجود النكبة . ان قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم ابراهيم وكثيرا من الانبياء

وأتباعهم قد تقدم عليهم قومهم وغير قومهم من الكفار فى هذه الامور ولم يزحزحهم ذلك عن ايمانهم ، ولم يفتنهم هذا التقدم ، فان الله يمتحن عباده ، فمن رسخ الايمان فى قلبه علم أن الحق حق لا يتغير بمثل هذه الامور ، فان الحق حق فى نفس الامر سواء تقدم أهله فى الدنيا أو تأخروا ، وليس برهان الحق هو التقدم والتأخر حتى يزول بزواله ، وانما يزيغ قلب من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنه انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، اذ لولا التأخر لم يميز الصادق من الكاذب والراسخ إيمانه ممن هو على شفا جرف ، قال الله تعالى ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبىّ الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وأن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ . فتأمل هذه الآيات وما فيها من العبر الباهرة والدلالة الظاهرة على أن الكفار قد يتقدمون أحيانا على أهل الدين فى الامور المادية وأن وجود هذا التقدم المادى متاع دنيوى وامتحان وتمحيص للصادق فى ايمانه من الكاذب ، ولا يلبث هذا التقدم أن ينقلب وينهار لانه عارض من العوارض المقصودة لغيرها فلا بد من انهياره وسوء عقباه ، وان ذلك سنة من سننه تعالى فى هذا الكون ، وإنه مطرد فى الامم المتقدمة والمتأخرة ، فهو تقدم يشبه الطفور المؤقت الذى

لا بد من فشله وهبوطه ، كما فشل وهبط تقدم أعداء الرسل وأعداء الانبياء كفرعون وقومه بالنسبة الى بنى اسرائيل وأمثالهم ، فلا عجب أن حصل على المسلمين تأخر ما فى وقت قليل لما غير أكثرهم دينه ، وقد تقووا قرونا كثيرة جدا فلربما كان فى هذا التأخر عبرة لهم وأن يكون داعيا لهم الى معرفة مضرة ترك الدين والتقصير فيه ، وحفزا لهم على جمع أمرهم ومعرفة طريقهم الحقيقى فمن احتج بتقدم الغربيين على المسلمين فى هذا الوقت الحاضر على أنهم أكمل عقولا وأهدى سبيلا فهو من جنس فرعون حين احتج على موسى بهذه الحجة نفسها حين قال فيما حكاه الله تعالى عنه ﴿ ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، أم انا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ فتأمل هذه الحجة الفرعونية تجدها بعينها هى حجة هذا الرجل فى هذه الاغلال كلها[1] ولما كان قوم فرعون يومئذ أغبياء سخفاء عقول لم ينظروا الى الحقائق الثابتة بل نظروا الى المظاهر السطحية الدنيوية التى نظر اليها هذا الرجل ومن على شاكلته ، فنظروا الى تقدم هذا وتأخر هذا فى الملك والمظهر والتجارة ونحوها ، قال تعالى فيهم ﴿ فاستخفّ قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ وهكذا وقع ، فانهم كانوا سلفا لمن فعل فعلهم ومثلا لهم من الآخرين ممن نكبوا بهذه النكبات المتتابعة . وهذه سنة مطردة وقاعدة معروفة مشى عليها جميع الكفار من أولهم الى آخرهم فى احتجاجهم بالتقدم

---

(١) فانه احتج عليه بتقدمه فى الملك والتجارة والأبهة والمظهر السطحى . ومن عمق خبثه أنه عرض بنقص ابانة موسى للكلام ، يعنى أنه ناقص حتى من ناحية الكلام ، فذكر الاهانة معبراً عنها بعدم الملك وبالضعف الخارجى ، وذكر ضعف الابانة للضعف الجسمى ، وهذه هى حجة الملاحدة والزنادقة كهذا المعارض

فى الحياة على الصحة والصواب والتأخر على خلاف ذلك ، ولهذا قال جل من قائل ﴿ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ وهذا عين ما يحتج به هذا المارق كما هو ظاهر ، ثم يقال لهذا الملحد أيضا : هل التقدم فى الامور المادية من صناعة أو تجارة أو غيرها دليل على الحق ، وإن التأخر فى هذه الامور دليل على الباطل ، أم ليس ذلك بدليل . فان قلت بالأول بأنه دليل فصرح بذلك ولا تتناقض وتغمغم تارة وتلوح تارة أخرى وتاتى بأقاويلك فى هذا ملتوية أحيانا وصريحة أحيانا أخرى ، وقل إنهم على الحق وإن المسلمين على الباطل . وان قلت بالثانى وانهم ليسوا على الحق . وما أكبر هذا عليك . فما وجه هذه المنافقة والمخادعة والمراوغة المنكرة ، فان هذا يبطل تهويلك وتطويلك فى هذه الامور

فصل

ثم قال : « لا أحد يستطيع أن يمارى فى هـذه الحقائق بعد أن ظفرت روسيا وجيوشها بأعظم نصر عرفه البشر ، مع أن هؤلاء سلبيون من هـذه الناحية تمامـا »

فيقال : كل أحد من العقـلاء يستطيع أن يدفع هذه الاوهام التى ادعيتها حقائق كما أوضحناه . وكل هذا الذى وقع فى هذه الحرب حجة عليك ، فانهـا كوارث ساحقه حلت بمواضع الالحاد وحقت على رءوس الملاحدة المعاندين الذين نبذوا النصوص السماوية وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . فليست ألمانيا ولا اليابان ولا ايطاليا بدول معتمدة على الايمان والاعمال الصالحة فانتصرت عليها هذه الدول الملحدة كما تزعم حتى يكون هـــذا حجة لك وحقائق تعتمد عليها فى أن الايمان بالله والاخلاق الدينية لا تعز أهلهـا بل تفيـد التأخر ، وهذا هو محز" النزاع الذى نجادلك فيه ، فكيف تدعى أنه حقائق لا يمارى فيها وهى لم توجد البتة ونحن لم ننكر قط ان الدول الكافرة ينتصر بعضها على بعض

ثم انه قد علم أن هذه الاسباب التى تحث عليها فى أغلالك وتعلق النصر عليها مطلقا قد نفعت من وجه وأضرت من وجوه كثيرة ، فان كانت نفعت روسيا فقد أضرت ألمانيا . وأما الأخلاق الدينية التى صرحت بأنها لا فائدة فيها وأنها مصرف خبيث فقد نفعت أهلها ولم تضرهم قط ، بل ربما انها لو لم توجد لديهم لحل بهم ما حل بغيرهم ولا سيما مع ضعف أهلهـا من ناحية الاسباب المادية مع أنهم لم يأتوا بها الا ضعيفة

ودعواه ان نصر روسيا أعظم نصر عرفه البشر فهى دعوى تنم عن خبث كامن عميق إذ هى مكابرة واضحة ، فأدنى عاقل يعلم أن روسيا لم تنفرد بحرب ألمانيا ، وأنها لم تستغن عن مساعدات غيرها لها بأنواع الوسائل الحربيـة ، وأمريكا أيضا تدّعى أنها هى التى هزمت ألمانيا ، وكذلك الانجليز . فالنصر هذا انما وجد من الكل بلا ريب ، على أن نصر روسيا هذا لا حجة له فيه كما تقدم مرارا ، فانها منتصرة على دولة من جنسها فى أكثر المبادىء والبعد عن الدين الصحيح ممن هم سلبيون من الدين ، فحقيقة هـذا ـ لو سلم ـ أن تكون منتصرة على جنسها فى أعظم مبادئها عقوبة لهما ، وهذا خارج عن محل النزاع ، بل هو حجة عليه فانه يدعى أن الانحلال من الأديان هو طريق المجد والتقدم فاذا كان نصر روسيا من حيث كونها سلبية من ناحية الدين فعدوّها المنهزم كذلك على زعمه ، لأنه يدعى أن أكثر هذه الدول ملاحدة ، فان كان الانحلال سببا للنصر فقد صار أيضا سببا للهزيمة والدمار والوبال على أهله ، وان لم يكن سببا بطل احتجاجه . على أنه ينبغى أن يعرف أن روسيا ليست كلها سلبية كما يدعى ، بل فيها مذاهب وشيع مختلفة ، وقد غيرت كثيرا من مبادئها البلشفية فى الالحاد قبل الحرب لما عرفته من تأثير الفساد فى شبابها ، وهى بكل حال مضطربة فى أمر الديانات فليست بسلبية تماما من هذه الناحية الدينية كما زعم . ومما لا شك فيه أن أكثر هذه الأفكار التى يدعو اليها فى أغلاله هى من أعظم الأسباب التى حاقت بألمانيا حتى أوقعتها فيما وقعت فيه ، هـذا

وهى دولة عظيمة قوية ، فكيف اذا كان يدعو دولا ضعيفة بالنسبة الى غيرها الى هذا المبدأ الهدام ، فلا حجة لما ادعاه فى نصر روسيا مطلقا فانها لم تنتصر على أخلاق دينية محضة حتى يكون حجة له ، وروسيا نفسها لم تدع بهذه الدعوى ولم تدع أيضا أنها مستقلة بالنصر دون غيرها كما ادعاه لها هذا المكابر . ثم هذه الحرب التى دخلتها روسيا كانت صدمة عظيمة فى روحها وشبابها سيبقى لها الأثر الى أمد طويل ، ولو لم تدخل الحرب لكان أولى بها وأقوى لها ، فانها ما استعاضت فى انتصارها مقدار ما فاتها لو لم تدخل الحرب ولا مقدار خسارتها فى حروبها ، فهذه الحرب والتى قبلها كلها صارت على رأسها هى وألمانيا ومن معهم فمن شغفوا بهذه التعاليم الالحادية فكلما خرجوا من شقاء دخلوا فى آخر ولا سيما بعدأن كثر الالحاد وتوسعت دائرته فيهم ، وهذا المستقبل ينذر بشر أدهى وأمر على هؤلاء ومن أعجب بهم وسحر بآرائهم ، فكيف يصح أن يقال إن نصر روسيا أعظم نصر عرفه البشر والحال المعروفة عند كل عاقل هى ما ذكرنا وقد شاهده الناس ، وهو أمر ظاهر لا تنكره روسيا نفسها ، فهو حقائق لا يمارى فيها لوضوحها ، ولكن « لهوى النفوس سريرة لا تعلمُ » .

فصل

ثم قال : « فطريق المجد القومى إذن يجب أن يكون معروفا واضحا متفقا عليه ، ويجب أن يعلم أنه غير ما يدعو اليه هؤلاء الصالحون اذا كان هؤلاء الاخوان يعرفون هذا الطريق ولكنهم انما يدورون حولها الآن اضطرارا او انهم بعد أن حشدوا الحشود سيتعرفون الى طريقهم الحقيق »

قلت : قد صرح هنا - كما ترى - بأن طريق المجد القومى هو غير ما يشير اليه هؤلاء الاخوان الصالحون الذين حصروا المجد فى الأخلاق الدينية الأولى وفى تنفيذ الحدود الشرعية الى آخر العبارة السابقة . وقد علمت أنه ليس فيها نفى للأخذ بالأسباب المادية بأنواعها مما فيه استعداد للعدو ، بل هم قد صرحوا

بان ذلك من أهم واجبات الدين وذلك موجود فى كتبهم ومقالاتهم الكثيرة الشهيرة فى المجلات والجرائد وغيرها فادعى هذا الملحد أن الجد فى غير ما يدعون اليه ، بل صرح فى مواضع أخرى بان هذه الطريق لا تفيد شيئا فى التقدم بل هى أسباب للتأخر ، فادعى انها أغلال تعوق عن الرقى ، وصرح فى البحث الثانى بأنها ملهاة ومصرف خبيث وتعويق للبشر . ثم قوله « فطريق الجد يجب أن يكون معروفا الخ » يقال : قد عرفناه معرفة أوضح من الشمس فى نصف النهار ليس دونها أدنى حجاب بأنه الأخذ بالأخلاق الدينية ، ولكن أنت لم تعرفه لعماء بصرك فلهذا كنت أعظم الموغلين فى الضلال فى معرفته ، فمن عمى بصره فلم ير عين الشمس على شدة وضوحها لم يجز له أن يحكم على غيره بأنه لا يراها . ومن عظيم ايغالك فى الضلال وانعكاس الرأى أنك جعلت أسباب التقدم أسبابا للتأخر وجعلت أسباب التأخر هى أسباب التقدم ، فقلبت الحقائق اليقينية لما انقلب قلبك كالمريض الذى يتصور الاشياء على غير حقائقها فيحكم عليها بما يراه فى حالته المختلة . قال الشاعر :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

وقولك ويجب أن يعلم أنه غير ما يشير به هؤلاء الصالحون فنقول بل يجب أن يعلم أنه هو ما يبشر به هؤلاء العلماء المظفرون ، وأنه غير ما تدعو اليه أنت وأضرابك الهدّامون ، وقد تقدم أن الأخلاق الصناعية المادية لا تنافى الأخلاق الدينية بوجه من الوجوه ، وتقدم أن هؤلاء الاخوان الصالحون لم ينفوا هذه الأخلاق المادية فانها إن كانت داخلة فى مسمى الجهاد وأنها من وسائله فهم قد ذكروها كما نقله عنهم صريحا فلا معنى لاعتراضه عليهم ورده لكلامهم ، وان لم تكن داخلة فهم لم ينفوها فى كلامهم الماضى وقد ذكروها صريحا فى المواضع الأخرى ، واذا كان يرى أن هذه الاخلاق مضادة للدين فلا معنى للحث عليها واطالة الجدال والترغيب فى الاعتماد عليها وانتسابه مع ذلك الى الدين ومحاولة التوفيق بينها وبين الدين على ما يزعم فان المتضادات لا

يمكن الجمع بينهما بحال ، فما ذكره تهور ساقط لا أساس له البتة

وقوله : « ان كان هذا هو الامر الذى ينوون فما أبعد ما ذهبوا بأنفسهم وبأتباعهم » فيقال : لقائل أن يقول لك وماأبعد ما تذهب اليه أنت ومن على شاكلتك بأنفسكم وبأتباعكم - ان كان لكم اتباع - فان هذا مجرد دعوى فتقابل بمثلها

وقوله « ونظنه مخطئا جدا من حاول أن يقوى نظره بقراءة الحروف الصغيرة تحت النور الضئيل » . يقال : هذا المثل هو منطبق عليك تماما ، فانك سلكت فى دعايتك هذه مسلكا لا أخفى ولا أفسد منه ، لانك جعلت الانحلال من الأديان واعطاء النفس شهواتها حتى ترجع الى طور الحيوانية والطفولية سببا فى حصول المجد والرقى وحصول الآمال الكبار [1] فهذه الدعاية الهوجاء انما ينطبق عليها هذا المثل الأهوج المناسب لها ، فان حصول الرقى والمجد باتباع الأهواء وفساد الأخلاق لا يمكن أن يفهم من هذا ، فلا أخفى ولا أغمض منه ان لم يكن مستحيلا

فصل

ثم قال « كم تستولى علىّ شتى العواطف اذا رأيت هؤلاء الشبان المخلصين المتوقدين حمية وغيرة يقادون بهذه الأفكار دون أن يدروا من أمرها سوى أنها تسوف فى إعطائهم الوعود السخية الكريمة الرخيصة ، وسوى أنها تؤكد بلوغهم كل ما يرجون ويحبون من آمال بأضعف الأسباب وأصغرها . اننى لأهتف أحياناً كثيرة اذا رأيت هؤلاء المؤمنين كما كان يهتف أحد ادباء فرنسا اذا رأى أمثالهم : ياللسذاجة المقدسة ، ويااللايمان المخدوع ! »

(١) والعجب أنك ادعيت فى بحث المراة أنها اذا تعلمت فلن نخشى شيئا بعد ذلك أبدا ، فجعلت رأس السياسة كلها والنهوض والمجد والاستقلال فى تعليم المرأة . فأى انسان يقوى نظره حتى يستطيع أن ينظر حروف هذه السياسة الدقيقة فى هذه الظلمة الحالكة

قلت : لا يخفى مما مر أن هذه الأفكار التى أشار اليها هنا وهى التى يقاد بها هؤلاء الشبان المخلصون أنها هى ما ذكره عن أولئك الجماعات العظيمة الشأن فى تعريف طريقة المجد المنشود ، وقد عرفت أنها الأخذ بالأخلاق الدينية وفعل ما يجب فعله من الأسباب المشروعة المادية ، فكان هذا الرجل حسب ما زعم تستولى عليه شتى العواطف وشدة الأسف عندما يرى هؤلاء الشبان المخلصين يقادون بهذه الافكار الدينية . وذكر أن هـــذه الأفكار أضعف الأسباب وأصغرها فى تحصيل آمالهم ، وقد صرح بأنهم مؤمنون ، ثم ذكر أنه يهتف أحياناً اذا رأى هؤلاء المؤمنين على هذه الحالة الدينية يتوقدون حمية وغيرة كما كان يهتف هذا الفرنسى قائلا « ياللسذاجة ، وياللأيمان المخدوع !» فصار ما دعا اليه أولئك الجماعات الصالحون سذاجة وايمانا مخدوعاً . وقد نقلنا ما ذكره عن أولئك الجماعات الصالحين أن حقيقته الأخذ بالأخـــلاق الدينية الأولى فى الأصل والفرع ، أى الأخذ بالطريقة السلفية فى أصول الدين ثم فعل ما يجب فعله من الأسباب المشروعة ، فكانت هـذه الأمور هى السذاجـة والأيمـان المخدوع عنده ، وحق له أن يهتف بذلك لأنه كما أصيب بداء النفاق والزندقة اتبع سلفه فى هذا الهتاف ، فهذا الأرث انمـا تسلسل اليه فى أسلافه أولئك المنافقين الذين فى قلوبهم مرض فأنهم يهتفون بجنس هذا الهتاف حينما يرون المؤمنين فى زمانهم ساعين جادين متوقدين حميـــة وغيرة على الحق ، فانهم يظلون هاتفين أحيانا قائلين « غرّ هؤلاء دينهم » وتارة يهتفون قائلين « ان هؤلاء لضالون » فلو أن هذا المنافق اتبع أسلافه من منافقى العرب لكان أولى به من أن يتبع هذا الفرنسى ، لا سيما اذا كان يدعى أنه من العرب وأنه مضاد لفرنسا . ولـكن إيغاله فى النفاق تجاوز به الى هذا الحد فى الشقاق . قال الله جل من قائل ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فأن الله عزيز حكيم ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون ، واذا

انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ، واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون ﴾ . وقال الله تعالى ﴿ زُين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ الآية . فما ذكره هذا المؤلف هو من جنس ما حكاه الله عن أسلافه الكافرين والمنافقين من عيب دين المؤمنين والاستهزاء بهم ، ولكل قوم وارث . ثم هو انتقاد واستهزاء محض ليس من الحجة فى شىء ، وقد سبق اليه من هو على شاكلته ممن طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم . وقوله « بأضعف الأسباب وأصغرها » فيقال كلا بل هى أقوى الأسباب وأعظمها ، وانما كانت ضعيفة صغيرة عندك لضعف بصيرتك وبعدك عنها ، فضعف البصيرة والبعد عن الشىء القوى الكبير يصوره صغيراً ضعيفاً وليس لك أن تحكم على الأشياء القوية العظيمة ـ التى شهدت الشرائع والعقول السليمة بقوتها وعظمتها ـ بنظرك الضعيف المعكوس مع بعدك عنها ، فان هذا قلب للحقائق وضلال بعيد

فصل

ثم قال : « يقال ان الدعاة ينجحون كثيرا ويلقون المؤمنين الكثيرين بهم بين الشعوب الاتكالية التى يعتمد أفرادها على الآخرين فى تحقيق آمالهم وعجزهم هم عن تحقيقها ، فأمثال هؤلاء يسارعون الى تصديق كل من جاءهم بفكرة ومبدأ أو دين أو مذهب زاعماً أنه سيعطيهم كل شىء اذا ما اتبعوه وآمنوا به وأخلصوا فى ايمانهم ويسارعون الى التنازل لمتبوعهم أو قائدهم أو زعيمهم أو مرشدهم عن كل شىء فيهم » فيقال : لعل هـــذا هو الذى دفعك الى هذه السخافات التى سجلتها فى هذه الاغلال ، اذ ظننت أن كل من جاء بفكرة أو مبدأ أو دين أو مذهب جديد وعلق النجاح على الايمان به أنه ينجح ، فلا عجب أن جئت بهذه الفكرة المرذولة فسجلت هذه المخازى الوبيلة ، وادعيت أنها « من الحقائق الأزلية الأبدية التى تأخذ بها أمة فتنهض وتتركها أمة فتهوى

ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة المليون المسلم يستغنى عن هذه الأفكار » ثم بنيت هذه الدعوى على اتباع الشهوات وفساد الأخلاق وأنها سبب للتقدم والنجاح ، ثم ذهبت تعلق على الكتاب قولك المضحك : « سيقول مؤرخ الفكر انه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » . فليت شعرى متى كانت الأمم العربية مجانين او معتوهين حتى رقيت جنونهم بهذا الهذيان والهراء والصديد والقيح الذى قذفته فى هذا الكتاب

يا صاحب الحقائق الأزلية الابدية إن من كان على هدى من أولئك الدعاة لم يدعوا الناس الى ما دعوتهم اليه من رفض الايمان واتباع الشهوات ، أو يدعون أن تحصيل آمالهم موقوف على الاخذ بأقوالهم التى سجلوها وكتبوها كما ادّعيت ، إنما دعوا الناس الى أوثق العرى وأثبت الأصول ، ودعوهم الى النور المبين والروح التى لا تقهر ، دعوهم الى صراط العزيز الحميد الذى له ما فى السموات وما فى الارض ، دعوهم الى إصلاح أخلاقهم التى هى الأساس الأول لجميع الأعمال والنهضات كلها ، فبصلاح الأخلاق يصلح كل شيء وبفسادها يفسد كل شيء « وانما الامم الاخلاق » كما يقال ، فالاعمال المادية كلها ونتائجها إنما تصدر عن الأفكار الصحيحة ، فلا يمكن صدور أى سبب أو نتيجة من صناعة أو زراعة أو غيرها حتى يتصورها الفكر أولا ، ولا يمكن أن يتصورها الفكر تصوراً صحيحا حتى تكون معارفه وأخلاقه صحيحة نيرة . ياهذا ان الدعاة الصالحين لم يرفضوا العقل والشرع كما رفضته ، بل علموا وبينوا أنه ليس بين الدين الصحيح والعقل السليم أدنى تباين ، بل هما أخوان ، فالأصل الدين والعقل تابع له ، فان العقل إن كان قد صدّق بالدين فيجب أن يتبعه ، والا كان ذلك قدحا فى تصديقه له لأنه قد صدّقه فكيف يصدّقه ثم يشك فيما أخبر به ودعا اليه ، وان كان العقل يصدقه مطلقا فبأى شيء يصدّق ، أيريد أن يصدق عقله وحده أم عقول طائفة أو أمة أو شعب أو جماعة مع تباين العقول وتضادّ نظرياتها ، ولا شك أن هذا يوقع فى التناقض والفساد والفوضى

التى لا تنضبط ، ثم إن هؤلاء الدعاة الدينيين لم يدعوا الى اتباع آرائهم ولا لكل ما يقولونه ، فهم أعقل من أن يدّعوا أن ما فى كتبهم « حقائق أزلية ابدية ، وانها تأخذ بها أمة فتنهض وتتركها أمة فتهوى ولن يستغنى عنها مسلم » فهم أجل وأكبر من ذلك ، إنما دعوا الى تعظيم الرب وعبادته واتباع أوامره على ألسنة رسله ، فاذا نجحوا فان نجاحهم من أعظم البراهين على صحة دعايتهم ، لانهم لم يدعوا الى أنفسهم ولا الى كل ما يوافق الطبيعة والشهوات حتى يكون ذلك مرغبا فى قبول دعايتهم ، بل دعوا الى الحق وهو ثقيل كبير على أكثر النفوس ، فاتباعهم دليل على وضوح برهان دعايتهم ، بخلاف من اتبع ما يوافق هواه فانه قد يكون إنما اتبعه لموافقة هواه لا لصدقه وصحته فى نفس الامر ، وهذا ظاهر جلى . فما أورده وادعاه على الدعاة والعلماء الصالحين فهو حجة عليه فلا وجه لتشنيعه واستهزائه ، وقد كرر هذا القول مرارا فى غضون هذا الكتاب ، وقد علمت فساده فلا حاجة الى تكرار الكلام عليه

فصل

قال : « ولا أجد مفرا من أن أذكر هؤلاء الأخوان أن الروح الدينية كثيرا ما تكون سلبية تجاه الحياة وعطلا فى أصحابها إن لم يشايعها روح متوثبة من المادية الواقعية الصارمة ومن التربية العالية ، وفى الحق إنهم قليلون جدا إن لم يكونوا غير موجودين اولئك الذين استطاعوا أن يجمعوا بين التدين وبين الابداع فى الحياة والنهوض بها ، ولهذا فانه ليكاد يعجز الباحث ان يجد متدينا حرفيا استطاع أن يكون فى الحياة شيئا مذكورا ، وأن يتقدم بها ويعطيها ما ليس عندها . ونجد كل الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والاساليب المبتكرة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين وبالتحلل منه »

قلت : خليق بمن هذه حاله وهذا رأيه ، ان لا يجد مفرًّا من أن ينفث هذا الشر الكامن فى قلبه ، لأن هذا القيح المنضغط فى صدره لا بد من خروجه

والا قتله فلا مفر من نفثه والقول به لـكى يعافى منه ، لانه خبث قاتل اجتمع وتكون من الشك والريب وفساد العقيدة والقلق وانعكاس الرأى . هذه حقيقته فما ذكره من أن الروح الدينية كثيرا ما تكون سلبية تجاه الحياة . الى آخره كذب ظاهر فإن الروح الدينية المحض روح فعـــالة قوية وثابة صارمة تدفع بمقتضياتها الى التربية العالية فانها توجب بتعاليمها تحصيل الاسباب المادية التى بها قوام الدين وليس هناك روح دينية تنافى الروح المادية بل روح الدين الصحيح توجب تحصيل ما يؤيدها من الاسباب المادية من الاستعداد للاعداء وجمع الكلمة وازالة العوائق التى فى سبيل ذلك . ولـكن كلامه يدور على عدم اتفاق الدين واسباب التقدم ، بل روح الـكتاب كله يدور على تضاد الدين والتقدم ، ولهذا ادعى هنا انه يعجز الباحث ان يجد متدينا استطاع ان يكون فى الحيـاة شيئا مذكورا ، وصرح بأن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم هم المنحرفون عن الدين والمتحللون منه ، وهذا نص صريح فى الدعاية الى رفض الدين وتصريح بان الدين اعظم حجاب عن النهوض والتقدم لأن أهله ـ على كثرتهم ـ لم يتحصلوا على صنع الحياة وايجاد العلوم لها وانمـا تحصل على ذلك من تحلل من الدين . واى قدح فى الدين وسب له اعظم من هذا . وقد كرر هذا المعنى مرارا كثيرة جدا وهو كفر صريح لانه قدح ظاهر فى الاديان لان مضمونه ان الله ارصد للبشر دينا يمنعهم عن التقدم والنهوض فى حياتهم وان الانبيـاء سعوا فى هدم الحيـاة والى حث الناس عـلى الانحطـاط والدمار فلو تركوهم ومواهبهم واستعداداتهم الكامنة لتقدموا . هذا مقتضى كلامه بل صريحه وقد صادم قول الله تعالى ﴿ كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ﴾ الآية الى غير ذلك من الآيات التى لا تحصى كما تقدم بيانها . وقد نسى هذا الملحد ان الذين هدموا الحياة وجروا على الانسانية الويلات والأنات الطويلة والدمار الفظيع والفناء المتتابع واماتة الاخلاق العالية هم المنحرفون عن الاديان المتحللون منها ، وقد صرح فى آخر الـكتاب بمثل ما صرح به هنا حيث ذكر أن

المتدينين على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم واجناسهم عجزوا عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا وان يكونوا فيها مخلوقات متألقة ، انتهى .
فالكتب السماوية كلها ، وتعاليم الانبياء المقدسة التى سار على ضوئها الوجود كله وآراء فحول اهل الاديان كلها ، ليس بشىء فلم يهبوا الحياة ولم يصنعوا لها شيئا جديدا ، وأما أغلاله التى من أطول آياتها او سورها مسبته وزارة التموين المصرية حيث لم تبعه ورقا على الفور هو الشىء الذى يهب الحياة وهو الشىء الذى يكون به المخلوق متألقا ، ثم مع هذا يصرح بان ذلك كله لسادته من الملاحدة والزنادقة فقط . ونحن نتحداه ببيان بشىء واحد جديد صنعه الملاحدة استقلالا بدون المتدينين وبدون شىء من مبادئهم فانه لا يمكن بحال أن يجد هذا ابدا ، كما نتحداه ان يوجد لنا ملحدا اوزنديقا أو متحللا كان فى الحياة شيئامذكورا ولم يكن فى المتدينين من هو ارفع منه قدرا واظهر منه ذكرا ، ولعله لم يتحلل من دينه ويرتد بعد اسلامه الا من اجل ان يكون مثلهم فيهب الحياة شيئا جديدا ويكون فيها مخلوقا متالقا ، ولكن الله عامله بنقيض قصده

ما اقدر الله ان يخزى خليقته ولا يصدق قوما فى الذى زعموا

وما هى الحياة الصحيحة التى اختص بها الملحد المتحلل دون اتباع الانبياء .
بل الذى نقوله انه لا يوجد فى الدنيا شىء جديد نافع سواء كان ماديا أو علميا الا وأصل ابداعه أو اولياته من المتدينين ، ولا يوجد ملحد فى الحياة صار مخلوقا متألقا أبدا ولو بلغ ما بلغ ، فلا بد ان تنغص عليه حياته . قال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ فالحياة الطيبة انما يختص بها من عمل صالحا فقط ومن حرم من العمل الصالح فقد فقد من الحياة الطيبة بقدر حرمانه . وهذا أمر لا يشك فيه الا من فى قلبه ريبة ولم يسبر الامور وينظر اليها بعين البصيرة . ثم التألق ما هو أهو ركوب الطائرات وغيرها من سائر المركوبات المتنوعة الحادثة او أكل المأكولات اللذيذة ونحوها فان هذا كله قد اشترك فيه المتدينون والملحدون والكلاب والخنازير

وغيرها من اكثر المخلوقات وان كان شيئا آخر فليبينه حتى نعرفه ونجيب عنه

فصل

ثم قال : « والعيب بلا ريب عندنا ليس عيب الدين ، ولكنه عيب المتدين العاجز عن التوفيق بينه وبين مطالب الحياة »

قلت : قد أصبت فى قولك منافقة « عندنا » حيث أضفت هذا الرأى الى نفسك ، لان العقلاء كلهم يتحاشون عن هذا الرأى ، فان عيب المتدين إنما ينشأ عن عيب دينه بلا شك ، فكل متدين بدين فلا بد أن تظهر أخلاقه عليه ، ومن عاب أخلاقه التى بها يدين فقد عاب دينه ، فان الدين ليس شيئا قائما بنفسه إنما هو أعمال واعتقادات وأقوال تقوم بالمتدين ، فمن عاب المتدين لدينه فقد عاب دينه بلا شك ، وإذا قيل إنه لم يعمل بالاخلاق الدينية المطابقة لحقيقة الدين قيل هذا يحتاج أولا الى بيان ، ومتى ثبت خروجه عن العمل به كما ينبغى ثبت التفريق بين الدين والمتدين ، ولا يثبت التفريق بمجرد الاجمال والدعوى ثم اذا ثبت التفريق زال اسم المتدين المطابق لمسماه إما فى الجملة وإما فى الغالب ، والا فمحاولة التفريق بين القدح فى المتدين ومدح الدين محاولة خداع ونفاق ، فان هذا يفضى الى سب الأديان وشتمها والقدح فيها بمجرد هذا العذر البسيط الذى لا يعسر على أحد ادعاؤه ، واحترام الأديان وتعظيمها من أعظم أركان الملة فيمنع القدح فى المتدين حتى تظهر مخالفته للدين ، ثم بعد ظهورها يقدح فيه بأفعاله مقرونة بالقدح ، فلا يجوز سب المتدين بلفظ الاطلاق حتى يعرف خروجه عن ديانته ووجه القدح فيه ، كما يمنع سب المصلى والمزكى والمتصدق والموحد والعابد والمسلم ونحو ذلك حتى يتبين مخالفته لافعاله بيانا واضحا ، ثم بعد البيان يقدح فيه ، لا باسم الدين بل باسم فعله الذى أوجب القدح فيه . ومن اعظم الواجب ان يبين من قام بالدين الصحيح ومن قام بما يخالفه حتى يصح مدح الدين على وجه الاطلاق ويصح مدح من قام به ، أما الدين الذى

لا يدرى ما هو ولا من قام به فمن أين يعلم صحته وفساده ، ومن أين علم المدعى صحة الدين وهو قد ذكر فى آخر الكتاب أن البشر عاجزون عن فهم الدين الصحيح وتصوره على وجه نافع مفيد إلا فيما ندر ، فمن أين يعلم هذا النادر وهو لم يبينه ولم يشر اليه إلا فى دعواه أنه ما تضمنه هذا الكتاب الذى هو الاغلال ، فكيف يمدحه ويدعى أن العيب ليس عيبه اذن ، وانما قصد بذلك الخداع ، ثم اذا كان العيب ليس بعيب الدين مع خفاء الدين على ما يدعى فما هذا الحط الشديد على أهله مع عدم تحقيق مخالفتهم له ، وهـذا أمر يجب التفطن له فانه طالما كرره وخادع به ، ثم اذا كان جميع المتدينين على اختلاف أجناسهم وديارهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأزمانهم كلهم قد عجزوا عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا لأنهم عجزوا عن التوفيق بين الدين وبين مطالب الحياة فكيف لا يكون العيب عيب الدين ، اللهم إلا أن يكون دماغك الذى هو أكبر دماغ فى العالم ـ على مقتضى رأيك ـ يريد أن يوفق بين الدين وبين مطالب الحياة فى هذا الكتاب المظلم او فى هذه الأغلال المحكمة ، وحينئذ يحصل لنا الرجل القادر على التوفيق بين الدين وبين مطالب الحياة كما يحصل لنا معرفة الدين الذى لا يعاب وهو ما تضمنه هذا الكتاب ، ويكون اذن ليس العيب عيب الدين بل عيب الأنبياء وأتباعهم على اختلاف أجناسهم وديارهم وأزمانهم وأمزجتهم ، لأنهم لم يقدروا على التوفيق بين الدين وبين مطالب الحياة ، اذ لو كانوا قادرين لوهبوا الحياة شيئا جديدا ، ولصنعوا لها العلوم المبتكرة ، ولكانوا فيها مخلوقات متألقة . ومن كان عاجزا عن هذا فانه لم يوفق بين الدين وبين مطالب الحياة ، فيكون متدينا تدينا باطلا ، لأن من لم يوفق بينهما فهو كذلك كما ادعاه غير مرة ، وهو واضح فلا حاجة الى المخادعة .

فصل

قال : « وقد أدرك هذه الحقيقة القدماء ، ويروى أن زياداً ذلك القائد

الداهية العربى المشهور قال : أما عبد الله بن عمر فقد قعدت به تقواه ، يعنى عن النهوض الى السيادة والمجد . وقال المتنبي يصف الرجل الذى سيكون عونه فى انتزاع الملك :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج فى الحرم

يريد أنه غير متدين لأنه يرى المتدينين غير أهل لما يطلب ويراد منه ، ولما قال أحد الشعراء يمدح المأمون :

أمسى امام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

غضب وقال : « مازدت أن جعلتنى عجوزاً عاجزة عن الحياة »

قلت : استدلاله بهذه الأمور مما يدل على رسوخه فى الغباوة وسقوط الرأى ، ولا عجب فالمضطر يأكل الجيف ، وإلا فلو كان له أدنى مسكة من عقل وحياء لم يسجل على نفسه هذه الفضائح المخزية مع أنها حجة عليه . وليس فى هذه الأقوال على سذاجتها ما يدل على أن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان حتى تكون مطابقة لقوله ، وقد أدرك هذه الحقيقة القدماء ، فليس هولاء هم القدماء مع أنه ادعى أن القدماء رجعيون لا يؤخذ بأقوالهم . أما ما ذكره عن زياد فادنى رجل من عقلاء المسلمين يعلم أن ابن عمر أشرف وأجل وأعظم من زياد دينا وعقلا ورأيا ، بل لا نسبة بينهما فى الفضيلة والشرف ، هذا لو قدر أن زيادا هذا الظالم المعروف بالظلم انتقد على ابن عمر وسيرة زياد هذا وظلمه لا يخفى على من له أدنى خبرة بأيام الناس ، وكم لزياد هذا من الأقوال والأفعال ما يعاند رأى هذا الملحد ، ولكنه لم يعشق من قوله إلا هذه الكلمة ، وهى ـ لو صحت ـ فليس له فيها حجة بوجه من الوجوه فإن قوله « أما عبد الله بن عمر فقد قعدت به تقواه » فهذا مدح له لاذمّ ، فانه ليس فيه أنه قعدت به تقواه عن السيادة والمجد والقيام بما يجب كما زعم هذا الضال ، ولا فيه مايشير الى هذا ، وزياد أعقل من أن يقدح فى ابن عمر وهو يعرف حالته وحالة ابن عمر عند الناس ، وليس ابن عمر بعدوّ له حتى يتكلم

فيه بما يشينه ، فليس هناك باعث لا من عصبية ولا دين ، وانما أراد بهذه الكلمة - إن كان قالها - أن تقواه قعدت به عن الدخول فى الفتن وسفك الدماء وطلب مالا طائل تحته ولا فائدة فيه ويستبعد حصوله ، فان التقوى هى التى تقعد عن هذا ، لا تقعد به عن طلب السيادة والمجد المشروع ، بل هى تبعث على ذلك ، فمن أين لهذا الزائغ أن زيادا نوى هذا الذى ادعاه . ومعلوم أن ليس فى ظاهر كلامه ما يشير اليه ألبته ، وليس له أن يحرف كلام زياد ويؤوله على رأيه فيقوّله ما لم يقل ويظلم ابن عمر بضعف الهمة ويجزم بذلك بدون تردد ، بل يجعله حجة يحتج بها ، فان ما ذكرنا هو المعقول من حالة ابن عمر ، فانه لم يكن مع على فى تلك الحروب ولا مع معاوية ، بل اعتزل هذا وهذا ، فان هذه الحرب حرب فتنة لم يحصل للمسلمين منها طائل ، ولهذا لم يدخل فيها كثير من رؤساء الصحابة وبكل حال فلا حجة له فى كلام زياد هذا بل هو حجة عليه ، وقد كان زياد هذا معروفا بقتل الزنادقة والملاحدة فهلا احتج بما فعله فى ذلك كسائر أفعاله

وأما استدلاله بقول المتنبي فمن أغرب الاستدلال أيضا ، والعجب أنه استحسن هذا القول الخبيث المنكر حيث كان ملائما لطبيعته الخبيثة :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج فى الحرم

وجعل هذا القول دليلا على ضعف رجال الدين وضعف همتهم ، ونسى هذا الملحد أنه قال فى كتابه (الفصل الحاسم) ص ٨٠ فى اعتراضه على الدجوى لما استدل بقول المتنبي ، فقال هذا الملحد ما نصه « ولا يحتج بكلام المتنبي على ايمانه إلا من يصدّقه فى ادعائه أنه رسول الله ، وإلا فاى انسان يستدل بقول شاعر فاسق متهوّر متناقض على عقيدته ، اعتبروا ياقوم وانصفونا ، هذا يكفرنا اذا احتججنا بكتاب الله وبكلام رسوله على أن لا يدعى الا الله ، وهو يحتج بشعر رجل يتصلصل الالحاد والفسوق فى شعره تصلصلا ، يكفرنا اذا آمنا بربنا واحتججنا به على صفاته ، وهو يستدل بكلام الشعراء ، اللهم

اهد قومى فانهم لا يعلمون ، ولماذا يحتج بقوله هذا ولا يحتج بقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت ايـــلام »

انتهى كلامه بحروفه . فنحن نخنقه بغله الذى صنعته يداه ، ونقول له كما قال لعـــدوه :

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيـــلام

ومع هذا فالبيت الذى استشهد به لا حجة له فيه ، والمتنبي لم يرد ما ادعاه هذا الملحد من أنه يمدح هذا الشيخ بل هو ذم له فى التحقيق لا مدح له ، ومن أين له أنه يريد مدحه ، فلو فرض أنه يريده عونا له على انتزاع الملك كما يدعى فهو لم يظفر بذلك وقد يحتاج الانسان الى اعانة الفاجر كما يحتـــاج الى اعانة الكلب ونحوه على بعض شئونه ، فليس فى بيته مدح أو شرف ، ثم قوله « لانه يرى أن المتدين غير أهل لما يطلب ويراد منه » يقال : ان كان يرى هذا فهو يرى أنه غير أهل لما يطلب منه من الاعانة على الفجور والمنكر والظلم والنفاق والقيادة ونحو ذلك (١) فهذا أولى ما يحمل عليه كلامه لأنه مدح أناسا كثيرين من المـلوك والأمراء وأثنى عليهم بالدين وأنهم أهل للملك بذلك ، فاما أن يجمع بين كلامه كما ذكرنا وإلا يكون متناقضا فيسقط ويكون لا حجة له فيـه على كل تقدير ، والعجب أنه حمل قول المتنبي على هذا الرأى الذى اخترعه على هواه ، ثم فرّع عليه فجعل هذا الرأى الذى رآه المتنبي أعظم من رأى الصحابة وأئمة المسلمين الذين اختاروا أبا بكر وعمر وعثمان واعتمدوا فى ذلك عـــلى فضائلهم الدينية ، وتبعهم الأئمة على ذلك فقرروا أنه يجب تولية الأمثل فالأمثل فى الدين وجعلوا الدين من أركان الولاية ، وأن الكافر لا صحة لولايته ، فلو كان عدم التدين هو المطلوب للرآسه وأن المتدينين غير اهل لما يطلب ويراد

---

(١) وهو هنا انما أراد أن يكون عونا له على نقض العهد وسفك الدماء واثارة الفتنة ، وهذا ليس بمدح على التحقيق إلا عند الزنديق

منهم فى القيام بالأمور الهامة لكان اعظم من وقع فى هـذا الغلط هم الصحابة والقرون المفضلة ، وكلامه يتضمن القدح فى الأمـة بلا شك اذ استشهاده به وتفريعه عليه ظاهر فى ذلك . ثم ان فى شعر المتنبي فى الابيات الكثيرة الشهيرة التى يطول ذكرها فى مدح الملوك والأمراء وغيرهم على فعل الطاعات والقيام بالدين مالا يخفى على عارف ، وكل ذلك لم يملأ نفسه وانما ملأها هـذا البيت الخبيث الساقط المنتن ، فلهذا أخذه وحفظه وكتبه وتمسك به واحتج به وعض عليه بالنواجذ ، وهذا هو اللائق بمن انسلخ من آيات الله وأخلد الى الارض واتبع هواه

وأما احتجاجه بمعارضة المأمون لذلك الشاعر فما اسخفه من استدلال ، فهو لو صح فلا دليل فيه كما هو ظاهر ، فان المأمون إنما انكر وصفه بالانقطاع فى العبادة لكونه خليفة واضاعة امور الناس . لأن النظر فى امور الناس ممن هو مثل المأمون او دونه محتم فيكون تركه نقيصة لا يجوز المدح عليها ، وهو لم ينتقده إلا فى وصفه بالانقطاع ، لا بالعبادة فى الجملة ، بدليل صريح انكاره ، ولا شك ان الواجب فعل الطاعات المفروضة وما يتبعها والقيام بما يجب من امور الناس حسب الطاقه وما سوى ذلك فمستحب ومباح فأى حجة فى هذا ، ولو انه احتج بأفعال المأمون واقواله المنكرة الخبيثة الشنيعة فى تعذيب الأئمة والقول بخلق القرآن وانكار العلو والرؤية وتحريفه لصفات رب العالمين لكان من جنس احتجاجه بهذا ، والحمد لله إنه لم يجد ما يحتج به على إلحاده وترويج دعايته وتنقيصه للمتدينين الا بمثل هـــذه الاقاويل السخيفة التى لا تليق الا بالعقول الضعيفة ، وإنما ناقشناه هنا بهذه المناقشه الطويلة لأن هذه هى اكبر البراهين عنده فى احتجاجه على الطعن فى اهل الدين ، فانه هو غاية ما قدر عليه

فصل

ثم قال « فطبيعة المتدين ـ غالبا ـ طبيعة فاترة فاقدة للحرارة المولدة للحركة

المولدة للابداع ، ومن ثمة فانك غير واجد اعجز ولا اوهن من هؤلاء الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية »

قلت : هذه دعوى مجردة من عدوّ على عدوّه ، فتقابل بالردّ على من قالها ، بل تعكس عليه عكسا صحيحا ، لأن ذلك هو الحق بلا شك ، فان طبيعة الملحد طبيعة جامدة فاقدة لحرارة الايمـــان المولدة للحركة الصحيحة المولدة للانتاج الناجح المفيد ، ولهذا فانه لا يوجـد أكسل ولا اعجز ولا اوهن ممن رفض دينه واتبع هواه ، وهذا أمر قد عرف بالحس والاستقراء لا بمجـرد التخرص والمجازفة والدعوى ، ويكفي دليلا على هذا انك لا تجد ادين ولا اتقى من الصحابة رضى الله تعالى عنهم واهل القرون المفضلة ، ومع ذلك فلا تجـد اقوى حركة ونشاطا ولا ادوم صبرا ولا اثبت قلوبا منهم ، وقد كانت نتائج حركاتهم اعظم النتائج واحمدها واصلحها وادومها ، ولقـد قضوا حياتهم او اكثرها فى الغزوات النافعة الشديدة والسديدة واصلاح شئون البشرية حتى دخل الناس فى دين الله افواجا ووجدوا عزّ الحياة وراحة اليقين والطمأنينة بعد ان ذاقوا من ويلات الكفر وعدم الدين والفوضى ما لا حـدّ له ، ولما ضعفت الديانة فيمن جاء بعدهم ضعفت الحركة والحرارة فيهم بقـدر ضعف الديانة ، فكانت القوة والحرارة دائرة مع الدين ، وهكذا كانت الحالة فى كل من كان اشد صلابة فى دينه فى كل القرون ، فإنه يكون اشد حرارة واحسن آثارا ، فكل من كان اشد تمسكا بما كان عليه اهل القرون المفضلة كان اشد قوة وصلابة فى كل شئونه واعماله ، وقد كان معروفا لدى الخاصة والعامة انه بعد القرون المفضلة لم يكن اشد صلابة فى دينهم فى القرون الوسطى من امثـــال السلطان محمود بن زنكى الشهيد وصلاح الديـن الأيوبى والسلطان محمود بن سُبكتكين واولاده وقد عرف قوة شكيمة هؤلاء وحركاتهم ونتائجها ، بخلاف آل بويه والفاطميين العبيديين وامثالهم من البعداء عن الدين فقد عرف ضعف حركتهم وفساد نتائجها ، فقـد اصيب المسلمون فى زمانهم بالضعف الشـديد

لبعدهم عن الدين ، وقد عرف واستفاض لدى العالم ما ابدته الدولة السعودية من البسالة النادرة والشجاعة المدهشة فى حركاتها كلها من اول ظهورها الى هذا الوقت حتى ظهر لها من النتائج الحسنة فى العالم مالا ينكره إلا مكابر ، هذا مع قلتها وقلة ما لديها من العدة والعدد سوى دافع الدين الصحيح والايمان القوى المتين . او ما علم هذا الاحمق انه بهذا الكلام قد صرح بثلب حكومته التى ينسب نفسه اليها كما سب سائر المسلمين ، وكل عارف بحال هذا الزائغ يعلم انه من اول عمره الى آخره إنما يعيش ويتمتع بما ناله من حركة المتدينين فى مدخله ومخرجه ومأكله ومشربه وملبسه وكل شئونه بانتسابه الى المتدينين . ولا يخفى على كثير من الناس ما ابداه من شدة المنافقة والخداع والتملق الزائد اولا وآخرا فى استحصال ما يستمده من عندهم ، فلما حصل له شيء من هذه النعمة كفر بها وقابلها بالجحود والتمرد ، وقد قيل فى الحكمة « ابت النفس الخبيثة ان تخرج من الدنيا إلا وقد اساءت الى من احسن اليها » . وبالجملة فأدنى عاقل يعلم ان طبيعة المتدين الذى تدفعه حرارة الايمان بالله واليوم الآخر ومحبة الله وطلب رضاه وما يرجوه من النعيم الاخروى ويخشاه من العذاب الاخروى اعظم من حرارة من لا يدفعه الى عمله غير شهوات بطنه وفرجه وامثال ذلك من الامور التافهة الضئيلة التى حاصلها تمتع كتمتع الوحوش او الانعام ، ولهذا تجد هؤلاء فى حركاتهم ومقاصدهم كالوحوش فى معاملاتهم مع غيرهم ، وكالأنعام فى شهواتهم النفسانية ، فلا تعدو ان تكون حركاتهم لمصالحهم الخاصة فقط

ثم قال : « ونرجع فنكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له ، ولكن الذنب ذنب النفس البشرية التى لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين والتوفيق بين الروحين : روح الدين ، وروح العمل للحياة . وسيكون عملنا هو محاولة التوفيق » انتهى

قلت : هذه هى سجيته دائما فى المراوغة المنكرة ، فهو كما قال فيه الاستاذ

السيد قطب « هذا رجل ينافق يريد أن يطعن الطعنة فى صميم الدين خاصة ، ثم يتوارى ويتحصن فى الدين وينكر ما قد يفهمه القارىء من بعض النصوص ومن روح الكتاب كله وراء النصوص » انتهى . وقد صدق فان عمله هذا عمل من يريد أن يظهر شيئا فيمنعه مقصد آخر ، فهو تارة يصرح به وتارة يأتى بما يظن أنه يعمّى مراده . وقد علمت من كلامه هذا أنه ادّعى أن كتابه هذا هو التوفيق بين روح الدين وروح العمل ، وأنه قدر على ما لم يقدر عليه أحد غيره ، لانه قرر أن الابداع وصنع الحياة إنما يقدر عليه من وفق بين روح الدين وروح العمل ، وقد ذكر أن المتدينين على اختلاف اجناسهم وديارهم وأنبيائهم وأزمنتهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، فعلى هذا فهم لم يقدروا على التوفيق بين الروحين ، والا فلو قدروا لوهبوا الحياة شيئا جديدا ، فهذا الرجل قدر على مالم يقدروا عليه كلهم ، مع أنه ادعى فيما سبق قريبا أن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والاساليب المبتكرة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين وبالتحلل منه ، فيكون التوفيق الذى حاوله فى هذا الكتاب هو الانحراف عن الدين والتحلل منه ، وهذا التحلل والانحراف هو التوفيق بين روح الدين وروح العمل للحياة ، فقد صرح بالكفر الظاهر ، وان كتابه كفر صريح لان مضمونه - بمقتضى كلامه المتناقض المتعاكس - هو الانحراف عن الدين والتحلل منه ، بل هو الواقع الذى لا شك فيه

فصل

ثم قال « وان مما يؤلم ويتعجب منه حقا أن هذا الانهيار الشامل لم يكن وقفا على الشعوب الاسلامية فحسب ، بل شملها وشمل الشعوب المؤلفة من المسلمين وغير المسلمين »

فيقال : وهذا ايضا حجة عليك ، فانه دليل على أن ضعف المسلمين لا بسبب دينهم الذى صنعت هذه الاغلال لرفضه ، فاننا نرى كثيرا من هذه

الشعوب اللادينية والوثنية المحضة قد اجتاحها هذا الضعف والاندحار ، بل هو فيها أعظم من الشعوب المتدينة بالاسلام ، فلو كانت طبيعة المتدين كما تزعم طبيعة فاترة ، وأن المنحرف عن الدين المتحلل منه هو المستطيع لصنع الحياة ، لوجدت الحضارة والمدنية فى الشعوب الملحدة العريقة فى الالحاد والوثنية المحض (١) ، فلما كان الانحطاط فى هذه الشعوب الملحدة ملازما لها سائرا معها الى اليوم علم أن الانحراف والالحاد الذى تدعيه وتدعو اليه ضرر محض وتأخر ظاهر . ثم أخذ يعيد ما تقدم بأن أمريكا وأوربا تقدمت علينا بصناعتها وتجارتها وغيرها ، وقد سبق الكلام على هذا قريبا فراجعه .

ثم قال : « ان المطابع تخرج لكبار الكتاب ولصغارهم كل عام ما يصعب عدّه من الاسفار المؤلفة فى الآداب ونحوها ، ولكن أى كتاب أخرجته فى هذه القضية بل أى كاتب فكر فيها » (٢)

قلت : قد أخرجت المطابع كثيرا من الكتب المتنوعة كل عام فى هذه القضية مما لا يعد ولا يحصى ، ومن تتبع الكتب الدينية والادبية والتاريخية وغيرها من المجلات والجرائد علم ذلك يقينا ، وهذا تفسير المنار والوحى المحمدى وأم القرى وغير ذلك من الكتب القديمة والحديثة مما يصعب حصره كل ذلك كما تقدم ، ولكن لما كانت هذه الكتب كلها على خلاف ما تريده عميت عنها ونسيتها وأبصرت وحفظت كتاب الملحد جستاف لوبون المسمى (الآراء والمعتقدات) فانه لما كان هذا الكتاب يوافق رأيك ومزاجك ومعتقدك ـ وكتابك هذا كله على حذوه فى الحاده ـ حفظته وجعلت مؤلفه فيلسوفا عظيما ، ونقلت منه هذه الجملة الخبيثة التى هى « ان الايمان بالله وحده

---

(١) كشعوب جنوب أفريقيا وغيرها

(٢) هذا يناقض ما ادعاه فى نبذته « كيف ذل المسلمون » من أن هذه القضية كتب فيها كثيرون .

كان نكبة على البشر » وجعلتها هى روح كتابك كله ، وقولك « أىّ كاتب فكر فيها » فنقول لك أما على تفكيرك فنعم ، فمن هو الذى أوتى مثل ما أوتيته من عظمة العقل وكبر الدماغ والاختيال والغطرسة ، فلقد جمعت المتدينين على اختلاف ديارهم وأجناسهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم فى صعيد واحد وجعلتهم كلهم من أولهم الى آخرهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقة لأنهم لم يستطيعوا ان يوفقوا بين روح الدين والعمل ، وأنت وحدك استطعت ذلك فأودعته فى هذه الاغلال وادعيت أن ما فيها حقائق ازلية أبدية لا تأخذ بها أمة إلا نهضت ولا تتركها أمة الا هوت ولن يستغنى عنها مسلم واحد بين الاربعمائة المليون المسلم ، فمن هو الذى يفكر هذا التفكير الواسع ، وأين الدماغ الذى يحمله . فتباً لك ما أسخف عقلك ، وهذه سنة الله فيمن رفض دينه ولم يرد إلا الحياة الدنيا أن يكون هذا مبلغه من العلم

ثم ذكر أن الشعوب اذا مرضت أمراضا اجتماعية ضعف شعورها ، وهذا لا حجة له فيه ، لأن كلامنا معه فى هذه الامراض وعللها لا فى وقوعها ، فهو يريد أن يجعل أسبابها أخلاق الدين ، ونحن نحقق أن أسبابها البعد عن الدين أو التطرف فيه

ثم استطرد بأن الناس قد ألفوا ما هم فيه من الاستعباد ولم ينهضوا ولم يفكروا فى النهوض ، وأنهم فى أسوأ حالة ، وهذا لا نزاع فيه فى الجملة ، ولكن لا علاقة له بالاستهزاء بالمتدينين والحط عليهم والسخرية بهم وأن الدين آلة ضعف ، وهذا هو أعظم ما ننازعه فيه ، وكلامه كله يدور على أن الدين هو الذى أضعف المسلمين ، ونحن نقول : بل عدم التدين والتقصير فيه هو السبب للتأخر ، والبرهان على هذا إجمالا أمران :

أحدهما الواقع المشاهد ، فان المسلمين منذ عهد القرون المفضلة لما كانوا متمسكين بالدين على وجهه الصحيح كانوا فى أعظم عز وأرقى أمة ، وكلما بعدوا عن التمسك بعدوا عن العزّ والتقدم بمقدار بعدهم عن التمسك ، وهذا ظاهر

والأمر الثانى النصوص الصحيحة الكثيرة التى لا تحصى فى الدلالة على وجوب الاعتصام بالدين والتمسك به، وأن النجاح والتقدم والعز المستمر الصحيح الطيب معلق به، فمن تمسك به فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقد قدمنا الشواهد من النصوص على ذلك فى أول هذا الكتاب، فتأخرهم ليس إلا نتائج تأخرهم عن التمسك به وعدم الأخذ الصحيح به والمحافظة عليه والتعظيم له، وما دخل على الناس هذا الذل الا لما أدخلوا فى أصوله ما أدخلوه من البدع المعروفة واتبعوا أهواءهم وانقادوا لشهواتهم وقطعوا أوقاتهم فى مواضع اللعب والملاهى وتصنيف المقالات التافهة التى لا نفع فيها، وتهالكوا على الدنيا ومحبتها حتى لا تكاد تجد الا من شاء الله من يوثق به فى النصح بالقيام بعلمه ووظيفته، والأغلب انما يتبع مصالح نفسه الخاصة، وكل ذلك ناشىء عن ضعف الأخذ بالدين الذى أساسه قوة الايمان وصحته، فما ذكره حجة عليه لا له. والله اعلم

فصل

قال: «أما أنا - وقد يكون هذا لسوء حظى [١] - فلقد فكرت فى هذه المسألة تفكيرا شاقا مضنيا، وما زلت منذ ست سنوات ورأسى يلتهب بالتفكير فيها التهابا، مقلبا لها على كل الوجوه، محاولا إنضاجها فى معمل الفكر، وما فتئت كل هذه الأعوام أثير مع الأصدقاء ومن يظن بهم الفهم والعلم حولها المعارك الكلامية والحروب الجدلية بغية الاحاطة بها من كل أطرافها والالمام بأسبابها، حتى لقد ظننت بها شبه مريض أشفى اذا تحدثت فيها، وأمرض اذا سكت عنها. وقد اجتهدت أن ادرس القضية درسا دقيقا من كل وجوهها واحتمالاتها فدرستها فى الكتب التى ظننتها مصدر الداء، ودرستها فى التاريخ

---

(١) ما فى ذلك شك

الخاص والعام ، ودرستها — وهذا ابلغ الدرس — فى نفوس المسلمين : فى نفوس الخاصة والعامة ، المتعلمين والجاهلين ، الآخذين معارفهم عن الشرق أو الغرب»

قلت : ذكر هنا سبب تأليفه لهذه الاغلال والله اعلم بحقيقة الحال ، ولسنا بصدد التعرض للبحث عن صدقه فى هذا أو كذبه ، ولكن الذى لا نشك فيه أن له قصداً سيئاً فى تأليفه ، فمثله لا يجهل ما تضمنه من صرائح الكفر المخالف للأديان السماوية كلها ، ولا شك أن تأليفه لهذه الآراء من سوء حظه دينا ودنيا ، وقضية المسلمين لم تهمل — كما زعم — ولله الحمد ، وسبب تأخرهم ليس هو ما ذكره ، بل السبب الوحيد لذلك هو تقصيرهم فى التمسك باصل دينهم واعتماده والرجوع اليه ، ثم فى الاخذ بالأسباب المادية النافعة والاستعداد التام للعدو ، ثم فى تفرقهم شيعا بسبب المحاماة للمذاهب والتعصب للأنساب حتى نتج عن هذين السببين تلك الحروب والثورات المتتابعة بينهم ، فصار بعضهم يكفر بعضا ويشتم بعضهم بعضا ، فاشتغل بعضهم بالايقاع بالبعض الآخر والكيد له . هذا هو السبب الذى لا شك فيه ، فمن يحمل عهدة التأخر على التمسك بالدين فهو مصاب فى دينه وعقله ، وقد علم بلا شك أن تقدم المسلمين فى القرون الأولى انما هو بالتمسك بالدين ، ولذلك كانوا بسبب تمسكهم أعز دولة على وجه الأرض ولم يتغير عزهم وتقدمهم حتى غيروا أصل دينهم بتحريف الصفات وعبادة المخلوقات ، ونحو ذلك . ومعلوم أن انتاجهم وإبداعهم فى الأسباب المادية فى تلك القرون بالنسبة الى غيرهم من دول الحضارة لا يعد شيئا مذكورا ، وانما نالوا ذلك كله بقوة الدين والتمسك به والسير على مقتضى الأوامر السماوية ، وهذا هو الانتاج المعنوى الصحيح النافع ، والأسباب المادية فرع عنه فهى تابعة له ، ولو أن هذا المختال الفخور درس هذه القضية وعللها فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة لوجد ذلك ولوجد حقيقة الأسباب يقينا لا شك فيه ، ولا حاجة الى هذا الضجيج والتعب والنصب واللجاجة والخصومة ، قال تعالى ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان

فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ فلا أبين ولا أكبر ولا أعظم من قوله جل من قائل ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ﴾ وقال تعالى ﴿ يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وقال تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام « انى تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله » وقال عليه الصلاة والسلام « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدى الا هالك » والآيات والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة جدا . ولكنه لم ير هذه الطريق الصحيحة شيئا كبيرا نافعا يكتفى به ، بل فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر ، فلم تملأ نفسه هذه المراجع الكبيرة العظيمة فاستصغرها واحتقرها وشمخ بانفه عنها ، وذهب يلتمس العلل فى غيرها - كما زعم - فباء بالخيبة والعلة القاتلة بأن اخلد الى الارض واتبع هواه ، فلذلك اصيب بما أصيب به أمثاله من المنسلخين ، فكانت طريقته فى هذا الكتاب اللهث على الدنيا بشدة غريبة ، وجشع ماله من نظير فى الحث على أسبابها واكتسابها من جميع الطرق المتباينة ، ونبذ ما يخالف ذلك من ديانة وقناعة ، وهذا ظاهر على حاله عند كل من عرفه وعرف مقاله

فصل

ثم ذكر أنه قد خيل اليه أن قد صدر فى هذه الدراسة عن نتيجة طيبة كاملة فقال « وقد خيل إلى أنى قد صدرت فى هذه الدراسة والبحث عن نتيجة طيبة كاملة بل نتيجة صحيحة لا شك فيها عندى ، فجئت أعرضها هنا عرض مؤمن

بها وأسجلها تسجيل مؤمن بما سجل »

فيقال : كلا بل صدرت عن نتيجة خبيثة مشئومة ، وداء عضال لا شفاء منه ، فلا شك فى بطلان ما ذكرته وسجلته عند كل عاقل يميز الحق من الباطل ، فان هذه الجراثيم الخبيثة التى قذفتها فى هذا الكتاب هى من المواد القذرة التى شربتها من آراء الزنادقة وخبثاء الملاحدة ، وخليق بمن صدر عن هذه الموارد القذرة مملوءاً قلبه من عصارتها أن يقذف هذا الوباء الخبيث . وكونها صحيحة عندك وأنك مؤمن بها لا يدل على صحتها فى نفسها ، فكل حيوان يستطيب ريقه وان كان خبيثا ، وقد قال تعالى فى المنافقين ﴿ ويحسبون أنهم على شىء ، ألا انهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ ثم ذكر أن التفاوت الذى بيننا وبين الغربيين فى التقدم ليس سببه تفاوتا فى أصل الخلقة أو صدفة من الصدف وانما سببه أنهم فهموا الحياة وسنن الوجود وما بين الأسباب والمسببات من الارتباط ، ونحن جهلنا ذلك ، يعنى أنهم علموا قوانين الطبيعة ونواميسها ، ونحن لم نعلم ذلك كما ذكر فى المواضع الأخرى الآتية ، فعلمهم بذلك هو الذى قدمهم ، وجهلنا به هو الذى أخرنا . وهذا الذى ادعاه غير مسلم على اطلاقه ، فليس هذا هو السبب ، بل فيه مؤاخذات ومناقشات يأتى الكلام فيها ، ثم انه ضرب مثلا أهوج يثبت به ما ادعاه فى الفرق بيننا وبينهم ، لأنهم تقدموا بفهم قوانين الطبيعة ونحن تأخرنا حيث جهلنا ذلك فقال :

« شعبان هبطا هذا الكوكب الارضى الواسع الارجاء الكثير الأخطار ، أحدهما فكر فى نواميس هذا الكوكب الذى هبطه وفى قوانينه ونظمه وفى نواميس أهله وقوانينهم ونظمهم تفكير فاحص ، فاهتدى الى كل شىء مما يتصل بذلك ، فسار تحت ضمان معرفته فى قوة لا يكبو ولا يضل ، فاستغل واستقل وثبت أقدامه وقواعده على العلم والعرفان . وشعب آخر هبط غريبا فى هذا الكوكب جاهلا نواميسه وقوانينه ونواميس من فيه وما فيه وقوانينه ، بل

جاهلا نواميس نفسه ونواميس وجوده فلم يدر كيف يدع ولا كيف يسير ويتجه ، ولم يعرف ما يقوده الى النجاح والفوز ولا ما يؤدّى به الى الفشل والدمار . هذان شعبان ، فماذا عسى أن تكون النتيجة لاجتماعهما ، ليس هناك أدنى ريب فى أن الغلبة ستكون للعلم والعرفان ، وقد كان حقا وليس هناك أقل تردد فى هزيمة الجاهل اذا ما اصطدم بالعالم وقد حقت بلا صعوبة ، انتهى

قلت : هذا المثل الذى ذكره غير مطابق لما ادّعاه وقصده ، ومع عدم مطابقته فهو فاسد فى معناه ، فانه مبنى على مقدمات كلها باطلة أحدها أن جنس بنى آدم من عنصرين اثنين مختلفين فى النظر والتفكير ، ولا ندرى كيف جعلهم شعبين ولم يجعلهم أكثر من ذلك مع كثرة الشيع وتباين النحل ومع اختلاف الألسن والألوان والافكار وغير ذلك ، اذا كان يرى أن التقسيم من أجل اختلاف النظر والتفكير ، ومعلوم تفاوت الناس فى ذلك ، ولا شك ان هذه المقدمة باطلة فان الانسان من حيث النظر العام جنس واحد فى عنصره وكفاءته وفيما يطلب منه كما دلت عليه الشرائع والعقول ، ومبنى أيضا على أنهما هبطا موكولين الى عقولهما ومعرفتهما فى جميع ما يسيران عليه ويعملانه ، فليس لهذا الكوكب مالك يدبره وينظر من يهبط فيه وماذا يصنع فيه ، وأيضا فليس هناك عناية غيبية تلاحظهما وتتصرف فيهما على مقتضى ناموس العدل والرحمة والحكمة فتجازى كل عامل على قدر عمله من دقيق وجليل ، ومبنى على أن ليس فيهما أو فى أحدهما من يحمل رسالة من رب هذا الكوكب تتضمن هذه الرسالة نظاماً يمشيان عليه ويسيران على ضوئه : من تمسك به نجا وتحصل على الغاية النافعة ، ومن رفضه تلف لا محالة ، فهو مبنى على هذه المقدمات الباطلة كما رأيت . أما فساد معناه فظاهر ، فقوله أحدهما فكر فى نواميس هذا الكوكب الى قوله فساد تحت ضمان معرفته فى قوة لا يكبو ولا يضل ، فهذا قول ساقط بالمرة ، فمن هو الشعب الذى هبط منذ هبط الى اليوم فسار فى قوة لا يكبو ولا يضل ، ان هذا لا يوجد ولم يوجد فى شعوب الارض كلها . ثم

قوله وشعب آخر هبط غريبا فى هذا الكوكب جاهلا نواميسه وقوانينه الى آخره قول كالذى قبله فى السقوط ، فكيف يكون هذا الشعب غريبا دون الآخر فانه جعله غريبا ولم يذكر فى الاول أنه غريب ، مع أنه قال أول الجملة شعبان هبطا هذا الكوكب ، فلا ندرى لم اختص الثانى بالغربة دون الأول وهما هبطا جميعا ، ثم انه لم يذكر أسبابا لعدم معرفة الثانى لنواميس هذا الكوكب وقوانينه مع أن فى امكانه التفكير الذى هو السبب لمعرفة الشعب الآخر ، فلو كان التفكير وحده كافيا - كما يدعى - فى الشعب الأول لكان الثانى مثله أيضا لانهما سواء فى الخلقة والاصل والعنصر والمواهب والاستعدادات الكامنة ، وكل ما يمكن أن يقال من الموانع فى الثانى يمكن تجويز وجوده فى الأول لضرورة التساوى من كل وجه وعدم وجود المرجح الخارجى ، فما هو السبب الذى عاق الشعب الثانى عن التفكير ومعلوم أن طبيعة التفكير موجودة فى الآخر على حد سواء لأنه قرر أنه ليس هناك تفاوت فى أصل الخلقة فهما سواء من كل وجه حين هبطا ، فهو لم يذكر سببا أوليا خارجيا ولا داخليا معقولا لوجود الترجيح ، فالمثل الذى ضربه ساقط لا يعتدّ به لانه غير قائم على تفكير صحيح فلم يطابق لما ادعاه فى دعواه الفاسدة ، فهو فاسد مبنى على ما هو أفسد منه ، فانه كله يرمى الى حقيقة الالحاد كما لا يخفى

فصل

ونحن نذكر مثلا صحيحا مطابقا لما ندعيه مقابلا لمثله الباطل فى بيان حالة الناس وأسبابهم ، وما ينتج عن ذلك من التقدم والتأخر فى الامم والشعوب فنقول : شعب هبط غريبا فى جزيرة كبيرة متحدة ولا بدّ له من المكث فيها وقتا محدودا ثم يعبر متزودا منها الى بلاده ومقره . وصل هذا الشعب الى هذه الجزيرة العجيبة فرأى فيها من الحيوانات المختلفة والنباتات المتنوعة والمعادن المتباينة والألوان والطعوم والروائح المختلفة مالا يعد ولا يحصى ، وفيها من

الاشباح والخيالات والحقائق والأوهام والمظاهر اللامعة والسموم الضارة والقاتله والأدوية الشافية الطيبة والملاذ" والافراح والهموم والغموم والآلام والمصائب مالا يمكن حصره . ومن المعلوم أن الغريب اذا وصل الى مثل هذه الجزيرة ورأى هذه الأمور المدهشة فلا بد له من أحد أمرين فى معرفة تميز هذه الأشياء وتناولها نفعا وضررا ، إما التجربة ، وإما السير على مقتضى علم خارجى صادر عن وحى صحيح من عالم بها وبما فيها ، لأن هذه الأشياء الموجودة الكثيرة المتنوعة لا بد لها من مالك وفاعل لها بالبداهة . أما التجربة فالاعتماد عليها لا يكفى فى كل شىء ولو تكررت ، لأنها خطرة ، اذ ليس كل شىء يمكن تجربته من كل وجه كالسم ، ثم التجارب كلها - ولو تكررت - ترجع الى حكم العقل والتفكير ، ومن المعلوم الواقع أن العقول والأفكار تختلف اختلافا كثيرا كبيرا لا ينضبط ، وهذا الاختلاف لا يزال مستمراً فى كل نواحيه ، وجميع الحروب والفوضى ما هى الا نتائج أخطاء العقول المختلفة ، فلو كانت التجارب المتكررة كافية لم يوجد هذا الاختلاف الواسع النطاق ، ولو اعتمد الناس على عقولهم وتفكيرهم لوقعوا فى الفوضى التى لا ضابط لها ، وذلك هو سبب الهلاك ، وكل فساد حدث فى الدنيا من أولها الى آخرها إنما جاء من الاعتماد على العقل المخالف للعدل الذى جاءت به الشرائع السماوية. ومن المعلوم الذى لا ريب فيه أن التجارب لم تزل على كثرة تطورها وتقلبها مستمرة فما كانت على طول هذه الأزمنة السحيقة عاصمة للناس عن الوقوع فى الأخطاء والأغلاط التى نتج عنها الخراب والدمار والفوضى والفساد الشامل فى كثير من الاحيان ، وكما هو مشاهد الآن .

الامر الثانى الذى لا بد منه لهذا الشعب - وإلا هلك كله لا محالة - هو العلم المبنى على الايحاء الخارجى الصادق ، فهذا قد حصل لهذا الشعب على أكمل الوجوه الممكنة ، فقد أعطى رسالة صادقة من مالك هذه الجزيرة الحكيم الخبير بها المتصرف فيها المحيط علما بما فيها ، وهى مطابقة للعقل الصحيح لا

للعقول كلها ، لتكون مرجعا لحل الخلاف الناشىء عن اختلاف العقول الناقصة المتباينة ، وفى هذه الرسالة من القواعد والاصول الكلية والنظام الباهر بيان ما ينفع وما يضر ، وما هو خيال وأوهام وما هو حقيقة وصدق ، وفيها من التحذير عن تناول بعض الأشياء الجميل منظرها القبيح مخبرها ، وفيها عكس ذلك . وفيها ايضا الحث على أشياء جميل منظرها ومخبرها ، وقد تكررت فيها الوصاية بالتمسك بها والاعتصام بها بتأكيدات صارمة ، وعلق الفلاح والفوز على العمل بما فيها ، وعلقت الخسارة والهلاك على التفريط فيها وتركها ، وقد جرب العمل بهذه الرسالة مع صدقها فوجدت فى غاية الصحة والنفع ، فاتفق برهان التجربة الواقعى وبرهان الخبر المنشود وهذا أعظم برهان يجب الأخذ به ، فافترق هذا الشعب فرقا شتى : فريق كذب بالرسالة ولم يرفع بها رأسا مطلقا فاحتقرها واعتمد على عقله وتفكيره وهواه وذوقه ، لانه تصور أن ما فى هذه الرسالة يخالف أغراضه وأهواءه وأذواقه ومعقولاته ، فلهذا رفضها وتبع فكرته وعقله وهواه ، فأخذ يخلط ويخبط ويتناول ما لذ له وطاب عنده بشره زائد وسير أعمى بدون حدود وقيود إلا ما حدّه له عقله وتفكيره وتجاربه فماذا تكون عاقبة هذا . لا شك أنه هالك لا محالة ، إما فجأة بأمر فظيع وهو الأحرى ، واما بعلل وأمراض فاتكة مدمرة . وفريق ثان علم صدق هذه الرسالة وعلم أن النجاة والحياة فى العمل بها ، فاجتهد غاية الجهد فى معرفتها وفهمها ، فدرسها درسا دقيقا بصدق واخلاص [١] حتى فهمها فهما صحيحا ، فعلم أنها موافقة للعقل الصحيح والذوق السليم والفكر المستقيم ، فسار فى هذه الجزيرة على نور وبصيرة بمقتضى هذا النظام الباهر فى أعماله كلها من تناول حاجاته وأخذه وإعطائه ، واستعمل الأسباب القوية البارعة التى أرشدت اليها إما بحكم الإباحه فى الأصل وإما بالاشارة والارشاد ، فثبت أقدامه على علمها ونظامها

(١) ومن اجتهد فى أمر ممكن بصدق واخلاص فلا بد أن يدركه ويفهمه

وقواعدها ، وبذلك عرف أمور أهلها وآراءهم وسعيهم ومعاشهم ، كما عرف ما فيها من منافع ومضار ، فأصبح بسعيه وعلمه وعمله بميزان الحق والعدل نشيطا عالما قويا فى روحه وعقله وجسمه وجميع آرائه ، ففى إمكانه حماية نفسه واستقلالها ما دام موجودا فى هذه الجزيرة ، ثم فى وصوله الى مقره سالما صحيحا قويا متزوداً كل ما يحتاجه . وفريق ثالث وهو نوعان : نوع خالف الرسالة ورفضها باطنا وحرّفها وحملها على ما يوافق هواه وشهوته ظاهرا ، والا فهو لا يعتقدها فى نفس الأمر شيئا كبيرا نافعا ، وانما فعل هذا ليسلك مع هذه الفرق المتباينة ويحصل على غرضه الدنيوى ، فصار مذبذبا بين الفرق يتلون معها على كل ألوانها لتحصل مقاصده عندها . فهذا النوع لا شك فى هلاكه ، ولا بد أن يكون عليلا فى حياته ، لأن خلطه وخبث ضميره سيوقعه فى الأمراض القاتلة بكل حال . وأما النوع الثانى من هذا الفريق الثالث فانه أخذ بهذه الرسالة أخذا ضعيفا فلم يفهمها فهما شديداً لأنه لم يحرص كل الحرص على ذلك ، فأخذها بفتور ورداءة همة فصار يخلط فى علمه وعمله ، تارة يتبع هوى نفسه ويتناول ما لذ له وطاب ، وتارة يتبع لامع السراب ، وحينا ينقاد لنظام هذه الرسالة فيتقيد بها ويستشفى بها من آثار خلطه ، وكلما عوفى عاد يخلط لقوة شهوته وضعف الارادة الحاجزة له ، فاصبح عليلا ضعيفا علته وضعفه بقدر خلطه واستشفائه . وهذا النوع درجات متفاوته كل بحسب علمه بالرسالة وعمله بها فى القوة والضعف والحكم ، للذى يغلب عليه من المادتين . وبكل حال فهذا النوع أحسن حالا من غيره ما عدا الفريق الثانى ، والحكم واضح فى الفرق بين هذه الأقسام ونتائجها فى الحال والمآل من التقدم والتأخر والله اعلم

فصل

قال : « فمهمتنا إذن فى هذا الكتاب ـ بل مهمتنا العامة ـ أن نعمل على

دلالة قومنا بان الله جلت قدرته وضع لهذا الوجود سننا لا تبديل ولا تحويل لها ، وان هذه السنن تسير وفق حكمته وعدله سيرا دقيقا موزونا مقدورا لا تشويش فيه ولا اضطراب ، كأنه مسئلة رياضية لا يختلف فى حلها العلماء ولا تختلف نتيجتها لاختلاف العلماء الحالين لها ، فالنتيجة هى هى واحدة سواء أقام بحلها المسلم أم قام بحلها الكافر ، وسواء حلها الشرقى أو حلها الغربى ، فان الحقائق المجردة لا تتغير لاختلاف المتناولين لها ، أو لاختلاف اديانهم ومبادئهم »

قلت : هذه الجملة التى ذكرها هنا هى أصل كلامه فيما يختص بالاسباب والنتائج ، وقد كررها مرارا عديدة وأفرد لها فصولا خاصة يأتى الكلام عليها هناك مفصلا ، ونحن نتكلم عليها هنا إجمالا بما يناسب المقام ، وحيث أنه جعل هذه الجملة المدخولة المموهة هى الأساس لموضوع كلامه كله وقد أتى بها بهذا التعبير الملبس الغامض المشتبه فنحن ننقل شيئا من كلامه الذى هو بمعناها ليتبين لكل منصف مراده بهذه الجملة ، فان كلامه يفسر بعضه بعضا ، وان كان يتناقض غالبا ، لان هذا شان كل مخادع

قال فى موضع من كتابه (ص ٢٢٥) فى هذا المعنى : « والذى نريد أن نقوله هنا أنه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين أحد من خلقه ، وقد وضع نواميس وسننا وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل ، فمن وفق لاستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين وسار معها بلا اصطدام ولا خروج فقد نال ما يبغى ، ومن عاند هذه النواميس والقوانين وعارضها وحاول الخروج عنها فقد هلك ولا محالة ، ولن ينفعه أن يقول انه مسلم وانه يصوم ويصلى ويكثر من ذكر الله بلسانه » انتهى . فهذه الجملة كالجملة التى ذكرها وهى توضح مقصوده ومغزاه ، وسيأتى الكلام عليها مفصلا فى موضعها

وننقل هنا أيضا اعتقاده فى خلق هذا العالم وتصرفه وتدبيره لكى يتبين لك منه معنى القوانين والنواميس والسنن والنظام والقدرة والعدل والحكمة التى أشار اليها ، لتعرف معنى هذه الالفاظ عنده ، وأنه يريد بذلك تفاعل

الطبيعة لذاتها ، فالطبيعة على ما يرى ولدت النواميس ، ثم هذه النواميس حكمتها اى حكمت الطبيعة ، فالنواميس أولاد الطبيعة وهى حاكمتها ، والطبيعة الأم المحكومة ، فهذا العالم يحكم نفسه بنفسه . وهذا صريح الالحاد

وقال فى ص ٢٨٧ : « من الحقائق التى ترتفع اليوم عن متناول النزاع أن هذا العالم كله حيوانه ونباته وجماده لم يزل دارجا فى طريق التطور منتقلا من طور الى طور أفضل ومن حالة الى حالة هى أدنى الى الكمال بطريقة منظمة دائبة لا يعروها توقف . وعند العلماء [1] أن شيئا من هذا العالم لم يوجد بحالة ثابتة دائمة ولا بحالة فيها الاستعداد والرجوع الى الوراء ولا الانتقال من الكمال الى النقص ، بل ثبت لديهم ثبوت الحقائق أن هذا الوجود قد وجد بدائيا وأنه قد ظل يتنقل من وجود الى وجود ومن شكل الى شكل ، وأنه قد ظل فى عملية هذا التنقل ملايين الملايين من الاعوام حتى بلغ الحالة التى تصلح لوجود الحياة : عُلم الكون أول ما علم فى حالة غازية منتشرة فى الفضاء انتشاراً متناسبا متسقا مثل أن تبخر مقدارا من الماء فى غرفة تساوى فيها ضغط الهواء ، أو مثل أن تنثر مقدارا من الدقائق فى مكان نثرا متساويا ، وقد بقى كذلك ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى استطاع بتفاعله المستمر [2] أن يفلت من هذه الحالة الغازية أو السديمية الى حالة التكتل والتقلص ، فأصبح كتلة واحدة هائلة أو ذرة كونية ضخمة اجتمع فيها الوجود أجمع ، فبقى على هذه الحالة ملايين السنين أو ملايين الملايين وهو يتفاعل فى حقيقته تفاعلا مستمرا استعداداً للانتقال الى وجود آخر أفضل وأكمل ، وبعد التفاعل اللازم المقدور انفجر هذا الكون المحشود فى ذراته انفجارا فجائيا فى الظاهر مؤقتا معلوما مقدورا فى الباطن مثل ما تنفجر قنبلة مملوءة بالمواد المتفجرة فتطايرت

(١) اى ملاحدة علماء الطبيعة ، اعتمد كلامهم ونبذ نصوص الدين المخالفة لهم

(٢) هذا تصريح بعدم خلق الله له كما هو ظاهر

منه الدقائق والذرات تطايرا قائما على الحساب الدقيق فتفرق فى الفضاء كتلا هائلة غازية ، فبقيت هــذه الكتل المتفرقه تتفاعل وتجتمع وتتكتل ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى أصبحت نجوما وشموسا ، ثم أخذت هذه النجوم والشموس بالتفاعل نفسه وبالاستعداد المخبوء فيها للتطور تنقسم على نفسها وتنفصل عنها النجوم والسيارات والتوابع ليكون من كل شمس من هــذه الشموس مجموعة متماسكة من هذه المجموعات التى يدعونها اليوم المجموعات الشمسيه أو المجموعات النجمية التى إحداها مجموعتنا الشمسية التى نحن من رعاياها ، وقد راحت هذه السيارات التابعة لغيرها تنقسم على نفسها أيضا وتنفصل عنها الأتباع وتلد الأقمار لتكون ـ أى الأقمار ـ من حولها كما كانت هى من حول شمسها ، وهذه العمليات الانفصالية أو التوالدية تشبه عمليات التوالد والانقسامات بين الأحياء التى يكون الغرض منها ايجاد مجموعات أو فصائل حيوانية أو نباتية تتعاقب وتتوالد خضوعا لسنة هــذا الوجود ، والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست الا نسل المادة الجامــدة ، والنواميس التى تحكمها أى تحكم الكائنات الحية إنما ورثتها من أصلها الذى هو المادة (١) فلا غرابة اذن فى كون القوانين واحدة متفقة فى الحى وفى الجماد . وبعد هذا التوزيع وهذه الانقسامات فى ذرة الكون الأولى الكبرى لم يكن شىء منها صالحا للحياة والاستقرار ، بل لقد قدر العلماء أن عمر الشمس قبل أن توجد الحياة فى الأرض وهى منفصلة عنها بنحو خمسة ملايين مليون سنة وقدروا عمر الأرض بنحو ألفى مليون سنة ، وأن الحياة لم توجد فيها إلا فى نحو ثلاثمائة مليون سنة ، أى انها ظلت حوالى الف وسبعمائه مليون سنة تتهيأ لتكون صالحة لظهور الحياة عليها ، وقدروا عمر الانسان فى الأرض بثلاثمائة

---

(١) قف وتأمل هذه النقطة السوداء ، فقد صرح بأن النواميس مولودة عن المادة وأنها هى التى تحكم هذه الكائنات الحية ، فالعالم يحكم نفسه بنفسه

ألف سنة ، وهذا أحد التقديرات كما هو معلوم [١] ومعنى هذا أن الأرض بقيت ما يقرب من ثلاثمائة مليون سنة صالحة لوجود الحياة فيها قبل ان تصلح لوجود حياة الأنسان الذى هو أرقى الموجودات فيها ، أى أنها تهيأت لوجود حياة الأنسان المعدود كائناً راقياً ، وما من شيء فى هذا الوجود وصل الى حالته التى هو عليها الا بعد أن سلك هذا السبيل ، سبيل التطور المنظم البطىء فما جاءت الشموس ولا السيارات ولا الأقمار والنجيمات ولا كل هذه العوالم إلا من هذا الطريق . وهذه الأرض التى نعيش عليها ونجد فيها كل ما نحتاجه وكل ما يلزم لحياتنا ولسعادتنا ماذا فعل بها هذا التطور ، انه لولاه لما وجدت ولا وجد فيها ما وجد ، ولما صلحت لظهور الحياة عليها ، ولما وجدنا فيها ، ولو وجدنا لما بقينا أحياء ، ولو بقينا أحياءً لما وجدنا ما نحتاج اليه وما يلزم لوجودنا ولصناعاتنا ولزراعاتنا . انه بهذا الناموس تخلت الأرض عن عهودها الجلدية وعن عهودها النارية الى عهد الاعتدال الذى نبض معه حياة النبات والحيوان الذى منه الأنسان ، وبهذا الناموس تمهدت الأرض وتهذبت ، وارتفعت فيها الجبال ونهضت الآكام ووجدت السهول والسهوب والأودية وانشقت الأنهار وغاضت البحار وانحسرت عن الجزائر وعن هذه اليابسة التى عليها نحن ، وبهذا التطور أيضا وجدت أصناف النباتات والحيوانات والمعادن المختلفة ، ووجدت التربة الخصبة التى تنبت لنا كل ما نشاء ، ووجدت كل هذه العناصر التى لا بد منها لبناء أجسامنا ولأخصاب أرضنا ولتركيب وتركب كل ما لا بد لنا منه صناعيا وطبيعيا » . انتهى

واذا تأملت هذا الكلام والذى قبله ظهر لك معنى الجملة الأولى التى جعلها كحجر الزاوية لكلامه ، وتبين لك معنى السنن والنواميس والقوانين التى طالما كررها فى كلامه ، وأنها تفاعل الطبيعة يعنى حركاتها العادية ، فانه قرر كما ترى

---

(١) كما هو معلوم عند منْ ؟

أن النواميس مولودة من الطبيعة التى هى المادة ، وقرر أنها هى الحاكمة عليها ، فالسنن هى التفاعل والطبيعة أى المادة هى موضوع التفاعل ، واذن فلا غرابة على هذا الاعتقاد أن يبطل بذلك تأثير الأعمال الصالحة التى منها الدعاء ، لأن الداعى لاحظ له الا العناء ما دام أن هذا الوجود يجرى على هذه السنن التى هى تفاعل الطبيعة ، ولهذا فأنه ادعى أن الدعاء ملهاة ومصرف خبيث . ولا شك أنه على هذا الاعتقاد لا فائدة فيه

اذا عرفت هذا الأصل الخبيث الذى بنى عليه زيغه وضلاله فاعلم أنه اذا أطلق السنن والنواميس والقوانين فأنه يريد ما ذكرناه كما هو صريح كلامه ، ولهذا لا يوجد فى كلامه أن هذا العالم يسير على مقتضى مشيئة الله وإرادته أو رحمته ، أو أن هذه النواميس والقوانين تسير على وفق مشيئته ورحمته ، بل لم يذكر المشيئة قط أو الأرادة الا فى معرض الذم ، وأما الرحمة الربانية التى شملت هذا العالم فلا تكاد تجد لها ذكراً أبداً ، حتى انه رفض البسملة لما فيها من ذكر الرحمة ولأنها من القديم ، ولهذا قال هنا « تسير على وفق حكمته وعدله » ولم يقل وفق مشيئته ورحمته وعدله ، أو ارادته المقتضية لعدله وحكمته وقد فسر الحكمة بالعدل وفسر العدل بتفاعل الطبيعة بنفسها الذى معناه وحقيقته سلب المشيئة ونسبة الجور والظلم اليه تعالى .

ونحن ننقل لك كلامه فى تفسير القدرة والعدل والحكمة ليتبين لك معنى هذه الألفاظ المكررة التى موه بها على هذا الأصل الخبيث مكرا ونفاقاً ، وانها كلمات حق أراد بها أشنع ضروب الباطل . قال فى بحث التوكل : « ولكن التوكل هو الأيمان بقدرة الله وبعدله وبحكمته وبأخباره ، والأيمان بقدرته يوجب الأيمان بأن ما جعله سبباً لشىء فسيبقى كذلك ولن تبطل سببيته بحال ولن يوصل الى ذلك الشىء شىء غيره ، ويوجب الأيمان بأن ذلك الشىء الذى جعله مسبباً عنه لن يوصل اليه بدونه ، فبوجود السبب يوجد المسبب وبفقده لا يوجد » انتهى . فهذا تفسير القدرة ، فقد فسرها بضدها وهو العجز ،

فالايمان بالقدرة عنده أن تعتقد أن الله لا يقدر على تغيير شيء من الأسباب المادية ، فلا يغير سببا عن طبيعته المطبوع عليها أبدا ، ولهذا قال « فلن تبطل سببيته بحال » وحقيقة هذا أن تعتقد أن الله عاجز عن تغيير شيء من الأسباب عن طبعه ، وهذا كفر صريح ، وتكذيب لمعجزات الانبياء فانها تغيير وخوارق للاسباب عن طبيعتها المطبوعة عليها ، والا فلما ذا كانت معجزة ، ولهذا بطلت سببية حرارة النار واحراقها حين دخلها الخليل عليه الصلاة والسلام وانقلبت الى برد وسلام ، والبحر بطل سيلانه الذى طبع عليه لما ضربه موسى ﷺ بعصاه وبطلت سببية الموت فى أهل الكهف ويونس فى بطن الحوت ، بل هذه الاسباب المشاهدة التى هى سبب للحياة كثيرا ما تكون سببا للموت ، ولو أن الاسباب لم تتغير لكان الحى حيا والميت ميتا والجماد جمادا والمتحرك متحركا والساكن ساكنا دائما أبدا ، فان أصول المادة كلها هى هى ، فلماذا تنقلب العناصر الى أضدادها كما قال تعالى ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا انتم منه توقدون ﴾ . وهذه الحجة بعينها احتج بها المشركون الذين انكروا البعث ، فانهم كفروا بالبعث لأنه تغيير لحقائق الأشياء وقلب لها من الموت واليبوسة الى الحياة والحركة ، فان ذلك المشرك الذى قال الله عنه ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم ﴾ وقد ورد أنه أخذ عظماً قد أرم ففته وقال : من يحيي هذا . ومعلوم أنه انما اعتمد على ما اعتمد عليه هذا الملحد من أن هذا ينافى مقتضى عقله ، اذ كيف ينقلب الضد الى ضده فينقلب الساكن الميت الهامد الى حى متحرك مريد متصرف ، فان هذا تغيير وقلب للأسباب الى ضدها ، وهذا السحاب المشاهد بعد أن كان أجزاء لطيفة خفيفة تطلب الصعود بطبعها انقلب الى أجسام كثيفة ثقيلة تطلب الهبوط بطبعها ، ولهذا قال تعالى ﴿ ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبثّ

فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون ﴾ فان هـذه كلها تقلبات وتغـيرات متطورة متحولة منعكسة مطردة بمشيئة الله تعالى ، ولهـذا ختم الآية بقوله ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ فدل على أن من لم تكفه هذه الآيات فهو لا يعقل . وقد طرد الملاحدة هـذا الأصل فأنكروا البعث كما أنكره أعداء الرسل ، لأن أصولهم الكفرية تقتضيه واضطربوا فى هذه الاسباب فلا أكثر من اختلاف هؤلاء الملاحـدة الذين لا يؤمنون الا بالمادة فى هذه الأمور . والذى اتفقوا عليه كله لا ينافى النصوص بل هو يعرف بمقتضى العقل واكثر أصناف الملاحدة على كفرهم أحسن حالا من هذا الملحد صاحب الأغلال لأنهم لا يوجبون على الناس الكفر بما يخالف آراءهم مطلقا كآراء أهل الدين ، ولا يأخذون نصوص رب العالمين فيقلبونها دلائل لهم ، غاية ما فى ذلك أنهم يتوقفون فـيما لم يعلموه ، ويظهرون آراءهم فقط ولا يتعرضون للنصوص الشرعيه بقلبها أدلة لهم ، فإن الكفر بها أسهل من قلبها الى ضدها لما فى ذلك من احتقارها واللعب والتضليل بها ، وهؤلاء بلا شك من أكفر خلق الله ، ولـكن المنافقين أكفر منهم ، فقد جعلهم الله تحت أصناف الكفار فى جهنم لانهم أعظم ايغالا فى دركات الكفر ، فكانوا فى الدرك الاسفل من النار ، ويعلم الله أننا لا نعلم أحدا من الأولين والآخرين وصل من الكفر والزندقة والنفاق والالحاد الى ما وصل اليـه صاحب هـذه الأغلال ، ومن درس كتابه وفهمه حقيقة الفهم علم أنه شتم للشريعة الغراء وأهلها وأنه لم يوضع الا لغرض القدح فى الشرائع السماوية وفى العاملين بهـا

والمقصود أن ما ادعاه فى تفسير القدرة باطل لا شك فيه ، ولا ريب أن من اعتقد أن الله لا يغير فى الأسباب فقـد اعتقد بطلان الربوبية ، فالرب الذى لا يتصرف فى ملكه ولا يدبره إما عاجز أو معدوم بلا شك ، وهو انما قصد بهـا إبطال المعجزات لأنهـا اذا بطلت بطلت النبوات وببطلانها تبطل الأديان . وكلامه كله يدور على ابطال الاديان كما نبهنا على هذا غير مرة . وقوله

« ولن يوصل الى ذلك الشيء شيء غيره ، ويوجب الايمان بان ذلك الشيء الذى جعله مسببا عنه لن يوصل اليه بدونه ، فبوجود السبب يوجد المسبب وبفقده لا يوجد » . فيقال : وهذا ايضا تصريح آخر مؤكد لما قبله فى جحد القدرة والكفر بها . ومعلوم أن الولد مسبب عن الرجل والانثى جميعا بحكم العادة ، وقد وجب هذا المسبب بدون سببه فى آدم وعيسى بن مريم وحواء عليهم السلام ، فانه وصل الى وجودهم وحصل كل واحد منهم بدون هذا السبب العادى المطرد ، وكل واحد منهم وصل اليه بتغيير خاص ، والايمان بهذه القضية التى ذكرها يبطل الايمان بوجود هؤلاء على ما ورد به الشرع بل والعقل ، وكذلك وجود زيادة الماء الذى نبع بين أصابع النبى ﷺ فأروى الجموع الكثيرة من إناء واحد صغير جدا من دون مادة ، وكذلك انشقاق القمر وأمثال ذلك كثير ، مع أنه يناقض ما ذكره ايضا فى نفس النقل الذى ذكرناه عنه ، فانه ذكر أن هذا العالم وجد بدائيا على تلك الحالة ، فاما أن يدعى أنه لم يزل قديما وهو عليها فيبطل قوله فى التطور لانه حينئذ يبقى أزمنة طويلة وهو ثابت على حالته البدائية ، وهو قد ذكر أنه لم يكن فى وقت من الاوقات على حالة ثابتة فيبطل قوله هذا (١) وإما أن يقر بانه وجد من العدم المحض بعد أن لم يوجد فما سبب إيجاده اذن فيكون موجودا بدون سبب مادى وهو يناقض ما ادعاه هنا . وبالجملة فكلامه فى الايمان بالقدرة معناه الكفر بها ، فان هذا الايمان الذى ادعاه معناه أن يؤمن الانسان أن الله لا يغير فى الأسباب أبدا فلا تتغير بل تجرى على طبيعتها ، وهذا الايمان قد آمن به الكفار ، فان الذين كفروا بالمعجزات وجحدوا بها انما كفروا بها لانها خالفت العادة فكذبوا بها ، وهذا الرجل يدعو الناس الى التكذيب بكل ما يخالف العادة ويدعى أن هذا هو الايمان . واياك أن تفهم من كلامنا هذا أننا نقول انه لا

---

(١) ويكون حينئذ قائلا بقدم العالم مع الله وهو كفر

ترابط بين الأسباب والمسببات والنتائج مطلقا - كما هو مذهب طائفة من أهل العلم - بل مذهبنا كما هو مذهب أهل السنة وأصحاب الحديث أن بين الأسباب والمسببات ترابطاً وثيقاً ، وأن كل مسبب فهو لازم لسببه ، لكن هذا الترابط غير خارج عن المشيئة والقدرة بل هو داخل تحت قدرة الله ومشيئته العامة ، فاذا شاء قطع الترابط كما فى المعجزات ، ونحن انما ننازعه فى إنكاره كون الله لا يغير فى الأسباب مطلقا ، وأن ذلك سفه وفوضى من دون استثناء كما صرح بذلك فى قوله « لست أريد ان أقول إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بان الله قد يدخل فيها (١) فيجعلها ان شاء أسبابا ويجعلها ان شاء غير أسباب ، أو مع الاعتقاد بانه تعالى قد يفعل من غير أسباب ، فان هذا هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها » انتهى . فقد علمت أنه صرح بأن تغيير الله للأسباب وجعلها أسباباً تارة وتارة غير أسباب سفه وفوضى ، فتصرف الله فى ملكه كيف شاء بتغيير الأسباب سفه وفوضى ، وسبحان من طبع على قلبه فهو يريد ان يحجر على الله فى التصرف فى ملكه كيف شاء ، فالله سبحانه هو الذى خلق الأسباب ومسبباتها فهو القادر على تغييرها كما وقع ذلك بالضرورة والتواتر والمشاهدة والحس ، فقطع ترابطها أحيانا من سنن الله فى خلقه لأنه سبحانه قدّره وخلقه كما أخبر به ، فما أخبر به وجب التصديق به وبأنه من سننه التى لا تبديل لها ولا تحويل ، فمن أخرج هذا الترابط الذى بين الأسباب ونتائجها ومسبباتها عن قدرته جل وعلا كيف يكون مؤمنا بالقدرة ، بل كيف يكون مؤمنا بالله ، بل ايمان هذا كايمان عبدة الاصنام الجامدة التى لا قدرة لها على تغيير شىء من سير هذا الكون ، وانما هى واسطة بزعم عابديها ، بل هؤلاء أحسن حالا ، فانهم لم يذكروا تصرفه تعالى . بل ايمانه كايمان الدهرية الذين يقولون ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر

---

(١) يعنى « يتصرف » ، أبدل يتصرف بيدخل تشويها لسمعة المشيئة

وما لهم بذلك من علم ﴾ . ثم انه فسر عدل الله الذى يدّعيه فقال فى بحث التوكل : « والايمان بعدله يوجب الايمان بالتسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى الاشياء التى لا تتصل بذلك وبدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم فمن أخذ بالسبب بلغ مسببه وإلا فلا ، تلك هى العدالة الشاملة ». انتهى . فهذا هو الايمان بالعدل عنده ، فهذا التفسير الذى فسر به العدل كالتفسير الذى فسر به القدرة ، فانه فسره بضده وهو الكفر بالعدل ، فانه فسره بالتسوية بين الآخذين بالاسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، فمن أخذ بالسبب من مسلم أو كافر بلغ مسببه وإلا فلا . وكلامه فى الأسباب المادية كما لا يخفى ، فالمسلم كالكافر عنده فى كل نتائج الأسباب الكونية ، فلا تأثير للطاعة كما لا تأثير للمعصية ، فدعاء الله تعالى واستمداد النصر منه وطلب الاعانة على العدوّ والاغاثة لإنزال المطر ودفع البلاء بالصدقة والصلاة ونحو ذلك لا أثر له ، كما أن عصيان الله والتمرد عليه ومعاندته وسب كتبه وأنبيائه وأوليائه لا تأثير له أيضا ، لأن هذه كلها عنده أمور معنوية لا تتصل بذلك فوجودها كعدمها كما ادعى بان دعاء الله ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه ملهاة ومصرف خبيث وتعويق ، فالأنبياء عنده كالطواغيت فى نتائج هذه الاسباب المادية ، لأنه جعل تناول الناس للأسباب الكونية كمسائل الرياضة ، فلم يفرق بين ما يشرع له الدعاء ويستجلب بالطاعة كالامطار والنصر على الاعـــداء ونزول الخيرات والبركات ، وما ليس كذلك كسير الافلاك والمسائل الرياضية كالمسائل الحسابية ونحوها ، هذا هو العدل عند هذا المغرور كما هو صريح كلامه ، فتأمله فانه قال : الايمان بالتسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى الاشياء التى لا تتصل بذلك ، وقد علمت مما مرّ أنه قال : إن الاخلاق الدينية أشياء أخرى لها نتائج أخرى فهى لا تتصل بذلك ، ولهذا قال : وبدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، يعنى فلا ينظر الى دين هذا ودين هذا فلا أثر لذلك لان الدين له نتائج أخرى فلهذا قال « فمن أخذ بالسبب بلغ مسببه والا فلا » يعنى والا

يأخذ بالسبب فلا يبلغ مسببه سواء فى ذلك كل من الكافر والمسلم ، فلو تقاتل فئتان مسلمون وكفار فالغلبة لمن هو أقوى سلاحا أو أكثر قوة مادية منهما قطعا ، ولهذا ادعى فيما يأتى أنه اذا تقاتل اثنان فالله مع أقواهما ، فجعل الله مع القوى منهما . انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا . ولو دعا اللهَ المسلمُ وعبَده وصدق ونصح معه فكما لو دعا وصدق ونصح مع صنم فانه لن ينفعه ذلك فى الدنيا أبدا لان الخلق الدينى لا يتصل بذلك بل له نتيجة أخرى هى الملهاة والمصرف الخبيث والتعويق كما صرح به فيما يأتى ، فيكون زيادة ضرر ، فلا يعان المؤمن من قبل العناية الربانية لايمانه وعمله الصالح وتقواه ونصحه مع رب العالمين ، بل ينال بهذا كله الخيبة والفشل وسوء العاقبة حتى يكون سلاحه المادى مقابلا لسلاح أكفر موجود على وجه الارض ولو كان ذلك الكافر محاربا لله ورسوله ولأديانه وللدائنين بها ، فان هذا لا يضره شىء ابدا الا اذا نقص سلاحه المادى ، لان خلق الكفر لا يتصل بذلك ، هذه هى العدالة الشاملة عنده ، وهذا هو عدل رب العالمين وأرحم الراحمين ومجيب دعوة المضطرين عند هذا الملحد كما يقول ، لأن الفعل انما هو لنواميس الطبيعة فهى التى تحكم هذا العالم على مقتضى هذا العدل الذى ذكره ، فلو كانت عصا موسى مع فرعون لكانت هى هى لا تختلف ، لأنها سبب مادى والطاعة والمعصية ليس لها اتصال بذلك ، ولان نواميس الطبيعة هى التى تحكم هذا العالم على مقتضى التسوية بين الآخذين بالأسباب من المسلم والكافر كما هو صريح كلامه ، وكذلك بساط سليمان لو ركبه غيره لطار به ، لأن كلا من هذه المسائل أسباب مادية والأسباب المادية لا تعلق للطاعة والمعصية فيها بشىء كالمسائل الرياضية التى لا تختلف نتائجها باختلاف الحالين لها لاجل أديانهم ومبادئهم ، لأن الحكم للنواميس التى تسير على مقتضى التسوية بين الذين آمنوا وعملوا الصالحين والمفسدين فى الارض ، وأمثال هذا كثير ، وكلامه كما لا يخفى فى الأسباب المادية كما صرح بذلك والا فالاسباب الدينية عنده مبتورة من

مسبباتها ونتائجها ، فمن فعل السبب الدينى لم يبلغ مسببه أبدا ولا ينال الا الخيبة والحسرة ، لانه قال « ان الدعاء ليس بوسيله وليس له من فائدة » هـذا لفظه كما يأتى ، فجعل من أتى بهذا السبب الأعظم الذى شمل أثره الوجود كله وهو أقوى سبب فى الوجود اذا عمل به على وجهه النافع وسلم من المعارض ، جعل من أتى به لا يحصل له مسببه وليس بسبب وليس له من فائدة ، فالتسوية عنده والعدالة الشاملة كون المسلم كالمجرم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ، والمتقين كالفجار فى تحصيل نتائج هذه الأسباب المادية الكونية ، فانه جعلها كالمسألة الرياضية وجعل تغيير الله لها ونفع المسلم واعانته دون الكافر تشويشا واضطرابا ، فجعل قدرته وأفعاله فى خلقه بما تقتضيه الحكمة الربانية اضطرابا وتشويشا وتشويها لسمعة المشيئة العليا ، والله يعلم من فوق عرشه أننا لم نظلمه فى هذا وقد خاب من افترى . ومن العجب أنه لم يفرق بين المسائل الرياضية وبين غيرها ، فان المسائل الرياضية أمور أكثرها مجمع عليه بين الناس لا علاقة له بالطاعة والمعصية لانها أمور مباحة مشتركة ، بخلاف الطاعات والمعاصى فان الجزاء مرتب عليها فى الدنيا والآخرة ، ومعلوم أن سير الكون يختلف ، فليس سير الأفلاك المضبوط الذى لا يختلف أبدا فى الحساب كاتيان المطر ووجود الأمراض العامة فأن سير الأفلاك والمسائل الرياضية تعرف بالدرس والحساب ، بخلاف اتيان المطر والأمراض فانها لاتعرف بذلك أبدا ، والمطر - وكذلك المرض - وان عرفت المادة التى ينشأ منها فانه لا يعرف وقت مجيئه بالتحديد كما لا يعرف مقداره بالكم والكيف ، فخلطُ هذه المسائل بعضها ببعض وجعلها كمسألة رياضية كذب ظاهر وتحويل لسنة الله فى خلقه ، وقد جعل الله سبحانه لجلب بعضه وتحصيله أسباباً بالطاعات ولم يجعل لتحصيل أو تغيير بعضه أسبابا بها ، وجعل لبعضه آثارا بسبب المعصية كالقحط ، وبعضه ليس كذلك ، فكون الدعاء والصدقة وأمثالهما من الطاعات له أثر فى جريان هذه السنن الكونية أمر معروف ثبوته بالادلة

اليقينية الاضطرارية التى لا تدفع ، ومما علم بالضرورة أنه مما جاءت به الشرائع السماوية بجملتها ، وقد ثبت وقوعه بالضرورة والحس والمشاهدة والاستقراء ، فمحاولة نقضه كمحاولة نقض الشرائع بأجمعها والسفسطة فى المعقولات ، فان الدعاء ركن العبادة الاعظم فانه اعظم من الصلاة فانه روحها ، وان الصلاة لا تصح بدون الاتيان به فيها وياتى فى غيرها ، بل يتأتى فى جميع الأعمال القولية والفعليه والمالية ، فهو السبب الأكبر بين الله وعباده ، فمن جعله مصرفا خبيثا فقد حارب الله ورسوله ودينه جهارا بلا ريب . فالسنن الدينية كلها تدور على الدعاء ، فهو قطبها وروحها

والسنن الكونية بجملتها تدور على السنن الدينية وكلاهما مرتبط بعضه ببعض بدون انفكاك ، فمن أخذ بهذه السنن كلها جميعا على وضعها الدينى الكونى نال ما يبغى وحصل له مقصوده ، ومن رفض السنن الدينية وقطعها وصادمها لم ينتفع بالسنن الكونية نفعا صحيحا ، ولم يحصل له إلا نقيض قصده ، لأنه صادم السنن وقلبها وأتى الشىء من غير بابه ، ولهذا كانت عاقبة كل هؤلاء الذين صادموا سننه الدينية من الأولين والآخرين أن صدمتهم سننه الكونية وعذّبوا بها ، لانهم قطعوا الأسباب فتقطعت بهم الاسباب ، لأنها اذا لم تكن مربوطة فى عرى التقوى فهى واهية لا تماسك كما قال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور ﴾ فهذا الرجل كل عناده وجداله فى مناقضة هذا الأصل وعكسه للسنن فهو ضد السنن الدينية ويلح فى الحمل عليها ، والاسراف والمغالاة فى الحث على الأخذ ببعض السنن المادية والاعتماد عليها حتى جعل بين هذه السنن أعظم التضاد والتباين ففصل سنن الله الشرعية من سننه الكونية وفرق بينهما ، وغرضه الأكبر من هذا التفريق والفصل والتباين كون الاعمال الدينية كالدعاء لا أثر له غير مضادة الاعمال المادية فيجب رفضه ، لكن دون هذا خرط القتاد والعقبة الكئود كما ياتى فى المبحث الثانى ، والحق أنه يجب ان نأخذ بسنن الله الدينية كما نأخذ

بسننه الكونية فانها كسنة واحدة فى ارتباط بعضها ببعض

فتبين بهذا أن هذا الرجل جعل السفه والفوضى التى لا ضابط لها هو العدالة الشاملة ، فانه لا شك عند كل عاقل أن من ساوى بين الصادق الناصح معه المجتهد فى اطاعته وامتثال أوامره ، وبين الكاذب المخادع الفاجر الذى قضى عمره فى معصيته والتمرد عليه انه ليس بعادل ولا حكيم ولا رشيد ، واذا قال هذا الملحد انهم كلهم خلقه فتجب المساواة بينهم قلنا له اذا كان علة وجوب المساواة تساويهم فى كونهم خلقه فأنت والكلب اذن سواء من هذه الناحية ، فاحكم على نفسك بهذا وافعل كما يفعل أو كما تفعل سائر البهائم ، ولا تأمر ولا تنه ولا تطلب التقدم فى الأمر على الناس وأنت مثلهم والا كنت متناقضا ، وهذا ظاهر . فقد اتضح من كلام هذا الرجل أنه فسر عدل الله سبحانه بضده ، ففسر العدل بالكفر بالعدل ، كما فسر القدرة بالكفر بالقدرة ، ثم انه فسر الحكمة بالعدل فقال فى تفسير الحكمة « والايمان بحكمته يوجب الايمان بهذا ايضا » يعنى بما فسر به العدل ، وقد علمت كلامه فى العدل وجوابنا عليه

ثم قال « اذ لو لم يسر الأمر كذلك لوقع الناس فى الفوضى الاعتقادية ، ولن ينجو بهم من الفوضى إلا إيمانهم بالعدل ، والارتباط بين الاسباب والمسببات » انتهى

فيقال له : ما شاء الله يا بلعام زمانه ، لو لم يسر نظام الله على وفق رأيك الهزيل واعتقادك الوبيل لوقع الناس فى الفوضى ولن ينجيهم من هذه الفوضى إلا هذه الترهات المرذولة والرعونات الساقطة والمخازى المضحكة التى سجلتها فى هذه الاغلال ، ويل لك ثم ويل لك ثم ويل لك ، كيف لا ينجيهم إلا الكفر بقدرة الله على تغيير الأسباب وقطع الترابط بينها وبين مسبباتها اذا شاء ، فتباً لك ما أسخف عقلك وأقل حياءك ، واذن فلا غرابة أن تدعو لنفسك أن تكون المقدم فى الأمر وأن لا يرغب الا إليك ولا يطلب الا أنت فانه لا نجاة لهم على هذا الا بارشادك وهدايتك وإلا سقطوا فى الفوضى التى لا نجاة منها

ثم انه فسر الايمان باخباره تعالى فقال « وكذلك الايمان باخباره فانه اذا أخبر أن شيئا سبب لشىء وجب التصديق ووجب التكذيب لما يخالفه » فيقال أولا : أنت كفرت بهذا ، فانه أخبر بأن الدعاء وسيلة الى الاجابة فعاكست اخباره وقلت انه ليس بوسيلة وليس له من فائدة وقد قال فى كتابه العزيز ﴿ادعونى أستجب لكم﴾ فقلت فى اغلالك : ان الدعاء ليس بوسيلة ، وليس له من فائدة . وقلت : ان الدعاء ملهاة ومصرف خبيث وتعويق ، فعاندت الله أعظم المعاندة ، فأين ايمانك باخباره وقد أخبر فى مواضع أكثر من أن تحصر بأنه قطع الأسباب عن مسبباتها ونتائجها كما فى المعجزات فانه جعل النار بردا وسلاما على ابراهيم فقلت انه لا يغير فى الأسباب فيجعلها ان شاء أسبابا ويجعلها ان شاء غير أسباب ، ثم ذكرت أن ذلك فوضى وسفه ، فقد كفرت باخباره . ثم هذا القول الذى ادعيته فى الايمان باخباره قول مجمل قاصر معروف مرادك به ، بل الايمان باخباره هو الايمان بكتبه وتصديق رسله فى كل ما جاءوا به فى الأسباب وغيرها من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والقصص التى تتضمن نجاة من آمن وعمل صالحا ، وهلاك وعقوبة من كفر وتمرّد ، والايمان بالبعث والجنة والنار وجميع مافى يوم القيمة من الثواب والعقاب وغير ذلك مما جاء فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فالله سبحانه وتعالى أخبر بهذا كله كما أخبر بأنه كل يوم هو فى شان وأنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ويعز من يشاء ويذل من يشاء لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، له الحكمة البالغة والعدل الشامل فهو يثيب المطيع ويدافع عن الذين آمنوا ويعاقب العاصى الكافر المتمرّد ويذيقه وبال أمره ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين وان حزبه هم المفلحون وحزب الشيطان هم الخاسرون وأنه ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ويذل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ، فكل هذا أخبر به وقد وقع بالحسّ والعيان فرآه كل مستبصر ، بخلاف من حقت عليهم كلمه الله فانهم لا يؤمنون

ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم . وبالجملة فجميع نصوص الدين من الكتاب والسنة يجب الايمان بها والاستسلام لها ، وهذا الملحد عاكسها وصادمها وعاندها ، فادعى أن الثناء على الله وحمده وتعظيمه فى أعظم مظهر اسلامى أسبوعى إحدى النكبات ، وأن المساجد أدت شر ما يؤدى ، وأن الأخلاق الدينية كالدعاء ملهاة ومصرف خبيث ، وأن الايمان بالله وسيطرته على الأسباب يوجب عدم النجاح ، فأين الايمان ، فليس وراء هذا كفر ، وانما اقتصر على الايمان بالأسباب لأنها هى قصده فاقتصر على ما يهواه وأعرض عن ما سواه ، لأن مقصوده بهذا الايمان أن الأسباب تجرى بطبعها ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، فلا يمكن أن تشملها القوة الالهية ، فتغييرها عن مجراها الطبيعى محال ، فلا معجزة ولا كرامة ، بل ولا غير ذلك من هذه الامور المشهودة فى كل وقت ، فالمعجزات عنده كذب لا أصل له وخرافات وأوهام ، هذا هو مقصوده بلا شك كما فسره بذلك فى المواضع الأخرى ، فتفسيره للايمان باخباره كتفسيره للايمان بقدرته وعدله وحكمته فانه فسره بالكفر باخباره فى تغيير الأسباب وابطال نتائجها كما فى المعجزات .

والمقصود أننا نعتقد أن الله سبحانه وضع لهذا الكون العظيم سننا لا تبديل لها ولا تحويل وان هذه السنن تسير على وفق مشيئته الصادرة عن علمه وحكمته ورحمته ، فما شرعه لنا من الشرائع الدينية التى مدارها التقوى والعمل الصالح فهو من سننه التى لا تبديل لها ولا تحويل ، كما أن ما خلقه وسخره لنا على ما تقتضيه مشيئته القاهرة الصادرة عن علمه وحكمته ورحمته من نتائج هذه الاسباب الكونية المادية فهو من السنن التى لا تبديل لها ولا تحويل ، فقد اتفق شرعه الكونى وشرعه الدينى ، فمن حاول أن يقلب سننه الشرعية كما فى إثابة المطيع ومعاقبة العاصى فيجعلهما سواء فلا شك أنه محارب لله مصادم لسننه محاول لتبديلها ، ولهذا قال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون ﴾

فأخبر أن هذا الحكم حكم سوء وجور ونظر ساقط من هؤلاء الذين حسبوا أن الله يجعل من آمن وعمل صالحا كمن اجترح السيئات ، فأعطاء كل عامل جزاء عمله هو محض العدل والحكمة والرحمة ، وأما جعل الجزاء واحداً والأعمال متضادة فهو جور وظلم لا يليق بالله ، كما نزه عنه نفسه وجعله ظنا للذين كفروا حيث قال ﴿ ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ وكلام صاحب الاغلال كله يدور على مراغمة هذه النصوص وردّها ومعا كستها بأقبح العبارات وأرذلها وأخبثها وأوقحها عامله الله بعدله فقد ظهر لك أن دعواه أن تناول الأسباب واستحصال نتائجها كمسألة رياضية كلام ساقط لا يعتدّ به ، فان المسائل الرياضية يعرفها الناس ويحيطون بها علما وأكثرها ليس فيه خلاف ، أما سير الكون فليس كذلك ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ فمن الذى يحيط بدقائق هذا الكون العظيم ويعلمها ، وقد علم بلا شك أن هؤلاء الذين علموا المسائل الرياضية بل وعلموا من سنن هذا الكون ما لم يعلم به غيرهم إلا من شاء الله هم الذين سقطوا فيما سقطوا فيه من الدمار النهائى ، فلو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ، فالذين علموا المسائل الرياضية جهلوا نتائج الكون وضلوا فيه أعظم الضلال فكيف يكون سير هذا الكون العظيم وتناول نتائجه كمسائل الرياضة البسيطة ، فقياس سننه الشرعية الدينية وسننه الكونية على المسائل الرياضية من افسد القياس وابطله ، وهذا الرجل نفسه قد تناقض فى هذا اظهر التناقض فلم يثبت له فيه قدم كما سوف يجىء

وها هنا قاعدة يجب ملاحظتها فى هذا الموضع وفيما ياتى فى بحث الاسباب وهى انه لا يوجد فى الموجودات سبب واحد مستقل بايجاد مسببه بدون سبب آخر ايجابى او سلبى أو اسباب أخرى تشترك معه فيه . ثم اذا وجدت الاسباب فلا بد من انتفاء الموانع والعوارض فانه لا يوجد سبب فى الموجودات

لا مانع ولا معارض له فى الوصول الى نتيجته ، وهذا من آيات الله فى قطع علائق الكفر والالحاد من النفوس ، فان الفقير الى غيره العاجز عن الوصول الى نتيجة الا باعانة ودفع عنه لا يصلح أن يعتمد عليه وتزال به الفاقات والحاجات ، بل ان ذلك كله انما يستحقه من له المشيئة المستقله بالتصرف المطلق ولا مرد لقضائه ابدا

واذا كانت النتائج لا تحصل الا بهذه الأمور المذكورة ، فهى تختلف أيضا باختلاف أسبابها : فمنها ما يكون سببه بينا واضحا قليلا ، ومنها ما تكون أسبابه كثيرة خفية ، ومنها ما يكون له أسباب قليلة خفية ، ومنها ما تكون له أسباب كثيرة ظاهرة وخفية ، ومنها ما تكون أسبابه ظاهرة وخفية . وهذه مراتب : فمنها ما لا يضر ضررا كثيرا تخلف بعض أسبابه ، ومنها ما لا بد من وجود أسبابه كلها كاملة . ثم وجود الأسباب بكمالها فى هذه الصور كلها لا يكفى فى حصول النتيجة بل لابد من انتفاء كل مانع ومعارض . ثم الموانع والعوارض منها ما هو كثير ظاهر ، ومنها ما هو عكسه ، ومنها ما يكون بعضه ظاهراً وبعضه خفيا على حسب الاسباب والنتائج فى الكبر والصغر والضعف والقوة والاهمية وغير ذلك . ثم الاسباب منها ما يكون فى طاقة الانسان تحصيله وعمله أو تحصيل بعضه كأكثر الصناعات ، ومنها ما هو خارج عن طاقة الانسان تحصيله وعمله كانزال المطر الذى هو مفتاح لكثير من الحوادث من الخيرات وغيرها . ثم الاسباب أيضا منها ما هو سبب مباشر بنفسه ، ومنها ما هو سبب بالوساطة . فانزال المطر ونحوه من الأمور الكونية التى لا يقدر عليها الا الله إنما يستعمل لها الأسباب الدينية ، وايجاد الحيوان والنبات ونحو ذلك وايجاد الحواس لا قدرة للانسان على شيء من ذلك أى فى خلقه وايجاده . وكذلك الموانع منها ما فى إمكان البشر اتقاء أسبابه أو بعض أسبابه الظاهرة كحفظ الزراعة بالبناء والتلقيح والتقليم وأمثال ذلك ، ومنها ما ليس فى امكان الانسان استعمال أى سبب فى اتقائه كارسال البَرْد والبَرَد والصواعق والقواصف

والعواصف ونحو ذلك من الآفات السماوية والارضية ، فنتائج الأسباب كلها لا بد أن تتعلق بشيء من الأمور الغيبية وتتوقف عليها مما ليس فى امكان البشر قهرها وردها وتحصيلها وتحويلها . ومعلوم أن الأسباب انما يتصرف فيها ويعمل بحسب الأفكار والمقاصد ، وهما أصلا الاعمال البشرية ، وقد علمت أنها عاجزة عن ايجاد النتائج استقلالا فلا بد فى حصول كل نتيجة من ملاحظة وجود سبب غيبي ، والسبب الغيبي يختلف فى تحصيل نتيجته وأثره المسلم والكافر لتفاوت أعمالها الدينية المرتب عليها حصول نتائج الأسباب الكونية ، فان النتائج على حسب الأعمال فانها جزاء عليها وآثار لها . وتبين أيضا من هذا أن الأنسان عاجز عجزاً ظاهراً ذاتياً عن تحصيل النتائج بقدرته الذاتية ولو أهلك نفسه بالاجتهاد والجد فى العمل وأعطى من الوسائل الممكنة مالا يمكن حصره حتى يؤيد من العناية الربانية الغيبية العليا ويعتمد عليها ويستعمل من الأسباب مافى قدرته وطاقته

على المرء ان يسعى الى الخير جهده ‏ ‏ ‏ وليس عليه أن تتم المقاصد

فقد ظهر من هذا التقرير أن الأسباب ومسبباتها نوعان : نوع عادى بسيط كالأكل والشرب والصناعات والمسائل الرياضية وأمثال ذلك ، فهذه الأمور يتساوى فى حلها والأخذ بها النوع الانسانى غالبا من مسلم وغيره ، لأن هذه الأمور خلقها الله لعباده جميعا وسائل الى غيرها ليستعملوها لقوام حياتهم وليتقوا بها فتكون حجة عليهم اذ أعطاهم كل ما به يتمكنون من أداء ما خلقوا له من طاعته فهى متاع لهم اختباراً لينظر كيف يعملون ، فكان الناس فيها غالبا سواء

وأما النوع الثانى وهى الامور العظيمة كالمعجزات التى هى خوارق للعادة والكرامات والامور الاخرى الخارجة أسبابها عن طاقة البشر كتسخير القلوب والارادات وتقليب الأفكار التى هى من أسباب الهزائم والحروب والانتصارات وأمثال ذلك مما فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل أو العقوبة والانتقام فلا بد

أن تكون النتيجة المحمودة الطيبة للمؤمن خاصة دون الكافر ، فلا يكون التقدم والنصر الا فى جانب المؤمن أو أتباعه قطعا ولو بخرق عادة أو ابطال سبب فانه إن كان الجند مؤمنا كله ايمانا خالصا ومضادّه كافرا كفرا خالصا حصل النصر فى جانب المؤمن حتما ، وان كان كل من الجيشين متقاربا فى ايمانه فهذا له نظر آخر ، وكذلك اذا كان الجميع كافراً فأكثر ما يقع الوبال فظيعا لأنه نوع انتقام ، وان كان الجيش مؤمنا لكنه مدخول بشيء من النفاق ونحوه فقد تقع فيه الهزيمة أحيانا تمحيصا واختبارا ، وبكل حال فالنصر انما يكون فى جانب الايمان فان الحق فوق الباطل سنة قاهرة جبارة فى الوجود لأنه أقوى منه والقوة فوق الضعف فى الوجود كله [١] فلا تبديل لهذه السنة ولا تحويل ، فلا بد أن يكون مستصحب الحق المحض فوق صاحب الباطل حين يحصل الامتحان والاصدام الفاصل ، قال تعالى ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ وقال تعالى فى هود وقومه ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ وقال فى قصة صالح ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ الآية ، وقال فى ابراهيم ﴿ قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ، فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ وقال فى لوط وقومه ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ وكذلك قصة شعيب وموسى مع فرعون وعيسى عليه السلام حين عرج به الى السماء فعجز أعداؤه عن الوصول اليه ، وانتصارات النبى ﷺ ثم أصحابه على قلتهم وضعفهم فى الأسباب المادية وأعداؤهم أكثر عدة وعددا وثروة ، ثم كان أهل القرون المفضلة كذلك لما كانوا محافظين على أصل دينهم وروحه متمسكين به فى الجملة وكان الحق ظاهرا

---

(١) والاسباب الدينية اقوى من الأسباب الكونية لأنها الأصل

فيهم ، فلما أن حلّ تعطيل الصفات كالعلوّ والكلام وغيره تحول عزّ الدين ، وغير الله على من غيره ، وهذا أمر ظاهر تشهد له النصوص والتاريخ المتواتر والحس والضرورة والاستقراء التام ، ولا يمكن بحال أن توجد فى الدنيا معركة فاصلة إلا كان أصحاب الحق المحض هم المنصورين ، وما يوجد من بعض الهزائم الجزئية فهى لا توجد الا فى جند مدخول إما بذنوب أو غيرها ، وأكثر ما يوجد اذا كان فى الجند ملاحدة أو منافقون ، فيكون كالتمحيص والابتلاء وتميز المنافق المختفى ومن فى قلبه مرض من المؤمن الصادق كما قال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ أما الامور العظيمة التى يحصل بها انقطاع احدى الفئتين انقطاعا نهائيا فلا يوجد إلا والنصر فى جانب المؤمن حتما كما هو الواقع الذى لا شك فيه

فصل

قال : « فاذا ما استطعنا - وذلك ما يجب أن نستطيعه - أن نفهم قومنا ذلك ، واذا ما استطاعوا هم أن يفهموه حقا - وذلك ما يجب أن يفهموه - كان من اليسير جدا بل ومن المحقق يقينا أن يسيروا سيرا سريعا لا ابطاء فيه ولا تأخير فى سبيلهم التى خلقهم الله وأعدهم وهيأهم وأمرهم للسير فيها أى الى الكمال والحياة القوية . فان الله قد ذرأ خليقته وذرأ فيها بذور الكمال وذرأها مهيأة لان تبلغ أقصى مافى الحياة من قوة ونجاح ، وذلك ان الله خلق الاشياء لتكون كاملة لأنه كامل ، ولتبلغ أشدها فى وقت من الاوقات كما قلنا ، فالحيوان وعلى رأسه الانسان طبعا والنبات والجماد خلقت وفيها عناصر الشوق الطبيعى الآلى والشوق الاختيارى الارادى الى الكمال »

قلت : هذا تفريع على ما ذكره من السنن التى هى عنده تفاعل الطبيعة حيث قرر أن النواميس التى تحكم الكائنات الحية انما ورثتها من أصلها المادة على ما

مر تفصيله ، هذا هو الذى يريد أن يفهمه قومه وأن يسيروا عليه مع تلك المخازى الأخرى التى لا تحصى ، والذى نقوله نحن والذى يجب أن نفهمه وأن نفهم كل عاقل مدلوله ومقتضاه صريحا هو السير على مقتضى الأوامر السماوية الدينية طبق ما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة كما قرره الصدر الاول والقرون المفضلة فى أصول الدين وفروعه وأن يسيروا على ذلك سيرا حثيثا صادقا قويا ، وأن نفهم كل عاقل أن ما خالف هذه الطريقة المستقيمة النيرة الواضحة من الطرائق الملعونة الخبيثة الملتوية الوعرة كطريقة هذه الاغلال فيجب ان نضرب به عرض الحائط ان لم نضرب به وجه من جاء به . نعم إن الذى يجب أن نحذره وان نذود قومنا عنه هذه المعاطب المتلفة وهذه الموارد القذرة المسمومة القاتلة ، وأن ندلهم على هذا الكوثر السماوى الطيب الطاهر المشروع الذى شرعه الحكيم العليم وأنزله من فوق عرشه مع أفضل ملائكة السماء على أشرف نفس بشرية ، هذا الكوثر الذى فيه الشفاء المضمون ، وتالله ما حل بالمسلمين البلاء والأسقام والأدواء المتنوعة الا لما أعرضوا عنه أو قصروا فى الانتفاع منه وذهبوا يطلبون الشفاء من غيره ، فكرعوا فى هذه الامواه الآسنة القلوطة المتسربة من عصارة أفكار الرومان وفرنسا واليهود أو أشباههم ، فمن تغذى أو تداوى بعصارة هذه الآراء اليهودية وأمثالها فانى له الشفاء وانى له الخلاص وأنى له الحياة الصحيحة النافعة

لقد عظم الفرق والتوجيه بين من دل الناس على كوثر الله ورحيقه وهم أولئك الجماعات الصادقون ، بمن دلهم على هذه الموارد الخبيثة المنتنة القذرة عصارة أفكار اليهود والزنادقة وأشباههم كصاحب هذه الاغلال

لقد عاقب الله بنى اسرائيل حين اختاروا الثوم والعدس والبصل على المن والسلوى ، فضرب عليهم الذلة والمسكنة وقيل لهم أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فكيف بمن اختار آراء ورثة هؤلاء الأشقياء من اليهود ممن لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت على النصوص

السماوية الطاهرة الزكية من كلام الله العليم الحكيم الرءوف الرحيم ، ولهذا كانت النتيجة فى هؤلاء الذين نبذوا هذه النصوص المقدسة أو اخذوا بها أخـذاً ضعيفا متطرفا ، وتعلقوا بهذه الآراء الخبيثة وعشقوها ، أن عوقبوا بمثل ما عوقب به أمثالهم وأسلافهم ، فضربوا بالذلة والمسكنة فأصبحوا فى هذه القيود والأصفاد والأغلال التى كانت عليهم فاثقلت كواهلهم ، فكلما ارادوا النهوض والتخلص منها عجزوا عن ذلك وارتكسوا فى قيودهم وأغلالهم جزاء بما كسبت أيديهم برفض ما فرض الله عليهم ، فلن يتخلصوا منها ولن يجدوا عنها محيصا حتى يلقوها عن كواهلهم ، وحتى يخرجوا من أسبابها وعللها التى اقترفوها ، وحتى يعلموا أن أسلافهم الأقوياء المظفرين أهل القرون المفضلة هم الذين علموا خطرها وضررها فتباعدوا عنها وحذروا منها وأفهموا قومهم سبيل العز والفلاح وأنه التمسك بهذا الدين المتين والنور المبين . هذا هو الذى يجب ان نفهم قومنا العمل به وأن يسيروا عليه سيراً خالصا صادقا بدون وهن أو وقوف . ويا لله العجب ، هل يسوغ فى العقل والدين أن نفهم قومنا بأن يسيروا على نحو ما قررته فى أغلالك هذه الوبيلة وادعيت أنه من الحقائق الأزلية الأبدية ولن يستغنى عنه مسلم ، ومن هذه الحقائق ان الرعود والبروق والعواصف تراض كما تراض الوحوش ، وأنه اذا تقاتل اثنان فالله مع أقواهما ، وأن أعظم المظاهر الاسلامية كالمنابر التى يخطب عليها يوم الجمعة أدت شر ما يؤدى ، وأن المساجد التى تؤدى فيها الصلوات أدت شر ما يؤدى وأن هذه الخطب أيام الجمع احدى النكبات ، وأنها كلمات خفيفات مبهمات ، وأن الصلاة حركات يمثلونها أو تمثل بهم ، وأن الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تصريف خبيثة ضارة وأنه أيضا ملهاة وتعويق ومصرف خبيث ، وان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يستطيع فراق الطبيعة وأنه ابتدأ رسالته بمناجاة الطبيعة وختمها بمناجاتها أيضا ، وأن تعليم المرأة أوجب من تعليم الرجل ، وأن الزواج تحكم فى المرأة لايجوز ، وأن قدرة الله على

تغيير الاسباب فوضى وسفه ، وان المتدينين على اختلاف ديارهم وأجناسهم وأنبيائهم وأزمنتهم وأمزجتهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقة ، وأن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة هم المتحللون من الأديان ، وأن الانسان لن ينجح حتى يكون سببيا محضا ، ولا يكون سببيا ما دام مؤمنا بقدرة الله الشاملة المتصرفة فى الاسباب ، وأمثال هذه الآراء الكثيرة الملعونة ، والرعونات الجنونية والسخافات الباردة . ويل امك متى سولت لك نفسك أو عقلك أن المسلمين أو أن العروبة شاء او نعم تضحك بعقولها حتى تسجل هذه المخازى الوبيلة ثم تدعى أنهم لن يستغنوا عنها ، وأن النجاة فى العمل بها والسقوط فى تركها ، ثم توجب عليهم فهمها وافهامها والعمل بها ، لقد ضللت إذن وما أنت من المهتدين

أما قوله « ان الله خلق خلقه للسير الى الكمال والى الحياة القوية » فيقال : الذى دلت عليه الشرائع والعقول السليمة أن الله خلق خلقه لعبادته ، فالتمسك بدينه وعبادته هو السبيل الموصل الى الكمال الممكن فى حقهم والى الحياة القوية ، وأرفع الحياة القوية هى الحياة الأخرى فى النعيم المقيم ، ولكن انت جعلت هذه الطريق لا فائدة فيها فصددت عنها ، وجعلتها عوجا ، لانك ادعيت أن طريق المجد ينحصر فى الأخلاق الصناعية والتجارية ونحوها ، وجعلت الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى ، وادعيت أيضا أن سبب تأخرنا شىء واحد هو الجهل بنواميس الطبيعة كما يأتى ، فقد خالفت الطريق الصحيحة الى الكمال والحياة القوية ، واتخذت طريقا هوجاء مظلمة لا يسلكها أحد الا عطب وتلف .

ودعواه أن الله «ذرأ فى خليقته بذور الكمال وذرأها مهيأة لأن تبلغ أقصى ما فى الحياة من قوة ونجاح » (١) فيقال : لكن أنت لم تقبل الذى ذرأه الله

(١) سيأتى دعواه أن الانسان بطبيعته شرير خبيث ظالم

فيها من البذور الطيبة الطاهرة ، بل عاديته وحاربته ورفضته وجعلته ملهاة ومصرفا خبيثا وشرا يؤدّى ، وهو الدعاء والثناء على الله والتوجه اليه بعبادته القولية والفعلية ، فانك قررت بأصرح عبارة أن الدعاء هو العبادة بلا خلاف ، ثم قررت أنه لا فائدة فيه بل هو ملهاة ومصرف خبيث ، وقررت أيضا أن الدعاء كالصلاة والحج وغيره من العبادات فجعلت عبادة الله التى انزلت لأجلها الكتب وأرسلت لأجلها الرسل والتى هى بذور الكمال الممكن ليست بشىء غير الضرر والتعويق ، فالتقوى والعمل الصالح والايمان بالله هو بذور الكمال الممكن كما قال تعالى ﴿ واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ فبذر فيهم توحيده والاعتراف بربوبيته وألوهيته وهم فى أصلاب آبائهم ، وجعل حياة ذلك وغذاءه بما آتاهم على ألسنة رسله من النور والروح والهدى والنيات التى هى الايمان والعمل الصالح ، فعمدت الى هذا البذر الطيب وعملت أقصى ما فى وسعك لافساده ومحقه عن آخره .
وقال تعالى ﴿ يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فعلق سبحانه عدم الخوف والحزن على التقوى والعمل الصالح ، فدل على أن بذور القوة الصحيحة التى لا يدخلها خوف ولا حزن هى التقوى والاعمال الصالحة ، وأن من فقد هذا اعتراه من النقص والضعف بقدر ما فقد منه . وقال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى فلنحيينه حياة طيبة ﴾ فعلق الحياة الطيبة على الايمان والعمل الصالح ، وان من فقد هذا فقد من الحياة الطيبة بقدر ما تركه من الايمان والعمل الصالح ، وقل أن يوجد فى الدول الكافرة دولة يمضى عليها فى رفاهتها وقت طويل لم تصبها فيه نكبته ، وتلك المدة هى التى يمكن ان يعيش فيها الانسان طول حياته هادئا مطمئنا . وليس فى شىء من النصوص أن الكمال والحياة القوية فى تعلم الطبيعة ونواميسها ، الا على مذهب الملاحدة ، ومن سحر بأقوالهم من الذين لا يؤمنون

بالله ولا باليوم الآخر من أصناف المنافقين

أما ما ذكره من أن الله خلق الاشياء لتكون كاملة لأنه كامل ، فهـذه الفلسفة الباردة والادعاء المرذول لا يصح ، بل هو باطل ، فان الله هو المختص بالكمال الذى لا غاية فوقه ، أما خلقه فيختص المطيع منهم بالكمال الممكن فى حقه كل بحسب تقواه وصلاحه . ومعلوم أنه لو كان الخلق مثله فى الكمال لكانوا أربابا ، وهو باطل بالضرورة ، وتعليله باطل أيضا لأنه مجرد دعوى لا أساس لها فتقابل بالرد

وقوله « ولتبلغ أشدها فى وقت من الأوقات » الى آخره فيقال : هـذه دعوى غامضة انما يصح ذلك فى أهل الطاعة فى وقت القيامة فى النعيم المقيم ، فلا حجة لك فى هـذا

ويجب ان يعلم وأن يلاحظ أن لهذا الملحد مغزى خبيث فى هذا الكلام ، فانه طالما كرره وردده بعبارات متنوّعة مدخولا بشىء من الجمجمة [١] وهو يرى أن العلوم المادّية والمعارف والتفاعل المستمر فى الطبيعة سيتطور حتى يصل الناس الى حالة يقضون فيها على جميع الشقاء من الامراض والاسقام والموت والهموم وغير ذلك من نقائص الحياة ، وهذا لا يمكن بحال

فصل

ثم قال « وقد حدّث العلماء أن هذه الشمس الباهرة الوضاءة وهذه النجوم المتلألئة وكل هذه الأفلاك التى تزين الظلام فى حلكة الليل الأصم وهـذه الارض التى صارت من كمالها وقوتها تنبت الانسان والحيوان وكل ما فيها مما يجل عن الحصر والتسمية ومما يسعد الانسان ويهبه الراحة والعيش الهنى ،

---

(١) بل صرح فيما يأتى بأنه ينتظر من فتوحات الانسان العلمية أن يقضى على جميع صنوف الشقاء القضاء التام

حدّث العلماء أن كل هـذه الموجودات خلقت - أول ما خلقت - لا تصلح لشيء مما هي صالحة له اليوم ، وليست شيئا له قيمة بالنسبة الى ما صارت اليـه اليوم ، ولكنها ظلت لما وضع الخالق فيها من الاستعداد للكمال والتقدم تدرج الى غاياتها وتحبو فى طريقها جادّة لا يعوقها عائق ولا يصدها صادّ ، حتى أصبحت اليوم شموسا ونجوما وكواكب لامعة ، تغمر الوجود بهجة وجمالا وحياة وضياء »

فيقال : هذا برهانه على ما ادّعاه فى الجملة التى قبلها من بلوغ النـاس الى الكمال . ويكفيك دليلا على فساد هذه الدعوى أنه أعرض عن النصوص الدالة على الوصول الى الحياة الصحيحة القوية والى التقدم والنجاح وتعلق بهذا القول الذى نقله عن بعض ملاحدة أهل الهيئة ، فكره الطيب ومقته ونفر منه وأعرض عنه ، وعشق الخبيث وأحبه وتعلق به واحتج به ، وهكذا يكون من انسلخ من آيات الله واتبع هواه . وينبغى أن يلاحظ أنه اذا أطلق العلماء فانه لا يريد من له أدنى معرفة فى دين الله مهما كانت حاله فى العلم والمعرفة ، وانما يريد بهذا الاسم اذا أطلقه الملاحدة ومن على شاكلتهم كما نبهنا على هذا وأعدناه ، لأنه سيتكرر كثيرا ، فينبغى ملاحظته . ثم لو فرض أن هـذا الرأى الذى ادعاه صحيح فلا حجة له فيه ، فهل هذه الارض وهـذه الموجودات وصلت الى ما وصلت اليه من هذه الحالة بتعلم قوانين الطبيعة ونواميسها فدخلت مدرسة تعلم فيها هذا العلم ، أم وصلت الى ذلك بخلق الله فيها ذلك ، وهل وصلت اضطرارا الى ذلك أو اختيارا ، فلا بد من التفصيل ليطابق هذا الدليل مدلوله

فصل

ثم قال : « والانسان بلا أدنى ريب وهب من الاستعداد للكمال والوثوب والقدرة على إبراز أجمل ضروب الحياة وأقواها ما لم يوهب مخلوق آخر »

قلت : هذا لا حجة له فيه ، لان حاصله ومعناه أن الانسان فيه استعداد

لمعرفة ضروب عظيمة من الصناعات ونحوها ، وهذا لا ننكره ، وليس النزاع فيه ، ولو جعل أغلاله كلها فى هذا الموضوع لم نعارضه بشىء ، ولكنه عمد الى الاديان فشتمها وحاربها ، وهذا هو الذى ننازعه فيه ، لكن قوله هنا « وهب من الاستعداد للكمال » فيه ما فيه ، فاننا نمنعه الا فى من عمل صالحا ويكون حينئذ كماله الممكن بحسب إيمانه وعمله الصالح ، وهذا المعارض لا يقول بهذا فلا حجة له فيه

ثم قال « ولكن الانسان لسؤ حظه ـ وقد يكون لحسن حظه ـ جعل سيره لنحو الكمال اختياريا آليا معا لا آليا فقط ، بمعنى أنه من الممكن بالنسبة له السير نحو الكمال والسير أيضا نحو النقص والدمار ، وكلا الامرين بيده وتحت مشيئته لان الله شاء له ذلك »

فيقال : اذا كان سيره اختياريا لا آليا انتقض استشهادك الذى ذكرته عن علمائك فى الشمس والنجوم والارض ، فانها على زعمهم تسير سير آليا فقط ، ثم قولك « ولكن الانسان لسوء حظه وقد يكون لحسن حظه الخ » لا ندرى أيهما أولى عندك فلم تبين الأولى ، وكون الانسان جعل سيره اختياريا نقول به فى الجملة أى أنه مختار ، لكن ذلك بعد مشيئة الله تعالى ، ففعله مخلوق ، وليس الناس سواء فى المشيئة ، بل المؤمن مختص بزيادة إيمانه فضلا ونعمة بخلاف الكافر ، وأنت سويت بينهما على مذهب المعتزلة ، بل هو شر منه كما ياتى فى بحث القضاء والقدر وفى مواضع أخرى ان شاء الله تعالى

ثم قال « فكان من اللازم الضرورى المحافظة على خطواته كيلا يزلّ أو يضل ولكيلا يخرج عن الطريق ، ولا جدال فى أن شيئا من الأشياء لا يستطيع أن يصل الى غايته المرسومة إلا اذا أزيلت عنه العوائق وزحزحت عنه الموانع ثم استعملت المواهب الكامنة والهبت استعداداته الطبيعية . ولكن يجب أن يفهم هنا ـ وهذا له شأن كبير ـ أن فى استعدادات المواهب البشرية وفى طاقتها أن تمضى فى سبيلها دون وقوف ، فعلينا أن نرفع هذه الموانع ثم لا نحتاج بعد

ذلك لأن نلتمس مهمازاً ندفع به الانسان الى العمل بطبيعته ، بل هذا المهماز موجود فيه وفى طبعه ، فارفعوا هــــذه الأوهام والخرافات والقيود الذهنية والاغلال الاعتقادية ، ثم انظروا كيف يكون الانسان » .

قلت : لا شك أن المحافظة على الخطوات وعدم الخروج عن الطريق أمر مطلوب ، لكن أنت خالفت ذلك فخرجت عن طريقتك الاولى التى أقمت البراهين كما تدعى على أنها حق ، ثم خالفتها ووقعت فى الخطل فى خطواتك ، حتى رجعت القهقرى وانحططت الى الورا . ثم انه يجب عليك أن تبين هذه الموانع التى تريد ازالتها عن الطريق ، ولا سيما فى هذا الموضع فيجب التصريح بها هنا ، ولا تكفى هذه الاشارة . ونحن نعلم أنك تريد بذلك الأخلاق الدينية كما فسرتها فى المواضع الأخرى حيث ذكرت أن الدعاء ملهاة وتعويق ومصرف خبيث ، فهذه هى الموانع عندك التى تجب ازالتها مع ما ذكرته فى خطب الجمعة وغيرها . ولكن الذى لا شك فيه أن الموانع والاغلال هى أغلالك فتجب إزالتها ، ومن العجب أنه سمى كتابه هذى هى الاغلال وقال هنا فارفعوا هذه الاغلال ، فنقول صدقت فلنرفض هذه الاغلال رفضا باتا قبح الله من عملها ثم دعا اليها ثم دعا الى رفضها ، فسبحان من أخزاه . ولا شك أنها والله أغلال ، وداء عضال ، لمن رسخت فى ذهنه أو ارتاب فى كونها مناقضة للدين ، فليبك على نفسه ، وليعلم أنه لم يعرف دين الاسلام ، فان هذه الاغلال غلت أهلها حتى خنقتهم خنقا مميتا كما وقع ذلك بالضرورة والتواتر ، ثم ماذا تريد اذا أزيلت هذه العوائق والموانع التى هى تعاليم الدين ، أتريد أن الناس يستبدلون بها أنظمة الملاحدة ، أم تريد أن يحلوا محلها أفكارك التى عملتها فى هذه الأغلال وادعيت أنها حقائق أزلية أبدية تأخذ بها أمة فتنهض وتتركها أمة فتهوى ولن يستغنى عنها مسلم ، ولعل هذا هو مرادك لتكون المقدم فى كل أمر كما تدعى فى هذيانك البارد

وقوله « ثم استعملت المواهب الكامنة وألهبت استعداداته الطبيعية » فهذا

تصريح منه بأن الطبيعة هى التى تدفعه الى الاعمال وتدبره ، فهى التى تهديه وتضله ، وهذا كما أنه يصادم الشرع والعقل فهو يناقض ما ذكره أيضا فى بحث الانسان الآتى فى دعواه أن الانسان خلق بطبيعته شريراً خبيثاً شيطانا ، وأنه لولا التعاليم لنشأ على الجهل والظلم والعدوان المطلق الذى لا يعرف القيد والضبط ، فكيف يدعى هنا أن الطبيعة هى التى تلهب استعداده وأن مهمازه موجود فيه ، وقد استكبر عن أن يقول : ويستعين الله ويستمد منه المعونة والتوفيق ، فشمخ عن ذلك بأنفه المرغم ، ولكن نحن نقول يجب على الانسان أن يستعين الله تعالى ويستمد منه المعونة ويصدق وينصح معه ويعلم أنه الجواد الكريم القادر القاهر الذى لا يخيب من سأله بصدق ونصح واخلاص ، وليس للمسلم نجاح بدون هذا أبدا ، وانما يؤتى الانسان من نفسه وسوء معاملته مع الله وجهله بتعظيم دينه واحترامه ، والا فمن رسخ الايمان فى قلبه دفعته حرارة الايمان الى أصح الاعمال وأنفعها وأرفعها ، فانها حرارة ربانية ، وقوتها وضعفها بحسب قوة الايمان وضعفه ، فلا أنجح من هذه الطريقة ، أى الحرص على ما ينفع والاستعانة بالله كما قال عليه الصلاة والسلام «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» الحديث

وأما دعواه أن فى استعدادات المواهب البشرية وفى طاقتها أن تمضى فى سبيلها دون وقوف ، فهذا اشارة الى ما كرره مرارا لا تحصى أن قدرة الانسان لا حد لها بل صرح بانه لا يقال لشىء من الاشياء مهما بلغ ما بلغ هذا فوق قدرته ، وصرح بأنه يعلم خلق السموات والارض وخلق نفسه وخلق كل شىء ولهذا ادعى هنا أنها تمضى فى سبيلها دون وقوف ، اذ لو كان فوق قدرتها شىء لوقفت دونه . ثم انه لحرصه على رفض الاعتقادات والاعمال الدينية وكراهته لها ولأهلها طلب ازالتها أولا ثم طلب رفعها ثانيا فقد أثقلت كاهله كما غمت قلبه وروحه ، فليمت كمدا وليعلم أن أخلاق الدين هى النور والروح وقرة العين والافراح واللذت والنعيم الذى لا يعادله شىء وحياة القلب التى ما طابت الحياة

إلا بها ، فهى البصائر النيرة التى من سار على نورها ومشى على ضيائها وصل الى محبوبه وتحصل على مطلوبه ، ومن أعرض عنها هوى فى دركات الضلال والظلام ، بل هو كمن خرّ من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق فلا يرجى له حياة ولا خلاص كما ذكره الله ، وهى الحد الفاصل بين الانسان وشر الحيوان ، فهى الحد الفاصل بين الحياة والموت والنعيم والجحيم ، وسيعلم هذا الملحد أن ما سلكه فى محاربة هذه الاخلاق الدينية وجعلها ملهاة وأغلالا وعوائق وأوهاما ان ذلك كله هو ما دعا اليه فى كتابه من النفاق والشقاق والخسة والنذالة والجشع والخبث والذل والسقوط النهائى وقد ذكرنا فى أول هذا الكتاب ما يتعلق بالأغلال وأن ما رمى به المسلمين هو أولى به بلا شك ولا أدنى ريب

خلاصة هذا المبحث

قد فهمت - أيها القارى العزيز - أن خلاصة هذا المبحث الذى هو كالمقدمة لهذا الكتاب ان مؤلف الاغلال ادعى أن تأخر المسلمين لم يفهم أحد من جميع الناس سببه ولم يعتن به أحد أو يفكر أو يبحث فيه غيره ، فهو الذى فكر فيه وحده وهو الذى عرف سبب التأخر ، وهو ما وصفه فى هذا الكتاب . وقد عرفت جوابنا عن ذلك ، ولكن نختم هذا المبحث بمعرفة أمور :

أحدها أن هذا الرجل له والدة كبيرة السن ضعيفة موجودة الآن فى قرية من قرى القصيم وهى على قيد الحياة ، وقد غاب عنها ما يزيد على ثلاثين عاماً وقد وصل الى الحجاز مرات فلم يصل اليها ولم تسمح نفسه أن يكتب لها حرفا واحدا ، وقد كاتبته مرارا بواسطة العالم الوجيه الشيخ محمد حسين نصيف وغيره وأوصلوا رسائلها اليه ونصحوه فى ذلك فاستكبر عن الاجابة . ولما قدم الحجاز سنة ثلاث وستين حاولت وصوله اليها وكان فى استطاعته اذ ذاك أن يصل اليها بدون مشقة بواسطة المواصلات المتيسرة ، فرفض ذلك ورجع الى

مصر ولم تسمح نفسه فى هـذه الحقبة الطويلة أن يرسل اليها ما يساوى درهما واحدا على شدة ما بها من الحاجة ، بل لم يسهل عليه أن يكتب لهذه الوالدة سطرا واحدا يعادل سطرا من هذا الكتاب الذى مكث فى تصنيفه ست سنين لم يقتطع منها ست دقائق من الزمن يكتب لها فيها رسالة يسترضيها ويزيل مـا ألم بخاطرها من طول الفراق . فيا لله العجب ، هل يوجد عقـل صحيح يصدق بأن رجلا يبخل عن والدته الكبيرة الضعيفة بأضعف وسيلة توجد على وجه الأرض لترضى عنه ، ويريد مع هـذا أن يفيض جوده على المسلمين الذين يقول عنهم انهم يبلغون اربعمائة مليون بكتـاب يخرجهم به من الظلمـات الى النور فيبصروا طريق العقل -كما يدعى- وينقذهم من استعمار العدو واستعباده . لا شك أن الانسان الذى يصدق بهذا إما غبى أحمق مفرط فى الغباء والجهـل وإما معاند قد غلب على شعوره العناد . (ياالشمس التى فى غير برجها) اذا كنت عجزت عن أن تصلح شانك مع أمك بنحو عشر كلمات ، وأبيت الا أن تقابلها بالعقوق والهجر القبيح تكبرا واختيالا ، فكيف تريد أن تصلح الناس ؟

يا أيها الرجل المعـلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها   فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتى مثـله   عار عليك اذا فعلت عظيم

لقـد عرف الناس كلهم - إلا من شاء الله - أنك امرؤ شغوف متهالك الى حد بعيد فى حب المـادة وحب الشهرة الزائدة ، وكفى بكتبك كلهـا وما نقلناه فى هذا الكتاب دليلا على ذلك ، ومن كان هـذا خلقه فانى يكون صدوقا نصوحا ،

الأمر الثانى - أن جميع العلماء الدينيين الذين اطلعوا على «هذى الاغلال» ودرسوه وفهموه وهم على بينة من ربهم وبصيرة من أمرهم قد عرفوا حقيقـة مغزاه ومرماه وأنه مضاد للشريعة الغراء مناقض لما خادع به وادعاه فى مطاوى كتابه ، وبينوا أنه نفاق ظاهر وخداع بين ، وأن موضوعه دعاية خبيثة ضد

الاسلام وروحه ، ولا يخفى هذا إلا على مطموس البصيرة مخسوف القلب لا يعرف حقيقة دين الاسلام ولا حقيقة النفاق والالحاد والكفر ، فان أصدق صورة ترسم للمنافق صورة هذا الموقف الذى اختاره لنفسه هذا المؤلف فى عملية هذا الكتاب ، وقد نوه العلماء بهذا وكلامهم فيه كثير جدا ، ومن تركه منهم فانما تركه اما احتقارا أو أنه لم يطلع على كلامه ولا أحاط بمرامه ، وعلماء نجد كلهم ـ لا أستثنى منهم أحدا ـ لا يشكون فى كفره ومضادته للاسلام ، وكذلك علماء الحجاز الذين عرفناهم ، وقد رد عليه كثير من العلماء بمقالات كثيرة متنوعة مشهورة وكشفوا خداعه وخزيه فى مصر والحجاز وغيرهما ، ولو ذهبنا ننقل كلامهم لطال الكتاب جدا ، وممن نبه على ذلك الاستاذ السيد قطب الكاتب المشهور فى مقالة له نشرت فى مجلة الهدى النبوى عن مجلة السوادى قال السيد قطب :

هذى هى الاغلال

لم اكن أنوى أن أكتب شيئا عن هذا الكتاب ، لا خيرا ولا شرا ، فلعل صاحبه يصل الى أهدافه الحقيقية : الشر والخير سواء . وللكتاب وصاحبه معى قصة ما كنت لافشيها للناس لولا أنها تكررت مع غيرى ولم تعد سرا :

أهدى الىّ الرجل كتابه ، ومضت فترة لم أكن قد فرغت فيها لقراءته ، ثم تفضل فزارنى مع صديق كريم عزيز أحمل له فى نفسى ودّا مكينا ، وأسرّ لى الصديق ثم أعلن أنه وافد لى فى مهمة . إن حرية الفكر فى خطر ، فهذا الرجل صاحب الكتاب قد عنّت له أفكار وآراء جريئة فأودعها كتابه ، وخصومه من الرجعيين والنفعيين فى الحجاز يدسون له هناك ، وانه على وشك أن يستدعى لمحاكمته وربما لشنقه ، وان علىّ ككاتب يقدر رسالة الفكر أن أشارك فى الذود عن حرية الفكر الموشكة على الاختناق . ولم يكن بد من ان أتحمس فى أول الأمر ، فعزيز على صاحب فكر وقلم أن يسمع ويرى خنق

حرية الفكر ولا يتحمس أو يثور ، ووعدت أن أفعل فى حدود ما أستطيع .
وجلس الرجل وأخذنا باطراف الحديث فى دارى ، وشيئا فشيئا بدأت أن اشم رائحة فى الحديث ، رائحة ليست نظيفة

هذا رجل يريدنى على أن أفهم أن الأنجليز فى الشرق قوم مصلحون لا مستعمرون ، وأن وسائلهم فى الشرق أرقى واكرم من وسائل المسلمين عندما استعمروا الشعوب ، وليس المسلمون هم الأتراك مثلا فأجد عذرا ، ولكنهم أصحاب محمد بن عبد الله وعمر بن الخطاب ، بل القرآن الذى أباح التخريب والتمثيل ، وكان ذلك كله ردا على ما قلته له من أن الاستعمار لا قلب له ولا ضمير ، وأن الحضارة الاوربية الحديثة تستخدم وسائل غير انسانية فى الحروب وغير الحروب[1] : إن المسلمين صنعوا تلك الشناعات وبعد ما صنعوها جاء القرآن ليبررها لهم ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ ولم يرد أن يستمع الى حديثى عن وصايا النبى ﷺ للقواد ، ولا الى وصايا خلفائه الانسانية الرحيمة . فليكن . فقد تكون تلك عقيدة يجاهر بها صاحبها ويتحمل تبعاتها ونتائجها . ثم ماذا . ثم يجب أن ننفى العنصر الاخلاقى من حياتنا ، فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية ولا قيمة لها فى الرقى والاستعلاء هذا والمسلمون لم يكونوا فى أى عصر من عصورهم حتى أيام محمد إلا فساقا فجارا وهم الآن فى البلاد المحافظة أفسق وأفجر ، ولا عبرة بهذا كله فقد كانوا أقوياء وهم فساق فجار ، لأنهم آخذون بوسائل الحياة المادية ، وهم ضعفاء اليوم مع فسقهم وفجورهم لأنهم لا يأخذون بوسائل الحياة المادية ، والمعوّل على هذه الوسائل لا على بر أو فجور

فليكن أيضا ، فقد تكون أيضا تلك عقيدة الرجل ، وأنا مستعد لأن استمع لكل عقيدة يجاهر بها صاحبها ويتحمل تبعاتها ونتائجها . وطال الحديث

(١) اى قال مجيبا

وأنا بعد هذا كله لا أزال معتزا أن أقرأ الكتاب ، فان وجدت فيه حرية رأى حقيقية وفكرة ناضجة قوية دافعت عن الرجل ولو خالفته فى فكرته كل المخالفة . ثم عدت الى الكتاب ، وهنا تحول شعورى الى اشمئزاز عميق . هذا رجل ينافق ، يريد أن يطعن الطعنة فى صميم الدين خاصة ، ثم يتوارى ويتحصن فى الدين وينكر ما قد يفهمه القارىء من بعض النصوص ، ومن روح الكتاب كله وراء النصوص . ثم هذا رجل يسفسط ولا يأتى بشىء : (دون كيشوت) جديد يطعن فى الهواء ويحارب أفكاراً لم يعد لها وجود منذ خمسين عاما على الأقل . ثم هذا رجل يسرق أفكار غيره بالنص ، وينكر أن يكون قد قرأ شيئا من هذه الافكار ، ثم ـ وهو الأهم ـ هذا الرجل مريب :

(١) فطبيعة المتدين ـ غالبا ـ طبيعة فاترة فاقدة للحرارة المولدة للحركة ، المولدة للابداع (ولنرجع فنكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له ، ولكن الذنب ذنب النفوس البشرية التى لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين ، والتوفيق بين الروحين : روح الدين وروح العمل للحياة) . هكذا طبيعة المتدين غالبا ـ طبيعة فاترة فاقدة للحرارة الخ . ثم الدين نفسه لا ذنب له وأمثاله فى كل موضع كثير ، والحديث عن الخلق كالحديث عن الدين ، فهو دائما ضد العنصر الأخلاقى ، يراه قيداً معجزا وضعفا زريا ، ثم يتوارى بعد هنيهة وينكر ما تنطق به النصوص

هذا رجل تنقصه الجرءة على أن يقول ما يريد أن يقول ، وإذن فلا حرية فكر ولا خطر على حرية فكر ، انما هى دعوة خبيثة ملتوية ضد الدين ، وبخاصة الاسلام ، وضد الروح الخلقية فى النفس والضمير

(٢) مَن مِن الشعوب الاسلامية الآن يكتفى فى مجاهدة الغربيين بالدعاء بان يحرق الله بيوتهم وييتم أطفالهم الخ : قد تكون هذه بعض دعوات المنابر التقليدية ولكن الشعوب هذه تجاهد وتقاوم وتكافح وتثور وتسيل دماؤها فى كل مكان ، ولكن المخالف لا يرى فى المسلمين إلا هؤلاء الداعين على بعض

المنابر ، ويجىء بكتابه ليقول : انكم جميعا أخطأتم الطريق باقتصاركم على هـذا الدعاء .

هكذا معظم كفاحه لتصحيح أفكار المسلمين (دون كيشوت) : يطعن فى الهواء وينازل الاشباح ويحارب الافكار التى حاربها الزمن منذ خمسين عاما أو تزيد

(٣) وفصل ضخم هو أحسن فصول الكتاب عن الايمان بالانسان ، وهو عنوان كتاب الاستاذ عبد المنعم خلاف ، ولا يشك إنسان أن مؤلف الأغلال انتفع بهذا الكتاب انتفاعا كاملا ، وليس فى هذا من حرج ، ولكن الرجل حينما سمع منى اسم الكتاب أبدى أنه لم يسمع به أصلا . لم احترم هذا التجاهل ، لانه ليس سمة الباحثين المخلصين

(٤) « نؤمل اليوم أن تحمينا بريطانيا وأمريكا من هـــذا الغزو المحيط الماحق ، الغزو الصهيونى ، مع أنهما هما الخصمان . اننا ندع أنفسنا كثيرا ونضللها حينما نظن أن فى حولنا ـ لو تخلت هاتان الدولتان ـ أن نحمى أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو الصهيونية وأخطارهـا ، فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمادية والفكرية ، أما نحن فنكاد نكون مجرّدين من كل ذلك » . واذن فعلينا أن نبدأ فى الاستعداد لحماية أنفسنا والى أن نستعد يجب أن نحافظ على بقاء قوة انجلترا بجانبنا لتحمينا من الغزو الصهيونى (هنا رائحة مّا)

هذا رجل لا يخاف عليه من اعتقال ولا شنق ولا سواهما ، انه رجل يعرف طريقه جدا ، فلا داعى للخوف الشديد ، وعـــلى أن الاسطوانة التى أديرت على أذنى أديرت على آذان الكثيرين ، واستنهضت بهـا أريحية الكثيرين ، وقد تحمس الاستاذ اسماعيل مظهر فكتب كلمة قوية فى الكتلة عن الكتاب (انا واثق انه لم يقرأه الى نهايته ، وإلا فلن تفوت فطنة الاستاذ اسماعيل أن تتبين فى ثنايا الكتاب شيئا غير نظيف) . وكنت بعد هذا كله على نية أن أسكت ، لولا أنى وجدت بدء ضجة مفتعلة تعطى الكتاب أكثر من

قيمته ، وتصور المسألة على غير صورتها . ولا بد من أن الأستاذ السوادى وانا أعرف أريحيته قد تأثر بالاسطوانة المثيرة ففتح صدر جريدته للدفاع عن حرية الرأى المهددة بالشنق . لقد كنت على استعداد أن أدافع عن حرية الرأى المخالف لو وجدت شيئا ذا قيمة ، ولو وجدت ايمانا حقيقيا بفكرة ، ثم لو لم أشم هنا وهناك رائحة بشىء مّا ، شىء غير نظيف » . انتهى

وقال الشيخ الفاضل الاستاذ محمد عبد الظاهر ابو السمح إمام وخطيب الحرم المكى فى كتابه حياة القلوب (ص ٩٣ الطبعة الثانية) : والملحدون فى كل أمة متدينة دعاة فتنة وقادة همجية ، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا ، فهم بلاء الشعوب ووباء الانسانية ومرضها وعلة الاجتماع ، ولا شفاء للأمم منهم إلا بضرب أعناقهم واستئصال شأفتهم ، وملحد الأغلال بزّهم فى البهتان ، والكذب على الله والقرآن . فالقرآن يدعو الى الايمان والأعمال الصالحة ، والى العلوم والمعارف ـ الى أن قال ـ وقد قلنا فيه وفى أمثاله هذه القصيدة :

(الى صاحب الاغلال)

مدحتك يا أخا الأغلال قبلا	بما ألفت من سفر الصراع
وأما الآن فاسمع من قوافى	هجائك مهلكات كالافاعى
تساور مارقا يدعو لكفر	تردّى فى الثرى بعد ارتفاع
عزوت الى الشرائع كل نقص	ومنك النقص فى كل المساعى
وقلت الدين أخر تابعيه	وهذا قول أحمق لا يراعى
أتنكر دين خير الخلق طرا	وتاريخا تواتر بالسماع
أتنكر يا غوىّ قرون صدق	سموا بالدين فى كل البقاع
أما ملكوا الورى فى كل قطر	بدينهم القويم والاتباع
أهذا الدين أخر تابعيه	وهذا الدين من رب مطاع
فقل لى يا أخا الاغلال واصدق	أكذب منك أم قصر اطلاع
جنون منك أن تدعو لكفر	وتؤثره بمنزور المتاع

تبيع الدين بالدنيا غرورا … لتشهر بين أوباش رعاع
أما دك الصحابة كل عرش … بهذا الدين من بعد القلاع
فسل ان كنت لم تعلم وإلا … فدار الجهل يابن بنى لكاع
أيابلعام عصرك أى أرض … تقلك والأنام عليك داع
وقد بارزت رب العرش جهلا … لكفر فيك أو لؤم الطباع
فمن يحميك من رب غيور … شديد البطش ذى أمر مطاع
أما والله ان الدين عز … لمن والاه حقا باتباع
وليس الذنب ذنب الدين لكن … ذنوب الجاهلين بالابتداع
لقد أسرفت فى الأغلال حتى … سقطت وكنت طلاع التلاع
وقد والله أشمت الأعادى … بلا سبب لديك ولا دواع
فبين بالأدلة اى غل … أتى فى الدين عقل أو سماع
وفى التنزيل أم سنن صحاح … نهاك الله عن حسن اختراع
تحبذ فعل افرنج تولوا … عن الاديان والرب المطاع
وتهوى أن تعيش الناس فوضى … كأنعام تسافد فى المراعى
وتدعو للتبرج كل أنثى … بلا خجل لديك ولا ارتداع
أتدعو للجهالة بعد علم … وللفحشاء والنكر المشاع
أيعجبك الفرنج وهم وحوش … وما للخير عندهم دواع
فما يرجون من رب ثوابا … ولا يخشون كالابل الرتاع
ويوم الحرب عندهم جحيم … تصب على الأكابر والرعاع
على الاطفال والضعفاء تترى … بلا رفق أضر من السباع
ولولا الشرق فى نوم عميق … لما نعم العلوج بذا المتاع
فأبشر يا غوى بكل خزى … وما تلقاه من صفع اليراع
ستندم يوم تجزى كل نفس … بما عملت لدى نشر الرقاع

أتذكر يوم كنت حليف فقر وقمل فى ثيابك واللفاع (١)
فلما أن حباك الله ما لا لتشكره بقدر المستطاع
بطرت وقمت للرحمن حربا بلا خجل لديك ولا قناع
خسرت الدين والدنيا جميعا وما لك فى القيامة من دفاع
فتب لله قبل الموت واصدق ودع ما قد نسجت من الخداع
نصحتك أن قبلت اليوم نصحى وان تعرض فاعلان الوداع
ويوم الحشر يندم كل باغ ويلقى ما جنى صاعا بصاع
وان متعت أياما قصارا فما الدنيا الغرور سوى متاع

وقال أيضا مرفوعة الى الملحد الدجال :

قولوا لهذا الملحد الدجال أحبطت ما قدمت من أعمال
وسببت دين الله يا شر الورى وأطعت كل مضلل دجال
وتقول ان الدين أخر أهله ثكلتك أمك من جهول قال
أو لم تر الاسلام قدّم أهله فى سالف الأزمان والأجيال
وشهادة التاريخ والسير التى تتلى وما تخفى على الأطفال
وكتابه الشافى لكل جهالة يدعو الى الاحسان والاعمال
ويبصّر العميان اذ يهدى الى سبل الحياة بأبلغ الاقوال
يا عائب الدين الحنيف بجهله وبأنه كسلاسل الاغلال

---

(١) مقصوده من هذا التذكير أنه قد كان من الواجب عليك أن تشكر الله على نعمه التى متعك بها بعد أن كنت على تلك الحالة طريدا شريدا ، وتبذل جهدك فى الدعوة اليه والى دينه ، ولكن عكست ذلك فبدلت نعمة الله كفرا . والتذكير بهذا أمر مشروع كما فى الآيات والأحاديث . وما أحسن ما قيل فى مثله :

فان تكن الدنيا أنالتك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء عنك مساويا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

هات الأدلة يا جهول بنصها واذكر لنا دعواك بالأمثال
الدين قال الله قال رسوله لا قول مبتدع وفعل ضلال
ما أنت إلا ناقل ومقلد للملحدين شراهة فى المال
قد بعت دينك تبتغى الدنيا به وستبتلى بالفقر والاذلال
ومن الغباوة والضلالة زعمه أن الألى فضحوه فى الاغلال
حسدوه ما ادرى لأى فضيلة ألأنه أربى على الضلال [١]
وأتى بما أعيي الأوائل قبله من كل سخف مضحك وخبال

الى أن قال :

فاربأ بنفسك أن تحارب قادرا يرميك فى النيران بالأغلال
وارجع الى الاسلام والعرب الألى نصروه بالأرواح والأموال
ولم الكسالى ان أردت ملامة فالذنب ذنبهم بغير جدال
شهدت له الافرنج عن علم به من بعد بحث دائم وسؤال
دين يحث على الفضيلة والتقى وعلى العلوم ونيل كل كمال
يرميه بالبهتان أخرق أحمق أعمى جهول خائب الآمال
حقا لقد هُزلت وقام يسومها نذل غبى غافل متغال
أرضيتمُ يا مسلمون بسبكم وبسبّ دينكم القويم الغالى
أين الشهامة والشجاعة أين غيـ ـرتكم على الاسلام فى ذى الحال

وقد ردّ عليه كثير من العلماء نظما ونثرا [٢] وكلامهم فى ذلك كثير مشهور

---

(١) لما انكشف أمره وقام العلماء ضده ادعى أنهم حسدوه كما قال أسلافه من المنافقين ﴿ بل تحسدوننا ﴾ ولم لم يحسدوك على كتبك السابقة وهى أكبر منه ، بل مدحوك عليها ، فهؤلاء الذين تدعى أنهم حسدوك هم الذين قاموا معك فى الدفاع عنك ومساعدتك فى كل شىء قبل هذا الكتاب

(٢) للشيخ الفاضل محمد حمزة عبد الرزاق مجلد لطيف فى الرد عليه

الامر الثالث : أن من تأمل كتابه حقيقة التأمل علم بلا أدنى ريب أنه ليس فيه دعاية صحيحة نافعة لا قليلة ولا كثيرة ، لا حثّ على عمل ولا غيره ، مع ما فيه من الكفر ومحاربة الأديان ، غاية ما يروج على بعض الناس فى بعض كلامه هو ذلك الاسهاب والاطناب فى مدح العلم مطلقا بدون تعيين مسماه والثناء عليه وذم الجهل مطلقا والنهى عنه . ومعلوم أن أدنى عامى فضلا عن غيره لا يمدح الجهل ويذم العلم بهذا الاطلاق ولا يقرّ بان ما هو عليه جهل وأنه يكره العلم . وليس الشأن فى مدح العلم وذم الجهل هنا ، فان هذه قضايا مفروغ منها عند الخاص والعام ، فكل الناس اليوم وقبل اليوم يمدحون العلم ويذمون الجهل ، ولكن الشأن فى بيان العلم الممدوح وما يراد به والجهل المذموم وما يراد به ، فان العلوم وموضوعاتها أكثر من أن تحصر ، وكذلك الجهل . وكل ذى عقل يتدبر كلامه يعلم أنه يريد بالعلم الذى يدعو اليه أشنع ضروب الجهل ، ويريد بالجهل الذى يحذر منه أعلى العلوم وأرفعها على الاطلاق وهو علم أصول الدين كما يأتى تفصيل ذلك . وليس بعجيب أن يعمد إنسان الى أوراق فارغة مهما بلغت فى الضخامة والكثرة فيحشوها من مدح العلم والصحة والعافية والاستقلال والمجد والسيادة والسعادة وحب الجمال ، ويذم فيها الجهالة والمرض والجوع والضعف والخرافات والاباطيل والجنون ، فان هذه كلها قضايا كلية قد عرف الناس كلهم ما يمدح منها وما يذم ، فلو أنه أضاف الى ذلك بيان أن الشمس ساطعة مشرقة وأن الليل أسود حالك وأن النار حارة يابسة والماء بارد رطب وأن السماء فوق الأرض وأطال فى ذلك لكان من جنس ما قرره فى تلك القضايا سواء بسواء ، فان معرفة الناس بضرر الجوع والمرض وحسن الصحة والعافية ونحو ذلك من جنس معرفتهم بضياء النهار وظلمة الليل ، انما الشىء المطلوب الذى يجب معرفته وإيضاحه هو بيان الطرق العلمية الصحيحة النيرة التى يتوصل بها الى المطالب الصحيحة المقصودة والاهداف الغائية ، وبيان العوارض والموانع التى تعترض فيها فتفسدها أو

تعمّيها ، بمقدمات صادقة و براهين معقولة ، ثم عرض ذلك على العقول لتعرفها وتحكم فيها . أما حشو الكتب بالتهكم والاستهزاء والسخرية والسباب والاتهام والترهات والرعونات التى لا تحصى فليس ذلك من التحقيق فى شيء ، بل هو دليل واضح على ضعف عقلية من سلك هذه الطريق ، ولولا الضجة التى قامت حول هذا الكتاب لكان كاحدى تلك الآراء الأخرى المنبوذة المجهولة ولم يلتفت اليه أحد لظهور هجنته وقباحته ، ولكن صارت شناعته واشاعته وشذوذه ومخالفته سببا فى انتشاره والاطلاع عليه على حد قول القائل « خالف لتذكر » . والناس فى أمره أصناف منهم من يعلم أنه دعاية الحادية لا ريب فيها ، ولكن لا يهمه ذلك(١). وصنف كذلك يراه دعاية ضد الدين فى الحث على رفضه ، ولكن يؤسفهم ذلك أشد الاسف . وصنف آخر وهو الأهمّ وهؤلاء منهم من اذا كان راضيا على الانسان موافقا له فى شيء ما من أمور الدنيا لم يعبأ بما يصدر عن هذا الانسان مما يمسّ بالدين ولم يبحث عن ذلك سواء فهمه أو لم يفهمه ، بل ربما كاف نفسه العماية والتغافل عن هذه الأمور الدينية مرتئيا أن ذلك أسلم له . وفريق من هؤلاء ينشأون فى بيئة وبيئة من أمراض الشكوك والشبهات والشهوات ، فلكثرة احتكاكهم بأهل هذه الأمراض المتنوعة المختلفة وتأثرهم بهذه العالم ضعف احساسهم وشعورهم الدينى فأصيبوا بضعف البصيرة والبلادة المنكرة فنشأ عن ذلك ذهاب عظمة الدين من قلوبهم واحترامه وإجلاله ، والبعد كل البعد عن كل لفظ يمس أدنى ناحية من شرفه ، بل صار الدين عند هؤلاء ليس له قيمة كبيرة بالنسبة الى بعض الامور الدنيوية سواء كانت كبيرة أو صغيرة ، بل متى وجدوا كلاما يقدح فيه التمسوا لقائله تلك المعاذير الواهية وارتكبوا فى تأويل كلامه ما هو أشدّ المحال . ومن العجب أن بعض هؤلاء لو وجد أحد منهم رجلا - ولو كان عفيفا - فى بيته أو مع أهله فى حالة منكرة جدا فادعى هذا الرجل انه ما دخل البيت الا ليصلح أمور البيت أو من فى البيت لكذبه ولم يقبل منه أى

---

(١) لأنه لا يهمه من أمر الدين شيء

عذر أو تأويل ، ولم يلتفت إلى ذلك بل يجزم بكذبه بل يرى ان تصديقه عين الغباوة والعار الشنيع والجنون لأن ادعاءه يناقض ظاهر الحال ، ومع ذلك تجده يرى رجلا يهجم على حرمة الدين ويكتب النصوص الواضحة التى لو كتبها أكفر يهودى ثم اعتذر عنها لضحك الناس من عذره ، فينتهك حرمات دين الله ثم يصدّقه فى خداعه أو يشك فى صدقه . لماذا فعل هذا هنا وتركه هناك ، فعله من أجل أن حرمة الدين ليست بأمر كبير عنده تساوى متاع بيته أو حرمة بيته أو جاهه أو شرفه ، فغيرته على دينه قد انطفأت فى تلك البيئة الفاسدة أو غيرها حتى ضعف شعوره وإحساسه بما يجرح دينه ويقدح فيه (١). أو فريق من هؤلاء ياتى باعذار متناقضة لا يعمل بمقتضاها ، فيقول مثلا ان التكفير والتضليل أمر ليس بالسهل ولا بالأمر الهين ، فلا يمكن الوصول اليه الا بكيت وكيت . ويا ليت هؤلاء صدقوا فى هذا الادعاء وتركوا التكفير تدينا محضا ولم يتناقضوا فيه ، فنحن نقول لهم الأمر أعظم والله مما ذكرتم ، ولكن لو أنكم عرفتم عظمة الدين وعظمة احترامه وجلالته وجلالة منزله ومنزلته وأنه شرع الله ونظامه الذى قامت عليه السموات والارض وخلق لاجله الوجود وأرسل من أجله الرسل وأنزل من أجله الكتب ، ووازنتم بين عظمته فى نفسه وعظمته عند الله وبين تكفيركم لمن قدح فيه وسبه لعلمتم حينئذ حكم التكفير ، ولكنكم حكمتهم بعظمة التكفير من غير أن تعرفوا حدود موضوعات ما حكمتم فيه ، وبمقدار ما خف أمره فى قلوبكم ثقل عليكم تكفير من تعرض له ، ولو علمتم أن قوما من الذين غزوا الروم مع النبى ﷺ كفروا بسبب كلمات قالوها على وجه المزح واللعب كما قال تعالى ﴿ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم﴾ الآية لعرفتم مقدار فكرتكم هذه . ثم اننا قد رأيناكم أعظم الناس ثورة وهياجا حينما ينال أحداً منكم شىء فى أعراضكم أو

---

(١) وليست الخيانة فى الدين باقل من الخيانة فى المحارم أو الوطن ، بل هى أشنع منها ، فما باله تساهل هنا واشتد هناك ، أليس ذلك من ضعف حرمة الدين فى قلبه

سياستكم أو اموالكم أو محارمكم فتشتمون وتلعنون بل وتكفرون وتفعلون من المجازفات فى الألفاظ والرسائل والاحكام مالا يسوغ فى العقل والدين ، أما حق الله في دينه فانه دون ذلك لديكم . ثم ان عدم التكفير فى العظمة والخطورة والحرمة من جنس التكفير سواء فى الاثم ، فان من لم يكفر الكافر فهو كافر بالنص والاجماع ، وقد قال العلامة المحقق عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن (١) « اعلم أن من تصوّر حقيقة أى شيء على ما هو عليه فى الخارج وعرف ما هيته بأوصافها الخاصة عرف ضرورة ما يناقضه ويضاده ، وانما يقع الخفاء بلبس احدى الحقيقتين أو بجهل كلا الماهيتين ، ومع انتفاء ذلك وحصول التصور التام لها لا يخفى ولا يلتبس أحدهما بالآخر ، وكم هلك بسبب قصور العلم وعدم معرفة الحدود والحقائق من أمة » انتهى . ولا شك أن من لم تحل عظمة الدين واحترامه قلبه ولم يتصوره تصوراً صحيحا فانه لا يعرف مضاده . ويجب أن يعلم أن القلوب تمرض كما تمرض الأبدان سواء بسواء ، فنسبة أمراض الأبدان واختلافها بالخفة والشدة كنسبة أمراض القلوب بالخفة والشدة ، فالالحاد للقلب كالجذام للبدن ، وهكذا الامراض فكما أنها تضر بالبدن وتعدى وأكثر ما يكون تأثيرها فى الاجساد الرديئة الضعيفة المزاج لعدم قوة الحياة المادية المقاومة لها فكذلك أمراض الالحاد والكفر أكثر ما يكون تأثيرها فى القلوب التى ضعفت حياتها الدينية الصحيحة القوية التى تضاد هذه الأمراض وتدفعها دفعا عنيفا . ومعلوم أنه بقدر ما يكون فى القلب من حب الدين والشرع يكون فيه من الحياة والصحة والقوة الدافعة لما يضادها ، وبمقدار ما يكون من ضعفها فيه يكون مقدار تأثير تلك الأمراض فيه . واذا عرفت هذه القاعدة هان عليك معرفة سرعة ادبار الدين وهان عليك معرفة سرعة سريان الالحاد والفلسفة فى الأمم التى ليس معها دين صحيح فان سريان أمراض الوباء الخبيث فى الاجسام القابلة له أعظم من انتشار الصحة فيها ، وهذا ظاهر لمن تأمله

---

(١) فى كتابه (الرد على ابن جرجيس) ص٧

الكلام على المبحث الثانى

قال الملحد :

« لقد كفروا بالانسان — الايمان به أول

العلم للرحمن جل جلاله — وسواه فى غمراته يتقمقم
ما للتراب وللعلوم وإنما — يسعى ليعلم أنه لا يعلم
(الزمخشرى)

نهاية إقدام العقول عُقالُ — وأكثر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
(الرازى المفسر)

فيك يا أغلوطة الفكر — حار أمرى وانقضى عُمُرى
سافرت فيك العقول فما — ربحت الا أذى السفر
فلحى الله الألى زعموا — أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذى ذكروا — خارج عن طاقة البشر
(ابن ابى الحديد المعتزلى)

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها — وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر — على ذقن أو قارعاً سنّ نادم
(الآمدى المتفلسف »

بعثت إحدى الشركات الكبرى بخبرائها الفنيين الى مكان ّما فى دولة ّما للقيام بالبحث عن النفط ، وبعد القيام بالاختبارات اللازمة الأولية نفضوا أيديهم قائلين انه لا يوجد نفط فى ذلك المكان ، وان وجد فمقادير ضئيلة لا توازى التكاليف والنفقات ، فتخلت الشركة عن هذه الثروة المرتجاه . ولكن شركة أخرى أرسلت خبراءها الى المكان نفسه للغرض نفسه فى الدولة نفسها فجاءت النتيجة مقررة وجود ما ينشدون ، فأسرعت تلك الشركة الى شراء تلك

الكنوز المخبوءة المجهولة المقادير من أهل تلك البلاد ، ووضعت لها ولهم شروطا اتفقوا عليها ، فبدأت اعمالها وأخرجت الكنوز ، فأفادت هى وأفادت البلاد وازدادت بذلك الثروة العالمية العامة ، والتفت العالم لذلك المكان وحسبوا له الحساب بعد ان كان فى حساب النسيان والاهمال

هذه حادثة سقناها لنقول : إن الانسانية فى نظرها الى نفسها والى مواهبها الكامنة وكنوزها الذاتية المخبوءة تشبه خبراء الشركتين فى اختلاف رأيهم فى وجود النفط وفى اختلاف النتائج التى تلزم كلا من الرأيين والنظرين ، ففريق من الانسانية بل أمم وشعوب ينظرون الى أنفسهم نظر خبراء الشركة الاولى اليائسين من الحصول على النفط فى ذلك الموضع ، أى ينظرون الى أنفسهم نظرات اليأس والقنوط من أن يكون فيها مواهب نادرة ، واستعدادات طيبة يكمن وراءها النبوغ والعبقرية والكنوز الذاتية ، بل يرون أنهم خلقوا ضعفاء مجدبين وسيبقون كذلك ضعفاء مجدبين ما بقوا ، ويرون أنهم خلقوا من الضعف للضعف فلن يعدوا طورهم ولن يقدموا نفطا ولا غيره ، فلا يحاولون القيام بعمل مما لاستخراج ما لم يؤمنوا بوجوده ، فيظلون كما يظل ذلك المكان مئات الألوف من السنين لا ياتون بشىء ، ولا يلفتون نظر أحد ولا يفيدون الانسانية ، ولا يضيفون الى ثرواتها المختلفة قليلا ولا كثيرا .

أما الافراد الآخرون وشعوب أخرى فينظرون الى نفسهم نظر خبراء الشركة الاخيرة المؤمنين بوجود النفط وبوجوب استنباطه ، فيرون وهم ينظرون إلى أنفسهم أنهم حريون بالاستثمار والاستغلال ، وأن مواهبهم الطبيعية حرية بان تخرج وتصدر النبوغ والعبقرية ، فينشطون الى العمل ، ويأخذون بكل الوسائل فيصبحون ما شاءوا مجدا وضخامة شأن ، ويصيرون أعظم مصدر للحضارة البشرية وأكبر مولد للقوى العلمية » انتهى

والجواب أن يقال : أما الأبيات التى ساقها أول هذا المبحث فيأتى الاعتراض عليه عند اعتراضه عليها ، وأما هذه الجملة التمثيلية التى ذكرها

مصدراً بها هذا المبحث فهى جملة لا تنطبق على ما يقصده وما يريده ، فلا التمثيل مطابق لما قصده ، ولا التفريع عليه مستقيم على ما أراده ، كما يظهر ذلك من وجوه :

أحدها أنه مثل وجود المواهب فى جنس الانسان بوجود النفط فى جنس الارض ، ثم حث على وجوب الجزم والاعتقاد على وجودها فى جميع جنس الانسان ، ومعلوم أن هذا من أفسد التمثيل ، فان كثيراً من الأرض لا يوجد فيه نفط ، وأكثر المواضع الموجود فيها قليل لا يوازى النفقات ، ولو أن رجلا حث الناس على الجزم بوجود النفط فى جميع بقاع الارض ، وأفهمهم أن يعتقدوا أن كل موضع فيه نفط بلا تردد وأن عليهم أن يستخرجوه لعدّ من أضل الناس وأسفههم رأيا ، ولو أن له عقلا لعلم أن هذا المثل منعكس عليه ، فان النفط لا يخرجه الا القادر عليه العالم به من موضع منفصل عنه لا من نفسه ، ولا تخرجه الارض بنفسها وذاتها بل يخرجه من هو منفصل عنها مستقل بنفسه ، ولا يخرجه أيضا العاجز عن معرفته بل يطاب العالم به ان يعلمه وأن يعينه على استخراجه كما لا يطاب من الارض أن تستخرجه بنفسها ولا يعتمد على نفسه فى استخراجه بدون تعلم ممن هو عالم به

الوجه الثانى أن تشبيه المواهب والاستعدادات بمعادن الارض كلها أولى من تشبيهها بالنفط فقط ، لتشمل القلة والكثرة والطيب والخبيث والجيد والردىء والنفيس والوضيع ، فإن هذا أقرب الى الواقع ، فان الذهب والفضة والفحم الحجرى والكبريت والنحاس وسائر المعادن من جنسه وكلها تختلف بالقلة والكثرة والطيب والخبث وسهولة الاستخراج وصعوبته فما وجه التخصص بالنفط مع وجود غيره ، وهل يقول ان المواهب كذلك فى كل الامم والشعوب أو فى أمة دون أمة (١)

---

(١) وهذا يحتاج الى تفصيل آخر

الوجه الثالث أن المسلمين لم ينكروا وجود المواهب والاستعدادات على ما يقتضيه العقل والشرع ، ولكن ينكرون ما يدعيه هو وأمثاله أن فيهم مواهب واستعدادا للكمال المطلق ، وأن مواهبهم متفقه حتما كما فى التمثيل

الرابع أنه تناقض فى هذا التمثيل نفسه فانه مدح الأفراد والأمم التى تجزم بوجود المواهب والاستعداد وتعتمد عليها وتجزم بوجود النفط ، وذكر فى هذا المثل أن الخبراء الأولين لم يجزموا بان فى هذا الموضع نفطا ، وان وجد فمقادير ضئيلة ، ومعلوم أن هؤلاء الخبراء من الأمم الراقية المؤمنة بوجود المواهب والاستعدادات فى الانسان ، ولكنهم علموا أن المجازفة فى هذا الايمان خطأ ، وأنه لا يجوز الاقدام على الجزم حتى تظهر علامات صحيحة توجبه فى النوع المعين لا فى الجنس العام ، كما لا يجب الجزم بوجود الذهب والفضة وغيرها فى كل مكان مالم تدل على ذلك دلالات صادقة بالكم والكيف

الخامس أنه نقض هذه الدعوى كلها برمتها أيضا فى هذا المبحث نفسه ، فانه ادعى فى ما يأتى أن الانسان بطبعه شرير خبيث ظالم لو ترك وطبعه بدون تعلم لنشأ على الظلم والخبث والعدوان المطلق ، فكيف يدّعى هنا صريحا أنه بطبعه مستعد للمواهب والاستعدادات الطيبة التى هى العلم والعبقرية ، وهناك يدعى أنه بطبعه وسجيته ولد على الخبث والظلم والشر والعدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط

السادس أن المواهب والاستعدادات فى الانسان كثيرة فروعها ، فبعض من الناس مستعد لعلوم شتى وبعضهم لمعرفة شيء دون شيء ، لهذا تفرقوا فى العلوم والمعارف الدينية والدنيوية على كثرة فنونهما . ولو أن انسانا مثل بوجود هذا النفط بالفطرة واستعدادها للدين ، وأن فى الانسان قدرة واستعدادا تاما لمعرفة الدين والقيام به ، وأن وجود الدين الذى هو النور الساطع القوى بين الناس كوجود هذا النفط الذى يصدر منه نور وقوة ، وأن غفلتهم وجهلهم به كجهلهم بوجوده فى هذه الأرض ، فبعض من الناس ينظرون

الى أنفسهم نظرات اليأس والقنوط فى معرفته والأخذ به على وجهه فيظنون أنه ليس ثم دين صحيح يكمن فيه النبوغ والعبقرية والكنوز النفيسة التى لا تنفد ، بل يرون كما يرى هذا الرجل وغيره من الملاحدة أنهم خلقوا مجدبين من هذه الكنوز السماوية ، مجدبين من هذه الناحية الدينية ، فلا دين صحيح يوجد فى الارض ولا نفوس قابلة للاخذ به واعتماده ، ولا شك أن هؤلاء سيبقون كذلك مجدبين ، وقد بقوا كما ظنوا فقراء مجدبين منه فلن يعدوا ظنهم ، فظنهم هو الذى أرداهم فأصبحوا خاسرين ، فانهم لم يحاولوا عملا ما لاستخراج ما لم يؤمنوا بوجوده فلا يأتون بشىء فى هذا العمل ولا يرشدون غيرهم للتوجيه اليه والحرص على اخراجه ، بل يصدون عنه ويزرعون الياس والقنوط فى نفوس غيرهم منه ، فيقفون فى وجه الانسانية عن الوصول الى هــذا النور والروح الكفيلين بالنجاح والنجاة . وهؤلاء بخلاف البعض الآخر - كالصدر الأول - فانهم نظروا الى هذه الكنوز السماوية التى هى مصدر النور والروح فحرصوا على استعمالها والعمل بها ، فكانوا كما شاءوا عزا وارتفاعا وسيادة . لو أن أحدا مثل بهذا لم يكن قوله ببعيد من الصواب ، ولم يكن عند هذا المعارض ما يبطله

فتبين لك من هذه الوجوه المسفرة عن هذه الفروق الواضحه أن ما ذكره فى هذه الجملة المظلمة باطل لا يصح فى النظر والعقل أن يبنى عليه فى هــذه المسألة ، فانه يريد أن يبنى على هذا التمثيل أن جنس الانسان مستعد للكمال كما صرح بذلك ، وأن هذا الاستعداد كامن فى طبيعته كمون هذا النفط فى هذه الارض ، وأن الناس فى معرفة هذا الاستعداد كهؤلاء الخبراء فى الاختلاف فى الرأى ، وأن الذين جزموا بوجود النفط فى هذه الأرض أصابوا فيجب أن يصيب من جزم بأن فى جنس الانسان استعداداً للكمال . وقد ظهر لك بطلان هذا التمثيل الأهوج ، وببطلانه يظهر بطلان القياس الذى ادعاه عليه ، فان غاية ما فى ذلك أن هؤلاء الخبراء الأولين الذين نفضوا أيديهم غلطوا فى

معرفة مقداره فى الكفاءة فظنوا أنه كان قليلا لا يوازى تكاليف النفقات ، والآخرون أصاب ظنهم فيه ، وليس هذا خاصا بالنفط دون غيره من سائر المعادن وغيرها ، فان هذه الأشياء ليس كل من خاطر فيها يصيب نجاحا ، ولو كان ذلك كذلك لخاطر الخبراء الأولون وغيرهم فى كل معدن ، وهذا باطل لا يقول به احد . ثم ان هذا النفط الذى يشير اليه قد حفظه الله تعالى للوقت الذى يناسب بعثه فيه لأقرب الناس اليوم تمسكا بالأخلاق الدينية فى أحرج وقت وأشد حاجة اليه (١) لما علم الله سبحانه أن بهم قصورا فى الاعمال المادية وكان معهم بعض الأعمال الدينية الصحيحة فأخرج لهم هذا تعويضا لما فاتهم من ذلك القصور ، وليكون اعانة لهم على اقامة دينهم حيث كانوا من الناحية الدينية مستمسكين بأصولها ، فانه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا . وقد قلنا فيما سبق إن الله سبحانه سخر ما فى السموات وما فى الارض لعباده ليعملوا بطاعته التى هى الأعمال الصالحة ، فمن عمل بذلك استثمر منافع هذا الكون بأعماله الدينية وما يتفرع عنها من الأعمال الدنيوية ، ومن رفض الأعمال الصالحة وقطع ما أمر الله به أن يوصل من الطرق الشرعية ، فأتى الامر معكوسا من غير بابه عكس قصده ، حرم هذه المنافع إما بتاتا وإما نفعا صحيحا مستمرا ، وهذا ظاهر ، فيكون ما ادعاه حجة عليه

أما الكمال الذى يدعيه ويريده فأن نقول ان للانسان الذى عمل صالحا النصيب الوافر منه على حسب عمله ، وهو الكمال الممكن فى حق الانسان ، لا الكمال المطلق ، فان الله سبحانه وتعالى هو المختص بالكمال المطلق الذى لا غاية فوقه ، أما عباده فان نقصهم عن الكمال نقص ذاتى طبيعى ملازم لهم مشاهد محسوس فان كل واحد منهم مفتقر فى كل لحظة الى شىء خارج عن ذاته (٢)

---

(١) يتبين هذا متى تصور الانسان ان لو وجد قبل هذا الوقت ، أو لم يوجد فى هذا الوقت

(٢) كالنفس فانه افتقار الى الهواء

فهو مفتقر الى غيره ، والقول فى غيره من المخلوقات كالقول فيه لان كل فرد فيها مفتقر الى غيره ، وهكذا جميع أفراد المخلوقات فانها مفتقرة افتقاراً ذاتيا محسوسا ، ولا بد أن ينتهى هـذا الافتقـار الى امور غيبية فوق قدرة البشر لعجز الجملة عن تكميل بعضها ببعض العجز المشاهد المحسوس ، وجملة العالم هى الهيئة الاجتماعية ، فتكون هذه الجملة مفتقرة الى الأفراد لأنها مركبة منها فهى مفتقرة الى مفتقر ، لأن الأفراد ـ كما ذكرنا ـ مفتقرة افتقارا مشاهدا محسوسا ، فكان الافتقار من الكل ثابتا بالضرورة الى ما هو خارج عن الجملة المجموعة من الافراد ، ويجب ان يكون ذلك الغير غنيا لذاته كاملا لذاته من كل الوجوه مخالفا للجملة من كل وجه ، اذ لو لم يكن كذلك فالقول فيه كالقول فيها فيلزم التسلسل الى غير نهاية وهو باطل ببداهة العقل والاتفاق ، واذا كان مخالفا لها من كل الوجوه لزم أن يخالفها فى الكمال ، ولزم أن يخالفها فى التعليل ، فلا يعلل وجوده بشىء اذ التعليل فرع عن الافتقار وفرع عن وجود النقص ومعرفته ، فلو علل لكان مثلها ، فلما خالفها من كل وجه لزم أن يخالفها فى التعليل لانه من جملة الوجوه التى نشأت من معرفة النقص ، فالوضع الذاتى للجملة على هذا الوجه برهان على تعليلها ، وتعليلها برهان على أن لا يعلل هو ، أى برهان على بطلان تعليل وجوده والا لزم الدور والتسلسل وهو باطل ، ولو لم يبطل لزم فساد العقل والسفسطة لان العقل له حد ينتهى اليه من الضرورة والبداهـة ، والخروج وراء هذا يوقع فى السفسطة فلا يعتد به باتفاق ، فالله سبحانه هو المختص بصفات الكمال المطلق فى جميع صفاته وأفعـــاله ، وأما خلقه فالنقص عن الكمال أمر لازم لهم ، فانهم مخلوقون مربوبون ، والمخلوق المربوب لا بد أن يكون ناقصا عمن خلقه وأبدعه ، والله سبحانه وتعالى قسم عباده الى صالح وطالح ، فالطالح قد فسد طبعه أى فطرته فسادا نهائيا ، فكان غير قابل للصلاحية أصلا كما قال تعالى ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم

عذاب عظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ فالكافر والمنافق الذى كتب عليه الشقاء الأبدى قد فسد استعداده للهداية وموجباتها من السعادة والنعيم لأنه باختياره افسد فطرته بترك ما جاءه من النور السماوى الذى يصلحها ويزكيها ويقوّيها باعطائها الحياة الصحيحة ، فهو الذى جرّ على نفسه البلاء باختياره فعوقب بالختم والطبع والأغلال والأقفال كما قال تعالى ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ فالكافر والمنافق خبيث باطنا وظاهرا ، ومعلوم أن الخبيث ضد الطيب فلا يمكن أن يلائمه الا ما يناسبه من كل شىء ، وأما الصالح فالله سبحانه قد جعل نفسه طيبة وأخلاقه طيبه وآراءه وأفكاره طيبة فهو طيب باطنا وظاهرا ، ففطرته التى هى المواهب والاستعدادات ثابته قوية على أصلها ، وقد استمد بها من الدين أى الايمان والعمل الصالح ما جعلها قوية صحيحة ، فكان على نور من ربه ، فهو كالارض الطيبة التى كلها خير وبركة

ومما ينبغى معرفته هنا أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الوجود كله من العدم فهو ناقص مظلم ، فافاض عليهم أثرا من آثار رحمته الكريمة التى وسعت كل شىء ، فكل موجود لا بد أن يصيبه نصيبه من هذا الأثر ، فجميع ما فى العالم من فرح وسرور ولذّة ونعمة وعلم وعدل وحكمة فهو من آثار رحمته ، وجميع ما يصيبه من الشر فهو من نفسه الناقصة بالأصل (١) فقد حصل لكل مخلوق من هذه المخلوقات قسطه من هذه الرحمة كما حصل له قسطه من النقص الذى هو الشر بعينه فالنقائص سلوب والفضائل كماليات أنعم الله بها على عباده ، فمنهم من يكون حظه من الرحمة فى دينه ونصيبه من النقص فى دنياه ، إما فى خصلة واحدة أو فى خصال كثيرة ، ومنهم من يكون نصيبه

---

(١) كما قال تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾

بالعكس ومنهم من يكون نصيبه من الرحمة فى ماله ومنهم من يكون نصيبه فى حاله أو فى صوته أو فى صورته أو فى حواسه أو فى كلامه ، ويكون النقص فى أخلاق أخرى ، ومنهم من يكون نصيبه موزعا فى أخلاقه ولكن لا بد أن يكون له نصيب فى شىء ّما ، واذا اشتد النقص فى خصلة فلا بد أن يكون هناك ما يقابلها غالبا من نصيب الرحمة . ومن لطفه سبحانه أنه لم يحرم نوعا واحدا من جميع مخلوقاته من هذا الاثر العظيم ، فكلها قد شملها هذا الفضل الالهى ، فمن ذلك أنك تجد كل مخلوق من هذه الحيوانات قد أعطى من هذا الاثر خلقين خلق يستحصل به لذّته وسعادته وخلق يتقى به الضرر من عدوه غالبا ، إما فى ذاته كالوحوش أو خارجا عنها كالانعام . ثم انه سبحانه جدد هذا الاثر العظيم الذى هو من مصادر كماله بأثر آخر أعظم وأخص لأنه سبحانه جعله كتعويض لهم عما نقص فى أيام أعمارهم ولذاتهم وكتكميل لما بقى من الأول مع من حافظ عليه بالتزام حقوقه - ليستفيدوا به أياما خيراً من أيامهم ولذات أعظم من لذاتهم التى انقرضت أو فاتت . وهذا الاثر أعظم وأخص من الاول ، اذ الأول أثر موقت فهو كوسيلة الى استحصال الثانى . وهذا الأثر العظيم هو ما أنزله من الكتب السماوية وأرشد اليه من الآثار النبوية التى هى النور والروح والهدى ، فمن استمد من هذه المصادر الصحيحة القوية الطيبة ايمانه وعمله الصالح بقى متمتعا محتفظا بالنور الاول الشامل ، مجدّداً له من النور الأخير الخاص ، مستمدا منه حياته ، متزودا منه الى ما بعد مماته بقدر ما معه من الايمان ، ومن أعرض عن هذا الدين بقى معه ما استحصل عليه من الأثر الاول الدنيوى يتمتع به كما تتمتع بعض الأنعام ، وربما عظم النقص الملازم له فطغى عليه وأعدمه فكان من الهالكين(١) فذهب ما معه من الأول ولم يبق معه من النور الخاص أى نور الدين شىء يستمتع به فى حياته

---

(١) فان الذنوب كلها نقائص تؤثر فى الكمالات وتضعفها بل تعدمها كثيرا

استمتاعا صحيحـــا ، وانقطع عنه الأول بعد مماته فبقى فى الظلمات السحيقة والنقص والعذاب السرمدى كما دل على هذا سورة التين وسورة العصر ، وفى الأثر «ان الله خلق خلقه فى ظلمة والقى عليهم من نوره ، فمن أصابه هذا النور اهتدى ومن أخطأه ضل» وقد سمى سبحانه كتابه نورا وروحا وهدى وبيانا ، فمن أخذ به واستمد إيمانه منه أخذ نورا وروحا ينتفع بهما فيمشى بنور لا يطفأ ويحيى بروح لا تموت ، ومن أعرض عنه فقد قطع عن نفسه النور الذى يبصر به والروح الصحيحة التى يحيا بها فبقى فى الظلمات الموحشة ليس بخارج منها فهو كميت لا روح فيه ، والميت الذى لا روح فيه يعبث به كل شىء حتى الكلاب وأشباهها فتستولى عليه ، لانه لا يمكنه أن يمتنع عنها لعدم وجود تلك الروح وسلامتها بل يبقى فى العذاب الأليم والظلمة الطبيعية

فاذا عرفت أنه لا حجة له فى هذه الجملة التمثيلية التى صدر بها هذا المبحث فقد سقط التفريع عليها لبطلان الاساس . ونحن نذكر هنا قولا عاما شاملا للانسان من حيث علمه وجهله وتقدمه وتأخره يتضمن ما موّه به فى هذا المبحث كله فنقول : قد بين الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز حقيقة وجود الانسان وقدره وحياته ومآله من خير وشر أعظم بيان وأوضحه وأجمله وأشمله وأوجزه فقال جل من قائل ﴿ والعصر ، ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ وقال جل وعلا ﴿ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ فبين سبحانه فى هذا القول الكريم حقيقه حال جنس الانسان وحياته الحقيقية وتطوره وتحوله فيها فقسمه الى نوعين بعد ان كان نوعا واحدا ، فنوع تحول وردّ الى أسفل سافلين ، لانه لم يستمد من النور والروح ما يمسكه عن السقوط الى أسفل سافلين التى هى حالته العدمية الاصلية ، فعثر لعدم النور وسقط لعدم الروح ، لان النور يريه الطريق والروح ترفعه وتدفعه ، ومن المعلوم أن الذى رد الى أسفل

سافلين لا خير فيه بالكلية فانه فى غاية الانحطاط والرذيلة ، ولهذا كان مصحوبا فى حياته كلها بالصفات المنحطة الناقصة ، ولو ارتفع أحيانا فمآله الى الانحطاط والنقص ، وكل ما لديه من المعارف الدنيوية حاصلها يرجع الى أنه عارف كيف يعيش المعيشة الحيوانية ، وهذا المقدار من المعرفة يشاركه فيه كثير من الحيوانات العجم على كثرة أنواعها ، فانها تعرف كيف تعيش بدهاء ومكر ومعرفة دقيقه قد يعجز عن بعضها كثير من بنى آدم . وكونه سبحانه استثنى من المردودين الى أسفل سافلين الذين آمنوا وعملوا الصالحات دليل على أن المردودين أصناف كثيرة فاستثنى القسم الناجى لانه نوع واحد وهو الموصوف بالايمان والعمل الصالح ، فان الاخلاق الدينية ترفع صاحبها فيتطور بها وتقويه وتزكى نفسه فيكون مرتفعا متماسكا فى مستوى الفطرة الذى هو أحسن التقويم الذى خلقه الله فيه ، أما اولئك الذين حرموا من الايمان والعمل الصالح فانهم لما بعدوا عن مهابط الوحى الذى هو النور والروح اللذان بهما جميع القوى وأناالهم الله ما تولوا من النقص والظلمة انحطوا الى اسفل سافلين . وكذلك سورة العصر فانها كهذه السورة فان من رفض الايمان والعمل الصالح فقد خسر ، فانه لم يقتبس من النور ما يستعيض به عما فات من أيامه المنقرضة أياما غيرها أحسن منها فصار من الخاسرين . واما المؤمن الذى آمن وعمل صالحا وتواصى بالحق والصبر فقد ربح أيامه وحصل على ثمرتها المقصودة فكان من الرابحين الفائزين

فظهر من هذا أن الانسان نوعان زكى طاهر القلب قوى النفس والارادة صحيح الذهن والفكر ، ونوع ساقط مرذول مظلم القلب مريضه مدفوع دائما الى ما يوافق هواه من الشهوات والشبهات ، فما وافق هواه وشهوته اتبعه واعتمده وما خالف هواه وشهوته وفكرته تركه ورفضه ، فهو فى الحقيقة عبد شهوته وفكرته وهواه ، فحركاته كلها دقيقها وجليلها تدور على مقتضى ما يلائم هواه وتفكيره التابع لشهوته وشبهته ، ومعلوم عند كل عاقل أن ارادة الأول الذى

لا يخشى الا الله ولا يهمه الا اقامة الحق وازالة الباطل والظلم أقوى من ارادة من لا يهمه الا قضاء شهوته وتنفيذ فكرته أو فكرة جنسه ، وقد تكون المصلحة لغيره من عدو أو غيره ، فان الاول دافعه القوة الايمانية فجاذبها ودافعها الايمان النقى القوى والرغبة والرهبة الالهية ، والثانى دافعه قوة الشهوة والشبهة ، فاذا عرضنا على العقل السليم أن انسانا له دافع ايمانى اعتقادى عامله حب الله تعالى وخوفه ورجاؤه والتعلق عليه ومقت أعدائه وملاحظة جنته وناره ، وانسان له دافع هوى وشهوة سواء أكان ذلك الدافع اعتقاد الكفاءة الذاتية فيه بانه قادر على بلوغ غرضه الدنيوى أو كان عامل ذلك حب المال أو الجاه أو المنكح أو الوطن ونحوه فاعتقاد الكفاءة فى العمل قد يكون موجودا فى المؤمن والكافر انما الفرق بينهما أن المؤمن يعتقد ان فى كفاءته تحقيق مقصوده اذا نصح مع الله وآمن به وتوكل عليه فكان اعتقاد كفاءته بواسطة القوة الجبارة المالكة للوجود ، وأما الكافر فهو يعتقد كفاءته فى ذاته التى يراها وينظر الى عجزها بالحس ولكنه يغالط الحقائق ، فاذا عرضنا هذين الانسانين وعرضنا عملهما على العقل الصحيح فلا شك أنه سيحكم بان دافع الانسان الاول الذى دافعه الدين والايمان أعظم وأقوى لان أهدافه أكبر وأعظم ووسائله أعظم وأشرف ، فأمة او شعب يكون عامله اعتقاد الانسان الأول بلا أدنى شبهة ولا تردد أن حركته وقوته وابداعه وانتاجه سيكون متفوقا على حركة وابداع وانتاج الأمة أو الشعب الذى يكون دافعه الأمر الثانى الذى يرجع الى الهوى وشهوة النفس أو الاجبار القسرى ، وأكثر عمال هذه الشعوب الملحدة انما يعملون قهرا لأن الدافع الحقيقى الصحيح موجود فى أهل المصالح الخاصة وهم الرؤساء والزعماء فهم الذين يدفعون أكثر الأفراد الى الأعمال دفعا قسريا لا أن فى الافراد دافعا من ذوات أنفسهم ، لأن العوامل الذاتية غير موجودة فيهم لفساد التربية والتعليم وكل عاقل يعلم أن القوة العامة التى توجد فى الفرد كما توجد فى الجميع من

خصائص المتدينين الذين لهم أصل عريق فى الديانات ـ وان لم يكن بعضهم الآن متدينا فان العوامل الدينية الأولية هى التى هيأت فيهم الاستعدادات والمواهب التى بها استحصلوا على قوة الانتاج والابداع فانها أى الاستعدادات قد كانت موجودة فيهم فى زمن التدين ، أما الأمم العريقة فى الوثنيه المحضة والالحاد المحض ، البعيدون عن الاديان السماوية فى الازمنة القديمة ، فانهم أبعد الناس عن الانتاج والابداع لبعدهم عن العلوم الدينية لانها أصل العلوم كلها كما أنها أصل تنور الأفهام والأخلاق ، وتلك الصناعات ونحوها من فروعها ، ولولا شيوع الوثنية كعبادة القبور وشيوع الالحاد كانكار أكثر الصفات من العلوّ وغيره فى كثير من أقطار الاسلام فى هذه الأزمنة الاخيرة لما ضعف الانتاج والابداع . فالعلوم الدينية هى الأساس الأول لجميع أمور الحضارة والمدنية فانها ملازمة لهم فى الزمن السابق الى اليوم وهو ظاهر لا خفاء به . وبهذا يظهر الفرق بين أفراد الانسان من حيث العلوم الدينية والدنيوية ومن حيث الاستعدادات والمواهب ، كما يظهر الجواب عن معنى الكفر بالانسان والايمان به ، وأن ما ادعاه على المسلمين بأنهم كفروا بالأنسان حيث وصفوه بالضعف والعجز دعوى لا صحة لها ، فهم لم يؤمنوا به الايمان الذى يريده هو ، وهو الايمان بانه يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء وأن فى استطاعته أن يصل الى غاية الكمال ، ولم يكفروا به على حسب مازعمه من أنهم اعتقدوا أنه فى غاية العجز والضعف فى كل شيء من جميع العلوم ، فان هذه الدعاوى كلها مجازفة لا أصل لها وهى غير معقولة ، وقد تناقض فى ذلك أيضا أعظم المناقضة كما يأتى مفصلا

فصل

قال : « ان الشعوب الراقية تمتاز بالايمان بالثراء الطبيعى ، ولهذا تحاول الظفر بكل شيء والوصول الى كل شيء والتغلب على كل شيء ، فتسير الى

الامام بالمدنيـة وتسير بالحيـاة خطوات واسعة وتدفع فى سبيلها كل عناصر الحضارة »

فيقال : أولا هذا يناقض قولك فيما تقدم قريبا فى الخبراء الأولين أنهم نفضوا أيديهم عن مكان النفط قائلين انه لا يوجد فيه نفط وان وجد فمقادير ضئيلة الخ ، ومعلوم أن هؤلاء الخبراء من أولئك الذين يؤمنون بالثراء الطبيعى فما لهم لم يؤمنوا بهذا الثراء الطبيعى استرسالا مع ايمانهم الذى تدعيه ، وأمثال هؤلاء كثيرون

ثانيا قولك انها تحاول الظفر بكل شىء والوصول الى كل شىء الخ ، يقال ان كانت كل هذه الشعوب تحاول الظفر بكل شىء والوصول الى كل شىء فهى لم تدرك ذلك ـ بل بعضها أدرك الشىء القليل من الذى يمكن ادراكه ، وبعضها تداركه البلاء وحل به الشقاء حيث حاول ما هو مستحيل ادراكه ، فليس علينا أن نقتدى بها فى كل ما تحاوله ، بل يجب أن ننظر الطرق الصحيحة لاستحصال ما يمكن استحصاله بالعلم والثبات والحساب الدقيق ، فانه من المعلوم أن الدول التى دمرت نفسها انمـا انزلقت الى ذلك بسبب هذا الايمان نفسه فلم يحصل لها الا عكس ما آمنت به ، ولو آمنت بالله كهذا الايمان لبلغت كل ما تريده من الممكن لهـا

ثالثا ان ما ادعاه هنا كذب ظاهر ، فان الشعوب الراقية تغير وتبدل دائما مواقفها فى هذه السياسة ، ولو أنها تؤمن هذا الايمـان الذى يدعيه لفعلت ما تشاء ، وهى انما أحجمت عن كثير مما تريده مع اضطرارها اليه لانها تعلم أنها عاجزة عن تعدى هذه الحدود التى رسمتهـا لنفسها سواء أكان ذلك فى الوقت الحاضر أو الى غير أمد ، انما المقصود أنها لم تؤمن بأن فى امكانها الوصول الى كل شىء والحصول عليه والتغلب علـى كل شىء والظفر بكل شىء ، بل هى بوقوفها ومصانعتها لأعدائها معترفة بعجزها كرها بلا ريب . وكل الأمم الراقية لم تصل الى ما وصلت اليه من الرقى بهذا الايمان ، إنمـا وصلت بامور أخرى

أكثرها عكس هذا الايمان وهى التؤده والثبات والحيطة وإعطاء كل شيء حسابه ، ولو ان هذا الايمان ينفع من آمن به واعتمده لنفع كل الأمم التى تخاطر به من الأمم الأولين والآخرين ، بل فرعون لم يحارب موسى وقومه إلا لأنه يؤمن بهذا الايمان ، وأن فيه هو وقومه كفاءة ذاتية فى أنفسهم للقضاء على موسى ، ولهذا قال ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حركاتهم حاذرون ، وهذا أقصى ما يبلغه الايمان بالذات ، أما موسى فانه اعتقد أن به كفاءة فى القضاء على فرعون بايمانه بالله لا بنفسه ، فقاتل بهذا الايمان القوى العظيم الذى فلق له البحر لقوته ، فحصل على كل شيء مما يطلبه ، بخلاف عدوه فانه لما كان ايمانه ضد ايمان موسى كانت النتيجة ضد تلك النتيجة . وكذلك كفار قريش لم يقاتلوا المسلمين الا بهذا الايمان نفسه الذى يدعو اليه هذا الملحد ، والمسلمون قاتلوهم بالايمان بالله وبان فى أنفسهم كفاءة اذا اعتصموا بالله ، ونحن لا نقول انه يجب اليأس والقنوط حتى يكثر من هذه السفسطة والدجل الذى لا طائل تحته بل يجب العزم والحزم واعتقاد الكفاءة بالله تعالى ، فهذا الايمان هو الذى ينفع ونتيجته لابدان تكون نتيجة صحيحة ، أما الايمان بما ذكره فانه يوجب الطيش والجنون وفساد الذهن وسوء الرأى والقلق ، فلا بد من التبصر فى الامور كلها ، وان يحسب لكل شيء حسابه بجد واجتهاد وقوة وانتظام

وظاهر كلام هذا فى قوله « والظفر بكل شيء ، والوصول الى كل شيء ، والتغلب على كل شيء » أنه يجب الايمان بأن فى امكان هؤلاء أن يصلوا الى تدمير السموات والارض وقلب نظامهما ، ويكون أيضا الذى حاج ابراهيم فى ربه لم يأت مستحيلا لانه يؤمن كهذا الايمان ﴿ اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ﴾ فعلى هذا فهؤلاء يؤمنون بقدرة البشر على الاتيان بالشمس من المغرب الى المشرق عكس مجراها

الطبيعى ، ولا شك أن قاعدة هـذا الرجل تقتضى هـذا كما صرح بأمثاله مرارا فيما يأتى ، واذا عاكس هذا المعكوس وشمخ بأنفـه وقال هذا لا يـلزم من قولى عكسنا عليه أغلاله وقلنا له مهلا لا تعجل قد ألزمت الدجوى بدون ما ألزمناك به مع أنه لم يقل إلا دون ما قلته ، وهذا كلامك معـه فى نبذتك (الفصـل الحاسم) ص ٧٥ فقلت ما نصه : « الفضيحة الثانيـة زعم [١] أن البشر قادرون على كل شيء حتى على أن يقلبوه فرسا أو ما شاء من أنواع المخلوقات . وهاك عبارته بحروفها (على ان لنا ان نقول ان كل شيء مقدور للبشر بالدعاء فما لا يقدر عليه بالذات يستطيعه بالدعاء) الله اكـبر ، هل رأيتم أعجب من ذلك ، هل رأيتم أعجب من قوله ان البشر عـلى كل شيء قادرون ، نعوذ بوجـه الله . أليست هذه صفة الرب الخالق القاهر ، ألا تظنون الشيخ ممن يتألهون ، أهو يستطيع أن يقلب السماء أرضا والارض سماء ، أهو يدعى لنفسه أنه يقـدر أن يحيي ميتا أو يميت حيا ، أترونه يظن أنه قادر عـلى اخراج الانجلـيز من مصر وفرنسا من سوريا وانقاذ جميع البلاد الاسلامية من ورطة الاستعـمار ، لان البشر على كل شيء قادرون [٢] وهو من البشر ولا شك ، نعم من البشر على رغم أنف المخالفين . أبشروا أيها المسلمون ، أبشروا ايهـا المظلومون فمولانا الشيخ الدجوى على كل شيء قادر ، قادر أن ينجيـكم وأن ينصفـكم فاطمئنـوا الى ذلك ، نعوذ بالله ، ماسمعنا بأعجب من هذا ، وماسمعت القرون المظلمة أعجب منه [٣] فنحن فى القرن العشرين قرن العـلم والنور والتفكـير كما

---

(١) يعنى الدجوى

(٢) كل هذا تحامل فان الدجوى لم ينسب هـذا الى نفسه بل الى البشر بواسطة الدعاء

(٣) لـكن الآن سمعت أعظم وأعجب وأطم وأشنع منه ، وفى الحديث « من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يفعله » فليس كلامـه على الدجوى بقصد اظهـار الدين وقمع الباطل ، بل على وجه المماراة والقحة والمقاصد الاخرى

يقولون ، بل قرن القـــدرة على كل شيء فالبشر على كل شيء قادرون . أين اوربا وأين مخترعوها وأين قدرتها ، فنحن عندنا معشر الشرقيين من يقـدر على كل شيء من يقدر على تخريبكم وتخريب مخترعاتكم وآلاتكم الحربية بشيء بسيط ، بكلامه ، بان يدعو عليكم فقط » انتهى بحروفه . ولا أظن القارىء الكريم لهذا يريد أن نسهب فى التعليق على هذه الثرثرة والقحة الزائدة فان تعليقها فى عنقه كاف عن التعليق عليها ، لكن يحسن أن نذكر هنا جملة واحدة ينبغى أن يقابل بها هذه الجملة التى ذكرها عن الدجوى وصاح عليه بها وهى قوله فى أغلاله هذه ص ٤٥ « ومن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله - وهذا بلا ريب على غير ظاهره - فلا بد أن يكون بصره نافذاً وسمعه واعيا وعمله موفقا قويا ، ولا بد أن يكون له من القوى والأعمال ما لم يعهد الناس وما لم يعرف الناس ، ولا بد أن لا يكون هناك حدود تحده ولا قيود تقيده اذا شاء أن يعلم وأن يعمل وأن يرى ويسمع ، ولا بد أن يكون مستطيعا أن يصنع ما يشبه أن يكون خارجا عن الطاقة البشرية المعروفة وما يكاد يضاف الى قسم المعجزات ، ولا بد ان تبقى مواهبه العاقلة متجددة متوثبة لا يمنعها مانع ولا يهرب منها هارب ولا يقال شيء من الأشياء كائنا ما كان ان هذا فوقها أو أنه بعيد عن متناولها أو أنه ليس مما يدين لها » انتهى كلامه . فلنقابل هذا بكلام الدجوى الذى نقله عنه ، مع أن الدجوى انمـا ذكر ذلك بواسطة الدعاء . ومعلوم أن الله قادر على كل شيء ، وأما هذا فأنه أضاف هذه القـدرة الى الانسان(١) وسيأتى قوله أى شيء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب ، وينبغى

---

(١) ولعل موضع الانتقاد على الدجوى والتحامل عليه هو انه جعل ذلك بواسطة الدعاء ، فهذا هو ذنب الدجوى ، والا فلو جعل ذلك للانسان نفسه لما كان له ذنب بل كان من أعظم الفضائل ، لان هذا الملحد قرر أن الدعاء لافائدة فيه كما يأتى وأن ليس فوق قدرة الانسان شيء

أن تلاحظ أنه صرح بأن الدجوى يدعى أنه على كل شىء قدير إلزاما له على تلك الجملة ، مع ان الدجوى ذكر أن ذلك بالدعاء ، فقد ادعى عليه بأنه يقول ان الانسان على كل شىء قدير ، فهذا الذى ألزمه الدجوى يجب ان يعامل به لانه صرح بمقتضاه تصريحا ظاهرا كما سيأتى ، والعجب أنه جعل ماذكره الدجوى فضيحة ، فيكون ماذكره فضيحة هو الفضيحة القبيحة التى لاتستر

فصل

ومن أعظم اكاذيبه قوله فى استطراد هذا البحث : « وكل أصحاب النظريات العلمية والدعوات الاصلاحية التى سيطرت على مصير التاريخ وغيروا مسيره كانوا ممدودين بهذا الايمان الذى لا يتضعضع »

فيقال : هذا ليس بصحيح ، بل باطل ، بل مكابرة ظاهرة . ونحن نطالبه بفرد واحد معروف أو شعب واحد حصل على التقدم بهذا الايمان وحده ، بل لقائل أن يعكس عليه دعواه فيقول وكل أمة هوت واندكت عروشها واختفت فى عالم الوجود لم يكن سببها الا هذا الايمان ، فانها لما نشأت على هذه التربية وتغلغل فيها هذا الايمان الباطل ولم يتضعضع حاولت بقوتها الضعيفة أن تصدم القوة الكبرى فتلاشت فيها وذابت وذهبت عن آخرها كما هو الواقع . فما ذكره كلام ساقط لا يعتد به

فصل

ومن فظائعه وفضائحه فى هذا المبحث ما ادعاه على المسلمين زورا وفجورا فى قوله « ان رقاب كل هؤلاء تخضع وهامهم تنحنى أمام المشكلات الانسانية الكبرى كمشكلة الفقر ومشكلة المرض ومشكلة الجدب ومشكلة الجهل ومشكلة الاخلاق ومشكلة الاستقلال والسيادة الوطنية وكل مشكلة ، ويرون أنهم ليسوا أهلا لحل كل مشكلة من هذه المشاكل ، بل وانهم غير مخاطبين بحلها ،

بل وإن محاولة حلها وعلاجها من التطاول على الله والوثوب على مقام الألوهية المقدس » انتهى فلينظر العاقل المنصف الى هذا الفجور الذى ليس وراءه فجور كيف يدعى أن المسلمين يرون أن التعليم الذى هو حل مشكلة الجهل من التطاول على الله والوثوب على مقام الألوهية المقدس وأنهم يرون أنهم غير مخاطبين بذلك ، فهل اجترأ أكفر يهودى وأكبر عدو للاسلام والمسلمين من أصناف الكفرة أن يرمى المسلمين بهذه الوصمة الكبرى بدون حياء ولا خجل ، وصريح هذا أنهم يرون التعليم وبناء المدارس والتداوى والمطالبة بالاستقلال كل ذلك كفر عظيم وخروج من ملة الاسلام وقدح فى الربوبية . أيها المسلمون . أيها المسلمون تدبروا كلام هذا المنافق الدعى فيكم وأنصفونا وأنصفوا أنفسكم . واكبر من هذا أنه جعل العمل الذى هو ضد البطالة كفراً عظيما وخروجا من حظيرة الاسلام كما هو صريح كلامه . ومن عمق خبثه ونفاقه خلطه مشكلة الجدب مع مشكلة الجهل والبطالة ، وأدنى عاقل من العامة وغيرهم يفرق بين هذه المشاكل ، وانما قصد بهذا لبس الحق بالباطل ، فانزال الغيث وازالة الجدب من الأمور الكونية الغيبية التى لا يقدر عليها الا الله تعالى ، وقد شرع لنا سببا لنستحصل ذلك به فنندفع به الجدب وهو الصلاة والدعاء والصدقة والتوبة ونحو ذلك ، وقد فرق المسلمون بين هذه الامور فجعلوا للجدب المساجد وللجهل والبطالة والاخلاق ونحوها المدارس ، وقد علم المسلمون على اختلاف مذاهبهم أنهم مأمورون بالتعلم والعمل والدعاء من مكملات ذلك . وحاصل هذه الدعوى المنكرة ان المسلمين على غاية من الغباء والجهل أو هم كالانعام بل هم أضل ، لأن من لم يفرق بين هذه المسائل ويرى أن التعليم والعمل وطلب الاستقلال كفر فهو كذلك

ثم قال « وما عليهم إلا أن ينتظروا من الله أن يصنعها لهم كما يشاءون ويشتهون ، كما يجب عليهم فى هذه الحالة أن يطيلوا الدعاء والبكاء ، وأن يصدقوا الضراعة والمسكنة وأن يحملوا الانتظار »

قلت : غرضه من هذا الضجيج والتهويل تركيز بغض الدعاء والعبادة في قلوب الناس ، ليسهل عليهم رفض الدين ، فقد علم أن الدعاء هو روح الدين كما أقر بذلك فيما يأتى صريحا ، وإلا فكل عاقل يعلم أن هذا فجور ظاهر مبنى على الزور الذى قبله ، فمن هو الشعب المسلم الذى ينتظر من الله أن يعطيه ويصنع له ما يشاء ويشتهى بدون عمل أو معالجة لهذه المشاكل ، بل بمجرد الدعاء والبكاء ، إلا فى مسألة الجدب ، وليس الامر كما زعم أيضا بل يطلبون ذلك بعمل شرعى خاص والدعاء من جملته ، وجميع المسلمين يأمرون بالتعلم والعمل وبناء المدارس ويلتمسون التداوى ومنهم من يرى وجوبه ، بل جماهير المسلمين أو كلهم يرون أن الاعراض عن التعلم كليا كفر وخروج من الاسلام فكيف يدعى عليهم أنهم يرون فعله كفرا وشركا فى الربوبية ، وهكذا قوله بعد هذا « وهكذا تمر الايام والشهور والسنون بل والقرون وهم يؤملون وينتظرون ما لم ينالوا » فكل هذا كذب لا صحة له البته واشتغال الاكثر بالملاهى والشهوات والامور الالحادية ونحوها هو الذى صدهم عن العلم والعمل بل أفسد اخلاقهم حتى عسر عليها الاشتغال بالامور النافعة

وقوله « لأن الله لا يفعل لمن لا يفعل لنفسه ولا ينصر من لا ينصرها ، كما قال القرآن ان تنصروا الله ينصركم ، وفى الانجيل ان الله يعين عبدا يعين نفسه » . فيقال : كل هذا حجة عليك فان الله تعالى اذا كان لا يفعل لمن لا يفعل لنفسه فلم غضضت طرفك عن هذه الجماهير العاطلة عن الاعمال المنغمسة فى مواضع اللهو والخلاعة والرقص والغناء وسائر أنواع الملاهى فلم تتكلم فيهم بكلمة واحدة ، أما الاقلون الذين صدقوا الله وتوجهوا اليه فى الدعاء والصلاة فوجهت اليهم جميع اللوم وحملتهم كل مصيبة ، وهؤلاء هم الذين يفعلون لأنفسهم وقومهم ما ينفعهم ، فانه لا يعلم أن احدا صادق الاخلاص فى العبادة الا وهو جرىء على العمل ، بخلاف المنافقين وأهل الفسوق وأمثالهم ولان الله سبحانه ذكر أن الذى ينصر نفسه هو الذى يستحق النصر من عنده فقال

فى هذه الآية التى استدل بها هـذا المعارض وهى حجة عليه ﴿ ان تنصروا الله ينصركم ﴾ وقد فسر سبحانه نصرنا له فى آيـة أخرى مثل هـذه الآية بطاعته ودعائه والقيام بأوامره والصلاة والدعاء فقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور ﴾ فبين فى هذه الآيات الكريمات أن نصره الذى طلبه منا هو اقامة الصلاة الى آخره ، فالآية حجة صريحة عليه لانه يرى ما دعت اليه الآية لا فائدة فيه ، ولـكن هو أطمع من أشعب يأخذ حجج خصومه عليه ويحتج بها فيكذب على الله تعالى كما يكذب على عباده المؤمنين . ولا بد للنفاق أن يـكون هكذا فانه لا بد أن يكون متقلبا فى أموره وأقواله وأعماله فى الخداع والمكر والمراوغة ، والا لم يكن لولا هذا منافقا بل يكون له وصف آخر

فصل

قال « اما الآخرون المؤمنون بالانسانية وبأنفسهم فيهبّون لعلاج كل مشكلة ، وينهضون لحمل كل عبء ، فيصيبون مرة ويفشلون أخرى ، الى أن يصيبوا فى النهاية النجاح الحقيقى الأكبر » قلت : اذا كان هذا حال المؤمنين بالانسانية وبأنفسهم فحال المؤمنين بالله وحده أنهم يهبون لعلاج كل مشكلة بما شرع لها فيزنون الأعمال بميزان موضوعاتها ويحسبون لكل شىء حسابه ويعتمدون على الله وحده ويرون بذلك أن فيهم الكفاءة التامة بالله اذا صدقوا معه لانهم يعلمون ان الله يعين من استعان به وتوكل عليه ، فيعالجون المشاكل بوسائلها الدينية والمادية ، فلا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض شأن الملاحدة الذين يؤمنون بالوسائل المادية ويكفرون بما وراءها من الوسائل الدينية فينهضون لحمل كل ثقيل على مقتضى ما يحتاجه بالحزم والعزم والصبر والثبات حتى يستحصلوا على النجاح الحقيقى فلا يفشلون ابدا الا اذا

كان فيهم شيء من خصال الذين يؤمنون بأنفسهم بالمعنى الذى يريده هـذا الهالك ومن على شاكلته فقد يفشلون وهو الاكثر ، وقد يصيبون اصابة مدخولة ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وإنتم أذلة ﴾ فأخبر أن الله نصرهم حين اعتمدوا على الله وحده وآمنوا به وحده فلم يلتفتوا لأنفسهم ، فلما جاء يوم حنين وكانوا كثيرين فداخـل بعضهم شيء من النظر الى أنفسهم لم يغن عنهم ذلك شيئا بل كان ذلك سبباً فى الهزيمة كما قال تعالى ﴿ ولقـد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم أنفسكم فـلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ فنص تعـالى عـلى أن إعجـابهم بأنفسهم هو سبب الفشل والهزيمة مـع كثرتهم عما كانوا عليه من قبل ، وقد حصلوا ـ اذ ذاك ـ على النجاح لما لم يداخلهم الاعجـاب الذى منه الايمان بالنفس ، أما نجاح بعض من يؤمنون بأنفسهم فى بعض المواطن فهذا انما يكون على من كان مثلهم من المؤمنين بانفسهم أو فيه شيء من هذا الايمان ممن قدم آراءهم على أو امر الله السماوية وشرعـــه المطهر ، فهم الذين قدموا عدوهم عـلى أنفسهم لأنهم قدموا أفكارهم وعاداتهم وأمثالهم عـلى النصوص الدينية ، لهذا ولاهم الله ما تولوا واختاروه لأنفسهم وما ربك بظلام للعبيد

فصل

قال : « ان أولئك يرون كل شيء من السماء [1] ومن الآلهـــة المتعددة الأخرى ، أما هؤلاء فيعلمون أن عليهم أن يرجعوا الى أنفسهم وأن يعولوا عليها وأن يطالبوا منها كل شيء وأن فى استطاعتها ان تهبهم ما فقـــدوا وما احتاجوا اليه فيبدعون فى الاعمال ويسيرون فى الطريق ، اما أولئك فقصاراهم النحيب والدعاء المذل ثم الانتظار الطويل الممل ، ثم التسلى والاشتغال بذلك

---

(١) اى اهل التوحيد

كله عن العمل وعن اقتحام الصعاب »

قلت : هذا الرجل قسم الناس هنا الى قسمين قسم يعتمدون على أنفسهم فقط وقسم يعتمدون على غير أنفسهم ، فمن هؤلاء من يعتمد على الله وحده ، ومنهم من يعتمد على الآلهة المتعددة الأخرى من المخلوقات ، فجعل هؤلاء الآخرين قسما واحدا فسوى بين الموحدين والمشركين فى النتيجة كما سوى بين الله والاصنام فى عدم الافادة والنفع فى الدنيا ، ولهذا استطرد بان الدعاء ليس له من فائدة كما ياتى قريبا ، وقد ذم هذا القسم جميعا فلم يفرق بين من يعتمد على الله ومن يعتمد على الآلهة الأخرى ، ومدح القسم الذى يعتمد على نفسه ويرجع اليها وهم الملاحدة فان الناس فى الجملة قسمان إما معترف بالربوبية وإما منكر لها ، والأول نوعان إما موحد وإما مشرك فالأول هو الملحد الذى لا يعتمد الا على نفسه . ومن عظيم خبثه ومكابرته أنه ادعى على المسلمين زورا وفجورا أنهم يقتصرون على الدعاء والنحيب والانتظار فقط ، وكأنه أعمى عن هذه الدماء التى تراق فى هذا السبيل ، وهذه الاعمال الجليلة التى تبذل فى هذا الشأن ، وهذا القيام والقعود والثورات على الاستعمار التى لا تحصى . وانما قصده من هذا الحط من الدعاء وسبه وتركيز بغضه فى قلوب الناس لكى يرفضوه ويسلكوا سبيل الالحاد ، لأن من ترك الدعاء فهو ملحد ، فان الحد الفاصل بين الملحد والمتدين هو الدعاء ، لأن هذا اعتقد ربا قادرا كاملا فدعاه ، وذاك بعكسه فترك الدعاء لعدم وجود متعلقه فى اعتقاده

ثم قال « ان أبشع صورة لهذه الحالة النكراء هؤلاء الخطباء [1] الذين يقرعون مسامعنا كل يوم جمعة بهذه الضراعات الكاذبة والابتهالات الوقحة

---

(١) بل أبشع واشنع صورة صورتك الظاهرة والباطنة ، فلو مسخت معنويتك على هذه الحالة المرسومة فى هذه الاغلال لكان من المؤكد أن تكون أقبح صورة فى العالم كله.

الذليلة سائلين الله أن يسقط عليهم السماء أو يخسف بهم الارض أو يجعلها عليهم نارا وأن يدمرهم وأن يجعلهم هم وأموالهم ونساءهم وذرياتهم غنيمة باردة لهم ولامثالهم من المسلمين العاجزين عن الحياة . ولكن الله لا يصنع ذلك أبدا ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ، وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم حتى لا تمد ألسنتهم بالسوء والسباب وتفيض قلوبهم بالحقد على المتفوقين العاملين والحسد لهم » انتهى

قلت : بين هنا ما يفعله المسلمون من الأمور المنكرة عنده ، ومثل بذلك هذه الخطب الأسبوعية التى تقام على المنابر يوم الجمعة ، وجعل هذا المظهر الاسلامى الاسبوعى المقدس حالة بشعة نكراء ، وذلك لأنه علم أن ما يلقيه الخطباء من حمد الله والثناء عليه والوصية بتقواه أمر ينافى الالحاد الذى هو مقصوده والذى يدعو اليه ، وينافى ما قرره فى أغلاله الخبيثة ، فلهذا هجم على الخطب والخطباء هنا ، ولم يكتف بهذا التشنيع ولم يشف قلبه هذا المقدار حتى أعاد الحط عليهم فى المبحث الخامس وأفرغ جميع ما يحمله فى صدره من غل عليهم هناك ، وسترى لطمه ومناقشته هنالك . والعجب أنه مثل أمور المسلمين المنكرة عنده بهذه الخطب ، أما غيرها من الدعايات الالحادية والاستهتار بالفضائل والاخلاق والاشتغال بالملاهى والشهوات فضرب عنه صفحا ولم يحرجه ويضيق صدره إلا حمد الله والثناء عليه والدعاء على الأعداء ، ومن عمق خبثه وتلبيسه دعواه على هؤلاء الخطباء أنهم يسألون الله أن يسقط على أعدائهم السماء أو يخسف بهم الارض ، ومعلوم أن هذا الدعاء لا يكاد يوجد ، ولا هو فى الخطب المشهورة المدونة ، وانما قصد بهذا تشويه سمعة الخطب والخطباء فى هذا المظهر الدينى المقدس ، ولو قدر أن أحدا من بعض العامة خطب بهذا فأى شىء فيه ، وهل المسلمون اقتصروا عليه بدون عمل وفعل كبير ، أو هو محرم حتى يجعله حالة نكراء . ولو أن هؤلاء الخطباء خطبوا بحقائقه الازلية الابدية التى تتركها امة فتهوى وتأخذ بها امة فتنهض

لما أنكر عليهم بل لجعلهم أهدى الناس سبيلا ، مع أن أكثرها سخافات لا تليق الا بالقلوب المقفلات

فصل

ثم ان هذا الملحد أتى بطامة كبرى وداهية دهياء ، فذكر أن دعاء الله جل وعلا ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وانما هو مصرف خبيث أى عمل خبيث ، فقال وهذا لفظه بحروفه : « ومعلوم أن الدعاء أضعف وسيلة يلقى بها عدو عدوه ، بل انه ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تعويض وتصريف خبيثة ضارة » انتهت عبارته . فجعل عبادة الله التى خلق الخلق لأجلها وروح الدين وروح الايمان ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى الخبث . وسيأتى قوله قريبا « والدعاء هو المصرف الخبيث والملهاة والمفسدة المعوقة للبشر » فقد عرفت أن هذا الرجل جعل عبادة الله ليست بوسيلة ولا فائدة فيها ، وانما هى مفسدة وملهاة ومصرف خبيث صريحا لا شك فيه ، فهو لم يكتف بنفى كونها وسيلة حتى نفى الفائدة ، ثم لم يكتف بنفى الفائدة حتى جعلها خبثا وفسادا ، هذا مع أنه معترف بأن الدعاء عبادة بلا خلاف وبلا أدنى مماراة ، قال فى نبذته (البروق) ص ٩٣ : « فمن دعا الله واستغاث به أو صلى أو حج أو صام أو ذبح أو نذر أو خضع لله فقد عبد الله ، هذا مما لا ريب فيه » انتهى . فقد عرفت أنه قرر أن الدعاء عبادة كالصلاة والحج والصوم ، فلو أن قائلا قال ومعلوم ان الصلاة ليست بوسيلة وليس لها من فائدة وأنها ملهاة ومفسدة ومصرف خبيث لكان من جنس قوله سواء ، فانه حكم على نفسه بأن الدعاء كالصلاة والصوم والحج الى آخره ، فقد صرح بأن هذه كلها عبادات لله ، ومعلوم أن عبادة الله هى شرعه المطهر ، وهى دينه الذى أنزله على ألسنة رسله ، فمن جعل الدين أو ركنا من أركان الدين لا فائدة فيه وانما هو مفسدة وتعويق وملهاة وخبث فكيف يدعى الاسلام أم

كيف يشك فى كفره ، وقد رأيت أيضا أنه قرر أن ذلك أى كونه عبادة مما لا ريب فيه . وقال أيضا فى ص ٩٧ من البروق « فالدين قال لنا لا تعبدوا الا الله ، فأفادنا أن الدعاء والاستغاثه عبادة » انتهى . فقد رأيت أنه صرح بان الدعاء عبادة ، وأن ذلك مما قاله الدين ، فتكون العبادة لا فائدة فيها بل هى ملهاة ومفسدة وخبث معوق للبشر كما هو صريح كلامه . وقال فى نبذته الأخرى (الفصل الحاسم) رداً على الدجوى فى قوله « من دعا غير الله لم يلزم تكفيره » فقال هذا الملحد معارضا له ص ٨٩ : « هذا يقتضى أن دعاء الله ليس عبادة له ، وهو باطل بالاجماع » فقد رأيت أنه صرح بأن الدعاء عبادة بالاجماع . وقال أيضا فيه ص ٨٩ و ٩٠ « معلوم من أوليات الدين أن الدعاء داخل فى مادة (عبد) و (دان) وأن من دعا الله فقد عبده ودان له ، وفى الحديث الصحيح ان رسول الله عليه السلام قال « الدعاء هو العبادة » وفى رواية « الدعاء مخ العبادة » وفى حديث آخر صحيح أن رسول الله عليه السلام قال « الدعاء هو العبادة » ثم قال ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ففسر عليه السلام العبادة بالدعاء ، ولا إخال أحدا يمانع أن دعاء الله عبادة له ، ومعلوم بعد ذلك أن العبادة كلها لله وأن الدين كله له ، وأن صرف شىء منها لغير الله مفارقة للاسلام » انتهى كلامه بحروفه ، وأمثاله كثير يقرر أن الدعاء عبادة ، ولهذا قال ولا إخال أحدا يمانع فى أن دعاء الله عبادة له ، وقال هذا مما لا ريب فيه وادعى أن ذلك بالاجماع . فاذا كان معترفا بان الدعاء عبادة لله كالصلاة بالاجماع ، فكيف يكون مسلما من يدعى أن عبادة الله مصرف خبيث ومفسدة وأنها ليست بوسيلة وأنها لا فائدة فيها . اذا عرف هذا كله فنقول لهذا الملحد متى كان الدعاء ليس بوسيلة وأنه ليس له من فائدة وأنه يقوم بعملية خبيثة ، فان هذا لا يعرف الا عند الملاحدة فقط الذين لا يعترفون بالربوبية ، فان هذا لا يوافق غير اعتقادهم لان دعاء المعدوم ليس له من فائدة وانما هو

مفسدة وتعويق ، أما من اعتقد أن الله سميع عليم له الكمال المطلق الذى لا غاية فوقه فيسمع من دعاه ويجيبه ، وأنه القادر المدبر لأمر السموات والارض الرءوف الرحيم فانه يعلم ويعتقد أن الدعاء أكبر وسيلة بل كل وسيلة تخلو منه ولا يقارنها فانها لا تؤثر الا فى جنس مثلها . وجميع أهل الأديان الذين يقرون بالله سبحانه يعلمون أن الدعاء من أعظم الوسائل ، ولم يخالف فى ذلك الا الملاحدة الدهرية ، بل المشركون الذين يقرون بالخالق تعالى يدعونه فى الشدّة ، لأنهم يعلمون أن الدعاء هو أعظم الوسائل ، ولهذا يتركون دعاء آلهتهم فى أحرج وقت لانهم يعلمون أن دعاء الله هو الذى ينفع وحده فى الشدة كما قال تعالى ﴿ واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ الآية . ومع ذلك فهم كفار ، فكيف بمن أنكر إفادة الدعاء مطلقا ، وهذا الملحد لما كان دهريا خبيثا يعتقد ان هذا الكون انما يجرى على نواميس الطبيعة حيث ذكر فيما تقدم أن النواميس المولودة من المادة هى التى تحكم هذا العالم ، فالحوادث كلها ترجع الى تفاعل طبيعى مرتبط بعضه ببعض ، فليس هناك رب له هيمنة عامة على الأسباب ومسبباتها وهى تجرى على مقتضى المشيئة فيجيب من دعاه وينفع من استغاث به ولجأ اليه واستعان به ويعاقب من عصاه اذا شاء ولو جمع من الاسباب ما لا يحصر ، لما كان يعتقد هذا الاعتقاد الذى هو كفر ظاهر بنى عليه هذا القول الذى هو كفر واضح ، ولا شك على هذا الاعتقاد أن الدعاء لا فائدة فيه ، فإن هذا القول مناسب لذلك الاعتقاد

عمد هذا الملحد إلى أعظم مظهر من مظاهر دين الاسلام وعبادة الله التى خلق الخلق لأجلها فادّعى أن ذلك مصرف خبيث أى عمل خبيث وأنه مفسدة وملهاة ومعوق لا فائدة فيه بين أمم تدّعى الاسلام ثم مع ذلك يقول ويدعى أنه وفق بين روح الدين وروح العمل ، بل يدعى أنه انما قال ذلك لأجل أن يكون ايمانه كايمان عمر بن الخطاب ، وأن هذه حقائق لا يستغنى عنها مسلم ، فيا سبحان الله أين العقول .

لقد هُزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

وهذا الذى ادعاه هنا هو تفسير قوله فى المبحث الاول ان الاخلاق الدينية المحض لها نتائج أخرى ، يعنى بهذه النتائج الأخرى هذه الخبائث التى ذكرها هنا وهى المفسدة والخبث والملهاة والتعويق وعدم الفائدة ، هذى هى النتائج الاخرى وهذى هى الأغلال النكراء ، ولا شك أنها لا تفيد المجد المنشود ، فانه لما ذكر أن سبيل المجد المنشود ينحصر فى الاخلاق الصناعية فذكر أنها هى التى تعز الشعوب ، ثم ذكر أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى فذكرها هنا وهى هذه الاخلاق المشار اليها كما ترى ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾

ولم نعلم أحدا من الكفار من الأولين والآخرين اجترأ على التفوه بهذا المقال ، وكل من له دين وعقل صحيح يعلم بلا أدنى شك أن هذا الرجل ملحد زنديق لا يعتقد خالقا ، وانما يحتج ببعض الآيات قصداً لإفسادها وتشكيكا فى القرآن ومكرا وخداعا وتمويها على الاغبياء ممن أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة . وكيف يخفى على من عرف دين الاسلام أن هذا كفر صريح واضح لا ريب فيه ، وكيف يخفى كفر من ادعى أن عبادة الله التى هى دينه مفسدة وملهاة وخبث لا فائدة فيه ، وكيف يخفى على من عرف الاسلام كفر من ساوى بين الله وبين المعدومات أو الاوثان التى لا فائدة فى دعائها وانما هو ملهاة ومفسدة ، هذا لو لم يكن فى هذه الأغلال الا هذا الغل ، فكيف وأكثره كذلك كما ياتى ، وفى الحديث الصحيح عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال «الدعاء هو العبادة» وفى حديث أنس «الدعاء مخ العبادة» وقال تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وانما كان الدعاء هو العبادة لانه أعظم مظاهرها فانه روحها السارى فيها ، لأنه يتأتى فى جميع الاعمال الشرعية القولية والفعلية والمالية ، فهو نور العبادة وروحها ولبها الذى تدور عليه ، ولهذا وجه

هذا الملحد الخبيث جهده فى محاربة هذا المظهر الأكبر فانه أعظم من الصلاة ، فانها لا تصح إلا به وهو يصح بدونها ، فهو توجه وافتقار حالى قولى مناسب للفقر الذاتى الانسانى ، وقد جعله هذا الملحد مضادا للايمان بالانسان ، وهو كذلك فانه مضاد للايمان بالانسان الذى يوجب الكفر بالله ، مناسب للايمان بالانسان على الوجه المشروع ، فان الانسان محتاج دائما فهو فقير الى خالقه الغنى بالذات ، فاتصاله بخالقه بواسطة الدعاء هو الذى يقويه ويزكيه ، فاتصال الانسان بخالقه أمر ضرورى لا بد له منه بهذا السبب (١) فهو السبب الأكبر الوحيد بين العبد وبين ربه ، فأراد هذا الملحد المغرور قرضه وقطعه ، وهيهات بئسما سولت له نفسه ، وانما كان ساريا فى العبادات لان حقيقتها توجه حالى فعلى فيتناسب مع التوجه القولى ، ولأن الاعمال الفعلية والمالية تحققه وتصدقه وتقويه ، وقد قال تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ أى ما يكترث بكم ربى لولا دعاؤكم اياه فى الشدائد ، فعبر عن العبادة هنا بالدعاء لانه ركنها الاكبر كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ وهنا قال ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ أى عبادتكم كما تقدم فى الحديث « الدعاء هو العبادة » فقد كذبتم رسله فكان تكذيب الرسل ملازما لانكار إفراد الخالق بالدعاء أو انكار فائدة الدعاء مطلقا ، ومن صدّقهم فمن لازمه أن يستعمل دعاء الله وحده بكل حال ، فهؤلاء الملاحدة لما كانوا مكذبين الرسل ولا يرون أنهم أتوا بشيء جديد ينفع الناس فلم يهبوا الحياة شيئا جديدا وانما صنع الحياة المتحللون من الأديان أنكروا منفعة الدعاء لأنه من أعظم الاسباب التى جاءوا بها ، وكفى به سببا صحيحا لو أعطى حقه ، فمن لازم تصديق الرسل استعمال الدعاء واعتقاد نفعه ، ومن لازم تكذيبهم ترك الدعاء واعتقاد أنه لا فائدة فيه او التشكيك فيه قال تعالى ﴿ فسوف يكون

---

(١) كما قال تعالى ﴿ يا ايها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد ﴾

لزاما ﴾ وهذا صريح فى أن كل من كذب الرسل واستكبر عن دعائه أن سيلازمه العذاب ويعامل بنقيض قصده ، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ فانه عبر فى واحدة بان الحكمة فى ايجاد الخلق حصول الدعاء وفى الثانية العبادة ، وقرن بينهما فى قوله تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ فربط الدعاء بالعبادة لانه مخها وروحها . فكل هؤلاء الخبثاء الذين شمخوا بانوفهم المرغمة المأفونة انما تركوا الدعاء استكبارا وقد اخبر أنهم سيدخلون جهنم داخرين أى صاغرين ، وقال تعالى ﴿ أم من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض ، أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون ﴾ ومن يقول انه لا فائدة فيه وانه مفسدة وملهاة يقول لا يجيب المضطر وليس بكفء لان يدعى فلا يكشف السوء فليس له من فائدة ، وقال تعالى ﴿ واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ ومن يقول ان الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة وانه مصرف خبيث يعاند هذه الآية ويعاكسها ويقول لا يجيب دعوة الداعى لانه ليس بوسيلة اذ لو كان وسيلة أو فيه فائدة لأجاب دعوة الداعى ، إذ الاجابه أكبر فائدة ، فمن يقول انه لا فائدة فيه يقول لا يجيب دعوة الداعى وانما دعوته مفسدة وملهاة ومصرف خبيث فلا يحصل له الا عكس دعائه ورده لانه إنما يدعو معدوما أو عاجزا ليس بكفء للدعاء ، اذ القادر الحكيم العليم الرحيم الرءوف العظيم هو الذى يجيب دعوة الداعى . ولا شك أن كلام هذا الملحد معاكس للنصوص الدينية ولا سيما فى الأصول ، فانه يقصد أعظم أصل فى الدين فلا يكتفى بالقدح فيه فى موضع واحد بل كلما قدح فيه وأبعد هنيهة رجع اليه ثانيا وهكذا ومعلوم أن الرسول ﷺ كان يستعمل الدعاء فى الأوقات الحرجة عند مقابلة عدوه كما قال تعالى ﴿ اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ﴾ فانه يوم بدر قام عليه السلام يصلى

ويدعو كل الليل ، فاستعمل هذا السلاح الجبار على وجهه فحصل النجاح الكامل ، ولو كان الدعاء لا فائدة فيه وأنه مفسدة وملهاة لزم ان يكون ذنبا ويكون الرسول ارتكب هذا الذنب العظيم وأمر الناس كلهم بذلك ، وهذا عكس صريح الدين ، بل هو تسفيه للانبياء وجميع أهل الأديان ، وهو قد بين هذا حيث ذكر أنهم لم ياتوا بشيء جديد ينفع الناس ، فقبح الله من يخفى عليه كفر قائل هذا الكلام

ولم تزل الامة المحمدية الاسلامية وقبلها الامم المتدينة تدعو ربها وتسأله وتعبده وتستغيث به حتى جاء هذا العي الدعي الذى قضى أول عمره [1] فى أمور معروفة لا داعى الى شرحها ، جاء هذا الملحد الزنديق فزقا بهذه المقالة الملعونة التى يستحى كثير من الكفار من التفوه بها ، ثم يقول مع ذلك انه يريد بهذا أن يكون إيمانه كايمان عمر بن الخطاب المشهود له بالجنة

أمور تضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

ومما يبين لك أن هذا الملحد مخسوف القلب مطموس البصيرة أنه قرن السباب والاتهام بالدعاء فى قوله الآتى قريبا حيث قال « أما السباب والدعاء والاتهام فهو المصرف الخبيث والملهاة المفسدة المعوقة للبشر » فجعل حكم هذه الأمور واحدا على السواء ، جعل ركن العبادة كالقذف واللعن المحرم شرعا ، جعل العبادة التى اعترف بأنها عبادة بلا ريب ولا خلاف مثل السباب والاتهام الذى هو أقوال محرمة أو مكروهة شرعا ، فهذا برهان على أنه لا يرى عبادة رب العالمين شيئا معتبرا ، ولا يفرق بين العبادات والمعاصى ، ولا يفرق بين الله والاصنام والأوثان والاوهام التى لا حقيقة لها ، فالجميع لا فائدة فى دعائها وليس بوسيلة بل هو ملهاة وتعويق ومفسدة ومصرف خبيث ، فهو لا يرى العبادات الا من جنس المعاصى والمعاصى لا يراها الا من جنس

---

(١) فى أطراف البحرين

غيرها من الكلام ، كلمات خفيفات مبهمات كما صرح بذلك ، وكل هذا إنما يتأتى على أصل الالحاد ، فمن المحال أن يصدر هذا عن قلب يقر بالربوبية ويعلم انه مسئول عن هذا ، وقد طرد هذا الاصل الخبيث فيما يأتى فادعى أن الخطب التى تتلى على المنابر لانها تتضمن الدعاء والذكر وتعظيم الرب لا فائدة فيها بل هى شر ، وكذلك المساجد لم تؤدّ إلا الشر ، فانه قال فى المنابر والمساجد قد أدّت شر ما يؤدى ، وهنا يدعى أن الدعاء لا فائدة فيه ، بل دعوى أنه ملهاة ومفسدة ومصرف خبيث كدعوى أنه شر يؤدى أو أعظم من ذلك ، ثم مع هذا يقرنه بالسب والاتهام فجعل الشتم والقذف الذى هو السب ونحو ذلك من جنس الدعاء الذى هو ذكر لله تعالى وعبادة له ، ولعله لما رأى الجميع حروفاً وأصواتاً جعل الحكم فى ذلك واحدا بالقياس ، ولكنه لم يطرده فى كتابه لأنه كلام أيضا بل جعل الأمة انما تبصر طريق العقل به ، وجعل النهوض موقوفا على الأخذ به ، والسقوط على تركه واضاعته ، فسبحان من طبع على قلبه

واذا عكس هذا المعكوس وقال اننا نرى كثيرا يدْعون فلا يعطون ما طلبوا ، قلنا نعكس عليك رجسك ونقول أنت ادعيت فى هذه الأغلال كما يأتى أن كثيرا من الناس يبذلون أسبابا كثيرة ولا ينجحون ، ثم أجبت عن هذا دفاعا عن الأسباب المادية بانهم يبذلونها ويفعلونها قاصرة شاكين فيها وفى أنفسهم غير جازمين بالنجاح ، فلم يعملوا عمل من يجزم بالنجاح فلهذا لم ينجحوا ، وإلا فلو عملوا بها غير شاكين فيها وفى أنفسهم لنجحوا ، وحينئذ نقول لك فى هذا السبب الدينى كما قلته فى الأسباب الماديه سواء بسواء ، وحبوط الأسباب المادية التى تجرى عن غير وجهها أو ضعيفة أكثر فى المشاهد من عدم حصول المطلوب فى الدعاء ، ونقول ان أكبر سبب مادى فى الوجود لا يمكن تأثيره وحصول نتيجته إلا بوجود شروطه وانتفاء موانعه ، وليس فى الوجود كله سبب مستقل بنتيجته حتما بدون شروطه وانتفاء موانعه إلا

مشيئة الله تعالى ، فهؤلاء الداعون الذين لم ينجحوا أحيانا لم يأتوا بهذا السبب على وجهه صحيحا نقيا ، بل يأتون به ضعيفا أو مقرونا بما يبطله ، أو يعملون أعمالا تضاد مقتضاه ونتيجته ، فلا تكون نتيجته الا ضعيفة جدا كالسبب المادى الذى يقارنه ما يضعفه ، بل الدعاء لا بد له من نتيجة فلا يذهب سدى أبدا ، ولو أن الداعى أتى بالدعاء على وجهه كما أمر بذلك لحصل له مقصوده بلا ريب ، كما تقوله أنت فى الأسباب المادية سواء بسواء ، والله سبحانه أمر عباده بالدعاء ووعدهم أن يستجيب لهم ، وأمرهم مع ذلك أن يستجيبوا له كما قال ﴿واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ فبين فى هذه الآية الشروط التى تترتب عليها الاجابة أنها الاجابة له والايمان به ، فمن آمن بالله واستجاب له استجاب الله دعاءه ومن تمرد واستكبر وأعرض ونبذ أمر الله وراءه ظهريا أو تساهل فيه فان شاء الله استجاب له وان شاء لم يستجب له عدلا ، وهذا الملحد نفسه قد غلا فى الأسباب المادية غلواً تجاوز به الى حد الجنون ، وأسرف فى تسفيه الأسباب الدينية إسرافا تجاوز به الى حد الكفر ، فنقول له من المعلوم أن أكبر سبب فى الوجود عندك هو معرفة قوانين الطبيعة ونواميسها ، وليس فى هذه الارض أعلم من ألمانيا بهذا الشأن ، وعندها من الأسباب المادية والصناعية والكيمائيه ما قد عرفه العالم كله ، ومع هذا فقد حبطت أسبابها وعادت عليها نكبة عظيمة ولم تحصل على نتيجتها التى طلبتها بهذه الأسباب ، فما رأيناك تذم سببا واحدا من هذه الاسباب مع كثرتها ووضوح تخلف نتائجها وبطلانها كثيرا بل وفسادها وحصول ضدها فى بعض الأحيان ، وغاية ما تعتذر به عن ألمانيا وغيرها من الدول التى سقطت فى هذه الحروب وغيرها بأن أسبابها هذه عارضتها أسباب أكبر منها وأن أهلها وقعوا فى أغلاط أفسدت تأثيرها . فيقال لك حينئذ : وهكذا نقول فى الأسباب الدينية كالدعاء فان أهله عملوا معه أعظم مما عملته ألمانيا فى أسبابها ، ثم نقول أيضا : ان

اعترافك بانها أسباب قوية مؤثرة ومع ذلك بطل تأثيرها كاف فى بطلان حجتك ، لأن حجتك دائرة على وجوب وجود النتيجة من السبب حتما ، فهى هنا لم توجد مع هذا السبب الاكبر عندك ، فكيف بدونه ، وأنت هنا نفيت كون الدعاء سببا لأنك قلت ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، فلم تكتف بنفى النتيجة حتى نفيت السببية فيه أيضا مع النتيجة ، فيلزمك أن تنفى سببية هذه الأمور الصناعية والكيمائية لان السبب الذى نفيت به سببية الدعاء ونتيجته موجود فى الأمور الصناعية والكيمائية وغيرها وهو عدم حصول المطلوب الذى بذل له هذا السبب كالانتصار فى الأسباب المادية ، والاجابة فى الأسباب الدينية كالدعاء لأن تلك الأسباب المادية لم تفعل وتهيأ الا للانتصار والدفاع فلم يحصل كل منهما ، والدعاء بذل للاجابة فيما ينتفع به الانسان فى الأمور المباحة والمشروعة ، فلو قدر أن المطلوب لم يحصل فضده لم يحصل أى لم يحصل ضرر منه ، فكان من هذه الناحية أولى بالاعتراف بسببيته . وأنت عاكست الحقيقة فعمدت الى أسباب قد علم بالحس والمشاهدة بطلان نتائجها وحصول ما يضاد ما بذلت له فغلوت فيها ، وبذلت جهدك فى الحث عليها والاعتماد عليها واعتقاد أنها موجبة حصول نتائجها بذاتها حتما ، ثم عمدت الى أكبر سبب فى الوجود وأجمعت عليه الأديان السماوية كلها وعرف تأثيره بالشرع والعقل والضرورة والحس والاستقراء ، ولم يثبت فيه ضرر بالكلية ، فادعيت أنه ليس بوسيلة ، فنفيت كونه سببا ، ولم تكتف بذلك حتى قلت وليس له من فائدة ، فنفيت النتيجة ، ولم تكتف أيضا بذلك حتى قلت هو المصرف الخبيث والملهاة والمفسدة ، فجعلته ضررا محضا مع اعترافك بأنه عبادة ، ومع اعترافك بأن الخلق خلقوا للعبادة ، أليس هذا كله معاكسة الدين ومعاندة لرب العالمين

ثم اذا كانت هذه الأسباب المادية التى لم تحصل نتائجها بل حصل ضدها لم تنف عنها السببية فكيف تنفى عن الدعاء ، ونحن نعلم كما يعلم غيرنا أن هذه الأمصار الاسلامية قد بذلت أسبابا عظيمة مادية لا تعدّ ولا تحصى فى طلب

الاستقلال وطلب أمور أخرى ، وكثير منها ذهب هواء ولم يحصل مسببه ، فاذا قال القائل انهم يدعون ولا يستجاب لهم قيل ويبذلون أسبابا مادية كبرى ولم يحصل مسببها ، ولم يوجب ذلك الطعن فيها فكيف يوجب الطعن فى الدعاء مع أننا نعلم ونشهد شهادة الحق اذا شهد أعداؤنا شهادة الزور بأن الدعاء لو كان يبذل ويعمل به فى الجد والاجتهاد كما يعمل بهذه الاسباب المادية لحصلت النتيجة بلا ريب ، ومن هو الذى يعلم أن هذه الأمصار الاسلامية لولا هذه الدعوات لكان لها شأن آخر ، وها هم يفرحون ويمرحون ويتقلبون فى نعم لا تعد ولا تحصى بينما كثير ممن هم أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا أصبحوا يتقلبون فى أنواع البؤس والشقاء والعناء والعذاب الفظيع ، انه لا يوجد انسان رشيد صحيح العقل يعطى ولده الصغير كل ما طلبه واشتهاه مهما كانت حالته فى الرحمة والعطف والحنان ، بل لا يعطيه الا ما يراه صالحا له لا مفسدة فيه . ومعلوم أن نسبة جهل الانسان الى علم الرب أعظم من جهل الصغير بالنسبة الى أبيه ، هذا وهو يحبه ، فكيف اذا عانده وتمرد عليه وذهب يستعمل ما يخل بصحته ويفسد أموره

ان كل ما يبذله هؤلاء الداعون وهؤلاء المصلون وغيرهم يعرف كل أحد أنه لو استعمل كما تستعمل هذه الأمور الدنيوية التى يجتهد أهلها فى تأديتها والمحافظة عليها وعلى سمتها وعلى الاتيان بها صحيحة قوية لكان لها أكبر الأثر فكيف يؤتى بها على حالة شوهاء أو بفتور ورداءة همة وضعف وشك وغير ذلك ثم لا يتخلف بعض نتائجها . إن أكبر شىء اعتمد عليه هــذا الملحد وأطال الجدال والعناد فيه هو أن الناس يشكون فى قدرتهم وفى أعمالهم بالذات ويدعى انه لم يفسدهم ولم يوهنهم إلا هذا الشك ، وإلا فلو عملوا غير شاكين لحصل لهم مطلوبهم حتما . ومعلوم عند أدنى عاقل أنه لو فرض وجود هذا الذى يدعيه فى الاعمال من الشك فشكهم وفتورهم فى العبادات أشنع وأبشع وأعظم ، فلماذا يتحامل على دعاء الله وديانته والدائنين بها هذا التحامل المنكر

ويقدح فيها هذا القدح العظيم

سبحان الله ، من هو الذى يستطيع أن يحكم على أفراد هذا العالم أن كل من دعا منهم فلا يستجاب له ، وأن دعاءه ملهاة ومصرف خبيث ، مع أنهم كلهم - حاشا ملحد - يدعون ويفزعون الى ربهم سائلين حاجاتهم المختلفة دائما ، وقد وجدوا تأثير ذلك أظهر من أن يكابر فيه ، وليس فيهم أحد يشك أنه سبب من أقوى الأسباب ، انما يشكون فى أنفسهم لما يعرفون من تقصيرهم فى موجبات الإجابة ، ولو قيل لأدنى عامى فضلا من غيره إن دعاءك ليس بسبب ولا له فائدة لا نكر ذلك بفطرته الدينية التى فطره الله عليها ، لأنه يعلم أن ربه ليس بمعدوم ولا كالجمادات التى لا تسمع ولا تجيب من يدعوها . فكون الدعاء وسيلة من أعظم الوسائل أمر قد علم بالضرورة كما علم وجود الله سواء ، لأن جميع من أقر بالله وبأنه رب متصرف فى خلقه رحيم ودود عليم حكيم سميع مجيب فلا بد أن يدعوه ولا بد أن يعترف بأن الدعاء وسيلة وأن فيه أكبر الفوائد ، بخلاف من لا يعتقد ذلك كالملاحدة وعباد الطبائع لذاتها فانهم لا يدعون الله لأن الدعاء عندهم ليس بوسيلة وليس له من فائدة بل هو مفسدة وتعويق ، قال تعالى ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجب له الى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ، واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ فأخبر انه لا أضل ممن دعا من لا يستجيب له ، ولا شك ان من ادعى ان الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة فقد حكم على الله بأنه جعل من دعاه ضالا فى غاية الضلال

ومما يجب أن يعلم أن الله سبحانه ذكر الاجابة بعد الدعاء ، والاجابة لا تتضمن اعطاء الشيء المطلوب من كل وجه ، فقوله تعالى ﴿ وإذا سالك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وغيرها من الآيات

انما دلت على الاجابة وهى أعم من إعطاء السؤال ، فان الداعى أعم من السائل ، وإجابة الداعى أعم من إعطاء السائل ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسالنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » ففرق بين الداعى والسائل وبين الاجابة والاعطاء ، وهو فرق بالعموم والخصوص ، كما اتبع ذلك بالمستغفر فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص ، فاذا علم العباد أنه قريب مجيب يجيب دعوة الداعى ، وعلموا قربه منهم وتمكنهم من سؤاله ، وعلموا علمه ورحمته وقدرته دعوه دعاء العبادة فى حال ، ودعاء المسئلة فى حال ، وجمعوا بينهما فى حال ، اذ الدعاء يجمع العبادة والاستغاثة والاستعاذه ، فاجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء المسئول ، كما فسره النبى ﷺ فيما رواه مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال « ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها احدى ثلاث خصال إما أن يعجل له دعوته ، أو يدخر له من الخير مثلها ، أو يصرف عنه من الشر مثلها . قالوا : يا رسول الله إذن نكثر . قال الله أكثر » فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد فى الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلا أو مثله من الخير مؤجلا أو يصرف عنه من السوء مثله . ثم انه من المعلوم عند جميع العقلاء بدون أدنى نزاع أنه ليس لأحد أن يحكم على كل الأشياء بحسب ما يراه ويسمعه ، فيدعو مثلا فلا يستجاب له ، فيأتى الى سبب اتفق الناس كلهم من جميع أهل الأديان على أنه سبب من أعظم الأسباب ثم ينكره بمجرد أنه لم يستجب له فيما يرى فى مسئلة أو مسائل لأجل موانع أو عوارض فيه وفى دعائه ، وكيف ينكر الانسان سببا مجمعا عليه من أهل الأديان ثم لا يسند إنكاره أيضا الى حجة ، وغاية ما يدعى أنه فعل ذلك فلم يحصل له مرة أو مرارا ، ثم ماذا يكون ، فهل يتحكم فى شرع الله بمجرد ذلك ، وكل عارف يعلم أن عدم العلم بالشىء ليس علما

بعدمه [١] وكيف ينكر المسلم الذى يدعى أنه مصدّق بما أنزل الله أن الله لا يجيب دعوة الداعى وهذه اجابته لعباده متواترة أكثر من أن تحصر وأظهر من أن تذكر ، وليس من شرط إجابته أن يفهمها وينظرها من طبع الله قلبه وكان فى شك من دينه ، وليس من شرط اجابة الدعاء أن تكون الاجابة إعطاء الانسان على ما يشاء هو ويشتهى ، فان الله سبحانه يفعل ما يشاء بعبده على ما تقتضيه رحمته وعدله وحكمته لا على ما يشتهيه عباده ويتمنون ، فانه سبحانه أعلم بمصالحهم وأعلم بعواقب الأمور ، كما انه ليس كمثله شىء فى ذاته وصفاته وأفعاله التى منها إجابته ، فليست إجابته كاجابة المخلوقين من كل وجه ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير

هذا وليعلم أن الدعاء ليس سببا مباشرا كالأسباب المادية من كل وجه ، بل هو سبب دينى أعلى ، وليست الأسباب المباشرة بأقوى من غيرها ، فهذه أسباب الدعاية ليست بسبب مباشر ، وجميع الدول تستعملها بقوة وبراعة ومهارة زائدة وتبذل فى سبيلها أموالا طائلة ، وقد تنجح وقد لا تنجح ، ولو أن انسانا كتب ونشر وادّعى أنها ليست بسبب وليس لها من فائدة بمجرد أنها لم تنفع فى بعض الأحيان أو أنها ليست بسبب مادّى لكذبه الناس وسفهوا رأيه ، هذا مع أنها قد تفيد وقد لا تفيد ، وليس فى الشرع نفى لها

---

(١) وها نحن نرى هؤلاء الأطباء وهذه المستشفيات ليس كل من دخلها وعالجه الأطباء يحصل له الشفاء مع أنه يسلم نفسه للعلاج وللطبيب تسليما كاملا ، ولو أن رجلا أو جماعات دخلوا مستشفى وعالجهم طبيبه فلم يؤثر ذلك فيهم فكتبوا ونادوا أن الطب لا فائدة فيه وليس بوسيلة الى الصحة لضج الاطباء وغيرهم وشتموهم وسبوهم وسفهوا رأيهم ، مع إقرارهم بأنه ليس كل من تداوى يحصل له الشفاء . ومعلوم أن عدم حصول الشفاء أكثر من عدم اجابة الدعاء لمن استعمله استعمال من يعالج . ثم ان المريض لا يعمل معه الطبيب إلا على ما يراه الطبيب نافعا له ، لا على ما يراه المريض بكل حال

أو اثبات بالاجمال ، فكيف بالسبب الذى هو روح الدين والذى عاش بوجوده الوجود أجمع . هذا وليعلم أيضا اننا لسنا نقول ان المشاكل التى شرعت لها الأسباب الدينية والمادية يكفى فيها الدعاء وحده ، فان الله سبحانه أرشد الى العمل كما أمر بالدعاء وبين أنه سبب لهذا الشىء ، فلا بد من وجود السبب المادى مع الدينى ، فالدينى هو السبب الأصلى والمادى فرع له فلا بد من وجود الاصل مع الفرع ، واذا بنى الفرع على غير أصل انهار على من بناه ، والله سبحانه بين مصالح الانسان وبين الطرق التى بها تستحصل هذه المصالح ، فمن أخذ بهذه الطرق استحصل على المصالح ومن تركها لم يصل اليها ، والطرق هى هذه الدينية والدنيوية ، فالجهل والبطالة ونحو ذلك تستحصل ازالته بالتعلم والتعليم وتيسير وسائل العمل ، ويستعمل مع ذلك الدعاء ، فان الدعاء للأعمال كلها كالروح والحياة التى تلهبها وتدفعها وتمنعها من الفساد ، واذا خلا العمل من الدعاء فقد خلا من القوة النافعة ، كالجسم اذا خلا من الروح كان عرضة للوحوش والحشرات وغيرها . وأما الجدب ونحوه فيستعمل فى ازالته الدعاء ونحوه من الاعمال الدينية كالصدقة لأنه من الأمور الغيبية ومن خزائنه الكبرى ، فان وجود المطر مفتاح لخيرات كثيرة ، وقد قال تعالى ﴿ وان من شىء الا عندنا خزائنه ﴾ اى فليطلب منا . فالحاصل أن الانسان يجب عليه فعل ما ينفعه دنيا ودينا بفعل الاسباب العادية التى فى طاقة البشر ، ويستعين بالله تعالى على انجاح قصده ومراده ، كما قال النبى ﷺ «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، فان أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فان (لو) تفتح عمل الشيطان » ففى هذا الحديث بيان أن الانسان يجب عليه الحرص على ما ينفعه بفعل الأسباب ، ويستعين الله تعالى فيدعوه ولا يعجز ويكسل ويصير الى البطالة ، وأن نجاحه تحت مشيئة الله ولكن الله سبحانه كريم رءوف رحيم يعين من استعان به صادقا مخلصا ، فلا يخيب من التجأ اليه باخلاص وصدق ابدا ، أما

رفض الدعاء والتكبر عنه فكفر صريح وهلاك وبلاء محتوم ، وأما رفض العمل وعدم فعل السبب فنقص فى العقل وسفه فى الرأى ، فانه تعالى أرشد الى فعل الأسباب المادية وفرض فعل الأسباب الدينية ، فمن اقتصر على احدهما فقد خالف سنته الدينية والكونية التى شرعها لعباده ، فاذا حصل له نقص فى عمله فلأنه قصر فيما أمر به فجاء به منقوصا فحصل له النقص بمقدار ما أتى من النقص فى الأمور المشروعة

فصل

ثم قال : « وبيان ذلك أن انسانا ما إذا غضب أو حنق على إنسان آخر أو أمة على أمة أخرى لسبب من الأسباب كالظلم والعدوان والمنافسة والحقد صار هذا الحنق والغضب قوة دافعة من الممكن أو من المؤكد أن تدفع ذلك الحانق الغاضب الى العمل والانتقام والبطش ، ولا محالة فى أن تدفع هذه القوة فى سبيل ما من سبل الانتقام ، والسبيل الطبيعى النافع لها أن تدفع فى سبيل الانتقام أو البطش أو العمل والانتاج ، أى ينتقم المظلوم من ظالمه أو يعمل وينتج ليلحق ويسبق منافسه الذى أضرم فى قلبه نار الغيظ ، ولكن إذا وجدت هذه القوة لها متنفسا أو طريقا آخر غير هذا الطريق الطبيعى انطلقت فيه فألفت فى انطلاقها هذا تعويضا ومصرفا على الوجه الآخر ، هذا فى كل القوى المندفعة بالضغط أو الدفع » انتهى

قلت: قد تبين لك من هذا أن مستنده الى دعوى كون الدعاء ليس بوسيلة ولا له فائدة وأنه مصرف خبيث ومفسدة وملهاة الخ هو ما ادّعاه هنا فى هذه الجملة ، هذا هو برهانه ومستنده على انكار نفع الدعاء ، فاعتقد أن الدعاء يصير متنفسا للغضب والحقد الذى أضرمه حب المنافسة والاحقاد والمطامع ، وهذا الذى قاله هنا إنما يتأتى على ما ذكرناه من الحاده الصريح ، ولهذا فانه لم يذكر أن الذى أضرمه الاستعباد والكفر والظلم وسبّ الله ودينه وأنبيائه

وأن يكون الدين لله وحده فلا شيء من ذلك ، بل جرى على عادة السفهاء والنوكى والحمقى والملاحدة الأشقياء ، لأن كل هؤلاء إنما ينتقمون لأغراضهم وأنفسهم وشهواتهم لا للدين ولا للانسانية ، فلهذا كانوا ينهارون دائما اذا حصل ما يسد هذه الحاجات الشخصية ويقمع هذه الأغراض النفسية كالرشوة وغيرها ، فما ذكره من وجوب العمل على الشعوب الحانقة الغاضبة على أعدائها وكون العمل وحده هو النافع للقوى المندفعة بالضغط فهذا لا يصح ، وكل هذا التقرير الذى ادعاه فى هذه الجملة تقرير ساقط بالمرة ، وذلك أننا نقول إن الدعاء لا ينافى العمل ولا يضعف القوى بل يلهبها ويدفعها اذا كان العامل غير ملحد ، فان الدعاء هو الذى يقوى العمل ، فان حرارة الايمان الذى جزؤه الدعاء هى التى تقوى العامل وتنشطه وتنجح العمل وتكمله ، فان الدعاء دليل على قوة الايمان وقوة الاعتقاد ، وذلك دليل على شدة حرارة الايمان المحرك للعمل ، ومعلوم أن قوة الحركة بقدر قوة الحرارة التى يكون بها قوة العمل وضعفه ، فقوة العمل وضعفه نتيجة الأمل الكبير والايمان العظيم ، وكلما اشتد الايمان وعظم الأمل وقوى كثر الدعاء ، فهو كالحرارة الصاعدة التى تتصل بنار مضغوطة فلا بد للنار المضغوطة من متنفس مقدر ، وتنفسها هذا مما يقويها ويزيد حرارتها كالآلات الكبيرة فى المصانع العظيمة فانه لا بد أن يكون لحرارتها متنفس وإلا فسدت فطفئت أو خربت ، وبكثرة الدعاء يكون كثرة العمل وقوته ، فالدعاء عنوان على الحرارة المحركة للعمل والانتاج وهى الحرارة الايمانية والدافعة للفعل فبقدر قوة حرارة الإيمان يكون الدعاء والعمل والانتاج فى الكثرة ، وكلما ضعف الايمان قل الدعاء وضعفت الحركة فيضعف الانتاج ، فالدعاء عمل ظاهر قولى والايمان توجه حالى اعتقادى باطنى ، وحركة المؤمن عمل فعلى ، وكل هذه متصل بعضها ببعض ، لأن الدعاء عنوان على الحرارة الدالة على الحركة الدالة على الانتاج ، ومعلوم أن الانتاج انما يكون بقدر قوة الحركة واعتدال سيرها ، وقوة الحركة واعتدال

سيرها انما يكون بقدر الحرارة التى تدفعها ، وبقدر الوقود تكون الحرارة ، والوقود هو مشاهدة الأوامر الدينية وحب الله ودينه وكتابه وخوفه ورجاؤه ، فالاعمال الصالحة هى الوقود والدعاء هو الذى يلهبها ويذكيها ويضرمها ، وعظمته بمقدار عظمة الايمان ، فاذا اجتمعت هذه الشروط التى هى الدعاء والايمان والعمل حصل الانتاج الصحيح وحصل الاستمرار فيه ، واذا اختل الايمان أو الدعاء ضعفت الحركة وبضعفها يضعف الانتاج ولا سيما اذا ضعف الوقود فانها تطفأ وربما يستبدل بوقود غيره اذا كانت العوامل الحادية فيكون الوقود من شىء خبيث ضعيف كالروث فلا بد من فساد نتيجتها وانهيارها بحسب ما يعتريها من النقص والاختلال

فصل

ثم قال : « وقد كان المفروض فى هذه الشعوب والأفراد الحانقة الغاضبة المهتاجة على من ظلموها أو فاقوها وسبقوها أن تقوم بعمل ما حتمى لتحطيم هذه الحواجز والقيود والاغلال والفروق الظاهرة المخزية تدفعها قوة الحنق أو قوة الحسد والمنافسة »

قلت : وهذا أيضا لا ينافى الدعاء ، لكن اذا كان الدافع هو الحنق والحسد والمنافسة ونحو ذلك من الامور النفسانية الدنيوية فقل أن يصحبه الدعاء الخالص النافع ، بل الحق أن يكون الدافع هو الايمان ، وأن تكون كلمة الله هى العليا ، واقامة العدل وازالة الظلم والاستعباد ، فان الدعاء على هذا الوجه يكون من أعظم المكملات لذلك ، وأما الحنق والحسد والمنافسة فتلك عوارض نفسانية يمكن إزالتها وافسادها وتبديدها وردها بالرشوة والوعود والمطامع الأخرى وهى كثيرة ، لأن هذا الدافع كدافع الحيوان الأعجم ، ثم ان هذا المعارض قد نقض هذه الدعوى فادعى أن الحنق والحسد يجلب شرورا كثيرة حيث قال فى المبحث الخامس فى مسئلة الزهد : « وأما الحديث

القائل : انظروا الى من هو دونكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم ، فهو حديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية ، ذلك أن الانسان مجبول على الغيرة من الآخرين وعلى الحسد للمتفوقين الناجحين ، والغيرة والحسد قد يجلبان الشر الكثير بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر ويؤذى ويظلم المحسود المنفوس عليه ، وقد يترتب على هذين الامرين شرور كثيرة وآفات اجتماعية شاملة » انتهى . فانظر كيف صرح وادعى هنا بان الحسد والمنافسة تجلب شرورا كثيرة شاملة وآفات اجتماعيه ويحث على التخفيف من حالتهما ، وفى هذا المبحث يدعى أنها أعظم سلاح للاستقلال وينهى عن التخفيف منهما حتى ولو بالدعاء على رأيه ، لان ذلك عنده يبطل قواهما ، ثم يحث على أن تكون هى العوامل على إثارة الأعمال التى بها يحصل الانتقام ، وقد استكبر وشمخ بأنفه عن أن يقول تدفعها قوة الايمان الصادق والاعتقاد الخالص فى إرادة وجه الله والدار الآخرة ومحبته ورضاه ، وأن يكون الدين كله له ، فان هذا هو الاعتقاد النافع الصحيح كما هو الدافع القوى الجبار الذى لا يقف أمامه شىء ، فاستكبر عن هذا وسلك طريقة النوكى والحمق وأشباههم ممن غرضه ودافعه الحسد والغيرة وأمثال ذلك ، وهذه هى دوافع الحيوانات المتقاتلة (١) ولهـذا كان أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلا

ثم قال « ولكن هؤلاء (٢) سلكوا طريقا آخر لتبديد هذه القوى الذاتية النفسية ، انهم اشتغلوا بالسباب والدعاء والاتهام وسائر ألوان الكلام فوجدوا فى ذلك أعظم راحة تخلصهم من تلك القوة المتولدة من احتراق الانفعالات والعواطف المختلفة »

قلت : من يكون إيمانه صادقا واعتقاده قويا فإنه لايجد راحة بهذه الأمور

---

(١) فان الديكة ونحوها انما تتقاتل من أجل الغيرة ونحوها

(٢) يعنى الداعين

التى هى السباب والاتهام ونحو ذلك ، بل لا بد أن يسلك طريقا يتوصل به الى مراده وهدفه فيجدّ فى العمل والنظر ، ويكثر من الدعاء الذى منه الاستعانة بالله القادر الجبار القاهر ، فيستعمل الدعاء ويكثر منه ، لان ذلك يلهب ايمانه ويدفعه الى العمل والاجتهاد ، وليس السباب والاتهام مثل الدعاء ، فخلط بعضها ببعض كخلط المسك بالرجيع والطيب بالخبيث ، وهذا الملحد قد تكرر كلامه فى خلط الدعاء بالسباب والاتهام ، فخلط عبادته بمعاصيه ، وجعل المعصية مثل الايمان ، فالمؤمن الداعى الصحيح الايمان لا يسلك طريق صاحب السباب والاتهام ، بل يسير فى طريقه حتى يبلغ إحدى الحسنيين : إما النجاح ، واما الشهادة . فإن الايمان الصادق يطلب ما يلائمه وينفر مما يضاده ، فبوجود المضاد يبقى دائما ملتهبا ، والدعاء يزيده التهابا وحرارة ، ولا يستريح صاحبه بسب ولا اتهام كما لا يستريح بشتم وقذف ورشوة وغيرها ، فالدعاء له شأن آخر غير شان السباب والاتهام ، لأن الدعاء جزء من الايمان فهو يزداد بزيادة الايمان وينقص بنقصانه ، بخلاف السب والاتهام فانه يكثر مع المعاصى ولا سيما الانانية فان صاحب الانانية شديد السب والاتهام لغيره كصاحب هذه الأغلال فانه شديد الاعجاب بنفسه يرى أنه دائما مظلوم لم يعط ما يستحقه ولا يريد أن يشاركه فى الخير أحد الا اذا كان له فى ذلك حظ يستفيد به فى أموره الشخصية ، فقرن السباب والاتهام بالدعاء جريمة كبرى من أعظم الجرائم بل هى كفر صريح ، فمن قرن ذكر الله وعبادته بالقذف والشتم وسائر أنواع السب وجعل حكمهما واحدا فلا شك فى كفره وردته ، ولو أن رجلا دعا فى صلاته لكان ذلك من الحسن ، ولو سب أحدا أو قذفه فيها بشىء من السب والاتهام لبطلت صلاته باجماع المسلمين ، ولكان ذلك ذنبا من الذنوب فكيف يجعل السباب مثل الدعاء . ومن حذقه فى الخبث أنه ذكر الدعاء مع السب والاتهام وجعل لفظ الدعاء بينهما ، مسكين والله مسكين ، كأنه يخاطب أغناما لا تفهم ، ثم دعواه أنهم يجدون راحة بالسباب والدعاء والاتهام كذب ظاهر ،

بل المؤمن لا يجد راحة بهذه الأمور ، فانه لا يستريح لشيء من اللغو كالسب والاتهام ، ولا يستريح بالدعاء بدون العمل ، لان الدعاء وعوامله الباعثة عليه لا بد أن تدفعه الى العمل بالضرورة ، لأن الدعاء يدور مع الايمان ، وأما السباب فانما يستريح به السفهاء وأهل الرقص والغناء والخلاعة وأمثالهم من سفهاء الأحلام ، وليس الكلام مع هؤلاء لان هؤلاء انما تدفعهم أمور دنيوية بسيطة متى حصلت زال ذلك الدافع ، بخلاف الايمان والعمل الصالح والعواطف الدينية فانها لا تندفع الا بحصول مقتضياتها من العدل وازالة الظلم وغير ذلك من الأمور الدينيـة الصحيحة ، فالدعاء قسم مستقل بنفسه ليس بينه وبين السباب أدنى علاقة كما تقدم توضيحه غير مرة

فصل

ثم قال : « انها فروض ثلاثة : إما أن تدفع هذه العواطف الى العمل ، وإما إلى الكلام ، وإما أن تبقى هما مخامرا وغيظا دفينا تحتبس نيرانه المتوهجـة فى النفس » . فيقال : ان كانت العواطف المذكورة أهواء وشهوات وحقدا وحسدا ونحو ذلك فان غالبهـا يقع كذلك ومآلهـــا الى الثانى أى السباب والاتهام ، وأكثر ما توجد هذه الأمور فى الملاحدة لأنهم لما خليت قلوبهم من العواطف الدينية عوضوا بالحقـد والحسد والحسرات والهموم والغموم المتوهجة التى لا متنفس لها الا بالكلام والسب والاتهام غالبا ، وأما الدعاء فقد أوضحنا أنه لا يوجـد الا مصحوبا بالايمان ، فالملحد لا يدعو الله بل يحقـد ويحسد وينافس ، وكثيرا ما تتهادم هذه الأخلاق بعضها ببعض فتكون وبالا على صاحبها . وأما المؤمن المخلص فيدعو ويعمل بلا ريب ، لأن عواطفه الصحيحة النقية تدفعه الى ذلك ، وأما المؤمن الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا فيدعو بقدر إيمانه ، ويحقد ويحسد بقدر ما معه من الشهوات والشبهات ، فالدعاء فرض رابع مستقل ، فلا بد من تأثيره ، ولا بد أن يكون أثره طيبا ،

بخلاف السباب والاتهام فأكثر ما تكون آثارهما وبيلة ما حقة

ثم قال « اما العمل فهو ما يجب أن يكون أثرا لهذه العواطف ، وبهذا تصبح نافعة مفيدة حافزة على النجاح والابداع ، وأما الكلام - اى السباب والدعاء والاتهام - فهو المصرف الخبيث لها والملهاة المفسدة المعوقة للبشر عن الانتاج والعمل النافع » انتهى

قلت : قد صرح هذا الملحد كما ترى بأن الدعاء مصرف خبيث وملهاة مفسدة معوقة للبشر ، فأى كفر أظهر من هذا ، وقد سبق كلامه أن الدعاء هو العبادة فكانت عبادة الله عنده مصرفا خبيثا وملهاة مفسدة نعوذ بالله من مكره . وقد تقدم غير مرة أن العمل الذى عامله غير ايمان صحيح بل عواطف نفسانية مختلفة ليس بمحتوم له النجاح ولو بلغ ما بلغ ، لكن اذا صادف عملا أو نتيجة عمل من جنسه فقد يحصل الترجيح والمكافأة به ، وقد لا يحصل الا النكبة من الجانبين ، وكل هذا يرجع الى التوازن فى الأعمال غالبا ، فلا يصح حكمه على العواطف بالنجاح والنفع مطلقا ، فان عمل العواطف النفسانية لا يعمل الا فى مثله أو دونه أو فى ما يقاربه فى الجنس لأنه عمل قاصر لقصور مصدره عن العمل الفطرى الدينى ، فلا بد فيه من الضعف بالنسبة الى العمل الدينى الصحيح فانه لا بد أن يكون ناجحا لانه عمل طبيعى فطرى ولأن عامله يسير بفطرته الصحيحة بين داعى الجمال الكامل ودافع النفرة من القبح النهائى والذل الذى لا يطاق ، فما ذكره من التقرير فهو ساقط من أصله

أما دعواه فى هذه الطامة الكبرى بأن دعاء الله هو المصرف الخبيث والملهاة المفسدة عن العمل فهذه الدعوى قد تقدم الكلام عليها ، وان هذا القول انما صدر عن اعتقاد الالحاد ، ولا يمكن أن يصدر هذا القول ممن يحترم الأديان أو يرى أنه مسئول عن ذلك ، ولقد بلغ هذا الملحد من الفسق والفجور والكفر والجرأة على الأديان مبلغا لم يصل اليه أكثر الكفرة ، ومن يخفى عليه كفر قائل هذا الكلام أو يلتبس عليه كلامه فأنى ينفع فيه

الاسهاب والاطناب فى ردّه ، بل كثير من هؤلاء الخبثاء الاشقياء يودون ويتمنون بجدع الأنف وبكل ما فى جهودهم أن لو ارتموا فى أحضان هؤلاء الملاحدة وتمكنوا فيما تمكنوا فيه وانغمسوا فيما انغمسوا فيه ، فهؤلاء ينفرون عن كل مالا يلائم أهواءهم وميولهم من الأمور الدينية الطيبة كما تنفر الحمر المستنفرة فهم لا يبصرون ولا يسمعون لأى داع يصدّهم عن هذه الغاية التى يريدونها ويتمنونها ، فهؤلاء من جنس أسلافهم الذين قال الله فيهم ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، انا جعلنا فى اعناقهم اغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ . ثم قال تعالى ﴿ انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ الآية . فهؤلاء هم الذين ينتفعون بالأدلة الدينية ، وقد قدمنا اعتراف هذا الملحد بأن الدعاء عبادة بالاجماع ، وزيادة على ما سبق من إقرار هذا الملحد بأنه عبادة لا ريب فيها ننقل عبارته فى ذلك من الصراع ص ٢٤٢ ج ١ قال «ولا ريب أن العبادة اذا ما ورد ذكرها فى القرآن أو فى السنة المطلقة كقوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ وقوله ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾ وقوله ﴿ فاعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقوله ﴿ عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾ وقوله ﴿ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم أعبدوا الله ﴾ ، ﴿ والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وقوله ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وقوله ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ ونظائر ذلك من آى الكتاب الحكيم ، فلا ريب أن العبادة اذا أطلقت كما أطلقت هذه الآيات تضمنت الدعاء وغيره من أنواع العبادة كالصلاة والصيام والحج والزكاة والنذور وسائر الأعمال والاقوال التى يزدلف بها المسلم الى الله ويلتمس بها رضاه ، ولا يمكن أن تكون هذه الآيات تخص معنى دون معنى من هذه المعانى ، فلا يمكن إلا أن يكون من ضمن العبادة المطلقة فى هذه الآيات الصلاة أو الصيام أو الاستغفار أو التضرع أو الخشية

أو الدعاء . كما لا يمكن إلا أن يكون من ضمنها النداء والمناجاة ، بل ذلك كله داخل فى معنى العبادة المطلوبة المأمور بها ، ولا يختلف المسلمون فى ذلك ولا يقول أحد منهم ان هذه العبادة المطلوبة فى القرآن ليس منها الدعاء والمناجاة ، بل علم الناس بأن هذه الأمور منها علم ضرورى لا يقبل الخلاف والنزاع ولا يختلف ان من دعا الله وأمعن فى دعائه وناداه وأكثر من ندائه فقد أطاع هذه الأوامر بعبادة الله بالجملة ، وان من لم يدع الله تعالى وان قام بجميع الفرائض وآمن به الايمان الصحيح البرىء فقد عصى هذه الأوامر بالجملة وترك نوعا من أنواع العبادة ، وهذا أمر لا يمشى اليه خلاف . فالعبادة فى الشرع أى فى القرآن والسنة وأقوال العلماء هى عند الاطلاق كل ما يحبه الله من الاقوال والافعال وما يقرب اليه تعالى كالمراقبة والخشية والخشوع والخضوع والخوف والرجاء ونظائر ذلك ، ولا يختلف الناس ان من دعا الله فقد قام بجزء من العبادة المأمور بها ، بل ولا يختلفون أن الدعاء من أفضل أجزاء العبادة كما جاء فى الحديث الذى ذكره الشيعى وهو قوله ﷺ « الدعاء مخ العبادة » وفى رواية « الدعاء هو العبادة » وذلك لشرفه وسمو منزلته حتى كأنه خلاصة العبادة وأطيبها ، ولا يختلف الناس أيضا أن الدعاء والنداء كانا من اجزاء عبادة المشركين للاصنام وأنه اذا ما قيل ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ أو قيل ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ﴾ أو قيل غير ذلك من الآيات والاخبار المصرحة بان المشركين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله تناول دعوتهم الاصنام بلاخلاف ، وقد ينص القرآن والسنة نصا جليا على أن الدعاء عبادة وحينئذ ينحسم النزاع ، وكذلك قوله تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ فان هذه الآية نص جلى على أن الدعاء عبادة وعلى أنه من أفضل أجزائها وأشرفها ، وكذلك الحديث القائل « الدعاء مخ العبادة » والقائل فى الرواية الاخرى « الدعاء هو العبادة »

انتهى كلامه بحروفه . فقد رأيت أنه صرح تصريحا لا إشكال فيه أن الدعاء من أجزاء العبادة بل هو من أشرفها وأطيبها ، ونقل الاجماع والضرورة على ذلك وأنه طاعة لله تعالى ، وحينئذ يقال له : وهل يشك مسلم يعرف دين الاسلام فى ان من ادعى فى جزء العبادة وأشرفها وأطيبها أنه مصرف خبيث فى أنه كافر خارج من الملة ، فمن ادعى أن الدعاء الذى هو أشرف جزء فى عبادة الله ليس بوسيلة فهو كافر كما أن من ادعى أنه لا فائدة فيه فهو كذلك كافر ، ومن ادعى أنه من جنس السباب والاتهام فهو كافر ، لانه جعل الطاعة معصية فقدح فيه ، ومن ادعى أنه مصرف خبيث فهو كافر ، وكذلك من ادعى أنه ملهاة ومفسدة وتعويق فهو كافر وهذا أمر مجمع عليه بين الأمة (١) لأن من ادعى فى جزء من اجزاء العبادة كهذه الدعوى فهو كافر ، وهو قد صرح بأن الدعاء من العبادة بالضرورة والاجماع ومما لا يقبل الاختلاف كما تقدم .

وقال فى الصراع ايضا ص ٢١٦ ما نصه « فان من قدح فى الاسلام أو فى الله أو الأنبياء حكم بكفره وردته بظاهر ما قال ، وان زعم أنه يريد غير ما يفهم الناس من قوله ، بل وان زعم أنه يحكى وينقل أو ذكر احتمالا من الاحتمالات فلا يمكن أن يقبل شيء من ذلك . وكذلك لو قال قائل ان القرآن ليس فيه ما يعرف العقيدة الصحيحة والدين الحق أو قال انه جاء بالباطل او أنه يخالف العلوم والواقع أو قال انه متناقض متدافع أو زعم أنه جاء بالشر والفساد أو قال ان رسول الله جاهل مثلا ونظائر ذلك فمن قال شيئا من ذلك كفر وحكم عليه السامع بالردة وحكم عليه المسلمون بذلك ولم يسائلوا عن ضميره وعما عقده فى نفسه وعما ينويه ، بل ولم يشكوا أو يتوقفوا أو يختلفوا ، وبهذا ينتظم الامر ويقمع الزيغ ويوأد الالحاد فى صدور الملحدين ويضيق على الشر فلا يجد مناديح وفسحا فلا ينمو أو يشب أو ينتشر ، وبغير ذلك يختل النظام ويقلق

---

(١) والملحد جمع هذه الامور كلها

حبل الأمن ويجد الضلال المخـــارج والموالج والمصادر والموارد ويبدى كل صفحته ويرفع كلّ عقيرته فيتنفس الملحد الحـاده والضال ضلالته ويقول كل ما شاء من الكلام الفاسد ومن سوء الأدب مع الله ومع الدين والمؤمنين والنبيين ويذهب بكل شيء من ذلك الى المجاز والتأويل ويفزع صاحبه ان أخذ الى ذلك فلا يستطاع أخذه أو مؤاخذته بقول من الأقوال وكلمة من الكلمات فتفسق النفوس وتشيع الفوضى الاعتقادية ولا محالة ، وهـذا ما حصل لبعض الناس الذاهبين هذا المذهب الفاسد حتى ان من قال « ما فى الجبة الا الله » ومن قال « سبحانى عز شانى » وجد من يؤوّل له كلامـه ويحمـل له المحمل الحسن ومن يحسن الظن به ، وكذلك قال قوم ان كلمة لااله الاالله فاسدة وان الانبياء لم يأتوا إلا بالشرك والشر وان القرآن كله تشبيه وتجسيم وان الأولياء أفضل من الرسل وقال أحدهم أنا أفضل من جميع الانبياء والمرسلين وقال بعض المنتسبين الى الاسلام أكثر من هذا وأشنع فوجد من أحسن الظن بهذه الاقوال ومن أولها وفسرها تفاسير جميلة أو مقاربة ومن صدق الدفاع والذياد عن أصحاب هذه المقالات حتى رموا من عارضوا قائليها بفساد العقيدة وبالكفر ، وهذا معلوم مدون فى كتب مطبوعة يحسن بها الظن اليوم وقد يحسن بها الى ما بعد اليوم الى ما شاء الله . وهذا البلاء دخل من هذا الباب باب التأويل المبنى على حسن الظن بمن ادعى الاسلام أو ولد من آباء مسلمين أو مدعـين للاسلام .

وكلامه فى نبذه السابقة فى تقرير كون الدعاء عبادة بل من أعظمها كثير جدا وفى الصراع الحكم بتكفير تارك الصلاة لانها عبادة وقد ادعى أن الدعاء كالصلاة سواء فليفرض الانسان أنه قال الصلاة هى المصرف الخبيث والملهاة المفسدة المعوقة ولا فائدة فيها بل هو قد ذكر فيما يأتى أن المساجد أدت شر ما يؤدى ، وأدنى رجل من المسلمين يعلم أن من سب الصلاة فقد سب الاسلام وكذلك من سب الدعاء فان الدعاء هو رأس العبادة كما اعترف بذلك ، واذا كان هو معترفا بلا ريب أن ترك الصلاة كفر فلا شك ان من دعا الى تركهـا

فقد دعا الى الكفر ، وكذلك من دعا الى ترك الدعاء فقد دعا الى الكفر ، ولا يشك المسلمون أن من دعا الى الكفر فهو كافر ، واذا فتح باب القدح فى الصلاة والقدح فى الدعاء وفى عبادة الله فأى شيء يبقى من الدين ، وما هو الدين إذن ، وهل يتصور أن يعبد الله بدون أن يدعى ويستغاث به ويستعان به ويلجأ اليه فى الضرورات والحاجات ، ويكفيك قوله تعالى ﴿قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم﴾ فهذا صريح بأنه لولا دعاؤنا إياه لم يعبأ بنا ، وصريح بأن الدعاء هو العبادة ومن قدح فيه فقد قدح فى العبادة التى هى رأس الاسلام والدين ، وهو واضح ولله الحمد ، لا يخفى الا على من لا يعرف حقيقة الاسلام والدين ، وليس لنا حاجة فى أن نتتبع كلامه كله فى كتبه السابقة لأنه قد أشار الى أنه قد خالف ما فيها مع كونه ادعى فيها أنها مبنية على براهين لا ريب فيها ، ولكنه بعد أن خاب أمله وحبط عمله بعد خروج أغلاله احتاج اليها فأخذ يحتج بها فى خداعه وتنصله ويدعى أنها غير مخالفة ، وأدنى عارف بدينه إذا طالعها عرف الفرق بينها وبين هذا الكتاب ، غير أنه لما صرع بين الجزء الثانى والثالث من الصراع فى نفس تلك المقدمه الهوجاء التى هى فى الحقيقة مقدمة لهذه الاغلال صارت تلك المقدمة فيها شيء كثير مما فى هذا ، بَيْدَ انه نافق فيها نفاقا كثيرا جدا وكان نفاقه فيها من الأسباب التى جعلت كثيرا من الناس يسكتون عنها ، لكن صار سكوتهم هذا سببا فى خروج هذا الوباء الخبيث . وقد احسن بعض الصلحاء حيث كتب له حين أخرج أغلاله هذه قائلا ما معناه : نحمد الله أن جعلك تنفث سمك مرة واحدة لئلا تدسه فى كتب أخرى فيغتر بها الناس لما يعرفون من كلامك الأول فيحسنون الظن بك . وبالجمله فكتبه الاولى كلها تناقض أغلاله هذه ، وهى السبب الذى جعل بعض الناس يشك فيه فى أول الأمر لانه انقلب انقلابا فاحشا لم يسبق له نظير . فدعواه هنا أن الدعاء مصرف خبيث وأنه ملهاة مفسدة ومعوقة عن الانتاج مع كون هذه الدعوى كفرا لا ريب فيه فهو فى نهاية السقوط ، بل

الملهاة هو السب والاتهام والقذف والشتم وأشباه ذلك من الأمور المحرمة الفارغة ، وذلك كله من شان الملاحدة والفساق وذوى الأنانية والاحقاد الدنيوية ، أما الدعاء فانه من نور الله ورحمته التى رحم بها عباده فأنعم بها عليهم ، فهو روح الحياة والعروة الوثقى التى لا انفصام لها والحبل المتصل بين الله وبين عباده ، فكيف يكون من جنس السب والاتهام ، ان هذا لظلم عظيم وبلاء مبين ، فان الدعاء أعظم دافع قوى ، فانه جزء الايمان الأكبر الذى يدفع الى العمل فكيف يكون جزء الدافع معوقا عن عمله فان جزءه منه يقوى بقوته ويضعف بضعفه فانه السبب الأكبر فى حصول المطالب العالية كلها فى الدنيا والآخرة ، وما نال الناس هذا الذل وهذا الضعف الا لما قصروا فيه وفى مقتضاه واعتمدوا على غيره ، وأما السباب والاتهام فتلك نتائج الأهواء والأغراض والضغائن والحسد التى ربما يكون أكثر بواعثها المعاصى ، فكيف يخلط الطيب بالخبيث والنور بالظلمة والحياة بالموت والأعلى بالأدنى ثم يحكم على الجميع حكما واحدا ، فان هذا كقياس الشىء على ضده ، ولكن من خسف الله بقلبه وأصمه وأعمى بصيرته فلا بد أن يكون هذا شأنه ، فان الاعمى المخبول يتخبط ولا يميز بين الأشياء المتضادة ولا سيما اذا كان يمشى فى ظلمات بعضها فوق بعض

ثم قال « وأما الهموم ودفن الاحقاد فى حنايا النفس فهذا قد يكون شر الفروض الثلاثة من الناحية النفسية ، غير أنه لا ريب فى أن هذه العواطف والانفعالات هى من القوى الدافعة الضاغطة كما ذكرنا ، فلا بد أن تنتهى بصاحبها الى أحد الأمرين العمل أو السباب أو التشفى الساذج ، فلنحذر الاخيرين لنصير الى الاول »

قلت : لا شك أن الغيرة على الدين ومقت الكفر والظلم والعسف والاستعباد وحب الله تعالى ودينه من العواطف أيضا ، بل هو العواطف الكبرى الدافعة الضاغطة ، بل هى أعظم القوى الاعتقادية ، واذن فلا بد أن

تنتهى الى العمل والدعاء ، لأن هذه الحرارة القوية لابد لها من حركة ولا بد لها من حرارة صاعدة تدل عليها وتتصل بها وتمدها بالقوة كالحرارة الصاعدة من احدى الآلات الكبرى فلا بد منها ، كما تقدم بيانه ، وكما تقدم أيضا الكلام على الاحقاد والحسد والمنافسة قريبا وأن هذه قد تدفع للعمل وقد يحصل لها التنفس بالسباب أو قمعها باحدى المطامع النفسانية فانها عوارض تعرض وتزول لاأساس لها ، بخلاف عواطف الدين القوية الثابتة فانها لا تزول إلا بما يلائمها ، وهذا ظاهر . على ان قوله « فلنحذر الاخيرين » يريد بذلك الدعاء والسباب ودفن الاحقاد ، وقد عبر عن الدعاء بالتشفى الساذج وقد علمت أن قرنهما جميعا باطل شرعا وعقلا وحسا ، فالتقسيم باطل من أصله قطعا ، لأن الدعاء نوع مستقل فإنه ان كان صدر من عاجز عن العمل فهو نوع مستقل فيكون نفعه بحسب حالة صاحبه الدينية فلا بد أن يثاب عليه لأنه عبادة ، بخلاف غيره من الاسباب فانها قد تنفع وقد تضر بل تقتل صاحبها ، أما الدعاء فهو خير محض فانه عبادة وطاعة لرب العالمين ، وطاعة الله الخالصة هى رأس كل خير فى الدنيا ومصدره بخلاف السباب والاتهام فقد بينا أنها عوارض نفسانية باعثها الأنانية والأهواء والشهوات ، وأكثر ما تقع محرمة ومعصية فتكون نتائجها كما ذكر تشفيا ساذجا أو تشفيا مضراً ، فلا حجة له فى ذلك مع تناقضه ، فقد تبين أن هذا التعليل الذى علل به عدم النفع تعليل ساقط جاء على حسب اعتقاده وعلى حسب العلة التى أصابت فؤاده فى أن الاخلاق الدينية لا نفع فيها . وقد كررنا الكلام فى هذه الفصول استرسالا مع تكريره ، لأن هذه المضايق كثيرا ما يلبس فيها ويحرص أشد الحرص على تعمية أصول الدين فيها بمثل هذا الهذيان المزخرف بالكذب والبهتان والتزوير ، فينبغى الحرص على إيضاح ذلك ايضاحا جليا ، وهذا إنما يحصل بالمناقشة ، وذلك ربما يؤدى الى تكرار بعض العبارات . والله الموفق

فصل

قال « ولعله مما يبالغ ويضاعف فى سرور أعدائنا المحتلين أن تنشق حناجرنا كل أسبوع فى مساجدنا بالدعاء عليهم وبلعنهم وقذفهم ، لأنهم يعلمون عواقب ذلك كله وان المثل الغربي القائل لا تلعنوا الظلام وأوقدوا الشمعة لخير ما يجب أن ينسج على نوله التربية والتوجيه العاطفى العقلى »

والجواب أن يقال : يا مسكين ليست أصول الدين مبنية على العناد وما تهوى الانفس ، فان الدعاء ركن من أركان الشريعة المطهرة ، فهو ركن العبادة الأعظم ، فان كان حقا وصحيحا فى نفس الأمر وأنه عبادة لله فلا يضرنا سرورهم بذلك ولا غيظهم ، فليس سرور الاعداء برهانا على بطلان عبادة الله كالدعاء والصلاة والخطب حتى تحتج بذلك ، والله لم يأمرنا بأن نعبده بالعناد ، بل شرع لنا شريعة نتبعها ولا نتبع أهواء الذين لا يعلمون سواء سرت هذه الشريعة الأغيار أو غاظتهم ، فمن احتج على بطلان الدعاء بسرور الأعداء فهو مصاب فى دينه وعقله . مع أن هذه الدعوى أيضا غير مسلمة ، بل الأخلاق الدينية هى التى تغيظهم لأنهم يعرفون شدة أهلها وجلدهم وصبرهم على الأعمال وشجاعتهم فى الحروب . ثم ان أكثر الأعداء الدائنين بالأديان الأخرى يستعملونه ، وأكثر عقلائهم يعرفون نفعه ، فهم يستعملونه ويخافون أهله ، فادعاء أنه يسر الأعداء ليس بصحيح ، بل ربما يسر الزنادقة الدهرية الذين يدخلون بين الناس لقصد الاضلال والافساد فقط ، وهؤلاء هم شر الدواب عند الله ، فلا يعتبر سرورهم ولا غيظهم . وقد كرر هذه الدعوى مرارا فهو يحاول ابطال الدين ورفضه بكل ما يملك من قوة وجهد حتى ولو بالعناد

أما ما ذكره من المثل الغربى فلا حجة له فيه ، وليس مطابقا لما يقصده من تزييف الدعاء ونفى فائدته ، فان قوله لا تلعنوا الظلام ليس فيه مناسبة لابطال الدعاء ، بل نحن نقول به ونقول لا تلعنوا الظلام ، وليس فى المثل انكم لا

تدعوا الله وأوقدوا الشمعة بل دعاء الله أعظم من ايقاد الشمعة ، بل هو نور الشمعة الحقيق الذى من سار عليه لم يتعثر ولم يكبُ ولن يضل ، أما اللعن والسباب والاتهام فاننا لا نراه ، بل نذمه وننهى عنه ، ونأمر بايقاد الشمعة التى معناها الدعاء والعمل الناجع ، مع أن فى النصوص الشرعية ما هو أحسن وأولى وأبدع من هذا المثل ، كقوله عليه الصلاة والسلام « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن » الحديث ، وقوله تعالى ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وأمثال ذلك من النصوص الكثيرة ، ولكن غرضه من هذا كله محاربة الدعاء لأنه يعلم أن ابطال الدعاء أعظم وسيلة الى رفض الدين لانه روح العبادات كلها ، فاذا حصل فقد حصل رفض الدين الذى وضع له هذه الاغلال الخبيثة

« شنشنة نعرفها من أخزم »

وقد سبق أن الدعاء لا يتنافى مع المدنية والحضارة والتربية العالية والتوجيه العاطفى والعقلى ، بل تعاليمه الصحيحة هى أساس النهضات العلمية والعملية كلها ، فلا حجة فيما ذكره على ما مرّ تقريره غير مرة

فصل

ثم أطال فى تعظيم الانسان ، وهجم على الرازى والزمخشرى وابن أبى الحديد والآمدى بزعمه مناقشا لهم على تلك الأبيات التى صدّر بها هذا المبحث ، فقال مناقشا للزمخشرى : « إن العلم لله وحده أماما سواه من المخلوقين فهم فى غمراتهم أو غفلاتهم يتقمقمون ، وليس لهم أن يطلبوا علما ولو حاولوا هذا الطلب لما بلغوا ما طلبوا ، وذلك لأنهم تراب خلقوا من التراب ومصيرهم التراب وما للتراب وللعلوم ، انما خلقوا ليعلموا وليعلم من سواهم أنهم غير قادرين على أن يتعلموا شيئا وأن يكونوا علماء ، وأن يفلتوا من أصناف الجهل ، ماللتراب وللعلوم ، وانما يسعى ليعلم أنه لا يعلم ، فالانسان عند الزمخشرى ما خلق إلا

من أجل التدليل بجهله على أنه جاهل جهلا طبيعياً لا يمكنه التفلت منه ، وهذا بمثابة الحكم بالاعدام على المواهب الانسانية فى معانيها » . انتهى كلامه على على بيتى الزمخشرى

فلينظر المنصف الى هذا التحامل والمناقشة الباردة ، مع أن الزمخشرى إنما أثنى على الله تعالى ، ومثل هذا المقام لا بأس بنفى العلم عن المخلوقين فيه كما قال تعالى ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ فنفوا عن أنفسهم العلم - مع أنهم أعلم الناس على الاطلاق - تأدبا مع الله ، لأن علم المخلوق فى جانب علم الله كلا شىء ، كما فى حديث الخضر مع موسى لما جاء عصفور فنقر بمنقاره فى حافة السفينة من البحر قال الخضر ما نقص علمى وعلمك من علم الله الا كما نقص هذا العصفور من البحر ، ومعلوم أنه لم ينقص منه شيئا ، فاى ذنب للزمخشرى (١) حتى يحاسبه هذا الحساب العسير ويرميه بالعظائم ، وقد قال تعالى ﴿ قل إنما العلم عند الله ﴾ فأمره تعالى أن يحصر العلم عند الله ، وقال تعالى ﴿ قل لا يعلم من فى السماوات والارض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ فاذا كان هذا التحامل كله من أجل حصر العلم فى الله ونفى العلم عن الانسان فايردّ على القرآن فانه صرح بأعظم مما قاله الزمخشرى ، فان القرآن أتى بصيغة الحصر ، وهذا الملحد قد ادعى فيما يأتى بأن الانسان لم يعجز عن شىء حيث قال « أى شىء عجز عنه هذا المخلوق الصغير » وسيأتى قوله « ان الانسان يعلم كل شىء » وتقدم دعواه أن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها ، فهم الذين صنعوا هذه الحياة ، فالكفار هم الذين صنعوا حياتنا ، وأما الزمخشرى الذى حصر العلم فى رب العالمين فهو الذى حكم على الانسانية بالاعدام فغاظ صاحب الاغلال وأحرج صدره ووقع فى مشكلة كبرى وأصابته الحيرة ، كل ذلك من

---

(١) ان ثبتت هذه الأبيات عنه

أجل أن الزمخشرى حصر العلم فى رب العالمين ، وأما الذين صنعوا الحياة فهم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها ، والناس كلهم لم ينصفوا ولم يسلكوا طريق العدل ، لأجل ماذا ، لأجل أنهم لم يقدموه فى الامر[1] ، ولأجل أنهم ذهبوا يطلبون غيره ويرغبون الى سواه ، فمن أجل هذا كان هذا العالم على أفجر الفجور والظلم الذى لايطاق ، وكيف يطلبون غيره ويرغبون الى سواه وهو بينهم معروف مكانه لا يحول ولا يزول بسفر ولا غيره ، وكيف يذكرون غيره إذا ذكر الذكاء ، إن هذا على صريح ما يقول لظلم عظيم ، بل هذا هو الاصل فى جميع هذه الشرور ، لان أكثر شرور هذا العالم إنما تأتى من أجل ترك الانصاف والعدل ، كل هؤلاء الصحفيون وهؤلاء السياسيون جهلاء أغبياء لا يعرفون شيئا لأنهم ذهبوا كل مذهب يلتمسون الأسباب فى التأخر والضعف وأخطأوا المذهب الصحيح ـ على زعمه ـ وهو عدم تقديمه فى الامر فليقدموه فى الأمر وليطلبوه وحده لاشريك له وليرغبوا اليه ، واذا ذكر الذكاء حذار حذار أن يذكروا غيره ، فاذا حصل هذا حصل الانصاف الذى هو أساس العدل والنهوض ، وقد أكد هذا بقوله :

اذا قلت قولا أمن الدهر واستحى وهاب مقالى أن ينازعه الدربا [2]

فهو اذا قال قولا فالدهر يؤمن على قوله ويستحى من مخالفته ، فهو اذا أراد شيئا يقول الدهر كن فيكون كما هو صريح كلامه ، ولهذا قال مؤكداً لهذا القول [3] :

اذا مشيت فكل الناس فى أثرى وإن وقفت فما فى الناس من يجرى

فهو اذا مشى فجميع الناس يتبعونه مشدوهين فى أثره ، لان الدهر أمن

---

(١) كما صرح بذلك فى أبياته المتقدمة أول الكتاب

(٢) كذا قال فى قصيدة له فى أول (البروق)

(٣) وذلك فى آخر نبذته (شيوخ الازهر)

على قوله بالأجابة ، أما اذا وقف فما فى الناس من تسول له نفسه أن يخالفه فيقف فما فى الناس من يجرى ، فهو اذا وقف فمن هو الذى يستطيع أن يجرى والدهر قد أمن على قوله ، ولهذا فانه يقول :

نثرى شفاء للنفوس وللحجى   وردىء شعرى معجز الشعراء[١]

فقوله دواء وشفاء لنفوس المؤمنين ولعقولهم ، وأما شعره فانه معجز الشعراء ولهذا فان الامم العربية لم تبصر طريق العقل حتى ظهر كتابه الذى هو الحقائق الازلية الابدية تتركه أمة فتهوى نعوذ بالله ، وتأخذ به أمة فتنهض ، نسأل الله الكريم من فضله ، ولما ذا كان كذلك ، لأنه وافق الطبيعة ، فمن أجل هذا يجب على كل مسلم ومسلمة تعلمه فانه لا يستغنى عنه مسلم واحد اذا اريدت له حياة صحيحة ، وهذا كله صريح كلامه (٢)

انه لمن العجب العجيب جدا أن يناقش هذا الملحد الزمخشرى على قوله « العلم للرحمن جل جلاله » الخ وهو بهذه المثابة ، ولو أن له أدنى مسكة من حياء لوجد طرقا كثيرة فى تصحيح ما يدعيه من الحث على العمل دون التعرض للدين ولا حاجة الى مناقشة مثل الزمخشرى ، وكل ما يعتذر به هذا عن نفسه فالزمخشرى أولى به ، فان الزمخشرى صنف الكتب التى لا تعد ولا تحصى على ما فى ذلك من مذهب الاعتزال ، ولولا أن هذا الملحد ناقشه فى هذه المسئلة

---

(١) فى آخر (الفصل الحاسم)

(٢) وكيف يستغنى عنه مسلم واحد بين اربعمائة مليون مسلم وصاحبه بهذه المنزلة . الله اكبر الله اكبر « يا لشمس التى فى غير برجها » ، والمصيبة أنها فى غير برجها ، ولعلها انما كسفت لاجل انها فى غير برجها ، نعم انه الشمس التى فى غير برجها وهو الدر الذى فى لجج البحر ، ولكن يا أسفا على هذا الذى اخرجه فجعله أغلالا فى أعناق الكلاب

وان لسان المرء ما لم يكن له   حصاة على عوراته لدليل

التى ليس فيها شىء سوى الثناء على رب العالمين لم نناقشه ونبين خزيه أكثر مما بينه هو نفسه ، وكم للزمخشرى من أغلاط فى مسائل الصفات ولكنه لم يعارضه فيها بشىء وانما عارضه وحاربه من أجل الثناء على الله رب العالمين .
وكذا اعتراضه على الرازى وابن أبى الحديد فهو من جنس اعتراضه على الزمخشرى بل أبعد وأشنع

وأعجب من ذا أن يرى عيب غيره   عظيما وفى عينيه عن عيبه عمى

قال « وأما الشيخ الرازى فيرى أن أقصى خطوات العقل البشرى أن يعجز عجزا مطلقا وأن يقع فى عقل يمنعه التفكير والعمل والتقدم والتأخر ، ومعنى هذا أن العقول كلما فكرت وعملت وحاولت الاقدام فى مجالها ازدادت حيرة وضلالا وضعفا وجهلا وعجزا عن المعرفة ، فمن الخير إذن أن تحجم وأن لا تقدم ، ومن الخير لها أن تبقى فى مكانها لا تبرحه لئلا تضل ولئلا تذهب بددا ، ثم لا ترجع ابدا »

فيقال : وهذا الاعتراض من جنس الذى قبله فى السقوط والفساد ، فانه خطل وضلال خارج عن نفس الدعوى ، فان الرازى لم يتكلم فى هذه الأبيات فيما يختص بعلوم المادة والصناعات ، وانما تكلم فى العلوم الالهية وفى صفات الله وفى أفعاله ، وحيث انه سلك فى ذلك طريقة فلاسفة اليونان وغيرهم التى مشى عليها بعض الجهمية ومن حذا حذوهم من أئمة الكلام فى غالب بحوثه وترك طريقة الكتاب والسنة من إجراء النصوص على ظاهرها على المعنى اللائق بالله تعالى ، بين فى هذه الأبيات حاصل ما وصل اليه فى ذلك ، وأنه لم يصل الى يقين يعتمد عليه فى مباحثه لأن هذه أمور غيبية عظيمة لا تعرف إلا بطريق الوحى فقط ، فلهذا أنشد هذه الأبيات :

نهاية إقدام العقول عقالُ   وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا   وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال الرازى بعدها : « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن : اقرأ فى الاثبات ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، ﴿ اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ واقرأ فى النفى ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ ، ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ ومن جرّب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى » . هذا كلام الرازى ، وهو أجنبى عن مراد الملحد ، ولقد أبعد النجعة فى الاعتراض عليه لأن كلامه فى المسائل الالهية لا الصناعية ونحوها من العلوم الدنيوية كما هو ظاهر ، وهذا الملحد يعرف ذلك لكن أراد أن يتجاهل ويغالط الأغبياء فلهذا جاء بها فى هذا الموضع ، ثم اعترض عليها . ولا شك أن هذا الصنيع خطأ واضح معلوم الفساد ، وهكذا يقال فى جوابه على أبيات ابن أبى الحديد فان اعتراضه عليه - كاعتراضه على الرازى - ثرثرة لا طائل تحتها ، لان كلامه فى المسائل الالهية لا المادية فانه قال :

فيك يا أغلوطة الفكر　　حار أمرى وانقضى عمرى
سافرتْ فيك العقول فما　　ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الألى زعموا　　أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذى ذكروا　　خارج عن طاقة البشر

فضمير الخطاب فى هذه الابيات راجع الى الله تعالى كما هو ظاهر . فقد علمت فساد ما قصده وما فهمه او تجاهل فى فهمه مما تقدم فان ابن أبى الحديد سلك مسلك الرازى فتبين له ما تبين له فلهذا اعترف بأنه لم يصل الى حقيقة ، وهذا صحيح فمن هو الذى يصل الى معرفة كنه ذات البارى سبحانه وتعالى ، بل ذلك خارج طاقة البشر ، فانه سبحانه لا تعرف صفاته وذاته بتحكم العقل ومجرد الرأى والتفكر ، بل حسب الانسان العاقل أن يتمسك بما جاء فى الوحى من كتاب الله العزيز وسنة الرسول ﷺ فى ذلك فيكتفى به ففى ذلك من الكفاية ما يسعد الانسان فيعرف من حيث الجملة أن كل ما وصف الله به

نفسه ووصفه به رسوله ﷺ فهو حق على حقيقته وهو على ظاهره الذى يليق بجلال الله وعظمته لا على ما يليق بعباده ، فالقول فى الصفات كالقول فى الذات فكما أن له ذاتا حقيقة لا تشبه ذوات المخلوقين فصفاته كذلك لا تشبه صفات المخلوقين ، وهذه قاعدة مطردة فى جميع الصفات أنها تجرى على ظاهرها ويحرم تحريفها أو تأويلها عما يخالف ظاهرها بالتحكم والتخرص ، بل تجرى - كما قلنا - على ظاهرها من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير زيادة ولا نقصان ، هذا هو الحق فى هذا الباب العظيم ، فالاعتراض على ابن أبى الحديد فى هذه الابيات اعتراض ساقط لا محل له ومناقشة له يجاب عليها بما ذكرناه على أبيات الزمخشرى . وكذلك إتيانه بالبيتين الأخيرين اللذين نقلهما وعزاهما الى الآمدى المتفلسف فان ذلك خطأ مركب، فانه أخطأ فى عزوهما كما اخطأ فى الاعتراض عليهما ، وهو والعياذ بالله مبتلى بسوء الخاتمة حتى فى الجمل النقلية التى يقولها أو ينقلها فانها لا بد أن تكون أسوأ من غيرها ، ولهذا كان أخبث كلامه فى آخر كتابه ، كما أن آخر بحوثه هو أخبثها وهلم جرا . فالبيتان المذكوران ليسا للآمدى ، بل هما للشهرستانى كما ذكر ذلك العلماء الاجلاء منهم الامام شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى كتابه النفيس (العقل والنقل) وفى كتابه (المنهاج) أيضا ، وكذلك ذكرهما شارح الطحاوية ، وموضوع البيتين المذكورين كموضوع أبيات الرازى وابن أبى الحديد سواء بسواء ، فانهما فى ما يتعلق بالأمور الدينية الالهية ، ولهذا ذكرهما شيخ الاسلام ابن تيمية فى (الحموية) وغيرها فى مسائل الكلام ، فلا علاقة لهذه الابيات كلها بالعلوم الدنيوية مطلقا ، فالاعتراض عليهما اعتراض باطل فى نهاية السقوط . ثم يقال لهذا الذى غلب على شعوره العجب والتيه : هؤلاء الشيوخ قد بينوا ما وصلوا اليه كما بين ذلك غيرهم ، فأى شىء فى هذا ، هؤلاء علماء المادة والهيئة غاية ما عند أحدهم أن يبين مقدار ما أدرك بعقله ، وكثيرا ما يقول انه لم يظهر له ما يقطع به ، فما بالك لم تعترض عليهم ،

ثم أنت ما هو الذى وصلت اليه فى هـذه العلوم أو غيرها ، هل وصلت الى شىء أعظم مما فى هذه الأغلال وما فيها من الهذيان والخبال ، بل أكثرهـا كسراب بقيعة لا يشفى عليلا ولا يروى غليلا ، بل يورد الظمآن جحيما وعذابا أليما . ثم العجب كل العجب أنك ذهبت تشنع على هؤلاء الشيوخ بأنهم فى آخر أمرهم لم يصلوا الى حقيقة فى هذه الأمور بل وقعوا فى الحيرة والاشكال ثم سقطت فيما هو أشنع مما انتقدته عليهم ، فقـد ختمت أغلالك هذه التى أعجبت بها بمشكلة لم تحل الى اليوم بزعمـك ، وذكرت أن حاصل ما ذكرته فى هذه الأغلال هو هذه الفكرة ، ثم ذكرت أنها مشكلة لم يوجد لهـا حـل الى اليوم ، ثم ادعيت فى آخره ثانيا أنها لم تحل ، فكيف تشنع عليهم بهذه الشناعات المريرة بسبب وقوعهم فى الاشكال والحيرة ، ثم تسلك مسلكهم مع أنهم فى الامور الالهية الغامضة الخفية ، وأما أنت فأشكل عليك أوضح شىء فى الدنيا كلها وهو الايمان بالله والعمل مع ذلك ، وأدنى عجوز جاهلة فضلا عن غيرها تؤمن بالله وتعمل مع ذلك ، فكيف بالعلماء ، أفلا يستحى من هذا مبلغه من العلم أن يتصدّى لمعارضة أهل العلم والدين ويدّعى أنه العـارف بكل شىء ، المقدم فى كل أمر ، المؤمّن على قوله الدهر

ثم على فرض التنزل ، لو قدر أن فى هذه الابيات ما ينتقد ، لم يكن لنقلها ثم الاحتجاج بها فى هذا المحل وجه ، لأن مثل هؤلاء ليسوا بأئمـة يقتدى المسلمون باقوالهم ، فان الزمخشرى وابن ابى الحديد من المعتزلة ومذهب المعتزلة غير معتبر عند جمهور المسلمين ، وأما الرازى والشهرستانى أو الآمدى فهم من أئمة أهل الكلام ، وقد عرف اضطرابهم فى الأصول ومخالفتهم للجمهور فى نظريات كثيرة فى هذا الباب ، فمجرد وجود قول لواحـد أو فرقة قليلة من علماء المسلمين فيه خطأ لا يوجب تخطئة جميع المسلمين والاحتجاج عليهم به ، ولا يفعل هذا الا مغرور متبع لهواه مدخول فى دينه وعقله ، وقد أقر هذا الملحد فى الصراع بأنه ليس المسلم بالذى يتتبع اخطاء المخطئين وأغـلاط

الغالطين ، فكيف جاز له هنا أن يخالف الى ما ينهى عنه ، وهذا كله لو قدر أن ما قاله هؤلاء هنا خطأ ، كيف وهو عين الصواب الذى لا ريب فيه

فصل

ثم أطال فى تعظيم الانسان بزعمه بعبارات طويلة مؤدّاها أن فى الانسان استعدادات كامنة للكمال ومواهب نادرة ، وأن فى استطاعته أن يدرك كل أمل ، وأن يقدر على كل ما يحاوله ، وأن من ادعى أن استطاعته محدودة وأنه لا يصل الى كل ما يحاوله فقد كفر بالانسان ، فلا يمكنه الرقى أبدا ، وقد كرر هذا المعنى كما ستراه مع ما تقدم ، ثم قال :

« من الواجب أن نعرف من أين جاء الانسان هذا الكفر بذاته وإنسانيته ، ولماذا كفر بهما . يلوح أنه كفر بهذا لأنه أراد أن يؤمن بالله الايمان الذى تصوره ، فقد تصور أن أساس الايمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق وبين الله وعباده ، فالله يجب أن يعتقد أنه كامل فى كل شيء قوى فى كل شيء ، والعبد يجب أن يعتقد بأنه ناقص فى كل شيء ضعيف فى كل شيء ، ثم تصور أنه كلما بالغ فى تنقيص الانسان والمخلوق وفى تضعيفه فقد بالغ فى تعظيم الله وفى الايمان بكمالاته » انتهى

قلت : غرضه من هذه الأكاذيب والفجور الظاهر هو الدعوة الى الكفر بالتفريق بين الخالق والمخلوق ، لأنه جعل العلة هى هذا التفريق بين الخالق وخلقه وأن ذلك كله بسبب تعظيم الله ، أى فيجب رفض ذلك ليحصل الايمان بالانسان ، وإلا فما دام مؤمنا بالله وحده ومعظما له وحده ومعتقدا فيه الكمال وحده فلا بد أن يجعل المخلوق دونه ناقصا ، واذا حصل اعتقاد النقص فى الانسان حصل التأخر ، لأن مناطه اعتقاد النقص فى الانسان ، واعتقاد الضعف فيه والنقص كفر به ، لأن معنى ذلك أن قدرته محدودة وعلمه محدود . هذا ما يرمى اليه من هذه الثرثرة الطويلة ، اذ من المعلوم أنه لا يمكن أن

يكون الخالق والمخلوق كاملين كما لا يمكن اعتقادهما ناقصين ، فلا بد من التفريق ، وهو لم يذكر للتفريق حدا بينا يدعو اليه حتى يقال انه يقصد كذا وكذا ، بل جعل أصل العلة التفريق ولكنه جرى على عادته فى الغمغمة وخلط الحق بالباطل ، ولهذا أشار بأن فى الانسان كفاءة تامة لاستحصال الكمال باستعداده ومواهبه ، أى فلأى شيء يقر بالخالق ويعظمه ويعتقد فيه الكمال ، لأن المقصود الكفاءة التامة وهى موجودة فى الانسان فلا حاجة الى غيره . وينبغى أن يعلم أن اعتقاد الكفاءة الذاتية فى الانسان ، وأن فيه استعداداً للقدرة على بلوغ مايريده وأن يعلم كل شيء ، أصل من أصول الملاحدة اللادينية ، فلهذ أخذه هذا الملحد وحاول دسه فى أصول المسلمين والتمويه عليهم من هذه المخادعات التى نافق بها فى هذا البحث وغيره ليجعل الروث مفضضا والكنيف مبيضا ، وهيهات ، إنما يخفى هذا على الانعام وأشباهها ممن لا بصيرة له فى دينه . ثم يقال لهذا الملحد : من أين وجدت هذه القاعدة التى ادعيتها هنا فى كون الانسان يعتقد أنه كلما اعتقد النقص والضعف فى المخلوق فقد عظم خالقه وأنه كلما بالغ فى تنقيصه فقد بالغ فى تعظيم الله ، فان هذا لا يوجد أبدا فى كتب المسلمين ممن يعتد بقوله (١) ومعلوم عند أكثر العارفين بدينهم انك ملحد من أعداء الاسلام لا يقبل قولك فيهم ولا فى دينهم ، فان الملحد والكافر لا يقبل قوله فى دين المسلمين ، فلا بد اذن من النقل من كتاب معروف او عن عالم معروف ، وكتبك السابقة كلها تكذب هذا فانها فى محاربة المغالين فى المخلوقات ، فما ذكرته هنا مجرد استهزاء وتهكم لا حاصل له

ثم قال « وصار من العقائد الثابته للخاصة والعامة أن الانسان لا يعدو أن يكون أحد تلك الاشياء التافهة الحقيرة التى لا يرجى منها خير ولا علم ولا قوة»

---

(١) وفى الحديث « المؤمن القوى خير عند الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير »

انتهى . فلينظر المنصف الى هذه المكابرات التى هى أوضح من الشمس ، ويكفيك دليلا على فساد دعواه هنا وتكذيبه فيها أن كتبه السابقة كلها فى موضوع الرد على الذين غلوا فى الانسان حتى ساووه برب العالمين وادعى فى هذه النبذ كلها بأن أكثر المسلمين غلوا فى بعض المخلوقات حتى جعلوهم أربابا وآلهة مع الله وأن هـذا هو السبب فى تأخرهم ، فلما انقلب انقلبت مقالته فادعى هنا أن من العقائد الثابتة عند المسلمين أن الانسان لا يعدو أن يكون أحد تلك الأشياء التافهة الحقيرة الى آخره ، فانظر الى هـذا الانقلاب المنكر والتناقض الفاحش ، وظاهر هذا أنهم يرون جميع الانسان كذلك ، وهذا يشمل الأنبياء والصلحاء وسائر أصناف الانسان ، وقد قدمنا أن المسلمين فى النظر الى الانسان على صراط مستقيم ، فهم يرون أنبياء الله وأولياءه وحملة شريعته المطهرة فى أعلى المراتب التى يمكن أن يبلغها غيرهم ، وكل من هؤلاء له مقام معلوم ، وان كل خير فى هذا العالم انما جاء على أيديهم ، وأنهم فى العلم والقوة وجميع أنواع الخير قد حازوا قصب السبق بخلاف أعدائهم من الزنادقة والملاحدة والكفار فان هؤلاء قد حكم الله عليهم حكما صريحا لا مردّ له بأنهم كالانعام بل هم أضل ، وأنهم لا يعقلون ولا يعلمون ولا يفقهون ، وأنهم رجس وأنهم نجس الى غير ذلك من الأوصاف التى حكم الله عليهم بها ، مع علمه سبحانه بأن معهم علوما صناعية ومادية وتجارية كما قال تعالى ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ لأن غاية هذه المعرفة إنما هى تصور طرق المعيشة فقط ، وهـذا أمر قد استحصل عليه البهائم والحشرات والوحوش وغيرها ، فان أكثرها معه من الدهاء والحيلة والمكر والشجاعة ودقة الفكر ما يعجز عنه كثير من بنى آدم ، ولكن كل ذلك انما هو فى استحصال هذه المعيشة فقط ، فمن جادل عن هؤلاء وعاند فى علمهم ومعرفتهم فلا يجادل علماء المسلمين بل يجادل رب العالمين ويعانده ، فانه هو الذى قال فيهم هذا القول ، ونحن لم نقل أكثر مما قال

القرآن ، بل كثير من الناس رفعهم عن هذه الأوصاف القرآنية بكثير . نعم هذه العــلوم اذا أضيفت الى دين سماوى كانت نعمة أخرى ، وهى بالنية والقصد يكون الانسان مأجوراً عليها وتكون فضائل فى حق من عمل بها على هذا الوجه ، لأنها ليست مذمومة فى نفسها بل مذموم العامـل الذى لوثهـا بالأخـلاق النجسه ووضعها فى غير موضعها ، فكان هو المذموم من أجـل أخلاقه الأخرى لا من أجلها هى بنفسها ، فانها من نعم الله التى أنعم بها على عباده ، ونحن لم نذمها بل نمدحها اذا كانت على وجه مستقيم ، وانمـا نذم من أفسدها ولم يقدرها حق قدرها ولم يضعها فيما خلقت له وشرعت من أجـله ، والله سبحانه ذم أهلها من أجـل أفعالهم لأنه سبحانه علم ما سيكون وعـلم أنه سيظهر زنادقة وضعفاء عقول يغترون بأهلها من أجلها فبين أنهم ليسوا عـلى شىء من العلم والعقل والمعرفة ، فسدّ سبحانه هذا الباب سدا محكما وقطع الشبهة من كل ملحد ومنافق

فصل

قال : « وصاروا اذا سمعوا ذكر المشكلات والأزمات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والنفسية والخلقية والأدبية ، وسمعوا إمكان تغلب الانسان عليها وحله لها ونهوضه بها ، وسمعوا ماينتظر من وثوب الانسان بالعلوم وكل نواحى الحيـاة وقهره للأمراض وللجهل وفتوحاته العلمية المرتقبة التى قد تفضى الى القضاء التام عـلى صنوف الشقاء الإنسانى ، صاروا إذا سمعوا هذا أو سمعوا شيئا منه اشمأزّوا منه ومن قائليه واتهموهم بفساد الاعتقاد والزندقة والالحاد ، إذ يرون أن مثل هذه المزاعم تدل على أنه ـ أى الانسان ـ ترك غير محدود القوى الذهنية ، وأن له أن يشارك الله فى علمه ، وأن يخرج من نطاق الانسانية الضعيفة الواهنة الى رحاب الألوهية التى تتصرف كيف تشاء وتعلم ما تريد ، وهذا عندهم نهاية الكفر والضلال ، ولكنهم لا يشمئزون الا شمئزاز البالغ

ولا يثورون الثورة الجامحة المجتاحة إلا اذا سمعوا أن علم الانسان قد يتوصل الى ما يظنونه غيبا ، فلو أقيمت لهم كل الدلائل على أن الانسان قد يستطيع بآلاته الدقيقة المحكمة وباشعته المختلفة القوية التى هتكت كل حجاب أن يعلم ما فى بطن الانثى أذكر هو أم انثى كما يعلم الامراض الباطنة ويراها رأى العين ويعلمها علم اليقين ، وكما يرى المخلوقات الميكروسكوبية التى كانت وراء المادة ومن الاشياء الغيبية قبل صنع الميكرسكوبات وغيرها من الآلات ، وانه قد يستطيع التوصل الى جعل إخصاب المرأة كما يريد ان شاءه ذكرا وإن شاءه أنثى كما توصل الى هذا فى كثير من النباتات والحيوانات ، بل كما قيل انهم صنعوه فى الانسان نفسه ـ نعم لو أقيمت لهم كل البراهين على أن الانسان قد يستطيع هذا أو إنه قد استطاعه لما آمنوا ، ولو سمعوا من يدعيه ويقوله لكان أقل ما يرمونه به التكفير » . قلت : أكثر ما ذكره فى هذه الجملة كذب ظاهر غرضه من هذا التهكم والاستهزاء والسخرية وأن المسلمين على غاية من الجهالة وضيق العقل وأنهم أناس مغفلون لا بصيرة لهم ولا معرفة ، وحينئذ يقال له : ان كنت تريد بذلك أهل العلم منهم ـ وهذا هو مرادك ـ فليس بصحيح ، فلا يمكنك أن تنقل ما يصدّق هذه الدعوى على هذا الوضع عن واحد منهم أبدا ، وان أردت بذلك العامة فالعامة لايحتج بآرائهم فى مثل هذه المسائل الا من هو أجهل منهم . ولا شك أن أكثر الملاحدة ينكرون ما هو أظهر من هذه الأمور بالحس والعقل والضرورة ويشمئزون منها ، فتوجيه هذا التهكم والسخرية الى المسلمين قحة وخبث لا حاصل تحته . وهذه الدعوى التى ادعاها هنا فيها ضروب من المجازفة والكذب الظاهر ، كدعواه أن فى امكان الانسان أن يقضى على الشقاء فى المستقبل قضاء تاما ، فهذا لا شك فى فساده ، فبأى دليل ساغ له أن يدعى هذه الدعوى ثم يحتج بها ثم يسفه رأى من يخالفه فى ذلك . أيريد أن الناس يصدقونه فى كل مايقوله وأن يقدموه فى كل أمر ، أم ماذا . ياالله العجب ، يدعى هذا الملحد المحال ثم يحتج به ثم

يستهزىء بمن خالفه ، ولا يرضى من الناس أن يعارضوه فى كل ما يقول . وهل يصدق انسان له مسكة من عقل أن الانسان سيقضى على صنوف الشقاء فى هذه الدنيا قضاء تاما ، فان هذا يشمل الموت ويشمل كل حاجات الانسان الضرورية ، بل هذا صريح فى أنه سيبلغ الكمال فى هذه الدنيا ، وهذا هو الذى أشرنا اليه سابقا فى أنه يرمى الى أن الانسان سيبلغ فى هذه الدنيا باستمرار تطور المعارف الى حالة يصل فيها الى الكمال المطلق ، وهذا سخف ظاهر ، فان الله أخبر بأنه خلق الانسان فى كبد وأنهم مردودون الى أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فمحال أن يكون المردود فى أسفل السافلين له حظ من الكمال ، وأخبر تعالى أن هذه الحياة الدنيا متاع وأنها دار غرور وان كل نفس ذائقة الموت ، وأمثال ذلك كثير مما يدل على خـــلاف ما ادعاه ، فالدنيا مطبوعة على الشقاء والبلاء والعناء ، ولو كان فيها كمال لكان أحق الناس بذلك الأنبياء والرسل كما قال تعالى ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان متّ فهم الخالدون ﴾ ، بل ليس فى هذه الدنيا فرح وسرور وخير الا هو من آثار الأديان ، وآثار الأعمال الصالحة كالدعاء ، ولولا ذلك لما عاش على الارض أحد كما جاء فى الحديث الصحيح « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله » لأنه حينئذ ينقطع نور السماء وخيرها عنها ويحل عليها الغضب ويزول منها أثر الرحمة التى هى مرآة كل خير فى هذه الدنيا ، واذا كان ذلك كذلك فمن المعلوم أن الشر يكثر والكفر يزداد ، فكلما ازداد الكفر ازداد الشقاء والبلاء ، لأنه معلوله فلا بد أن يدور مع علته ، فما دام الالحاد يزداد فلا شك أن الشر سيزداد ، وها نحن نرى هذه الدول التى حرصت كل الحرص بزعمها على فرض السلام والطمأنينة ما عملت فى ذلك الا نقيض ما قررته ، لأن ذلك لم يبن على أساس عدل ، وكيف يبنى على اساس عدل وقد أصبح العداء والموالاة والصداقة والشقاق راجعا الى العصبيات القومية والاحزاب المتحالفة ، والدين لا دخل له فى ذلك البتة ، ومن العجب أنهم فروا من التعصبات

الدينية من أجل ان يصلوا الى اتفاق وتفاهم صحيح فوقعوا فيما هو أضيق منها وهو التعصب الجنسى والوطنى ورفضوا المواصلة للدين بتاتا فكيف يحصل السلام وكل أمة تناضل عن نفسها وشخصيتها وجنسيتها لا لدينها مطلقا ولا للعدل ، فدعواه أنهم سيقضون على الشقاء دعوى ساقطة مرذولة ، ويكفيك دليلا على سقوطها أن أعظم الشقاء الموجود الآن انما تدور رحاه فى الأمم الممتازة فى معرفة وسائل الرقى والتقدم الصناعى حين رفضوا الدين ظانين أن الشقاء فى اتباعه فوقعوا فيما فروا منه ، مع أنهم قد حاولوا بهذه المعارف التى بها نالوا الشقاء ادراك القضاء على الشقاء فصاروا أشقى الأمم ، فلو كان ما ادعاه ممكنا لكان أبعد الناس عن الشقاء أعرفهم بهذه الأمور الصناعية التى دعا هذا الرجل الى رفض الدين من أجلها . نعم انه لو كان مع هذه المعارف علوم دينية صحيحة لحصل النفع المطلوب الممكن ، وقد قدمنا ان العلوم الدنيوية لاتذم لذاتها وانما منفعتها الصحيحة اذا اسست على دين صحيح . وبالجملة فالشقاء أثر الكفر ، فلا بد من وجوده عند وجود مؤثره حتما

ومن العجب أن الله سبحانه وتعالى أنزل الشفاء الذى هو أقصى غاية فى القضاء على الشقاء الممكن ازالته وبينه وفصله وسهله ودعا اليه فابى اكثر الناس الا كفورا ونفورا ، قال فى كتابه العزيز ﴿ يابنى آدم إمّا يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فأخبر أن عدم الخوف والحزن منوط بالتقوى والصلاح ، فأبى أكثر الناس إلا الاستهزاء بهذا وتحقيره والادعاء بأن التقوى والصلاح لاتفيد الرقى قال سبحانه وتعالى ﴿ ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ فلقد علق الله سبحانه الحياة الصحيحة الطيبة بالتقوى والعمل الصالح ، كما قال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فبين الله اوضح بيان بأن تقواه والايمان به والقيام بما يحب ويرضى

هو أصل كل فلاح ونجاح ، فأبى اكثر الناس الا ان يعاندوا ويتهموا ذلك ويشكوا فيه ، ولماذا شكوا فيه لانهم لم يفهموا حقيقته ، ولماذا لم يفهموا حقيقته ، لانهم لم يجتهدوا فى ذلك ولم يروا ان فى الدين كفاءة تامة لتقدمهم ونجاحهم . هذا الرجل العنيد المشاكس يقول فى نحو مائة موضع أو أكثر ان السبب كله فى التأخر أن الناس يشكون فى الاسباب الطبيعية المادية ، وأن سبب شكهم فيها هو عدم اعتقاد الكفاءة فيها ، ثم يقول لماذا لم يعتقدوا الكفاءة ، لأنهم يشكون فى قدرتهم واستعدادهم الذاتى ، فاذا كان هذا كلامه فى الأسباب مع أنه لا يمكن أن يجد نصا ولا معقولا صحيحا يؤيد دعواه هذه فنحن نعكسها فى الدين ونقول : من المعلوم الذى لا ريب فيه أن النصوص الصحيحة دلت على أن الفلاح والنجاح والرقى بل وحصول الثراء المالى كل ذلك مربوط بالأعمال الصالحة أعنى أنها سبب لهذه الامور ، لأنها لا توجد الا بها ، بل قد توجد لكن تضر ، ثم انه قد علم بالاستقراء والتجربة أن ذلك قد وقع على أكمل الوجوه ، فاتفق الشرع والعقل والضرورة على ربط هذا السبب بمسببه وأن ذلك سنة من سننه التى لا تحويل لها ولا تبديل . وحينئذ نقول له : ان السبب الوحيد كله لهذا التأخر هو الشك فى كفاءة هذا الدين للاستقلال والنهوض والمجد ، والبرهان على هذا ضعف أخذهم به واستعمالهم له ، اذ من المعلوم أن كل من أحب شيئا واعتمد عليه فانه يحافظ عليه ويرفعه ويجله ويحترمه احتراما كبيرا كمثل هذه المبادىء المعروفة ، فلهذا ضعف أخذهم به ، لضعف اعتقادهم فى كفاءته فى هذه القضية ، والله يعلم من فوق عرشه أنهم لم يعملوا بأسباب الدين ربع ما يعملون بالأسباب الدنيوية ، فانهم حافظوا عليها واحترموها ورفعوا أهلها فوق أهل الاسباب الدينية . فاذا كانت هذه الأسباب الدنيوية قد حبط أكثرها مع هذا الاجتهاد فيها والاحترام لها والحرص عليها والتعلق بها ، فكيف يقال ان الأسباب الدينية لم تنفع جدا مع هذا الاحتقار لها ، فهل عمل بها على وجهها وقدرت حق قدرها وحوفظ عليها

حق المحافظة . ومعلوم أن أبسط دواء لا يحصل مفعوله إلا إذا استعمل على وجهه ، فكيف بأشرف دواء وأجله وأجمله وأعظمه ، ثم لو نظرنا الى سبب عدم احترامها والشك فى كفاءتها لوجدنا ذلك بسبب غلبة الشهوات والشبهات على نفوس كثير من القادة والزعماء ونحوهم ، وقد يكون من اسباب ذلك سقوط أناس كانوا استعملوها على غير وجهها وحينئذ فالملاحدة الذين سقطوا بأسبابهم قد اجاب عنهم هذا الملحد فى الأسباب المادية وقال انهم لم يستعملوها إلا ضعيفة أو غير كاملة ، ولو أعادوا الكرة لوصلوا الى ما يريدون ، وحينئذ نقول : كل سلاح صحيح قد عرف واشتهر وتواتر قوة فعله ثم اختل مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أكثر فانه يجب تقليب النظر فيه والاجتهاد فى ذلك وإعادته مرات ، ولا بد أن يبلغ أثره ، لأنه لا سلاح فوقه ، واذا ما نظرنا الى من استعملها ولم ينجح وجدناه قد أدخل فيها مالا يلائمها من الآراء الغريبة التى لا علاقة لها بها تخلط معها من غيرها ما يفسدها فلهذا لم تنجح ، وكل ذلك سببه شكهم فى أنفسهم بأن فيهم كفاءة بالله ، فالانسان فيه كفاءة بالله فعليه العمل معتمدا على الله ، فيجتهد من الجانبين : يجتهد فى عمله ، ويعتمد على الله . وهذه كفاءة عظيمة جهلها الانسان فى نفسه ، فهو على ضعفه قوى بالله شديد بالله عظيم بالله شجاع بالله ، فهو قوى بالقوة العالية القاهرة الجبارة

أما هذا الرجل فانه جعل فيه كفاءة بذاته ، فسلك أسخف مسلك على وجه الارض ، وكيف يغالط العاقل الحقائق فيعتقد فى نفسه القدرة وهو يرى عجزه الذاتى الذى لا شك فيه ، بخلاف من اعتقد أن فيه الكفاءة بالله تعالى فمتى اجتهد فى اعماله واعتمد على الله فان الله سبحانه يوفقه ويعينه ويسخر له من الأسباب مالا يحسب له الحساب ، وهذا ظاهر مشاهد

أما ما ذكره فى الجنين والاطلاع عليه بالأشعة ونحو ذلك فهذا ـ ان قدر ثبوته ـ فليس من علم الغيب ، لان هذا شىء مشاهد بالعين بواسطة هذه الآلة ، وعلم الغيب هو معرفة ما هو غائب عن الانسان فلا ينظره ببصره ولا يحسه

بشيء من حواسه ولا تظهر له علامات تدل عليه، هذا هو علم الغيب أما الذى يدرك بشيء من الحواس سواء كان ذلك بواسطة آلة أو بغير واسطة أو تظهر له علامات وقرائن تدل عليه فليس هو من علم الغيب ، ولهذا فانه ليس فى امكان هؤلاء معرفة هذه الامور بدون هذه الوسائط ، ومعرفة الشيء الغائب بالوسائط أمر متقدم نوعه قبل هذه العصور كالامارات والعلامات ، بل البينات ماهى الا قرائن تفيد العلم ، بل قد تفيد القطع بالعلم بالشيء الغائب ، وانما توسعت دائرة هذه الاشياء الصناعية فقط أما علم الغيب فهو هو ، فمتى أزيلت هذه الوسائط لم يحصل شيء من ذلك أبدا ، ولو أن رجلا شق بطن أنثى ورأى مافى بطن رحمها بعينه وعلمه لم يكن هذا من علم الغيب لانه زال الحجاب ، وإزالته بهذه الآلة كازالته بأشياء أخرى تمنع حيلولته ، لأنه حينئذ يرى ظاهرا بحاسة البصر ، فلا يظن ظان أن قوله تعالى ﴿ ويعلم مافى الارحام ﴾ وما ذكر فى الحديث من انفراده سبحانه بعلم مافى الأرحام أنه ينفيه ما وجد من هذه الأمور ، بل المراد أنه سبحانه مختص بعلم ما هو غائب فى الأرحام ، وأما ما ظهر فليس داخلا فى ذلك فانه يعلمه ويعلم به خلقه ، فانه ليس شيئا غيبيا ، فانه بوجود ما يزيل هذا الحجاب خرج من الغيب الى الظهور كما لو سقط الى الأرض برحمه فانه يرى مشاهدا كسائر الاشياء البارزة .

والحاصل أن الله هو المختص بعلم الغيب ، والغيب - كما ذكرنا - هو ما لا يرى ولا يحس بشيء من الحواس ولا يعرف بقرائن وأمارات ، وهذا لم يتغير شيء منه ، فالناس فيه الآن وقبل آلاف السنين سواء ، غير أن الصناعات والوسائط تنوعت وكثرت ، وهذه أسباب ، وهى لا تزال من أول الدنيا وهى تتغير وتتقلب وتتجدد وتتحول بحسب ما تقتضيه الحكمة والعدل فى كل زمان ومكان ، وكذلك اطلاعهم على بعض الأشياء الذرية الكامنة فى الجسم بالآلة المذكورة فهو من هذا الباب ، فليس هو من علم الغيب ، وليس هو وراء المادة ، بل هو مادة متصلة عادة كسائر الاشياء التى يكون بعضها تحت بعض أو فوقه

فهو شيء يرى بالحاسة ، والذى يرى بها لا يصح عقلا ولا شرعا أن يدعى فيه أنه من علم الغيب ، سواء كان ذلك الشيء مرئيا بواسطة أو بغير واسطة

أما ما ذكره فى اخصاب المرأة وجعل الولد ان شاء ذكرا وان شاء انثى فهذا لم يصح ، وهو لم يجزم بوقوعه مع أنه شديد التصديق بما يناسب هذه الأمور وان كان محالا فكيف لم يجزم به هنا ثم يحتج به ، وأما غير الانسان كالنبات فليس فى ذلك كبير أمر ، فان الله جعل لهذا أسبابا فى تغيير ذلك ، وكثير من عامة الفلاحين يعرف ذلك فى بعض الاشجار فى صغرها خاصة ، وهذا شيء معروف من قديم ، ولكن ذلك انمـــا يكون فى الصغر ، وأما الحيوانات غير الانسان فهذا ايضا لم يثبت ثبوتا محققا ، ولو ثبت تغيير الاخصاب الذى هو موضع الحمل فان هذا لا يفعل الا باسباب توجب تغيره لا تغير الحمل المخلوق ، وذلك بأسباب مادية ، فانه يوجد أسباب كثيرة تقطع الحمل وتقطع الباه ، ولكن لا يوجد أسباب توجب الحمل فى العقم الطبيعى لأن قطع الحمل والباه من باب الافساد وتغيير الشيء عن وضعه بالنقص ، بخلاف الاول فانه يوجب خلق مادة لم تخلق ، واياك ان تظن أن الحيوانات كالانسان فى هذا الباب ، فان الانسان اختصه الله بامور كثيرة كما اختصه بالنطق ومعرفة الدين ، وورد فى الحديث أنه ينزل اليه الملك فى الرحم ويقول يارب أذكر أم أنثى وشقى أو سعيد الخ ولم يرد ذلك فى البهائم ، ولا يظن أحد أن احدا من المخلوقين يقدر أن يغير الولد فى الرحم بعد خلقه وتكوينه فيجعله ان شاء ذكرا وان شاء أنثى - وكلام هذا الملحد يوهم هذا - فان هذا من المحال سواء كان فى البهائم أو فى الانسان ، غاية مافى ذلك أنه على ما يقال توضع فى الرحم أشياء من المواد التى تغير موضع اخصابه إما بحرارة أو برودة قبل وجود النطفة فيه وقبل تكوين الولد ، وهذا يذكر فى البهائم خاصة دون الانسان ، وأكثر المتكلمين فى هذه الامور أنكروا وجود هذا بتاتا قطعيا ، ومن ادعى وجوده فذكر أنه نادر فقد يوافق قضاء وقدرا فيكون فتنه للذين

فى قلوبهم مرض لا من أجل العمل ، وبكل حال فليس الانسان كالبهائم وليس هذا تحويل صورة الى صورة أخرى أو جنس الى جنس آخر بل هو تغيير لشكل طبيعى بالنقص فقط ، إلا أن الاخصاء مما يقدر عليه الانسان لانه قطع المادة بخلاف ردها فلو وجد خصيا لعجز الناس كلهم عن ايجاد هذه القوة فيه لان هذا من باب الخلق وذاك من باب الافساد والاعـــدام كالقتل ، فهم يقدرون على القتل بالاسباب ، لكن لا يقدرون على إحياء المقتول لا بأسباب ولا بغيرها ، ولا يقدرون على القتل أيضا بغير أسباب ، بل لا يقدرون على تغيير صورة من قبح الى حسن أو من شكل الى شكل آخر أو زيادة عمر أو بالعكس ، فدعوى هذا المعارض أن فى استطاعة الانسان أن يقضى على الشقاء قضاء تاما الى آخره كذب ظاهر معروف بطلانه بالحس والضرورة ، وقد علم أن أبغض شىء الى الانسان هذه المصائب والأمراض المتنوعة والموت ، فهل انقطعت الأمراض والمصائب لديهم ، أو هـل نجح كل من تداوى ودخـل المستشفيات على كثرتها وتنوعها وتوسع معلوماتها ، وهل قدرت أعظم أمـة منهم على كثرتها واتفاقها على انقاذ أكبر شىء وأعزه لديهم من الموت كرئيس أو غيره ، هذا مالا يكون أبدا ، وهذا غاية العجز

ثم ذكر الملحد ما قدمناه فى دعواه أن بعض المسيحيين ذكر أن القول فى ألوهية المسيح وإن كان باطلا فى نفسه إلا أنه مفيد فى نتيجته ، وقد تقـدم الكلام عـــلى ذلك

فصل

قال : « ومن الحسن أن يفهم القارىء أن هذه الفلسفة التى ذكروهـا فى ضعف الانسان فلسفة باطلة يردها النظر كما تردها النصوص الدينية الصحيحة »

فيقال : هذه الفلسفة التى ادعيتها ونسبتها الى المسلمين فى هـذا الـكتاب كذب وبهت اخترعته لنفسك وعلى شهوتك ، فلا أساس له ولا حاجـة الى

الرد عليه ، لانك إنما تردّ على شيء لم يكن ولا أصل له . أما ضعف الانسان الذى يعتقده المسلمون فليس هو الذى تعنيه وتدّعيه ، بل هو الذى فهمه السلف والمفسرون وأتباعهم ومضت عليه النصوص الشرعية ، قال تعالى ﴿ وخلق الانسان ضعيفا ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسّه الشرّ جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين ﴾ فضعف الانسان وفقره أمر ظاهر بالشرع والضرورة والحسّ ، فانه ضعيف من حيث ذاته ، وضعيف من حيث نفسه ، فانه لا يصبر على النعماء بل يطغى ، ولا الضراء بل يجزع ، كما حكى الله تعالى عنه فى الآية المتقدمة . ثم هو ضعيف من حيث اضطراره الى لباس وقوت خاص بعيد التناول ، والى سلاح خارج عن ذاته يدافع به عن نفسه كثيرا من الحيوانات المعتدية ، ومحتاج الى نفَس فى كل لحظة ، والى استفراغ فى كل حين ، وهذا ضعف ظاهر لا يقبل الجدال بلا شك ، وهو الذى يعنيه الناس ، وانما قوّته التى يقرّون بها انما هى بتفكيره وعقله ، ثم عقله وتفكيره ان استعملهما فى طاعة الله تعالى وفيما ينفعه مما ابيح له من سائر المباحات فقد استقوى بذلك ، وان استعملهما فى ضد ذلك لم ينتفع بقوّته نفعا صحيحا مستمرا ، بل لو انتفع به قليلا فلا بد من أن تنهار قوته ويرجع الى الضعف وأن يرد الى أسفل سافلين ، فلا حول للانسان ولا قوّة له الا بالله ، والله لا يكون مع من عصاه وتمرد عليه أبدا ، فان الانسان بالنظر الى مبداه ضعيف ، ولكن الله يعطيه قوة محدودة ، فمنهم من يعرف قدر هذه القوة فيؤدّى حقها فيزداد قوة الى قوته ، ومنهم من يكفر بها فلا بد من ذهاب قوته كما تقدم ، ولهذا قال تعالى عن عبده هود انه قال لقومه ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ فلما أن تولوا مجرمين لم يزدهم الله قوة الى قوتهم ، بل لم ينتفعوا بالقوة التى كانت معهم ، فعوقبوا بقوة أبادت قوتهم عن آخرها ، وكم من قوة عظيمة جبارة بدّدها الله ودمرها لما عصت وكان أهلها من المعتدين

فهذا هو الرأى المعقول فى القوة والضعف ، لا على ما حكاه وزوّره فى مسألة ضعف الانسان على ما تقدم

فصل

ثم قال : « مستدلا بالنظر ، اذ لا ريب من ناحية النظر أن الصانع يعظم كلما عظمت صنعته وعظمت آثار صفاته ويمدح بذلك »

قلت : لا يخفى أنه يريد بالنظر هنا النظر الشرعى على مقتضى تعليله ، وحينئذ يقال له هذه مغالطة ، فإن الحاكمين على الانسان بكون قدرته غير كاملة بل ضعيفة لا يمكن أن تتجاوز حدودها المرسومة لها يقولون : لأن الله أعجزه عن مجاوزة ما وراء هذه الحدود كما أعجزه عن الاستغناء عن القوت والشرب والنفس لعدم صلاحيته لذلك واستحالته عليه لنقصه الذاتى ولانه مخلوق انسانا ولم يكن إلـٰها ، اذ لو كان كامل العلم والقدرة لكان إلـٰها ولم يكن انسانا ، والله سبحانه هو المختص بالقدرة الكاملة والعلم الكامل فلا يمكنهم أن يساووه فى صفاته التى اختص بها ، ولا شك بالبداهه ان هذا تعظيم له ، وأما من ادعى أن قدرة الانسان غير محدودة وأن فى استطاعته أن يصل الى كل شىء ويتحصل على كل شىء وان يتغلب على كل شىء فقد صرح بمساواة خلقه له فى صفة القدرة والعلم ، ولا شك أن من ساوى بينه وبين عباده فى صفة من صفاته ولا سيما القدرة والعلم اللذين هما من أعظم مظاهر الربوبية فقد سبه سبا صريحا وتنقصه تنقصا ظاهرا ونفى انفراده بالخلق والتدبير ، وهذا كفر صريح أعظم من كفر مشركى العرب فانهم معترفون بانفراده بالخلق والتدبير ، قال تعالى ﴿ أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض ، أإله مع الله ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والارض أمَّن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ وقال تعالى مخبرا عن المشركين أنهم يقولون لآلهتهم

وهم يعذبون ﴿ تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين ﴾ ومعلوم أنهم انما سووا بين الله وآلهتهم فى العبادة التى هى الدعاء والتوكل والاعتماد والخوف ، وإلا فهم معترفون بانفراده بالخلق والتدبير والرزق وغير ذلك ، فكيف بمن ساوى بينه وبين خلقه فى خصائص الربوبية كالقدرة والعلم ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، وتعظيم صنعة الله التى ادعيتها يحصل بدون أن نعظم الانسان حتى نجعله عالما بكل شىء قادرا على كل شىء وأن قدرته لا حدود لها ولا قيود ، فليس هذا من تعظيم الله فى شىء بل هو عين التنقيص والسب له ، وليست صنعة الله محصورة فى جنس الانسان ﴿ لخلقُ السموات والارض أكبر من خلق الناس ﴾ . ثم اذا كانت العلة فى تعظيم الانسان هو كونه صنعة الله فليس هذا من خصائص الانسان ، بل الحيوان والنبات والجماد كل ذلك من صنعة الله ، فاذن يجوز تعظيم الحشرات والنبات وغير ذلك كما عبدها المشركون ، فلا يجوز قتل شىء من ذلك ولا تعذيبه لأن تعظيمه واجب ، فان العلة واحدة فى الانسان وغيره ، والا فما الفرق ، ولو ثبت الفرق فما هو المسوّغ الشرعى لهذا دون ذاك . ثم ما هو التعظيم الذى تدعيه وما حدّه ، أتريد به كل تعظيم حتى الدعاء والسجود وغيره ، أم تريد به نوعا خاصا من التعظيم فلا بد من بيانه . ثم اننا ما رأيناك عظمت الانسان بل جعلت الانسان الأول دون طفل اليوم والقرون الأولى كالقردة بل أسوأ حالا منها ، ومع هذا هجمت على المسلمين كلهم وسفهت أحلامهم وطعنت فى آرائهم وجعلت جميع ما قاله فقهاؤهم فى كتبهم ليس له قيمة عقلية ولا علميه ولا دينية ، وان المتدينين على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وان كان تعظيمك الذى تدعيه وتدعو اليه محصورا فى الملاحدة والزنادقة وأمثالهم فقط فهؤلاء لا يحل تعظيمهم ، وليسوا هم جنس الانسان خاصة ، ومن عظمهم واحتقر غيرهم فلا يقال انه عظم الانسان ، فبطلت هذه الدعوى على كل تقدير

ثم قال : « وانه ينقص اذا نقص الشىء الذى يفعله ويوجده ويذم بذلك »

فيقال : هذا مردود ، فاننا اذا نقصنا الشيء الناقص الذى أمر الله بتنقيصه فنحن بهذا التنقيص نقول الصدق والحق فنثنى على من خلقه على هذا الوضع فنكون معظمين له لاننا امتثلنا أمره ، وكونه فَعَلَه بمعنى أوجده وابدعه لا ينافى ذلك لانه أوجد كثيرا من الاشياء الناقصة ، ولأنه أوجده لشيء مطلوب منه كالانسان فى العبادة فلم يوجد ما طلب منه من العبادة فكان ناقصا بتنقيصه لنفسه ، وقد سبق قوله « انه من الممكن للانسان أن يصير الى النقص والدمار لان ذلك فى يده » . ثم ان وصف الانسان بما يستحقه ليس تنقيصا له ، بل وضع له فى موضعه الذى يستحقه ، ومعلوم أنه لا يستحق الكمال المطلق ، ولا يستحق أن يكون عالما بكل شيء وليس شيء فوق قدرته ، بل نقصه نقص مشاهد محسوس كما سبق ، فوصفنا له بما هو ثابت له متصف به ليس ظلما ولا تنقيصا له عما يستحقه ، واذا ثبت أن ذلك ليس تنقيصا له لم يكن ذلك تنقيصا لخالقه وذماً له على كل تقدير

وأيضا النقص الذى يخص الانسان نوعان : من ناحية علومه ، ومن ناحية ذاته . أما الأول فكما ذكرنا ، فانه من المعلوم بلا ريب أن هذه المعارف والمعلومات انما استفادها استفادة ، فانه لبث جزءاً من عمره لم يعلم شيئا فكانت علومه التى معه كلها إنمـــا استفادها من هذه المعلومات التى اكتسبها بحواسه وانطبعت فى نفسه ، ومعلوم أنها محدودة بحدود بينة ، فاننا لو قدرنا أن عالما كبيرا طال عمره فلا شك أن معلوماته تزيد ، وكلما طال عمره وهو على حالته المستوية فانه يزداد علوما كثيرة فلو عاش ألف سنة أو اكثر لكان علمه أكثر من علمه حين كان ابن ستين سنة ، فهذا يدل على أن المدة التى يعيشها الانسان إنما يكتسب فيها مقدارها من العلم ، وهى محدودة فالمقدار محدود ، فهو ناقص بالنسبة الى ما لو طال عمره ، وهذا يدل أيضا على أنه لا يمكنه الاحاطة بالعلم مهما بلغ ما بلغ من الفهم والذكاء والعقل ، فاذا قلنا انه لا يعلم كل شيء وأن قدرته لا تتناول كل شيء فقد صدقنا ، ولا يكون صدقنا

تنقيصا لخالقه ولا ذما له كما سبق . وأما نقصه من ناحية الصورة الجسمية فله اعتباران أحدهما أن يكون ناقصا عن جنسه كنقص الاكمه والخنثى ونحوه عن غيرهما ، وهذا لا نظنه يريده ، ولو أراده لم يفده شيئا ، لأنه نقص يدل على مظهر القدرة التى هى من أعلى صفات الكمال المقتضية للتعظيم ، والثانى النقص الوضعى كنقص جسم الانسان عن جسم البعير ونحوه ، فهذا ليس بنقص حقيق بالنظر الى كونه مخلوقا فانه بالنظر الى خلق الربوبية له ليس بنقص ، لان الحكمة العليا العالمة بحقيقة هذا المخلوق اقتضت أن يكون بهذا الوضع ، وكل وضع صدر عن حكمة واتقان كامل لا يكون نقصا ، فان النقص الحقيقى فى المخلوق وجوده على خلاف ما ينبغى أن يوجد ، وهذا وجد على مقتضى ما ينبغى أن يوجد ، فانه وجد على أحسن تقويم ، والذى وجد على احسن تقويم ليس بناقص فى وضعه بل الناقص من رد" الى أسفل سافلين ، ومجرد تصور بعض الأفكار له بكونه ناقصا لا عبرة به ، لان الافكار تختلف فلا يعتد بتصور بعضها دون بعض بدون مرجح ، وهكذا سائر الحيوانات فان كل حيوان بالنظر الى خلقته المجملة وتقاطيعه المفصلة المتنوعة والى ما خلق له ليس بناقص فى وضعه ، وانما هو ناقص باعتبار آخر عارض خارجى إضافى وهو نقصه عن غيره فى صورة "ما ، فاذا وصفنا الانسان بالوصف الذى طبع عليه من هذه الجهات المذكورة لم نكن منقصين له فلم يكن وصفنا هذا ذما لخالقه سبحانه وتعالى

فصل

ثم قال : « فعلى حسب الشيء تكون الآثار والافعال ، فالذى يفعل العظيم المحكم البديع الصنعة يكون عظيما ، والذى يصنع الحقير التافه لا يستطيع غيره يكون تافها حقيرا ، وهذه قضية منطقية لا خلاف فيها »

قلت : لكن هى ـ على تقدير صحتها ـ حجة عليك ، لانه اذا كانت عظمة

الآثار والأفعال تدل على عظمة فاعلها ومؤثرها فلا شك أن آثار رحمة الله وخلقه وفعله لهذا الكون العظيم الهائل الذى حارت فى تفاصيله العقول أعظم من آثار الانسان ، فان آثار الانسان بالنسبة الى آثار الله تافهة حقيرة ، بل هى بالنسبة اليها كلا شىء مع أنها داخلة فى آثاره تعالى فانها من آثار آثاره ، وحينئذ يكون تعظيمنا للانسان بقدر أثره وتعظيمنا لله بقدر أثره ، فلا يكون للانسان إلا أحقر التعظيم بالنسبة الى أثره بل يكون تعظيمه بحسب أثره ، ومعلوم اختلاف الانسان فى الأثر هذا الاختلاف المتباعد الاطراف ، وأنت جعلت الانسان بالنسبة الى استعداده وأثره سواء ، فدعواك اذن فيما يأتى أن الانسان عظيم وأنه لا يقال لشىء من الاشياء كائنا ما كان انه فوق قدرته وأنه يعلم كل شىء يناقض هذه القضية مناقضة صريحة فتكون حجة عليك ، فانها توجب عظمة الفرق بين الله تعالى وبين الانسان ، وأن الانسان فى غاية الحقارة بالنسبة الى الله لأن آثاره بالنسبة الى آثار الله كلا شىء . ثم ان هذه القضية إنما غايتها أن الانسان يكون عظيما إذا عظمت صنعته ، وهذا لا نزاع فيه - كما ذكرنا - ولكن عظمته بمقدار اثره من الصنعة ، ومعلوم أن صنعته فى غاية الضعف والصغر بالنسبة الى صنعة فاطر السموات والأرض وما فيهما ، والانسان جنس من خلق لا يحصى عدده الا الله ، فعظمته الضئيلة داخلة ومستوجبة لعظمة الله بقدر ما لها من الأثر ، ولكن لا تستفاد عظمة الله من عظمة الانسان أبدا - وهذا هو مقصوده بهذه القضية - بل عظمته تعالى لا تستفاد من شىء من المخلوقات لا من وجود الانسان وعظمته ولا من غير ذلك ، فانه عظيم قبل أن يخلق الانسان ، وقبل أن يخلق جميع الخلق ، وليس فى العقلاء من يثبت من هذه القضية أو يفهم منها أن الله عظيم اذا عظم الانسان أو اذا عظمت صنعته ، وحقير اذا حقر الانسان وحقرت صنعته - اى صنعة الانسان - أبداً . وهذا هو قصده من القضية ، فهى حجة عليه ، لانه بها ثبتت حقارة الانسان بحقارة صنعته بجانب صنعة الله ، وهو قد عكس النتيجة وجعلها

غير ملائمة لهذه القضية فقال :

« فاذا أثنينا على الانسان الذى هو مخلوق لله فقد أثنينا على خالقه ، واذا ذممناه فقد كدنا نذم خالقه أو فقد ذممناه من حيث لا ندرى ولا نريد » انتهى .

فهذه النتيجة الساقطة كما ترى لا تعلق لها بالقضية أصلا ، ثم هى نتيجة باطلة لم يسبق اليها ولم يتفوه بها أحد قبله لظهور هجنتها وقباحتها ، فبأى وجه يكون الثناء على الانسان ثناء على خالقه ، هل من كونه مخلوقا له أم من حيث كونه انسانا . فان عنى الأول الذى هو ظاهر كلامه لأنه قال « الذى هو مخلوق لله » فيلزم منه الثناء على الحيوانات كلها كالكلاب والحشرات وغيرها لانها مخلوقة لله . وأما الثانى فيلزم منه أن نثنى على الكفار وعلى من سرق وزنى وقطع الطريق كما نثنى على المسلمين بلا فرق فنعاكس الله فى ذمهم والنهى عن تعظيمهم ، لأن العلة هى الانسانية ، والثناء عليها ثناء على الله بزعمه ، وأن لا نذمهم لأن ذمهم ذم لخالقهم كما يقول ، وهذه كلها رعونات لا يخفى سقوطها ، وقد سبق البيان بأننا لا نذم الانسانية بل نمدح من حافظ على انسانيته ولم يفسدها ، والا فمن أفسد انسانيته وتحول الى طور الحيوانية الشريرة فكيف يستحق المدح ، ولو استحقه لم يكن ثم فرق بين المسلم والمجرم والمفسدين فى الارض والمتقين والفجار

فصل

ثم قال : « ولهذا فان الأديان كلها قد دأبت على لفت الانظار والتوجيه الى المخلوقات الكبيرة العظيمة ، كالشمس والقمر والنجوم والسموات والارض ، لما فى ذلك من التعظيم لله ، ومن الابانه عن سلطانه وعظمته ، ومن التدليل على أنه الكبير ، ولهذا أيضا فقد جعل المقرّبين لديه كالملائكة والأنبياء والرسل هم أقرب الموجودات الى الكمال وأعظمها علما وذكاء وقوة . والنظر اذن يرشدنا الى أنه يجب اذا أردنا تعظيم الله أن نعظم مخلوقاته وأن

تعتقد أنها مستعدة للكمال وأنها اذا لم تكمل فهى التى أبت لنفسها هذا الكمال الذى أراده لها خالقها ، اذ الكامل يخلق الكامل ويريده ، والناقص يخلق الناقص ويريده ويعجز عن سواه»

فيقال : أما الاديان فانها لم ترشد الى النظر فى هذه المخلوقات الا للتفكر والاستدلال على قدرة الصانع ، لا على ما تدعيه من أنها مستعدة للكمال ، فان الأديان لم ترشد الى هذا أبدا . ومن تأمل جميع المواضع التى أمر الله فيها بالتفكر فى آياته العلوية والسفلية علم أن المقصود من ذلك الاستدلال على كمال الله وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وتعظيمه وجلاله وتوحيده ، فان الآيات الواردة فى هذا الشأن تأتى كثيرا فى الاحتجاج على المشركين بها وبما فيها من بديع الصنعة وباعترافهم بانها مخلوقة مربوبة ، أى فيجب تعظيم من خلقها وإفراده بالدعاء وجميع أنواع العبادة ، فكما أنه المنفرد بايجادها وتدبيرها فهو المستحق لأن يفرد بالطلب والرغبة والرهبة ، أما كونها مستعدة لكمال أو غير مستعدة فلا تعلق له بذلك أصلا ، وهذه التفاسير بأجمعها شاهدة على ذلك ، وكونه سبحانه جعل المقربين لديه كالملائكة والرسل أقرب الموجودات الى الكمال لا يدل على ما ادعاه ، بل يدل على عكسه ، فان هؤلاء انما نالوا هذه الأقربية والقوة والعلم وغير ذلك بعبادته ودعائه والقيام بأوامره والتقوى وجميع الأعمال الصالحة ، لا بالعلوم التى تدعو اليها حتى يصح لك الاستدلال . ثم انه لعمى قلبه وانطماس بصيرته جعل النظر الى هذه الأشياء دليلا على وجوب تعظيم المخلوق ، ثم لم يكفه هذا الضلال البعيد حتى ركب عليه ضلالا أبعد منه حيث قال « انه يجب اذا أردنا أن نعظم الله أن نعظم مخلوقاته » فعلى هذا اذا أردنا ان نعظم الله بالسجود والدعاء والخضوع فعلينا ان نقصد احدى المخلوقات فنسجد لها وندعوها ونخضع لها كما هو صريح كلامه ، وهذا كفر صريح لم يتجاسر كثير من الكفار على التفوه به ، ثم انه لعمق الهوة التى سقط فيها عمم المخلوقات فلم يخص الانسان ولا السموات والأرض بل اطلق المخلوقات »

وهو صريح فى جواز عبادة غير الله من سائر أصناف المخلوقات ، بل ذلك واجب ، لان تعظيم الله واجب فاذا اردنا ان نعظمه فلنعظم مخلوقاته وان نعتقد أنها مستعدة للكمال ، فتعظيم السنانير والحمير وسائر الحشرات تعظيم لله لانها مخلوقات له ، ولا سيما أننا يجب علينا مع هذا التعظيم أن نعتقد أنها مستعدة للكمال ، ثم أعجب من هذا وأكبر أنه ركب على هذه الضلالة أشنع منها حيث قال « وأن نعتقد أن هذه المخلوقات خلقت مستعدة للكمال ، وأنها اذا لم تكمل فهى التى أبت لنفسها هذا الكمال الذى أراده لها خالقها » فيابلعام زمانه ما أدق فطنتك وأغزر بحرك فى هذه الفلسفة ، هذه المخلوقات كلها مستعدة للكمال ، وانما هى أبت ذلك ، ماكان ينبغى لها أن تعاند هذا العناد وأن تكون بهذه الغفلة والنوم العميق عن هـــذه الفضائل الكامنة فيها ، فالنعجة والأرنب والدجاجة والضب والسمكة كل هذه وغيرها مستعدة للكمال إلا أنها لسوء حظها أبت ذلك الذى اراده لها خالقها ، ينبغى بل يجب أن تتبرع لها وأن تبنى لها المدارس وأن تعلمها وتلقنها حقائقك الأزلية الابدية لايقاظها من نومتها وتنبيهها من غفلتها وارشادها الى ما خلقت له ، فان أغلالك هذه لا تأخذ بها أمة الا نهضت ولا تتركها أمة إلا هوت ، فهى فتح كبير لهذه الحيوانات الغافلة المسكينة . ثم العجب الآخر تعليله أن الكامل يخلق الكامل ويريده ، والناقص يخلق الناقص ويريده ، فالمخلوقات إذن كلها كاملة لأن الله كامل وهى خلقه فيجب ان تكون كاملة ، وحيث ثبت كمالها فيجب أن يكون كل ما صنعوه كاملا لأنهم كاملون ، وهكذا يجب تسلسل الكمال فى الموجودات الحادثة فى المستقبل كما يجب فى الماضى لأن الكامل الاول لا يخلق إلا كاملا وأثره وخلقه كهُوَ فى الكمال وهلم جرا . وإذن فمن أين جـــاء النقص الموجود بالشرع والعقل والضرورة والحس ، والنقص انما يكون فى الشىء القابل للنقص وفيه استعداد له ، فمن أين جاء النقص اذن ، فهل هذا إلا من أرذل الكلام وأفسده ، بل النقص هو ملازم لكل مخلوق لأن أصله من العدم فهو ناقص طبعا ، وانما

يكون فيه من الكمال بالقدر الذى يكتسبه من مصدر الكمال الأول وهو الدين وطاعة الله تعالى ، فان اكتسب شيئا من ذلك بقى معه بقدر ما اكتسبه وإلا انحط الى أصله الطبيعى الناقص المظلم ، والله سبحانه خلق الناقص وخلق الكامل الذى كماله مناسب له ، وجميع النقائص فى الدنيا فانها من آثار المخلوق الناقص لأن اثر الناقص بلا شك ناقص ، ولا بد أن يكون نقصه دون نقص مؤثره ولهذا كان البلاء والشقاء ومصائب الوجود كله إنما تأتى دائما من الالحاد والنفاق فقط ، فلا يوجد فى جميع العصور على طولها وكثرتها أن الطاعة والتقوى كان لهما أثر فى بلاء أو عناء ، وهذا ظاهر لا خفاء به وأكثره لا يحتاج الى اطناب ولكن لقلة من يعرف الحقائق وكثرة الجهل احتجنا الى شرح مثل هذا لأن لكل ساقطة لاقطة ومن يضلل الله فما له من هاد

وقد انتهى استدلاله بطريق النظر فى الرد على القائلين بضعف الانسان بزعمه ثم شرع يرد عليهم بالنصوص ، وينبغى أن تلاحظ أنه انما يرد على شىء اخترعه هو بنفسه لا أصل له ، كما أنه يجب أن تلاحظ أنه لا يعتد بقول فى الآية يخالف رأيه ، بل يفسر الآية طبق هواه مهما كان الأمر ، وغرضه إفساد النصوص والتشكيك فيها ، وهو اذا أراد أن يستدل على شىء من إلحاده بآية من القرآن فانه لا يعسر عليه شىء من ذلك ، بل يتناول ما يراه من آية فيجعلها على طبق ما يريد ، لأنه يوجب على الناس أن يكون معنى الآية هو ما يفسرها به ، ولهذا فانه لا يتقيد أبدا بقول أحد من المفسرين كائنا من كان ، بل صرح فيما يأتى بأنه لا يلزم أن نأخذ بما قال الشيوخ والعلماء فى تفسير الآيات ، وجميع الآيات التى فسرها ليس فيها آية واحدة فسرها على وجهها أو على كلام أحد قبله من المفسرين بل على هواه ، لأن غرضه من ذلك النفاق بكونه يستدل بالقرآن لأجل التشكيك فيه كما سبق

قال « وأما من ناحية النصوص فلنذكر فى هذا المقام ما حكاه الكتاب الكريم عن الانسان الأول اذ قال ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى

الارض خليفة ـ الى قوله ـ وعلم آدم الاسماء كلها ـ الى قوله ـ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ الآية . فأخبر تعالى عن الانسان أنه مستخلفه فى الارض ، ومعلوم أن الخليفة ينوب عمن استخلفه ، ولا يستخلف الحكيم العاقل الاخليفة جديراً بالقيام بالخلافة قياما صحيحا لا يمنعه القيام بها كما يجب جهل ولا عجز ولا هوى . ولو كان الله يعلم أن الانسان مطبوع طبع طبيعة على الجهل الذى لا يمكنه الخلاص منه لما اختاره خليفة له فى أرضه ، فمن كان الله مستخلفه كان ذلك نهاية الشرف ونهاية الـــكرم »

فيقال : ليس فى هذه الآيات الكريمات التى استدل بها هنا على مقصوده ما يفيده البته ، بل ألحد فى هذه الآيات إلحادا بينا من ناحيتين : احداهما أنه أبدل اسم آدم بالانسان ، والله سبحانه وتعالى لم يقل وعلم الانسان الاسماء كلها ، وليس اسم الانسان مرادفا لاسم آدم ، فان هذا اسم خاص وهذا اسم جنس فكيف يضعه بدله ، وانما قصد بهذا المغالطة ليصح له الاستدلال بالآيات التى ذكرها ، وهيهات له ، فانه ليس كل ما أعطيه آدم أعطيه بنوه ، فانه عليه السلام نبي وبنوه مختلفون فمنهم الصالح ومنهم دون ذلك . وينبغى أن يلاحظ تعبيره عن آدم بالانسان الاول هنا ، وسيأتى تصريحه بأن أطفال اليوم أحسن حالا من الانسان الأول هناك عندما يدخل ميدان الالحاد ، وأما الآن فهو فى ميدان المنافقة والخداع . وأما الالحاد الثانى فانه جعل آدم هنا خليفة عن الله تعالى حتى جعله خليفة كما يستخلف الانسان الخليفة فى مكانه يقوم مقامه فى كل شيء ، وقد صرح بهذا حيث قال « ومعلوم ان الخليفة فى العادة ينوب عمن استخلفه » وهذا من أعظم الضلال والكذب على الله تعالى وعلى كتابه ، فليس فى الآية ما يدل على هذا مطلقا ، فان الله سبحانه لم يقل انى جاعلك فى الارض خليفة عنى بل قال جاعل فى الارض خليفة يعنى خليفة عمن قبل آدم كما قال فى

الآية الاخرى ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الارض ﴾ يعنى يخلف بعضكم بعضا ، فانه سبحانه أجل وأعظم وأكبر من أن يجعل فى الأرض خليفة ينوب عنه فى كل شيء فيتصرف فى عباده بالنيابة عنه ، فانه سبحانه شاهد لا يغيب ، وهو الحى القيوم القائم على كل نفس بما كسبت ، قال الامام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى(١) : وأما الرب سبحانه وتعالى فيمتنع أن يفعل أحد مثل فعله ، ويمتنع أن يستخلف أحدا يقوم مقامه فى فعله ، فانه سبحانه وتعالى خالق فعل ذلك الشخص ، وهو سبحانه شاهد لا يغيب . وهذا موضع غلط فيه طائفة من الناس فظنوا أنه سبحانه يستخلف أحدا عن نفسه ، وادعى بعضهم أن آدم خليفة عن الله فى الارض يقوم مقامه وأنه جمع له أسماءه الحسنى ، قالوا وهو معنى تعليمه الأسماء كلها ، وهذا قول أهل الحلول والاتحاد(٢) كابن عربى صاحب الفصوص وأمثاله من أهل الالحاد ، وهذا جهل وكفر ، فان الله تعالى هو الذى يخلق كل شيء ويدبر أمر السماء والأرض ، وهو خالق آدم كما هو خالق سائر المخلوقات ، وهو شاهد لا يغيب ، والمخلوق يستخلف مخلوقا عن نفسه لعجزه أو جهله أو مغيبه ، وأفعال الخليفة عن غيره يفعلها بنفسه لا يحدثها الذى استخلفه ، والله سبحانه على كل شيء قدير ، وهو بكل شيء عليم ، وهو شاهد لا يغيب ، وهو الذى يخلف كل شيء فالعبد يستخلف ربه كما كان النبى ﷺ يقول اذا سافر « اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الاهل . اللهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى أهلنا » فان المقيم عند أهله هو المدبر لأمر بيته فاذا سافر سأل الله أن يخلفه فيهم . وكما سمعوا يوم مات النبى ﷺ قائلا « ان فى الله عزاء من كل هالك ، وعوضا عن كل مصيبة ، وخلفا من كل ما فات . فبالله فثقوا ، واياه فارجوا ، فان المصاب من حرم الثواب .

---

(١) فى الرد على البكرى ص ١٦٤

(٢) وهو قول هذا الملحد بعينه ، بل اعظم كما هو ظاهر

وكذلك العبد يخلف العبد فى أهله كما قال النبى ﷺ « من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا » وقال ﷺ فى قصة ماعز « أو كلما نفرنا فى الغزو خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس (١) يمنح احداهن الكثبة من اللبن ، ان الله امكننى من أحد منهم لأجعلنه نكالا » ومنه قوله تعالى ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الارض ﴾ أى يخلف بعضكم بعضا ، وكما قال تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ وداود جعله الله خليفة عمن كان قبله كما جاءت بذلك الآثار ، ومنه قوله تعالى ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ﴾ وقد قيل ان (من) هنا للبدل أى بدلا منكم كما قالوا فى قوله ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ اى بدلا من الرحمن ، وأنشدوا :

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيات

وقالوا معناه بدلا من ماء زمزم . وفى حديث أبى سعيد الذى رواه مسلم فى صحيحه «ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » انتهى كلام شيخ الاسلام رضى الله عنه . وكذا قال الحافظ ابن كثير وغيره فى تفسير الآية . وقد علمت أن هذا الرجل سلك فى تفسير هذه الآية مسلك ملاحدة الاتحادية الصوفيه الذين كفرهم الشيخ ، بل كلامه أشنع لانه ألحد فيها من ناحيتين أما قول بعض الناس ان المراد به أنه خليفة عنه فى تنفيذ الأحكام الشرعية فهو قول باطل فهو لا يطرد فى ذريته فان فيهم المتسلطين الكفرة والمستبدين الفجرة فلا يجوز أن يكونوا خلفاء الله ، وأيضا فان أريد به الذرية لم يصح لما ذكرنا ، وان أريد به آدم نفسه لم

(١) نبيب التيس صوته عند السفاد

(٢) الكثبة القليل فى اللبن . والكثبة كل قليل جمعته من طعام أو لبن أو غيره

يصح له الاستدلال به لانه إنما استدل به من أجل جنس ذريته ، والذين قالوا انه خليفة فى تنفيذ الحدود اقتصروا على ذلك لم يدعوا كما ادعاه هذا الملحد وأسلافه من ملاحدة الصوفية الاتحادية ، فان هذا تجاوز الرسوم وتعدى الحدود ورفض كل ما قيل فى الآية من كونه خليفة عمن قبله وعن كونه ينفذ الأحكام خاصة ، فطبق الآية على الذرية ثم ادعى أن جنس الانسان مستخلفه الله عنه ثم ادعى أنه لا يستخلف من هو مطبوع على الجهل وقد علم بلا ريب أنه يوجد فى العصور القديمة والحاضرة رؤساء ومستبدون كفرة ومن هو فى غاية الجهل والغباء ، بل هو نفسه ادعى أن أهل العصور القديمة كانوا على غاية الجهل ، بل كانوا لا يستطيعون الكلام ولا يفقهون حديثا كما يأتى تصريحه بذلك فكيف يقول هنا « ان الحكيم العاقل لا يستخلف الا جديرا بالقيام بالخلافة قياما صحيحا » ومعلوم أن هذا لا يوجد الا نادرا فى اهل الدين ، وقد قال فيهم هذا الملحد انهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولا كانوا فيها مخلوقات متألقة ، ثم انه ركب على هذا الالحاد فجورا آخر فى قوله « ولو كان الله يعلم أن الانسان مطبوع طبع طبيعة على الجهل الذى لا يمكن الخلاص منه لما اختاره خليفة » فركب على هذه الظلمات أن المسلمين يقولون إن الانسان مطبوع على الجهل الذى لا يمكن الخلاص منه مع أن سياق الآية فى آدم وليس فى المسلمين من يدعى هذه الدعوى ، بل هو قد صرح فيما يأتى بأن الانسان خلق بطبيعته شريرا خبيثا ظالما جاهلا ، وانما قصد بهذا كله المغالطة ، كما أن كلامه هنا فى آدم مداهنة ومداجاة وخداع سيأتى نقضه صريحا من كلامه مما يدل على أنه لا يعتقد أن هناك بشرا بهذه الصفة المذكورة فى القرآن ، بل جعل القرون الأولى كلها لا يستطيعون الكلام فضلا عن أن يكونوا عالمين بالأسماء كلها .

فصل

قال : « واما قوله ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ فهو تصريح بعلم الانسان كل

شيء ، فقد وكده بقوله «كلها» فان من علم الأسماء علم المسميات وإلا فلا معنى لعلمه ولا فائدة فيه ، والقصد المسميات لا الأسماء ، والأسماء لم توضع الا لمسمياتها ، فمن عرف اسم الشيء ولم يعرف مسماه كان ذلك لغوا ، وكان ذلك العرفان جهلا . على أن من عرف اسم أمر من الامور ولم يعرف ما المراد به لم يسم عارفا بذلك ، فان المعرفة والعلم للأشياء لا للأسماء ، ولو أن انسانا علم لغة من اللغات أسماءها وأفعالها وحروفها ولم يعلم مدلولاتها ولا المراد بكل لفظ منها لما قيل له انه يعلم اللغة ، وعلى كل حال فان من المستحيل على عاقل أن يتعلم الأسماء كلها ثم يبقى جاهلا بمسمياتها ، بل اذا علم هذه علم تلك

فيقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله فى تحريف النصوص وصرفها الى ما يوافق هواه ، وقد أخد فى هذه الآية كالتى قبلها ، فانه أبدل اسم آدم هنا باسم الانسان ليتسنى له غرضه من الاستدلال ، وهيهات ، فان الله لم يقل وعلم الانسان الاسماء كلها بل أخبرنا أنه علم آدم الاسماء كلها ، وقال فى آية اخرى فى الانسان ﴿ انه كان ظلوما جهولا ﴾ فهل يجوز أن يكون هذا هو ذلك ، وقال ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ فهل يصح أن يكون هذا هو ذلك أيضا أو يكون مراد فأله ، واذا كان آدم هو المختص بمعرفة الأسماء كلها وسواء كانت بمسمياتها أو لم تكن لم يلزم أن يكون ذلك فى ذريته فليس كل ما اختص به آدم يكون متسلسلا فى ذريته دائما ، فانه نبى وليست النبوة مستمرة فيهم فى كل زمان ، كما أن سجود الملائكة الذى اختص به لم يلزم أن يكون موجودا فى ذريته ، فقوله « فهو تصريح بعلم الانسان كل شيء » كذب وفجور ظاهر بل كفر صريح ، وكيف يعلم الانسان كل شيء ، هذا لا يسوغ عقلا ولا شرعا ، فليس فى الآية تصريح ولا تلويح لذلك ولا إشادة ، وقد كان مقتضى استشهاده واستدلاله الباطل أن يقول « فهو تصريح بعلم آدم كل شيء » ولكنه أدخل الانسان مغالطة على من ضرب الله قلبه بالطبع والاقفال فكان خطأ مركبا . وأما ما ذكره من تلازم علم المسميات لعلم الأسماء وان الانسان علم

كل شيء وأن آدم أعطى من العلوم ما لا حد له وتطويله وتهويله فى ذلك فكله تملق ونفاق ظاهر ومداجاة مكشوفة ، فانه نقض هذا كله نقضا صريحا فيما يأتى فانه عبر فيما مضى عن آدم بالانسان الأول وقد قال فيما يأتى (ص ٤٧) وهذا لفظه « على أن من الواجب أن نعتقد أن هناك فرقا عظيما من حيث الاستعداد الكامن بين أطفال اليوم والانسان الأول ، لأن أطفال اليوم يحملون تراث الآباء والأجداد كله ، بخلاف الانسان الأول الذى جاء لا يحمل معه سوى ما ورث من منبته ان كان فيه ما يورث . نعم جاء الى الحياة كما يجيء أطفال اليوم من حيث التجرد من كل معرفة ومن كل لباس ، لا يعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة ولا دلالة على الكلام ، ولا زراعة ولا صناعة ولا شيئا مما هو ضرورى لذلك ، فهو لا يعرف أن يبنى بيتا يسكنه ولا يأوى اليه اتقاء ما تأتى به الطبيعة ، ولا أن ينسج ويخيط له ثوبا يلبسه ولا نارا ينضج عليها ما يأكله وتوفر له الدفء والحرارة ، بل لا يعرف وسيلة من وسائل التفاهم » انتهى لفظه بحروفه وسيأتى بقية كلامه فى هذا الشأن من سب القرون الأولى وجعلهم أحط حالا من البهائم ، فكيف يدعى أنه يعلم كل شيء منافقة ويوجب فى الموضع الآخر أن نعتقد أن أطفال اليوم أحسن منه ويرميه بالعظائم والمقادح الانسانية فيجعله لا يعرف لغة ولا كتابة ولا اشارة ولا زراعة ولا صناعة ، بل جعله أجهل من كل جاهل ، وهل هذا إلا عين التلاعب والمراوغة المنكرة .

وهذا الملحد قد تلوثت روحه بكل خبث فى سائر فرق العالم فنفث خلاصة ذلك فى هذه الأغلال الوبيلة ، ومع هذا فوصفها بوصف لا ينطبق إلا على الكتاب المجيد ، فسجل هذا المعتوه هذا العقوق المنكر والسب الظاهر لهذا الاب الكريم والنبى العظيم ، وإبليس مع كونه عدوه لم يتجاسر على هذه القحة فيدعى بمثل هذه الدعوى ، فهذا الملحد لم يقتصر على عقوق أمه الموجودة وهجرها وتكبره عليها ، بل تجاوز الى الأب الأعلى ، وأما ابوه الادنى فهو داخل فى المتدينين الذين هم عنده احط من البهائم كما يأتى لأنه متدين وقد مات وإلا

فلو كان حيا لم يكن بأبعد من أمه فى هذه المعاملة القبيحة ، وخليق بمن اجترأ على ربه الأعلى الذى أوجده من العدم ورباه بالنعم وأنجاه من بلاء كثير قد أحاط به حتى نسب اليه العظائم والسب الذى لم يوجد له نظير ، نعم خليق بمن هذا صنيعه أن يعق آباءه الأولين والآخرين ، وأن يقدح فى الانبياء وأتباعهم ، وأن يتخلق بأخلاق اليهود فى تحريف الكلم عن مواضعه ، والبهت والجشع الشديد على الدنيا ، وبأخلاق الرافضة فى مسبة أولياء الله من السلف الصالح[١]، وبأخلاق المنافقين فى الاستهزاء بأهل الدين ، وبأخلاق الزنادقة فى احتقار الدين وإهانته ، وبأخلاق المشركين فى التعلق على غير الله من الأسباب كالطبيعة وغيرها ، وبأخلاق كل مشرك وكافر ، فكأنه بارتكاب هذه الأخلاق يحاول أن يثبت لنفسه أن استعداداته ومواهبه الكفرية لا حدود لها ولا قيود . نحن لا نقول انه جاهل مغفل لا يدرى عن حالته هذه ، بل الذى نفهمه ونعتقده أنه ملحد ذو غل وحقد على الدين وأهله ، وقد كان معروفا لدى العارفين به أنه أنانى حقود حسود متهالك فى حب الدنيا ، وقد كان كل هذه المدة الطائلة يحاول استحصال شىء من المناصب ، وقد تعب فى ذلك حتى نفد صبره ، فلما خاب أمله ووجد ما يدفعه الى القدح فى الدين أفرغ ما فى صدره من غل وخبث وعداوة منكرة فى هذه الاغلال التى سيخنق بها وتكون غلا ثقيلا فى عنقه ان شاء الله فى الدنيا والآخرة ، والا فما ذا فعل معه حملة الشريعة المطهرة ، لقد تعب أناس كثير فى الكفاح عنه وتجاوزوا عن أغلاط كبرى فعلها (٢) فلماذا انقلب عليهم . ان من الاسباب التى عصفت به الى أن زلت قدمه بعد ثبوتها ـ ان كان لها ثبوت ـ شدة ولوعه بحب الدنيا ، وحب

---

(١) سيأتى قريبا أنه جعلهم لا يبعدون عن طور الحيوانية

(٢) كما فى نبذته (لماذا تأخر المسلمون) فان فيها اغلاطا لا تطاق ، ومع ذلك لم يستحبوا نبشها والبحث معه فيها

آراء الملاحدة الذين يدعون أن أصل الانسان متسلسل عن حيوان آخر اما قرد أو غيره ، وشدة محبته للرآسة والجاه ـ كما ذكرناه ـ فصار لهذا فى موقف متعوّج ، فأراد أن يحافظ على ما استحصل عليه من المادة والمنزلة التى استصغرها فى حقه ، وقد أيس من حصول غيرها ، وأراد أن يكون على آراء هؤلاء الملحدين الماديين فوقع فى هذا التناقض الفاحش ، لان هذه العوامل اضطرته الى هذا الموقف

ومما ينبغى ملاحظته هنا قوله « فهو تصريح بأن الانسان يعلم كل شىء » فقد فهمت أنه صرح تصريحا لا إشكال فيه أن الانسان يعلم كل شىء ، وعرفت أنه استنبط هذه الدعوى العريضة من الآية ، وعرفت أن الآية فى آدم لا فى الانسان ، فهذا هو مستنده فى أن الانسان يعلم كل شىء ، وبهذا وأمثاله يتبين لك أنه يبنى جميع قواعد دعايته على أوهام وشبهات لا حقيقة لها ، ثم يثبت الشىء ويعود اليه بعد هنيهة فينقضه ، وهكذا حاله فى جميع هذه الأغلال فانه فى شك مريب

فصل

ثم قال : « ومن الآيات المسوقة لبيان هذه المكانة قوله تعالى ﴿ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ﴾ والمراد هنا بالتقويم الذى وصف بأنه أحسن تقويم هو تكوين الانسان من حيث خلقته العامة ووضع أعضائه وأجزائه وكل ما فيه وصفا مبدعا يؤدى من حيث الأعمال والوظائف الى الابداع والاحكام ، فالمخ والرأس والقلب واليدان والرجلان والعينان واللسان والآذان وكل ما ظهر وبطن منه وصفات هذه الأشياء كلها قد كونت تكوينا هو الابداع والاحكام ، ولا يمكن ان يقال بصدق وحق أن شيئا من هذه الأشياء قد قوّم أحسن تقويم الا اذا كان يستطيع أن يؤدى وظيفته ويؤدّى

الغرض المنشود منه أحسن تأدية (١) سواء فى ذلك الموجودات الجامدة أو الموجودات الحية النامية ، فالانسان اذن من ناحية الفهم والعقل والشعور والادراك فيه وآلات العمل كلها قد جاءت فى أحسن تقويم وتكوين ، والانسان اذن قد أعد من الناحية الأدبية والعقلية والخلقية ليكون المثل المقصود الأعلى وان كان هذا لا يحصل الا بالتدريج والبطء كما تقتضى نواميس التطور نحو الكمال والاستواء ، ذلك التطور الذى يبدو لنا أنه بطىء مسرف فى البطء وان كان بالنسبة لعمر العالم سريعا مسرفا فى السرعة ، وليس فى الممكن أن يكون الثناء على الانسان بحسن التقويم عائدا على صورته الظاهرة ومنظره الخارجى فقط لأن فى المخلوقات ما هو أجمل وأحسن منه من هذا الوجه ولأن الله قد ذم حسن الصور المجردة من الفضيلة كما فى آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ـ الى قوله ـ قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ ولأن الله قال بعد ذلك ﴿ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات يردون أيضا الى أسفل سافلين لو كان المراد بذلك الصور والمظاهر » انتهى

والجواب أن يقال : جميع كلامه على هذه الآية الكريمة ـ كما ترى ـ تخليط وخبط ومغالطة ظاهرة وكل ما ذكره عليها لا يفيد شيئا لأن النزاع بيننا وبينه ليس هو فى استطاعة الانسان تأدية وظيفته ولا فى حسن أخلاقه الظاهرة والباطنة وتفاصيلها حتى يسهب فى هذه الثرثرة ، انما النزاع بيننا وبينه هنا فى كون الانسان يعلم كل شىء وان فى استطاعته أن يحصل على كل شىء ويتغلب على كل شىء ، والسورة هذه لا تعلق له فيها بشىء من هذه الدعوى ، ولكن

(١) لكن الغرض المنشود منه هو عبادة الله كالدعاء وغيره ، وقد قلت ان ذلك هو المصرف الخبيث ، فاى شىء ينفعك من هذا التقرير

هذا دأبه متى أراد اثبات شيء كائنا ما كان تناول نصا من القرآن فطبقه على هواه وصادم ما يخالف ذلك بكل حال (لانه يرى نفسه انه المقدم فى الأمر) وتحريفه لهذه الآية كتحريف اليهود الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض ، ولانه كتحريف من فصل قوله تعالى ﴿فويل للمصلين﴾ من قوله ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ فهذا المعارض ذكر أول الآية وحذف ما يصدم قصده ويفسد مراده وهو قوله تعالى ﴿ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وأتى بها فى غير محلها ليعمى المعنى ويكتم المراد منها ، والآية الكريمة حجة ظاهرة عليه سواء كان حسنُ التقويم فى معنوية الانسان أو فى صورته الظاهرة أو فى كليهما ، لأن الله سبحانه خص بحسن التقويم الذين بقوا على انسانيتهم فآمنوا وعملوا الصالحات ، وأما من انحرف عن ذلك فان الله صرح بانه رده من حسن التقويم الى أسفل سافلين . ولا شك أن هذا المعارض ممن انحرف عن الايمان والعمل الصالح ، فلا يكون له حظ من حسن التقويم ، بل يكون مردودا الى أسفل سافلين ، ولهذا لما رد وارتد ظهرت عليه آثار هذه الردة فكان يتبع كل سافل وينحدر الى كل سفل ويهرب من كل رفيع جميل ، فكان من شدة ولعه بالذين هم فى أسفل سافلين أن ادعى فيهم أنهم هم الذين صنعوا الحياة ، ومن كراهته للمرتفعين الذين هم فى أحسن تقويم أن ادعى عليهم بأنهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا . وهذا عكس ظاهر لمعنى السورة لأن الله جعل المتحللين من الأديان مردودين الى أسفل سافلين والذين آمنوا وعملوا الصالحات وهؤلاء متدينون بلا خلاف فيكونون هم الذين يؤدون وظيفتهم وغرضهم المنشود منها وهو الايمان والاعمال الصالحة التى أمرهم الله بها وجعلها سببا لكل خير وفلاح ونجاح . ولو أن الله سبحانه قال ﴿لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم﴾ وسكت لقام من هنا ومن هناك من أصناف الملاحدة والمحامين عنهم من يحتجون بها فى الاستعدادات والكمالات ، ولكن الله سبحانه عليم بكل شيء وما كان ربك نسيا ، فأخرج

الملاحدة باستثناء قطعى كما استثنى الكفار فأخرجهم من هذه الصفة الجميلة وأخبر أنهم مردودون الى اسفل سافلين ، ثم استثنى القسم الناجى لكونه صنفا واحدا وحكم على غيره بالسقوط كما تقدم تفصيل هذا فى أول البحث ، وان الكفار وان زعموا أنهم وصلوا الى الكمال والى الغاية التى يريدونها فليس الامر كما ظنوا بل هم مردودون الى أسفل سافلين فى الدنيا والآخرة ، أما الدنيا فبالتنغيص والنكبات وفى الآخرة بالدركات الجهنمية اللائقة بصفاتهم المنحطة المظلمة . وأما قوله « والذين آمنوا وعملوا الصالحات يردون أيضا الى أسفل سافلين » فيقال هذا كذب ظاهر فبأى وجه يردون الى أسفل سافلين ، فليس الموت ولا الهرم ولا فناء الجسم أيضا يكون ردا الى أسفل سافلين ، بل الرد المذكور فى الآية هو السقوط المعنوى أو المعنوى والجسمى معاً لا الجسمى فقط ، فالرد هنا هو السقوط عن المرتبة الانسانية الصحيحة بحيث تفسد الفطرة فلا ينتفع الانسان بفطرته الدينية الفارقة بينه وبين الحيوانات الشريرة المعتدية فان الفطرة اذا لم تغذ بمادة علوم الدين المناسبة لها فسدت أو ذهبت وانعدمت لعدم ملائمتها لأخلاق الالحاد والفسوق والكفر ، فالاستثناء عام فى الانسانية المعنوية والصور والمظاهر ، فالمؤمنون لا يردون الى أسفل سافلين مطلقا ، ولم يفهم أحد من أهل العلم من الآية الصور والمظاهر فقط فلا معنى للمغالطة بهما هنا ، بل الصور والمظاهر تكون غالبا متصلة بالاخلاق الباطنة ، فان الاخلاق تؤثر فى الصور وتتجلى فيها كثيرا وكل إناء بما فيه ينضح ، قال تعالى ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾ الآية

فصل

ثم احتج بقوله تعالى ﴿ وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ثم سلك فيها مسلك أمثالها فى التحريف على مقتضى مايوافق هواه

وهذا أصل كبير يجب التفطن له كما نبهنا عليه سابقا ، وهو أن كل قول فى تفسير أى آية لا يوافق هواه فهو قول باطل مضروب به عرض الحائط ولو أجمعت عليه الأمة ، فانه ادعى فى المبحث العاشر أن الناس على اختلاف مذاهبهم منذ عشرة قرون ضالون فى تقديم السلف على الخلف كما يأتى ، فالتفسير المقبول المعقول عنده هو أن يكون معنى الآية على هواه ولو خالف اللغة وأصول التفسير كلها ، وكذلك الحديث أيضا على ماتقدم بيانه . وأعدنا هذا لانه مما يجب أن يلاحظ وأن يعلم لأنه من أعظم قواعده التى يدور عليها كلامه ، وقد قال فى هذه الآية المذكورة : « وقال تعالى ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ ففى الأرض وفى الانسان آيات للموقنين ، فما هى الآيات التى فى نفس الانسان والتى نعت الله الانسان الى نفسه من أجلها ودل عليها . أعظم الآيات فى النفس الانسانية هى القوى العلمية والادبية والخلقية ، والا لو كان القصد هو البناء المادى المنظور لما كان هناك مايميزه على المخلوقات الأخرى حتى يستحق به أن يلفت اليه خاصة[1] وان ينبه عليه وحده فى هذه الآية وهو مما فى الارض من هذه الناحية فلماذا ذكر تخصيصا بعد التعميم ان لم تكن الاشارة الى ميزاته الجليلة لا الى مايشاركه فيه كل شىء فى الارض من المخلوقات » انتهى

والجواب أن يقال : أولا هذه الآية حجة عليك فان الله ذكر أنها آيات للموقنين ، ولا يختلف المسلمون ان الملاحدة ليسوا من الموقنين المذكورين هنا كما انهم لا يختلفون فى أن المتحللين من الاديان هم الملاحدة ، وحينئذ فلا حجة لك فى الآية فبطل التقرير من أصله . ثانيا كل هذا الاسهاب والتخليط لا محل له ولا وجه للاستدلال به ، فان المسلمين لا ينكرون ميزات الانسان الجليلة ولا ينكرون قواه العلمية والخلقية حتى تتفلسف وتتكلف هذا التكلف

---

(١) استعمل كلمة « يلفت » بدل « ينبه » هنا . وهو غلط لغوى قال تعالى ﴿ أجئتنا لتلفتنا ﴾ . أبو السمح

البارد ، بل انت ومن على شاكلتك من الملاحدة أنكرتم هذا فادعيت صريحا فيما يأتى قريبا أن القرون الأول لايعرفون شيئا أبدا حتى الكلام بل هم أضل من الانعام وأنهم مكثوا عصورا طويلة على هذا . ومعلوم أن هؤلاء من جنس الانسان بل هم انسان ازمنتهم ، فلأى ذنب أخرجتهم من هذه المزايا وانت لم تعرفهم وهم لم يعرفوك أفليس هذا من أشنع العدوان المطلق الذى وصفت به الملاحدة فيما يأتى وقد بينا غير مرة أن النزاع بيننا وبينه فى كونه قادرا على كل شىء ويعلم كل شىء ، وان الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان ، وأن المتدينين على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم ماوهبوا الحياة شيئا جدا ، هذا وأمثاله أعظم مانتنازعه فيه لأن هذا من أعظم أصول الالحاد ، بل ملاحدة هذه الأمم يقررون هذه الأصول ويعلمونها فى مدارسهم ، لكن هم معترفون بأنها تخالف دين الاسلام بل تخالف الشرائع كلها ، يصرحون بأن الأنبياء وأهل الايمان لم يأتوا بشىء كبير ينفع الناس فى هذه الحياة لأن أكثرهم غير محتاج الى النفاق مثل هذا المغرور ولهذا يصرحون بالحقيقة ، ولكن هذا لما كان قد استمسك بخيوط تتصل بأهل الدين فنال بها شيئا من هذه المادة خشى من انقطاعها فاحتاج أن يجمع بين الضب والنون والخبيث والطيب فاحتج تارة بالنصوص الشرعية وتارة بالأصول الالحادية فوقع فى أفحش التناقض وسوء التصرف والخطل الذى لا أشنع منه . وأدنى عاقل يعرف أن هذه الآية التى استدل بها ليس فيها ماينفى ضعف الانسان وأنه ليس عالما بكل شىء وكل ما استنبطه منها لامحل له ، ومعنى الآية على ماذكره المفسرون ودلت عليه قواعد اللغة يرجع الى أن فى تركيب الانسان وما اعطاه الله من الصفات الذاتية والمعنوية آيات للموقنين بصدق الرسول وما جاء به فانها دالة دلالة ظاهرة على قدرة الله وانفراده بالخلق والتدبير وانه المستحق للعبادة والتوجه والقصد والدعاء . وقد تكلم ابن القيم على هذه الآية ونحوها كلاما طويلا ليس هذا موضع نقله لطوله ، ولا شك أن هذا الهيكل

العجيب الموضوع على هذا الاتقان والابداع لابد له من محــدث خالق عالم مريد ، كما أنه يستحيل وجود بيت كامل منظم بدون محدث له وفاعل . فالمحدَث على هذا النسق الدقيق الموزون المحكم لابد له من محدِث بحكم الضرورة والوجدان ، لأن وضعه بهذه الصورة برهان على افتقاره الى موجد منفصل عنه ، ثم هذا الموجد له لابد أن يكون مخالفا له من كل وجه ومن مخالفته له أن يكون غنيا لذاته لأننا علمنا من وجوده الأول ووضعه افتقاره الذاتى الى غيره ، فيجب أن نعلم أن هذا الذى هو مفتقر اليه غنى لذاته كامل لذاته مخالف له فى جميع صفاته لينقطع التسلسل المستحيل بالاتفاق ، ولا يمكن انقطاعه الا بهذا لانه صريح العقل وهو الذى دلت عليه النصوص كما أشرنا الى هـذا سابقا ، ولهذا قال جل من قائل ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ﴾ فبين سبحانه أنه لا يمكن وجودهم من غير شىء فان افتقار الحدث والمحدث الى فاعل ضرورى فى طباع الخلق كلهم حتى الحيوان والحشرات فان البهيمة النائمة أو الغافلة فى موضع من المواضع لو رميت بحجر أو غيره التفتت الى الجهة التى جاء منها الحادث لتعرف حقيقة هذا الحادث وماذا يكون ، لانها تعلم ان هذا الحادث لابد له من محدث ومن العجب أن الملاحدة اذا وقف أحدهم على أثر من الآثار القديمة أو وقف على آلة كبيرة أو مصنع كبير أو بيت كبير فانه لايشك فى أن هذا الشىء لابد له من محدث وأن هذا الاثر لابد له من مؤثر ، فلو غالطه أحد وقال انه لم يصنع هذا أحد وأوجد من دون فاعل عالم مختار مريد لنسب هذا القائل الى ضعف العقل بل الى الجنون ، لانهم اعظم الناس ايمانا بالاسباب فلا يمكن ان يصدقوا بوجود شىء من هذا بدون مسببه الذى تقتضيه عقولهم ، ومع هذا كله تجدهم فيما يجب عليهم من التوحيد والاقرار بالخالق أفسد عقولا من هـذه الحشرات اذ يذهبون الى الالحاد مع مافى ذلك من السخف وفساد العقل ، ثم مع هذا ينسبون أنفسهم الى العلم والعقل والمعرفة ، وبالجملة فكون المحدَث غير مفتقر الى محدِث لاتقبله الفطرة ولا العقل كما سلف ، واذا كان المحدَث لابد له من محدِث فاما أن يكون هو بنفسه وهذا مستحيل كما سبق ، فان كون الشىء يوجد

نفسه بنفسه غير معقول وافتقاره الى غيره ينفي وجوده بنفسه فتعين الثالث في الآية وهو أنهم وجدوا بموجد كامل عالم مختار قادر منفصل عنهم، وهو المطلوب. فالآية حجة عليه لا له لأنه ملحد، والآية من أبلغ الحجج على الملاحدة، ولهذا فانه أخذ يراوغ عن معناها الحقيقي ويعدل الى غيره ليفسد معناها لانها سلاح مشهور في وجهه

فصل

ثم احتج بقوله تعالى ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان ﴾ وهذا الاستدلال من جنس ما قبله في السقوط، فليس في ظاهر الآية أن الانسان يعلم كل شيء وأنه لا شيء فوق قدرته إنما فيها أن الله خلق الانسان وعلمه البيان، وليس البيان هو علم كل شيء ولا يفهم أحد هذا من الآية أبدا الا أن يكون ملحدا منافقا عقله كعقل هذا المغرور، والبيان المذكور في الآية المراد به النطق والبيان عما في الضمير فان الله تعالى خص الانسان بالكلام من بين سائر الحيوان والآية سيقت لبيان امتنان الله على خلقه وتذكيرهم بنعمه عليهم، ومعظم السورة في هذا الصدد في تذكير الجن والانس بنعم الله تعالى وآلائه، ولهذا تكرر فيها قوله تعالى ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فأى نعمة من النعم تكذبون بها. وهذا الرجل لما كان معتقدا اعتقادا غريبا سلك فيها مسلكا غريبا أجنبيا عن معناها، فاستدل بها على أن الانسان يعلم كل شيء فأى دليل فيها على هذا، بل هي حجة قاصمة ظهره فان فيها أن الله علم الانسان البيان، وهو قد ادعى فيما يأتي قريبا أن الانسان الأول بل القرون الأولى المتقدمة جدا لا يستطيعون النطق بالكلام بل ولا الاشارة، والآية دلت دلالة صريحة على أن الله علم الانسان البيان، ومعلوم أن الانسان الأول والأجيال القديمة كلها من نوع الانسان بل هي انسان أوقاتها. فما الذى أخرجها من البيان الذى امتن الله به على عباده وكيف ساغ له أن يخرج أولئك منها، ثم يريد أن

يطبقها على غيرهم بدون حجة ، ولو كان له عقل لتركها كما ترك غيرها لانها حجة عليه ، كما أن كل آية يحتج بها فانها حجة عليه ، لانه مبطل والقرآن كله فى دحض حجج المبطلين

فصل

قال : ومن الأحاديث التى يحسن إيرادها هنا حديث صحيح مشهور قدسى هو قوله ﷺ حكاية لما قال الله (ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها) ، ومن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله - وهذا بلا ريب على غير ظاهره - فلا بد أن يكون بصره نافذا وسمعه واعيا وعمله موفقا قويا ، ولا بد أن يكون له من القوى والاعمال ما لم يعهد الناس وما لم يعرف الناس ، ولابد أن لايكون هناك حدود تحده ولا قيود تقيده اذا شاء أن يفكر وأن يعلم وأن يعمل وأن يرى ويسمع ، ولا بد أن يكون مستطيعا أن يصنع مايشبه أن يكون خارجا عن الطاقة البشرية المعروفة وما يكاد يضاف الى قسم المعجزات ، ولا بد أن تبقى مواهبه العاقلة متجددة متوثبة لايمنعها مانع ولا يهرب منها هارب ، ولا يقال لشىء من الاشياء كائنا ما كان أن هذا فوقها أو انه بعيد عن متناولها أو أنه ليس مما يدين لها »

والجواب أن يقال : الحمد لله حصل المطلوب يانابغة زمانه يامجهول القدر يا الدر الذى فى لجج البحر . هل الذى ادعيته وعلقته على هذا كله فى جنس الانسان أو فيمن يكون الله سمعه وبصره ويده ورجله كما هو صريح الحديث ، وحينئذ فهو سبحانه خص بهذه الفضيلة أولياءه الذين صرح بوصفهم باقامة الفرائض وتكميلها بالنوافل بالتقرب اليه ، وهؤلاء هم المتقون الابرار الورعون وأكبر عيب عندك هو التقوى والورع والدعاء ، فانك صرحت فيما مضى بأن الاخلاق الدينية المحض لها نتائج أخرى غير نتائج المجد ، وادعيت أيضا بأن

التسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى اديانهم ومبادئهم هو العدل ، فكيف هنا تدعى أن هؤلاء الأبرار الاتقياء القائمين بالفرائض والمتقربين الى الله بالنوافل هم الذين يصلون الى هـــذه المنزلة . ثم تنقلب فى نفس البحث فتستدل بذلك على جنس الانسان ، والحديث قد فرق بين ولى الله وعدوه وأنت جعلتهما سواء فعاكست الحديث أشد المعاكسة فحذفت أول الحديث الذى يبين المراد ويفضحك وهو قوله ﷺ فى حديث ابى هريرة « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الىّ عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لاعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره إساءته ولا بد له منه » أخرجه البخارى . فهذا الحديث من أوله الى آخره صريح فى أن هذه الفضيلة مهما كانت مما عظم إنما يختص بها المؤمن التقى دون الملحد والكافر فانه صرح بأنها تحصل للذى يتقرب الى الله بالفرائض والنوافل ويزداد من ذلك ، وكلما ازداد من هذه الاخلاق الدينية ازداد فى الفضيلة ، عكس ما قرره هذا المغرور سابقا ، فجميع ما قرره هنا كما أنه يناقض روح كتابه مناقضة صريحة فهو لو صح إنما يكون للمؤمن خاصة وأما الملحد والمنافق والكافر فهذا الحديث نفسه قد صرح بأنه لا ينال من هذه الفضائل الا الخيبة والرجوع والدمار ضد ما يحصل للمؤمن ، فان الحديث نص على ذلك ، قال أول الحديث من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، ومعلوم أن من آذنه الله بالمحاربة فقد خاب وخسر وأحاط به البلاء من كل جانب ، ولا والله لا نعلم أحدا فى هذا الوقت أعظم عداء وخبثا ومقتا للمؤمنين وأهل الدين من هذا الملحد ، وكفى بهذا الكتاب شاهدا عليه لانه هو غاية ما قدر عليه فى عدائهم ، ولو قدر على

شيء غيره لأهلك الحرث والنسل ، وإنما اقتداره كاقتدار تلك الحشرة (١) الخبيثة التي أعانت على نفخ نار ابراهيم لأن ذلك هو غاية ما قدرت عليه . والعجب أن هذا الملحد المغرور عكس مدلول هذا الحديث عكسا صريحا فجعل ما خص الله به من تقرب اليه بعبادته وحافظ عليها لجنس الانسان ، ثم استدرج حتى جعله للملاحدة الذين حاربوا الله ورسوله ورفضوا الفرائض وغيرها من النوافل ، وجعل من تقرب الى الله بالنوافل والفرائض لم يحصل له الا التأخر والضعف ، فجعل التقرب الى الله بالدعاء والعبادة ملهاة ومصرفا خبيثا ومفسدة وتعويقا ، وادعى صريحا أن المساجد أدت شر ما يؤدى ، وهذا هو غاية المحاربة لله ودينه ورسله وعباده المؤمنين ، فان هذا الحرب الذى فعله هو أقصى ما يقدر عليه كما تقدم « وكل اغتباب جهد من لا له جهد » . ومما يجب ملاحظته هنا قوله « ولا بد أن تبقى مواهبه العاقلة متوثبة متجددة لا يمنعها مانع ولا يهرب منها هارب ، ولا يقال لشيء من الاشياء كائنا ما كان ان هذا فوقها أو انه بعيد عن متناولها أو انه ليس مما يدين لها » ينبغي ملاحظة هذا مع ما تقدم أول البحث فى معارضته للدجوى هناك وإلزامه الدجوى بأنه يدعى أن الانسان على كل شيء قدير ، وليوازن بين هذه العبارات ليعلم أن هذا الملحد يرى نفسه أنه ليس بين أناس عقلاء يعرفون ويفهمون ، وانما يتصور الناس على ما يقدّره هو ويقيسه بعقله ، وهذا الذى قاله أبلغ من دعوى أن الانسان على كل شيء قدير ، فانه صرح بانه « لا يقال لشيء من الاشياء كائنا ما كان هذا فوق قدرة الانسان ومواهبه أو أنه بعيد عن متناولها أو انه ليس مما يدين لها » اللهم إنا نسئلك العفو والعافية . ثم انه بنى هذه الدعوى على الاستدلال بالحديث واعترف أنه على غير ظاهره ، والحديث كما ترى أيضا دل على أن

---

(١) هى الوزغة فانها كانت تنفخ النار على ابراهيم عليه السلام كما فى الحديث الصحيح

تلك الفضيلة للمتقين وهذا حملها على جنس الانسان ، مصائب فى مصائب فى مصائب ، وكل هذه المجازفات الجنونية ليس فيها شىء من الدعايات الصحيحة المستقيمة التى يجب النظر اليها بل هو جنون ووقاحة لا طائل تحتها ، ولو فسرت القدرة على كل شىء لم يكن لاحد أن يفسرها بأكثر من هذا ، أى لو أن قائلا قال ما معنى كون الله على كل شىء قدير ، لم يفسرها أحد بأكثر من هذا الذى ادعاه الملحد فى قدرة الانسان ، ونحن نعلم أن مراده بذلك هو الدعوة الى رفض الدين ، لانه تصور بعقله الكاسد أنه اذا قرر أن الانسان قادر على كل شىء وعالم بكل شىء فلا حاجة الى رب يعبده ويستمد منه المعونة والتوفيق والسداد لأن هذا كامن فيه وفى طبعه فليطلبه من طبعه ومواهبه واستعداداته ، لا يطلبه من شىء خارج عنه ، وهـذا الملحد لما كان سابقا فى غاية الحاجة والفقر والذل وصنف تلك الكتب مزدلفا بها الى أهل الدين ما كان يتجاسر أن يتفوه بهذا القول بل كان يصرح بضده ، قال فى اول نبذة البروق :

يا طالب الميت ما قد ظلت تطلبه وسائل الميت وقع الأمر ترهبه
لو كان ذا قدرة ما كان مرتهنا فى الترب للدود يبليه ويركبه

نعم لو كان ذا قدرة لم يمت ولم يمرض ولم يمت حبيبه وفلذة كبده ولم يعجز أن يدفع عن نفسه الذباب وأشباه الذباب ، فكيف يقال لمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، انه لا يقال لشىء من الاشياء انه فوق قدرته ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، وانه لمن أسفه السفه وأجن الجنون

فصل

قال « فالانسان اذن يجب أن يكون فاهما هذا الوجود مدركا كل ما فيه ادراكا وفهما تامين صحيحين ، واذا كان كذلك فلا حدود ولا قيود ، ولكن يجب أن يعلم أن هذا الادراك والفهم هما من حيث الجملة لا من حيث الافراد فان معارف كل فرد محدودة مقدرة ومعارف الفرد دون معارف الجماعة

ومعارف الجميع »

فيقال : أولا قولك « ان الانسان يجب أن يكون فاهما هذا الوجود مدركا كل ما فيه » فهذا غير مسلم ، بل ممنوع باطل ، بل هو تكليف مالا يطاق ، وكيف يفرض على الانسان أن يفهم هـذا الوجود ويدرك كل ما فيـه ادراكا وفهما تامين صحيحين ، كل هذا مجازفة وهذيان بارد ، فمن هو الذى يقدر على ذلك ، ان هذا الوصف لا يحيط به الا الله ، فهل أنت يا مغرور تستطيع هـذا الذى ادعيته ، وهل تعرف أحدا استطاعه ، فاذكره لنا حتى نستفيد منه ويستريح العالم من هذه التخرصات وهذا الخطر المحيط ، واذا كنت لم تستطع هذا ولم تعلم أحدا يستطيعه فكيف تجود بهذه الدعاوى وتفرضها على المسلمين بدون عقل ولا حياء كانك تخاطب اغبياء لا يفهمون شيئا ولا يعقلون ، وما اشبه هذا المختال بعجوز حى شوهاء نحيفة قبيحة مخبولة لسنة وهـذا الحى قد وطئهم الزمان واشتدت عليهم الحوادث حتى تبـدد شملهم وضعفت قواهم من التعب والنصب والمكابدة ، فقامت عليهم هـذه الشوهاء فى يوم عصيب فأخذت فى السباب والعتاب والاغراء والضجيج ، فتارة تأمر وحينا تنهى ووقتا تخـبر وطورا ترشد قائلة ما لكم ما تقدمتم ما ارتفعتم ما حاربتم ما كسبتم ، أنتم نيام ، أنتم مغفلون ، أنتم . . . . . أنتم يجب ان تملكوا ، يجب أن تعلموا ، يجب أن تقدروا ، يجب أن تدركوا كل شىء ، يجب أن تقدروا على كل شىء ، الى امثال هذه الثرثرة والهذيان ، هكذا صفة هذا المغرور ، فانه يكلف الناس ويفرض عليهم أشياء بمجرد ما تخطر على باله ، مع استحالتها ومع أنه أجـبن الناس وأقلهم وأعجزهم فى كل شىء ، فبينما نراه يتهدد الرافضة ذلك التهديد الهائل العظيم لم نشعر الا وهو موجه سهمه الى اولئك الجماعات الدينين الذين ذكرهم فجعلهم سبابة المتندم

أما ما ذكره أن هذا الادراك والفهم هما من حيث الجمـلة لا من حيث الافراد الخ فليس هذا بصحيح ، فان معارف الجماعة أو معارف الجميع اذا كانت

كلها هيئة اجتماعية موصوفة من أفراد المعارف المحدودة المقدرة فلا شك أنها محدودة مقدرة ولها حدود وقيود ، لان هذه الافراد المحدودة المقدرة محدودة الطرفين فهى محدودة السلسلة فى الماضى والمستقبل ، ولا شك أن الافراد التى تكون محدودة سلسلتها فى الماضى والمستقبل وهى مقدرة أفرادها ومعارفها أنها ستكون محدودة بلا شك لا سيما وعلومها كلها اكتسابية باقرار الخصم ، فانه ذكر أنها خلقت خبيثة ظالمة شريرة جاهلة وأن ما معها من العلوم فهو مكتسب اكتسابا ، وقد صرح أيضا فيما يأتى قريبا أن أهل العصور القديمة جدا ليس معهم من العلوم شىء البتة ، فكيف يدعى مع هذا أن معارف الجملة التى هذه أفرادها لا حدود لها ولا قيود فان هذا باطل يفهمه كل عاقل . وقد بينا غير مرة أننا لا ننكر معارف الانسان ، وليس النزاع فى اثبات معارف الانسان ، فهذا لا نزاع فيه ، فلا جدال فى تقدمها فى الصناعات ونحوها ولا فى امكان رقيها الى حد بعيد وتطورها فى ذلك ، ولكن علم الوجود أوسع من ذلك كله ، ولو أنه اقتصر على هذا لم ننازعه فيه لكن لم يثلج صدره إلا بدعوى أن الانسان يعلم كل شىء وأنه لا شىء فوق قدرته وأمثال هذا الهذيان

إذا فهمت هذا فليس لنا حاجة فى تتبع هذيانه فى المغالاة فى معارف الانسان وإلى أنه سيبلغ الى الكمال والرشد ونحو ذلك ولكن يجب أن تفهم أن كل هذه المحاولة تدور على ما ذكرنا لك من توجيه النظر اليه دون الله تعالى ، فان الانسان اذا عرف أن فيه كفاءة ذاتية توصله الى كل ما يريد كائنا ما كان استكبر وأعرض عن الله وعن طلب اعانته ، ولهذا بنى عليه انكار منفعة الدعاء ، وغرضه أيضا التشنيع على المسلمين بأنهم ينكرون معارف الانسان وتطوره وأمثال ذلك على ما سبق بيانه

فصل

ثم شرع يعظم الانسان بزعمه ، ولكنه لشدة ما اعتراه من الغلو والحرص

والذهول انقلب دماغه فسبه غاية السب ، وانما مدح شرذمة قليلة من ملاحدة العصر فقال: « هل الانسان غير عظيم ، أو هل الانسان يساء به الظن[١] ويساء باستعداده الذاتى . إن هذا السؤال لا يمكن ولا يصح أن يجاب عنه بالألفاظ ، وانما يجب أن يكون جوابه بالواقع والحقائق المشاهدة الملموسة[٢] ان للانسان حدين من حيث وجوده ، حد هو وجوده الاول يوم أن رأى ورأته هذه الأرض ، وحد هو تاريخه الموجود الآن الحاضر المشهود أمامنا ، وما بين هذين الحدين والطرفين هو جملة تاريخه وأعماله الواقعية التى يمكن أن تكون له ، ويمكن أن تكون عليه ، ويمكن أن تدل على أنه غير عظيم أو أن تدل على أنه عظيم . لا محالة ان نتصور الانسان فى بداية وجوده عاريا من كل معرفة كما كان عاريا من كل لباس ، وعلمنا أن هذا التصور صحيح لا يحتاج الى عناء ولا بحث طويل[٣] فاننا لا نزال نشاهد الانسان بعد بلوغه هذه الغاية العظيمة من المعارف والعلوم يأتى الى هذه الدنيا حينما يأتى عاريا من جميع المعارف ، جاء الى هذه الحياة الدنيا ولا مجال للجدال فى كيف جاء ، كما يجىء أطفال اليوم على أحسن تقدير ، على أن من الواجب أن نعتقد أن هناك فرقا عظيما من حيث الاستعداد الكامن بين أطفال اليوم والانسان الأول لأن أطفال اليوم يحملون تراث الآباء والاجداد كله بخلاف الانسان الأول[٤] الذى جاء لا

---

(١) انت أسأت به الظن حيث جعلت عصورا طويله كلهم لم يفهموا شيئا ولا يعرفون الكلام ، فهل وراء اساءة الظن شىء أعظم من هذا

(٢) لكن الاجابة تحتاج الى ألفاظ ، بل أنت كتبت هذه الحروف لتؤدى بالالفاظ

(٣) بل هو تصور باطل بلا ريب . فبأى وجه يكون صحيحا ، هل بمجرد الدعوى أو بالبرهان . أما الدعوى فممنوعه والبرهان غير موجود ، بل البرهان قائم على تكذيب هذا كما فى سائر النصوص ومنها ﴿ ينزع عنهما لباسهما ﴾ الآية

(٤) هذا تصريح بأنه لا يعتقد أن الله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه المقدسة فأين من نفخ الله فيه من روحه ممن يحمل تراث الآباء - الذى منه أنواع الخبائث والغل والحسد وغيره - ممن سلم من هذا كله ، فقياسه ساقط كما أنه كفر صريح

يحمل معه سوى ما ورث من منبته إن كان فيه ما يورث . نعم جاء الى الحياة كما يجيء أطفـــال اليوم من حيث التجرد من كل معرفة ومن كل لباس ، لا يعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة دلالة على الكلام ولا زراعة ولا صناعة ولا شيئا مما هو ضرورى ، لذلك فهو لا يعرف أن يبنى بيتا يسكنه ويأوى اليه اتقاء ما تأتيه به الطبيعة ، ولا أن ينسج ويخيط له ثوبا يلبسه ولا نارا ينضج عليها ما يأكله وتوفر له الدّفء والحرارة ، بل لا يعرف وسيلة من وسائل التفاهم ، والتفاهم هو أول الخطوات ، فلا يدرى ما يجول بخاطر من حوله ، بل لا يدرى أن لهم خواطر تجول بالمعانى والأفكار والخطرات ، لا يدرك شيئا مما يحيط به فيفزع من كل ظاهرة كونية ، يرى البرق فيفزع ويسمع الرعد فيطير لبه هلعا وتهب الريح فيقتسمه الخوف والرعب وينزل المطر فلا يعلم كيف يفعل ولا كيف يفهم ويرى جريان الانهار والمياه فيحسبها تجرى بالحيـــاة والارادة مثله ويحسبها قادرة على ايذائه ، بل يرى الظلام فيظنه يتراقص بالاشباح المؤذية الهاجمة وبكل ما يخيف ويذعر ، أما طلوع الشمس وغروبها وكذلك النجوم والكواكب فأعظم ما يملأ جوانحه روعا ، وهكذا كان لا يعلم شيئا ولا يأمن شيئا » انتهى

قلت : فلينظر العاقل المنصف الغيور الى هذه المقادح الشنيعة فى الانسان الاول الذى هو آدم ، فانه نص عليه فى كلامه السابق بأنه الانسان الاول ، وقد أكده هنا بأن المراد به آدم بقوله لا محالة أن نتصور الانسان فى بداية وجوده ، ومعلوم أنه لم يوجد انسان قبل آدم ، ونحن نعلم بلا ريب أنه لا يعتقد ـ على مقتضى كلامه هذا ـ وجود آدم ولا حواء على ما جاء فى النصوص ولا سجود الملائكة ، ولا أن الله خلقه بيده ، بل لا يعتقد ربا ، وانما يخادع بنقل النصوص الدينية وتحريفها على ما يشاء ضرورة ونفاقا ومكرا ليروج كلامه وليبقى على مكانته ، واذا كان يعتقد آدم وأنه علم أسماء كل شيء فكيف يكون الانسان الأول والقرون الأولى التى بعده على هذه الحالة ، أليس هو

أباهم وحواء أمّهم ، فمن أين جاءهم هذا البكم والجهل العظيم ، فمن المحال الايمان بوجود آدم على ما جاء فى النصوص ، واعتقاد أن القرون الاولى لا يستطيعون الكلام ولا الأشارة ولا يفهمون شيئا البتة ، هذا من أمحل المحال ، لا يمكن الايمان بالنصوص السماوية والنظريات الالحادية ابدا

والله ما استويا ولن يتلاقيا حتى تشيب مفارق الغربان

ولم نعلم أحدا من الكافرين والمنافقين قبل هذا الملحد وأشباهه ادّعى أن الانسان الأول عاجز عن الكلام عدة قرون لا يعلم عددها الا الله ، وأنه لا يعرف ولا يفهم شيئا مطلقا وحالته أحط حالا من أدنى الحيوانات . والعجب أنه تصورهم هذا التصور المعكوس ثم أخذ يخبر عنهم كأنه واقف معهم مشاهد لأحوالهم ، بل أخذ يخبر عما يجول فى ضمائرهم ، فهو لم يكتف بالاخبار عنهم إخبار من هو سائر معهم فى الاكل والشرب والمباشرة وغيرها بل تجاوز الى أن أخبر عما يجول فى صدورهم وتوسوس به نفوسهم وضمائرهم بدون استناد الى حجة أو أدنى شبهة . وهذه القحه والفجور والجسارة لا يقدم عليها إلا من انسلخ من العقل والدين والحياء جملة . نسأل الله التوفيق

ثم قال : « والخوف عادة وليد الجهل فان من يجهل الشىء يخافه (١) ، وقد نشأ عن هذا الخوف وعن هذا الجهل أن نمت فيه فكرة العبادة (٢) لهذه الظواهر الكونية ولهذه الاشياء المتحركة المضطربة فان الخوف يحدث التفكير فى دفع ما يخافه وفى اتقائه ، والجاهل الضعيف انما يدفع عن نفسه ويتقى ما يرهب بالملق ، والملق له صور كثيرة احدى هذه الصور البكاء والضراعة كما

(١) هذا غير مسلم ، بل قد يعلم الشىء فيخافه ويجهل الشىء فلا يخافه ولا يعبأ به ، وفى الحديث « من كان بالله أعرف كان له أخوف »

(٢) هذا من أبيات القصيدة المقصودة بالذات

يفعل الأطفال ، والبكاء والضراعة هما أعظم مظاهر العبادة [١] فراح يعبد كل ما يرى ويسمع عبادة ساذجة حقيرة [٢] فكان الانسان اذ ذاك يختص فى شيئين : بالجهل المطلق بكل شيء ، وفى عبادة كل شيء متقلب مضطرب . ونعود فنقول مرة أخرى ان أحسن وأصدق صورة ترسم للانسان فى ذلك العهد هو الطفل من حيث العرى من كل لباس علمى وبدنى . والآن ننتقل نقلة فكرية ونرجع رجوعا سريعا خاطفا من تلك العهود الموغلة فى القدم ولنمر بتاريخ ثلثمائة ألف سنة أو تزيد قليلا أو تنقص قليلا من تاريخ هذا الانسان الطويل البطيء من غير أن نقف على مرحلة من مراحله حتى نقف وقفة طويلة عميقة عند تاريخنا اليوم وعند الانسان فى القرن العشرين ، ولنحاول أن ننسى ما بين هذين التاريخين من تاريخ ، ولنأخذ الفرق بين هذين التاريخين أو هذين العهدين أو هاتين الصورتين ، ولنجعله هو مجموع ما عمله الانسان بفكره او جسمه : إن أول نظرة الى صورتى الانسان فى عهديه وتاريخيه لتملأ العين وتملأ القلب [٣] اعجابا بهذا الانسان الصغير البدن المحدود بالحدود المادية الضيقة ، ماذا نرى الآن فى هذه الحياة التى تموج بأعمال الانسان ، وماذا نرى من القوى المادية والفكرية التى أوجدها هذا المخلوق وجعلها فى خدمته ملكا له حتى استطاع الخروج من تلك الظلمات الأزلية حتى وصل الى هذا العصر ، وكيف استطاع الوصول اليه فى سيره المتعثر ، واستطاع أن يسدد وقع أقدامه المتحركة فى

(١) أقول : ومن صور الملق صنيعك فى هذا الكتاب ، ثم اهداؤه للملك ، ثم مكاتباتك التى تقول فى احداها انى اضرع اليك ، فاذا كانت الضراعة أعظم مظاهر العبودية فقد عبدته باقرارك على نفسك حيث تملقت وتضرعت فتكون من جنس هؤلاء الذين تشنع عليهم لو قدر انهم وجدوا ، ونحن نعلم أن مرادك من هذا تركيز محض العبادة وأنها من أفعال الجهلاء الأولين

(٢) مقتضى هذا أن آدم يعبد الأوثان ، لأن كلامه كله فى الانسان الأول وما بعده من القرون القديمة

(٣) تملأ عينك وقلبك خاصة لانها تناسبه

الظلام بدون أن يكون له هاد الا طبيعته ومرشد إلا حاجته [١] ونور يبصر به السبيل الا أمله وبدون أن يكون له قوة دافعة الا استعداده المولد للطاقة بعد الطاقة بدون عطل وتوقف. لقد بدأ فى ايجاد تاريخه وبناء حضارته بداية توجب الرثاء والاعجاب معاً. فكر فى أنه محتاج الى أن يتفاهم أفراده، وفى أن هناك حاجات مشتركة يود أن يعملها كل فرد، أو على الأصح فهم كل فرد فى نفسه أنه يريد أن يفهم عن غيره وأن يفهم غيره ما فى نفسه وما عنده وما يضطرب فى جوانحه، ولكن ما كان يعرف وسيلة واحدة من وسائل التفاهم، فراح يحاول أن يخاطب وأن يتفاهم بالاصوات التى لا مقاطع ولا معانى لها كالاطفال سواء حينما يلجون فى طلب حاجاتهم بالبكاء والصراخ الذى هو تصويت فقط، فظلت هذه وسيلة تخاطبه وتفاهمه الوحيدة أزمانا يعجز التصور عن تحديدها تحديدا دقيقا [٢]. ثم ترقى درجة بقصد أو بغير قصد بأن ذهب يتخذ لنفسه طريقة للتفاهم والتخاطب أفضل من التصويت المبهم، فذهب يتخاطب بالاشارات والحركات، وهذه طبعا أفضل وأوضح من الوسيلة الاولى لأنها أدنى الى التحديد والافهام، وان الاطفال يتبعون طريقة أسلافهم فى التنقل من وسيلة الى وسيلة أخرى محاولين الافهام والافصاح، فانهم بعد أن يظلوا مدة معينة يتكلمون ويأمرون وينهون ويطلبون بالاصوات المجردة يذهبون بعدها الى الاستعانة بالاشارات والحركات. ومن العجيب أن محاولة الافصاح عن الغرض بالاشارة والحركة والتمثيل البدنى لا تزال ملازمة

(١) هذا تصريح ظاهر منه بان الله لم يهد عباده ولم يخرجهم من الظلمات الى النور بانزال الكتب وارسال الرسل، بل هدتهم الطبيعة وأرشدتهم الحاجة ودلهم الأمل

(٢) ما كان ينبغى لك أن تعترف بالعجز عن تحديدها، فلو حددتها بما تشاء وتشتهى لكان من جنس هذه الثرثرة التى تدعيها هنا، فليست هى فى العقل بأبعد منها كما أن الشرع دل على بطلان الجميع، هذا مع دعواك أن الانسان يعلم كل شىء

الانسان اليوم ، ثم غبر أحقاباً بعد أحقاب يدأب لنفسه ويكدح لها كدحا متواصلا عنيفا ويصنع التجارب تلو التجارب ويخرج النماذج اثر النماذج مستعينا بوسيلتيه الأولين الاشارة والحركة حتى ظفر بما لا يمكن تخيله من العناء والمشقة والزمان بما يصح أن يسمى أول لغة انسانية ذات مقاطع وحروف مفهومة (١) . وهنا يجب أن يقال بحق وصدق : لقد استطاع الانسان أن يخرج بغنم عظيم ، وأن يمضى أشواطا هائلة فى أهدافه وفى طريق هذه الحضارة التى يتمتع الانسان اليوم بها ، اذ قد استطاع بمعرفته أول لغة أن يضع حداً فاصلا بين عهود الطفولة - أو الحيوانية على رأى آخرين - وبين العهود الاخرى (٢) ويجب أن يسمى هذا العهد اول تاريخ الانسانية (٣) وأول نقطة استطاعت الوثوب منها . ولو أن انسانا بقى عاجزا عن الظفر باللغة لبقى عاجزا عن بلوغ كل ما بلغه ولبقى عاجزا عن أن يصنع له تاريخا يفوق تاريخ الحيوان » انتهى كلامه فى الانسان الأول وما بعده الى تاريخ ما يقارب نحو ثلثمائة ألف سنة بزعمه . وقد علمت من هذا أن آدم فى عهد الطفولة

---

(١) هذا تصريح ظاهر فى تكذيب النصوص الواردة فى تعلم آدم الأسماء كلها ومخاطبته تعالى له ومخاطبته للملئكة وحواء فى الجنة ثم دعواته حين أخرج منها ، كما أنه تكذيب لقوله تعالى ﴿خلق الانسان علمه البيان﴾ فان هذه القرون كلها من الانسان ، بل هم انسان زمانهم ، وقال تعالى ﴿وان من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ ومعلوم أن النذير انما يتمكن من ابلاغ الرسالة بالكلام ، وهذه أمم بلا شك

(٢) قد عرفت من هذا ومن تصريحه السابق فى الانسان الاول أن آدم ومن بعده من القرون القديمة كانوا فى عهد الطفولة أو الحيوانية فهم لا يستطيعون الكلام ولا غيره

(٣) هذا تصريح واضح كالشمس فى أن آدم ليس فى عهد تاريخ الانسانية بل هو فى عهد الحيوانية أو الطفولية ، وهو كفر صريح ، فقبح الله من يروج عليه هذا الهذيان

والحيوانية (١) فهو لا يستطيع الكلام ولا غيره بل هو كسائر الحيوان ، وقد بينا فيما سبق أنه لا يعتقد وجود آدم ولا وجود شيء مما جاءت به النصوص في شأنه في القرآن والسنة ، فانه من المستحيل الجمع بين الايمان بهذا الكلام وبين الايمان بما ذكر الله عنه في النصوص الدينية . وهذه الفلسفة الجنونية الباطلة انما وجدها لبعض ملاحدة الدهريين الذين لا يرون النصوص شيئا معتبرا فنقلها وتصرف فيها ، وهي فلسفة باطلة بطلانا ظاهرا ، وانما يغتر بها إما جاهل غبي أحمق لا يعرف من الحقائق الدينية شيئا ، واما زنديق خبيث ملحد يتتبع ما وجد لاخوانه الملاحدة من النظريات المختلفة المختلقة فيصدق بما يجد منها سواء وافق حقا أو باطلا ، وليس كلامنا في مثل هذه الامور مع هذا الملحد في هذه المباحث وغيرها مع من لا يلتفت الى النصوص ولا يصدق بها رأسا ، فان الله سبحانه قد كفانا التكلف في اقناع هذا الضرب حيث قال في كتابه العزيز ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ فهذا الضرب كالميت أو كالجماد الذي لاتفيد فيه جميع وسائل الحياة . انما الكلام مع غير هؤلاء . ومعلوم أن جميع الشرائع الدينية والعقول الصحيحة تشهد ببطلان هذا الكلام من أوله الى آخره ، أما الشرائع السماوية فان الله سبحانه قد نص على أنه خلق آدم من تراب بيديه ثم نفخ فيه من روحه وخاطبه وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته وعلمه أسماء كل شيء وخاطب الملائكة ثم خرج الى الجنة وقال ﴿ ربنا ظلمنا انفسنا ﴾ الآية وتاب الى الله وأناب اليه وقال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فاختلفوا ﴾ وقد صح عن ابن عباس أنه قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، وقصص القرآن كثير جدا في الامم

(١) لأنه جعل أول نقطة استطاعت الانسانية الوثوب منها حين عرفت الكلام ، وما قبل ذلك فهم في عهد الطفولة ، ومعلوم أن آدم وحواء قبل ذلك

المتقدمة وكيف كانت حالهم مع رسلهم ومخاطبتهم لهم وردهم عليهم ، وقال تعالى ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ وهذه أمم ، وهذا أمر معروف من الدين بالضرورة . وأما العقل فنحن اذا تتبعنا تاريخ الانسان الصحيح لم نجد بين الانسان الأول فرقا صحيحا جليا يبرهن على وجود هذا التفاوت ، بل الجثث الموجودة منذ آلاف السنين ليس فيها نقص عن هذه الجثث الموجودة اليوم(١) ، واذا فرض أنه قد وجد فى فرد جثة ونحوها نقص فقد يكون هذا النقص مختصا بهذه الجثة نفسها ولا يلزم أن يكون هذا النقص شاملا لجميع جيلها ، فانه يوجد اليوم بعض أفراد فيهم نقص ذاتى ولم يلزم من هذا أن يكون الجيل كله مشمولا بهذا النقص وقد صح فى النصوص المتواترة أن الانسان الأول أكمل صورة من هذا الانسان وأطول عمرا ، فانه ورد فى الحديث الصحيح ان طول آدم سبعون ذراعا فى السماء ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ هذا ومن بديع عجائب القرآن وبلاغته وحكمة الله تعالى أن بين للانسان فى هذا القرآن كيفية

---

(١) ولا يظن الظان أن علماء النفس الذين قلدهم هذا الملحد متفقون على هذه النظرية بل كثير منهم مخالف لها ، ومن اشهر هؤلاء المدعو الدكتور شلر قال فى نظريته فى الانسان : والرجل الحديث ليس احسن من أسلافه القدامى فى جوهره وهو لاشك دون الرجل الاغريقى فى أحسنه . ان الرجل الحديث من حيث عقليته ومن حيث طباعه واخلاقه لايفترق كثيراً عن جده الذى اتخذ من الصفوان سكينا . انه لايزال فى جبلته كجده ذاك . وقال هلدين « ان دراسة النشوء والترقى بالتأكيد لاتكشف ان هناك ميلا عاما للتقدم فى أى جنس كان ، بل ان ظواهر التراجع فى الخلق اكثر من ظواهر التقدم وأشيع » انتهى . وكلامهم فى هذا كثير ، ونحن قد أغنانا الله بالنصوص ولكن ذكرنا هذا لبيان ان هذا الملحد انما تبع نظرية ساقطة من نظريات كثيرة مختلفة ليس عليها اثارة من علم

وجود آدم وما جرى له وبين مقدار عمر نوح لانه علم ماسيكون بسابق علمه أنه سيخرج فى هذه الامة وغيرها ملاحدة وزنادقة يدعون هذه الدعاوى الباطلة ـ التى ساقها هذا الملحد ـ فسد الله فى وجوههم هذه الأبواب الالحادية وبين بأوضح بيان أن الأمر على خلاف مارأوه وادعوه لكن أبى أكثر الناس الا كفورا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة وان الله لسميع عليم ، فأنزل كتبه وأرسل رسله لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل . ثم انه ينبغى أن يعلم أنه ليس لوجود الكتابة واللغة تاريخ صحيح فى جيل أو عصر معين ، وهذا يدل على أن ذلك من ضرورات حياة الانسان فكانتا موجودتين بوجوده ، أما اللغة فظاهر فى قصة آدم فهذا برهان قاطع على أن اللغة موجودة بوجود آدم ، وأما الكتابة فهى تابعة للغة وآدم نبى وكذلك ابنه شيث ، وقد ورد أنه أعطى صحفاً ، وبكل حال فالصحف موجودة بوجود الأنبياء ولم يثبت أنها موجودة فى غير وجودهم ، فالكتابة أثر من آثار الرسالة والنبوة فهى تابعة للوحى بالاتفاق ولهذا قال تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم ﴾ ففرق بين تعليمه بالقلم وبين خلقه للانسان وتعليمه من العلوم مالم يعلم وفى هذا ايضا بيان انه هو الذى علمه ليس هو الذى علم من نفسه باستعداده ومواهبه كما يقتضيه كلام هذا الملحد ، ويكفيك دليلا عن بطلان قوله انه ساق هذه الدعوى العريضة المصادمة للنصوص غير مستند الى برهان يثبت مادعاه بل ساق هذه الدعوى بمجرد التخرص والقياس الباطل والظن الذى لايغنى من الحق شيئا مع كونه خلاف الظاهر ، فهو أولا مطالب بالبراهين الصريحة الصحيحة المعقولة على صدق ما ادعاه ، ومعلوم انه لايجد هذا بحال ، اذ لوكان عنده شىء من ذلك لأتى به فانه يتمسك دائما بما هو اوهى من خيط العنكبوت فى كل دعوى يدعيها ، وقد علمت ان البراهين دلت على خلافه والبراهين لاتتناقض ، وغاية ماقدر عليه قياس جملة الانسان على فرد الطفولة

وهذا قياس معلوم الفساد والسقوط لما بينهما من الفروق الكثيرة ، ولو صح القياس هنا لقسنا الانسان الاول بهذا الانسان وطفل الانسان الاول بطفل اليوم فان قياس الطفل على الطفل والرجل على الرجل اقرب من قياس الرجل على الطفل فان الطفل الاول حينئذ يحتاج الى قيــاس على شىء آخر وهو لم يذكره فما هى حالة الأطفال الاولين إذن ، فمن المعلوم أنهم ان كانوا كالأطفال فلا بد أن يكونوا رجالا لا يبقون أطفالا على حالة واحدة ، وان لم يكونوا أطفالا فما هى حالتهم ، وان كان أولئك الرجال كانوا أطفالا من أول أعمارهم الى آخرها فهذا مناقض للمعلوم المعقول ، كما أنه مناقض لما يدعيه من التطور ومن الانتقال ، ومخالف لجميع نواميس الحيوانات كلها ، ويجب عليه أيضا أن يطرد هذا القياس فيدعى أن الاولين لا يتناكحون ولا يتوالدون لأن الاطفال الذين لا يبلغون سن الكلام وهو السن الذى قاس عليه كذلك ويطرد عدم وجود الانسان واللحى والشعور بل والمشى لان هذا كله من خصائص الاطفال ولا يقدرون على تناول الغذاء والهداية اليه ، ومعلوم أنه لو ترك أطفال اليوم صغارا فى سن عدم الكلام فى جزيرة ـ وان كان فيها شىء من الأمور المغذية ـ لماتوا ولم يعيشوا ، فالقياس الذى ذكره ساقط جدا ، هذا لو لم تأت النصوص القطعية على خلافه فكيف والنصوص قاطعة بتكذيبه . وبالجملة فان الطفل طبع عــلى هذا منذ وجد الى الآن لم يختلف ، وسبب عجزه عن الكلام ليس هو الجهل بل هو النقص الذاتى لحكمة معرفة نعمة الله عليه ، والجهل أيضا ليس هو علة عدم النطق إلا فى رأى هذا الزنديق ، فالمعتوه والمجنون يتكلمان وقد يوجد أخرس وهو على غاية الذكاء والعقل والحكمة ومع هذا يعجز عن النطق ويدل على ضعف عقل هذا المغرور وخفته أنه بمجرد وجوده هـذا الظن أو الرأى الذى كان قد رآه بعض الملاحدة الدهريين اعتقده واستسلم له ونقله واحتج به على ما فيه من أباطيل لا تعد ولا تحصى ، ومع كونه قد عارضه كثير من الملاحدة وفيه من المناقشات والاضطراب بينهم مالا حد له ، وأعجب من هذا

وأظم أنه ساقه فى مقام تعظيم الانسان حيث قال أول البحث : هـل الانسان عظيم أو هل الانسان يساء به الظن ، ثم ساق هذا الكلام الذى نقلنا ، وأنت ترى كيف احتقره ورماه بالمقادح التى لاتبقى ولا تذر وأساء به الظن إساءة لايعدلها شىء ، ولو أن هؤلاء من قوم الدجوى الذين أخرجوه من الأزهر وعاملوه تلك المعاملة لما فعل معهم هذا الفعل كله وأضاف اليهم هذه المقـادح والبهت والزور بمجرد هواه ، ونبذ ما يخـالف النصوص فى كرامة الانسـان وتفضيله له على كثير من خلقه ، واذن فلا بد من مجاهدة هذا الملحد والدفاع الصارم الصادق عن الانسان الأول وعن أجدادنا الأولين ، قال تعالى ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقنـاهم من الطيبـات ﴾ فأى تكريم لهم على مقتضى كلام هذا الملحد اذا كانوا أحط حالا من الحيوانات العجم كما ذكره وصرح به . نعم انه مدح طائفة خاصة من انســان هـذا العصر وهم الملاحدة فقط لقصد معروف ، أما غيرهم من سائر بنى آدم وبخاصـــة أهل الدين فانهم على مايقول لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولا كانوا فيهـــا مخلوقات متألقة ، وانما صنع الحياة المتحللون من الأديان المنحرفون عنها ، فالملاحدة هم الانسان عنده الذى يريد تعظيمه ، ولهذا فانه ما عظم أحدا غيرهم كما تقدم وكما يأتى

فصل

قال « والنفوس كنوز كما قلنا ، مدفونة كما دفنت جميع الكنوز تحتـاج الى اخراج واستثمار ، والا بقيت فى مدافنها كأنها غير موجودة »

فيقال : يريد بالنفوس هنا الاستعداد والمواهب التى يدعيهـا ، وحينئـذ يقـال وهى كنوز أيضا فى معرفة الدين واستثمار علومه ومعارفه النفيسـة التى لاتنفد ، وهى أيضا كنوز مختلفة فى العـلوم والمعـارف ، وقد ينقلب بعضها كنوزا خبيثة متى طغت على فطرتها السليمة أخـلاق الشر والخبث كنفس هذا

الملحد ، ونحن قد قدمنا غير مرة أن فى فطرة الانسان استعدادا لقبول مايقومها ويقويها ويغذيها حتى تصل من العلوم والمعارف الى حد بعيد جدا ، وان هذه الاستعدادات شاملة للعلوم الدينية والمادية والصناعية وغيرها ، وليس فى علوم الدين حرف واحد يمنع من اطلاق العقل فى المعرفة والتفكير والنظر فى جميع العلوم النافعة أبدا ، وهذا هو نظرنا ، وليس فى المسلمين ممن يعتد بقوله من ينكر هذا ، وانما هو اخترع كذبا من كيسه وادعى أن المسلمين ينكرون معارف الانسان واستعداداته ومواهبه ، وهذا بهت وفجور لم يسبقه اليه أحد

لى حيلة فى من ينم … وليس فى الكذاب حيله

من كان يخلق ما يقول … فحيلتى فيه قليله

ولو أن هذا الملحد أقتصر على كون الانسان مستعدا لمعرفة هذه العلوم الصناعية والمادية ونحوها ولم يتعرض للقدح فى الأديان لم نعارضه بشىء ، فاننا من أعظم الناس تقديرا للانسانية ووضعا لها فى موضعها الطبيعى اللائق بها كل بحسبه ، فلا حاجة الى التطويل والتهويل ورمى المسلمين بالجهالة والبلادة وعدم تقدير الانسانية

فصل

ثم جاء بنادرة عجيبة مدعيا أن الدول أو الأمم اذا ارتفعت فى الرقى والحضارة وسعة الملك فلا يمكن أن تنزل عن مكانتها ، فان ذلك من المستحيل ولو حاول العالم كله ذلك لم يقدروا عليه ، بل لو أرادت ذلك هى بنفسها لم تقدر عليه أيضا فقال وهذا لفظه :

« ومن هذه الأمم التى أصيبت مواهبها وألزمت بالانكماش والكمون الاغريق والرومان والعرب ، ويخشى على احتمال بعيد جدا أن تلحق بهم أمم من أمم هذا العصر الفتية ، غير أن هذا الاحتمال بعيد جدا لان الأمم أو الامة اذا بلغت شأوا معينا من السمو والرفعة فقد يكون من غير الممكن

المحتمل النزول عنه حتى لو أرادت هى بل لو أراد العالم كله لها ذلك ، اذ يكون مثلها فى رفعتها وتبوئها مكانها الرفيع كمثل كوكب أفلت من منطقة جذب الى منطقة جذب أخرى حتى أصبح مستحيلا عليه وعلى العالم كله أن ينزل به عن تلك المنطقة أوأن يزحزحه عنها ، ويجب أن يكون معلوما أن للمعانى مناطق جذب وقوة جذب كما للمادة وكما للكواكب والشموس ، والعزة للأقوى الأغلب فى المعانى وفى المادة معاً » انتهى

فيقال : ماشاء الله يافيلسوف زمانه ماأغزر بحرك فى المهازل والمخازى المضحكة ، فمن هى الأمة التى ارتفعت وبقيت على ارتفاعها ولم تنزل ، فان هذا لم يوجد ، وجميع هذه الدول الكبرى انما تأسست على أنقاض دول قبلها ، وقد عرف ابتداء ملكها وتوسعه قريبا ، ثم هى فى غاية الحرص والحذر والشفقة على الاحتراز بقوتها وسياستها عما يزلزلها من أعدائها ، ولو كانت تعلم أن إنزالها أو ازالتها من المحال كما ادعيت لم تداهن وتعاهد وتنافق وتخادع وتماطل من أجل المحافظة على موقفها ، بل لو علمت ما تدعيه لا ستطالت على غيرها ممن هو مثلها من أعدائها وقضت شأنها منهم ولم تكترث بهم ، لأنه من المستحيل على العالم كله انزالها وازالتها ، ومعلوم أن أشد الناس خوفا واحترازا ومحافظة على السياسة هذه الدول الكبرى لعلمها بخطورة موقفها ـ كما ذكرنا ـ فما ادعاه كلام ساقط وفضول لا يتكلم به الا مخبل العقل ، وقد كان ينبغى له بل يجب عليه أن يبعث بهذا الكلام المعزز بهذا المثل العجيب اليهم ليكونوا فى طمأنينة ووثوق تام وفرح وسرور بهذه البشرى العظيمة التى توجب لهم الثقة واليأس من استيلاء اعدائهم وبقاء ملكهم أبد الآبدين ، فان هذا شيء عجزوا أو غفلوا عنه وظفر هو به بذكائه النادر لعله يفوز بجائزة عظيمة منهم أو يقدموه فى الامر فيقع ما حلم به . وأعجب من هذه الدعوى تشبيهها بالكوكب ، وقد علم أن الكوكب لا يزول عن مكانه بخلاف الدول ، وأعجب من ذلك ما ذكره استطرادا فى قوله ويجب أن يكون معلوما أن للمعانى مناطق

جذب وقوة ، فان هذا لا يطابق ما قبله ، إذ كلامه فى الأمم وهى ليست بمعانى ، ولو قال للامم بدل المعانى لكان هو الأولى ، إلا ان كان يريد أن المعانى كالأمم أيضا فتكون المعانى كالكواكب أيضا ، ولعل هذا من متشابه حقائقه الأزلية الأبدية التى لا يعلم تأويلها إلا هو أو الراسخون فى علمه

فصل

قال « أما معارف الانسان اليوم وشهادتها على عظمته وعلى ضخامة ما ينتظره من الآيات العلمية الانسانية فأمر من الواجب أن يكون فوق كل خلاف وجدال . لقد كادت الطبيعة أن تستسلم بلا قيد ولا شرط لعلم الانسان وعقله ، وكادت أو قد فعلت أن تضع فى يده قيادها يتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب . أى شىء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب . لقد هاجم كل شىء فى معقله وغزاه فى مكمنه بانتصار مبين ساحق ، فلقد هاجم أكبر وأقدم أعداء الانسانية بل وغير الانسانية من الحيوانات والنباتات وهو المرض فقهره ، لقد عرف أسباب هذا العدو القديم الشنيع الذى لازم الانسان منذ وجد بل لازم الحياة وعرف وسائل مقاومتها ، عرف كيف نشأ ومم نشأ ، ثم عرف كيف يحاربه ويقضى عليه »

والجواب ان يقال : كل هذه مجازفات لا قيمة لها ، ولا يخفى بطلانها على أدنى عاقل . فقوله « لقد كادت الطبيعة أن تستسلم ـ الى قوله ـ وكادت أو قد فعلت أن تضع فى يده قيادها يتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب ، فهذا كله كذب ومكابرة مخالف للعقل والحس ، فجميع الأشياء التى قدر الانسان عليها كحبة خردل فى جانب جبل بالنسبة الى مالم يقدر عليه ، هذا الموت أعظم عدو لهؤلاء الملاحدة والماديين وأمثالهم ممن عرفوا كثيرا من هذه الأمور ، ماذا عملوا فى الوقاية منه ، وكم من عالم بهذه الأسباب المادية لم يمت إلا بأسبابه التى علمها وعلم الوقاية منها ، فدعواه أنه يتصرف فى الطبيعة كيف شاء وكيف

أحب دعوى ساقطة من مأفون لا يبالى بعاقبـة ما يقول . وقوله « أى شىء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب » يقال : كل شىء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب ، وكفى بعجزه وقوعه فيما وقع فيه من المشاكل العظيمة التى أوقعته فى هذه الكوارث والنكبات والحروب الطاحنه والمنازعات الدائمـة ، لقد عجز عن أن يدفع عن نفسه التى هى أحب شىء لديه وعن ولده وفلذة كبده هاجم الموت اذا جاءه وهو ينظره ولو لحظة واحدة ، لقد عجز عن أن يستغنى عن حمل الغائط والبول ومسه بيده وتلوثه به يوما واحدا ، وقد عجز عن ايجاد حاسة واحدة من حواسه المفقودة أو عضو من أعضائه أو تغيير صورته الى صورة أخرى أو أن يستقل بالوطن عن عدو يخافه ويداهنه ويصانعه ، لقد عجز عن أن يستغنى لحظة واحدة عن استنشاق الهواء ووجود الغـــذاء فى جسمه ، الى غير ذلك مما لا يعد ولا يحصى ممـا هو محتـــاج اليه من الأشياء الحقيرة التى هو مفتقر اليها بالذات ، ففقر الانسان الذاتى وعجزه الذاتى أمر مشاهد محسوس ملازم له لاينفك عنه ولا يمكنه التخلص منه ولو أعطى من العلوم والمعارف مالا يعد ولا يحصى ، فانه انسان ليس بإله ولو بلغ ما بلغ ، ولو أنه كان لا يعجز عن شىء لم يكن انسانا بل يكون الها كما تقدمت الاشارة اليه فقولك أى شىء عجز عنه هـذا المخـلوق كلام ساقط يكذبه الشرع كما يكذبه العقل والحس والضرورة والوجدان ، فما عرفه بالنسبة الى ما جهله كلا شىء أو كقطرة من بحر . وكذلك دعواه أنه قهر المرض دعوى كاذبة خاطئة ، فان الأمراض المتنوعة لا أكثر منها وجودا فى كل زمان ومكان ، واذا قدر أنه هدى الى معرفة ما يضاد بعضها فهذا لا يقال فيه انه قهر المرض ، فان هذا من باب التطور فى التداوى ، وهو من العلوم القديمة التى تترقى شيئا فشيئا لانهـا مبنية على التجارب المتكررة (١) ، ثم هو يفيد وهو الاغاب فى بعض الصور ،

(١) لنسبة ضعف الانسان وخوفه

وقد لا يفيد مطلقا ، وكم من مرض لم يعرف له دواء الى الآن ، ثم أيضا قد يحل محل المرض مرض آخر ، وبكل حال فهو لم يقدر على قطع الامراض بل ولا أكثرها ، وانما خفف منها من ناحية ، ومن ناحية أخرى عمل أسباباً للهلاك والموت أفظع منها ، كما أنه عمل أسبابا لجلبها وبثها . ولا شك ان النفوس البشرية التى ذهبت ضحايا هذه الحروب المنتهية التى من أسبابها إلقاء القنابل والصواريخ وغيرها أكثر عددا من النفوس التى تذهب بسبب الأمراض التى عرفت مقاومتها . ولا شك أن الامراض وإن بلغت ما بلغت على ما عرف من تأثيرها فى السنين السابقة فهى أقل خطراً على الانسانية من بعض هذه الصناعات الحديثه التى استخرجت وسيلة للسيطرة والتملك والدفاع كالطاقة الذرية فان العالم أصبح بسببها مهددا بالفناء والدمار العام ، بخلاف تلك الامراض ، فانسان هذا العصر لا شك أن الله قد هداه الى معرفة أمور جليلة من وسائل الراحة والهدوء واللذات ، ولكنه قد صنع ما يقابل هذه من وسائل الويلات والخراب ما ينيف على ذلك أو يكافئه ، واذا قيل ان هذه الأمور مما يدل على علمه قلنا وهى مما يدل على ضعفه وشدة حاجته ، فان حاجته وضعفه الشديد دفعه الى الحيلة والحيلة دفعته الى التعلم لمعرفة الوقاية من هذه الشرور والشقاء ، ولو لم يكن محتاجا وضعيفا لما وصل الى هذا . ثم ان هذه الوسائل الفظيعة كلما تقدم الزمان اشتدت وتطورت تبعا لتطور الفساد والبعد عن الدين ، ولهذا كان لا يأتى زمان الا والذى بعده شرّ منه كما ورد فى الحديث الصحيح . ثم كون الانسان عرف حقيقة مرض الوباء وأنه على ما قيل ميكروب يفتك فى جسم الانسان ، فهذا لا يدل على قدرة الانسان بل يدل على ضعفه لأنه حينئذ يكون كظرف لهذا المخلوق الذرى الصغير ، وأنه محتاج غاية الحاجة الى محاربة هذا الجند الجرثومى الضئيل الداخلى ، وانه مضطر الى ذلك غاية الاضطرار وإلا قضى على حياته ، فمن هو بهذه الحالة والوضع كيف يعتمد على نفسه وذاته ولا يدعو ربه الكامل العزيز الجبار ، وكونه

عرف مقاومة هـذا المرض أيضا لا يدل على كمال قدرته فان الله ما أنزل داء الا جعل له دواء فكانت معرفته للوقاية منه كمعرفته للوقاية من كثير من الأمراض الداخلية والخارجية التى كانت مبادئها متقدمة ، فهذا المغرور المعجب بنفسه مضطر الى محاربة هذا الصغير الضئيل وأمثاله وإلا أفسد عليه ذاته ونكد عليه حياته وكدر عليه لذّاته ، فمن هذه حالته كيف يقال فيه « أى شىء عجز عنه » ومن هذه حاله كيف يستنكف ويستكبر عن عبادة ربه العظيم المقدس الكبير المتعال القادر على كل شىء القائم على كل نفس بما كسبت الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء وبيده الخير وهو على كل شىء قدير ، فهـذا هو الذى يستحق أن يعتمد عليه ويتوكل عليه وتستمد المعونة منه ويدعى ويتضرع اليه ، وهو الكريم الجواد الذى لا يخيب من سأله بصدق واخلاص ، وأما اقتدار الانسان على استخراج هذه الصناعات المتنوعة الكثيرة المستخدمة فى قطع المسافات ونحوها ، فهذا لا يصح أن يكون دليلا على أنه يقدر على كل شىء ويعلم كل شىء وأن ناصية الوجود بيده كما يدعى ، فان هذه الأمور انما عرفها الانسان لأنها فى طاقته ليست فوق طاقته ، فانها أمور صناعية وجميع الامور الصناعية فى طاقة الانسانية ، بخلاف الامور الأخرى كاحياء الموتى وخلق الحيـاة فى الحيوان والنبات ونحو ذلك فان الانسان عاجز عن ذلك وسيستمر عجزه أبدا لأن هذا من خصائص الألوهية . ثم ان هـذه المعارف لم تزل فى استطاعة الانسان ومواهبه قديما متركزة فيه منذ وجوده ولكن الله يجددها بحسب حاجة الخلق لها فى الوقت الذى يناسب الحكمة والاتقان وهى كلها مؤلفة من جمادات متنوعة بالقياس على الحيوان وغيره ، وأصوله هذه الأمور قد عرفت من قديم ، وأكثرها مستمد من تعاليـم الديانات كالكتابة وصنع السفن والنسيج وغيره ، ومعلوم أن الذهب والفضة والنحاس وغيرهـا قد عرف استخراجه من قديم الدهر ومعرفة استخراجه

من أرقى المعارف (١) والله سبحانه هو الذى هدى الى معرفة هذا كله واستخراجه فى الأوقات المناسبة لذلك كما هدى لمعرفة كثير من الأمور المعنوية التى اختص بابداعها أهل الدين كالنحو والصرف والعروض والقوافى والهندسة وأمثال ذلك ، ولا شك أن معرفة هذه لها دخل كبير فى معرفة أصول الصناعات وابداع المعانى أعظم من إبداع الصور لان ابداع الصور والاجسام متوقف على علم المعانى التى بها تستخرج هذه المعلومات ، وليست صنعة جنس (الراديو) بأعجب من صنعة جنس الكتاب ، فان الراديو وان كان آلة لجلب الاصوات والاقوال المتنوعة وهو يحمل مع الانسان فى كل مكان وزمان ، فكذلك الكتاب فانه ظرف بسيط لحفظ معانى وأقوال وعلوم لا تعد ولا تحصى ، وهو أمين حفيظ وأقل مئونة من (الراديو) ، وهو محمول فى كل مكان وزمان ، فان الانسان يأخذ هذا الشكل البسيط فى جيبه أو غيره فيفتحه فيطلع على علوم لها آلاف السنين ويجد فيه من علوم الدين والسياسة والأحكام وغير ذلك ما يدهش الانسان ويحير لبه وهو غنى عن (الراديو) وليس الراديو يغنى عنه ، ولولا الكتاب لم يستخرج الراديو ، ويستغنى كثير من الناس عن (الراديو) ولا يستغنى أحد عنه ، وهو من الصناعات المتقدمة التى ظهرت على يد المتدينين بالاجماع إما وحيا أو الهاما ، ولكن لما كان الكتاب متقدما صار مبتذلا لم يستغرب (والراديو) لما كان حدوثه متأخرا استغرب وجعل موضع عجب لكون النفس تستغرب الحادث الجديد المخالف للعادة أعظم من القديم المبتذل ولو كان أعجب وأبدع منه ، وبهذا يبطل تطويله وتهويله للصناعات الحادثة كلها لغرض الغلو فى الانسان ، وبنائه على ذلك أن الانسان غير عاجز عن شىء

---

(١) قال تعالى حاكيا عن فرعون ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ﴾ الآية ففيه دليل على أن الذهب كان موجودا من قديم ومعلوم أن استخراجه من أدق الصناعات

ومن الجائز أن يكون ذلك من أسباب خروج هذه الصناعات فى هذا الوقت ، وتعليل ذلك أنه لما ضعف أمر الاسلام فى السنين الاخيرة وانقطعت فتوحاته المستمرة وقلت العناية بنشره والقيام به وبثه فى أرجاء الأرض ـ وقد كان سبحانه وتعالى قد ختم النبوة بمحمد ﷺ فلا رسول بعده ، وأطراف الأرض متباعدة مملوءة بالسكان فهم فى حاجة شديدة إما الى رسول واما الى معرفة ما جاء به هذا الرسول الكريم من الدين والكتاب المبين الكافى لهداية الخلق ، أما بعث الرسول فغير ممكن لان حكمة الله اقتضت أن لا رسالة بعد محمد ﷺ لأن من لم يؤمن به وبما جاء به من الحق الواضح مع كمال شريعته ووضوح معجزاته وكفايتها واستمرارها فلا يمكن ان يؤمن بغيره ، لأن الحق واحد ، فتعين الثانى وهو معرفة هذا الرسول عليه الصلاة والسلام ومعرفة الشريعة الكاملة الكافية التى جاء بها . ومعلوم أنه كالمستحيل معرفة ذلك على جميع أهل الأرض من أمريكانيين واستراليين ونحوهم مع وجود الأسباب التى ذكرنا ، وربما انه لو بلغهم ذلك لم يبلغهم على وجهه الصحيح ـ فكان (١) من الضرورى وجود ما به يحصل ابلاغهم لتقوم بذلك الحجة عليهم ، ويعلموا ما جاء به الرسول ، فهو سبحانه قد مكنهم من الأسباب فيجب عليهم الاجتهاد فى البحث والتنقيب والحرص الشديد ، لأن جميع مصلحة ذلك عائدة اليهم ، ولأنهم دائما يحرصون على البحث والتنقيب والتفكير فى كل ما من شأنه أن يفيدهم فى التقدم وينفعهم فى الدنيا كالمعادن وغيرها من مصادر الخيرات الخفية والبارزة . وعلى هذا فمن كان قصده الحق واتباعه وايثاره على نفسه وولده وماله فلا بد أن يبذل غاية جهده فى الحرص على معرفة هذا الدين وفهمه وتحققه ، ومن حرص كل الحرص وبذل جهده فى أمر ممكن كهذا الامر عرفه ولا بد ، لان الله يوفق من يريد الحق ، ومن كانت هذه حالته فهو الذى يمكن أن

---

(١) هذا جواب « لما ضعف أمر الاسلام »

يؤمن بالرسول لو وجد ، ومن لم يكن بهذه الحالة فهو لا يؤمن بالرسول لو وجد ، لان الايمان بالرسول ليس بالأمر الهين بل لا بد أن يكون هناك عوارض دنيوية تمنع كل من لم يؤمن به ايمانا خالصا صادقا ، وحينئذ فالانسان المخلص الصادق أو الأمة المخلصة الصادقة اذا بذلت جهدها فى معرفة ذلك أدركته ولا بد ، ومن كان له قصد غير هذا قامت عليه الحجة . وبكل حال فهذا كله انما يحصل بوجود هذه الأمور الصناعية المقربة للمسافات البعيدة إما بالنقل وإما بالسماع أو بكليهما ، وقد حصل السبب الاكمل لا بلاغ الحجة ، وكان من عناية الله ورحمته بخلقه أن هداهم لمعرفة هذه الامور فى الوقت المناسب لها للحاجة ، وقد ظهر أثر ذلك فكان وجود دين الاسلام معروفا متيسرا فى جميع بقاع الارض ، ومن جهله فلم يعرفه على وجهه منهم فلا بد أن يكون لتقصير فيه وتعصب على تقليد أو شيء من الهوى ، فان الله دعا عباده وكرر عليهم مرارا بانه سييسر الذكر لمن قصد التذكر واتباع الحق حيث قال ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ مرارا كثيرة ، ولعل السر فى تكرار هذه الآية لقطع العذر وبيان أن من طلب الحق وجده ، وقال ﴿ ولقد فصلنا لهم القول لعلهم يذكرون ﴾ فمن اجتهد فى اتباع الحق عرف الحق ولا بد . وبالجملة فلولا وجود هذه الامور المقربة ـ والله أعلم ـ لم يوجد تيسره ومعرفته فى هذه الأطراف النائية ، أو لم يعرف على هذا الوجه مع ضعف الاسباب ، وكان من حكمته تعالى أن جعل أكثر مبادىء هذه الاختراعات على أيدى هؤلاء النائين لان هذا من أسباب مصالحهم التى هم فى غاية الحاجة اليها ومن ذلك القدرة على الحج ، وليكون ذلك أبلغ فى الحجة عليهم ، وقد كان من المشاهد أن أكثر الصناعات النافعة انما هى فى تقريب المسافات وأما غيرها فدخلت تبعا كسائر الامور الجليلة فانه بخروجها لا بد أن تخرج معها أمور اخرى لها علاقة بها ولو بعيدة ، والله اعلم

فصل

ثم استطرد فى معرفة الإنسان وتطوره فى الصناعات حتى ادعى أنه عرف أول هذا الكون الى هذا الوقت الحاضر ، بل صرح بأنه عرف متى تنقضى الدنيا وأنه يعرف عمر هذا العالم وأنه عرف جميع تغيرات هذا الكون وتطوراته فى الازمان الماضية السحيقة ، وقد كرر هذه الدعاوى فى كتابه مرارا كثيرة ، وقد تقدم تجهيله الانسان ، فانظر الى فقدان عقل هذا الرجل وشدة تخبطه واضطرابه ، وقد تقدم شيء من ذلك . وينبغى أن يعلم أن غرضه من هذا تركيز عظمة انسان هذا العصر فى أذهان الناس ليحصل الاقتداء به ورفض ما عليه السلف من أمور الدين لأنهم فى زعمه ليسوا على شيء من المعرفة فقال هنا : « لقد قضى على الأبعاد المكانية قضاء حاسما سماعا ورؤية وانتقالا أى أنه صار يرى ويسمع ويتنقل بدون أن يكون للابعاد سلطان ، لقد هزمت الابعاد المكانية اذن [1] أما الابعاد الزمانية فكانت معركتها لا تقل عن معركة الأبعاد المكانية ولا غيرها من المعارك العلمية التى اقتحم الانسان غمارها روعة وانتصارا ، انه استطاع أن يطير على أجنحة العلم ، وأن يرجع الى الوراء الزمانى آلاف الملايين من السنين ، وأن يوجد نفسه قبل أن يوجد [2] بما يفوت الاعداد أو يكاد ، انه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكونه وتوالده ، وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد كيف ولدت هذه الشمس وغيرها من الشموس ، ثم راحت هذه الشموس نفسها تلد الأتباع والبنين ليحيطوا بها وليحفّوا من حولها يدورون ويتحركون ولكن لا يستطيعون الخروج من قبضتها ولا الانفصال عنها أو الابتعاد ولا الاستغناء عن سلطان جذبها ، فكانت بينهم كأب وقور مبجل بين أبناء كرام بررة

---

(١) هذا غير مسلم على هذا الاطلاق

(٢) كل هذا كذب

يطيفون به ليأتمروا بأمره وليفعلوا ما يحب ويشتهى ، وراحت هى تفيض عليهم بأنوارها وحرارتها وقوتها مثل ما يفيض الأب الحكيم الرحيم على بنيه أنوار الهداية وحرارة الايمان وقوة الرجولة . انظر انه مشهد من مشاهد العلم التى لا يقدر على إبصارها والاستمتاع بها الا هذا الانسان ، فياله من مخلوق ما أعظم حظه لو استطاع أن يعلم ذلك أو أن يفيد منه (١). ثم راح يحدّث كيف راحت هذه الأتباع وكيف راحت الابناء تصير من الآباء ، فقد ولدت السيارات الأقمار كما ولدت الشموس السيارات فكانت السنة واحدة لا تختلف فى الجماد كما هى فى النبات كما هى فى الحيوان . ثم رجع يشهد كل العصور التى مرت بهؤلاء الآباء والأبناء والاحفاد وطفق يحكى حكاية العليم المستثبت الأدوار المتقلبة التى مرت بها والتطوّر البديع المنظم الذى ظل يسوقها ويدفعها الى الكمال ، ويحكى كيف أخرجها هذا التطور من الحالة الغازية أو السديمية وما قبلها ـ ان كان لها قبل (٢) ـ الى حالة التكاثف والتكتل ، ومن حالة الاضطراب والقلق الى حالة الاستقرار والهدوء ، ومن العصور الجلدية والنارية الى عصور الاعتدال ، ومن حالة التكتل والفوضى الهندسية التى لا تمكن من سكناها ومن الانتفاع بها الى حالة التشذب والتهذب والتمهد الذى جعل فيها السهول والسهوب والأنهار والجبال والأودية والمرتفعات والمنخفضات وكل ما نشهده اليوم فيروعنا منظرا ومخبرا ، وقد وقف وهو آيب من هذه الرحلة العلمية الطويلة البديعة على عصر وجود الحياة فى كوكبنا هذا وقفة غير قصيرة فحضر بشغف واهتمام متزايدين هذا الفصل الشائق من الرواية ـ وهو فصل

---

(١) نعم لكن أنت لم تستفد منه ، فانه ما خلق الخلق الا للاستدلال على علمه وحكمته وصفاته ، وليعبد وحده لا شريك له ، فأى شىء عملته من هذا

(٢) قولك «ان كان لها قبل» يفيد الشك ، وهو يناقض دعواك أنه علم أول هذا العالم

ظهور الحياة ـ وهى اللغز المعقد الذى لا يزال العلم الدائب واقفا أمامه حائرا دائبا على محاولة حله [١] فحضر وجود الانسان ووجود غيره من أنواع الاحياء ، فلزم هذه الموجودات الطريفة وعلى رأسها الانسان ، فتدرج معه ومعها وهو وهى يحبوان فى مدارج الحياة والوجود ، فوصف الانسان ووصف أيضا غيره منذ وجوده البدائى الشقى الى وجودنا هذا المتحضر المهذب السعيد ، فكتبه فصلا من أعجب الفصول يصف وصفا يكاد يكون تصويرا لهذا المخلوق وكل ما شهد وهو ينتقل من طور الى طور ومن حالة الى حالة من حالات النعماء والبأساء حتى صعد هذه القمة الرفيعة من المدنية التى منحت هذه الحياة هذه الالوان الزاهية [٢] من ألوان السعادة والترف والعيش الرخى . ثم لم يقف بعلمه عند هذا ، بل ذهب مسرعا يسابق هذا الوجود فيسبقه ، وذهب يخبرنا عما بقى من عمر هذا العالم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود [٣] الذى سبق أن ولده وأن شهد نشوءه وتكونه ، وعما بقى من عمر هذا الانسان وغيره من الأحياء ، ويخبر عن الأحداث والحوادث التى لا تزال فى طريق الوجود والتى لا تزال تترقب لتثب وثبتها . يا للعجب انه قد فرغ من علم الارض وما فيها وما سيكون فيها [٤] ومن دراستها ودراستهم ثم رنا ببصره الحادّ الطموح الى ما هو أسمى وأعلى موضعا وأوسع وأكبر ، فخرج من كوكبه هذا الذى لم يشبع رغباته ومطامحه العلمية الى رحاب الفضاء بآلته وأرصاده ورياضاته

---

(١) هذا يناقض دعواك أنه يعلم كل شيء

(٢) لا ندرى كيف أعمى الله قلبه عن تلك الألوان السود والويلات والدمار الفظيع والجوع والعرى فى هذه السنين الآخرة فى كثير من بقاع الارض بسبب الالحاد وأهله

(٣) هذا تصريح بأن الانسان يعلم متى الساعة ، بل هو تصريح بأنه علم ما كان وما سيكون ، وهو يناقض دعواه أنه سيقضى على الشقاء قضاء حاسماً

(٤) تأمل هذه العجائب

وخيـــاله يجوبه جوبا ويرود ما فيه رودا يعـدد ما فيـه من عوالم ويصف أوضاعها وهيئاتها ومقاديرها وأبعادها وأعمارها وأنوارها وحرارتها وقوتها وسيرها وسرعة سيرها ودورانها والتناسب القائم بينها ويميز التابع من المتبوع والطائف من المطوف حوله والوالد من المولود ، بل يحللها حتى يعرف ما هى مركبة منه [١] وما هى عناصرها وما مادتها وما غير ذلك ، ثم لا يقضى هـذا كله وطره وشهواته العلمية بل يجمع أمره على ما هو أعظم ويعد العدد ويقوم بالتجارب بعد التجارب ليتصل بهـذه السموات العلويات بالرسائل الكلاميـة اللاسلـكية ، أو بالانتقال اليها عـلى مـتن سفن سهمية تطلقها قوة العـلم [٢] وتوجهها حيث يريدون ـ نعم هم لم يصلوا حتى اليوم الى هذه الغاية ، لـكن من زعم أنهم لن يصلوا يوما ما فقد أساء الى نفسه » انتهى كلامه ، وفيه من التهور والمجازفة والتصديق بالمحال والجنون مالا يخفى على أدنى عاقل ، وغرضه من هذه الثرثرة الفارغة أن الانسان قد علم كل شيء ، فعـلم ما كان وسيكون ليثبت بذلك أنه يعلم كل شيء كما ادعاه ليحصل الايمـان باستعداداته ومواهبه التى فى إمكانها أن توصله الى الـكمال ، وأنه لا حاجة الى رب يدعوه ويعبده ويتوكل عليه ، لأن هذه الصفات الكمالية كلها موجودة فى الانسان فلا حاجـة الى الاعتماد على غيره ، وهذه عادته فى قبول هذه الاقاويل المدخولة بالاباطيل الواضحة ، فانه متى وجد بحثا لملحد من ملاحدة الماديين أو غيره قبله وصدق به واحتج به وشتم من خالفه ، فهو يقبله قبولا تاما أعمى ويصدق به تصديقـا جازما ، ولا يكتفى بذلك بل يجعله برهانا قاطعا وان كان هناك ملاحـــدة آخرون مخالفون له ، لان الشرط الذى هو موافقته لهواه موجود ، ولا يكون

---

(١) قبحك الله ما أرخص الـكذب عندك وأهون القحـة عليك كانك تخـاطب بهذا أنعاما لا تفهم

(٢) الأولى والأحسن أن تطلقها قوة حقائقك الأزلية الأبدية

موافقا لهواه الا اذا كان مصادما لعلماء الدين ، ففيه شبه قوى من الرافضة الذين يعرفون الباطل بكون أهل السنة يعملون به ويعرفون العكس بالعكس ، فكل ما يوافق هواه فهو الحجة والصدق والبرهان الذى لا ريب فيه ، وكل ما يخالف هواه فهو الكذب والباطل والمحال الذى لا شك فيه ، ذلك لأنه هو المقدم فى كل أمر كما زعم ، ولا حاجة الى تتبع كل مافى هذا النقل من الأباطيل ومصادمة الشرائع لأن الانسان الذى يصدق به لا يلتفت الى أى حجة ولا يصغى الى أى دليل كائنا ما كان ، فان مصادمة هذا النقل للنصوص الشرعية أمر ظاهر لا غبار عليه ومن يخفى عليه ذلك فهو إما جاهل غبي أحمق لا يفهم الحجة ، وإما زنديق لا يقبلها

فمن خبائثه فى هذه الجملة قوله « وذهب يخبرنا عن مابقى من عمر هذا العالم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود » ولا شك أن انقضاء عمر العالم هو قيام الساعة فهو صريح بأن الانسان يعلم متى الساعة التى استأثر الله بعلمها ، وهذا كفر واضح لا يشك فيه . ومن عجائبه دعواه أن الانسان سيصل الى السموات إما باللاسلكى وإما بالانتقال ، وجزمه بذلك ، ثم حكمه على من أنكر هذا أنه مسيء الى نفسه ، وصادم قوله تعالى ﴿ان الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط﴾ الآية ، ثم مع هذا يعترف بأنهم لم يصلوا الى ذلك فيعترف بعدم الوصول اليه والمعرفة به ثم يجزم بوقوعه فى المستقبل ثم يحكم بالاساءة على من أنكر ذلك ، فانظر الى هذه المهازل والمخازى المتتابعة وسفاهة العقل والطيش الذى لاحد له وفى الحديث « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » . ثم ان هذه الامور التى ذكرها ونقلها وجزم بها فى خلق هذا العالم وتفصيل حوادثه وتطوراته ليس هو من أهل المعرفة به وليس هذا الفن ماتعلمه وعرفه ، ومع هذا صدق به مع عدم احاطته بعلمه وقد قال تعالى ﴿ ولا تقفُ ماليس لك به علم ﴾ ولا سيما وهو تقليد فى أمر عظيم خطير وهذا هو عين الاساءة الى النفس بل هو عين الضلال

والاغلال ، وسيأتى كلامه قريبا وتصريحه بأن أقوال الفقهاء كلهم ليس لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية فهو لا يقبل منهم قولا فى آية أو حديث أو مسئلة فقهية فليس لهم علم ولا عقل ولا دين ـ هذا مع أنه اضطر الى التملق لهم والمصانعة معهم والانتساب اليهم ـ أما الملاحدة فهم المتصفون بأكمل الاوصاف وأجملها ، فما قالوه فهو الصدق الذى لاشك فيه وما أنكروه فهو الكذب الذى لاريب فيه بشرط أن يوافق هواه . اللهم احشره تحت أقدامهم ووله ماتولى انك سميع الدعاء

ومن قبائحه المخزية فى هذا دعواه أن الانسان علم الحوادث المستقبلة وعلم ما سيكون ، فهذه المجاهرة بالقحة والمكابرة بالفجور مما يبين لك أنه يتكلم بكل مايخطر على باله ولو كان مما يدخل فى حد الجنون ، واذا كان الانسان يعلم هذا الذى يدعيه فما هذه المصائب والنكبات التى وقع فيها ، أفتظنه اختارها لنفسه أم غفل عنها ونسيها . ثم مابال هذه الدول كل منها محترس وخائف من المستقبل

وأما دعواه بعد هذا ان « من أراد لهذا الانسان أن لايستمر فى رحلاته الكشفية العلمية فقد أراد بلا ريب بسنة الله أن لاتمضى فى سبيلها »

فيقال أولا : ليست سنة الله هى كون الانسان يصل الى السموات باللاسلكى وأن الملاحدة يدخلونها حتى يلزم هذا الذى ادعيته بل هو تشنيع بحت

ويقال ثانيا : من هو الذى أراد ماقلته ، فالمسلمون لم يقولوا هذا ولا يمكنك أن تنقل عن أحد منهم يعتمد قوله أنه ادعى بأن سنة الله لاتمضى فى سبيلها

ثالثا : لايلزم من استمرار الانسان فى علومه الكشفية وغيرها أن يعلم كل شىء ، ويقدر على كل شىء ، وان يصل الى السموات ، فان موضوعات العلم لايحصى عددها الا الله غير الوصول الى السموات والقدرة على كل شىء ، واستمراره انما يكون فى طاقته التى جعلها الله فيه ، وهذه الامور ليست فى

طاقته التى جعلها الله فيه ، وهذه الامور ليست فى طاقته ، ومن ادعى ذلك فقد كذب ، لان النصوص دلت على خلاف هذا وهى برهان صادق والبراهين الصادقة لايمكن نقضها

رابعا : نقول ومن أراد لهذا الانسان أن يبلغ الى مساواة الربوبية فى العلم والقدرة والابداع فقدجعله ربا وإلها ، وحاول تحويل سنة الله التى قد خلت فى عباده فكان من الكافرين

خامسا : نقول لهذا الملحد دعنا من هذه المراوغة والتملص والصياح والجنون والهراء الذى لاطائل تحته ، ها هنا شىء دون هذا كله هو الموت ، فالموت هل قدر الانسان على قهره ، يجب أن يجعل هذا هو أول خطوة فى أول السلم ، هذا الموت الذى أرغم أنوف هؤلاء الملاحدين ، وهذا الهرم الذى قطع ظهورهم ، لاحاجة يابلعام زمانه للوصول الى السموات وعلم ما كان وما سيكون وعلم خلق السموات والارض وخلق النفس وعمر العالم ونحو ذلك ، أعظم شىء هذا الموت الذى نكد عليهم الحياة ، الله أكبر عجزوا عن دفع الموت وعن ايجاد ذباب واحد ، بل رجل ذباب أو جناح ذباب عجزوا عن ايجاده ، ثم يعلمون بكل شىء ويقدرون على كل شىء ، **ما** أرخص الكذب عندك واخفه على لسانك

يا بلعام زمانه الانسان هو الانسان فى أخلاقه وصورته وأكله وشربه وبوله وغائطه وموبقاته وكذبه وفجوره لم يتغير عن انسانيته ، هو الانسان لم يزدد فى ذاته بشىء ، دعنا من المغالطة واللجاجة والخصومة الفارغة والثرثرة والجنون ، كل هذا الذى قلته خروج عن المقصود وتملص عن ملتقى المطرقة والسندان ولا بد من أن توضع بينهما

خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وقد بينا مايتعلق بهذه الصناعات مع أن هذا الملحد معترف بأن التطور الموجود ليس الا تطورا صناعيا فقط حيث قال فى نبذته الثورة الوهابية

ص ١٣٩ « وأما الزعم أن النفوس الانسانية ارتقت فزعم كاذب ، والواقع أكبر دليل على كذبه ، بل الانسانية تتدلى بطفرة من الجهة الخلقية تدليا لايمكن المماراة فيه ولا الخلاف فى بعد قراره ، وما يظن أنه أتى على الناس عصر فسقت فيه النفوس وتمردت واستخصبت مرتع الفجور والخروج على شرع الله ونظامه كهذا العصر ، والرقى المزعوم هو رقى صناعى صرف لاحظ للأخلاق ولا للكمال فيه ، والرقى الصناعى إن لم يصاحبه الرقى الخلقى عاد هبوطا ونكبة على الانسانية وعلى الاخلاق وعلى الصناعة أيضا وعلى كل شىء وقائل غير هذا غاش أو جاهل ، وما ارتقت الانسانية فى عصر من عصورها ارتقاءها فى عصر الاسلام الاول » انتهى كلامه بحروفه . واذا كان هذا رأيه قد ادعى فيه أنه لايمكن المماراة فيه وأن قائل خلافه إما غاش أوجاهل لأنه قطعى فهنا يأتى فينقضه من أصله ويتلاعب بعقول الناس فيريد أن يصدقوه فى كل ما شاء من الأفكار المتضادة ، فهذا هذيان وخبال لايروج ويلتبس الا على من سفه نفسه وهان عليه عقله ودينه

فصل

ولما علم هذا المخذول أنه قد زلت قدمه فيما نقله وتفوه به فى خلق هذا العالم وغيره وعلم أن الناس يستنكرون هذا القول فيرمونه بالكفر والزندقة ، وكان قد تفرس فى كثير من أهل الغباء والجهالة العمياء أنهم سيصدقونه ويغترون بمخادعته متى استدل بآية أو حديث ، فأراد أن يصدق على هؤلاء ظنه ـ ذهب يستدل بالآيات ليقال انه يصدّق بالقرآن ويحتج به ، وقد صدق على كثير من هؤلاء الاغبياء ظنه فكانوا فى أمر مريج من موقفه والتوقف فى كفره ، وهؤلاء إنما أتوا من حيث بعدهم عن نور الدين وعدم معرفة دين الله الذى اختاره لعباده وعدم عظمته وجلالته فى قلوبهم ووجوب تعظيمه واحترامه ، والا فلو قدروه حق قدره وعظموه حق تعظيمه لما توقفوا فى

تكفير من هجم عليه وصادم نصوصه وادعى أن عبـــادة الله التى خلق الخلق لاجلها – وأعظمها الدعاء – ملهاة ومصرف خبيث ، الى غير ذلك مما أشرنا اليه فيما مضى وتأتى بقيته

ذهب هذا الملحد كعادته يؤيد ماذكره من تلك الترهات فى خلق السموات والارض وما جرى فيها من الحوادث من أول الدنيا وآخرها بقوله تعـالى ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ﴾ قال بعد سياق هذه الآية « فالانسان حقيقة لم يشهد خلق هذه العوالم الكبرى لاالسماوية ولا الأرضية ولا خلق فرده الاول ، لأنه إنما وجد بعد ذلك اذ البيت يوجد قبل الساكن فيه [1] فأنبأ الله بهذه الحقيقة الصحيحة الواضحة ، ولكنـه لم يقـــل ما أعلمتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم بل اختار نفى الاشهاد على نفى الإعلام ، وكأنه انما أشار بهذا الاختيار الى أن الانســـان بمداركه الفكرية قد يعلم خلق السماوات والأرض وخلق نفسه بـل وخلق كل شيء [2] كما علم بذلك سائر العلوم التى علمها والتى صارت حقائق مشهودة غير منظورة ، أما شهوده واشهاده لوجود العوالم التى خلقت قبله فغير ممكن ، والشهود والاشهاد غير العلم والاعلام ، فالاشهاد هنا يراد به الحضور ، ولو أن الله قال ماأعلمتهم خلق السموات والارض لنهض أقوام من هنا وهناك ينازعون فى معـارف الانسان وينكرونها عليه ويدّعون أن القرآن قد أنكرها [3] فالشهود قد نفى بهذه الآية »

والجواب ان يقـــال أولا : ليس المراد بالضمـــير فى قوله تعـــالى

---

(١) هذا غير لازم فقد يوجد الساكن أيضا قبل وجود البيت

(٢) تأمل هذا ، فهو تصريح ظاهر بأن الانسان يعلم خلق كل شيء

(٣) نعم القرآن أنكر ماذكرته فأنه ذكر خلـق السموات والارض على غــير ماذكرته

﴿ ما أشهدتهم ﴾ جنس الانسان حتى تستدل بالآية على اشهاد الانسان أو علمه بل الضمير عائد الى ابليس وذريته الذين اتخذهم الظالمون أولياء من دون الله ، لأن السياق فيهم ، فالضمير عائد اليهم فان الله تعالى قال ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ، ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ فهذه الضمائر المتسقة كلها فى ابليس وذريته ، وهو ظاهر الآية فان الله أحتج على المشركين بذلك لكونهم اتخذوهم أولياء وهم فى الحقيقة عدو لهم فقال ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ما أشهدتهم خلق السموات والارض ﴾ أى حتى يكون لهم نوع شبهة فى اتخاذهم اولياء فان من يحضره الله أو يشهده خلق السموات والأرض فلا بد أن يكون له مكانة جليلة عنده ، ولا بد أن يكون له نوع إعانة اما بالرأى أو غيره ، ولكن الله انفرد بذلك فهو المستحق بأن يتخذ وليا وأن يدعى ويقصد ويعتمد عليه ويتوجه اليه . ثم قال ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ أى ما كنت متخذ إبليس وذريته ـ فإنهم رءوس المضلين ـ عضدا أى عونا لى ، بل هو سبحانه الغنى عما سواه الفقير اليه كل ما سواه فلا وجه لاتخاذهم أولياء . وهذا الرجل تبع اسلافه المشركين حيث اتخذ الملاحدة وأمثالهم من الضلال أتباع ابليس أولياء من دون الله ودعا اليهم والى علومهم الكفرية ، ورفض التوجه الى الله والاعتماد عليه ودعاءه والاستعانة به فكان له الحظ الوافر من المتابعة والشبه المطابق ، وهذا ـ أى كون الضمير عائداً الى ابليس ـ هو الذى فهمه جمهور المفسرين ، وحينئذ فلا حجة له فى الآية لا فى إشهاد ولا فى إعلام ولا غيره

ثانياً : لو قدر أن المراد بذلك جنس الانسان فهو قد قال فى آية ﴿ وعلم آدم الاسماء كلها ﴾ : ان من علم الاسماء علم المسميات والا فلا فائدة فى علمه ، فنكيل له بصاعه ونقول : المقصود من الاشهاد الاعلام ، وكل شهود بلا علم

فلا فائدة فيه ، بل قولنا هنا أولى من قوله ، فان الاشهاد بلا اعلام لا فائدة فيه ، لانه كشهود البهائم والمجانين والأطفال ، فالاشهاد الذى بمعنى الرؤية المجردة ليس فيه فائدة البته ، ويصان كلام الله عن أن يريد بذلك إشهاداً بلا اعلام ، فإن هذا هو شهود البهائم واشباهها كما تقدم

ويقال ثالثا : أنت صادمت الآية نصاً باللفظ ، فصرحت بأنهم شهدوا هذا العالم وأنهم حضروا خلق أنفسهم ، وهذا صريح لفظك المتقدم فصرحت بلفظ الاشهاد لا بلفظ الاعلام ، فدل على أن الاشهاد عندك هو الاعلام فكيف تخالف الى ما نهيت عنه ، فانك قلت « انه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكونه وتوالده ، وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد كيف ولدت مادة الكون ومتى ولدت وكيف ظلت تتفاعل وتتطور الخ » ثم قلت بعد أسطر « ثم رجع يشهد كل العصور التى مرت بهؤلاء الآباء والأبناء والاحفاد الخ » ثم قلت أيضا بعد قليل « فحضر وجود الانسان ووجود غيره من أنواع الأحياء » الى آخره فصرحت بلفظ الاشهاد والحضور بأن هؤلاء شهدوا وحضروا خلق هذا العالم وتوالده وخلق أنفسهم . فان قلت مرادى أنهم علموا ، قلنا : اذن اندحرت وهدمت اعتراضك بأن الإشهاد غير الاعلام بانك صرحت بالنص المصادم لنص الآية وألقمت الحجر . ثم استنباطك من الآية اثبات علم الانسان بخلق هذا العالم استنباط ساقط ، فالآية صريحة فى الدلالة على ضد دعواك ، فان الله تعالى لم يقل انى أعلمتهم خلق السموات والارض وخلق أنفسهم وليس فيها مايشير الى هذا كما أسلفناه فهو استدلال معكوس ، وأيضا فهذه الامور التى ذكرتها فى خلق السموات والارض أمور غيبية وعلم الغيب عند الله ليس عند احد من الخلق شيء منه الا مابينه الله تعالى لعباده ، ومثل هذه الأمور لاتعرف صحتها الا بالنص أو البرهان العقلى وكلاهما منتف ، أما النص فقد بين الله سبحانه خلق السموات والارض على خلاف ما تدعيه وليس بينه وبين ما تدعيه أدنى مناسبة ، وأما العقل فان هذه

الامور التى ذكرها فيها خلاف طويل عريض وكثير من الملاحدة أنفسهم يعارض فى هذا ، وليس قبول قول بعضهم بأولى من قبول قول الآخر ، فكيف بعلماء الدين ، فهى أمور مبنية على التخرص والظن ، والظن لايغنى من الحق شيئا ، وهم معترفون - أى علماء المادة - بأن هذه النظريات ليست بقطعية وكلامهم فى هذه الأمور كثير موجود ، وأكثره مخالف لما ذكره ، وقد وصف الله سبحانه خلقه للسموات والارض فى كتابه العزيز بأوضح عبارة وأجزلها فمن لم يقبل قلبه ماورد فى هذا فلا بد أنه مريض وفيه شيء من الشك والريب ، و « اذا جاء نهر الله بطل نهر معقل » قال جل من قائل ﴿ قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقوتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ فهذه النصوص الدينية صريحة فى مناقضة ماقاله ، ومن المحال أن يجتمع فى القلب تصديق ما ادعاه الملحد والتصديق بهذه الآيات فليختر الانسان أيهما فقد تبين الرشد من الغى . وقد يقول من فى قلبه مرض ممن يريد أن يجمع بين المتضادات ويخلط الخبيث بالطيب : لا تنافى بينهما ، لأننا لا نعرف معنى الآيات ، فقد يكون لها احتمالات . فنقول : هذه دسيسة شيطانية . لِمَ عرفت معنى كلام هذا الرجس النجس المعقد وجهلت كلام الله الملك القدوس الذى هو فى أعلى درجات البلاغه والفصاحة ، انما الذى حجبك وغم على قلبك هو الشك فى تكذيب ما يخالف النص ، فكان هذا الريب هو الذى ران على قلبك فى الحيرة فاخذت تتبع المخارج البعيدة ، والا فماذا يضرك لو ضربت بكل قول يخالف النص عرض الحائط ، واستسلمت للنصوص استسلاما كاملا ، لأنك تدعى وتعتقد أنك مسلم مصدق لكل ما جاء به الرسول ﷺ ، فكيف تصدقه فى كل ما جاء به

وتعتقد أنه أعطى من الفصاحة والبلاغة والنصح ما لم يعطه غيره ثم مع هذا تشك فيما أخبر به وهل هذا إلا ضعف فى تصديقك والا فلو كان التصديق به والايمان خالصا قويا نقيا للزم وجود مقتضاه وهو الاستسلام الكامل ، ولو حصل منك الاستسلام الكامل لتبين لك نور الدين واليقين الذى لا شك فيه ، وأن كل ما يعارض هذه النصوص الدينية فاسد ، وأنها هى الحق الجلى الذى هو فى غاية الصحة كما عرفه الصحابة وأهل القرون المفضلة حيث لم يكن لديهم أدنى شك فيه فكانوا أقوياء أعزة سادة موفقين

فصل

قال الملحد « وأما العلم فقد أثبت بقوله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ فالرؤية هنا رؤية العلم ، أو الرؤية البصرية بواسطة العلم . وليس المراد رؤية البصر العادية للأشياء العادية ، لأنهم لم يفقدوا هذه الرؤية حتى يقال أن الله سيريهم إياها ، وآيات الله فى الآفاق التى أخبر القرآن أنهم سيرونها هى هذه الكشوف والمخترعات ، أو الآيات الكونية التى يراها الانسان بوسائله العلمية والتى لولا هذه الوسائل لما استطاع رؤيتها ، فالجديد هو المرئى ، أو الرؤية هى الجديدة لأمور قديمة ، أو هما معا جديدان المرئيات والرؤيات . ولا بد من القول بأن الآية تشير – أو أن فيها إشارة – الى العلوم الحديثة والى آياتها ، والا لما كان لها معنى مفهوم بيسر »

والجواب أن يقال : قد فهمت أن هذا الرجل استدل بهذه الآية على أن الانسان يعلم خلق السموات والأرض وخلق نفسه بل وخلق كل شىء كما تقدم كلامه هذا بحروفه ، وأنت ترى أن الآية بينها وبين الدلالة على هذه الدعوى كما بين السماء والأرض ، ولكنه – كما قلنا غير مرة – يريد أن يجعل القرآن دليلا له على كل ما يشاء ويشتهى ، والله سبحانه وتعالى لم يقل سنعلمهم خلق السموات والارض وخلق أنفسهم وخلق كل شىء ، بل قال سنريهم آياتنا

فى الآفاق وفى أنفسهم ، وليست الرؤية علما بكل حال ، وهذا الملحد مصاب بداء التناقض حتى فى الجمل القليلة ، فقد سبق قريبا قوله « والاشهاد غير العلم والاعلام » وهنا فسر الرؤية بالعلم كما ترى ، ومنع تفسير الاشهاد بالاعلام ، فتناقض فى ثلاثة أسطر هذا التناقض الفاحش ، فنعكس على هذا المعكوس قوله ونقول له كما قال فى الاشهاد سواء بسواء ، فانه إن دلت الرؤية على العلم سواء أكانت بواسطة البصر أو بدونه فكذلك الاشهاد يدل على العلم ، وقوله « وليس المراد رؤية البصر العادية لهذه الاشياء العادية » يقال وكذلك ليس المراد بالاشهاد بمجرد الرؤية بالبصر العادى للاشياء العادية . ونحن لم نقل أن المراد بمجرد الرؤية البصرية بدون علم وتفكير حتى يتكلف لهذا النفى ، والآية ليس فيها ذكر للسموات والارض ، بل قال ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق ﴾ والآيات هى ما يحدثه الله من المظاهر العظيمة الدالة على قدرته وعلى إثبات النبوة ونزول القرآن ، لانه قال حتى يتبين لهم أنه الحق والمراد بذلك القرآن ، ومعلوم أن هذه الاشياء التى ذكرها فى خلق السموات والارض ليست برهانا للحق ، بل هى باطلة فكيف تكون برهانا على صدق القرآن وقريش لم يكونوا يعرفونها ، والخطاب موجه اليهم ثم الى من بعدهم ، ثم هى أمور لو قدر صحتها فلا يعرفها الا النادر فكيف تكون برهانا على الحق ، أما الكشوفات الحديثة فادخالها هنا مغالطة ، فانك قلت على الآية السابقة ان الانسان بمداركه الفكرية قد يعلم خلق السموات والارض وخلق نفسه بل وخلق كل شىء ، ونحن ننازعك هنا فى هذه الدعوى العريضة ، اما الكشوفات فهى مسئلة أخرى وليس بينها وبين هذه تلازم ، وليست الكشوفات العلمية هى خلق السموات والارض وخلق الأنفس وخلق كل شىء ، بل الكشوفات اخص من ذلك فلا معنى للمغالطة بها ، ولا شك أنها من آيات الله التى ظهرت أخيرا فى الآفاق وفى الانفس ، لكن ليس كل ما ادعى أنه من الكشوفات العلمية يجب التسليم له بمجرد الدعوى حتى يعلم تحققه ، وخلق السموات والارض على الصفة التى

ذكرها لا يصح أن يكون داخلا فى ذلك فهو لم يقم عليه دليلا ، مع كونه من علم الغيب ، وقد علمت أن استشهاده بهذه الآية باطل . ثم الكشوفات المحققة اذا كانت داخلة فى هذه الآية فهى حجة عليه ، لان الله يقول ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وهذا جعلها دليلا على تعمية الحق وطمسه واخفائه ، ولم يجعلها دليلا على بيانه . ولو أنه ممن هدى ورشد لاستدل بها على ثبوت النبوة ونزول القرآن واشتماله على خيرى الدنيا والآخرة ، ولاستدل بها أيضا على محاسن الاسلام ولم يستدل بها على تشويهه والدعاية الى خلعه ونبذه . ومن العجب أنه كلما توسع الالحاد والكفر ازداد ظهور الآيات فى الآفاق وفى الأنفس ليكون ذلك دليلا على صحة الدين ، ومع هذا عكس الملاحدة هذه النظرية وجعلوا ظهور هذه الكشوفات والآيات فى الآفاق وفى الانفس دليلا على ضد الحق من الالحـــاد ورفض الأديان والاغلال منها

وقوله : « ولا بد من أنها تشير ـ أو ان فيها إشارة ـ الى العلوم الحديثة والى آياتها والا لما كان لها معنى مفهوم بيسر » فيقال : أما أن فيها إشارة الى ما ذكرته فى خلق السموات والارض فباطل ، فليس فيها إشارة الى ذلك البتة ، وأما الكشوفات الحديثة فقد بينا أنها خارجة عن محل النزاع فلا حجة لك فيها . والآية قد نزلت قبل هذه الكشوفات ، وقد فسرها العلماء وفهموا معناها ولم يكن ذلك بعسير عليهم ، ولم تزل الآيات الدالة على أن القرآن حق تترى وتتجدد فى كل زمان ومكان منذ بعث النبي ﷺ الى هذا الوقت ، ولا شك أن الفتوحات العظيمة التى ظهرت فى زمانه عليه الصلاة والسلام وزمان خلفائه من أعظم الآيات فى الآفاق وفى الانفس ، وقد حدث انشقاق القمر وهو من أعظم آيات الله فى الآفاق ، وآيات الله فى الآفاق غير هذه الكشوفات من الامور الكونية لا يحصى عددها الى الله سبحانه وتعالى

ثم قال : « وأما الآيات فى الأنفس فهى الحقائق النفسية التى اكتشفها

العلم ، وهى أيضا الحقائق التكوينية والتشريحية والمبتكرات العلمية التى انفجرت عنها النفس البشرية وكل ما يتصل بالحياة الانسانية مما كشف عنه العلم وأعان عليه وعالم يعلم الا أخيرا »

فيقال : كل هذا أيضا لا يصح دليلا على ما ذكرته فى خلق السموات والارض وخلق الانسان وخلق كل شىء ، فمعنى الآية الذى هو ظاهر مفهوم منها كما فهمه المفسرون يرجع الى أن الله سيريهم آياته فى الانفس من الابتلاء والامتحان كما قال تعالى ﴿ ولقد ارسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ﴾ وقال تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ فهو سبحانه يبتلى عباده أولا بالبأساء والضراء لكى يرجعوا اليه فيتوبوا ، فمن رجع وتاب هدى وإلا ضرب على قلبه الطبع والاقفال والختم ، وقد يكون معنى قوله تعالى ﴿ وفى انفسهم ﴾ كمعنى قوله تعالى ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وقد تقدم الكلام عليها ولا تنافى بين القولين فكلاهما حق ، فان الآيات تشمل هذا وهذا ، فما ذكره على الآية تعسف بارد ، وهو لا يفيده شيئا ، فاننا لا ننكر تكوين الانسان وتشريحه ومبتكرات علمه وتطور علومه ومعارفه الصناعية ونحوها فان هذا كله حق ، وهو قد تناقض فيه ، انما الشأن فى تفصيل ذلك والحاقه بما ليس منه

فصل

ثم انه هجم على القرون المفضلة الذين رفعوا راية الاسلام وأبلوا بلاء حسنا فى نصره وعزه حتى فتح الله لهم مشارق الارض ومغاربها ، فرماهم بالجهل والبلادة والغباء وعدم العلم ، وادعى أنهم لا يعرفون شيئا من الحقائق بل كانت رؤيتهم ناقصة فلا يبعدون كثيرا عن طور الحيوانية ، وانما معرفة الحقائق عند هؤلاء المتأخرين من الملاحدة وأمثالهم ، وقد أطال فى الحط

الشديد على القرون المفضلة ومن فى عصرهم ، فبينما نراه يتهدد الرافضة ويتوعدهم بالويل والثبور ، اذا هو منقلب معهم بل زاد عليهم فى الخبث والشنآن ، وكأنه يريد أن يمنح كل قرن وطبقة من هذه الامة نصيبها مما اشتمل عليه من العداوة المنكرة والغيظ الذى لم يسبقه أحد الى جنسه

فقال « وصل الانسان وقت نزول القرآن الى طور معين فى التدرج نحو الحياة ، ونحو الرشد العقلى ، وكان هذا التطور لايعدو النظرة السطحية ، والالمام بظواهر الاشياء دون النفوذ الى باطنها ، فكان يرى رؤية قد يضبطها الاستقراء بعض الضبط ، وقد تفلت من كل ضبط وهو الأكثر الأغلب ،فكانت أحكامه على الأمور وكانت علومه مبنية كلها على هذا الإلمام الظاهرى الصادر عن الرؤية الناقصة . وكانت هذه المرحلة من وجود الانسان بمثابة النهاية أو القرب من النهاية لطور لايبعد جدا عن الطور الحيوانى الذى كانت وسائل ادراكه تنحصر فى الحواس الغليظة المجردة (١) مع شىء غير كثير من التفكير الصادق والخيال الذى له بعض القيمة ، فأنزل الله فى كتابه متحدثا عن هذا الطور قوله تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ فعلومهم كلها كانت ظاهرة يرون الظواهر الطبيعية والفلكية والنفسية والاجتماعية وسواها ، ولكن لايدرون لماذا هى ولا ما هى ، ولا يدرون ما الأسباب وما أسباب الأسباب (٢) يرون الشمس والقمر وغيرها معلقة فى الفضاء متحركة ذاهبة آتية دائرة سائرة بنظام ومواعيد لاتختلف ولا تتخلف ويرونها تبعث بالحرارة والاشعة ولكن لايدرون لماذا ولا كيف هذا ، بل

---

(١) هذا تصريح ظاهر بأن من كان فى زمن الرسول من الصحابة وغيرهم لايبعدون فى اخلاقهم وآرائهم عن الحيوانات العجم ، فعلى هذا فهؤلاء لا يبعدون عن الوصول الى طور الملئكة لان قاعدته فى التطور تقتضى هذا

(٢) وهل انت عرفتها اذن فمالك لم تبينها ولم تشرحها لينتفع بها

لعلهم ما كانوا يفكرون فى هذه الظواهر والمشاهدات لماذا لاتقع علينا وعلى الارض ، ما الذى يمسكها ويمنعها من الوقوع ، ما الذى يديرها ويحركها ويضبط مواعيد غيابها وطلوعها ، ما الذى يمدها بهذه الانوار والحرارة التى لاتنفد ، كل هذا لا أسئلة له عند هؤلاء ، وان سألوا فلا أجوبة صحيحة (١) وكل ما يمكن أن يقولوا فى هذا أو كل ما يمكن أن يفهموا ان الإله (٢) أو الآلهة هى التى تفعل ذلك أو انها أى الشموس والكواكب هى التى تفعله بنفسها (٣) لأنها آلهة أو لأنها كائنة حية متحركه بالارادة والاختيار ، اذ قد ظل الانسان أحقابا متمادية فى الطول يعتقد أن كل متحرك إما اله وإما حى عاقل ، فكانت الكواكب المتحركة الطالعة الغائبة على حسب مايرى آلهة فى أزمان عند أقوام وأحياء فى أزمان اخرى عند اقوام آخرين (٤) والطفل كما قلنا غير مرة يعطينا أبدا صورة كاملة لأولئك الأسلاف الماضين ، والاطفال حتى اليوم اذا رأوا شيئا يتحرك ويسير حسبوه حيا وحسبوا حركته وسيره بارادته وقصده مثل مايصنعون هم ، ولا تزال بقايا هذه الانسانية الظاهرية السطحية موجودة ، وكانت الانسانية منذ وجدت ترى التفاحة تسقط على الارض وترى كل مارأى مكتشف قانون الجاذبية ، ولكنها لم تستطع أن تفطن الى مافطن اليه (نيوتن) فى هذه المسئلة ، وكانت ترى كل مارآه

---

(١) نحن نسألك عن هذه فما هو جوابك عليها ، وكان من الواجب عليك أن تجيب عنها لانك المقدم فى الأمر فيجب أن ترشد الناس

(٢) هذا الجواب لايكفى عنده بأن الله هو الذى يدبرها ولهذا قرنه بالآلهة فلم يفرق بين الله والأوثان

(٣) اذا كانت هى لاتفعله بنفسها وان الله لايفعل ذلك بها والآلهة فلماذا تحركت مع أنه قرر فى مواضع بأن العلم هو الذى يحكم نفسه بنفسه

(٤) كل هذا كذب لاصحة له فأين الدليل عليه

مكتشفو قوة البخار والكهرباء وجميع المكتشفات والمخترعات التى قلبت حياة الانسان (١) غير انها كانت عاجزة عن أن ترى غير الظواهر وغير مايرى الاطفال من مظاهر الأشياء ، وهكذا كانوا أمام جميع مناظر الكون ، وكانوا أيضا يعلمون فتك الأمراض بالأبدان ويعلمون أعراضها ويعلمون أنها تورد موارد العطب ويعلمون شيئا كثيرا من أنواعها على حسب اختلاف أعراضها ولكنهم كانوا جميعا جاهلين بأسبابها ، جاهلين بما وراء الاعراض ، فلا يدرون من عوالم المكروبات شيئا ، فهم لذلك لا يدرون من وسائل مقاومتها شيئا أيضا ، فكانت هذه الجيوش الخفية القوية تغزوهم فيبصرون وقعاتها وفعلاتها لأنها ظاهرة ولا يبصرونها هى لانها من عالم الحقائق المستورة خلف الظاهر ، فكانت دائما منتصرة عليهم وكانوا أبدا مهزومين أمامها بدون قتال (٢) . وكانوا أيضا يرون كل الظواهر التى تؤيد قانون الوراثة وتشرحه ، والتى تدل على ما كان عليه الانسان الأول من أخلاق وطبائع وحشية ، والتى تعطى مباحث علم النفس ماشاء من مواد لبنائه وتثبيته ووضع حدوده ، غير أنهم لبثوا أمام هذه الحقائق والظواهر شاخصين بأبصارهم كما يشخص الاطفال الى القمر ، يرونه كل ليلة يجىء ويذهب ويرونه يصغر ويكبر ويحيى ويموت ويغمرهم بضيائه الباهر وهم فى بيوتهم ومخادعهم ثم لم يفهموا من هذا شيئا سوى هذه المرائى » انتهى

والجواب أن يقال : هذا رأى هذا الرجل فى السلف الصالح والقرون المفضلة وجميع من فى عهد نزول القرآن لافرق بين مسلم وكافر ، واكثر هذه الأمور التى ذكرها فى مسائل نظرية رياضية وما يتعلق بها ، وقد قرر فيما مضى

---

(١) وقلبت قلبك ودماغك ودينك أيضا

(٢) مايزال يكرر مسئلة هذا المرض لأنه لم يجد شيئا جديدا عرفوه اكبر منها وقد بينا مافى ذلك فيما سلف

أن هذه الأمور يشترك فى حلها الكافر والمسلم سواء ، فهؤلاء جميعا عنده كالأطفال المساكين لا يعلمون شيئا إلا هذه الظواهر ، فهم فى غاية الغباء والتغفيل ولهذا صرح بأنهم لا يبعدون جدًّا عن الطور الحيوانى ، فهم قريبون جدا من طور الكلاب والحمير والخنازير والقرود وما أشبه ذلك ، فاذا كانت هذه حالهم وقت نزول القرآن فكيف بحال من فى وقت الخليل عليه السلام ، فكيف بوقت نوح عليه السلام ، فكيف بمن هو قريب من عهد آدم ، فلا تسأل عن حال أولئك وصريح كلامه يقتضى أن هؤلاء كلهم كالحيوان واذا كان ناموس التطور عنده لم يخرج الانسانية عن طور الحيوان حتى وقت نزول القرآن فحال أولئك كحال أدنى الحيوان . وقد تقدم له نحو هذا . ولا ندرى لماذا أنزل الله عليهم الكتب السابقة والرسل دون الحيوانات . واذا كان هو قد أقر بأن هؤلاء الذين فى وقت نزول القرآن قد وصلوا الى هذه المرحلة الانسانية فقد أخبر تعالى صريحا فى القرآن أن من كان قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الارض وأنهم عمروها أكثر مما عمروها ، وأنهم أحسن منهم أثاثا ورئيا ، وإنهم خاطبوا رسلهم وردّوا عليهم كما رد هؤلاء على رسولهم ، وفعلوا فى معارضتهم كما فعل هؤلاء ، كما قال تعالى ﴿ مايقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ وقال تعالى ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا ﴾ الآية ، بل ربما ان الاولين أعز نفوسا وأقوى مناعة وأصح فكرة من الآخرين الذين عارضوا الرسل ، فان لوطا عليه السلام قال لقومه ﴿ أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ فدل على أن الأولين الذين كانوا قبلهم لم يصل بهم فساد الاخلاق والتدلى فيها الى هذه الدرجة النهائية من الخبث والشناعة ، وجميع كلام هذا الملحد هنا يصادم النصوص مصادمة ظاهرة ، ونحن نعلم أن مقصوده من هذا الهذيان هو مايحوم حوله من تأسيس كراهة كل قديم ، وتركيز عقيدة التطور فى كل شىء

فى أذهان الناس ليحصل له ما يريد من كراهة السلف ورفض آرائهم واعتقادهم لان أولئك الجماعات الذين ذكر أقوالهم حصروا المجد فى الأخذ بالاخلاق الدينية السلفية فلهذا عاكسهم وأطال فيما يناقض هذا الأصل ، فكان غرضه وهدفه الذى يرمى اليه هو سب كل قديم بدعوى أن أهله على غاية الانحطاط والجهل والغباء ، وقد طرد هذا الاصل حتى ادعى أن هؤلاء المستعمرين خير من الصحابة كما تقدم كلام السيد قطب ، وهو كثيرا ما يتفوه بهذا عند من يجتمع به ويباحثه فى ذلك ، وان الذى يرتد يكون كالخنزير الذى يتتبع النجاسات بشغف زائد ويعرض عن الطيبات ولا يريدها وينفر منها ، فعند هذا الملحد أن آباءنا الاولين على اختلاف أجناسهم انما تمتعوا بهذه الدنيا كما تتمتع الاطفال ، بل كما تتمتع سائر البهائم من الحمير وغيرها ، ولهذا صرح بأن الطفل يعطى أبداً صورة كاملة لأولئك الاسلاف الماضين ، ثم لم يكفه ذلك حتى قال والاطفال حتى اليوم اذا رأوا شيئا يتحرك ويسير حسبوه حيا وحسبوا حركته وسيره بارادته ، فالاسلاف الأولون ـ على ماذكر سابقا فى تشبيههم بالاطفال ـ اذا رأوا حبلا يسحبه أحد حسبوه حية وهربوا منه واذا رأوا جلدا كاملا تستاقه الرياح هربوا منه ، واذا رأوا حيوانا ميتا تحركه الريح حسبوه حيا فلا يميزون بين الحى والميت كما لا يميزون بين الجماد وغيره بل هم أجهل من الاطفال فان الاطفال لا يفعلون هذا كله فهم دائما يهربون من كل ما يتحرك ـ فلا تسأل عن حالتهم أيام كثرة الرياح فان أكثر الاشياء تتراقص وتتحرك فلعلهم كانوا اذن يموجون موجا فلا يستقرون أيام الرياح ولا يهدأون أبدا وقل أن يمر يوم ما فيه رياح ، فعلى هذا تكون حالتهم أحط من حالة البهائم والحشرات فانها تهدأ غالبا فى أوقات الرياح فى جحورها ومساكنها بل ولا تهرب من كل متحرك مع أنه ادّعى انهم يهربون من كل شىء يجهلونه كما تقدم ، لقد صدق الله العظيم فيما أخبر عن هؤلاء المعرضين عن الدين فى قوله تعالى ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالانعام

بل هم أضل سبيلا ﴾

وهنا مشكلة وقع فيها من حيث لا يشعر ، وهى أنه قرر فى كلامه الماضى أن الانسان إذ ذاك يتلخص فى شيئين : فى الجهل المطلق ، وفى عبادة كل شىء متقلب مضطرب ، هذا كلامه بحروفه ، فالانسان الأول جاهل مطلقا وعابد لكل شىء مضطرب ، ثم شبهه بالطفل حيث قال ان أصدق صورة ترسم للانسان فى ذلك العهد هو الطفل من حيث العرى من كل لباس علمى وبدنى ، وكذلك قال هنا ان الطفل -كما قلنا غير مرة- يعطينا أبدا صورة كاملة لأولئك الأسلاف الماضين الخ ، فالمشكلة هى أنه ادعى أن الانسان الأول جاهل مطلقا وأنه عابد لكل متحرك مضطرب ، ثم شبهه بالطفل وجعل الطفل يعطى صورة كاملة عنه فشبهه تشبيها مطابقا بزعمه ، ومعلوم عند ادنى عاقل أن الطفل لا يعبد كل شىء ، بل لا يعبد شيئا مطلقا ، فانتقض تمثيله وانهدمت دعواه من أصلها وهى التى يدور عليها وقد اطال تكرارها لأنه لم يطابق التشبيه وتناقض تناقضا فاحشا بينا ، فيطالب أولا ببيان السبب الذى اختص به الأولون بعبادة كل شىء لأن العبادة هذه كانت فارقة بينهم وبين الأطفال لكن مقصوده بدعوى العبادة فى الاولين وقرنها بالجهل المطلق محاولة إبطال العبادة ليقول انها من أخلاق الجهلاء الأولين ، ولكن يقال هذا حجة عليك لانك أولا تناقضت وشبهتهم بالاطفال والاطفال لا يعبدون شيئا ، وثانيا أنها تدل على عكس ما تريده ، وذلك أن العبادة تدل على العلم لان خلوها من الاطفال الذين هم فى غاية الجهالة وملازمتها للعقلاء والعلماء تدل على أنها من لوازم العلم والعقل ، أما عبادات المشركين فانهم لما كانت عقولهم فاسدة كانت عباداتهم كذلك لأن اكثرها تقاليد على أديان محرفة قد دخلتها الأغراض والأهواء والبغى فأفسدتها ، ولهذا كان أكثر أهل الحضارة فى القرون الوسطى وقبلها وبعدها متدينين ، بخلاف البعيدين عن الحضارة كالامم المتوحشه والبعيدين عن الكتب السماوية فانهم اباحية لا يعبدون شيئا كالأطفال فكانوا منحطين

فى جميع عصورهم ، فظهر من هذا أن التمثيل الذى ذكره فى الطفل جاء على عكس مراده ، وهو أن الملحد أشبه شىء بالطفل الذى قرر أن الأولين أشبه شىء به ونسبهم الى غاية الجهل ، فان الطفل لا يعبد شيئا ويرى أن الاشياء الحية المتحركة أنها تتحرك لذاتها وطبعها وأنها كاملة لذاتها فهو أعظم الناس إيمانا بالأسباب لانه يؤمن بها ايمانا صادقا بدون أن تتعلق بمشيئة خارجة عنها فيرى فيها الكفاءة الذاتية ، ولهذا فانه يطلب كل ما يشاؤه ويشتهيه من والديه لأنه يرى فيهما القدرة على كل شىء ولا يقبل أى عذر منهما مهما كان ، ولهذا فانه يؤكد تأكيدا لا مزيد عليه بشدة صراحة تحصيل مراده لانه يعلم أن الوسيلة الوحيدة لتحصيل حاجته هو الحث المتواصل والتأكيد عليهما بذلك ، ويرى أنهما إن لم يقضيا حاجته فهما لم يجتهدا فى العمل ، وقد عرف أنهما يستاآن من بكائه لمحبتهما اياه فيعطيانه حاجته ، فالملحد والطفل قرينان فى كل شىء ان لم يكن الطفل أحسن حالا ، فان الطفل لا يرى العبادات ولا يفهمها ويفهم سرها فى التقدم والتأخر لان عقله ناقص وكذلك الملحد ، والطفل لا يهمه الا ما يوافق شهوته وطبعه وكذلك الملحد ، والطفل يرى المخلوق يقدر على كل شىء ويعلم كل شىء وكذلك الملحد ، والطفل يرى كشف السوءة والاباحية المطلقة وكذلك الملحد ، والطفل لا يفرق بين الرجل والمرأة فى شىء من الحقوق إلا فى الصورة الظاهرة الجسمية كالثديين والشعور ونحوها وكذلك الملحد ، والطفل لا تهمه الخطب ولا الاجتماع لها ولا يراها شيئا مفيدا فلا يعرف منافعها بل يقف متعجبا ضاحكا اذا رأى خطيبا ومصلين وكذلك الملحد ، والطفل اذا نابه شىء التفت الى الأسباب المادية واعتمد عليها ورأى فيها الكفاية ولهذا يبذل غاية جهده فى تصريفها فى غرضه وكذلك الملحد ، والطفل يرى أن لا شىء موجود وراء المادة المحسوسة يلجأ اليه فى كشف الكروب ويدعى ويستعان به وأن الأمور كلها بيديه وكذلك الملحد ، والطفل يرى الأشياء الحادثة الغريبة الجديدة فتذهب بعقله وتطير بلبه فيتبعها

ويعشقها ويتعلق عليها ويترك ما رآه من كل ما هو قبلها ولو كان أنفع له وكذلك الملحد ، والطفل يكره القدامى فلا ينظر الى الشيوخ والكهول فلا يراهم شيئا كبيرا ويخاف من جنسه ومن مثله ويجعلهم أعظم همه فيكره الكهول من أجل أنهم قدامى ويتعلق على الصغار لأنهم من جنسه وكذلك الملحد ، والطفل يروج عليه الخداع والنفاق والمراوغة ولا يعرف الحقائق ومقاصد الكلام وكذلك الملحد ، وبالجملة فأصدق صورة ترسم للملحد هو الطفل أو الحيوان ، أما المتدين فهو بعكس ذلك كله ، ولهذا لا تجد المتدين يشبه شيئا من الحيوان والاطفال فى خصائصهم حتى فى الأكل والشرب وغير ذلك كالتخلى والنكاح ، فان معه فارقا فى هذا كالصوم والوضوء والتزويج ، أما الطفل والملحد وسائر الحيوانات فليسوا كذلك ، فالدين هو الحد الفاصل بين الطفل والحيوان ، والعقل ان لم يصحبه الدين فسد فلا يعتد به كما نص عليه القرآن ، وبعدم وجود الدين مع الانسان ينحط الى طور الطفولية ويرجع الى الوراء حتى يكون كالحيوان ، وعلومه الدنيوية ان كان الغرض منها الوصول الى الراحة والهدوء ورغد العيش فهذا قد يتحصل عليه الطفل المدلل المكفول فى الجملة كما يتحصل على ذلك الملحد فى الجملة [١] وأما السيطرة ان وجدت فقد شاركه فيها كثير من الحيوانات العادية المسيطرة على الحيوانات التى دونها ، ثم ان أكثر هذه الأمور ليست لذات لذاتها بل هى دفع آلام الحاجة والهموم والغموم ، وقل ملحد أن يسلم من ذلك ، بل كل وقته منغص مهدد معذب ، وهذا بخلاف علوم الدين وما يتبعها من علوم الدنيا من صناعات أو غيرها المؤسسة على الدين فإنها دفع آلام ولذات محققة لأنها تتصل بالروح والنفس ، وهى علوم سماوية مقدسة تزكى الروح وتقويها وتقدسها وهى تبقى مستمرة لا يشوبها شىء من الخوف والوجل المفسد لجميع اللذات

---

(١) أى لافى الافراد فى كل من الطفل والملحد

وبهذا يتبين لك أن الملاحدة هم الذين يرجعون الى الوراء دائمـا فى أخلاقهم السّيئة ، وان المتدينين هم المحلقون فى سماء التألق كل بقدر ما معه من الدين ، فهم المتقدمون الى الأمام فى أخلاقهم وآرائهم وعلومهم وفى كل شىء وأن تقدم الملاحدة عليهم أحيانا كارتفاع الزبد وأمثال الزبد على الماء ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض﴾ . وكل ذى عقل يعلم أن هؤلاء الرجعيين الملاحدة الذين يدعون أنهم هم المجددون أبعد الناس عن التجديد الصحيح ، بل هم المجددون لأخلاق الحيوان والفساد والسقوط ، وأنت اذا تأملت كل خصلة خبيثة فى الاولين الذين قص الله علينا أقوالهم وأعمالهم ممن ذمهم الله عليها وجدتها كلها بأسرها فى الملاحدة الرجعيين ، وهذا صحيح لا غبار عليه ، فان الموبقات التى من أخلاق الأولين لا أكثر منها فى الملاحدة ، والاولون قالوا فى الكتب السماوية « هى أساطير الاولين » وهكذا قال هؤلاء الملاحدة ، والأولون قالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وكذلك الملاحدة ، والا ولون قالوا لرسلهم اننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب وكذلك قال الملاحدة ، والأولون اعتمدوا على الأسباب وادعوا أن فيها قدرة ذاتية وان فيهم كفاءة على قتال أعدائهم ولو كانوا مؤمنين فقاتلوهم وحاربوهم اعتمادا على أسبابهم وعلى أنفسهم وكذلك الملاحدة ، والاولون أعظم حجة عندهم على رد الحق ورد تعاليم الدين هو شىء واحد هى الحجة بان الكفار أكثر من المؤمنين وأغنى منهم وأوسع منهم ثراء فى التجارة والصناعة وغيرها ، وهذه هى أكبر حجة للملاحدة اليوم ، ولهذا قال الله تعالى عن الاولين ﴿واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا﴾ فأخبر الله أنهم يعرضون عن الآيات التى فيها بيان الحقائق ويذهبون الى شىء آخر وهى الأوهام التى هى الاحتجاج بالتقدم والتأخر بأشياء مادية ، مع أن هذه الامور ليست بحجة لأنها شىء مقصود لغيره ، والناس فيها فى الجملة سواء ،

وكثيرا ما يكون الانسان فقيرا بعد أن كان غنيا وبالعكس ، وكذلك يكون صعلوكا بعد أن كان كبيرا ، ولو كانت حقائق ثابتة لم تتغير ، وانما ذلك فى آيات الله التى جعلها أسبابا للخير والنجاح التام فان أسباب الخير المطبوعة أسبابا له لابد أن تكون أسبابا للخير لأنها سنة الله وتلك هى الأخلاق الدينية كالدعاء فان هذه اسباب ـ من اول الدنيا الى آخرها ـ لكل فلاح ونجاح فلا توجد امة حافظت عليها الا كانت محتفظة بسيادتها ، فاذا أفسدتها وغيرتها فسدت سيادتها وتغيرت ، وأما الأسباب المادية فهى اذا لم تصحبها الاسباب الدينية عادت نكبة وبلاء إما عاجلا وإما آجلا ولا بد ، ولهذا لا توجد أمة ملحدة عاشت على الالحاد ما يقارب ستين سنة مقدار عمر الانسان المتوسط ولم تحل بها نكبات وكوارث ، وهذا ظاهر ، وبالجملة فجميع هذا الفساد الموجود فى ملاحدة هذا العصر هو خليط من فساد الأولين بعينه فجميع فساد الأولين المتنوع المختلف كله الآن مجتمع فى الملاحدة الموجودين الآن وهذا ظاهر لا يغالط فيه الامكابر

والمقصود أن جميع الصفات التى أسهب فى تطويلها وترديدها فى الأطفال والجهلاء محاولا الصاقها بالمتدينين ولا سيما السلف الصالح قد اتصف بها هو وسادته ومن على شاكلته من أصناف الملاحدة وأنه كما قيل فى المثل المتقدم « رمتنى بدائها وانسلت » ثم العجب من استدلاله بقوله تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ ثم حملها على القرون المفضلة الموجودة وقت نزول القرآن ، وهذا الملحد انما حمله على هذه القحة أنه رأى كثيرا من الناس حتى العامة يحتجون بهذه الآية على الملاحدة فى معرفتهم هذه الامور فأراد بعقله المعكوس أن يعاكسهم فى مدلولها فجعل هذا الملحد خير القرون وأرفعهم وأشجعهم وأنفعهم أعمالا ماكانوا يعرفون الا ظاهرا من الحياة الدنيا ، أما حقائق هذه الظواهر فلا يعرفها الا سادته أما سادات المسلمين فلا يعرفون من هذه الحقائق شيئا ، ومن عمق خبثه وإلحاده أنه فصل ما أمر الله به أن يوصل

كعادته ، ولم يأت بالآية كما أمر الله لأنه خشى أن يفتضح لأنها فى الملاحدة الذين هم عن الآخرة هم غافلون فان الله تعالى يقول ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ فالآية صريحة بأن المراد بها الكفار لأنهم هم الغافلون عن الآخرة ، فانظر الى صنيع هذا الملحد كيف قلب هذه الآية الكريمة ، وكتابه كله على هذا الوضع ، فانه مقلوب الحقائق لانه صادر عن قلب منقلب ، والا فأدنى عاقل يعرف أن الآية دالة على الملاحدة فانهم لا أغفل منهم عن الآخرة ، وصاحب هذه الأغلال كل موضوع دعايته فى ما ينسى ويغفل عن الآخرة ويصدّ عن العمل لها ، بل جعل الايمان بها من العوامل التى تعوق عن التقدم . ومعلوم أيضا عند كل عاقل أن هذا الذى علموه كله ظاهر من الحياة الدنيا ، فانه كله أشياء تدرك بالحواس الظاهرة اما بواسطة أو بغير واسطة فهو ظاهر بكل حال ، فالشيء الذى يدرك وتعرف حقيقته بالحواس ظاهر ليس بباطن ولا خفى ، فالظهور والبطون أمر نسبي إضافى ، فقد يكون الشيء ظاهرا عند قوم وباطنا عنه آخرين ، وذلك بحسب العلوم والادراكات والعلامات والأمارات ونحوها ، وهذه الأمور التى عرفوها كلها مدركة إداركا ظاهريا حتى انهم لا يؤمنون الا بالظواهر ، وأمورهم كلها مبنية على الظواهر ، ولهذا كان أكثرهم يكفر بالملئكة والأرواح وكل مالم يكن ظاهرا لهم ، فهم يؤمنون بالظواهر من المادة كلها ويكفرون بما وراءها ، ومعلوم أن المادة كلها بانواعها أشياء ظاهرة محققة بالحواس ، فالآية حجة صريحة عليه وعلى سادته الذين اتخذهم أولياء من دون المؤمنين ، عامله الله بعدله

فكان كعنز السوء قامت بظلفها الى مدية تحت التراب تثيرها

أما ما ذكره فى مسئلة الأمراض والميكروسكوبات فقد تقدم الجواب عنه وبينا أن هذه الأشياء قد صارت ظاهرة تدرك بالحواس ، وانما كانت مختفية بعوارض وقد زالت ، أما الأمور التى ليست بظواهر كالارواح فانها لما كانت

من الأمور الغيبية وهى موجودة قريبة عجزوا عن معرفتها وأمثالها ، وأما الاجسام فانها ظواهر سواء كانت صغارا أو كبارا ، على أن فى مسئلة هذه الجراثيم التى كشفت بالميكرسكوبات تفصيلا لسنا بصدد شرحه ، وغاية مافى ذلك أن الأولين جهلوا شيئا موجودا خفيا وهذا ليس مما يقدح فى علومهم فقد علموا ما هو أنفع منه وهؤلاء قد جهلوا أشياء كثيرة نافعة لهم ، وقد خفى عليهم الآن أكثر مما علموا فجهلوا أشياء موجودة سيظهر وجودها بعد ، فاننا نرى كل سنة بل كل شهر يكشف عن أشياء لم تكن معلومة من قبل ، وهذه الأشياء التى وجدت شيئا بعد شيء كلها قد خفيت على كل من لا يعلمها ويراها ، فليس الجهل ببعض الأشياء الخفية من خصائص الانسان الموجود وقت نزول القرآن حتى يعاب بذلك ، هذا لا يقوله من يدرى ما يقول ، ثم ان جهل هذه الأمور وعدم المعرفة بها أحسن من المعرفة بأسباب الهلاك والدمار العام كالطاقة الذرية وما يقاربها ، فان المضرة التى تحصل من هذه على الانسانية أعظم من مضرة ذلك المرض ، وأيضا هؤلاء الذين جهلوا هذه الأمور قد عرفوا ما هو خير منها حالا ومآلا ، فانهم عرفوا أصول الدين وحقائقه النافعة فتسلحوا بهذا العلم ففتحوا به الفتوحات وسادوا به على غيرهم ونشروا العدل وأخرجوا الناس من الظلمات الى النور حتى ظهر نور الحق لكل صغير وكبير وفى كل مكان قريب وبعيد ، بخلاف هذه الأشياء فان أهلها جهلوا ما هو أهم منها من الأمور الدينية فحلت بهم المثلات وحاقت بهم النكبات وصاروا من محنة الى محنة ، وقد عملوا أيضا ما يقابلها من أسباب للأسقام والأمراض والغازات السامة والقنابل الذرية والأسلحة المدمرة ، فما عملوا مع الانسانية من أسباب الخير والراحة والهدوء إلا مثل ما هيأوه لها من الشر وأنواع البلاء والمحن ، ولقد كان معلوما أن كثيرا من هذه الدول قد عرفت هذه الأمور معرفة فائقه لا يمكن المماراة فيها ، فماذا عملت فى نفعهم حين جاءهم أسباب أخرى غيرها ، فقد ماتوا فى الطرق بأنواع الأمراض والأسقام

والجوع والعرى وغير ذلك ، فضلا عما أصابهم من صدمات الحرب ولهيب نارها ، ولو أنهم عرفوا أمور الدين الصحيح كمعرفتهم لهذه الامور لكان ضميناً لهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه بلا ريب ، فعاقبة الأخلاق الدينية لابد أن تكون حميدة ، ولهذا فانه لا تعرف أبدا أمة حافظت على دينها محافظة تامة ولم تغيره فنالها ضعف أو نكبة فظيعة ، والشأن كل الشأن فى العلوم التى تكون نتائجها طيبة صحيحة نافعة وعاقبتها حميدة ، أما العلوم التى نتائجها الوبال والعذاب والدمار الفظيع فلا خير فيها ، وإن نفعت حينا من الدهر فهو نفع تافه حقير بالنسبة الى ما بعده ، قال تعالى ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ماكانوا يوعدون ، ما أغنى عنهم ماكانوا يمتعون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ . أما ما ادعاه من كون الاولين يرون الشمس والقمر وغيرهما من النجوم كما يرى الأطفال هذه الأشياء فهذا من كذب الجهال الذين لا يحسنون أن يكذبوا ولا يستحيون من ارتكاب المكابرات المخالفة للعيان والحس ، ويكفيك دليلا على كذبه أنه قد ثبت ثبوتا لا مرية فيه أن خسوف الشمس وكسوف القمر قد عرف أسبابه الاولون وقد عرفوا نقص نور القمر بل قد عرفوا أوقات الكسوف والخسوف معرفة دقيقة بالتقريب حتى نسب هذا الى ارسطو وأتباعه ، وهم قبل نزول القرآن بل قبل المسيح بمئات السنين(١) فكيف يقال انهم ينظرون الى القمر كما ينظر الأطفال ، والمسلمون فى صدر الاسلام لم يكونوا يصرفون هممهم الى هذه الامور القليلة الفوائد ، بل جل هممهم فى نشر الاسلام وبث روحه فى العالم وتثبيت قواعد الدين ، وهذه هى الامور الكبيرة التى يجب الاهتمام لها وصرف الهمم اليها

أما ماذكره من الطباع والأخلاق الوحشية ونسبة ذلك الى الأولين فيقال

---

(١) كما ذكره الغزالى فى تهافت الفلاسفة

له كما قيل فى المثل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

أين أفعال هؤلاء فى التدمير والخراب والظلم والعسف وإهانة الفضائل من أفعال المتقدمين التى لا تأتى معشار معشارها ، فقتال يوم واحد فى الآخرين يوازى قتال أيام أو اشهر فى الأولين فى القتل والخراب والفظائع التى لا تعد ولا تحصى ، وقد قيل حبك الشىء يعمى ويصم ، ثم ان جميع ما وجد فى الزمن السابق كالقرون الأولى والقرون الوسطى وغيرها من الأخلاق الوحشية واثارة الحروب اذا بحث عن سببه ونقب عنه وحقق وجد أنه من مصدر إلحادى دخل معه النفاق ، فالملاحدة والمنافقون هم مصادر البلاء والشقاء والعناء كما تقدم

فصل

قال « انهم[١] رأوا كما رأى المتخصص اليوم بدراسة علم النفس أن الاطفال يولدون وهم يحملون معهم شر الاخلاق وأظلم الطباع ، وأنهم لو تركوا لسجاياهم لما تورعوا عن اثم ولما أنفوا من ظلم ولما فعلوا شيئا حسنا من أجل أنه حسن أو إن فيهم ما يحفزهم على فعل الحسن ، ورأوا ما يجب أن يعلموا منه أن الحسنات أو الميل لفعل الحسنات والخير لم يولد مع الاطفال وانما لقنوه تلقينا وارتاضوا عليه بحكم التقليد والتربية والمشاهدة والتعليم بعد الولادة ، وكان يجب أن يكون لهذا دلالات عديدة عندهم ، ولكنهم بقوا مع هذا كله يقولون ويعتقدون أن الأطفال بطبيعتهم مجبولون على الخير ، وهذا يدل على أشياء كثيرة لم يتفطنوا لواحدة منها ، من هذه الدلالات أن الانسان بطبيعته شرير خبيث ظالم وأن الانسان الأول كان كذلك فى كل عهوده وأن

(١) يعنى الانسان الأول الموجود وقت نزول القرآن

الاطفال يرثون هذا الشر والخبث والظلم عن أولئك الآباء الأولين الظالمين الأشرار ، أما الخير والاحسان وكل هذه الصفات والألفاظ الجميلة التى يتصف بها الانسان والتى يدعو إليها ويمتدحها ويأمر بها فهى مكتسبة اكتسابا من الأديان ومن التربية التى كونها الانسان لنفسه بحكم الضرورة والحاجة والانانية أيضا ، فان الخير تدفع اليه الأنانية أيضا كما سيجىء فى فصل مقبل » انتهى

والجواب أن يقال : أما كون الانسان الأول الموجود وقت نزول القرآن يرى كما يرى هذا المتخصص أن الاطفال يولدون وهم يحملون شر الاخلاق وأظلم الطباع ومع ذلك يرون أنهم ملائكة وانهم مجبولون مجبورون على الخير فهذا كله من الاكاذيب الباردة التى يستحى كثير من الكفار أن يتفوه بها لانها فجور مكشوف لا شك فيه ، فمن هو الذى قاله وادعاه قبل هذا الملحد ، وأين الدليل عليه والواقع يكذبه كما أن الشرع أيضا يكذبه ، وفى الحديث كل مولود يولد على الفطرة والفطرة هى قبول الخير كما يأتى ، ولكن هذا شأنه يكتب ما خطر على باله ولو خالف كل شىء من العقل والحس والضرورة

أما دعواه أن الانسان بطبيعته شرير خبيث ظالم وان الانسان الأول كان كذلك فى كل عهوده وأن الأطفال يرثون هذا الشر والخبث والظلم من اولئك الآباء الأولين وأن الواقع أنهم شياطين أشرار فهذه الدعاوى مع كونها من الخبائث والمخازى والمهازل التى لا يتفوه بها إلا من بلغ فى القحة والفجور الغاية التى لا بعدها غاية فهى تنقض جميع ما أصله فى هذا المبحث وغيره ، فان دعواه قائمة ـ على ما يزعم ـ فى تعظيم الانسان والحط على من لم يعظمه ولا يؤمن به ، بل ادعى ان الايمان به أول ، وأنت ترى أنه سبه ورماه بأشنع المقادح وأفظعها ، فان هذه الاوصاف هى أصول الشر كله والرذيلة كلها ، ولو أن إنسانا قيل له صف الانسان بأقبح الاوصاف كلها لم يزد على هذا ، فينبغى أن يعطى هذه الاوصاف التى اعترف بها فى الانسان فيما يختص بنفسه حيث اختارها ، وأما غيره فهو مدعى عليه فلا يقبل قوله فيحكم عليه هو بذلك ،

وجميع ما يدعيه من الاوصاف التى تغاير هذه يطالب باثباتها فى نفسه ، وهذا الملحد يتلاعب كيف شاء بدون خجل أو حياء ، فهو أولا يقرر أن الانسان كنز من المواهب والاستعدادات الطيبة التى تدفع الى الكمال والسعادة ثم يجيء مرة أخرى فيقرر أنه ولد بطبيعته شريراً خبيثا شيطانا ظالما جاهلا ثم يقول يجب الايمان به ، ومعلوم عند كل من له عقل صحيح ان الذى طبع على الشر والخبث والظلم والجهل فانه يجب الكفر به ، لان هذه صفة الشيطان الذى امرنا أن نكفر به ، ومعلوم ايضا أنه لا يمكن أن يكون مستعدا للكمال بل يكون مستعدا للنقص ، لأن هذه الأمور نقائص لا كماليات ، وقد قدمنا أن هذا الرجل لا يرى فى تناقضه من بأس لأنه لشدة إعجابه بنفسه ورأيه فيها بأنه المفرد العلم الذى لا يعادله أحد فى امكانه أن يتخلص من التناقض ويرى أن الناس لا يفهمون التناقض ، وسبب هذا أنه رأى أناسا ممن ضرب الله قلوبهم بالموت والغباء والعماية الاصلية كانوا يجتمعون به فاذا عارضوه بشيء أخذ فى اللجاجة والمكر والخداع فيوافقونه على ذلك ، فمن أجل هذا ظن أن الناس كلهم مثل هؤلاء أودونهم ففرض عليهم أن يكون هو المقدم فى الامر ، فلا اعتراض على تناقضه فان له تأويلا قد لا يعلمه الا هو أو من رسخ فى علمه من فروخ الملاحدة وأشباههم فلا يسأل عما يكتب وهم يسألون

لقد كان من المعلوم أن الاستعدادات والمواهب هى التهيؤ لابراز العناصر الكامنة فى الشيء إما بورود شيء خارج عليها كمادة الحمل فى الرحم ، واما قبوله فيكون باعثا قويا على نشاطها فى الظهور والبروز كالفطرة الطيبة مع الاخلاق الدينية الصحيحة النقية ، واما بقوة مودعة فيها تظهر شيئا بعد شيء ، فان كل حيوان ونبات فيه استعداد لابراز مافى عنصره فان كان خبيثا فخبيث وان طيبا فطيب وان خيرا فخير وان شرا فشر ، فلو كان الانسان بهذه الطبائع التى ذكرها لكان يتقهقر الى الوراء ويتردّى فى الهاوية السحيقة ، فان هذه الطباع هى أحط طباع فى الوجود ، لأنه حينئذ يتزايد فيه طبع الشر

والخبث شيئا فشيئا حتى يتطور ويدفع ما يرد عليه من الخير بالقوة الطبيعية فان الشر ضد الخير والخبث ضد الطيب والظلم ضد العدل ، فكيف تكون هذه الطباع قابلة لضدها . ثم قوله هذا يناقض أصوله الفاسدة التى هجم بها على الخطب فى المساجد وعلى أصول الدين من أن ذلك ملهاة ومصرف خبيث وأنه تخدير ، فانه هنا أقر بأن الانسان شيطان خبيث ظالم وان هذه الاخلاق الحسنة مكتسبة من الأديان فكان على مقتضى ما صرح به لو تركوا بدون تعاليم من دين لظلوا على طباعهم الخبيثة الظالمة ، ومعلوم أن الملاحدة لا يعرفون تعاليم الدين ولا يتعلمونها ، فتكون هذه الاوصاف ملازمة لهم منذ وجدوا ، وعلى هذا فلا بد من تعليم أصول الدين ولا بد من تكرر الخطب والمواعظ لتعقل هذه الطبائع العدوانية لئلا تنطلق فى ميادينها ، وقد بينا فيما تقدم أن هذا المغرور مصاب بداء التناقض والاضطراب والقلق الفكرى الذى لا مزيد عليه لأنه مسرف مرتاب ، وقد سبق قوله ونجد الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة هم المنحرفون من الاديان المتحللون منها ، وهنا يدعى أن ما معه من الفضائل والاخلاق الحسنة مكتسب من الديانات الى آخره فسبحان من طبع على قلبه . ثم دعواه أنه مكتسب أيضا من التربية التى كونها لنفسه ومن الانانية ممنوع ولا يستقيم على هذه المقدمة ، فان المطبوع على الشر والخبث والظلم يمتنع أن يكوّن لنفسه تربية حسنة فان التربية الحسنة انما تنتج عن محل فيه قبول لها وعناصر قابلة لها من الخير ، وهى هنا مفقودة أو موجود ضدها ، ولماذا كانت الحيوانات الخبيثة خبيثة دائما فان غاية ما توصف به فى أخلاقها بهذه الاوصاف التى سجلها هذا المغرور على بنى آدم الذين أكرمهم الله فى قوله تعالى ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ فبأى شىء كرمهم اذا كانوا مطبوعين على هذه الأوصاف والمتدينون منهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا والمتحللون من الاديان هم الذين صنعوا الحياة ، ظلمات بعضها فوق بعض ، أما التعاليم الدينية فانها تنطبع فى الانسان لما كان فيه قبول لها بفطرته

الخيرية التى هى موضع قبول دواعى الخير والاحسان ويمتنع أن يكون موضع دواعى الخير والاحسان خبيثا شريرا شيطانا وهذا ظاهر ، وقد قلنا فيما سبق أن الانسان خلق حنيفيا فيه سرٌ فطرى لقبول الدين الذى هو مادة الخيرات بأسرها ، ولسنا نقول انه مطبوع على الخير والعدل والظلم بل نقول فيه فطرة مودعة لقبول الخير وان كان بجانبها نقائص كثيرة ، فان البشر لابد من طبيعة النقص فيه لكن الله تفضل عليه بفطرة يمكنه بها أن يستمد حياته وسعادته من روح ونور الأديان السماوية التى هى الحياة الصحيحة ، والفطرة ليست هى نفس الخير بل هى تهيؤ وطبيعة قابلة لمادة الخير ، وهى محل لقبول ما يرد عليها من دواعى الخير ، لكن يجب أن يعلم أن الناس مختلفون فيها اختلافا كثيرا ، فمنهم من تكون فطرته ضعيفة جدا وتكون طباع النقص المجاورة لها قوية جدا كالكبر والعجب والظلم ونحو ذلك من الاخلاق الأخرى ، ويكون الداعى الذى يرد عليها ضعيفا ركيكا والداعى الذى يرد على تلك الخصال الاخرى قويا بسبب البيئة التى يعيش فيها الانسان ، فمثل هذه سرعان ما تفسد نهائيا كما يفسد اللبن الذى يتلوث بالنجاسات الغليظة فانها تطغى عليه حتى ينعدم الانتفاع به ، أو كما تفسد الحبة القابلة للنبات بورود قوة المعارض ولا سيما اذا كانت حياتها ضعيفة . ومنهم من تكون فطرته بالعكس فتكون قوية نشيطة سريعة القبول ، والداعى قوى ملائم لها ، ومضاداتها ضعيفة كما أن دواعى مضاداتها كذلك ضعيفة فتقوى هذه الطبيعة الخيرية وتكبر حتى تتلاشى فيها الطباع الأخرى . والناس مراتب على هذا التفصيل كل بحسب قوة فطرته وضعفها ، على أنه يجب أن يعرف أن للبيئات فى ذلك اثرا عظيما . ثم انه يجب أن يعلم أن علماء النفس من الأولين والآخرين مختلفون فى طبيعة الانسان اختلافا كثيراً فمنهم من يقول انه طبع على الشر والظلم ومنهم من يقول طبع على حب الخير والعدل كما أشار الى هذا صاحب كتاب (الوجود) السيد محمود

الفيضى وغيره ، والصحيح هو ما ذكرنا [١] ولكن يعرف أن الذين قالوا انه طبع على الشر والظلم لم يدّعوا فى الانسان مثل ما يدعى هذا المغرور فان أكثر الكفار ينزه نفسه ويستحى أن يتفوه بمثل ما تفوّه به هذا الذى جعلنا مطبوعين على الشر والخبث والظلم ، ولم يكتف بذلك حتى جعلنا شياطين ، فأى فرق بين الانسان والشيطان اذن إلا بالدين وهو قد ذم الآخذ به وادعى أن الذين تركوه هم الذين صنعوا للحياة فتكون الشياطين هى التى صنعت للحياة والمقصود ان هذا الذى ذكره لا حجة له فيه وانما هو حجة عليه سواء أكان الانسان مطبوعا على ما ذكر من الشر والخبث والظلم أو على الفطرة المستقيمة على ما مرّ تقريره

ثم قال : « وعلى هذا فمن الجهل الفاضح التلفت الى الوراء بقصد الاقتداء والاحتذاء ، وانما يجب الهروب دائما من الماضى والتطلع الى المستقبل الباسم »

فيقال : هذا لا يصلح أن يكون تفريعا على ما تقدم ، انما يصلح أن يقال فمن الجهل الفاضح التلفت الى ما يخالف الأديان لأن من خالفها ينشأ على الشر والخبث والظلم والعدوان المطلق لانك قررت أن ما مع الانسان من الاحسان انما هو مكتسب من الديانات ، ولو ترك على حاله لظل مصحوبا بهذه الطباع طول حياته ، فيجب أن تفرّع على هذا وجوب الحث على ما يضاد هذه الاخلاق ويطهرها ويذيبها ويذهبها وهى تعاليم الدين التى هى مصادر الحياة والخير والاحسان . ولا معنى لدعواك هنا فى منع التلفت الى الوراء والتطلع للمستقبل مادمت تعتقد أن الانسان مطبوع على هذه الخصال الخبيثة فانه اذا كان مطبوعا عليها فهى ملازمة له فى الماضى والمستقبل والصغر والكبر ما لم

---

(١) ويدل على ما ذكرناه اختلاف الاطفال المميزين فى الميول الى الخير والعدل والميول الى الشر والظلم والخبث ، والطفل من حين يميز تظهر عليه سجاياه وأخلاقه التى تصاحبه فى حياته غالبا

يعترضها دين فيعدلها بقدر قوته ، ولا شك أن آثار الديانات فى الماضى أجد وأكثر وأطهر ، وكلما بعد العهد من الديانات كثرت آثار هـذه الخصال لضعف مقاومتها ، فاذن يجب على هذا تتبع أثر الديانات الصحيحة وتحصيلها سواء كان من الماضى أو الحاضر أو المستقبل بلا فرق . والذى أوقعه فى هوة هذا التناقض والاضطراب والقلق الفاحش فى هذه الجمل التى نقلناها عنه فى طباع الانسان أنه لما وجد تقرير هـذا المتخصص من علماء النفس سحر به وكبر عليه مخالفته واستعظم ذلك استعظاما غلب على شعوره وعقله فلم يعبأ بالتناقض ، فألقى ما معه من القول الأول فى استعدادات الانسان ومواهبه الطيبة الى الكمال والرشد وغمض عينيه وتعلق بركاب هذا المتخصص مقلدا له أينما توجه وكيفما قال ، ولو أن هذا القول قاله فقيه من فقهاء الأمـة قد بلغ فى العلم والمعرفة ما بلغ لنبذه واستهزأ به وضحك منه ورماه بكل ما خطر على باله ، وهـذا هو الذى يليق بمن انسلخ من آيات الله واتبع هواه ، نسأل الله التوفيق بمنه وكرمه

فصل

قال : « ومن هذه الدلالات الايمان بأن الانسان يتقدم ولا يتأخر ، وأنه خلق متطورا من شر الى خير ومن نقص الى كمال »

فيقال : كل هذا كذب وكلام لا وجه له فيقابل بالمنع والرد ، لانه هذيان لا قيمة له كما لا يخفى . ثم قال : « ومن هذه الدلالات أيضا العلم بان ترك الاطفال لطبائعهم بدون تعلم ولا تربية انما هو بمثابة تركهم للوحشية العريقة الغريقة فى كل ألوان العدوان وانهم يبنون بقدر ما يخلصون من تلك الطباع الموروثة العادية ويهدمون وتهدم أممهم وشعوبهم بمقدار ما يترك لهم ومعهم من هذه المخلفات الموروثات »

قلت : كل هذا على فرض تسليمه انما يدل على وجوب المحافظه على

الاخلاق الدينية لأنها هى التى تزيل هذه الأخلاق وتطهرها ، فهى الطريق الى الرشد والتخلص من هذه الطباع الخبيثة ، وتعاليم الدين تعاليم مقدسة طاهرة عالية زكية فهى الدواء الوحيد لها . وقوله « ان ترك الاطفال لطباعهم بدون تعليم ولا تربية » الخ ، يقال : وكذلك ترك غير الاطفال ممن نشأوا على هذه الطباع الخبيثة بلا تعليم دين وخطب تتكرر عليهم تعدل هذه الطبائع وتذهبها إنما هو بمنزلة تركهم للاباحية والفوضى والطبائع العدوانية ، لانك قررت أن ما معهم من الخير فهو مكتسب من الديانات ، فيجب عليك اذن الحث على معرفة هذا المعارض القوى والعمل به لمحو هذه الطباع وآثارها القاتلة

فصل

ولما كان قول المتخصص فى علم النفس له وقع عظيم فى نفسه وأنه شىء كبير عنده ولا يمكن أن يستهان به مهما كان الأمر ـ وهذا على تقدير ثبوت ما ذكر عنه ، وإلا فعلماء النفس لم يتفقوا على هذا الذى ادعاه ـ لهذا أخذ يعزز رأى هذا المتخصص حين وافقه بالاستدلال بالآيات على تصديق ما ادعاه ، وقد علمت مما مر أنه يوجب على الناس أن يكون معنى ما يستدل به من النصوص على طبق هواه بكل حال ولو خالف جميع المفسرين بل ولو خالف اللغة وقواعد الشرع ، ولهذا استدل بالنصوص على رأيه الأول ، ثم استدل بها على رأيه الآخر مع وضوح تناقضه فى الرأيين ، ومع هذا فانه لا يكتفى بدعوى أن الآية تدل على هذا وتشير اليه بل يدعى فى كل نص يستدل به أنه صريح فى ما يدعيه وان كان النص فى نفس الامر صريحا فى الدلالة على ضده فقال مستدلا على ما ادعاه فى طباع الانسان وهذا لفظه : « ويجب التنبيه هنا على أن الاسلام قد نبه على هذه القضايا كلها تنبيها صريحا ، فمن نصوصه الصريحة قوله تعالى ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ﴾ أى لاتعلمون شيئا من هذه الاصول المعلومة فى الاخلاق وفى التربية وفى الأديان

وفى التعاليم المختلفة ، وهذه الأمور انما تعلم بالتعليم ، فمن تركوا بدون تعليم بقوا لا يعلمون شيئا وبقوا أشرارا ظالمين لانهم لا يعلمون الاصول المنافية للشر والظلم الناهية عنهما ، فالاطفال ذكورا أو اناثا يكبرون وتكبر معهم هذه الطبائع العدوانية ان لم يعلموا »

والجواب أن يقال : ليس فى الآية الكريمة ما يدل على ما ادعاه ولا ما يشير اليه ، ودعواه أنها نص صريح بهت ومكابرة ، فان الله لم يقل والله أخرجكم من بطون أمهاتكم اشراراً خبثاء ظلمة شياطين حتى يكون هذا نصا فيما ادعاه ، وانما قال « لا تعلمون شيئا » وليس كل من لم يعلم شيئا يكون شريرا خبيثا ظالما كالأصم الأعمى الأخرس ، فان مثل هذا الكلام لا يقدم عليه الا مجازف لا يفكر فيما يقول ويدعى ، بل الذى ثبت أنهم خلقوا حنفاء على الفطرة فطرة الدين ، وقد دلت الآيات على عكس ما يدعيه ، وذلك أنه تعالى غرس فيهم استعدادا كاملا لقبول التوحيد كما قال تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ وقد ذكر المفسرون أن الله سبحانه استخرج من ظهر آدم ذريته وأنه أشهدهم على أنفسهم بالتوحيد فشهدوا به ، وهذا هو فى معنى الفطرة ولم يرد قط أنه تعالى غرس فيهم أو فى طبعهم الشر والخبث والظلم فى شىء من الآثار مطلقا ، وقد ادعى هذا الملحد فيما سبق أن الله ذرأ فى خليقته بذور الكمال ، فكيف يذرأ فى خليقته بذور الكمال والرشد وهو خلقهم مطبوعين على الشر والخبث والظلم ، ومعلوم أن هذه الصفات نقائص لاخير فيها كما اعترف هو بذلك ، فكيف يكون من طبع على صفات النقائص مستعدا للكمال والرشد العقلى ويكون فيه بذور لذلك ، ثم كيف تتفق دعواه أن الاخلاق الخيرية مكتسبة من الديانات والتربية مع قوله فيما مضى اننا لا نحتاج الى مهماز ندفع به الانسان الى العمل ، بل هذا المهماز موجود فيه وفى طبعه ، فسبحان من أخزاه وجعل كلامه ينهار وينقض بعضه بعضا ، وهذه سنة الله فى كل مرتاب

ثم قال « ومن هذه النصوص قوله تعالى ﴿ وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ﴾ وقوله ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ وقوله ﴿ ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ وقوله ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة معلومة »

فيقال : كل هذه الآيات ليس فيها دليل واحد يشير الى ما يدعيه ، وهو لم يبين وجه الدلالة كما فى التى قبلها حتى نجيب عنه ، وليس فى ظاهر هذه الآيات ما يفهم منه أن الانسان خلق مطبوعا على الشر والخبث والظلم حتى يستدل بها ، بل هى كلها حجة عليه ، أما قوله تعالى ﴿ وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ فليس فيها ذكر للاطفال وليست عامة جنس الانسان ، فان الله أخبر أنه عرض الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الانسان لجهله وقصور نظره أو لاجتهاده المخطىء ، وهو ظلوم فى تحمل هذه الأمانة لانه أضعف من السموات والارض ، وجهول بالعواقب ولهذا جرت عليه هذه الأمانة ما جرت ، ولكن الله سبحانه لم يسكت بعدها بل بين أن هذا الانسان الذى تحمل الأمانة منقسم الى ثلاثة أقسام [1] قسم نبذها وضيعها وخالفها ظاهراً وباطنا ، وقسم نبذها باطنا وادعى ظاهرا أنه متحملها ، وقسم اجتهد وأدى مافى استطاعته من حملها فحملها ، فالقسمان الاولان معذبان والثالث تصيبه الرحمة والمغفرة وهم الذين استثنى الله من جنس الانسان الظلوم الجهول لانهم آمنوا وعملوا الصالحات حيث قال بعد قوله ظلوما جهولا ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ . فهذه الآية كما فى سورة التين وسورة العصر ، فالقرآن يصدق بعضه بعضا ، وكذلك قوله تعالى ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ فالمراد بذلك الكافر ، فان الله وصفه بأنه لم يقض ما أمره

(١) كما فى أول سورة البقرة

الله به كما دل عليه سياق الآية بعدها فهى كقوله ﴿ أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ﴾ فالآية حجة عليه لان عنده أن من قضى ما أمره الله به من الأعمال الصالحة وصدق بالبعث فانه لا يتقدم فى الحياة ، وكذلك قوله تعالى ﴿ كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ فهى حجة ظاهرة عليه ، لأنه أفرد فصلا كاملا طويلا فى الحث على الغنى ولم يعبأ بالطغيان ، والله لم يذم هنا إلا الانسان الطاغى ، لامن آمن وعمل صالحا ثم اهتدى فان الله قد مدحه ، فأى حجة له فى الآية حتى يحتج بها . وأما قوله ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ فلا ندرى من أين استنبط بفكره الدلالة منها على أن الانسان بطبعه شرير خبيث ظالم شيطان ، فالآية بمعزل عن هذا فلا حجة فيما ذكره اصلا ، ودعواه أن هناك آيات كثيرة معلومة تدل على ما ادعاه كذب ، فليس هناك آيات لا معلومة ولا مجهولة ولا قليلة ولا كثيرة بل الآيات الكثيرة دلت على ضده كما سبق

فصل

قال « وفى الحديث الصحيح المشهور (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) وقد أكثر شراح الحديث من الكلام على هذا الحديث كدأبهم فى كل نص يقع بين أيديهم ، ولا التفات الى ما قالوه لانه غير قائم على أصل من أصول العلم المقررة . والمعنى الذى يجب ان يفهم هو أنهم يولدون على الفطرة الأولى ، والفطرة الاولى معروفة وهو الجهل بكل التعاليم الموجودة اليوم عند الانسان سواء أكانت تعاليم دينية أم تعاليم أخرى ، فهم لا يعلمون شيئا من هذه التعاليم بسجاياهم وطباعهم لأنها طباع اكتساب وتلقين وانما يعلمونها اذا لقنوها وعلموها ، وكل طفل وما يلقن ويعلم ، أى انه يتجه على حسب التوجيه الذى يصادفه وعلى حسب ما يريده موجهه ، فان كان معلمه وموجهه ومربيه نصرانيا جاء نصرانيا وان كان يهوديا جاء يهوديا وان كان مجوسيا فكذلك وان كان مسلما فلا بد أن يكون مسلما كما يشاهد فى كل زمان

ومكان ، ومعلوم أن لكل دين من هذه الأديان ولأصحابها طريقة فى تعليم الاخلاق والتربية المأخوذ أكثرها من الدين نفسه ، ولو تركوا فلم يعلموا شيئا لا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا إسلامية لبقوا على فطرتهم أى مجردين من كل دين ، وفطرتهم هى العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط ، والفطرة حينما تطلق إطلاقا ليست ممدوحة وليست خيرا (١) واذا قيل الأمم الفطرية كان معنى ذلك تلك التى تركت بعيدة عن التعليم والتهذيب فهى جاهلة والفطرة مأخوذة من الفطر وهو الذى ترك لخلقته الاولى التى لا أثر للعلم والتعليم فيها وهذا لا خير فيه ، والاسلام لا يقبل شهادة الاطفال ، ونحن نفهم أنه إنما ردّ شهاداتهم لما جبلوا عليه من الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء ، وأما قول بعض الفقهاء - أو قولهم كلهم - انه رد شهاداتهم لأمور أخرى ذكروها فهى من جملة أقوالهم الكثيرة التى تموج بها الكتب موجا من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية » . انتهى كلامه على هذا الحديث

والجواب أن يقال : اولا قد حرف متن الحديث ، فانه حذف ما يبين المراد منه ويوضح معناه ، وهو مبتلى بهذه الحرفة اليهودية فى التحريف ، والغالب أنه يحرف اللفظ والمعنى جميعا فلا يكتفى باحدهما ، ولو أنه ساقه بكماله لظهر المعنى وظهر بطلان تقريره عليه ، ونحن نسوقه بجملته ، فنى الصحيحين عن أبى سلمة أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء . ثم يقول ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ فهذا الحديث - كما ترى - فسر آخره أوله ، فبين أن المراد بالفطرة قبول الدين القيم ، يوضح هذا ما

(١) سيأتى أنه ينقض هذا من نفسه قريبا

رواه مسلم فى صحيحه عن عياض المجاشعى أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته : « ان ربى عز وجل أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا . كل مال نحلته عبادى حلال ، وانى خلقت عبادى حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا » الى آخر الحديث ، فهذا الخبر الصحيح صريح فى أن المراد بالفطرة الاستعداد والميل الى قبول الدين الذى هو أصل كل خير ، وأنها ممدوحة لا مذمومة . ثانيا : ليس فى هذا الحديث من الدلالة على ما يدعيه من أن الأطفال طبعوا على الشر والخبث والظلم ، وانما فيه « كل مولود يولد على الفطرة » وليست « الفطرة » هى الظلم والشر والخبث فى لغة العرب المعروفة إلا فى لغة هذا الملحد بعد أن ارتد ، وإلا فهو قد قرر أن الفطرة هى الخير كما يأتى قريبا ، وهذه كتب اللغة وكتب التفسير وغيرها موجودة فى كل مكان من المكاتب ونحوها ليس فيها شىء من ذلك ، بل الذى فهمه العلماء ودلت عليه النصوص أن الفطرة هى الاستعداد لقبول التوحيد والدين كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ فالآية صريحة فى أن المراد بالفطرة التى خلق الناس عليها هى اقامة الوجه للدين ، فانه فسر إقامة الوجه للدين بالفطرة لأن الله أمر نبيه عليه الصلاة والسلام باقامة الوجه للدين حال كونه حنيفا أى مائلا عن كل ما سواه ، وهذه هى حقيقة التوحيد ، ولهذا كانت هذه الفطر مركوزة فى جميع بنى آدم ماعدا الملاحدة ومن ضارعهم من الجهمية الذين هم أصل كل ملاحدة هذه الأمة الذين ينكرون علو الله على العرش فوق العالم وينكرون كثيرا من الصفات كالكلام ، فان الخلق كلهم - عدا من ذكرنا - يقيمون الوجه للدين فيقبلونه مائلين اليه مقرين بالخالق بصفاته ، فتراهم اذا اشتدت بهم الضراء يرفعون أيديهم الى السماء متوجهين بقلوبهم ووجوههم اليها لعلمهم بان الله فوقها ، وقد نص النبى ﷺ فى حديث عياض المتقدم نصا

قاطعا بأنه سبحانه خلق عباده حنفاء كلهم فأن الشياطين أتتهم فأضلتهم عن فطرتهم التى خلقوا عليها وأضلتهم عن دينهم الملائم للفطرة ، فالحديث نص قاطع فى المسئلة لا يقبل أى تأويل ، ومعلوم أن الاشرار الخبثاء الظلمة ليسوا هم الحنفاء ، كما أنه معلوم بالضرورة أن الشياطين لا تضلهم عن الشر والخبث والظلم ، ويدل على هذا أيضا أنه قال فى نفس الحديث « فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ولم يقل فى الاسلام كما قال فى اليهودية والنصرانية والمجوسية ، وهذا يدل دلالة صريحة على الفرق بين هذه الأديان وأن الاسلام بخلاف ذلك ، أى أنه الأصل الذى خلقوا له ، أى لو تركوا هم وفطرتهم لعرفوا الاسلام لما بهم من القبول والاستعداد الاصلى الملائم لتعاليمه ، ولهذا مثل النبى ﷺ اليهودية والنصرانية والمجوسية بالجدع ومعلوم ان الجدع على خلاف الاصل فهو تغيير للخلقة الاصلية فقال « هل تحسون فيها من جدعاء » فتبين بهذا النص وغيره أن الاطفال خلقوا على الفطرة ، وان الفطرة هى الاستعداد لقبول الدين استعدادا كاملا بحيث أنها لو تركت لمالت اليه بالطبع مالم يعترضها معارض يصرفها عن وجهتها ، ولا يلزم أن يكون هذا الاستعداد متساويا فيهم ، كما أنه لا يلزم من القيام برزقهم وغيره تساويهم فى ذلك ، ولو وجب التساوى فى كل خير لم تظهر الحكمة وللزم من ذلك أن يكون الناس جميعا كالملائكة أو كالانبياء ، وحينئذ لا يعرف الخبيث من الطيب والهدى من الضلال والسعادة من الشقاء والنور من الظلمة وأين محل العفو والصفح والعقاب والعتاب والرحمة وغير ذلك . وقد قلنا غير مرة ان هذا المغرور يطبق النصوص على وفق هواه ، فتجده يأخذ النص فيحمله على شهوته وما يريد ، ثم اذا اختلف رأيه جاء الى هذا النص بعينه فقلبه واحتج به على ضد ما احتج به فى الرأى الأول . وقد يظن بعض الناس أننا نسرف فى هذا والله يعلم أننا لم نظلمه أو ننسب اليه مالم يره ولم يقله ، واليك شيئا من الشواهد على ما قلناه فى نفس هذا الحديث ، فانك قد رأيت هنا أنه صرح بأن الفطرة

ليست ممدوحة وليست خيرا ، وأنه استدل بهذا الحديث على ذلك بأنها غير ممدوحة وأنها شر وخبث ، وقد ادعى فى نبذته (الفصل الحاسم) أن الاجماع قائم على أن الفطرة ممدوحة وانها مثنىّ عليها بل هى ممدوحة بكل لسان ، وان تغييرها مذموم بكل لسان ، واليك عبارته بنصها (صحيفة ٥٩) فانه لما استدل بالفطرة على العلو قال « الاول الاخبار مثل قوله ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ فقد أمره بالبقاء على الفطرة ولزومها ، وأخبر أنها الدين القيم وأنها دين الناس ونهى عن تبديلها ، ومثل قوله ﴿ واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ فجعل البقاء على الفطرة هو الحق والايمان ، وجعل تبديلها باتباع الآباء هو الشرك والكفران . وقال رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه » والحديث له روايات كثيرة تمدح الفطرة [1] وفى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ قال « قال الله تعالى : انى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم » الى آخر الحديث ، وفى بعض رواياته : إنى خلقت عبادى حنفاء مسلمين . الامر الثانى اجتماع الكلمة على مدح الفطرة والثناء على ما جاء من طريقها ، فالفطرة ممدوحة بكل لسان وتغييرها مذموم بكل لسان » انتهى كلامه بحروفه ، فانظر الى هذا التناقض الفاحش والانقلاب المنكر فى استدلاله بالحديث على رأيه الاول ثم استدل به على رأيه الثانى مع تضاد النظريتين ، وهذا دأبه ، يتلاعب بالنصوص كيف شاء لانه يرى أنه لا يمكن لأحد أن يساميه

---

(١) تأمل قوله « تمدح الفطرة » مع قوله فيما سبق والفطرة ليست ممدوحة وليست خيرا

فى العلم ولا فى العقل ولا فى البراعة ولا فى جميع الفضائل ، فهو يقول ما يريد لا معقب لما يقوله ويحكم به ، فما أجمعها من كلمة حيث قال « لو أنصفوا كنتُ المقدم فى الأمر » ولكن الناس تساهلوا فى معناها وغضوا أبصارهم عنها ، وهذه الغفلة هى التى أوجبت هذا التطور أو التحول فيما تم عنه وتدل عليه حتى اتسع الخرق على الراقع

ثم إنه من المحال فى العقل والدين أن يكون المولود المطبوع على الشر والخبث والظلم فيه ميول واستعداد لقبول الدين الذى هو مصدر كل طهارة وزكاة وخيرات ، فان هذه الطباع تضاده من كل وجه ، فهذه هى أصول الشر كله والدين أصل الخير كله ونحن انما أطلنا فى هذا الموضوع الخطر لأن هذا الملحد رمى هذا الانسان الذى أكرمه الله وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا بأخبث الأوصاف وأشنعها فيجب جهاده والدفاع والنضال عن الانسان المكرم المفضل ، فهذا الأحمق تارة يذكر أن الانسان أحط رتبة من الحيوان لا يستطيع الكلام ولا يعرف شيئا مطلقا ويعبد كل شيء فهو جاهل بكل شيء عابد لكل متحرك مضطرب كما يقول ، وتارة يجعله شريرا خبيثا ظالما شيطانا ، وحينا يدعى أنه لم يعجز عن شيء وأنه لا يقال لشيء من الأشياء كائنا ما كان انه فوق قدرته وانه يعلم كل شيء ، وأحيانا يدعى أنه كنوز مملوءة بالمواهب والاستعدادات ، الى أمثال هذا الهذيان البارد ، مع أن كل ما قاله من التعظيم انما أضافه خاصة الى المتحللين من الأديان لأنهم كما يقول هم الذين صنعوا الحياة ، أما المتدينون على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم فانهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وبكل حال فلا نعلم أحدا من الاولين والآخرين سلك مسلكه فى مسئلة الانسان لان ذلك كله جنون وتلاعب يستحى كل ذى عقل من أن يتفوه به كما أننا أيضا لا نعلم أحدا من الأولين والآخرين سلك مسلكه فى الاديان وشدة العداوة لها ولاهلها مع تلبسه بالنفاق العميق والزندقة الزائدة

وقوله « وقد أكثر شراح الحديث من الكلام على هذا الحديث كدأبهم

فى كل نص يقع بين أيديهم ، ولا التفات الى ما قالوه لأنه غير قائم على أصل من أصول العلم المقرر » فهذا تصريح منه بأن كل نص يقع بين أيديهم يكثرون الكلام عليه بلا فائدة ، وهو يرمى الى أنهم مختلفون فى كل شىء فيجب رفض كل ما عندهم لأن الحق لا يختلف ، وقد صرح هنا بان كل قول يقولونه على نص يقع بين أيديهم فانه لا يلفت اليه الا اذا كان قائما على أصول انسان اليوم ، يعنى كهذا المتخصص ، لانه قال والفطرة الاولى معروفة وهى الجهل بكل التعاليم الموجودة اليوم عند الانسان ، يعنى فالتعاليم التى لا تكون موجودة اليوم عند الانسان مرفوضة ، فقيده بتعاليم اليوم والا لم يكن للقيد فائدة ، فكل معرفة أو شرح حديث أو تفسير لآية يخالف الاصول المقررة اليوم عند الانسان فلا التفات اليه ، وقد كرر هذا المعنى مرارا كثيرة ، ولهذا أكده مستطرداً فى شهادة الاطفال بأنها انما ردت لهذا المعنى ، ولما كان يعلم أن الفقهاء كلهم يخالفون له فى هذا الادّعاء وأنهم انما ردّوا شهادة الاطفال لعدم التكليف لان العقل شرط فى التكليف كما أنه شرط لصحة كل عبادة وعقد شرعى ولأن الصغير يسهو ويغفل وتشتبه عليه أمور كثيرة تخل بشهادته ، فلهذا سلك هذا الملحد غير سبيل المؤمنين ، فخالف أقوالهم التى أجمعوا عليها وادعى أن ذلك هو بسبب كونهم مطبوعين على الخبث والشر والظلم ، ثم لم يكفه هذا حتى رمى كل من خالفه من الفقهاء بعدم العلم والدين والعقل ، لأنه صرح أن أقوالهم التى تموج بها الكتب موجا ليس لها قيمة عقلية ولا علمية ولا دينية ، فهم لم يهبوا الحياة شيئا جدا ، وانما الذى صنع الحياة هم المتحللون من الاديان ، فلهذا قدم عليهم كلهم ما أشار اليه هذا المتخصص الذى ربما أنه لم يفهم كلامه فى ذلك أو كذب عليه ، فما أرخص علماء الأمة وأخف ميزانهم عنده ، وهو عندهم كذلك بلا ريب

وها هنا نكتة هامة يجب التفطن لها ، وهى أنه أثبت بهذا الكلام أن الملاحدة المتحللين من الاديان كالأطفال أشرار خبثاء ظلمة مشتملون على كل

عدوان مطلق بدون قيد ولا ضبط ، وهذه عبارته التى تقدمت بحروفها فتأملها فانه قال « ومعلوم أن لكل دين من هذه الأديان ولأصحابها طريقة فى تعليم الأخلاق والتربية المأخوذ أكثرها من الدين نفسه ، ولو تركوا لم يعلموا شيئا لا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا اسلامية لبقوا على فطرتهم مجردين من كل دين [1] وفطرتهم هى العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط » انتهى . فتأمل هذه العبارة تجدها واضحة فى أن المجردين من الأديان يبقون على فطرتهم التى قرر أنها هى الجهل والخبث والظلم والشر والعدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط ، فكيف ينسبهم الى الجهل والشر والخبث وأنهم هم الذين صنعوا الحياة وأنهم هم أهل العلم ، ياليت من أحسن فيه فقطع لسانه ، لقد كان فضيحة على طلبة العلم فانا لله وانا اليه راجعون ، فقد رجع سهمه الذى رمى به جميع الفقهاء هنا على نفسه وعلى سادته من حيث لا يشعر ، وهو انما قال هذا ليمدح الملاحدة ولكنه ذمهم غاية الذم ، وفى المثل « اياك وصحبة الاحمق فانه يريد أن ينفعك فيضرك » وقد نقض فى هذه الجملة جميع ما تعب عليه من خلع كل وصف جميل على سادته من الملاحدة والزنادقة وأشباههم من المتحللين من الأديان ، فكيف يصنعون الحياة وهم مجردون من كل دين ، وقد قررت أن المجرد من الدين هو الباقى على خلقته من الجهل والخبث والشر والظلم والعدوان المطلق ، وأطم من هذا وأدهى وأمر أنه ادعى أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وهو كما ترى قرر أن هذه التعاليم مأخوذة من الدين نفسه وأن المجرد من الأديان يبقى على فطرته من الخبث والجهل والشر والعدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط . أنصفونا يا مسلمون وأنصفوا أنفسكم من هذا المعتوه الذى كان فضيحة عليكم عند الأجانب ، فسبحان من خسف بقلبه

---

(١) تأمل هذا

وجعله بهذه الحالة التى يستعيذ منها كل عاقل

فصل

قال « وها هنا يجب أن يفطن القارىء أنه لا تناقض بين دعوتنا الى الايمان بالانسان ومواهبه العديدة ، وقولنا هنا على جبله على الظلم والعدوان ، فاننا نريد بالقولين معاً أن الانسان خلق ناقصا شريرا ظالما جاهلا [١] ولكن خلق الى جانب ذلك معدا للتطور وللسير نحو الكمال ونحو البلوغ العقلى ، فهو شر بالنسبة للماضى ، خير بالنسبة للآتى »

فيقال « وفسر الماء بعد الجهد بالماء » كما فى المثل ، وأدنى عاقل يعرف أن هذا الجمع فى غاية السقوط ، فانه فى بداهة العقل أن يكون الانسان مطبوعا على الخبث والشر والظلم والعدوان المطلق ، وان يكون معداً للكمال والرشد العقلى والخلق ، فان هذا جمع بين النقيضين ، لانه انما يكون معدا للكمال والبلوغ العقلى اذا كان فيه بذور كامنة لهذا التطور الكمالى ، أما اذا كان مطبوعا على الخبث والشر والظلم والعدوان المطلق فلا يكون الا معدا للنقص والفساد الذهنى ، لان هذه الصفات نقائص ، وصفات النقائص تناقض صفات الكمال لأنها ضدها ، فكيف تكون هى أساسها وأصلها ، هذا لا يقوله من يدرى ما يقول [٢] ولكن السر الذى أولجك الى دخول هذا الضنك والمضيق العسر وأوقعك فى هذا التناقض الفاحش كونك لا تبالى بالتناقض فى جانب متابعة المتخصص فى علم النفس [٣] ، فمتابعته عندك وتقليده أمر فوق كل شىء سواء تناقضت أو لم تتناقض ، فأى سماء تظلك وأى أرض تقلك لو خالفت ملحدا

---

(١) كان من حقه أن يصفه بالخبث أيضا كما وصفه به أولا

(٢) وأخبث حيوان وأشره انما كان كذلك ، لأنه طبع شريرا خبيثا ظالما

(٣) أى الذى رأيته ملحدا

واحدا واتبعت متدينا واحدا وأنت قد قررت أن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان فكيف تخالف واحدا من هؤلاء الذين ادعيت أنهم صنعوا الحياة التى منها حياؤك وتتبع واحـــدا من المتدينين الذين قررت وشهدت عليهم بأنهم جميعا لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، هذا لا ينبغى لك على هذا الاعتقاد ، ولا عبرة لديك إذن بالتناقض فى مثل هذه الأشياء ، فان أمر المخالفة أكبر وأطم وأعظم وأجل من أمر التناقض ، لان المخالفة لديك هى المصيبة الكبرى والعثرة التى لا تقال . وقد بينا أنه حجة عليك ولو لم تتناقض

ثم انه استدرك على عادته فى المراوغة والخداع كما قال فيه السيد قطب يتوارى هنيهة فينكر ما تنطق به النصوص ، فاستثنى الأنبياء وقال انهم غير داخلين فى هذا الاصل الذى خلق شريرا خبيثا ظالما ، وانمـــا المراد بذلك الانسانية المتروكه لجهالتها . ولا يخفى مافى هذا الاستدراك من السقوط ، لأن كلامه فى جنس الانسان الذين هم البشر ، ومعلوم أن الانبياء من جنس البشر كما قال تعالى ﴿ قل انما أنا بشر مثلكم ﴾ فالمقدمة التى أصلها ساقطة ، وهذا الاستدراك أسقط منها ، لأن مقتضاه أن البشر خلقوا من عنصرين اثنين وهذا باطل ، ولو صح هذا لكان حجة عليه أيضا لانه يقال له اذن فالانبياء من عنصر طيب فيكون من تبعهم من المتدينين لهم الحظ الكبير من هذا الخير كل بقدر متابعته ، ويكون ضدهم من الملاحدة من المنافقين هم الباقين على الخبث والشر والظلم والعدوان المطلق ، واذن كيف يصنعون الحياة وكيف تكون لهم آثار طيبة وعلوم صحيحة ، فان هـذا كله يناقض مذهبه مناقضة صريحة فيكون حجة عليه على كل تقدير

فصل

قال « وكانت الانسانية اذ ذاك (يعنى وقت نزول القرآن) تعلم وترى أن أمما تسقط وأمما أخرى تقوم ، ولكنها ما كانت تعرف لماذا سقط من سقط

ولماذا ينهض ويسود من يسود ، وكل ما كان يمكن أن تعلل به هذه الظواهر هو زعمها أن الآلهة أو الاله (١) قد غضب على الامم الساقطة الهاوية فحفر لها فأسقطها ورضى أو رضيت - أى الآلهة - على الأمم الاخرى القائمة السائدة فأقامها وسودها ، أما الأسباب الاجتماعية أو النفسية أو غيرها من الأسباب التى صارت اليوم معلومة مدروسة فى قيام الأمم وسقوطها فكانت عازبة عنهم ، وكانوا عنها بعيدين ، لأن تطورهم ورشدهم كان حينذاك لم يبلغ هذا المدى »

والجواب أن يقال : أما كون الأولين يعللون سقوط بعض الأمم ونهوضها بأن الله تعالى أسقط هذه وأقام هذه وأن أكثر الأمم الساقطة كان سقوطها بسبب ذنوبها التى أوجبت غضب الله عليها فهذا مما لا شك فيه ، وإنكار هذا كفر صريح ، فان الله سبحانه هو الذى يعز الأمم وهو الذى يذلها ، ومجرد وجود أسباب مادية لذلك لا ينفى هذا ، فانه يعزها ويذلها بهذه الأسباب . ومن بديع حكمته أنه كثيرا ما يعز الأمم بأسباب ، ثم يذلها ويدمرها بتلك الأسباب نفسها وموجباتها ، ليقيم الحجة بأنه المنفرد بالعز والاذلال وحده لا شريك له ، وانما تلك أسباب مصير منافعها ومضارها بيد مسببها وانها محكومة لا حاكمة ، وأما قيام الامم فقد تقوم برضا الله سبحانه وقد تقوم قياما ليس صحيحا وهى كافرة ولكن لا بد من سقوطها ليقيم الحجة عليها على ما أسلفناه سابقا ، أما سقوطها فلا يكون أبدا إلا بموجب سخط الله عليها ، فاذا أراد الله لأمة خيرا وفقها لطاعته وللأسباب المادية التى تكون سببا لنهوضها وتقدمها ، كما أنه اذا أراد بقوم سوءا فلا مرد له ، ولا بد أن تكون لذلك أسباب من الفسوق والمعاصى وذلك لعلمه سبحانه بأنهم قد فسدت

---

(١) انظر كيف قرن الرب الجليل العظيم مع الأوثان فى هذه النظرية ، فلم يفرق بين الله وخلقه وأعدائه كالشياطين

فطرهم ولا يكون لبقائهم فى الارض الا الشر والفساد كالوباء ، قال تعالى ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيرا ﴾ وقال عز من قائل ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فاذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾ وقال تعالى ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيمة أعمى ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة جدا

فمن زعم أن سقوط الأمم ونهوضها ليس بارادة الله ، وأن الطاعة والمعاصى لا دخل لها فى ذلك وانما ذلك راجع الى الأسباب الطبيعية المادية ونواميسها فلا شك فى كفره ، بل ولا شك فى كفر من لم يكفره ، لان هذا تكذيب صريح للنصوص الصريحة الظاهرة ، ودعواه أن الأولين لا يعرفون الأسباب الاجتماعية والنفسية وغيرها مما يتعلق بالتقدم والتأخر فممنوع ، بل

هو كذب ظاهر يكذبه الشرع وجملة التاريخ المتواتر ، بل الأولون من الملاحدة والمشركين أعظم الناس مغالاة فى الايمان بالاسباب الاجتماعية والنفسية ، ولهذا قاتلوا الرسل وقاوموهم وحشدوا جيوشا عظيمة لقتالهم ، مع اعترافهم باطنا بصدقهم ، لانهم لا يرون للطاعات والمعاصى دخلا فى التقدم والتأخر فى الدنيا ، فهم معتمدون على هذه الأسباب اعتمادا لا مزيد عليه ، فالاعتماد على الأسباب هو الداء القديم فى الملاحدة والمشركين ، فان من المعلوم أن من أعظم الناس كفرا فرعون ، وقد بينا أنه من أعظم الناس تعلقا على الأسباب واعتمادا عليها ، فهو يرى فيها الكفاءة التامة ، ولا يرى للطاعات والمعاصى دخلا فى تقدم ولا تأخر ، ولهذا فانه عاند موسى وراوغ فى فهم كل آية حتى جمع أقصى ما لديه من سبب فى ازالة آية موسى فعجز عن ذلك فجمع قومه وحثهم على قتال قوم موسى، وأفهمهم أن فيهم الكفاءة اللازمة للقضاء على موسى ، وخطب فيهم بذلك فقال ﴿ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون﴾ وقد أتى فى هذه الكلمات القليلة بجميع أصول الملاحدة فى هذا الموضوع ، فوجه نظرهم الى استعدادهم ومواهبهم اللازمة فأخبر أن قوم موسى شرذمة قليلون معنى هذا بيان أنه كان يعتقد أن الكثرة تغلب القلة ولا سيما اذا كانت فى شدة الغيظ والحذر (١) فالحذر والصبر والكثره هى غاية القوة النفسية فى الميادين الحربية . وقال فى ترتيبهم فى القتال ورسم الخطة لهم ﴿ ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد افلح اليوم من استعلى ﴾ وهذا عين ما يعتمده أكثر الملاحدة فى هذا العصر وهو روح ما يدعو اليه هذا بدون نظر الى أن هناك قوّة غيبية قادرة على نصر من أطاعه وقهر من عصاه ، أما موسى فانه اخذ بالسبب الدينى أصلا ثم بالسبب

---

(١) وقد تقدم قوله تدفعها قوة الحسد وقوة الغيرة والغيظ

المادى فرعا ، فانه قال فيما قال لقومه ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ﴾ فحذرهم المعصية التى هى من أسباب الفشل والهزيمة وأمرهم بالصدق والاخلاص لانهما يوجبان الاعتماد على الله وحسن المعاملة معه وذلك هو سبب النصر ، وقال ايضا ﴿ استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ فأمرهم بالاستعانة بالله واستمداد النصر منه بالدعاء ، وأمرهم مع ذلك بالصبر وبين أن هذا الشىء الذى بيد فرعون وبيد غيره ليس ملكا له بل هو ملك لله يؤتيه من يشاء من عباده فليطلب ذلك بطاعته فمن أطاعه فقد فعل السبب الذى به يستحصل ما ينفعه ، ومن عصاه فهو من الهالكين المسلوبين النعمة فى الدنيا والآخرة ، ولهذا نفع موسى سببه وحصل له النصر والنجاح مع كونه أقل عددا وأضعف أسبابا مادية من فرعون فى قومه ، وأما فرعون فذهبت أسبابه وهلك وكان من الخاسرين . وقد كان من المعلوم أن الفرس والروم قاتلوا الصحابة ومن بعدهم بأقصى ما عندهم من الأسباب المادية معتمدين عليها ، وأن الصحابة قاتلوهم معتمدين على الله عاملين بالأسباب المادية معتمدين على ربهم ، فكان ذكر الله لا يفتر من أفواههم ، فهؤلاء الروم والفرس ما قاتلوهم بهذه الأسباب إلا لانهم يعتقدون الأسباب الاجتماعية النفسية ، ولو كان الأولون أى الموجودون وقت نزول القرآن أو من قبلهم لا يرون الاسباب الاجتماعية والنفسية شيئا فى التقدم والتأخر والسقوط والنهوض لما فعلوا ذلك بل لجلس المسلمون فى بيوتهم ينتظرون النصر من دون عمل ، وجلس المشركون فى مساكنهم ينتظرون التقديم بدون قتال ، فكيف يتجاسر من يدعى العقل أن يتفوه بهذا الهذيان بأن الأولين عازبة عنهم هذه الأمور وأنهم بعيدون عنها ثم يعلل ذلك بتعليل عليل وهو كونهم لم يبلغوا رشدهم ولم يبعدوا كثيرا عن طور الحيوانية على مقتضى ناموس التطور ، ثم انه مع هذا قد أقر أن انسان هذا العصر قد كاد أن يبلغ الرشد وهذه الأمم التى فى غاية الاستواء والنضج

فى هذه العلوم - كما يدعى - قد سقطوا ، ومن لم يسقط فهو مهدد بالسقوط وخائف منه

فصل

قال « هكذا كانت الانسانية يوم نزول القرآن : ترى ولا تعلم ، أو تنظر ولا تبصر كما جاء فى الكتاب الكريم ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون ﴾ وما أجمل هذا النفى والاثبات مجتمعين ، وما أروعهما متوازيين ، وقد جاءت إشارة الكتاب الكريم الى هذا المعنى فى آية أخرى أوضح وأجلى وهى قوله تعالى ﴿ فانها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وقد كان القرآن ناعيا على الانسان نقصه وحاله حينما قال ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ لان الله يريد بهذا المخلوق المختار الكمال وبلوغ الرشد ، وهذا لا يكون الا بعلم البواطن والنفوذ الى ادراك الحقائق ، أما الوقوف عند الظواهر فهو شان الطفولة ، والطفولة بلا ريب ليست هى القصد من الوجود [1] وليست غايته ، وانما هى طريقه وبدايته ، وجاء فى الكتاب فى سورة أخرى ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ [2] ولا يمر بالآيات مع الاعراض عنها إلا من لم يستطيعوا تجاوز الطور النظرى المجرد ، لان الحاسة العقلية عندهم التى تنفذ فى الاشياء متجاوزة مجرد النظر ضعيفة أو مفقودة أو ساكنة سكونا يمنعها تأدية وظيفتها ، ويشترك فى هذا النظر الظاهرى ثلاثة أصناف على ثلاث درجات : الحيوان ، ثم الاطفال ، ثم الامم البدائية أو الأمم التى أصيب عقلها العام بجمود يشبه الموت »

---

(١) واذن فما بالك تدعو الى أخلاق الطفولة التى هى أخلاق الملاحدة كما مر تقريره

(٢) الآية صريحة فى المشركين ، فلا معنى للاتيان بها هنا

والجواب أن يقال : مقصوده بهذا التطويل والتهويل الفارغ والبهت المكشوف فى الحط على الانسان الموجود وقت نزول القرآن تصغير شأن الصحابة وكل من فى عصرهم والشك فيهم وفى علومهم وأنهم على جهالة وضلالة وعدم اطلاع على الحقائق ، ولهذا ادعى فى المبحث العاشر أن الطريقة الوحيدة للشك فيهم وعدم الثقة بهم هو أن يعلم هؤلاء الكفر بهم والشك فيهم وأنهم ليسوا على ما يظن بهم . ولا تنس ايضا أننا قلنا فيما سبق إن هدفه الاكبر الذى هو موضع جميع السب والحط والقدح هم أولئك الجماعات الذين يقولون طريق المجد هو الأخذ بالأخلاق السلفية الدينية واتباع ما كان عليه السلف الصالح ، فأراد هذا المعكوس أن يعاكسهم فى هذه النظرية فأخذ يشوه سمعة السلف ويرميهم بالعظائم التى حاصلها الجهل والغباء والبلادة . ولماكان هذا الملحد يعلم أن تعظيم السلف فى قلوب الناس قد رسخ رسوخا عظيما أطال وأسهب فى إزالة هذا التعظيم ، وقد أكثر من تكرار ثبوت التطور حتى تجاوز به الغلو الى أن ادعى صريحا أن الانسان الأول لا يعرف الكلام ولا اللغة ولا الكتابة الخ ما ادعاه كما تقدم ، وادعى هنا أن الانسان الذى كان وقت نزول القرآن لا يبعد كثيرا عن طور الحيوانية ، لانه اذا قرر هذا الاصل بزعمه الذى هو السير الى سبيل الرشد والكمال سهل عليه الدعاية الى ان هؤلاء العصريين أكمل من الصحابة وأقرب الى الرشد ، لأن هذه على ما يزعم قاعدة التطور الذى أطار عقله ، هذا هو مقصوده من هذا الاسهاب والاطناب وإطالة الكتاب فى الحط على الأولين وتعظيم شأن المتأخرين ، فافهم هذا فانه مهم ، وبه تعرف مغزاه ومرماه فى جميع ما ادعاه فى هذا المبحث وغيره .

وليعلم أننا لا ننكر التطور المعقول فى نحو الصناعات ، فان الكلام فى مسئلة التطور طويل عريض ، وليس كل ما يدعيه فى التطور مسلم له بل كثير من العارفين بهذه الأمور المادية لا يقولون بقوله ، وقد قدمنا كلامه الذى ادعاه فى الثورة الوهابية وتصريحه بأن زعم التطور زعم كاذب بلا ريب ، وانما

التطور تطور صناعى فقط ، وأما الاخلاق فانها تتدلى تدليا لا يمكن المماراة فيه ولا فى بعد قراره ، وان قائل غير هذا إما غاش أو جاهل . هذا كلامه على ما تقدم ، فقد شهد على نفسه بأن القائل بالتطور فى غير الصناعات إما غاش واما جاهل ﴿ ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾ فهـذا المسكين مصاب بالقلق والاضطراب والتناقض المنكر فى كل أقواله وآرائه ، وذلك نتيجة الريب والشك وانطماس البصيرة

اذا علمت هذا ففى هذا الكلام الذى علقه على هـذه الآيات من الخبائث والتحريف مالا يعد ولا يحصى ، والعجب أنه ألف كتابا فى الرد على الرافضة فى قدحهم فى السلف ، ثم انه توعدهم وتهددهم بأعظم الوعيد والتهديد ، ثم أخرج هذه الاغلال التى شدها فى عنقه ويديه وخر لوجهه ، فزاد عليهم فى هذه الخصلة ، بل وغيرها مما هو أعظم وأطم بلا شك على ما معهم من سخافة الرأى وسوء الاعتقـاد

أما قوله « هكذا كانت الانسانية يوم نزول القرآن ، ترى ولا تعلم ، أو تنظر ولا تبصر » واستشهاده على ذلك بقوله تعالى ﴿ وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ﴾ فهذه الدعوى من أكذب الدعاوى وأفجرها ، فكيف يكون الصحابة ينظرون الى النبى ﷺ وهم لا يبصرونه فاذن هم كالأصنام بلا شك ، اذ هذه حالتها بلا فرق . ثم قوله « وما أجمل هـذا النفى والاثبات » نقول : وما أقبح تشويه هذا الجميل بالتحريف والكذب ووضعه فى غير موضعه ، فكأن عليك عهدا أن لا تدع فى هذه الشريعة الغراء جميلا إلا شوهته ، ولا مستقيما إلا حرفته ، ولا صحيحا إلا أفسدته فى أغلالك التى هى عنوان خبالك . وهذه الآية فيها قولان : أحدهما أن المراد بالضمير فى قوله تعالى ﴿ وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ﴾ الأوثان المعبودة من دون الله تعالى ، فان الله سبحانه يقول ﴿ والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم

ينظرون اليك وهم لا يبصرون ﴾ لأن فى هذه الأوثان التى هى رموز للمعبودين من المخلوقات ما هو مصور على صورة ذلك الانسان المعبود ، فهى تنظر ولا تبصر . والقول الثانى أن المراد بذلك الكفار ، لانهم ينظرون الى الرسول نظرا مجردا وهم لا يبصرون ما جاء به من النور والكتاب المبين ، والذى ينظر الى مجرد صورة الشيء ولا يعرف حقيقته ومعناه لا شك أنه جاهل به ، فنظره كنظر الأصنام أو نظر البهائم ، وهذا منطبق على الملاحدة ، فانهم ينظرون الى هذه الأخلاق الدينية والى أهلها ولا يبصرون ما عند اهلها وما فيها من المنافع العظيمة الجليلة التى لا تعد ولا تحصى ، ولهذا كانوا يسخرون منهم ومن عباداتهم وخطبهم ودعائهم ، لأنهم لا يبصرون ، فالكفار الأولون ينظرون الى النبي ﷺ والى أصحابه فى عباداتهم وأخلاقهم الدينية ولا يبصرون ما فى ذلك من الفوائد الجليلة بل يستهزئون بهم ، وهكذا كان ورثتهم من الملاحدة ينظرون الى أهل الدين كما تنظر البهائم والأصنام اليهم ، ولكن لا يبصرون ما عندهم وما فى هذه العبادات المقدسة من الفوائد العلمية والعملية . وهذا القول الأخير هو الراجح ، وهو لا ينافى الأول ، فهو شامل لكل من ينظر الى الرسول والى أتباعه وهو لا يبصر ما لديه من العلم والعمل ، ولهذا شبههم الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة نفسها بالانعام [1] وأما كون الصحابة داخلين فيها فهذا شيء لا يجرؤ عليه الا من هو فى غاية الزندقة والعدوان للدين وأهله ، بل الآية حجة عليه كما تقدم فانه ينظر ولكن لا يبصر الحق ، فهو ينظر الى القرآن والى أهله والى كتب الدين ولكن لا يبصر ما فيها من الآيات الكونية والعبر العظيمة ، وينظر أيضا الى هذا الوجود ولكن لا يبصر ما فيه من الدلالات الواضحة على قدرة الله وتغييره للأسباب والتحكم فى مسبباتها

---

(١) أى فى قوله تعالى ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ الى قوله ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾

وتنائجها ، فلا يعرف العبر الدالة على التوحيد والقصد والتوجه الى الله تعالى ودعائه والتضرع اليه وأنه هو المنفرد بحكم هذا العالم دون النواميس الطبيعية ودون المادة ، فهو الذى يحكم العالم بنفسه ويدبر الأمر من السماء الى الارض والنواميس تجرى بأمره وبمشيئته ، فهى محكومة لا حاكمة فى شىء مطلقا ، وهو الذى يعز من أطاعه وينصره ويؤيده ويعين من استعان به وصدق فى معاملته ولجأ اليه ، وهو ولى المؤمنين والمتقين ، وانه لنعم المولى ونعم النصير ، وهو المنتقم من أعدائه وهو المنكد المنغص عليهم الذى لا يرد بأسه ولا بطشه عن القوم المجرمين ، كل هذا لا ينظر اليه هذا المغلول المعكوس كما لا ينظر اليه الملاحدة المتمردون على أوامر الله تعالى ، فهذا ومن على شاكلته أولى الناس بالدخول فى قوله تعالى ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ ، كما أنهم أولى الناس بالدخول فى قوله تعالى ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ وفى قوله ﴿ فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وهذا الملحد لم نعلم أحدا بلغ مبلغه فى العماية والانتكاس والمعاندة للحق ، فهو من أشد خلق الله تكبرا وتمردا واعراضا عن آيات الله كما يدل على هذا كلامه ومراميه

وكذلك استشهاده بقوله تعالى ﴿ فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ فهى حجة عليه كما سبق ، فان العمى هنا هو عمى البصيرة ، وذلك هو الاعراض عن ذكر الله ، فان الاعراض عن ذكره هو أوضح برهان على عمى البصيرة كما قال تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ وهذا المغرور لم يكتف بالاعراض عن الذكر إذ جاءه ، بل أعرض عنه وحرّفه وشوّه سمعته ثم دعا الى الاعراض عنه ورفضه ، فيكون ممن أعمى الله قلبه وأضله عن سواء السبيل

وأما دعواه أن النظر الظاهرى ثلاثة أصناف الى آخره ، فقد بينا بالدلائل الصادقة أنه هو وأمثاله من الملاحدة فى درجة الحيوان والاطفال ، لما ذكرنا من الاتفاق فى التشابه المطابق بين الملحد والطفل ، ويشترك فى ذلك الحيوان ، لا سيما اذا كان الملحد اشتراكيا لا يحصل له من المعيشة الا مقابل تعبه فانه يكون كالبهيمة بدون أدنى فرق ، ولهذا وصف الله الملاحدة والمشركين بأنهم شرّ الدواب وأنهم أضل من الأنعام بصريح النص ، ومسخ من راوغ واحتال ولم يتبع ظاهر النص فى النهى - قردة وخنازير ، وهذا هو الواقع المشاهد ، يعرف ذلك كل ذى عقل سليم ، بخلاف أهل الدين فان الله وجه خطابه كله اليهم فى قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ إلا فى آية واحدة من القرآن ، ولهذا قال فى آيات كثيرة جدا ﴿ ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ، ﴿ يعقلون ﴾ ، ﴿ للمتقين ﴾ ، ﴿ للمؤمنين ﴾ حتى جعلهم مع الملئكة والأنبياء داخلين فى الجملة على حسب أعمالهم ومراتبهم كما فى قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لاإله إلا هو والملئكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾ ومعلوم أن الكفار والملاحدة غير داخلين فى ذلك فأدخل المؤمنين هنا مع الأنبياء فى هذه الشهادة وكفى بها فضيلة ، وأما المنافقون وأمثالهم من الكافرين فاخبر أنه لعنهم وأصمهم وأعمى أبصارهم ، وأخبر أنهم ملعونون أينما ثقفوا ، وهذا ظاهر لا ريب فيه

فصل

ثم قال : « كان هذا الطور الذى بلغته الانسانية يوم نزول القرآن ، وقد عمل الاسلام [1] أعمالا باهرة لا تكفر لنقل الانسانية من طورها هذا الى ما هو أكمل وأفضل ، فكان له من التأثير فى هذا النضج البشرى الذى نشاهده

---

(١) هنا احتاج الى المخادعة ، وبعد هنيهة يرجع وينكر ما تنطق به النصوص ، وهكذا

اليوم ما هو معروف ، فقد خطت الانسانية بعد ذلك الطور الذى نعماه القرآن عليها خطوات فاتت فى سرعتها وقوتها كل حساب وظن »

قلت : هكذا حاله ، اذا أسرف فى الكذب والفجور والخروج من العقل والدين ، وظن أن الناس قد عرفوا مغزاه ومرماه لجأ الى الخداع والمراوغة والمكر ، لأنه قد عرف أن هناك حميراً تدخل هذه المداجاة عقولها ويروج هذا عليها لضعف عقولها وبصائرها . فنقول اذا كان الأمر كما ذكرت فيجب أن تبين هذه الأعمال التى عملها الاسلام بايضاح وتفصيل ، وتصرف همتك اليها وتحث على العمل بها . وما رأيناك فعلت من هذا شيئا ، بل جعلت همتك فى محاربة دعاء الله والذين يذكرونه ويسبحونه ويحمدونه على المنابر والذين يعبدونه فى المساجد ، وادعيت أن ذلك شر ما يؤدَّى ، فاذا كان هذا عمل الاسلام عندك فعلى عقلك العفاء وهو كذلك ، واذا كان أيضا دين الاسلام قد عمل أعمالا فى نقل الانسانية من ذلك الطور الى هذا الطور فى النضج البشرى المشاهد اليوم ، وأن هذا الاسلام قد خطا بالانسانية خطوات فاتت فى سرعتها وقوتها كل حساب وظن فكيف تدعى أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وديارهم وأنبيائهم وأمزجتهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقه ، وأن الذين صنعوا لهذه الانسانية العلوم وصنعوا لها الحياة هم المتحللون من الاديان المنحرفون منها ، فما هذه المنافقة الظاهرة وما هذا الخداع الواضح وما هذا المكر السىء وما هذه المراوغات الثعلبية والتلونات الحربائية ، أفتظن أن الامة الاسلامية أنعام لا تفهم شيئا ولا تعقل شيئا حتى تلعب بعقولها وتموه على أبصارها وبصائرها ، بئسما سولت لك نفسك وبئسما ابتعت به دينك ، لقد كنت أشد الناس دخولا فيمن اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين

فصل

ثم قال: « فالانسان اليوم قد خلف وراءه عصر الظواهر وأصبح لا يقنعه ولا يشبع نهمه الا أن يعلم كل شيء علم ظاهر وباطن ، انه لم يكتف بان يعلم كل نواميس هذه الطبيعة [(١)] بل ذهب يتحكم فى هذه الخلايا والعناصر والذرات ، انه لم يرض بأن تقدم له مائدة عليها ألوان الطعام الشهى الواهب للجسم كل ما يحتاج اليه [(٢)] بل رأى أنه لا بد أن يعلم العناصر التى يتألف منها هذا الطعام ويعلم نسبها ومقاديرها ، ثم راح يؤلف من هذه العناصر أطعمة صناعية تفوق فى جودتها وحسنها وفائدتها ومذاقها الأطعمة الطبيعية ، انه قد حصر كل هذه الموجودات أمامه فى عناصر عينها وعددها ، فجاءت حوالى مئتين وتسعين عنصرا ، فكان هذا الانتصار فى معركة فاصلة ترتب عليه كل ما يترتب على الانتصار فى المعارك الفاصلة ، وقد طفق من أجل ذلك يشارك الطبيعة ويساميها فى كل أفعالها وعجائبها [(٣)] وصار من المعروف المألوف أن يقال هذا طبيعى وهذا صناعى أى طبيعى وانسانى ، وأصبح البترول الصناعى والمطاط الصناعى والخشب الصناعى وكل شيء صناعى لا يقل فى منظره ومخبره عن أخيه الطبيعى . واننا لنخشى أو نرجو ، وقد تحقق الأيام أى الأمرين أحسن [(٤)] أن ياتى الزمان الذى يقال فيه الانسان الصناعى والحيوان الصناعى ،

---

(١) هذا تصريح منه بأن الانسان اليوم قد علم نواميس الطبيعة كلها

(٢) كل هذا كذب ، فلماذا اذن يقع الموت

(٣) يعنى يسامى الله تعالى فى أفعاله ، ليت شعرى بأى شيء سامى الطبيعة وهو لم يفعل شيئا الا بها ومنها وفيها

(٤) لاشك أنك ترجو وان الرجاء أحسن لتصدق دعواك فى كون الانسان يقدر على كل شيء ، فهذا هو الاحسن لديك

وهذا مما لا يزال العلم أمامه حيران عاجزا ، ولكنه لم يعترف بالعجز ولم يفكر فى الاستسلام للاخفاق ، بل ما فتىء يهاجم ويناضل بعزم من يعلم أنه منتصر لا محالة . ومحاولة صنع المادة الحية أو ايجاد الحياة فى المادة لا يزال من المعارك الملتحمة التى لم يكتب للعلم حتى اليوم الظفر بها ، اذ يكاد يكون سر الحياة من أسرار الطبيعة التى لم يرفع عنها العلم الأستار ، ولكن الانسان يقول (١) انه قد انتصر فى نضال هو أشد من هذا النضال الدائر الحامى من أجل الانتصار على سر الحياة ولغزها ، وعلينا نحن أن ننتظر وان نلزم الحياد حتى نرى لمن يكتب النصر »

والجواب أن يقال : لما فرغ هذا الملحد من سب الانسان الأول ، واضاف اليه ما شاء من التنقيص والاتهام ، ثم أعقبه بسب الصحابة ومن فى عصرهم وقت نزول القرآن ، وأنهم لا يبعدون كثيرا عن الطور الحيوانى ، وأنهم لا يعرفون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، وأنهم ينظرون الى الرسول وهم لا يبصرون ، ورماهم بكل معانى الجهالة والضلالة ، شرع فى مدح إنسان هذا العصر لأنه هو المقصود بالذات فى الايمان به ، فقد عرفت من هذا الكلام من أوله الى آخره الدعاية الى رفض ما يدعو اليه أولئك الجماعات المذكورون فى صدر الكتاب من أن المجد ينحصر فى الأخلاق الدينية الأولى الخ والاعتماد على آراء ملاحدة هذا العصر ، وأن معنى الايمان بالانسان الايمان بملاحدة هذا العصر ، وإلا فجميع أناسى العصور المتقدمة قد كفر بهم كفرا عظيما شنيعاً ، وأضاف اليهم أخبث ضروب المقادح الانسانية كما سلف ، وقد تضمن هذا الكلام الذى ذكره هنا من الكذب والافتراء والمجازفة بل والكفر الفظيع ما لا يخفى على من له بصيرة فى دينه . ومن العجب أنه لشدة مجازفته فى الغلو فيه

---

(١) هذا من كيسك لم يقله أحد معروف ، فان كنت صادقا فأشر لنا عن واحد معروف قال بهذه الامور

لم يذكر عنه أكثر من معرفته لصنع الطعام ونحوه ، وقد حاول ارتكاب المكابرة فى مسئلة خلق الحياة فصدمته الحقيقة والواقع ، فأخذ يتخبط هذا التخبط الزائف ، فمن أكاذيبه وفجوره فى هذه الجملة دعواه أن الصنف الصناعى فى هذه الأمور التى ذكرها يفوق على الصنف الطبيعى وان ما عمله من المطاط والخشب والصوف واللؤلؤ لا يقل فى مخبره عن الصنف الطبيعى . فهذا الكذب البارد والفجور المكشوف لا يتكلم به إلا من يظن أنه يخاطب أغبياء جهلاء حمقى ، وإلا فأكثر الناس لا سيما من له دخل فى هذه الأشياء يعرف أن بينها فى المخبر وغيره فرقا بعيدا حتى انهم يجعلون خلطهما من الغش المردود ، وهذا اللؤلؤ الصناعى مع تطورهم فى دقة تشبيهه بالطبيعى عجزوا عن مساواته به من كل وجه بحيث يستحيل التمييز بينهما ، وكذلك الصوف والخشب وغيره ، وليس فى هذا كبير أمر فأصول الغش فى هذه المعادن وغيرها كالاحجار الكريمة موجودة من قديم فهذا الباد زهر[1] يغش ويصنع له جنس يقارب جنسه الطبيعى من قديم ، وكذلك غيره من الأحجار والعقاقير الكثيرة ، ولهذا كان كثير من العقاقير توجد مغشوشة فيوجد فيها الصناعى والطبيعى ، فأصول هذه الاشياء كانت موجودة من قديم وانما تطورت ، وإنشاء الأصل أعظم فى الدلالة على العلم وقوة التفكير من التفريع عليه والتوسع فيه ، فهؤلاء انما تطوروا فى معرفة هذه الامور لكثرة التجارب بخلاف الابداع الأول فانه يحتاج الى دقة تفكير وصحة قياس وقوة تطبيق ، ومن حكمته تعالى أنه جعل بينهما فرقا ولو غامضا لئلا يلتبس ما صنعه بقدرته الغيبية بما صنعه بقدرته على يد عباده ، فالله سبحانه هو الذى خلقهم وما يعملون فخلقهم وخلق عقولهم وآلاتهم وصنعتهم ، ولا يظن ذو عقل أن هذه الاشياء الصناعية تشابه خلق الله الذى اختص به ، أو أنهم قدروا أو سيقدرون على

---

(١) ويسمى الباكزه وهو حجر فيه خواص كثيرة للسموم وغيرها

ما يشابه خلق الله من كل وجه مما انفرد به ، فان هذا لا يمكن أبدا ، والله سبحانه وتعالى بين ما يمكن صناعته وبين مالا يقدر عليه الا هو وحده . وهذه الاشياء الصناعية ليس فى الشريعة نفى لقدرتهم عليها بل فى الشريعة نفى لقدرتهم على إحياء الموتى وخلق الحياة والنبات وأمثال ذلك ، وهذا لم يقدروا على أقل جزء منه . ولا شك أن الأمور الصناعية كلها ترجع الى مبادىء أساسية متقدمة والى أصول كامنة خفية موجودة خلقها الله سبحانه وتعالى وانما هدى هؤلاء الى أستخراجها فى أوقات تناسبها ، فان من سنة الله فى خلقه أن جعل آياته تتعاقب على هذا العالم فيبدل ما شاء ويغير ما شاء ويحول ما شاء ويرفع ما شاء كما قال تعالى ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ وقال تعالى ﴿ يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ فكل جيل لا بدّ أن يظهر له ما يناسبه وتقوم عليه الحجة به من الآيات المتجددة المصدقة لآيات الله الثابتة الشرعية والكونية ، فآياته مناسبة لحكمته وحاجة خلقه ، ثم هى كلها ترجع الى شيئين الجمع والتفريق ، فالجمع ضم شىء الى شىء آخر مناسب له على قانون ونسق متناسب طبق ما يتصوره الذهن على مقتضى الحاجة المدفوعة بالفقر الذاتى ، فالحاجة الشديدة فى الانسان التى يتكون منها الخوف والرجاء هى التى تدفع الانسان الى الحيلة والحيلة تدفعه الى التفكير فى طلب الخلاص من الضرر ، والتفكير ينظر الى السبل والطرق التى يمكن بها الخلاص فيصورها بصور كثيرة صحيحة وفاسدة والفاسدة أكثر لكنها بعد تجربتها تلغى ويؤخذ بالصحيحة ، ثم تتكرر عليها الافكار بالتجديد ، وكل فكر يلقى عليها من التجديد أو التحويل ما فى مقدرته وا كثر استمدادها بالقياس أو بالوحى ، فالضم هو نقل موجودات مخلوقات الى مثلها ، فليس هو اختراع فى الاصل انما هو اختراع فى التشكيل أى فى كيفية التأليف فيؤلف على حسب الغرض والقصد ، وأما التفريق فهو إزالة عوائق وعوارض غير مناسبة ، وذلك كجمع السفينة من عناصر مختلفة وتأليفها على قانون منظم ، وكبناء البيت فانه ضم عناصر مختلفة على قياس

منظم فهى تختلف فى ثلاثة أشياء : كثرة العناصر والمواد وقلتها ، وكبرها وصغرها ، واختلاف التركيب . فالسفينة شكل جمع من عناصر متنوعة كالخشب والحديد والحبال والقطن والزفت وغير ذلك ، وضم بعضها الى بعض على نسق موزون ، فباجتماع هذه الأمور صارت سفينة قابلة لأن تندفع بالهواء المنحصر ، فانها عرفت اولا بالقياس ، فان اللوح الواحد إذا ألقى فى الماء حمله الماء سواء كان كبيرا أو صغيرا ، فجمعت ألواح كثيرة وشد بعضها ببعض فصارت كاللوح الواحد ، وكذلك الطائرة فانها جمعت من عناصر مختلفة كلها أبدعها الله من العدم الى الوجود فركبت على قانون معين بالقياس على الطائر ، فان الطائر سواء كان كبيرا أو صغيرا انما يحمله الهواء المكون من حركته ولهذا لو كسر جناح الطائر سقط ولم يستطع الطيران ، وكذلك الطائرة فانها بهذا التركيب الهندسى صارت قابلة لأن تتماسك على ظهر الهواء القوى المنفعل عن قوة الحركة المكونة عن قوة الحرارة التى خالصها وروحها النور الذى هو أصل فى القوى كلها ، وكل من السفينة والطائرة فى امكان الانسان أن يهدمهما ويقلبهما شكلا أو أشكالا أخرى على صور متعددة ، وهذا بخلاف خلق الله الذى اختص به بقدرته الغيبية فانه خلق شكل بسيط متفاعل يكبر ويصغر بارادة غيبية فوق الاسباب الكونية كلها ، وبالجملة فالصناعات كلها جمادات مؤلفة على أشكال كثيرة لا يعدها ولا يحصيها الا الله ، ولم تزل أصول هذه الأمور موجودة فى السابق من الانسان الأول ، وحيث انها تتجدد بكثرة التجارب ، واكثر التجارب تتجدد أيضا بسبب تجدد الحاجات والضرورات والمصائب المتنوعة ، وبهذا صارت تتجدد شيئا فشيئا لتوارد العقول عليها وعلى موضوعاتها ، وكل عقل لا بد له من ميزة على غيره فى شىء ما ، ولا يلزم من تطور الأمور الصناعية تطوّر غيرها لعلمنا أن الأخلاق بحالها ، كما أن الأكل والشرب والهضم والشهوة فى النكاح وأمثال ذلك بحاله ، وبالجملة فالله سبحانه هو الذى انفرد بابداع أصول هذه الأشياء وبتنميتها فأخرجها من

العدم الى الوجود وذرأها بين خلقه لينتفعوا بها ولتقوم عليهم الحجة باكمال نعمه عليهم ، ولهذا كان أكثر هذه الصناعات تأتى غالبا فى الاوقات المناسبة لمجيئها

والمقصود أن المخلوقات نوعان : نوع صناعى وهو مختص بالجمادات وحقيقته تأليف مواد جمادية على أشكال منظمة ، فهذا مما جعل الله فى الانسان القدرة عليه لحكم كثيرة منها الدلالة على أن المصنوعات تدل على وجوب وجود صانع لها ، ولأن فى ذلك نوع تكليف اذا حصل معه نية كان فى ذلك أجر للعامل كأمور الجهاد ونحوها ، ولأن فى ذلك أيضا اظهارا للفروق بالعلم والمعرفة وامتحان الخلق فيمن يعتمد على الأسباب ممن يعتمد على مسببها الى أمثال ذلك ، وقد أخبر الله سبحانه بأن هذه الاموال والاولاد [1] فتنة ، وأخبر أن زهرة الحياة الدنيا فتنة ، فهذا كله فتنة ليتبين المطيع المخلص من المبطل الكاذب ، وقد أخبر سبحانه بأن هذا النوع فى قدرة الانسان عمله كما فى قوله تعالى ﴿ وأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ﴾ وقال ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ . والنوع الثانى مما اختص الله سبحانه وتعالى بابداعه وخلقه وتأليفه بقدرته الغيبية التى هى فوق جميع الاسباب ، وذلك كابداع أصول المواد كلها وخلق السحاب والمطر وخلق الحيوان وخلق الحياة فيه وخلق بذور النبات واخراج الحب من القصب والثمرات من خشبها ، وخلق الأمور المعنوية كالذاكرة والفهم والعقل والشهوة وخلق الحواس كالقوة الباصرة وقوة السمع وهداية القلوب وتقليبها وأمثال ذلك فهذا النوع لا يمكن بحال من الأحوال أن يقدر عليه مخلوق ، كما أنه لا يمكن بحال أن يقدر مخلوق على أن يأتى بمثل معجزة واحدة من معجزات الانبياء ، وبهذا يتبين لك الفرق بين الصناعى والطبيعى ، فالصناعى ليس بأكثر من تأليف المواد المخلوقة أو تفريقها على نظام مخصوص ، فهو نقل مخلوق لمخلوق من موضع الى موضع

---

(١) وهى داخلة فى الاموال

آخر ، والتفريق تمحيصه وتخليصه من شوائبه وعوارضه وما لا يلائمه ، فاستخراج البترول ليس هو خلق له بل هو بنفسه موجود سواء كان صناعيا أو طبيعيا ، فان الأشياء التى ليس فيها من هذه المادة شىء لا يمكن أن يستخرج منها شىء أبدا ، فهو كاستخراج دهن السمسم من بذوره لأنه موجود فيها فاستعمل له طريقة يستخرج بها ، وأما الاشجار والحبوب التى ليست فيها هذه المادة فلا يستخرج منها شىء من جنسه ، وكذلك الذهب والفضة والزئبق وغيرها فانها لا تستخرج إلا من المواضع الكامنة فيها ، بل آياته سبحانه التى يظهرها فى الجماد نفسه لا يمكن لأحد أن يقدر على الاتيان بمثلها كبساط سليمان عليه السلام فانه شكل من جنس أشكال كثيرة مصنوعة لا يمين عليها بمادة من المواد ولا بتركيب ، وهو جماد جعله الله يطير فى الهواء بسبب غيبي غير مفهوم ولا معقول ولا محسوس ولا يمكن أن يفهم أو أن يدرك بحال ، وهو بخلاف الطائرة فانها شكل من أشكال كثيرة ، فكل من عرف أسباب طيرانها أطارها من مسلم أو كافر كالمسئلة الرياضية ، والبساط ليس كذلك فلو ركبه غير سليمان لم يطر به ، فكان البساط معجزة لا يمكن أن يقدر على صنع مثلها أحد من العالمين لأنه معجزة وسيبقى معجزة أبدا الآبدين ، فان معجزات الأنبياء لا يمكن أن يأتى بمثلها أحد مهما بلغ ، سنة الله التى لا تبدل ولا تحول ، وأنت ترى على كثرة هذه الصناعات وتطورها قد عجز اهلها كل العجز أن يأتوا بمثل معجزة من معجزات الأنبياء من كل وجه على كثرتها كهذا البساط وهو فى شىء جماد فكيف بالحيوان الذى كان قطرة مائية تنقلب هيكلا بديعا كاملا فى معناه وهيئته الصورية يشبه مملكة كاملة منتظمة بملكها ووزرائه وأمرائه وموظفيه وجميع ما يحتاج اليه فيها مدة قيامها ، ثم هذا الهيكل على عظمته فى دقة التركيب وحسنه وانسجامه وتناسبه مشتمل على عظام وأعصاب وعروق ولحوم ودماء وغيرها ومع هذا يقبل ويدبر بنفسه ويمشى ويجلس ويضطجع ويفكر ويعلم ويعقل ويخاف ويرجو ويشتهى ويحنو ويغضبه

ويوالى ويعادى ويعاند ويصادق ويحامى ويجتهد ويقلد ويدافع عن نفسه ويمكر ويحتال ويخادع وينافق ويلحد ويوحد ويشرك ويصدق وينصح ويغش ويجادل ويسمع ويبصر ويشير ويعبر عما يوسوس فى نفسه ويخالج ضميره لجنسه ولغير جنسه ، وله أبواب كل باب له وظيفة خاصة لا يصلح الا لها وفيه أنهار مختلفة الطعوم والروائح والألوان ، وهو بجملته على ألوان مختلفة من أبيض وأحمر وأسمر وأصفر وأسود ومختلط الى غـــير ذلك من الصفات التى هى فى غاية الاحكام والابداع فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأصل هـــذا كله قطرة ماء مشاهدة محسوسة ليست شيئا يذكر ، وكل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه أن من عجز أن يمنع الموت من حلول جسم كامل التنظيم والمزاج ، ويعوضه حاسة واحدة مفقودة من حواسه أى نفس الحاسة المعنوية كالقوة الباصرة فأولى أن يعجز غاية العجز عن ايجاد أضعف حيوان . وهذه قضايا ثابتة ظاهرة لا يجادل فيها إلا مكابر مصاب فى دينه وعقله كهذا الرجل ، وبهـذا يبطل قوله « واننا لنخشى أو نرجو وقد تحقق الايام أى الامرين أحسن أن يأتى الزمان الذى يقال فيـه الانسان الصناعى والحيوان الصناعى » . فلا يخش ولا يرج ، فلن تحقق الأيام هـــذا أبدا ، فان حكم الله حق لا معقب لحكمه ولا مبدل لكلماته ، ونحن نعلم بالضرورة أن من عجز عن خلق حبة شعير تنبت أو حبة دخن أو أدنى حبـة من حبوب الأرض انه عاجز عن خلق ذباب ، فكيف بالانسان . وقد حكم الله سبحانه بعدم وجود ذلك وعدم قدرة المخلوق عليه قال تعالى ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ فاحتج سبحانه على المشركين بأن هؤلاء المعبودات على اختلاف أجناسها لا يمكنها أن تخلق شيئا يضاهى خلقه بحيث يتشابه الخلق عليهم ، ثم أخبر أنه هو الواحد القهار ، فهو المنفرد بالخلق الذى لا يشاركه أحد فى خصائص الألوهية التى منها الخلق والابداع ، اذ لو شاركه أحد فى هذه الخصائص لكان الها وهو ممتنع ، لأنه اذا كان مثله لم يكن واحدا

قهارا بل يكونان الٰهين كل منهما قد قهر الآخر فهما مقهوران والمقهوران عاجزان والعاجز لا يصلح للربوبية ، وقال تعالى ﴿ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب﴾ فقوله تعالى ﴿تدعون من دون الله﴾ أى غيره ، وهذا شامل لجميع المخلوقات فان فى المشركين من يدعو الملئكة والانبياء والجن وغير ذلك ، فاذا كانت الملئكة على اختلاف أصنافها وعظمتها وقوتها وطهارتها عاجزة عن أن تخلق ذبابا فكيف بمن يبول الذباب على أنفه ، وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ انه قال « قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة وليخلقوا شعيرة » وهذا تحد وتعجيز ظاهر لهم ، لأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، فقد علم أنهم لا يقدرون على شىء من ذلك مهما حاولوا وبلغوا ، وهكذا كان الواقع ، فان من عجز عن منع الروح من خروجها فى الجسم الكامل لا شك أنه عاجز عن ايجاد الروح فى الجسم أو ايجاد الروح والجسم معا ، وهذا أبعد ، بل جناح الذباب أو رجله لا يمكن لاى مخلوق أن يخترع عوضا عنها ويجعلها بدلا منها ، وكل هؤلاء الذى عملوا ما شاء الله من الصناعات المدهشة عجزوا غاية العجز عن إبداع حبة من سائر الحبوب تنبت فتكون كخلق الله تعالى ، ومن المحال فى العقل والدين ان يتحدى الله الناس بشىء وهو يعلم أنهم سيفعلونه ، فان هذا ينافى علمه بما سيكون ، وهذا كفر ظاهر ، وهذا الذى قاله هذا الملحد صريح فى أن خلق الحيوان غير مستحيل ، فان المستحيل لا يقال فيه نخشى أو نرجو بل يقال نيئس أو نحو ذلك من العبارات ، وانما يقال نخشى أو نرجو فى الشىء الممكن وقوعه الذى يتساوى فيه الوجود وعدمه ، وهذا ظاهر لا غبار عليه . اذا علم هذا فمن اعتقد أن مخلوقا يقدر على ايجاد شىء من الحيوان بعوضة فما فوقها أو من النبات حبة شعير فما فوقها فهو كافر خارج من ملة الاسلام ، لأنه صادم النصوص ، وأشرك بالله فجعل معه إلها يخلق كخلقه »

وفى قوله «وقد تحقق الأيام أى الأمرين أحسن» يعنى الخشية والرجاء، وهذا تصريح مؤكد لما قبله فى تجويز ذلك، وبأن الأيام ستحققه أو يمكن أن تحققه ومعلوم ان الايام لا تحقق المستحيل أبدا، وهذا واضح، ولولا غربة الاسلام لم نحتج ان نطول الكلام على مثل هذا لوضوح بطلانه . وقوله «وهذا ما لا يزال العلم أمامه حيران عاجزا» فيقال: هـذا دليل على نقص عقـلك وخفته وعلى طيشك وجنونك اذ ادعيت مالم تحط به علما ولم يوجد، وهو من الأمور العظام التى تتعلق بأصل الدين، فلِمَ لم تسكت وتصبر وتلزم الحياد حتى يتبين لك ما تخشاه أو ترجوه، ولو كنت مع هذا الالحاد والنفاق والمخادعة عاقلا للزمت السكوت واعتصمت بالصبر حتى يظهر لك ما به يمكنك أن تقول به وتصول، ولـكن أبى الله إلا أن يفضح من تعرض لدينه واتبع هواه

فصل

ثم ذكر مسئلة تطور السفن وقاس عليها التطور فى الصناعات، وقد تقدم الكلام على هذا ، ويكفيك اعترافه بأن التطور تطور صناعى فقط، والذى يقول غير هذا إما غاش أو جاهل كما تقدمت عبارته فى ذلك ، فلا حاجة الى تكرار الجواب، وقد بنى على هذا أن الانسان عظيم

ثم قال: «إن من السخف المبين أن يظل خطباؤنا ووعاظنا وجميع رجال الدين وغير رجال الدين ينشدوننا الأناشيد ويقذفوننـا بالخطب تلو الخطب وبالمقالات إثر المقالات مؤكدين لنا بأن الانسان ما خلق ليكون عالمـا ولا ليكون شيئا كبـيرا ولا ليغالب الطبيعة ولا لينازع الله فى علمه وقوته[1] ولا ليخرج من طبيعته، وإنما خلق عبدا ضعيفا جاهلا ليبقى أبدا ضعيفا جاهلا ، وانما خلق من التراب وسيبقى أبدا فى التراب، وانما خلق ليثبت له ويبـين أنه

(١) تأمل هذا الـكفر الفظيع

لن يستطيع ان يكون عالما كما يقول أحد الشيوخ الذين أوردنا كلامهم أنه ما خلق ليحل المشكلات ولا ليقضى على الأزمات ولا ليدخل التغيير الكبير على شيء من هذا الوجود الجبار الذى منحه الله نظامه (١) وان من السخف المبين أيضا أن نظل خاضعين لهـذه الثقافة الميتة علينا وعلى مواهبنا الانسانية بالاعدام من غير أن نحاول التجديد فيها ولا الخروج عليها ولا التبديل فى نصها أو روحـها »

قلت : هذا الموضع من المواضع التى صرع فيها ، وتخبطه الشيطان من المس . ولولا أن المدارس الكبيرة الواسعة الطويلة العريضة والمكاتب التى لا تحصى والمعارف التى هى أشهر من نار على علم ومجالس التدريس التى لا تحصى كل ذلك أشهر من أن يذكر فى كل بلاد الاسلام لاحتجنا أن نطول الكلام فى تكذيبه وضلاله وعداوته للاسلام ، ولكن وجود هذه الامور وغيرها ورؤيتها وشهرتها تستغنى عن التطويل فى ذلك ، ويالله العجب كيف يدعى هذا الملحد على المسلمين من الخطباء والوعاظ ورجال الدين بل وغير رجال الدين (٢) كما يقول انهم يقولون إن الانسان ما خلق ليكون عالما ولا شيئا كبيرا وأنه سيبقى أبدا جاهلا وأنه انما خلق ليثبت له ويبين أنه لا يستطيع أن يكون عالما الخ : أنصفونا يا مسلمون وأنصفوا انفسكم ، أما للدين رجال ، أما فى المسلمين رجال . نحن نناشد هذا المجنون المأفون : لماذا أسست الجمعيات فى جميع العلوم ولماذا بنيت المدارس ولماذا جعلت المعارف فى جميع البلدان الاسلامية ولماذا أنفقت الأموال الطائلة فى هذه السبل العلمية اذا كانوا كلهم يقولون ان الانسان ما خلق ليكون عالما وانه سيبقى أبدا جاهلا . أيها المسلمون ، أيها المسلمون ، ماكنا نظن أن دعيا ملحدا زنديقا يصرخ على رءوس الأشهاد فى وسط أمة

(١) احتاج هنا الى المخادعة

(٢) لا معنى للاتيان بغير رجال الدين هنا

عربية اسلامية يشتمها وينسب اليها أشنع ضروب المقادح فيدعى عليها أن خطباءها ووعاظها ورجال دينها يقذفونها بالخطب تلو الخطب وبالاناشيد تلو الاناشيد وبالمقالات إثر المقالات أن الانسان ما خلق ليكون عالما ، ويدعى أنهم يقولون ويعتقدون أن العلم حجاب وأن الجهالة ام الفضائل ، وأنهم يقولون فى وعظهم وفى خطبهم وأناشيدهم ان الانسان سيبقى أبدا جاهلا ، وأنه لن يستطيع أن يكون عالما ، وانه ما خلق ليكون عالما . أيها المسلمون ، ان ترك مثل هذا جناية كبرى على الدين وعلى الأمة وعلى الأدب وعلى التاريخ وعلى جميع الفضائل . أيها المسلمون ان كان هذا الرجل مجنونا حين رمى المسلمين بهذه المقادح التى لا تبقى ولا تذر فليعامل معاملة المجانين ، وان كان ملحداً زنديقا منافقا عدواً للاسلام وللعرب وللفضائل كلها فليعامل بما يعامل به جنسه . أيها المسلمون لو أن أكفر يهودى أو أعدى عدو للأمة الاسلامية رمى المسلمين بأن خطباءهم ووعاظهم ورجال دينهم يلقون اليهم فى كل مقالة وفى كل موعظة وخطبة أن الانسان ما خلق ليكون عالما وسيبقى أبدا جاهلا ، وان العلم حجاب ، وان الجهالة أم الفضائل هل تسكتون عنه أو هل يعامل بهذا السكوت والتقدير ، افرضوا أن يهوديا فعل هذا فقط فكيف وهذه خطيئة واحدة من فظائع هذه الأغلال . لا شك أنه لو تكلم بهذا يهودى لضج المسلمون من هذا القول ، ولعاملوا قائله بما أمكنهم من المعاملة الصارمة . ولعمرى لقد صدق على كثير من الناس ظنه اذ تصورهم حينما عمل هذه الأغلال والداء العضال لا يفهمون الحقائق وأنهم سيحسنون به الظن وأنهم سيقبلون كل ما يقوله من خداع ونفاق ومكر ، وهكذا كان الواقع ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا

يا صاحب الاغلال الوبيلة والقيود الثقيلة ، من هم هؤلاء الخطباء والوعاظ ورجال الدين وغيرهم ممن يعتد بأقوالهم فضلا عن علماء المسلمين كلهم وخطبائهم ورجال دينهم وغير رجال دينهم قال فى خطبه ووعظه أو مقالته إن الانسان

ما خلق ليكون عالما وسيبقى أبدا جاهلا . فإذا كنت صادقا فأشر الى طائفة مسلمة من هؤلاء الاصناف المذكورين فضلا عن جميع الوعاظ ورجال الدين وغيرهم ممن يعتد بقوله ، ولكنك تعرف أنك كاذب متلاعب ، وجدت جو٣ خاليا فأخذت تقول فيه ما تشاء ، وكيف تقرر فى صراعك صرعك الله أنه ليس المسلم هو الذى يتتبع أغلاط الغالطين وأخطاء المخطئين ، وهنا تجاوزت هذا الى اختراع البهت والكذب فى مسبة دين المسلمين وصفات رب العالمين ، بل الصدق الذى لا ريب فيه أن العلماء والوعاظ والخطباء ورجال الدين فى خطبهم ومواعظهم ومقالاتهم وغيرها يؤكدون للانسان أن الخير كل الخير فى العلم ، وأن الشر كل الشر فى الجهل ، ويبينون أنه يجب على الإنسان أن يتعلم ما ينفعه فى دينه ودنياه ، هذا أمر ظاهر يعرفه أدنى العامة ، فأدنى كتاب أو خطبة أو مقالة دينية أو ادبية يجد فيها الانسان دعاية الى هذا الامر ، وهذا شىء أشهر من الشمس ، ونحن نفهم أنه يشير الى أن جميع علوم الدين وما يتعلق بها من أمور الدنيا ليس من العلم فى شىء بل هو الجهل بعينه ، وانما العلم النافع هو علم الشطرنج والموسيقى والمنطق ونواميس الطبيعة ونحو ذلك كما يأتى تصريحه بذلك فى البحث الآتى . ومن أعظم المكابرة فى الكذب قوله فى هذه الجملة « وانما خلق ليثبت له ويبين أنه لن يستطيع أن يكون عالما كما يقول أحد الشيوخ الذين نقلنا كلامهم أنه ما خلق ليحل المشكلات » فهذا كذب وفجور ظاهر ، ما قاله أحد من الشيوخ ولا نقله فى كتابه الاغلال أبدا بهذا اللفظ ، والذى نقله عن الزمخشرى والرازى وابن أبى الحديد والشهرستانى وغيرهم هو ما أثبتناه برمته ، وقد رأيت كلامهم وأنه ليس فيه حرف واحد من هذا الذى ادعاه البتة ، وكلامهم بمعزل عن هذا الذى يدعيه ، وبينه وبين ما يقصد كما بين السماء والارض كما اوضحناه سابقا بما فيه كفاية . والبلية والمصيبة كونه جعل من السخف المبين قول الخطباء والوعاظ ورجال الدين أنه لا يجوز أن ينازع الله فى علمه وقوته وقدرته ، فجعل هذا الزنديق هذا القول الذى هو

من أعظم أصول التوحيد سخفا مبينا ، ثم لم يكفه هذا الكفر حتى جعله ثقافة ميتة يجب التبديل فى نصها أو روحها فعنده أنه يجب وجوبا قطعيا أن ينازع الله فى علمه وقوته وقدرته ، لأن السخف المبين يجب اجتنابه ومضادته وجوبا لا مرية فيه ، وهل يخفى مافى هذا من الكفر الغليظ . ولكن من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا

فصل

ثم أخذ فى تقرير هذا الأصل الخبيث فى ايجاب هدم هذه الآراء التى يقولها الخطباء والوعاظ ورجال الدين بزعمه وأن تنشأ ثقافة بدلها . ولا شك أن تبديلها رفض الدين وخلعه ، لأنه ذكر أن عدم منازعة الله فى علمه وقوته وقدرته سخف مبين ، فلا بد إذن من تبديلها بأن ينازع فى علمه وقوته وقدرته ، ومعنى هذا أنه ينازع فى ربوبيته والهيته ، لأن علمه وقدرته وقوته من أعظم خصائص الربوبية والألوهية ، فاذا نوزع فى ذلك فقد نوزع فى الربوبية . قاتله الله ما أجرأه وأفجره حيث قال « إن أقل ما يجب أن نفعله الآن أن نشيد ثقافة جديدة كل الجدة ، منتزعة من روحنا المضغوطة تحت هذه الثقافة الخبيثة القاتلة » انتهى . فقد علمت أنه صرح بأن هذه الثقافة التى منها تحريم منازعة الله فى علمه وقوته وقدرته ثقافة خبيثة قاتلة يجب رفضها وتبديلها ، أما نقله عن الخطباء وغيرهم تحريم التعليم ونحوه فقد بينا أنه كذب ، وإنما أدخل هذه المسئلة مع تلك المسائل مغالطة وتلبيسا ومخادعة . ثم دعواه أنه يجب أن ننشىء ثقافة جديدة بدلا عن هذه الثقافة دعوى قد بينا ما فيها ، وأنه يقصد بذلك رفض ثقافة كون الله لا ينازع فى علمه وقوته وقدرته ، لأنه جعل ذلك من السخف المبين . ثم لو سلمت له هذه الدعوى فقد سد طرق الثقافات كلها سدا محكما إلا طريقا واحدا وهو أن تكون هذه الثقافة الجديدة مبنية على الأخذ بإغلاله التى يقول انها حقائق أزلية أبدية ، وقد صرح بأن النهوض

موقوف على الأخذ بها ، والسقوط موقوف على تركها ، وأنه لن يستغنى عنها مسلم ، فكيف نحاول انشاء ثقافة تتضمن ترك مافى هذه الاغلال ، فان ذلك يفضى الى السقوط ، فمحاولة انشاء ثقافة غيره ضرب من العبث بل ضرب من الجنون والتهور وفساد العقل ، فان الذى يطلب ثقافة جديدة من غير الحقائق الازلية الأبدية ويتخطى ما النهوض معلق على الأخذ به والسقوط معلق على تركه لا شك أنه مجنون متهور فى غاية الحمق والجهالة ، ونعوذ بالله من ذلك

وأكبر من هذا وأطم قوله بعد هذا : وأن نقيم قواعد هذه الثقافة على روح الإيمان بالانسان وبمواهبه التى لا تحصى ، ليتسنى لنا بعد هذا الايمان الاتجاه الى استغلال هذه المواهب والى الانتفاع بها » . فقد رأيت أنه صرح بأن هذه الثقافة التى يريد انشاءها يجب أن تكون قواعدها مقامة على الايمان بالانسان وبمواهبه ، لأن الثقافة التى يريد ازالتها كانت مبنية قواعدها على الايمان بالله وقدرته الكاملة وعلمه الشامل وقوته التى لا مردّ لها ، فلا يمكن أن ينازع فى علمه وقوته وقدرته ، فيجب - كما يقول - ابدال هذه الثقافة الدينية التى جعلها بخبثه ميتة بثقافة بدلها وهى إبدال الايمان بالخالق ايماننا بالمخلوق ، فيجب الكفر بالخالق ورفض دينه الذى هو الثقافة الأولى لأن الايمان بذلك صار سدا منيعا وحجابا كثيفا عن الايمان بالانسان واستخراج مواهبه ، فلا يمكن أن يجتمع فى القلب الايمان بالانسان المخلوق بانه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء والايمان بالخالق كذلك فلا بد من الترجيح لازالة التردد والشك والريب ، وهذا الترجيح بزعمه هو أن نرفض الايمان بالرب العظيم الكبير القهار المتعال المقدس ونؤمن بابن الحيض بأنه على كل شىء قدير وأنه بكل شىء عليم [1] ولذا قال « ليتسنى لنا بعد هذا الايمان الاتجاه الى استغلال هذه المواهب والى الانتفاع بها » ، وهذا صريح فى أنه يرى أن الايمان بالله أعظم

(١) ولا سيما ملاحدة هذا العصر

مانع للاتجاه الى استغلال هذه المواهب ، فيجب ازالة هذا الحجاب بالايمان بالانسان فانه لا يزال إلا بذلك ، وهو تصريح ظاهر بأن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر كما نقله عن بعض الملاحدة كما يأتى ، فصار الايمان بالله على رأى هـذا الملحد هو الذى منعهم عن استغلال مواهبهم ، فلعنه الله كما لعن أصحاب السبت ما أجرأه على الله ودينه وعباده المؤمنين

وهذا التعليل الخبيث الذى علل به هذه الدعوى من أن الايمان بالانسان يوجب الاتجاه الى استغلال المواهب تعليل باطل مضروب به وجهه ، فاننا نقول قولا صحيحا معقولا لا شك فى صحته أنه لا يمكن بحـــال أن نتجه الى استغلال المواهب ما دمنا مؤمنين بالانسان وانه يقدر على كل شيء ويعلم كل شيء ، فان هذا الايمان يوجب القلق والاضطراب والشك والريب ، فان كون الانسان يخاطب بما لا يعقله وبما لا تقبله فطرته أمر يوجب له هـذه الأمور ويوجب له الوهن العظيم ، فانه لا بد لهذا المخاطب من أمرين : اما أن يكون بليدا فربما يصدق بهذا ، ومعلوم أن البليد لا يظهر نتيجة صحيحة كبيرة(١) واما أن يكون ذكيا فلا يمكن أن يؤمن بأن الانسان يعلم كل شيء ويقدر عـلى كل شيء وهو يرى نفسه وجميع جنسه قد عجزوا عن أشياء فى نفوسهم وأبدانهم وأولادهم وأموالهم ونفوس غيرهم وأبدانهم وأولادهم وأموالهم لا تعد ولا تحصى ، كيف يؤمن الاعمى والأعرج والشيخ الكبير وأمثالهم بقدرة الانسان على كل شيء وهو يرى ما هو فيه من العجز والضعف وعدم القدرة ، وكيف يؤمن الشاب الذكى الذى يتوقد ذكاء والهموم تشتعل اشتعالا فى قلبه فى طلب

---

(١) ثم انه لا بد ان يكون هـذا الايمان وبالا عليه من ناحية عمله ، فانه يبقى خائفا من عدوه لانه اعتقد أن الانسان على كل شيء قدير فربما يضره عدوه فى عقله أو صورته أو جسمه أو قلبه أو غير ذلك لانه صار معاديا لمن يقدر على كل شيء ويعلم بكل شيء وليس له رحمة ولا عدل يمنعه من ذلك

معشوق أو دنيا من مال أو جاه أو غير ذلك ، ومع ذلك قد عجز غاية العجز عن حصول شيء من ذلك ، وكل هؤلاء وأمثالهم قد علموا بالضرورة أنهم عاجزون عن ازالة كل ما يحصل لهم فى كل وقت وحين من مصائب الدنيا ، وعاجزون عن نيل كل ما يتمنونه ، فالايمان بالانسان على النحو الذى يدعو اليه أكثف حجاب وأعظم سدّ فى الحيلولة بين الاتجاه للعلم واستغلال المواهب ، والطريق الوحيد التى لا طريق سواها ولا شك فى نجاح الانسان بها فى الاتجاه للعمل واستغلال المواهب هو الايمان بالله سبحانه وتعالى بأنه قادر على كل شيء وأنه الكريم الجواد الذى لا يخيب من سأله واستعان به وصدق فى معاملته واستسلم لما أمر به وأنه خلق هذا المخلوق وسخر له مافى الارض ، وأنه فتح له الطريق فى كل ما يمكن من صناعة وزراعة وتجارة وغيرها ، وأعطاه عقلا مطلقا يتصرف به كيف شاء فى هذا الميدان ، وأنه أمر بالعمل الدينى والدنيوى ووعد بالاجابة والاعانة ، وهو سبحانه يقدر على اعانته متى توجه اليه واعتمده ، فانه القادر على كل شيء العالم بكل شيء ، فعلى الانسان أن يستحصل كل مافى حاجته بواسطة طاعته تعالى وامتثال أوامره ، فايمانه بهذا يلهب فى قلبه حرارة لا حد لها فى القوة والاستقامة على التسابق فى الأعمال والمصابرة عليها وتقليب الافكار والانظار فى التجربة والابداع ، ويورث من الشجاعة وثبات النفس والقوة ما لا حد له ، لأنه علق آماله العظام الطويلة القوية على رب عظيم قوى كريم رحيم له القدرة الكاملة والقوة الكاملة والكرم والجود والرحمة الكاملة . وأما الايمان بالانسان على المعنى الذى ذكره فهو وهم مرذول ساقط لا يقبله إلا مرذول ساقط ، وبهذا كان السقوط والدناءة وضعف الهمة ملازما للمؤمنين بالانسان ، والشجاعة والثبات والسمت القوى وصحة النظر والفكر ملازمة للمؤمنين بالله ايمانا صادقا مخلصا قويا ، فلا تجد أكثر المؤمنين بالانسان الا كل مشغول بخاصة نفسه وبما يوافق شهوته وهواه ، لأن ايمانه كان ضيقا محصورا فى المخلوق ، فيجب أن يسعى فيما يرضى هذا المخلوق

الذى آمن به ، فلا توجد الرشوة والخيانة والكذب والفجور والزندقة والالحاد ولا غير ذلك من الأخلاق الرديئة الوبيلة كالقيادة والدياثة وجميع الفواحش الا فى المؤمنين بالانسان وبمن يؤمن بهم ، ولا يوجد الورع والعفة والصيانة والصدق والنصح فى الأقوال والأعمال والثبات فيها والشجاعة والصرامة وجميع الاخلاق العالية النزيهة إلا فى المؤمنين بالله المعتمدين عليه ، وهذا أمر يعرف بالبداهة والواقع لا ينازع فيه إلا مكابر

ثم قال بعد هذا : « ثم أن نعد أن هؤلاء الذين يدعوننا الى الكفر بالانسان مجرمون ، لا يستحقون منا إلا مثل ما يستحق أصحاب الدعوات والمبادىء الهدامة »

فيقال : قد بينا أننا لا نكفر بالانسان ولا نؤمن به على المعنى الذى تريده وتدعو اليه بل ننزله فى منزله الطبيعى الذى وضعه الله فيه ، فقدرناه حق قدره وقلنا انه أكرم المخلوقات على الله ما دام معتصما به ، وانه خلق حنيفيا مستقيم الفطرة قابلا للكمال الممكن فى حقه ، وأنه أعطى من المواهب والاستعداد فيما يتعلق بالصناعات ونحوها ما لا يدخل تحت حصر ، ولكن لا يمكن بحال أن يساوى الله فى شىء من خصائصه ، هذا هو اعتقادنا فى الانسان ، وأما أنت فكفرت ببعض الانسان أشنع الكفر وأبشعه ، وآمنت ببعضه أفسد الايمان وأبطله ، فجمعت بين الكفر والايمان ، فكفرت بمن يستحقون الايمان المعقول من السلف الصالح الموجودين وقت نزول القرآن والتابعين لهم ، وآمنت بملاحدة العصر . وأما القرون الأولى فجعلتهم أدنى حالا من البهائم والحشرات بحيث انهم لا يستطيعون الكلام ولا الفهم ولا غيره ، بل يعبدون كل متحرك لذاته ، وهذا أكفر الكفر بالانسان . وهكذا عملت مع كل القرون الاولى الى هذا العصر فلم تؤمن ولا بعشر عشر معشار الانسان ، بل الانسان الذى آمنت به كشعرة بيضاء فى جلد ثور أسود بالنسبة الى من كفرت به بل أقل من ذلك ، ثم ادعيت مع هذا أن الواقع أن الانسان خبيث شرير

ظالم شيطان وليس وراء هذا الكفر بالانسان والقدح فيه كفر وقدح فكيف تدعى أنه فى الواقع شيطان وتدعو الى الايمان به ، فأنت إذن تدعو الى الايمان بالشياطين الخبثاء الأشرار الظلمة وتدعو الى الكفر بالمؤمنين الطيبين الخيرين العدول ، لأنك ادعيت أن المتدينين على اختلاف أجناسهم ما وهبوا الحياة شيئا جديدا ، ومن العجب أنك قررت أن المجرد من كل دين يبقى كذلك على الشر والخبث والظلم والجهل ، مع تقريرك بأن المتحلل من الأديان هو الذى صنع الحياة وصنع لها العلوم المبتكره ، فسبحان واهب العقول . وبالجملة فان حقيقه مذهبك واعتقادك بمقتضى كلامك هذا وغيره أنك كفرت بالانسان المؤمن بالله المتدين بدينه وآمنت بالكافر به وبدينه ، ثم رجعت فكفرت بمن آمنت به وبقيت على الكفر به ، فكفرت أولا بنوع وآمنت بنوع آخر ، ثم رجعت فكفرت بمن آمنت به وآمنت بمن كفرت به ثم رجعت فكفرت بالجميع كما أنك كفرت بالله كذلك فى عملية هذه الأغلال وغيرها ، فما أشبهك بمن قال الله فيهم ﴿ ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا . بشر المنافقين بان لهم عذابا أليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا ﴾ وهذا هو الواقع من حال هذا المبتلى ، فما ادعاه فهو حجة عليه ، فانه من اعظم الهدامين للمبادىء والاسس السليمة القوية ، عامله الله بعدله

فصل

ثم قال « انه لو اعتقد انسان اعتقادا قائما على الوهم أنه مقيد بقيود لا يستطيع التغلب عليها ولا الخلاص منها لبقى قاعدا مستسلما لهذه القيود الوهمية ولما حاول النهوض ولا المسير ، ولو اعتقد أنه لا يقدر على القيام لظل قاعدا ، ولو وضع فى مكان ثم أفهم بأن ذلك المكان مغلق وأنه لا يمكنه الخروج منه

بحيلة من الحيل لألزمه ذلك المكان والاغلاق الوهمى مكانه ولما أمكن أن يلتمس الوسائل للنجاة والافلات ، إلا أن يكون لديه منفذ للأمل يتعلق به ، وكذلك الجماعات والشعوب التى تعتقد خطأ بان قواها العقلية مقيدة بقيود وهمية أو أنها مقعدة أو أنها موصدة عليها الأبواب تظل خاضعة لهذه الاوهام ما دامت خاضعة للايمان بها »

فيقال على وجه النقض : هذا رمى فى الهواء ومخاطبة للاشباح التى لا وجود لها ، فانه مبنى على أن المسلمين يقولون ان الانسان عاجز مقعد لا يمكن أن يعلم ولا يمكن أن يفهم أن يعمل ، وأنه لا يستطيع تعلم الصناعات ، وان عقله مقيد بقيود محدودة ليس فى امكانه ان يتجاوزها ، بل انه مبنى على أن الانسان لا يستطيع أن يعمل شيئا مطلقا كالمقعد والمقيد ، وكل هذا لم يقل به أحد من المسلمين ولا من المتدينين الذين يؤخذ بأقوالهم ، بل المسلمون يعلمون أن الانسان مأمور بالعلم ومأمور بالعمل ومأمور بان يطلق عقله اطلاقا كليا فى كل ما هو فى استطاعته وفى طوره ومقدرته ، أما اطلاقه فيما لا يمكن ولا يستطاع فهذا مما يوهنه ويقطع عليه الوقت بل ويضره ، فهو كاطلاق العامل فى محاولة مالا يطيقه ويعجز عنه ، فان ذلك ينهك قواه ويفوّت عليه امورا لا يمكن استدراكها ، وكل هذا الذى ادعاه قول زائف لا محل له البتة فهو - كما ذكرناه عنه غير مرة - يتوهم أوهاما على حسب ما يتمنى ويريد ، ثم يرمى بهذه الأوهام المسلمين ، ثم يدعى عليهم أنهم يقولونها ويعتقدونها كى يأخذ فى التحامل على هذه الأوهام والمحاربة لها ، فهو أشجع الشجعان فى محاربة أوهامه التى يتصورها على ما يشاؤه ويشتهيه

ونقول على وجه المعارضة انه لو اعتقد انسان اعتقادا جازما قائما على الوهم أن فى استطاعته أن يطير فى السماء بنفسه وأنه سيظل حيا دائما وأنه يمكنه أن يفنى هذا العالم كله أو يملك هذا العالم كله أو أنه يستطيع التغلب على الموت والخلاص منه أو أنه لا يمكن أن يحتاج لأكل وشرب أو انه لا يحتاج الى بول

واستفراغ وأنه لا شيء فوق قدرته وأنه يعلم بكل شيء - نقول انه لو اعتقد هذا كله أو بعضه أو شيئا منه - لم ينفعه هذا الاعتقاد ولم يثمر سعيه له بمجرد اعتقاده ولم ينفعه كل ما يحاوله فيما لا يقدر عليه كما لا ينفعه أن يحاول أن يكون جسمه اكبر من الجبل وأن يكون أقوى من الحديد ، وكل محاولة يحاولها الانسان فوق استطاعته المحدودة لا بد ان تحبط وأن لا يحصل له الا الخيبة والخسران ، ان محاولة كل مستحيل نقص ظاهر فى العقل ، ولو أن انسانا صدم صخرة برأسه معتقدا أن رأسه سيفلق الصخرة حتما لا نكسر رأسه وظهر دماغه مع أذنيه أو منخريه ولم ينفعه اعتقاده شيئا بل يضره غاية الضرر ، ولو أن انسانا ألقى بنفسه من شاهق محاولا بوهمه أنه لن يضره ذلك لم ينفعه هذا الوهم والاعتقاد ، ولو أن انسانا ألقى بنفسه فى نار بدون ما يقيه لم ينفعه ذلك ، بل كل هذا ربما يقضى على حياته ، ولذلك كان عاقبة الذين آمنوا بهذه الأوهام السخيفة - بدون قياس وفكر موزون - الدمار والسقوط والهلاك ، لأنهم آمنوا هذا الايمان الذى يدعيه فاعتقدوا أنهم سيحصلون على كل ما شاءوا وأن قدرتهم ستهبهم كل شيء وتوصلهم الى كل أمل . ان المسلمين لا يمنعون السعى وبذل الجهد فى سبيل وسائل المجد انما يمنعون كون اعتقاد الانسان وأمله فى كل شيء سيوصله اليه ولو كان مستحيلا ، فان هذا مخالف لضرورة العقل ، فالمستحيل مستحيل والممكن ممكن والواجب واجب والحقائق ثابتة فى نفسها ، فمن هو الذى يقدر أن يغير صورته الى صورة أخرى أو جسمه الى جسم آخر أو روحه أو عقله الى روح أو عقل آخر بل أن يغير صوته الى صوت آخر بحيث يلتبس به ، ولو أن انسانا وضع فى مكان مغلق محكم الاغلاق من كل وجه ثم حاول التخلص منه بحيلة واعتقد أنه سيخرج لا محالة لم ينفعه مجرد اعتقاده أبدا انما ينفعه فى النادر اذا فكر ثم رأى بفكره أن هذا الشيء غير مستحيل ثم سعى فى التخلص بكل ما يقدر عليه من حيث الجهة التى هى ممكنة فقط ، أما اذا كان المحل مغلقا والقفل محكما وليس عنده ولا لديه

أحد فلا يمكنه الخروج أبدا إلا أن يكون بخارق عادة ، وهذا انما يحصل بالطاعات وهي عنده لها نتائج أخرى هي الملهاة والمصرف الخبيث . ولو أن مقعدا حاول النهوض والمشي بمجرد وهمه واعتقاده أنه قادر على ذلك لم ينفعه اعتقاده ووهمه بل يبقى مقعدا على حالته وذهب اعتقاده ومحاولته هباء وبالجملة فمجرد اعتقاد الانسان بأنه يصل الى كل شيء وأنه يتغلب على كل شيء لا ينفع أبدا بل يوقع في القلق والاضطراب وفساد الرأى ، وكذلك اليأس لا ينفع انما ينفع بذل الجهد فيما يمكن الوصول اليه ، وهذا هو قولنا ، فما ادعاه هنا وزخرفه بالتمويه والكذب والمجازفة كلام ساقط لا يعتد به كما هو ظاهر

فصل

ثم قال : « وأخيرا لقد زعم هؤلاء ان الرسول الكريم قال « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ثم زعموا أن معناه من عرف نفسه متصفة باضداد صفات البارى ـ أى بالجهل والغباء والحقارة والضآلة والضعف والافتقار والفقر وبكل الصفات المرذولة ـ فقد عرف ربه بالعلم والقوه والغنى وكل صفات الكمال »

والجواب أن يقال : (على نفسها تجنى براقش) هكذا زعم سادتك الملاحدة الذين دخلوا فى الاسلام كيدا له ولأهله ليشوهوا سمعته بذلك فان هذا لا يكاد يعرف فى كتاب من كتب المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، وانما يقال انه يوجد فى كتب الاتحادية الذى رموا بالالحاد والقدح فى الأديان ، فهؤلاء الملاحدة الاتحادية من الجهمية وغلاة الصوفيه انما دخل غلاتهم فى دين المسلمين متربصين بأهله الدوائر باذلين جهودهم فى تشويهه والايقاع بأهله ، واذا سئلوا عما كتبوه من الألفاظ الالحادية الكفرية فى كتبهم المزخرفة بالتمويه ودعوى أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر أجابوا بأن الناس لم يفهموا كلامهم وأن لهم اصطلاحا خاصا وأنهم محسودون عليها ، وذهبوا فى المراوغة

والنفاق والتأويل البعيد كل مذهب ، وقالوا انما نعنى كذا وكذا ، ولكن الناس
لم يعلموا المراد الذى نقصده . فهؤلاء الزنادقة الهدامون وأمثالهم هم سادتك
وأسلافك فى هذه الميادين الالحادية ، فانك اقتفيت آثارهم واتبعت آراءهم ،
فما كان ينبغى لك أن تشنع على أئمتك وسادتك الذين مهدوا لك الطريق
وسلكت سبيلهم فى هذا المضيق ، أما المسلمون فانهم لا يقولون هذا القول
ولا يفسرون هذا الحديث بهذا التفسير ، فانهم يفسرونه على تقدير ثبوته بان
المراد من عرف نفسه وما فيها من التركيب البديع العجيب والنظام المحكم عرف
ربه ، فان المخلوق لا بد له من خالق فما فيه من الاحكام دل على العلم والقدرة
والحكمة والإرادة ودل أيضا هذا الوضع على أنه سبحانه رحيم رءوف دائم
الاحسان ، فمن عرف نفسه عرف ربه لما هو به من هذه النعمة العظيمة الدالة
على الاحسان وعلى صفات الكمال ، فمعنى هذا الحديث كمعنى الآية المتقدمة
﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وقد تقدم الكلام على هذه الآية . أما كون
المسلمين يدعون أن معناه على ما ذكره فمراء ظاهر لا يشك فيه مسلم ، وقد
كان من المعلوم عند المسلمين أنه قد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال « ان الله كريم
يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، وانه جميل يحب الجمال » فهم يحبون الكرم
والجود والجمال كما يحبون الرحمة والعدل والحكمة والاحسان والعلم وأمثال
ذلك ، وكل هذه الصفات قد وصف الله بها نفسه على ما يليق به ويختص به لا
على ما يليق بخلقه ويختص بهم ، فكيف يدعى هذا الملحد أنهم يوجبون على
الانسان أن يتصف بضد صفاته تعالى على ما ذكره . أما التكبر والقهر
والتعذيب بالنار ونحو ذلك فانهم لا يجيزون للانسان الاتصاف بها لأن ذلك
مما ينافى العبودية المطلوبة منهم ولأن ذلك ليس لهم منه منفعة بل مضرة ،
وهذا مع العلم بأن العلم والرحمة والحكمة ونحوها مما أمر الله تعالى بالاتصاف
به ليست من جنس صفات الله تعالى التى اختص بها ، بل هى صفات تليق بهم
بقدر حالتهم ، كما أن صفاته تعالى تليق به مع ثبوت حقائقها فى حقه تعالى وتقدس

ثم انه أخذ يتهور فى معنى هذا الحديث فحمله على ما يوافق هواه وشهوته فقال أيضا فى معناه : والتفسير الصحيح لهذا القول لو كان صحيحا أن المراد من عرف نفسه على حقيقتها فعرف مواهبها العديدة الكامنة وخصبها العجيب فاستثمرها عرف ربه معرفة صحيحة الخ

فيقال : لكن الشأن فى معرفة المقصود من المواهب والاستعداد ومعرفة الاستثمار ما هو ؟ والله سبحانه قد أوضح ذلك أيضاحا لا أبين منه ، فأخبر تعالى أن الحكمة فى خلق الجن والإنس والغاية المطلوبة منهم عبادته وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ أخبر أن الدعاء من أعظم أركان العبادة كما قال تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كفرتم فسوف يكون لزاما ﴾ وأنت جعلت هذا لا فائدة فيه ، وأخبر الله ان الفطرة التى فطر الناس عليها هى قبول الدين والعمل به ، وأنت جعلت الفطرة التى هى الاستعداد والمواهب خبثا وشرا وظلما وجهلا ، فكيف يمكن أن تستثمر من الخبث والشر والظلم الخيرات وطرق الرشد والكمال ، فانت لم تعرف ربك بهذا الاعتبار ولا بغيره أيضا لأنك سلكت فى هذه المواهب والاستعدادات مسلكا غير مسلك المسلمين ، بل سلكت مسلك الملحدين ، لانك دعوت الى خلع الدين ورفضه واتباع سبيل الملحدين وطريق المنافقين فكان المسلك الذى سلكته فى هذه المواهب مسلكا خبيثا ملتويا بعيدا مضلا ، لأن حقيقته كما قلنا رفض الدين وجعلت ذلك طريقا الى الترقى فى علوم الصناعات والتوسع فيها فصادمت كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأخذت تتخبط فى ظلمات الشك والريب كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون

الكلام على المبحث الثالث

قال الملحد :

« العلم حجاب – الجهالة أم الفضائل – أكثر اهل الجنة البله – هكذا قالوا . روى جماعة منهم الحاكم وصححه أن الرسول عليه السلام قال « لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة واستعينوا عليهن بالمغـــزل وسورة النور » ورووا أن على بن أبى طالب مرّ بامرأة تعلم الكتابة فقال « أفعى تسق سما » ورووا أن النبى عليه السلام قال « ان البيان والبذاء من النفاق ، وان العى والبذاذة من الايمان » وانه قال « ان الله يكره البليغ من الرجال »

والجواب أن يقال : أما دعواه أن المسلمين [1] يقولون ويعتقدون أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، فيكفى فى رد هذه الدعوى برهان الضرورة والمشاهدة والحس ، فان هذا أكبر برهان ، وهو وجود الكتب المتنوعة فى كل فن مما لا يعده ولا يحصيه الا الله تعالى ، فهذه الكتب قد ملأت المكاتب ونحوها من المجلات والجرائد وكلها مملوءة بمدح العلم وذم الجهل ، ولو قلت لأدنى عامى من المسلمين أنت جاهل لم يرض بذلك لأنه يرى الجهل عيبا والعلم فضيلة ، فوجود هذه الكتب والمجلات والجرائد ووجود المدارس منذ ثلاثة عشر قرنا فى هذه الأمة المحمدية وهذه المدارس فى جميع بلاد الاسلام من أكبر البيوت وأوسعها واطولها واحسنها كاف فى تكذيب هذه الدعوى . ولو أن الله أعمى عينيه كما أعمى قلبه وأصم اذنيه كما أصم قلبه لكان له نوع من العذر ، أما كونه يدخل المدارس ويخرج منها وينظرها وقد دخل الأزهر وطرد منه وحشا كتبه الأولى كلها مما يخالف هذا فلا حاجة الى الاطالة فى جداله ونقض دعواه . وهذا الجواب وهذا البرهان الحقيق كاف فى ما لو أن

---

(١) لأن موضوع أغلاله فى الأسباب التى أخرت المسلمين خاصة على ما يزعم

أكفر يهودى وأعدى عدو للاسلام والعرب نشر وادعى أن المسلمين يرون العلم حجابا ويرون الجهالة أم الفضائل فلا يرد عليه فى تكذيب هذه الدعوى بأكثر من هذا، لأن المكابرة فى جحود هذه الحقائق سفسطة وهذيان وجنون

وليس يصح فى الاذهان شىء اذا احتاج النهار الى دليل

وأما الأحاديث التى ذكرها فالجواب عنها من وجهين مجمل ومفصل، أما المجمل فنقول لا تخلو هذه الأحاديث من ثلاثة فروض اما أن تكون كلها صحيحة أو تكون ضعيفة أو يكون بعضها صحيحا وبعضها غير صحيح، فان كان الاول - اى صحيحة كلها - فلا حاجة الى أن يرد على المسلمين العاملين بها ويشنع عليهم - ان كان قد عمل بها أحد - ويذمهم، لانه حينئذ انما يرد على من قالها عليه السلام، لأن التشنيع بها وجعلها حلقة من حلق أغلاله وسببا من أسباب التأخر دليل على ردها والاستهزاء بها، واذا كان الأمر كذلك على هذا الافتراض فهو انما يرد على هذا الرسول الكريم لا على أتباعه من المسلمين، لانه ساق الأحاديث نصاً ثم جعلها موضع الانتقاد، واذا لجأ الى الخداع وادعى أن المسلمين لم يفهموا معناها لأنهم عنده لا يفهمون شيئا ولا يعقلون لان العلم حجاب عندهم قيل يجب عليك أولا أن تبين بالبراهين وجه دلالتها على مقتضى أصول اللغه والشرع ثم تبين فهم العلماء لها ثم تبين فهمك أنت لها وترد ما يعارضه ويخالفه بالبراهين والدلائل المعقولة فتفيض فى شرحها كما افضت فى شرح كلمة ذلك المتخصص فى علم النفس، وكما أفضت فى شرح حالة وزارة التموين المصرية حيث لم تجب طلبك على الفور فى بيع الورق، فى نحو خمس صحائف، وكما أفضت فى شرح كلمة جستاف الذى نقلت عنه أنه يقول ان الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر، وأخذت تمطط بهذه الكلمة وتعلق عليها ذلك التعليق المناسب لخبثك وعداوتك للاسلام، فانت اذن لم تفعل شيئا مما ذكرنا على هذا الحديث. واذا كان الغرض الثانى وهو كونها غير صحيحة فعليك أن تبين قبل كل شىء من قال بها من الناس، ثم تبين ضعفها

وضعف ما بنى عليها وذلك بذكر رجال اسانيدها وما قيل فيهم ، وتذكر كلام اهل المعرفة بهذا الفن فى بيان ضعفها وعدم الاعتماد عليها ، ولا يكفى مجرد الدعوى بالضعف ، وانت إذن لم تفعل شيئا من هذا . واذا كان الغرض الثالث فيجب عليك أن تميز الصحيح من الضعيف من الباطل وتعطى كل حديث منها حقه من ايضاح الدلالة ، وانت لم تفعل شيئا من هذا أيضا ، فسقط ايرادك لها من كل وجه . فرجل يريد أن يهجم على أمة عظيمة يدعى أن عددها يبلغ اربعمائة مليون نفس فينسب اليها أمورا باطلة ومقادح شنيعة ويطعن فى آرائها وعقائدها وعلومها ، ثم يأتى الى أحاديث مكتوبة فى بعض كتبها على ما يزعم فينقلها ، ثم يضيف الى ذلك رميها بالجهالة والغباوة والحمق بدون بيان أصول وقواعد ومقدمات صحيحة ثابتة يتمشى عليها فى مثل هذه الأحاديث وغيرها ، لا شك انه رجل مملوء بالحقد والمقت الشديد للاسلام وأهله ، ولا ريب أنه متلاعب مخادع عابث بالدين وباحترام أهله . هذا ما نقوله اجمالا على هذه الأحاديث

وأما ما نقوله فى الوجه الثانى المفصل ، فالحديث الأول لا حجة له فيه سواء كان صحيحا أو ضعيفا لأنه ليس فيه دلالة على ما يقصده من أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل عند المسلمين ، بل هو حجة عليه لانه تضمن الأمر بتعليم سورة النور ، ولا شك أن هذه السورة الكريمة العظيمة على مقتضى اسمها النور فانها مشتملة على أصول علوم لا حدّ لها ولا نهاية من التوحيد والآداب والعفة والفضائل والحث على العمل وغير ذلك مما لا يعدّ ولا يحصى ولكنه استصغرها واحتقرها ورأى أنها ليست بشىء ، ولهذا جعلها موضع الانتقاد ، فمن علم سورة النور فهو على نور من ربه وبصيرة من أمره سواء كان رجلا أو امرأة ، مع أن الحديث لم يذكر فيه الا المرأة ، وهو استدل به على جنس الانسان ، فكيف مع هذا يستشهد به على أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، وهو ينقض هذا الاستشهاد أعظم النقض ، وهل

هذا إلا عكس للحقائق الجليلة . وأما الكتابة فسيأتى الجواب عنها ، مع أن النهى هنا خاص بالنساء ، وفى الحديث أيضا ما يشير أنه لا مانع من العمل للنساء - بل وغيرهن بطريق الاولى - لأن المغزل من مبادىء الاعمال الصناعية الدقيقة ذات الأهمية ، اذ هو من مبادىء أصول النسج المناسب لذلك الوقت

وأما الحديث الثانى فهو اولا موقوف والموقوف لا حجة فيه ، وثانيا هو خاص بالكتابة ، وليس العلم كله فى الكتابة ، فان اكثر الناس يلحق علم الكتابة بالعلوم الصناعية ، فالكتابة نوع من أنواع العلم فهو أوسع منها ، فكم من عالم لم يكتب ولم يعرف الكتابة ، وقد قال تعالى ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون ﴾ ولا شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام أفضل البشر ، وما نقص من جلالته شىء لعدم معرفته الكتابة ، فالكتابة عمل جليل من ضرورات الدول والشعوب ، لكن كون العلم محصورا فيها غير صحيح ، بل هى نوع جليل من أنواع العلم ، وكثير من العلوم أهم منها ، وما رأيناك تحث على شىء منه بل تذمه غاية الذم كالدعاء وغيره . ثم ان هذا الذى حكاه رواية عن على ليس فيه ما يفيد العلوم ، ولعل هذه المرأة كانت تعلم كتابة خاصة فاسدة أو أنه تفرس فيها أن لها قصدا سيئا فى تعليمها ، فهى قضية عين لا عموم لها ، ويدل على هذا دلالة كالشمس أن عليا رضى الله عنه كان يدعو الى العلم والتعليم فقد ثبت عنه فى حديث صحيح أنه قال على منبر الكوفة وهو يخطب « سلونى قبل أن تفقدونى » وهذا غاية الحث على العلم والتعليم ، فهذا أصح وأصرح من تلك الرواية التى تضمنت الكتابه خاصة فى شخص معين ، فهل يسوغ فى العقل والدين أن يقال ان عدم تعليم امرأة من النساء الكتابة دليل على جهالة الامة كلها ، فالكتابة من الامور الصناعية الضرورية التى تكون فرضا على مجموع الامة لا على كل فرد منها ،

فانه يوجد كثير من الرجال الدهاة العظماء فى كثير من الشئون السياسية وغيرها وهم من أولى الضرر ، ولو أن رجلا حافظ على فروض دينه لم يسأل يوم القيمة عن عدم معرفة الكتابة وانما يسأل عن العلم النافع المنجى ، فليست الكتابة علما دينيا يتقرب به الى الله بذاته ، بل هى بحسب علاقتها بما يقارنها من العمل والقصد والنية فهى فرع على غيرها بالقصد لا بالذات

واما حديث « ان البيان والبذاء من النفاق وان العى والبذاذة من الايمان » فهذا الحديث على تقدير ثبوته ليس فيه شاهد لما يدعيه على أن العلم حجاب ، فان البذاء ليس بعلم بل هو خلق خبيث كما فى الحديث الآخر « ان الله يبغض الفاحش البذيء » فقرنه بالفحش ، ومعلوم أن الفحش ليس بعلم ، الا إن كان عند هذا الرجل فانه ادعى فيما ياتى أن علم الشطرنج من العلوم التى يجب تعلمها . وأما البيان فالمراد به البلاغة المذكورة فيما يأتى . وأما البذاذة فهى عدم التكلف فى بعض الأمور الدنيوية كالرثاثة فى الثياب ونحوها ، ومعلوم أن الانسان الذى يجعل همته فى خدمة جسمه وملبسه دون دينه وأمته أرعن قاصر النظر ضعيف الهمة لا خير فيه

وأما حديث « ان الله يكره البليغ من الرجال » فهو حديث صحيح ، ولكنه سلط عليه سلاحه فى الحرفة اليهودية ، فانها بضاعته فى هذه الاغلال ، فقطع نصفه الذى يقطع ظهره ، فان متن الحديث هكذا « ان الله يكره البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما تخلل البقرة بلسانها » فبين فى هذا الحديث نفسه أن البيان المكروه من الرجال هو الموصوف بهذه الصفة المنكرة بانه الذى يصنع صاحبه كما تصنع البقرة بلسانها ، ومعلوم أن الرجل الذى يبلغ الى هذه الغاية على غاية من ضعف العقل وسوء الأدب لأنه تكلف فى نطقه بما لا فائدة فيه ، وهو ينافى حسن الخلق المأمور به شرعا ، فاى حجة له فى هذه الأحاديث حتى يأتى بها مستدلا بها على بهته للمسلمين بانهم يرون العلم حجابا والجهالة أم الفضائل . فقد تبين لك من هذا أنه لا تعلق له بشيء من هذه الآثار البتة

والعجب أنه أعرض عن جميع النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في الحث على العلم والأمر به والترغيب فيه وتعلق بهذه الآثار الضئيلة الغامضة التي هي عند التحقيق حجة عليه . وهذا من البراهين الظاهرة على أنه ممن زاغ قلبه فأخذ يتتبع المتشابه والغامض الذي لا حجة له فيه ، ولا عجب فالمضطر يأكل ما وجـــده

فصل

قال : ورووا انه عليه الصلاة والسلام رأى التوراة مع أحد أصحابه فاستشاط غيظا وقال « امتهوكون انتم » الحديث . ونقلوا روايات كثيرة مشهورة جاء فيها أن عمر بن الخطاب كان يمنع من قراءة كتب الأوائل وقراءة التوراة والانجيل ويعاقب على ذلك ، وأنه كان يقول في كل كتاب يحاولون قراءته : أيوافق ما فيه القرآن ، ان كان يوافقه فان القرآن يغنينا ، ولا معنى حينئذ لقراءته ، وان كان يخالفه قال : لا خير في شيء يخالف القرآن . وهنالك الرواية المشهورة التي ذكرها بعض هؤلاء مستحسنا لها ومفتخرا بها منهم المقريزي ومن لا يقلون عنه وهي الرواية التي قيل فيها ان عمر أمر بتحريق مكتبة الاسكندرية قائلا ان كان مافي المكتبة موافقا للقرآن أغنانا القرآن عنها ولا حاجة بنا اليها ، وان كان مخالفا لها فلن نبقي على شيء يخالف القرآن ، وانها أحرقت ، وقد طار بهذه الحكاية المختلقة بعض من يحملون على العرب والاسلام فرحا »

والجواب ان يقال : يتبين للقارىء من سياق هذا الرجل لهذه الروايات أن كتب أهل الذمة والملاحدة الأولين هي العلم الذي يراه المسلمون حجابا وأن عدم درسها ومعرفتها والعمل بها هو الجهل الذي هو أم الفضائل أو أبوها الذي عناه في عنوانه السابق . وهذه الروايات التي ذكرها هنا - مع عدم الافاضة في تمحيصها - لا حجة له فيها ، بل هي من أعظم الحجج عليه ،

ذلك لأنها كلها دلت على الحض على وجوب التمسك بالقرآن وعدم الالتفات الى ما يخالفه ، ولا شك أن سياقه لهذه الآثار يقتضى أنه لا يرى فى مخالفة القرآن من بأس بل يرى أن القرآن ليس فيه شىء من العلم النافع ، وحينئذ فليصرح بهذا هنا ليستريح ويهدأ وليتنازل عن نفاقه فى الاحتجاج به وافساد معانيه . وكل ذى عقل ودين يعلم أن قول عمر هذا ورأيه من أعظم الدعاية الى العلم النافع وسد الطرق التى تشوش عليه وتدخل الريب فيه ، فان الشىء الثابت الصحيح القطعى لا يسوغ لعاقل أن يسعى فيما يوجب الشك فيه والاضطراب فى مدلوله ولا سيما وأكثر الناس حدثاء عهد بكفر ، وقد لاحظ هذا الأصل العظيم امير المؤمنين فاروق هذه الامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بدهائه ونور بصيرته فمنع ورود هذه الجراثيم القاتله على هذا الدواء الجديد الطاهر النقى السماوى ، ورد هذه الشبهات والشكوك على هذا النور الواضح الجلى ، والحق الذى لا ريب فيه ، وأجاب من نازعه فى هذه النظرية الصحيحة بالجواب المسكت الموجز المذكور ، فأذعن له المنازع لما ظهرت عليه الحجة . فان قوله « لا خير فى شىء يخالف القرآن » قول فى غاية الصحة ، فان من اعتقد صدق القرآن وأن فيه الكفاءة التامة يمتنع أن يذهب يتطلب الحق مما يخالفه (١) ومن شك فيه فهو كافر وهذا له شأن آخر . وهذا الملحد انتقد على هذا الخليفة الراشد قوله « لا خير فى شىء يخالف القرآن » فمعنى هذا الانتقاد أن فيه خيرا ويجوز مخالفته ، والا فلماذا انتقده ، ومن أعجب العجب أن هذا الملحد ادّعى فيما تقدم أن أقوال الفقهاء تموج بها الكتب موجا من

---

(١) وينبغى أن يلاحظ قوله « لا خير فى شىء يخالف القرآن » ولم يقل لا خير فى شىء غير القرآن ، فان المخالفة معناها المضادة ، ومعلوم أن من اتبع القرآن وصدق به يجب عليه أن يعتقد هذا ، بخلاف غير القرآن كالعلوم التى تتعلق به فهذه تكون تابعة له فيما صح منها لأنه أرشد الى ذلك

غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية ، وهذا قدح صريح فيها ، ثم زاد الطين بلة فى البحث العاشر كما يأتى وهجم على جميع كتب الدين الأولى وادعى أنها ضرر كبير وأنها من أعظم العوامل فى التأخر ، فيقال لهذا الزنديق هلا جعلت هذه الكتب التى قيل انها احرقت من جنس كتب هؤلاء الفقهاء ونحوهم التى هجمت عليها هجوما عنيفا وادعيت أنها ضرر محض ليس لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية كيف تنتقد على عمر الفاروق وتدعى أن يكون ايمانك مثل ايمانه ثم تهجم على كتب علماء المسلمين وتضيف اليها كل ما خطر على بالك من سب واتهام ، ووالله انك لو قدرت عليها لأحرقتها وذريتها فى . يوم عاصف لمجرد مخالفتها رأيك وأغلالك ، ثم تنتقد على عمر فيما نسب اليه عن كتب لا يدرى ماذا اشتملت عليه من الكفر والشرك المنافى للقرآن . وأكبر من هذا وأطم انك ادعيت أن الانسان الموجود وقت نزول القرآن لا يبعد كثيرا عن الطور الحيوانى فالذين قبله لا شك أنهم فى طور الحيوانية فلا بد أن تكون كتبهم مضرة بكل حال لأن نظرتهم قاصرة فلا يعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا فهى بمقتضى قاعدتك فى التطور أشنع من كتب هؤلاء الفقهاء الذين هجمت على كتبهم كلها وجعلتها ليس لها قيمة فى العقل والدين والعلم ، أتريد أن تنتقد فاروق الامة خليفة رسولها فى العمل الجليل وتسوغ لنفسك ذلك الرأى الوبيل ، وقد ظهر الشر الذى خشى عمر وقوعه وهو أن كتب الأوائل هذه لما خرجت فى وقت المأمون واندفع الناس اليها وغيروا فى أصول القرآن صار ما صار على المسلمين وتحول الاسلام وقت ظهورها وتعريبها على يد هذا الخليفة ، ومن وقته الى هذا الوقت الحاضر والاسلام يتحول فنزل من تلك القمة الرفيعة فى وقته بسبب هذه الكتب التى جرت الى مذهب الجهمية والمعتزلة فكانت أعظم سبب فى هدم الاسلام ، وهذا مما يدل دلالة صريحة على صحة نظر عمر رضى الله عنه وأن فعله هذا لو صحت الحادثة يعد من محاسنه الكبرى ، ثم ان هذا الخليفة قد نصره الله وسدد

رأيه ، فكيف ينتقده فى هـذا العمل الجليل ، ثم يتجاهـل ويطعن فى الرواية الاخيرة بدون حجة . ويدلك أيضا دلالة صريحة صحيحة على أن هذا العمل من عمر من الاعمـال السديدة الموفقة أن عـلوم الأوائل وكذلك التوراة والانجيل لا تخلو من قسمين اما أن تكون موافقة للقرآن وهذا نوعان أحدهما ان تكون موافقة له نصا أو ظاهرا كأكثر مسائل أصول الدين ، وثانيهما أن تكون موافقة له فى القاعدة والاصل والقياس كأكثر مسائل المعامـلات والمباحات ويدخل فى ذلك الامور الصناعية والتجارية والاقتصادية والمـادية وأمثال ذلك ، وهذا لم ينه عنه عمر وانما نهى عما يخالف القرآن فقط وكونه منع هذه الكتب لأن ضررها وقتئذ أكثر من نفعها والنـاس اذ ذاك ليسوا فى حاجة اليهـا لان النصوص الشرعية مفهومة لديهم فهما بينا صحيحا ، فانه ليس هناك مـلاحـدة بينهم ولا جهمية يحرفون الكلم عن مواضعه ولا سيما صفات الله تعالى كعلوه على عرشه فيدعى أن ظاهر القرآن لا يعتـد به أو لا يفيد اليقين بل لا بد من تحريفه الذى يسميه تأويلا بمجرد أن عقله المعكوس دله على هذا فعارض بعقله كلام الله مع أن عقله هذا فيما يزعم دله على صحة ما جاء به الرسول عليه الصلاة السلام وأنه لا يقول الا الحق وأنه أعطى كمال الفصاحه والبلاغة وكمال الصدق والنصح فى كل ما بلغ به كما هو دعوى الجهمية ومن دخل معهم فى هذا الباب

والمقصود أن فعل عمر هذا وقوله فى غاية السداد ، وها نحن نرى هـذه الدول التى تحافظ على مبادئها التى ليست من الدين فى شىء تشدد المراقبة على الـكتب والمجلات والجرائد التى تدخل بلادها فاذا وجدت شيئا يخالف مبادئها لم تسمح بدخوله مطلقا ، فمـا باله لا ينقد هؤلاء بل أعظم ما لديه من السب والقدح موجه دائما الى هؤلاء المسلمين ولا سيما أهل العلم والدين .

والقسم الثانى أن يكون ما اشتملت عليه هذه الـكتب مخالفا للقرآن ، ولا شك عند كل مسلم أن ما خالف القرآن فى النص والظاهر بل والقاعدة فيجب

على كل مسلم اجتنابه لانه لا خير فيه بل هو الشر والخبث بعينه كما دل على ذلك خروج هذه الكتب أيام المأمون فكان ذلك برهانا قاطعا على صحة ما تقدم . وقوله وقد طار بهذه الحكاية المختلقة بعض من يحملون على العرب والاسلام فرحا ، فيقال أنت من أعظم الطائرين بها فرحا ، فانك التقطتها وحفظتها وسجلتها فى أغلالك التى هى عندك الحقائق الازلية الابدية وجعلتها قاعدة لبحث مستقل فى القدح فى الاسلام وأن أهله يرون العلم حجابا والجهالة أم الفضائل ، ولم يكفك ذلك حتى انتقدت على الخليفة الملهم رضى الله عنه صنيعه البديع الجليل الجميل فانه رضى الله عنه كان عارفا حكيما فى حماية الاسلام وحفظه وابعاد ما يمس طهارته وكرامته

فصل

قال« وقد تكلموا كثيرا فى تحريم المنطق والفلسفة وألفوا فى ذلك كتبا منها كتاب الاسيوطى المشهور أقوال اهل المشرق فى تحريم المنطق وقد حكى فى هذا الكتاب الاجماع أو شبه الاجماع على تحريمه ومن العبارات المشهورة عندهم فى هذا قولهم من تمنطق فقد تزندق وفى الكتب المدروسة :

(فابن الصلاح والنواوى حرما)[1]

والجواب أن يقال : وهذا أيضا من نمط ما قبله فى الانتقاد الذى لا محل له ، وسياقه لهذه الجملة مما يدل على أنه يرى أن العلم أو اعظم فنون العلم علم المنطق ، وقد تقدم فى الجملة الاولى ما ذكره فى علوم الأوائل وكذلك التوراة والانجيل وسيأتى إدخاله علم الشطرنج والموسيقى ونحوهما فى العلوم التى يشنع على المسلمين بأنهم جهلوها ويدعى عنهم أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل أما القرآن وجميع كتب السنة فضرب عنها صفحا ونبذها وراءه ظهريا بل

---

(١) تمام البيت : وقال قوم ينبغى أن يعلما

صرح بأن كتب الفقه ليس لها قيمة علمية ولا عقليه ولا دينية وتعليم علم المنطق فيه خلاف مشهور وكثير منهم يرى جوازه ، وقد اعترف هذا الملحد أنه من الكتب المدروسة فى الازهر حيث استشهد لشطر البيت الذى فيه ذكر الخلاف ، وقد استعمل فيه الحرفة اليهودية فحرفه تحريفا منكرا حيث حذف ما ينقض كلامه مع أن الشطر الذى ذكره لم يذكر فيه غير اثنين من العلماء وهو ادعى أن المسلمين كلهم يحرمونه لانه أضاف اليهم التحريم ولم يذكر الخلاف ، ولو ذكر الأبيات المرتبطة بعضها ببعض لا فتضح ولم ينل لذة التحريف التى اعتادها ، والابيات هى :

فابن الصلاح والنواوى حرما وقال قوم ينبغى أن يعلما
والقولة المشهورة الصحيحه جوازها لكامل القريحه

فانظر الى ظهور تحريف هذا الملحد فى حذف ثلاثة أرباع الجملة المفيدة بوضعها واقتصاره على ربعها وهى مرتبطة بعضها ببعض تمويها على الناس بأن هذا الشعر المدروس يقتضى أن الناس يحرمونه وقد علمت من هذه الأبيات أن صاحبها ممن يجيز تعلمه ومع ذلك احتج به على عكس ما يراه الناظم وقد أقر بأنها مدروسة فى الازهر فكيف يدعى أنهم يحرمونه وهم يدرسونه فى الازهر جاعلين فى دروسهم هذه المنظومة ، وحينئذ يقال ان كان تعليم المنطق جائزا فهو قول لبعضهم أو لجمهورهم وما دام مدروسا فى الازهر فلا معنى للحث عليه ورميهم بالغباء والجهالة والحماقة بدعوى أنهم تركوه ، وان كان تعلمه حراما بطل اعتراضك وقد قال به بعضهم والذين قالوا بتحريمه قد بينوا وجه تحريمه فيجب عليك ان تبطل حجة من حرمه ولا تقتصر على التشنيع فقط فان هذا ليس فيه فائدة ، وقد قال بعض المحققين فى علم المنطق أن تعلمه ومعرفته لا تفيد البليد ، وجهله لا يضر الذكى ، وهذا هوا الصحيح ، فان كثيرا من أكابر العلماء والعظماء من أهل الصدر الأول ومن بعدهم لم يعرفوه ولم يضرهم ذلك شيئا ، وكثير من الأغبياء تعلموه وما نفعهم بشىء بل قطع

عليهم أوقاتا ثمينة لو صرفوها فى غيره من العلوم النافعة لكان خيرا لهم ، فلهذا كان الراجح عند المحققين المنع من تعلمه

فصل

قال « وقد شنعوا على الخلفاء العباسيين الذى وجهوا عنايتهم الى تعريب كتب الاقدمين وعدوا هذه العناية من مثالب بنى العباس لأنهم فى زعمهم نقلوا الى المسلمين علم الكفار وساعدوا الزنادقة والالحاد على الانتشار »

فيقال : أما دعواه أن المسلمين شنعوا على الخلفاء العباسيين الخ فهذا كذب ظاهر على هذا الوضع ، لأنه يفهم منه أن الخلفاء العباسيين كلهم أو أكثرهم فعلوا ذلك ، والواقع ليس كذلك بل الواقع أن الذى فعل هذا هو الخليفة الضال المأمون فهو أول من وجه همته لهذه النظرية الخبيثة التى جرّت على الاسلام الويل والخراب والدمار الذى لم يحصل للمسلمين حياة صحيحة بعده ، فانه بسبب هذه العلوم كان أول من غير دين الله فى هذه الأمة الاسلامية فأنزلها من أعلى قمة وصل اليها وسعى فى هدم الاسلام حتى هدمه والناس ينظرون ، فانه لا خلاف بين العلماء كلهم بان أرفع ما وصل اليه الاسلام فى الدولة العباسية فى الرقى هو فى وقت الرشيد فلما تولى المأمون لم يتغير شىء من حالة الاسلام ، فلما سعى هذا الخليفه فى حبس العلماء وضربهم وتعذيبهم وقتلهم وجدّ فى بث الدعاية الى تحريف الصفات وانكار أن الله تكلم بالقرآن وأنه ليس على العرش فوق السموات وأنكر كثيرا من الصفات وسلك طريقة الجهمية والمعتزلة وقرّبهم منه وأبعد أئمة اهل الحديث كالامام احمد والبويطى الشافعى ومحمد بن نوح وغيرهم وعذبهم ونكل بهم فضرب الاسلام فى صميمه بهذه السهام الخبيثة وتحول الاسلام فى هذا الوقت نفسه فأخذ يتحول كلما زاد هذا الوباء فيه الى أن وصل الى هذه الحالة الحاضرة ، وقد قرب هذا الخليفة الضال ملاحدة المعتزلة كالمريسى وابن ابى دواد وغيرهما

واكرمهم ورفع منازلهم وشرد علماء الدين من أهل الحديث وغيرهم وسامهم سوء العذاب حتى أخذه الله فكيف لا يشنع ولا يرمى بالضلال والزيغ وسوء الاعتقاد من هذا صنيعه

ومما ينبغى ملاحظته أن هذا الملحد ادعى سابقا أن الأولين ليسوا على شيء من العلم والمعرفة حتى ادعى أن من فى وقت نزول القرآن لا يبعدون كثيرا عن الطور الحيوانى وأن تلك المرحلة هى المرحلة التى وصلت اليها الانسانية فى ذلك العهد ، فاذا كانت هذه حال هؤلاء الأوائل وأنهم ليسوا على شيء من العلم والمعرفة فكيف تشنع على من شنع على من أحيا كتبهم وعلمها وتعلمها واعتمدها وبدل بها قواعد الدين ، وكيف يعيب على المسلمين انتقادهم على المأمون الذى أخرج كتب هؤلاء الذين وصفهم بانهم لا يبعدون عن طور الحيوان بزعمه ، بل كتب الاوائل فى عهد طور الحيوان على مقتضى قاعدته وكلامه ، ومن قواعده رفض القديم والتعلق بالجديد ، فلماذا هدم قاعدته وتناقض . والعجب كل العجب أن هذا الملحد افرغ أقصى ما لديه من السب والاتهام على هؤلاء الذين يتعلمون هذه الكتب القديمة كما يأتى فى البحث العاشر وأطال واطنب وأسهب فى هذا الموضوع وجعل من فعل هذا لا عقل له ولا فهم لديه ، والمأمون قد فعل هذا الفعل نفسه فأخذ كتب الأوائل وعربها ودعا وقاتل عليها ، فلماذا حامى عنه هذه المحاماة ، ولكنه أراد أن يعاكس أئمة الدين فى كل شيء ولو تناقض ، كما أنه مبتلى بحب كل من أساء اليه وبغض كل من أحسن اليه لان نفسه نفس خبيثة تتطلب كل ما يناسبها من الخبث فى الاخلاق والاقوال والأعمال

فصل

ثم قال « وجاء فى كتاب مطبوع حديث التأليف أن أحد العلماء المشهورين جدا قال كل ما يسمى علما مما ليس فى الكتاب ولا فى السنة ومما

ليس من علوم المسلمين فهو لا يخلو من أحد احتمالين أحد الاحتمالين أن يكون غير علم وأن تكون تسميته بالعلم من تسمية الجهل بالعلم خطأ ، وثانيهما أن يكون علما حقيقة ولكنه علم ضار فلا يجوز للمسلمين تعلمه ولا قبوله »

والجواب أن يقال : هذا النقل أيضا لا يدل على ما ادعاه من أنهم يرون العلم حجابا ، ولا فيه ما يتعلق به أصلا ، بل هو حجة عليه ، فإن هذا القائل ذكر أن ما كان ضارا غير نافع مما ليس فى الكتاب والسنة ولا فى علوم المسلمين فلا يجوز للمسلمين تعلمه ولا قبوله ، وهذا هو عين الحق ، وكلام هذا القائل تضمن أن تعلم الصناعات والأمور الاقتصادية والتجارية والمادية جائز لانه قيد ما لا يجوز تعلمه بأن يكون ضارا غير نافع ، وهذه قد ثبت أنها نافعة اذا أجريت على وجهها الصحيح ، فان الكتاب والسنة دلا على أن ما كان نافعا غير ضار فهو مباح فعله واستعماله ، ودلا على أن الاصل فى هذه الأمور الاباحة والجواز الا ما دل الدليل على منعه ، وهو هنا لم يدل دليل على منع هذه الامور فى الجملة ولم يدع المسلمون أنه يوجد أدلة تمنعه وقد قدمنا أن من القواعد الاصولية أن مالا يتم الواجب الا به فهو واجب ، ومعلوم أن الجهاد والدفاع عن الاسلام من أوجب الأمور ، وهذا لا يتم الا بتعلم الوسائل العلمية المادية التى تعين على ذلك ، فأى وجه لانتقاده على هذا النقل الجليل الجميل ، ولكنه مصاب ببغض كل جميل وكراهته ومقته مبتلى بحب الخبائث وتتبعها فكلما كان القول أشد خبثا كان أشد حبا له وكلما كان القول احسن تحقيقا وافادة كان أشد كرها له ونفرة منه ، ولهذا كان روح كتابه بغض القرآن ، وهذا الملحد ادّعى أن الدعاء ملهاة ومصرف خبيث ومفسدة وتعويق ، فأبغض روح العبادة الذى هو الدعاء ، وقد حاسب الزمخشرى على قوله « العلم للرحمن جل جلاله » الى آخره ، وشنع عليه ذلك التشنيع المرّ ونقل كلام جستاف الذى قال « ان الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر » واستشهد به وانشرح له صدره وعلق عليه وأخذ يشرحه ويدور حوله بل

كانت روح اغلاله هى معنى هذه الكلمة غير أن الفرق بينهما أن ذلك غير محتاج الى النفاق مثل هذا فزاد هذا عليه بما أدخله من النفاق بمقتضى الحاجة فكان أغلظ منه كفرا كما أنه أحط نفسا وأخبث عقيدة

فصل

ثم قال « وجاء فى الكتب الدينية المشهورة المحترمة جدا فى معرض تقسيم الأفكار فى الصناعات الدقيقة التى لا تنفع بل تضر كالفكر فى الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير والفكر فى العلوم التى لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كمالا ولا شرا كالفكر فى دقائق المنطق والعلم الرياضى والطبيعى وأكثر علوم الفلسفة التى لو بلغ الانسان غايتها لم يكمل ذلك ولم يزك نفسه ـ الى أن قال : فكل هذه الافكار مضرتها أرجح من منفعتها ، ويكفى فى مضرتها شغلها عن الفكر فيما هو أولى وأعود عليها بالنفع عاجلا وآجلا »

والجواب أن يقال : وهذا النقل أيضا من جنس ما قبله لا حجة له فيه أصلا ، مع أنه نقله ولم يبين من قال به ولا مصدره وقد حذف منه كما اشار اليه ، ومع هذا كله فهو حجة وفضيحة عليه ، فانه أنكر على هذا القائل أن علم الشطرنج والموسيقى وما فى معنى ذلك لا ينفع بل يضر ، وبهذا يتبين للقارىء تلك النتيجة التى يدعو اليها هذا الملحد من العلم والحث عليه كما يتبين له معنى الجهل الذى يرمى به المسلمين وهو أن هذا العلم هو علم الشطرنج والموسيقى وما فى معنى ذلك من دقائق المنطق والفلسفة وأن الجهل الذى يريده هو الجهل بهذا ، فما أشبه حال هذا المغرور بحال قوم لوط اذ قالوا أخرجو آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون . قال قتادة عابوهم بغير عيب . وهذا الملحد على شدة تعنته وعناده وكدحه الكدح الذى لا مزيد عليه عجز عن أن يجد ما يؤيد افتراءه على المسلمين والتنفير عن الاسلام من كون العلم عند أهله حجاب والجهالة أم الفضائل ـ الا بهذه الاقوال القليلة الضئيلة المجهولة مصادرها ، ومع

ذلك فهى حجة عليه لا له ، وقد تقدم الكلام على المنطق ، وأما الفلسفة فهذا القائل لم ينكر الا ما كان من دقائقها مما لا منفعة فيه مما يشغل الفكر بلا فائدة ، أما خلاف هذا فمفهوم كلامه أنه لا بأس به ، فأى حجة له فى هذا النقل حتى يحتج به

فصل

ثم قال : وكتب ابن عربى والشعرانى وغيرهما ملأى بمذمة التعلم والعلم ، ومن الأقوال المشهورة عندهم (العلم حجاب)

فيقال : قد علمت أيها القارىء المنصف أنه اعتمد فيما ادعاه على المسلمين وعنون به هذا المبحث على هذه الكلمة التى ذكرها عن كتب ابن عربى والشعرانى ولم يذكر قائلها ولا فى أى كتاب هى ، فلم يجد ما يؤيد هذه المقادح الا هذه الكلمة التى يدعى أنه وجدها فى كتبهم مع أن فى صحتها عنهم نظراً ولو صحت فهم يريدون بها معنى آخر على ما عرف من اصطلاحهم فهم يستعملونها فيما يتعلق بالالهيات لا فى ما يتعلق بغير ذلك ، وبهذا وأمثاله يتبين لك أن هذا الرجل يتذرع بكل وسيلة مهما بلغت فى البعد والخفاء والضعف والضآلة الى القدح فى الاسلام وأهله بدون خوف أو حياء ، ودعواه أنها من أقوالهم المشهورة كذب وفجور ظاهر ، بل أقوالهم المشهورة الحث على العلم والتعليم وكتب ابن عربى والشعرانى وأمثالها مملوءة بالدعاية الى العلم وهى موجودة مشهورة ، بل نفس تأليفهم للكتب يدل على الترغيب فيه والا فلماذا ألفوها وحثوا على مطالعتها والاستفادة منها ، وهذا كله لو قدر أن ابن عربى يعتد بقوله ، والا فقد علم أن كثيرا من العلماء يكفرونه ويرمونه بالزيغ والالحاد والاتحاد حتى قال ابن المقرى من لم يكفر ابن عربى وطائفته أو شك فى كفرهم فهو كافر ، وما كان ينبغى لهذا الرجل أن ينتقد على ابن عربى وأمثاله فانه قد قلدهم فى كثير من الخصال الخبيثه فهم سلفه فيها ولهذا شابههم فى تلبيس الكلام

وتعمية القصد ودعوى أن الناس لم يفهموا مراده ، وكثير من هؤلاء الاتحادية إنما قصدوا بكتبهم وانتسابهم الى الاسلام هدم الدين وتشويه سمعته فأدخلوا فى كتبهم من النفاق والمخادعة وتعمية القصد ما يروج على جهلاء أزمانهم وديارهم ولهذا تبعهم هذا الملحد فى هذه الطريقة وسار عليها ، غير أنه زاد عليهم بأنواع الكفر والضلال ، فهم لم يتجاسروا أن يدعوا أن دعاء الله خبيث وأن المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة وأن المتدينين ما وهبوا الحياة شيئا جديدا وأن المساجد ادت شر ما يؤدى ، ومما يدلك على أن هذا الملحد موافق لابن عربي وأمثاله فيما يختص بالالحاد أنه لم ينقده فى شيء من كلامه فى الاتحاد ولا بلفظة واحدة ، ومعلوم أن فى كتب ابن عربى كثيراً من صرائح الالحاد وكان يجب على كل من يريد أن يتكلم فى تصحيح آراء المسلمين فى الأمور أن ينبه عليها ، ولكنه أغضى عن هذا كله وتعلق بكلمة مشتبهة غامضة وفى كتبهم مما يدل على خلافها ما لا يعد ولا يحصى ، وهل هذا إلا من أعظم الزيغ وأبعد الضلال

فصل

ثم قال « ومن البلاء حقا أنهم لم يقتصروا فى امتداح الجهالة ، بل قاموا ببلاهة كثيفة يمتدحون الجنون والبَله والبُله والمجانين »

فيقال : ان صح هذا فكله من أخلاق أئمتك فى سلوك طريقة الالحاد وخلطها بالنفاق ، فلا يحق لك أن تعيب المسلمين بأخلاقك وأخلاق سادتك ، يا صاحب الحقائق الازلية الابدية والدر الذى فى لجج البحر لا حاجة الى الخداع فقد علم أن كثيرا منهم انما أدخلوا فى كتبهم بعض النصوص منافقة ومخادعة ، وإلا فمقصودهم هدم الاسلام وتشويه سمعته ، ومن تأمل كتبهم علم يقينا أن بينها وبين أغلالك هذه أعظم المناسبة فى التعمية والتلبيس والنفاق ، غير أن أغلالك أخبث منها بكثير ، فما كان فى هؤلاء من المعايب

فأنت أولى به كما ذكرنا ، ومن عاب المسلمين بمجرد وجود قول لبعض الملاحدة فى كتبهم فهو كمن عابهم وقدح فيهم وادعى أنهم يسبون الصحابة لوجود كلام لبعض الرافضة فى كتبهم بمجرد انتسابهم الى الاسلام ، بل ما ذكره فى هذا أشنع وأبشع

ثم قال « فرووا أنه عليه السلام قال : أكثر أهل الجنة البُله »

فيقال : هذا الحديث قد رواه البزار فى مسنده وأشار السيوطى فى الجامع الصغير الى أنه ضعيف ، فعلى هذا فلا حجة له فيه ولا وجه لأيراده وجعله عنوانا لهذا البحث ، وعلى تقدير ثبوته فليس فيه ما ينكر أصلا ، فليس فيه ترغيب وحث على البَله كما أنه قد ورد فى من عمى بصره أو مات ولده أو أصيب فى ماله أو حاله أحاديث كثيرة تتضمن الأجر والثواب ولم يكن ذلك عيبا فيمن تجرى عليه هذه الامور ، وليس فيه حث على العمى وقتل الاولاد فان هذه الاحاديث اخبار لا أمر ، ولما كان البَله نقصا طبيعيا يبتلى به بعض الناس كان من رحمة الله واحسانه وكرمه وافضاله بأنه رحم هؤلاء وعفا عنهم فيما جهلوا من الامور الجزئية ، وهذا من محاسن الشريعة الاسلامية ومظهر من مظاهر الرحمة ، فانه تعالى لما خلق عباده وجعل منهم اذكياء ومنهم متوسطين فى الذكاء ومنهم من به بله وجعل منهم مجانين كان من رحمته أن رحم هؤلاء الضعفاء من البله الذين أدّوا ما فى وسعهم ، وهذا غاية الكرم والاحسان ، فحماهم وعفا عنهم ورحمهم ، وهذا عين الافضال والاحسان ، وليس البله خلقا خبيثا كالنفاق والزندقة والالحاد حتى يعاقبوا عليه ، وانما يعاقب الانسان على الأوامر الشرعية والبله ليس من هذه الامور فلا يعد ذنبا ، ونحن نسأله هل البله ذنب أو غير ذنب ، فان كان ذنبا فأين الدليل عليه ، وإن كان غير ذنب فكيف يكون أهله من أهل النار من غير ذنب ، ومن الجائز أن يكون سبب كونهم أكثر اهل الجنة لانه يوجد فيهم من العفة وسلامة الصدور وعدم الحقد والخبث والبغض والنفاق والكبر والعجب والحسد أكثر مما يوجد فى

غيرهم ، وقلّ أن يوجد أبله معجبا بنفسه متكبرا مزهوّا ، والكبر والعجب هو الداء الوبيل الذى يقضى على صاحبه كما وقع لهذا الرجل ، ولهذا كان كثير من الاذكياء يعتمد على نفسه ويرى أن فيها الكفاءة الذاتيه والكمال ، فلذلك يصاب بالزيغ والضلال ، وهذا بخلاف البله ، والمسلمون لم يقولوا ان البُله أفضل من غيرهم ، لكن يقولون انهم مأجورون كما يثاب غيرهم ممن ابتلى بشيء من النقص فى حاله أو ماله أو ولده ، ولا يقولون ان الاعمال الجليلة تناط بهم وتسند اليهم ، وانما دل الحديث على اثابتهم فقط ، ولكن هذا الملحد أراد أن يحسدهم ويدخل بينهم وبين الله تعالى وينازع الله فى رحمته لهم ، فجعل كونهم من أهل الجنة لا ينبغى ولا يسوغ وليس من الموافق فلم تسمح بذلك نفسه ولم يسعه السكوت والتسليم (١) وإلا فلم يشنع بهذا التشنيع البارد ، والظاهر انه لم يكرههم هذه الكراهية ويمقتهم هذا المقت المنكر إلا من أجل أنهم لا يحسنون الشطرنج وعلوم المنطق ودقائق الفلسفة ، وهذا هو أكبر ذنب عنده ، كما تقدم تشنيعه على من أنكر ذلك فلهذ استغرب دخولهم الجنة جدا وهم جهلاء فى هذه الأمور عازبون عنها . وليس وجود البُله مضرا فى الدول والشعوب أصلا ، فلا يمكن وجود شعب أو دولة الا وفيها بله كثيرون ، فلو قدر أنهم يجهلون شيئا من الأمور الصناعية والمادية ونحوها فمن الممكن أن تنتفع بهم الدولة فى امور أو وظائف أخرى تليق بهم فان حاجات الأمم والشعوب فى الأمور الاقتصادية والزراعية وتنمية الاموال وغيرها أكثر من أن تحصى ، فهذا الحديث الذى جعله هذا الملحد مهزلة وشنع على المسلمين لوجوده فى كتاب من كتبهم ـ على تقدير ثبوته ـ ليس فيه ما ينكر ، بل هو عين العدل ، وهو حجة عليه كما هو ظاهر

---

(١) ولكنه وسعه السكوت عن أهل الفجور والفسوق وفساد الأخلاق التى لا تحصى

فصل

ثم قال : « وأنه قال : المؤمن غرّ كريم ، والمنافق خبّ لئيم »

فيقال : هذا الحديث رواه أبو داود والترمذى والحاكم ، فان كان يعتقد صحة هذا الحديث فهو انما يردّ على من قاله ، وان كان لا يعتقده فعليه أن يبين وجه ضعفه ووجه الانتقاد عليه ، وهو لم يذكر شيئا من هـذا بل جاء به فى موضع التهكم والاستهزاء فحسب ، والحديث ليس فيه ما يدل على ما ادعاه من كون المسلمين يذمون العلم ويمدحون الجهل ، ولعله استعظم كون المنافق خبا لئيما لان النفاق عنده أصل من أصول العلم كما ياتى ، فلهذا استنكر كون صاحبه موصوفا باللؤم ، وهذا الحديث انما فيه إخبار بان المؤمن غرّ كريم أى سليم الصدر من الخـــداع والنفاق فيحمل الناس على سجيته أحيانا فربمـا يغتر بمن ظاهره خلاف باطنه ، فأى دليل فى هذا الحديث على مدح الجنون والمجانين أو مدح الجهل وذم العلم كما ادعاه هذا الكاذب ، وهو أيضا إخبار لا أمر ، فان الله تعالى أمر بالحذر واخذ الحيطة التـامة وإساءة الظن بمن ظهر منه شيء من أمارات الخبث والنفاق والخداع والكيد كما قال تعالى ﴿ يا أيهـا الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ وفى حديث أنس مرفوعا « المؤمن كيس فطن حذر » [1] وفى الحديث الآخر « احترسوا من الناس بسوء الظن » رواه الطبرانى وغـيره عن أنس رضى الله عنه ، وروى الامام أحمد مرفوعا « احـذروا كل منافق علـيم اللسان »

فصل

ثم قال « وانه قال : ان الله يدخل قوما الجنة كأن قلوبهم الطير ، أى فى السذاجة والسلامة من المكر والخبث ومن الدهاء والذكاء »

---

(١) رواه ابن منيع . اه . جامع صغير

والجواب أن يقال : كأن هذا الملحد يريد بهذه الترهات أن تكون الجنة ملكا له يدخل فيها من يشاء ويحرم منها من يشاء ، فيالله العجب ، أى شيء فى هذه الأحاديث التى يذكر فيها أن هؤلاء يدخلون الجنة ، أيريد أنهم لا يدخلونها وأن يلعنهم الله ويغضب عليهم ويطردهم من رحمته ، أم ماذا يريد ، فهل فيها الا الاخبار بأن من هذه صفتهم فان الله قد يرحمهم ويدخلهم الجنة ، ولم يقل ان الجنة لهم خاصة بل أخبر عليه الصلاة والسلام أن الله يدخل قوما الجنة على هذه الحالة التى ذكرها من أن قلوبهم كأنها الطير ، فان كان يرى هذا كفرا فعليه أن يثبت أن من كان هذا حاله فهو كافر حتى يتبين أنه لا يستحق الجنة ، أما كونه يعمد الى حديث فيه اخبار بان أناسا يدخلون الجنة ثم يعترض به ويشنع على المسلمين به ثم لا يتكلم فى سنده ولا فى معناه فهذا مما يدل على أنه خبيث متهكم بالشريعة الاسلامية وأهلها ، وهو انما يورد هذا الانتقاد على الرسول ﷺ لأنه لم يبين ضعف الحديث ، بل هو انتقاد على الله تعالى اذ كيف يدخل أقواما الجنة وهم قد خليت قلوبهم من المكر والخبث ومن الدهاء والذكاء كما هو صريح كلامه ، فهو يريد بهذا أن هؤلاء لا يدخلونها بل هم فى النار لأنهم حرموا من المكر والخبث والدهاء والذكاء ، فالمكر والدهاء عنده من أعظم الفضائل وأصل من أصول العلم ، ولهذا اختارهما كما ترى وقرنهما مع الدهاء والذكاء من جميع الأخلاق وعمل لهما هذه الاغلال ، وهذا مما يدل دلالة صريحة واضحة على أن العلم الذى أطال وأطنب وأسهب فى الحث عليه هو المكر والخبث ، وأن الجهالة التى عاند وجادل وغالط فى التحذير منها هى جهل أساليب المكر والخبث ، فالمكر والخبث هما جماع السياسة كلها والفضائل كلها وجماع كل تقدم فى هذه الدنيا ، وأما الصدق والنصح والثبات التى هى أضداد المكر والخبث فانها عنده جهالات وأوهام مرذولة أضرت بالمسلمين وحملتهم المصائب ، ولهذا جعل سلامة الصدر من المكر والخبث أكبر عيب وأعظم مصيبة يصاب بها الانسان ، بل هى أعظم من الكفر لأنه

لم ينتقد الكفر الذى لا يدخل أهله الجنة بل انتقد هذا الحديث الذى تضمن أن السلامة منهما سبب فى دخول الجنة ، ومن أجل هذا كان شديد التمسك بهذين الخلقين اللذين هما المكر والخبث فى كل كتابه ، فهو اذا أخذ فى الاطناب والاسهاب فى القدح فى الشرائع السماوية وشتمها وشتم أهلها وأوغل فى ذلك رجع هنيهة وجاء بملق واحتجاج يوهم ظاهره أنه لا يريد ما يفهم من ذلك الكلام الأول ، لأنه لما اعتقد أن المكر والخبث من أرفع الفضائل فلا بد أن يتمسك بهما ، ثم هو متى نوقش فى هذا الكتاب الذى هو الاغلال يدعى أن مراده ليس هو ما يفهم الناس منه بل له معنى آخر فيقول : ان الناس لم يفهموا كلامى ، وأنا لى قصد حسن فى تأليفه ، وانما أعنى كذا وكذا ، لأنه ما دام يعتقد أن المكر والخبث هو جماع العلم والعقل وأصل كل رقى وتقدم فانه سيلازم عليه ، لكن فاته ان ترك ذكر المكر والخبث هنا على الحديث من المكر والخبث ، لان قريحته المفتوحه أوقعته فى المكر والخبث لأنه مضطرب القلب منكوسه . والحاصل ان انتقاده على هذا الحديث مما يدل على رسوخه فى الغباء والجهالة العمياء ، اذ لو كان عنده أدنى مسكة من عقل لتجنب هذه الأمور وحث على العمل فحسب ، اذ لا طائل تحت هذا التهكم والاستهزاء والسخرية الفارغة ، ومعنى هذا الحديث كمعنى الحديثين اللذين قبله

فصل

ثم قال « وراحوا كالمصروعين ينشدون فى امتداح الجنون والمجانين :

مجانين إلا أن سرَّ جنونهم   عظيم على أبوابه يسجد العقل

فيقال ان كان قال هذا أحد من الاتحادية فهم أسلافك فى هذه الأمور ، فان قائل هذا القول اذا سئل عنه قال مرادى غير ما يفهم الناس منه ، هذا له معنى آخر هو كيت وكيت ، كما تقوله أنت سواء بسواء ، ولهذا شابهتهم فذهبت تمدح الخبث والمكر والنفاق والشطرنج والموسيقى بل والالحاد ،

ومعلوم أن مدح الجنون أسهل من مدح هذه الفنون

ثم قال « وجاء فى النهاية لابن الأثير مفسرا البُله الذين هم أكثر أهل الجنة : هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن لانهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها فاستحقوا أن يكونوا أكثر اهل الجنة ، وهكذا قال غير ابن الأثير » انتهى

فيقال : فعلى هذا يكون حاصل الكلام أنهم عالمون بدينهم جاهلون بحذق التصرف فى دنياهم ، فليسوا جاهلين بالدنيا انما هم جاهلون بالحذق فقط ، فأى شيء فى هذا ، وهل هذا يعد ذما للعلم ومدحا للجهل ، ومعلوم عند جميع الناس حاشا الملاحدة أن العالم بدينه الجاهل بدنياه أحسن عاقبة وخير عند الله وعند المؤمنين من خلقه من العالم بدنياه الجاهل بدينه ، ثم العلم بالدين كما ينبغى فى الجملة يستلزم العلم ببعض الوسائل التى بها يحصل النفع للدنيا وللاسلام من صناعة وغيرها ، وفحوى كلام الملحد يتضمن أن العالم بدينه الجاهل بدنياه لا يعد عالما بل جاهلا ، وانما العالم عنده هو عكسه العالم بدنياه الجاهل بدينه ، وهذا هو اللائق بحاله وأغلاله

فصل

قال « وفى النهاية لابن الاثير أيضا : المؤمن غرٌ كريم ، أى ليس بذى نكر فهو ينخدع لانقياده ولينه ، وهو ضد الخبث ، يريد أن المؤمن المحمود من طبعه الغرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه ، ومنه حديث قول الجنة : يدخلنى غرّة الناس أى البُله الذين لم يجربوا الامور فهم قليلو الشر ينقادون ، فان من آثر الخمول واصلاح نفسه والتزود لمعاده ونبذ أمور الدنيا فليس غرا فيما قصد له ولا مذموما بنوع من الذم »

قلت : وهذا ايضا من جنس ما قبله من الانتقاد الذى لا وجه له فليس فى كلام ابن الاثير فى تفسير الغرّ ولا الأبله ما يفيده شيئا فانه قال : المؤمن غر

كريم اى ليس بذى نكر أى ليس بصاحب منكر وخبث ، فان النكر هو المنكر والخبث لما جبل عليه من السجايا الحميدة ، فأى انتقاد فى هذا ، ولكنه جرى على قاعدته أن المنكر والخبث أصل من أصول العلم ، وقوله فهو ينخدع لانقياده ولينه ليس فيه ما يتشبث به ، فانه لم يقل يخدع بل قال ينخدع ، وفرق ظاهر بين اللفظين ، فان الذى يخدع قليل الفطنه فربما يؤخذ من غير أن يشعر بخلاف الذى ينخدع فهو الذى يترك ما لنفسه من الاستحقاق فى بعض الأمور الشخصية من الاشياء التافهه من أمور الدنيا ، وهذا من باب السماحة والكرم وحسن الخلق ، وكل هذه أخلاق طيبة مخالفة لأخلاق المنافقين من الشح والهلع والجشع وسوء الملكة ، فالمؤمن ليس بذى جشع ولا هلع ولهث على الدنيا ، ولهذا قال : فهو ضد الخبث ، ومعلوم أن ضد الخبث هو الطيب والعلم والفطنة فان الخبث أصل البلادة والجهل والعلم النافع انما يكون فى الطيبين الطاهرين ، ولهذا كان الانبياء عليهم الصلاة والسلام أوسع الخلق معرفة وعلما وكذلك الملئكة ، وموضع الانتقاد الذى أحرج صدره قول ابن الأثير هو ضد الخبث فانه أعظم هذا وأكبره وضاق به ذرعا ، اذ كيف يكون المؤمن الغر ضد الخبث ، لأن الخبث عنده رأس الأمر كله فلهذا عمل أغلاله كلها على الخبث ، ولما أراد أن يؤمن بالانسان ونسبه الى القدرة على كل شيء والعلم بكل شيء ادعى أنه بطبعه خبيث شرير ظالم ، فالخبث عنده هو أكمل الأخلاق التى تقدم أهلها ، وهو عنده العلم الصحيح لا ريب فيه ، وقول ابن الأثير ونبذ أمور الدنيا لا تعلق أيضا للملحد فيه بشيء ، فان أمور الدنيا المحضة هى مما لا تعلق له بالدين كأمور الشهوات على اختلاف أنواعها مما لا يدخله القصد الدينى ولا فائدة فيها أما ما يجب اتخاذه فهذا واجب دينى بحسب النية والقصد ، ثم ان ابن الأثير ذكر أن مثل هذا ليس بمذموم بنوع من الذم ، وهذا الملحد جعله هو الهدف الاكبر الذم واللوم ، وقد تقدم الحديث الذى فيه « المؤمن كيس فطن حذر » وحديث « احترسوا من الناس بسوء الظن » وامثال هذه

الآثار والنصوص الكثيرة وقد أعرض عنها وتعلق بما يظن أنه مفيد فى قصده فى تشويه سمعة الاسلام وأهله

فصل

اذا علمت أن هذا هو حاصل ما لديه وغاية ما قدر عليه من الأمور التى اعتمد عليها فى تشويه سمعة الاسلام وأهله وأنهم يكرهون العلم ويدعون أنه حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، فاعلم أن المسلمين كلهم قد حثوا على العلم ونشروا فضله ورغبوا فيه وأوجبوا تعلمه حتى جعلوا من أقسام الردّة والكفر الاعراض عن دين الله لا يعلمه ولا يتعلمه (١) كما قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ واى شىء أبلغ من هذا . وقد رغبوا فى جميع العلوم الدينية والدنيوية ، وما من فن من فنون العلم إلا وفيه مصنفات مشهورة معروفة ، وأدنى كتاب من كتب المسلمين يتناوله الانسان يجده مملوءاً بما ذكرناه من الترغيب فى العلم والتحذير من الجهل فلا حاجة الى الاطناب فى الاستدلال على هذا الموضوع

أما استدلال هذا الملحد وأضرابه من الزنادقة بوجود أخطاء فى بعض الكتب لبعض الناس واستدلاله بذلك على تشويه سمعة الاسلام فهو استدلال ساقط لا يفعله إلا مفرط فى الجهل وسوء النية والقصد ، ويكفى فى ابطال هذه الدعوى ما قرره هو بنفسه حجة عليه الى يوم القيمه حيث قال فى كتابه الصراع ص ٣١٨ ج ٢ ما نصه « اننا قد قلنا مرات انه ليس كل ما كتب حجة على المسلم وقلنا أيضا مرات ان الضلال والخطأ يطبع وينشر ويقرأ ويحفل به الجماهير والخلق الكثير وان الشيخ الكبير والعالم من العلماء قد يقول ما لا علم له به وما يعجز أن يقيم عليه الحجة والبرهان . وماذا ينفع الباطل وأهله

---

(١) كما ذكر ذلك شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب فى نواقض الاسلام العشرة

عند اهل الحق وأهله ان يجد الباطل من يقوله وأن يجد من يكتبه وينشره وأن يجد من يطبعه ، وماذا يجدى المخطىء أن يجد له سلفا فى الخطأ وشيعة فى الباطل ، وماذا يجديه أن يقلد فى هذا كله . لا يجدى شيئا ولكن الذى يجدى هو البرهان وان كان لا قائل به والحجة الظاهرة وان كانت قليلة الانصار والاعوان » انتهى

وقال أيضا ص ٣٢٠ « فالمسلم الصحيح الاسلام ليس هو من يتتبع اخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين ليقاوم بها وحى الله ورسالة نبيه (١) ونصوص كتابه المبين » الى أن قال « ولكن المسلم حقا هو الذى يستمع القول فياخذ أحسنه ولا أحسن من قول الله ومن قول نبيه عليه الصلاة والسلام » الى ان قال « والذى يعلم أن من ذهب يؤلف لنفسه عقيدة ولعقيدته مذهبا من أغلاط الغالطين وأخطاء الخاطئين فقد اختار لنفسه شر العقائد ولعقيدته شر المذاهب ، لانه يقل أن يسلم عالم من أن يغلط ويخطىء ويذهب مذهبا لم يشرعه الله ورسوله ، كما أنه يقل أن يسلم انسان من أن يقارف إحدى المخالفات ويلامس واحدة من المحرمات لضعفه الجبلى ونقصه المحتوم (٢) ، فمن بنى مذهبه على أغلاط العلماء فقد جمع لنفسه الشر والنقصان والجهل (٣) المفرق فى الامم والشعوب ومن أجهل وأنقص حظا ممن فعل ذلك (٤) انتهى كلامه .

وقد فعل كل هذا الذى نهى عنه وانكب على وجهه فى هذه الأغلال كما ترى انقلابا كاملا فتتبع أدنى وأشنع شواذ الغلطات التى رويت عن بعض

---

(١) هو ذا أنت والله بلا شك

(٢) انظر كيف صرح بان الانسان مجبول على الضعف والنقص وهذا يناقض ما ادعاه فى المبحث السابق

(٣) ستكتب شهادتهم ويسئلون

(٤) هو ذا انت فعلته فى هذه الاغلال

الاتحادية فرمى بها المسلمين وأخذ يشنع عليهم بذلك مع ما أضافه اليه بالبهت والزور ، فلهذا قال بعد أن نقل تلك النقول التى أجبنا عليها :

« لقد تبين بهذا أن الفساد الفكرى عند هؤلاء فساد عام وكان فسادا أصيلا ، فهم لم يكتفوا بمدح الفقر والمرض والجوع وكل ألوان الشقاء كما سياتى بل امتدحوا كما رأى القارىء الجهل والغباء ، ثم لم يكتفوا بهذا أيضا بل امتدحوا الجنون وضعف العقل والعجز عن التصرف فى الحياة » انتهى

فلينظر المسلم الى هذا البهت والفجور الزائد ، وقد قلنا فيما سبق ان أدنى كتاب من كتب المسلمين يتصفحه الانسان يجد فيه من مدح العلم والعمل وذم الجهل ما فيه كفاية ، ونحن نسأل هذا الملحد ما هو الذى يقرر فى هذه المدارس والجوامع والكتاتيب وغيرها ، هل هو علم أو جهل ، وما هو المقصود من تأسيس ذلك وانفاق الأموال الطائلة فى سبيله ، قاتلك الله ما أرخص الكذب عندك وأخفه على لسانك ، فسقوط هذه الدعوى أظهر من أن يطنب فى ردها ، ولو ادعاها أكفر يهودى لم يحتج المسلمون الى ردها بأكثر من هذا أو ما هو معناه ، ولو أن أدنى عامى قيل له إنك مجنون جاهل غبي لم يرض بذلك فكيف بأمم يبلغ عددها على ما يقول اربعمائة مليون ترضى لنفسها ذلك وتراه فضيلة بل أم الفضائل ، وفى الحديث « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » ، وقد أطال هذا الملحد فى التشنيع على المسلمين بأنهم أحبوا الجهل وحاربوا العلم كعادته فى الاسهاب على ما يخترعه من الكذب والفجور ، وهو يشير الى أن الالحاد هو العلم الحقيقى وأنهم حاربوه ولكنه سماه علما ترويجا لباطله كما سمى الجهمية مذهبهم فى الصفات تنزيها وعباد القبور ما يفعلونه من الشرك عندها توسلا ، والأسماء لا تغير الحقائق ، وكل هؤلاء دونه فى ما انتحله من الزندقة والالحاد والنفاق

ثم ذكر أن أوربا لم تتقدم إلا بأن وجهت نظرها الى علوم الفلسفة والرياضة والطبيعة ، ونحن انما تأخرنا لجهلنا بذلك ، وياليت هذا الملحد يعرف

أننا ما ضربنا بهذا التأخر والذل إلا بسبب آثار علوم الفلسفة اليونانية وأمثالها مما يخالف أصول الدين ولا سيما ما يضاد صفات البارى سبحانه وتعالى ، فان الأمة الاسلامية ما زالت مستقيمة قوية عزيزة منيعة حتى دخلت فيها جراثيم هذه العلوم الخبيثة كما أشرنا الى ذلك فيما سبق ، أما علوم الطبيعة والفلسفة الصحيحة فقد بينا أنه ليس فى علماء المسلمين ممن يعتد بقوله من ينكرها أو ينهى عنها ، واكثر العلماء إنما نهى عن علوم الفلسفة فيما يتعلق بأصول الدين لأنها أمور مبنية على السمع ، أما غير ذلك مما يتعلق بالأمور الصناعية فقد رغب فيه المسلمون وكتب الطب والزراعة وغيرها موجودة بين المسلمين وهى مشتملة على كثير من أقوالهم وآرائهم ومدروسة فى كل مكان من المدارس ونحوها ولم ينكرها أحد من المسلمين ، وانما أنكروا ما يتعلق بأصول الدين ، ومعلوم أنه لا فائدة فيها من هذه الناحية ، فان الله أغنانا بكتابه العزيز وسنة نبيه المطهرة فيما يتعلق بصفاته وعبادته تعالى وتقدس ، فما ذكر فكذب وفجور واضح لا يخفى إلا على أحمق مدخول فى عقله ودينه ، هذا مع أنه يناقض دعواه فى نبذته التى سماها (كيف ذل المسلمون) فانه هناك اعترف بأن علوم أوربا الصناعية ونحوها انما أخذت عن المسلمين ، فكيف هنا يدعى أن المسلمين تركوها وأنها مأخوذة عن الفلاسفة . ومن العجب أنه ذكر أن المسلمين تحاموا كتب الفلاسفة المنتسبين الى الاسلام كأبى بكر الرازى والحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والكندى ، وهذا كذب ظاهر بل كلامهم فى الطب والكيمياء والرياضة ونحو ذلك موجود منقول فى الكتب المصنفة فى هذا الشأن بل رغبة كثير من أنصار المعتزلة ومن نحا نحوهم من الجهمية كالطوسى وغيره فيها أعظم من رغبتهم فى كتب التوحيد والحديث والتفسير ، وهذه كتب ابن سينا وأمثاله موجودة بكثرة مع أنه أقرب منهم الى الالحاد ، ولو أن هذا الملحد أراد أن يتكلم بالصدق لعلم أن الدولة التركية وكثيرا ممن تبع أكثر مذاهب الجهمية وغيرهم قد تحاموا كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وأمثاله

وهى الكنوز الذهبية والكبريت الأحمر وخليق بمن تحامى كتب هذا الامام أن يهوى من حالق وأن يصل الى هذه الحالة المشاهدة ، فأصل تأخر المسلمين لم يأت إلا من جهة أمرين أحدهما شيوع مذهب الجهمية والمعتزلة فى العقائد وفى الصفات حتى كان ذلك هو المشهور فى كثير من الأمصار بسبب سعى بعض الملوك والرؤساء فى تعزيز ذلك ونشره والدعاية اليه ، والأمر الثانى الغلو فى الأموات من الصالحين وغيرهم حتى عم ذلك غالب بلاد الاسلام ، فمصدر الأمر الاول علوم الفلسفة التى أدخلها المأمون بسبب الجهمية والمعتزلة فى أصل الدين ، ومصدر الثانى أى الغلو فى الأموات كان أصله من الرافضة ، وقد بين ذلك الاستاذ المحقق عبد العزيز المراغى فى ترجمة الامام ابن تيمية وحقق هذه الامور تحقيقا لا مزيد عليه وبين أن هذه من أعظم الأسباب التى أخرت المسلمين ، ولقد اجاد فى تلك الترجمة وأفاد ، وهذا الذى قاله صحيح بلا ريب ، فان المسلمين لم يتقدموا ويحصلوا هذا العز الا بروح الاسلام ، فالدولة الاسلامية كجسم نشأ على روح الدين الطاهرة القوية ، فكلما ضعفت الروح ضعف الجسم ، وكلما تأثرت تأثر الجسم وبقدر تأثر الروح يتأثر الجسم ، وان ذهبت ذهب الجسم كله ، وبهذا يعرف الفرق بين الدولة الاسلامية وغيرها من سائر الدول أو الحكومات الاخرى ، فان تلك الحكومات انما قامت دولها على تعاليم موجودة فيها اليوم وأنظمة معمول بها بجد واجتهاد ومحافظة زائدة ، فليست مؤسسة على أديان أهملت وضعف الأخذ بها ، وأما الدول الاسلامية فمنهم من ترك هذا المبدأ وليس معه إلا اسمه فقط ومنهم من ضعف أخذه به فمستقل من ذلك ومستكثر

فصل

ثم أطال فى التشنيع على الذين ينكرون علوم الفلسفة وذمهم غاية الذم وقد بينا التفصيل فى ذلك وأن المسلمين لا يذمون منها الا ما لا يمت الى

الاسلام بصلة بما هو مناقض لأصول الدين ، وأما غير ذلك فانهم لم يذموه بل كتبهم مشحونة به

ثم قال « ومن الأوهام العظيمة ايضا التى جعلتهم يذمون الاشتغال بالعلوم التى لا تتصل بعلوم الدين والعبادات اعتقادهم أن الانسان انما خلق لينفق كل جهوده وأعماله وأوقاته فى العبادة ، أما ما سوى ذلك فالاشتغال به من الاشتغال بالباطل الذى يؤاخذ الله ويعاقب عليه ، واعتقادهم أن من اشتغل بالعلوم الدنيوية أو التى تفيد الدنيا فقد اشتغل بخدمة الباطل ، والباطل هو الدنيا وكل ما يعمل لها ومن أجلها ، ولا أضل عندهم من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل بعبادة الدنيا وبعبادة نفسه من طريق الدنيا . فمن أعظم الضلال فى رأيهم انفاق شىء ما من القوة والأوقات والأعمال ـ التى انما وجدت تصرف كلها فى خدمة الله ـ فى خدمة الدنيا أو فى خدمة ما يخدم الدنيا ، لهذه الاوهام والأسباب المنكرة أشاع هؤلاء الثناء على الجهالة وعلى الجنون والبله وضعف العقل وأشاعوا مذمة العلم والذكاء وقوة العقل حتى صار الناس الذين قضى عليهم بقراءة كتبهم والايمان بها ينظرون الى العلوم نظرا هو الخشية والحذر » ثم أطال من هذا الهذيان ، وغرضه من هذا البهت والخبث والفجور الزائد هو تركيز كراهية علماء الدين فى نفوس الرؤساء الذين لا يعرفون حقيقة ما لدى هؤلاء العلماء من العلم والعقل والدين ، وفى نفوس الاجانب للقضاء عليهم والتنفير منهم ، وفى نفوس الجماهير الجهلاء من الفساق وأمثالهم الذين لا يعرفون الامور الدينية على وجهها ، وقد قدمنا لك أن هذه الأغلال دعاية خبيثة ملعونة ملتوية ضد روح الأديان وبخاصة روح الاسلام ، وأنها منابذة صريحة وعداوة منكرة لرجال الاسلام وعلمائه ، ونحن نتحدى هذا الزنديق بأن يبرز لنا كلاما لواحد من العلماء الذين يعتد بقولهم أنه قال أن من اشتغل بشىء من علوم الدنيا أو التى تفيد الدنيا فقد اشتغل بخدمة الباطل أو أن أحدا منهم امتدح الجهالة والجنون ، ولو أن أكفر يهودى ادعى على

المسلمين أنهم يمدحون الجنون والجهل ويذمون العمل فماذا يصنع المسلمون ، فلا حول ولا قوة الا بالله كيف يخفى ما فى هـذا الكلام من الخبث العميق والعداوة المنكرة للاسلام وأهله ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

ومن العجائب بل من المصائب قوله « ولا أضل عندهم من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل لعبادة الدنيا أو لعبادة نفسه عن طريق الدنيـا » فنقول نعم إنه لا أضل من هذا إلا من أنكر ضلاله وهو يشك فى ضلال من ترك عبادة الله وعبد الدنيا وعبد نفسه ، بل وهل يشك مسلم فى كفره ، وكيف يشك فى كفر من ترك عبادة الله واشتغل بعبادة الدنيا ، واذا كان هذا عندك ليس بضلال فما هو الكفر والضلال ، اذا كان ترك عبادة الله ليس بكفر كما هو صريح كلامه فهذا الملحد لا يرى أن ترك عبادة الله والاشتغال بعبادة الدنيا وعبادة النفس لأجل الدنيا كفر ، لانه جعل هذا من الأوهام العظيمة كما هو صريح أول الجملة ، وجعله من الأسباب المنكرة فى آخر الجملة ، فادعى هذا الملحد صريحا أن من الاوهام العظيمة والأسباب المنكرة عند المسلمين أنهم يرون أنه لا أضل من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل بعبادة الدنيا أو بعبادة نفسه من طريق الدنيا ، فهذه الجملة التى قالها صريحة فى كفره صراحة لا تقبل التأويل إلا تأويل اليهود الذى اتخذه له نفقا وملجأ يهرب اليه ، وفى هذه الدعاوى التى نقلناها هنا من الخلط والتخليط والفجور ما لا يخفى على آدنى عاقل ، ولا شك أن الله سبحانه خلق عباده ليعبدوه كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ولا ينافى عبادة الله الاشتغال بشىء من أمور الدنيا مما أباحه الله تعالى لعباده ، بل الانسان مأجور على عمله للدنيا اذا كان يقصد بذلك ما يتعلق بالطاعة كما تقدم ، وأما مدح الجنون والجهل فقد بينا أنه فجور لا يقدم عليه إلا من هو مثله ، والله سبحانه بين لعباده العبادة ،

ففرض فروضا وواجبات وعين صفاتها وأوقاتها وهى لا تستغرق من حياة الانسان إلا أقل القليل، وبين سننا ومباحات، وبين أن العبد لا ينبغى له أن ينسى نصيبه من الدنيا ، ولا شك أن الأمور الصناعية والتجارية وما يتعلق بذلك من أمور الجهاد والدفاع عن الدين تكون من الواجب عند الحاجة ، والمسلمون كلهم يفرقون بين الواجب والمستحب والمباح ، وأدنى رجل من المسلمين يعلم بلا أدنى ريب أن تأخر المسلمين ليس سببه كونهم عاكفين فى المساجد منهمكين فى العبادة متابعين الصوم والصلاة قد رفضوا الدنيا وزهدوا فيها وانه لا يوجد فيهم من يشتغل بشىء من أمور الدنيا كما صوّرهم هذا الملحد بهذه الصورة عند من لم يعرف حالتهم فجعل مناط التأخر والذل وعدم الاستقلال كله الأعمال الصالحة والذكر والدعاء والعبادة، فحمل جميع مصائب الاسلام على عبادة الله ، وهو يعلم أن الواقع الذى لا ريب فيه خلاف هذا ، ومن عمق خبثه والحاده وشدة عداوته للاسلام أنه لم يتعرض لهذه الجماهير المشتغلة فى الفسوق بالرقص والغناء والفجور والدعارة والخلاعة والتلصص والنهب وغير ذلك من الامور القبيحة ، فكل هذا أعرض عنه ولم يتكلم فيه بكلمة واحدة كما أنه لم يتكلم فى الأمور الشركية وتحريف الصفات وأكل أموال الناس بالباطل فى هذا السبيل وغيرها وهو يعلم أن هذه الأمور هى أعظم العوامل التى تشغل عن العمل للجهاد والصناعة والتجارة وغير ذلك، بل جعل همته محاربة هؤلاء الذين يدعون الى الله والى عبادته على ما هم فيه من المحن والمصائب فى هذا الوقت العصيب ، ثم لو سلم لهذا الملحد أن أحدا منهم دعا الى عبادة الله ونهى عن الاشتغال بالدنيا فهو بكل حال أحسن حالا من الملاحدة الذين يقولون يجب أن ننفق الجهود فى العمل للدنيا وأن الاشتغال بعبادة الله لا نفع فيه بل هو ملهاة ومصرف خبيث ولا نسبة بين من دعا الى الله وعمل صالحا ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ، فان هذا كافر قائل غير الحق ضار أمته بل ضار الانسانية كلها ولن يوفقه الله ابدا بل سيصيبه صغار

عند الله وعذاب شديد بسبب مكره ، وأما ذلك فانه اذا قال مثل هذا القول لم يضر شيئا فى دينه بل ولا فى دنياه فانه لا يطاع فى مثل هـذه الامور الدينية المحض الا فى دون واقل مما أمر به كما هو الواقع

فصل

قال « يجب أن تكون تعاليمنا وثقافتنا كلها قائمة على أنه لا يوجد عـلم يضير ولا جهل ينفع ، وأن كل شر انما يرجع الى الجهل ، وكل خير انما يصدر عن العلم ، والعلم هو العلم المطلق ، العـلم بكل شىء ، وانما لا يمكن أن ننال بالجهل شيئا ولا أن يفوتنا بالعلم شىء ، وانه لارجاء فى الاخلاق ولا فى دين ولا فى شىء من الاشياء الجميلة الا بالمعرفة »

والجواب أن يقال : اما العلم المطلق الصحيح النافع الذى أثنى الله عليه وعلى أهله فهو علم الدين وما يتعلق به ، ولا يسمى علما مطلقا إلا علم الدين ، وأما العلوم التى ليس لها اتصال بعلوم الدين فلا تسمى علمـا الا بالاضافة الى موضوعاتها ولا يصح ان يطلق على أهلهـــا اسم العلماء كما سيأتى بيانه مفصلا وقوله انه لا يوجد علم يضير ولا جهل ينفع ممنوع بل باطل ، وهو قد نقض هذه الدعوى بنفسه فقال فى نبذته (البروق) ما نصه ص ٣ « ولـكن مـا كل علم محمود ، فرب علم خير منه الجهل ، ويقظة خير منها المنام ، وتذكرة أحسن منها الغفلة ، وبصر أفضل منه العمى ، وذكاء أجمل منه الغباء ، فكم من علم هوى بصاحبه فى الهوان وأعقبه الذل والخسران وخلده فى العذاب والنـيران وأغضب عليه الرحمن والانسان» هذا كلامه بحروفه وكأنها رؤيا رآها فكانت عمليته لهذه الاغلال تأويلا لها . قال « فاشرف العلوم على الاطلاق ما دل على الآخرة وبصر بالباقية التى الغبن فيها شر غبن والضلال فيها أقبح الضلال والزلل فى طريقها أقتل زلل والعمى عن سبيلها أصرع عمى لا يقبل فيها استقالة ولا تنفع وسيلة ولا شفاعة ، إما نار أبدا لآبدين أو جنة عوض العائضين ، فريق

فى الجنة وفريق فى السعير » انتهى . فاين هذه الروح من تلك ، ولكن لا حول ولا قوة الا بالله ، ومن طالع نبذته (كيف ذل المسلمون) ونظر آخرها واستنزاله لتلك اللعنات ثم نظر الى هذه الاغلال وخروجه بعدها عرف من أين جاءه البلاء نسئل الله السلامة بمنه وكرمه

ثم قال : « وان ضعف المسلمين وتأخرهم وفقدهم كل أنواع الاستقلال والسيادة لا يعود الى فساد فى الاخلاق ولا الى خلاف فى الرأى ولا الى شىء عما يحسبه الجاهلون ، وانما يعود الى شىء واحد فقط ، يعود الى الجهل بما به قوة الآخرين أى الجهل بقوة الطبيعة ونواميسها »

والجواب أن يقال : لما فرغ من تهجين العبادة وتسفيه آراء الذين يرون أنهم خلقوا لها والتهكم بهم والاستهزاء بعقائدهم أخذ يمدح ما يقصده من عبادة الطبيعة والاعتماد عليها ، فحصر أسباب تأخرنا كلها فى شىء واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فالرقى والتقدم والعز والتمكين كله منوط بمعرفة هذا الشىء الواحد الذى هو قوى الطبيعة ونواميسها ، وقد صرح بأن فساد الاخلاق والاختلاف فى الرأى لا تأثير له فى ذلك ، ففساد الاخلاق من الكفر والفواحش والاستهتار بالشرائع والمجون والخلاعة وغير ذلك لا دخل له فى التأخر كما أن الخلاف فى الرأى الذى هو أساس التفريق والشحناء والبغضاء لا أثر له فى تأخرنا وعدم استقلالنا ، وأما الشىء الذى يحسبه الجاهلون فهو ما قاله علماء المسلمين أن ذلك هو سبب تقصيرنا فى الأخذ بالدين والعمل بالكتاب والسنة فهذا كله عنده ليس هو السبب فى التأخر انما السبب كله عائد الى هذا الشىء الواحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، وقد تقدم كلامه أن الله خاق خلقه للكمال فيكون خلقهم لمعرفة قوى الطبيعة ونواميسها ، وقد بين الوسيلة التى بها تعرف نواميسها فى المشكلة التى لم تحل وهى الاعتقاد بأن الأسباب آلية طبيعية ليس لله ولا لغيره أن يقف فى سبيلها أو أن يتحكم فى نهايتها وقرر فى بحث التوكل أن اعتقاد كون الله

يتصرف فى الاسباب فيجعلها ان شاء أسبابا وان شاء جعلها غير أسباب سفه وفوضى لا ضابط لها ، فمعرفة قوى الطبيعة ونواميسها موقوف على شيء واحد موقوف على الاعتقاد بأن الله لا يتصرف فى الأسباب فيجعلها ان شاء أسبابا وان شاء غير أسباب ، فلا يتحكم فى نهاياتها ولا تقف مشيئته فى سبيلها ، فلا بد من الكفر بالمشيئة العليا المتصرفة فى الكون بالقطع والوصل والعز والذل والرفع والخفض ، وما دام الانسان مؤمنا بهذه المشيئة وأنه كل يوم هو فى شان وأنه يمحو ما يشاء ويثبت وأنه يعز من يشاء ويذل من يشاء فانه لا يعرف قوانين الطبيعة ونواميسها ، وحينئذ لا يحصل له التقدم بل لا بد أن يتأخر ويضعف ، فالايمان بالمشيئة هو أصل الضعف والتأخر وهو الجهل الذى أطال وأطنب وأسهب فى ذمه ، والعلم بقوى الطبيعة هو من أعظم العلم الذى أطنب فى مدحه وما سوى ذلك مما لا تعلق لهذا الاصل به من أمور العبادة فهو جهل وخرافات وأوهام ، ولهذا شن الغارة على حملة الشريعة المطهرة من أولهم الى آخرهم ، ورماهم بقوس واحدة بالجهل والبلادة والرجوع الى الوراء لانهم جهلوا قوانين الطبيعة ونواميسها الذى هو مادة الرقى كله ، كما أنهم جهلوا المكر والخبث وعلم الشطرنج والموسيقى الذى هو من توابع هذا الأصل عنده ومدح أعداء الله من الملاحدة والزنادقة وسائر الكفرة ممن لهم معرفة بهذه الامور وعمى عن جميع ما حل بأكثرهم من المثلات وأنواع المصائب والعقوبات التى لا تعد ولا تحصى ، ولو أن ربع هذه العقوبات حل بمن يعبد الله لجعل ذلك من أعظم البراهين على أن العبادة والدعاء لا ينفع ، فانه شنع على الدعاء مع تواتر نفعه وخلع على أهل المعرفة بقوى الطبيعة ونواميسها أحسن الالقاب وأفخم الثناء كما أن ما ناله أهل الدين والتقوى من العز والمجد والسيادة فى الدنيا لم يغير فكرته فى القدح فى العبادة والدعاء مع وضوح ذلك كله ثم انه حمل عهدة التأخر كله بأجمعه على رجال الدين ولم يلتفت الى ما معهم من الفضائل وما حصل بسببهم من النور والهدى والى ما حصل على يد غيرهم من هدم الاسلام

والتمثيل به وجرّ الويلات المتتابعة على الانسانية بل أخذ أعمالهم الخبيثة واضافها الى رجال الدين ، وأخذ فضائل رجال الدين وأضافها الى الملاحدة ، وهذا غاية الخبث والزندقة والعداوة للاسلام ، وبالجملة فانه لم يلتفت الى علماء الدين ولم ينظر الى ما فعلوه من الأيادى الجليلة الجميلة فى سبيل حماية الأمة بل أعرض عن هذا كله وكفر به وجعلهم موضع السب واللوم والذم ، وأما أولئك الخبثاء من الملاحدة والمنافقين فانه لم يكتف بمدحهم بالدهاء والمعرفة بل منحهم اسم العلماء والعقلاء لأنهم عرفوا هذا الشيء الذى ادعاه وغض طرفه عن كل ما فعلوه من أعمال فظيعة وفساد فى الاخلاق وغير ذلك فإن هذا كله مغفور لهم فى جانب توحيده الذى يدعو اليه من معرفة قوانين الطبيعة ونواميسها . ولا بد للمنافق أن تكون حالته هكذا وإلا فما هو النفاق اذن ، فلا يعرف النفاق بغير هذه الصورة ، كما لا تعرف الزندقة الا بها

ثم قال : « كيف نصبر بعد اليوم على قوم يذمون لنا العلوم الرياضية والطبيعية والكيمائية والفلكية والفلسفية »

فيقال اولا : ان علماء المسلمين لم يذموا العلوم النافعة من الفلسفة ولا الطب ولا الكيمياء ولا الرياضية ولا الفلكية ، بل كل ما فيه منفعة للاسلام من هذه العلوم أو منفعته راجحة على مضرته فقد أمروا بفعله فلا حاجة الى هذا الطيش والجنون واللجاجة الفارغة . ويقال ثانيا ها أنت لم تصبر عليهم بل وجهت اليهم والى دينهم أقصى ما لديك من ذم وسب واتهام ، فرميتهم بالبلادة والجهالة والحماقة والغباوة والجنون وغير ذلك ، وهذا غاية ما تقدر عليه ، فانك لا تقدر على غير هذا النباح والصياح انتقاما لآلهتك التى توجهت اليها واعتمدت عليها من قوانين الطبيعة ونواميسها ظنا منك أن هؤلاء يسبونها فما اشبه حالك بحال من قال الله فيهم ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ ومن سب الدين واهله فقد سب الله تعالى ، ثم انك مع هذا صبرت غاية الصبر على الذين يذمون العلوم الدينية من التوحيد

والحديث والتفسير والفقه ولم تدافع عنها بكلمة واحدة بل كنت اعظم عدو لهذه العلوم وأهلها وأعظم قادح فيها ومهجن لها من كل كافر . ويقال ثالثا : اذا أنت لم تصبر على ذم هذه العلوم مع كونها ليست مما أمر الله تعالى به بل غايتها أن تكون مباحة فى الاصل ، فكيف نصبر نحن على ملاحدة وزنادقة يذمون لنا العلوم الدينية من التوحيد والحديث والتفسير والأصول والفقه مع انها هى التى امر الله بها ، ويمدحون لنا الشطرنج والموسيقى والخبث والمكر وأمثال ذلك ، بل الواجب علينا أن نجاهد هؤلاء الجاحدين الخبثاء اعداء الله ورسوله ونعاملهم المعاملة اللائقة بهم ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل﴾

فصل

قال : « ان الله جلت قدرته إنما نظم هذا العالم هذا النظام العظيم الرائع ، وحكمه هذا الحكم الذى لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، بالعلم وبنواميسه وقوانينه وقواه وأسراره ، واننا نحن أبدا لن نحكمه أو نحكم شيئا فيه ولن ننظمه أو ننظم شيئا فيه الا بهذا العلم أيضا ، وان أنفسنا ووجودنا منه فلن نحكمها اذن الا بالعلم الطبيعى أى بعلمها من ناحيتها الطبيعية »

والجواب أن يقال : الله اكبر (يا الدرّ الذى فى لجج البحر) ما أحدّ ذهنك فى معرفة القياس وما أدق تحقيقك فى صحة الحكم ، ولعل هذه الجملة التى تكلفتها من أقصى دماغك من أبدع آيات حقائقك الازلية الابدية التى ألقيت فى روعك ، فبعداً لك ما أسخف عقلك ، ونحن نجيبك عن هذا الذى أعجبت به فنقول اولا : اطلاق كون الله انما نظم هذا العالم بعلمه به وبنواميسه وقوانينه وقواه وأسراره فيه من القصور وركاكة التعبير وسوء الأدب ما لا يخفى على قارىء بصير ، فان العلم بالشىء من جميع نواحيه لا يوجب حكمه ، بل لا بد من القدرة عليه وعدم المعارض لمن يحكمه ، وهذا مفقود فى بنى آدم

فانتقض القياس من أصله ، ولا يقال انه نظمه بعلمه بل نظمه بمشيئته الصادرة عن قدرته وعلمه ، فلا بد من اسناد التنظيم الى الارادة أو المشيئة ، ولكن هذا ينفر من المشيئة كما تنفر الحمر من القسورة فلم يذكر المشيئة العليا فى كل أغلاله إلا على وجه الذم أو فى سياق الذم ، ويالله العجب كيف يقيس حكمه تعالى وتنظيمه لهذا العالم بحكم المخلوق ومعرفته لبعض نظام الطبيعة ، ثم كيف يريد منا أن نحكمه وهو يذكر أن الله قد حكمه ، فاما أن يريد أن يكون حكمنا تابعا لحكم الله فيبطل كلامه فى مضادة القدر ويكون الانسان لا يشاء الا ما يشاؤه الله ، وإما أن يريد أن يكون حكمنا مضادا لحكم الله وحينئذ يفتضح لان هذا تشريك فى التدبير واستقلال ببعض الملك ، فبطل كلامه على كلا التقديرين . وهذه المقدمة التى ذكرها عن الله فى تنظيم العالم انما أراد نتيجتها وهى قوله واننا لن نحكم هذا العالم أو نحكم شيئاً فيه ولن ننظمه أو ننظم شيئا فيه الا بهذا العلم أيضا ، وقد فسره بالعلم الطبيعى ، أما الدينى فله نتيجة أخرى فلا دخل له فى ذلك ، فالنتيجة الحقيقية فى رأيه أنه يجب اذن علينا أن نتعلم نواميس هذه الطبيعة وقوانينها لنكون مثل الله الذى حكم هذا العالم حين علم قوانينه ونواميسه ، وهذه النتيجة ساقطة جدا لانها مبنية على ان فى امكاننا أن نعلم كعلم الله وان نقدر كقدرته ونريد كارادته ، فكل هذه المقدمات التى يريدها منا باطلة لانها تقضى بتكليف ما لا يطاق ، ولأنها تقتضى مساواة العبد بالمعبود والخالق بالمخلوق وهو محال ، ولا تتمشى إلا على قواعده من أن الانسان يقدر على كل شىء ويعلم كل شىء ، وهو مع كونه كفرا فهو تشبيه يقصد به التعطيل المحض ، ومعلوم أنه سبحانه علم العالم وعلم نظامه وما سيكون فيه قبل أن يخلقه بخلاف المخلوق الذى ما جاء الا بعد أن خلق ونظم بأبدع النظام التام كله . واذا كنت معترفا بأنه تعالى حكم هذا العالم المحكوم ونظمه بالعلم به فلا شك أننا جزء من هذا العالم المحكوم المبتكر فيمتنع فى بداهة العقول أن يكون الجزء الصغير المحكوم حاكما على الكل ، اذ معناه أن

ينقلب الجزء الصغير المحكوم جزءا كبيرا حاكما على كل الجملة ، وهذا قلب للحقائق وسفسطة ظاهرة ، وإذن فالحاكم الأول والجزء الأول هل يكون صغيرا أو عدما أو تساويا مع الأصغر المحكوم ، انما الصحيح على هذا أن يكون الجزء المحكوم حاكما على مافى دائرة جزئه فقط حكما مقيدا تابعا لحكم الجزء الأكبر لانه بحكم الوضع والمقدمات الصحيحة محكوم ، والمحكوم الذى هو جزء من مجموع محكومات لا بد أن يكون مقيدا ، ولا بد إذن من أن تكون دائرته صغيرة جدا ، إذ هو جنس واحد داخلا فى جنس واحد ، وكل جنس من هذا وهذا من أجناس لا يحصى عددها الا الله تعالى ففيها من هو أقوى منه وأعلم فى الجملة منه فتكون دائرته فى غاية الصغر والضآلة بالنسبة اليه كما ذكرنا ، ومع هذا الصغر النهائى لا بد أن تكون داخلة فى حكم الدائرة الكبرى تحت الحكم المطلق ، واذا ثبت هذا ـ وهو ثابت بلا ريب ـ انتكست نتيجته عليه ، لأنه يجب علينا اذن أن نتقيد بنظام الحاكم الاكبر الذى نحن تحت قبضته فاننا جزء محكوم لا يستحصل على شىء الا بأن يجرى على نظام الحاكم الذى فوقه فنعبد هذا الحكيم العالم الحاكم ونتوجه اليه وندعوه ونطلب منه أن يسخر لنا ما هو فى ملكه مما هو تحت قدرتنا المحكومة لاننا محكومون ، ومن الجسارة والخسارة السرمدية أن نتمرد على هذا الحاكم الأكبر الذى حكمنا وحكم الكل بنظامه وقدرته وعلمه ، فنخرج عن نظامه الذى شرعه لنا فنصادم نظامه ونعارضه وندعى سفها أن نظامه ملهاة ومصرف خبيث وأنه شر مـا يؤدى ، فنكون مصادمين لهذا النظام والقانون والناموس لأن حركة كل دائرة صغرى لا بد أن تكون مربوطة بحركة دائرة كبرى لا بد فى سلامتها من الدمار وحصول نتيجتها أن تكون حركتها تابعة لحركة الدائرة الكبرى ونظامها غير معاكسة لها ، فانه لو عكست حركتها النظامية أو حاول محكوم أن يعكس حركتها الأصلية التابعة للحركة الكبرى بقوته الضئيلة لفسدت وخربت خرابا نهائيا مالم يكن بها شىء باق على مجراه الاصلى فتكون حركتها

ضعيفة بمقدار اتباعها وانسجامها مع الحركة الكبرى ، وهكذا من استكبر عن عبادة الله تعالى وعارض شرعه المطهر الذى ربط به سير الكون وخرج عن نظامه مع اقراره بانه محكوم أو لم يقر ـ فانه فى الواقع محكوم حكما قهريا ، وانما جعل له بعض الاختيار المقيد فى دائرته كما تقدم ـ فانه حينئذ يكون مصادما لحاكمه معارضا له معاكسا لقانونه ، فلا بد من وقوع دماره وفساده ، فلا بد لمن يريد أن يحكم دائرته حكما منظما أن يكون نظامه موافقا وتابعا للنظام الذى شرعه ونص عليه الحاكم الأكبر الذى حكم الدائرة الكبرى التى هو داخل فيها لكى ينسجم نظامه الأصغر بالنظام الاكبر فيحصل التناسب الكلى وهذا عين النجاح ، فالقوانين العقلية والنواميس العقلية دلت دلالة صريحة على أن من خرج عن نظام الله وتمرد عليه وهو عبد محكوم مقهور فلا بد أن تكون نهايته الدمار والخراب والفساد والفوضى ، وبمقدار ما يكون معه من الاتباع لهذه القوانين والنواميس يكون مقداره من السلامة والحياة الصحيحة والاستقامة فمستقل من ذلك ومستكثر ، وما جاء الناسَ النقصُ ولا جاء الدمار ولا جاء الموت الشنيع ولا الفوضى الا بخروجهم عن متابعة هذا النظام العادل الجبار القهرى واتيانهم الأمور معكوسة معاكسة لهذا القانون ودخولهم فيها من غير أبوابها ، بل من الأبواب المقلوبة ، واذن فما ذكره وأعجب به فهو حجة عليه بالحقائق المعقولة الواضحة

فصل

ثم شرع يمدح العلم ، واستشهد بقوله تعالى ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ﴾ ولا حجة له فى ذلك . ومدح العلم أمر معروف عند الخاص والعام ، ليس العلم هو الذى يريده من الشطرنج والمكر والخبث والموسيقى ودقائق الفلسفة ، ولا هو تعلم الطبيعة ونواميسها ، وليس فى الآيات ما يدل على

هذا ، فمسئلة مدح العلم وذم الجهل مسئلة لا ينازع فيها أحد ، لكن الشان أن هذا الملحد جعل علوم الدين التى هى أساس الخيرات كلها هى الجهل ، فانه جعل ذكر الله على المنابر والصلاة فى المساجد شر ما يؤدى وجعل دعاءه ملهاة ومصرفا خبيثا وجعل العلم محصورا فى الأمور التى ذكرنا

ثم قال مستدلا على مدح العلم وهذا نص كلامه « بل حكى (١) فى موضع من مواضع الاشادة بالعلم قوله تعالى ﴿انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ فحكم بأن العلماء سيخشون الله لا محالة ، وان من ليسوا علماء فلن يخشوه ، لان تركيب هذه الآية اللفظى يرجع الى (لا يخشى الله الا العلماء) والقرآن بالاجمال قائم على جملتين : الثناء على العقل والعلم ، وذم الجهل وضعف العقل » انتهى كلامه بحروفه . فقد رأيت أنه اعترف بأنه لا يخشى الله الا العلماء ، فقرر أن العلماء هم المتصفون بخشية الله تعالى ، ومن لم يخش الله فليس بعالم ، فيكون مقتضى هذا وصريحه أن الملاحدة ليسوا بعلماء وأنهم غير داخلين فى مسمى العلماء ، لأن الملاحدة بلا ريب لا يخشون الله مطلقا . فبهذه الآية وبهذا الاعتراف والتقرير الصريح الذى ادعاه انفلتت منه ثمرة كتابه انفلات الطائر من يد صائده ، فان ثمرته كله التى اجتهد وحاول تحصيلها أن الملاحدة هم العلماء ليكون من سواهم جهلاء ، لانه اذا ثبت هذا صح له أن يصحح دعواه أن المتحللين من الأديان هم أهل العلم الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة ، وأنهم هم المخلوقات المتألقة فيجب تعظيمهم والاقتداء بهم وبغض ما يخالف ذلك من آراء السلف وأتباعهم المضادين لهم من كل وجه ، فكيف هنا يدعى أن العلماء هم الذين يخشون الله ومن لم يخش الله فليس بعالم ، ويصرح فيما مضى بان المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة فكيف يتفق أن يكونوا موصوفين بخشية الله وموصوفين بالعلم المذكور فى الآية ويكونون مع

---

(١) يعنى الله تعالى

ذلك موصوفين بالتحلل من الدين وبالانحراف عنه ، فهل يتفق التحلل من الدين وخشية الله فى عقل أدنى عاقل ، وكيف يتفق أيضا دعوى أن العلماء الموصوفين بالعلم هم الذين يخشون الله مع دعواه أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وانبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقة ، ومعلوم أن هؤلاء هم أهل خشية الله ، لأن هؤلاء هم ضد الملاحدة ، فالناس فى الجملة إما ملحد دهرى أو متدين فكيف هؤلاء العلماء أهل الخشية لم يهبوا الحياة شيئا جديدا وأنت تقرر أن الذين وهبوا الحياة الشيء الجديد هم العلماء ثم تقرر أن العلماء هم أهل خشية الله ثم تنكبّ على وجهك فتقرر أن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان ، يا ويلك من علمك هذه القواعد المنطقية والحقائق الازلية الابدية ، فسبحان من أخزاك وجعلك بهذه الحالة التى يستعيذ كل عاقل منها . والعجب أنه لشدة كراهته ومقته لعلماء الدين ونفوره منهم وحبه ومتابعته للملاحدة أتى بهذه الآية مستدلا بها تمهيدا للنتيجة التى سيقررها قريبا وهى أن اسم العلماء انما يختص به الملاحدة ومن حذا حذوهم وانهم أولى بوصف العلم ، ولكنه لخطله وخطأه وعظم ما أصابه من الحرص غلب عليه الذهول حتى انقلب دماغه فانعكس قصده ومراده فأثبت لعلماء الدين أنهم هم المستحقون لوصف العلم الممدوح فى القرآن والسنة ونفى عن سادته وأوليائه الملحدين الذين لا يخشون الله هذا الاسم الجليل الجميل - كما ترى تقريره صريحا - وقد تقدم المثل « اياك وصحبة الاحمق فانه يريد أن ينفعك فيضرك » فتبين أن هذا الاسم الشريف الجليل الممدوح فى القرآن العزيز لا حظ للملاحدة فيه سواء كان هؤلاء الملاحدة من أهل المعرفة بالطبيعة ونواميسها أو من أهل التجارة والصناعة أو الاقتصاد أو الأدب أو غير ذلك ، لأن القيد الضابط للعلماء الممدوحين هو خشية الله فاذ انتفى هذا القيد انتفى موجبه ، وليس كل من عرف شيئا من علوم الطبيعة والمادة يكون ملحدا فان هذا موضع تفصيل ، فمن عرف شيئا من أمور الطبيعة على وجهها

الثابت فى نفس الأمر وعمل بواجبه الدينى فهو مثاب وهو من العلماء بقدر ما عرفه من أمر دينه وخشى الله به ، لانه حينئذ من أهل الخشية ، وليس علم الطبيعة إلحاداً ولكن الالحاد فيها هو اسناد الحوادث اليها دون مشيئة الله وقدرته ، فمن أسند حدوث الحوادث الى الطبيعة وتفاعلها واعتمد عليها أو قدم ماراه بعقله فيها على النصوص الدينية فهو ملحد ، ونحن لا نشك فى أنه ليس فى علم الطبيعة الثابت الصحيح ما يخالف النصوص أبدا وانما يحصل الغلط من تصور الفكر وجعل الشىء الموهوم حقيقة ثابتة ثم يعارض به ما دل عليه ظاهر النص الشرعى لأنه حينئذ يكون فى شك من صحة دلالة النصوص أو فى ريب من الدلالة الصريحة باعثه - أى الريب والشك - عدم الجزم والقطع ببطلان ما يخالف مدلول النص أو يكون باعثه ضعف ارادته فى نبذ ما صادم النص مهما كان من أى نظر أو تفكير ، فان الانسان متى علم واعتقد اعتقادا جازما صادقا خالصا بأن النصوص الدينية كافية فى بيان الحق والدلالة عليه هان عليه اذن نبذ ما يخالفها ، لأن البراهين العقلية الثابته لا تتناقض بحال ، فان الانسان اذا اعتقد صحة الشىء فلا بد أن يعتقد بطلان ما يضادّه فلا يصدق ببرهانين متناقضين أبدا ، ولكن اذا ضعف الاعتقاد نشأ عنه الشك فى الدلالة وأنها غير كافية فى ايضاح هذا الشىء فيقع فى التردد والحيرة والقلق فيتزايد ذلك حتى يفسد العقل ويفسد الدين ، ويقع فى التناقض بحسب ما فى القلب من القلق والشك والريب ، وكثيرا ما يقوى هذا فيكون نفاقا ، لأنه لا بد إن لم يصدق بأحد الأمرين [1] ستبقى معه بقية من الأمر الآخر فيحصل النفاق ، فمن الريب والشك تأتى النكبة ، فالشك والريب من أعظم أمراض القلوب التى ذكر الله سبحانه وتعالى وبين فى كتابه بأنه سبب فى حرمان النفع بما جاء من النور والكتاب المبين ، وانه سبب فى انقلاب القلب وفساد العقل وسبب فى

(١) أى تصديقا جازما قويا

كل ما يحصل على الانسان من بلاء ووباء . فقد عرفت من هذا أن النفاق هو التذبذب بين الشيئين المتضادين أو الاشياء المتضادة وهو اذا أطلق فى الشرع فى النفاق الاعتقادى فهو التذبذب بين الدين والكفر [1] ومنشاه القلق والاضطراب ومنشأهما الشك ، وسببه ضعف اليقين ، وباعث هذا عدم التصديق الجازم القاطع الثابت القوى الذى لا يتزعزع بما جاء فى النصوص

اما دعواه أن الله تعالى أثنى على العقل فهذا لا نزاع فيه ، كما لا حجة له فيه ، ونحن لم نقل قط ان الله ذم العقل بل العقل ممدوح كالعلم ، ولكن الشأن فى بيان العقل الممدوح من العقل المذموم ، ولا شك أن العقول تختلف اختلافا كثيرا لا ينضبط فهل يظن أن الله اثنى عليها كلها أم أثنى على الصحيح منها ، وحينئذ فالجدال معه فى الصحيح ، ونحن ولله الحمد وزنا العقل الصحيح بموافقته للنص ، فان النصوص فى غاية الصدق والصحة ، ومعلوم أن العقل المطابق للصحيح الصادق هو الصحيح الصادق لان مطابقته دليل على صحته وسلامة فطرته ، واذا خالفه دل على فساده ، وبغير هذا لا يمكن أن ينضبط العقل الصحيح ، فكل أحد فى إمكانه أن يدعى أن عقله أصح من عقل غيره ، فلا بد من الميزان الصادق ، لكن الأشياء التى لم يكن فيها نص فالدلالة على صحة العقل فيها مطابقته للواقع إما بالتصريح به واما باقامة البراهين الضرورية الحسية التى يكون إنكارها حجة او مكابرة ، ونحن انما ننازع فى المسائل الدينية وما يتعلق بها فاذا اخطأ العقل فى بعض الأمور المسائل الدنيوية فهو اهون من غيره لأنه لا بد من وجود من يبين هذا الخطأ ولا بد من وجود من ينشره ويشيعه ويحذر منه ، لان الناس مدفوعون دفعا عنيفا الى المحاماة عن سياساتهم وعن أخطائهم الدنيوية المحضة ، بخلاف الدين فان الدفاع عما يصادم روحه وأصوله ضعيف جدا ولا سيما فى هذه الازمنة الاخيرة التى فتحت فيها أبواب

---

(١) وهذا هو عين ما فعله هذا فى أغلاله

حرية الفكر حتى فى الالحاد ، وقد فصّل الله هذا الأمر الأخير أعظم التفصيل وأوضحه وأبينه وكرره فى القرآن بأنواع الأساليب الرائعة ، لانه سبحانه علم ما سيكون من تساهل الناس فى هذا الأمر وحرصهم على الأمر الأول

اذا تقرر هذا فنقول : ان الأدلة العقلية الصحيحة تفيد اليقين ، وليس فى الشريعة المحمدية حرف واحد يخالف صريح العقل أبدا كما تقدم إيضاحه فى مواضع كثيرة . وهذا الملحد وأشباهه أبعد الناس عن العقل الصحيح الذى أثنى الله عليه ، بل هم كما قال الله تعالى فى أسلافهم ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ فلا سمع لديهم ولا عقل لديهم ، فان السمع الذى هو العلوم الدينية هم أبعد الناس عنه فان هذا رفضه وانسلخ منه ، ويكفى شاهدا على فساد عقله أغلاله هذه ، ويكفى من أغلاله دعواه فى هذا المبحث نفسه أن تأخرنا ليس له علة إلا شىء واحـــد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها فقط ، وهو يرى أمما ودولا عظيمة الشأن عرفت من هذه الأمور ما لم يعرفه غيرها وقد صارت تحت أقدام أعدائهم ممن هم دونهم فى معرفة هذا الشىء الواحد الذى يدعيه ، ويكفى شاهدا من هذا البحث نفسه ما ادّعاه فى هذه الصحيفة نفسها أن العلم هو المعرفة من حيث هى ، أى من دون نظر الى متعلقها ، ثم بنى على هذا أن كل ذى معرفة يسمى عالما ، وان العلماء الممدوحين فى النصوص لا يختصون بعلماء الدين بل كل ذى معرفة من حيث هى فهو عالم ، فعلى هذا تكون الكلاب والحمير والقردة والخنازير علماء ، أو من العلماء الممدوحين ، لان كلا من هذه الحيوانات وأشباهها معه من المعرفة والحذق والدهاء مما يتعلق بحياته وشهواته ومعيشته مالا يقدر عليه كثير من بنى آدم ، فالقرد عالم والضب عالم والديك عالم على مقتضى قواعده الازلية ، هذا هو عقل هذا المختال الفخور ، فما ذكر الله سبحانه فى ذم الجهل وضعف العقل صحيح ولكن هو من أعظم الواقعين فى هذا الذم لأنه من الجهلاء ولا سيما فى ما يتعلق بأمر الدين ، وهذا هو الذى ذمه الله أعظم الذم ، كما أنه أيضا واقع فيما

هو أعظم من ذلك من النفاق والخداع وتولى الظالمين ، وكل ذم فى النصوص فهو موجه الى هذه الاخلاق وأهلها ، وكلها مجتمعة فيه فيكون نصيبه من الذم أوفر نصيب

فصل

قال : « ومن العبث محاولة اثبات هذه القضية (يعنى قضية مدح العلم وذم الجهل) بالشواهد ، فانها قضية مسلمة لا خلاف فيها ولا خفاء »

فيقال : قولك لا خلاف فيها ولا خفاء يناقض دعواك أول البحث أن المسلمين يرون العلم حجابا والجهالة أم الفضائل وغير ذلك مما نسبته اليهم من كونهم يذمون العلم ويمدحون الجهل والجنون

ثم قال « ولكن الخلاف قد يقع فى المراد بالعلم حيثما يطلقه القرآن ، فقد يحسب كثيرون ممن انحرفوا عن فهم كل شيء أن المراد به هو العلم الدينى فقط أى العلم بالنصوص وشروح الشراح وتعليقات المعلقين القائلة هذا حلال وذاك حرام وهكذا ولكن لا ريب أن هذا المصير فى فهم العلم القرآنى خطأ »

فيقال : اذا كان خطأ فأنت اذن ممن انحرفوا عن فهم كل شيء وأخطأوا ، فانك قررت صريحا أن العلم الممدوح هو علم من يخشى الله فقط كما هو صريح كلامك الماضى ، ومعلوم أن العلم فى النصوص وشروح الشراح والحلال والحرام هو علم الذين يخشون الله لأنهم هم المتدينون فهم علماء الدين ، فيكون العلم الممدوح هو علمهم وهو العلم الدينى فقط على تعدد أنواعه ، وعلوم جميع الملاحدة ليست بعلم ممدوح لانك قررت أن الخشية شرط فى العلم الممدوح فتكون علوم الملاحدة كلها مذمومة لا سيما فيما اختصوا به فيكونون مذمومين هم وعلومهم فلا يمدحون ولا يثنى عليهم بها ، لأن العلم الذى يستحق المدح هو علم من يخشى الله كما هو صريح كلامك ، فتكون منحرفا عن فهم كل شيء ومخطئا خطأ فاضحا ، وهكذا كان الواقع فيك طبق ما قررته

ثم قال « بل المراد بالعلم حيث أطلق ما هو أعم وأشمل ، أى يراد به المعرفة من حيث هى بلا نظر الى موضوعها ، فكل معرفة علم ، و القرآن قد أطلق العلم ولم يقيده بالعلم الدينى ، ومن قيده فقد قيد اطلاق الله واطلاق كتابه ، بل ان سياق ألفاظ العلم فى الكتاب ووضعها فى مواضعها صريح فى أن المراد ما هو أعم وأشمل (١) »

فيقال اولا : ان الله سبحانه قيد العلم الذى أثنى على أهله بانه علم من يخشون الله تعالى ، وهذا قيد من الله لا من الناس ، فالله هو الذى قيده

وثانيا : انك أنت قيدته بقيدين متناقضين فقررت فيما سبق أن العلماء هم الذى يخشون الله ، فقيدت العلماء الممدوحين بأنهم هم الذين يخشون الله وهذا قيد صحيح قيدت به نفسك ، ثم قيدته فيما يأتى بعلم الملاحدة وأخرجت علماء الدين منه فكان غلا فى عنقك سقطت به وسقط كلامك حيث تناقضت فيه هذا التناقض المتباين ، فكان تقييدك الاول كمن ارتفع ليكون أشنع لسقوطه

ثالثا : قولك ان المراد بالعلم حيث أطلق أنه المعرفة من حيث هى معرفة من غير نظر الى موضوعها ، وان كل معرفة علم ، يقال لك أتريد أن كل ذى معرفة وعلم بشىء يسمى عالما وأن الجماعة من هذه الأفراد المتصفة بهذه المعرفة أو العلم تسمى علماء أو أهل علم ، أم تريد أنها ذات معرفة أو علم فى شئونها فقط ولا يطلق عليها اسم العلماء ولا أهل العلم ، فان عنيت الأول لزمك أن تدخل أكثر الحيوانات أو كلها فى هذا الاسم فتسمى الجماعات منها علماء أو أهل علم والفرد منها عالم فتسمى جماعة القردة والكلاب والسنانير أو غيرها علماء أو أهل علم ، لأن هذه الحيوانات لها معرفة بينة ودهاء ومكر وخبث فى كثير من شئونها وفى كثير من الأمور التى يعجز الانسان ولو كان من علماء

---

(١) لكن لو فرض هذا فانه لا يتناول الملاحدة ، لان الخشية التى هى شرط فى العلم الممدوح منتفية عنهم

الطبيعة ونواميسها عن معرفتها والوصول اليها ، فاذا كانت المعرفة من حيث هى بلا نظر الى موضوعها يكون صاحبها من العلماء وأهل العلم فيطلق عليه اسم عالم والجمع من أفرادها يطلق عليهم اسم العلماء أو أهل العلم لزم أن تكون الجماعات من هذه الحيوانات علماء أو من أهل العلم ولزم أن يكون كل من القرد والكلب والسنور والجرذ وغيرها عالما فما من حيوان يوجد الاوله معرفة خاصة وحذق فى أشياء كثيرة دقيقة ممـا يتعلق بأمور حياته كأكله وشربه ومسكنه ومنكحه وخوفه ورجائه وهربه وطلبه ودفاعه عن نفسه وغير ذلك ، وكل علوم الملاحدة المعيشية راجعة الى هذه الأمور فقط ، وفيها أنواع كثيرة معه من المكر والخبث والدهاء [1] والمراوغة والخداع شيء كثير ، وهذا أمر معلوم ، وقد كتب العلماء فى هذا الموضوع كتبا خاصة ، واذا انهزم هذا المبتلى وحاول الانفلات من هذا الغل المشدود فى عنقه وادعى أن ليس كل ذى معرفة يسمى عالما وأنه لا يقال للجمع ممن معهم معرفة مطلقة انهم علماء ولا للفرد منهم انه عالم سقط استدلاله وكلامه الذى ادعاه فى الجملة المتقدمة من أصله فانه ما ساقها الا تمهيدا لما يريد أن يقوله بأن الملاحدة معهم معرفة فى شئونهم وان المعرفة هى العلم فيلزم أن يكونوا من العلماء ويتخلص من هذا القيد الثقيل الذى سيرده الى أسفل سافلين . فاذا عاند هذا الملحد وكابر وقال ان الحيوانات لا تدخل فى هذا سقط فى حفرة أخرى فى التناقض وهى أننا نقول له على فرض التسليم يلزمك على هذا أيضا أن تدعى أن بنى آدم كلهم علماء صغيرهم وكبيرهم كافرهم ومسلمهم لأنه ما من آدمى الاوله معرفة وعلم بشيء كثير ، بل كثير من العامة لهم معارف خاصة دقيقة غامضة وموضوعات العلوم الدنيوية لا يحصى عددها إلا الله وما من موضوع من الأعمال سواء أكان دينيا أو دنيويا مباحا كان أو محرما إلا وله أهل عالمون به فيلزم أن

---

(١) وهذه الامور عندك من أعظم أصول العلم كما تقدم

يكونوا كلهم علماء أو أهل علم فيجب أن يكون بنو آدم كلهم علماء ممدوحين في القرآن لأن المعرفة عندك هى العلم ، بلا نظر الى موضوعها ، وأن العلماء ليسوا مختصين بعلماء الدين ، واذن من هم الجهلاء المذمومون ومن هم الذين قال الله فيهم ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا ﴾ هل هم علماء الدين أو مخالفوهم ، يجب أن تجيب على هذا السؤال ، فانك لبست على ضعفاء البصائر بدعواك أن العلم هو المعرفة من حيث هى مطلقا ، وهذا تصريح واضح منك بان العلماء هم العارفون مطلقا من غير نظر الى موضوع علمهم ومعرفتهم ، فدخل بنو آدم كلهم فى تعريفك كما هو ظاهر . وقد قال تعالى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ وأمثال ذلك كثير ، ومعلوم أن المراد بنفى العلم هنا عن هؤلاء انهم جهلوا أمور دينهم ، هذا مع أن هناك فرقا بين إطلاق العلم والمعرفة وأنه ليس كل موضع يطلق فيه العلم يراد به المعرفة ، ففى هذا مناقشات لا حاجة الى ذكرها ، لكن كل هذا على فرض التسليم على أن المعرفة هى العلم كما يقول . فظهر بهذا أن ما ادّعاه فى العلم والعلماء باطل بطلانا ظاهرا وأن هذا الملحد يتذرع بكل وسيلة مهما كانت من الضعف والغموض الى اثبات كون الملاحدة الذين عرفوا شيئا من هذه الصناعات ونحوها هم العلماء وأنهم هم أهل العلم الممدوحون فى القرآن وغيره ، فانه لما رأى هذا الاسم الجليل الجميل وهذه الفضيلة العالية حسد أهل الدين عليها فأراد أن يختلسها ويمنحها سادته بسخاء نادر حتى غار عليهم أن يشاركهم فيها أهل الدين ، وهذه حقيقة الانحياز والتولى ، وهذه النهبة أو الاختلاس أو السرقة المنكرة المبتكرة لم نعلم ملحداً سبقه اليها لظهور هجنتها وقباحتها وقبحها وخبثها ، ولما كان قلبه مناسبا لها فى القبح والخبث وهجنة الرأى حرص عليها لأن قلبه مضطر الى حصول ما يلائمه من الخبث من اعتقاد وسماع وغل وحسد وغير ذلك

اذا عرف هذا فاعلم أن الله سبحانه وتعالى بين فى كتابه العزيز بيانا كافيا شافيا بأوضح بيـــان وأصح برهان أن العلماء وأهل العلم الممدوحـين فى النصوص هم علماء الدين خـاصة وأن من سواهم فليسوا علماء ولا أهـل علم ممدوحين ، فالعلم الممدوح هو العلم الدينى واسم العلماء أو أهل العلم اذا أطلق فى النصوص وكتب الدين فالمراد به علماء الدين فقط ، بخلاف ما اذا قيد مضافا الى أهله فهذا شىء آخر فهو بحسب ما يضاف اليه ، فان كان مضافا الى ممدوح فهو ممدوح والا فهو مذموم ، قال الله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملئكة واولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحـكيم ﴾ ومعلوم عند كل عاقل أنه سبحانه انما أراد علماء الدين ، فانه من المحال فى العقل والدين أن يدخل الملاحـدة معه ومعه الملئكة فى هـذه الشهادة العظمى التى هى أصل الاصول فان الملاحدة أعداؤه وان بلغوا ما بلغوا فى المعرفة ، فكيف يدخل معه أعداءه فى هذا المقام العظيم ، وهو قد لعنهم وأعـد لهم جهنم وساءت مصيرا ، فان هذا من أمحل المحال ، ثم هم لا يشهدون هـــذه الشهادة لانهم ملاحدة ، وقد شمل هـذا اللفظ أى اطلاق العلم الرسل والانبياء وأتباعهم ، فلا يجوز فى العقل أن يقرن معهم أعداءه واعداءهم وإلا لزم أن يكون إبليس داخلا معهم لأن معه علما ومعرفة فى أمور كثيرة ، ولا شك أن أتباعـه من الملاحدة ونحوهم مثله فى ذلك ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، وقال تعالى ﴿ إنمـا يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فانه أخـبر سبحانه أن العلماء هم الذين يخشونه ، وأن من لم يخشه فليس بعالم ، ومعلوم أن من كفر به فانه لم يخشه وان أبعـد الناس عن الخشية هم الملاحدة . وقال تعالى ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ ومعلوم أنه إنما أراد الذين علموا القرآن أو الرسول ، وأنهم انما علموه بما عندهم من العلم الدينى الذى بين أيديهم فى التوراة والانجيـل ، وقال تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ ومعلوم أنه سبحانه قد أخبر أن من لم يؤمن ولم يعمل صالحـا فهو مردود الى أسفل

سافلين فكيف يكون المردود الى أسفل سافلين مرفوعا درجات فإن هذا قلب للحقائق ، وقال تعالى ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط الحميد ﴾ فاخبر سبحانه أن الذين أوتوا العلم يرون أن ما أنزله الله من القرآن هو الحق ، فمن لم ير النصوص حقا فليس من أهل العلم بنص الآية ، ومعلوم أن الملاحدة لا يرون ذلك بل هذا الملحد نفسه ادّعى أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، فهم لم يهبوا حقا ، وأخبر أن الاخلاق الدينية لها نتائج غير نتائج المجد ، وفسرها فى الموضع الآخر بأنها الملهاة والشر كما تقدم وجميع الآيات وجميع الأحاديث التى منها مدح العلم والعلماء فالمراد بذلك علماء الدين ، وجميع أئمة الاسلام اذا أطلقوا العلماء فانما يريدون بهم علماء الدين بخلاف ما لو قالوا علماء كذا وكذا مضيفين العلم الى فن أو صنعة أو غير ذلك ، ونحن إنما نتكلم على العلم المطلق والعلماء وأهل العلم بالاطلاق لأن النصوص ليس فيها مدح الا لهؤلاء وهو أمر أشهر من الشمس

وانما أخذ هذا المارق هذه الدسيسة الخسيسة عن بعض ملاحدة العصر الذين يأخذون الأسماء الجليلة التى شاع مدح أهلها فيضعونها فى غير موضوعاتها الشرعية ويدّعون ان كل ممدوح بهذه الصفة فهو هذا المسمى ترغيبا لقبول دعاياتهم الكاذبة ومذاهبهم وشيعهم الباطلة ، ومن الأسف الشديد أننا نرى من هنا ومن هناك ممن ينتسبون الى نصر السنة من اشتبه عليه هذا الضلال ، فقد شغف أناس كثيرون بقبول مثل هذه الدعايات المضلة أشباه هذا ممن سحروا بما سحر به من اختيار العمى على الهدى فراج ذلك على من قل نصيبه من العقل والدين فلم يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله من الأسماء والمسميات الشرعية فأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل

فصل

ثم أخذ فى تقرير ما ادعاه من أن العلماء لا يخصون بعلماء الدين فقال : « وهذا جلى عند من تتبع موارد الآيات ، ولينظر القارىء الى قوله تعالى ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ وليس من الممكن أن يدعى أن العلم هنا هو الدينى بل علم الاجتماع والنفس ، فهو الذى يدل على أن الحروب وان كانت فى ظاهرها وفى أوائلها القريبة شرا وبلاء إلا أنها قد تكون فى عواقبها ونتائجها الأخيرة خيرا إذ قد تقدم الانسان وتخدم المعارف والمخترعات التى تبقى فوائدها وقد تكون إصلاحا وتطهيراً لكثير من اخلاق المتحاربين وردعا لمطامعهم ومفيدة لأشياء كثيرة يدرسها علماء النفس والاجتماع والتاريخ وليس يخفى اليوم على أحد من العلماء أن هذه الحرب لم تصب البشرية بحرب أشد منها هولا [1] تنطوى على فوائد علمية وخلقية ونفسية وقانونية لا تحصى ، وكذلك كانت الحرب الماضية وكذلك ستكون الحرب المقبلة [2] ومن هنا كان قوله تعالى ﴿ كتب عليكم ﴾ الآية .. من الناحية الاجتماعية العلمية فى غاية من السمو وصدق الدلالة ، وان مما يدخل فى دائرة الاعجاز أن يكتشف مثل هذه النظرية فى الجزيرة العربية منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، فلا مفرّ من الاذعان لمنزله » . انتهى كلامه على هذه الآية ، وفيه من الهذيان والخبط والتخليط ما لا يخفى إلا على أعمى البصيرة وإنما سقنا كلامه كله على هذه الآية وان كان لا فائدة كبيرة فى نقله لتعلم أن جرأته على تحريف النصوص عن مواضعها أعظم من جرأة اليهود وأشنع من جرأة القرامطة

(١) هذا من الأدلة عليك على أن الشر يزيد ، فان الحروب الغير الدينية شر بلا ريب ، وهو يناقض دعاويه السابقة بأن الحروب فى عصور الجاهلية أكثر وأعظم

(٢) فاذن يجب متابعة الحروب لزيادة هذه العلوم كما تدعى

وملاحدة الباطنية الذين يحرفون النصوص على حسب أغراضهم وأهوائهم .
وجميع ما ذكره على الآية لا يفيده شيئا البتة ، أما أولا فلأن القتال المأمور به في الآية المراد به القتال الشرعى بالاجماع ، فانه هو المكتوب ليس كل قتال مكتوبا ، فليس المراد به الكونى ، هذا لا يقوله أدنى عاقل ، وهو انما أراد به هذا فيلزم على ارادته وجوب الحرب دائما وأن كل قتال فهو محمود العاقبة وأن ترك القتال فى الناس يوجب تأخر المعارف . ثانيا أن العلم المذكور هنا علم مطلق ، ونحن لم ننكر وجود لفظ العلم مطلقا فى القرآن على غير الدين ، انما النزاع فى كونه ورد فى القرآن أو السنة مدح العلم الذى هو غير الدين ، وقد قدمنا أنه ليس كل من علم شيئا يسمى عالما فلا وجه لاستشهاده بالآية ، وتطويله وتهويله عليها مع بعدها عما قصده وما أراده ، وهذا ظاهر لا يحتاج الى إطناب

فصل

قال : « ثم لينظر القارىء الى قوله تعالى من سورة النساء وهو يقسم المواريث ﴿ آباؤكم أو أبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما ﴾ ولينظر القارىء ما المراد بالدراية المنفية عنهم هنا ، وما المراد بالعلم المثبت لله ، لا شك أن المراد بهما دراية وعلم غير الدراية والعلم الدينيين »

فيقال : الجواب عن هذا هو الجواب عما قبله ، فاننا لا ننازع فى وجود لفظ الدراية او لفظ العلم او المعرفة فى القرآن ، وقد بينا أنه ليس كل من علم شيئا يسمى عالما ممدوحا فى الشرع ، وليس كل من درى شيئا من الأشياء يسمى عالما مستحقا للثناء ، فان هدهد سليمان درى عن أشياء لم يطلع عليها كثير من الناس فقال لسليمان ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ ، فهل ترى أن الهدهد بهذه الدراية يستحق أن يسمى عالما ، وهكذا كثير من الحيوانات بل بنو آدم

ليس فيهم أحد لا يدرى شيئا مطلقا ، فاطرد هذا الاصل وقل انهم كلهم علماء وانف الجهل عنهم مطلقا والا فلا حجة لك فى الآية بوجه من الوجوه

ثم قال « وقال تعالى انباء عن يوسف الصديق ﴿ قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم ﴾ وعليم هنا لا يراد به العلم بالحلال والحرام والواجبات والمستحبات الشرعية ولكن هو العليم بالشئون الاقتصادية والمالية وبطرق الجباية وتنمية موارد الثروة تجارية وزراعية وصناعية ، بل يمكننا أن نقول بدون ان نخشى الغلط ان كل مورد ذكر فيه العلم والعقل ممدوحين والجهل والبله مذمومين فى القرآن لا يراد به العلم والعقل فى الدين ولا الجهل فيه وانما يراد به شىء آخر »

فيقال : استدلاله بهذه الآية على غرضه من أعظم المكابرة والبهت المضاد للحقائق ، فمن أين له أن « عليم » هنا لا يقصد به العلم الدينى كالعلم بالحلال والحرام ونحو ذلك ، وهذا الملحد لم يحترم مقام النبوة بل جعل علم يوسف عليه السلام الذى ذكر فى هذه الآية ليس علما دينيا ، فهل يوجد أقبح من هذا البهت والمكابرة ، والآية صريحة جدا فى أن العلم هنا المراد به علم الدين فانه من المحال أن يخبر هذا النبى الكريم عن نفسه بانه عليم بأمور الدنيا خاصة من دون أن يعلم بأمور دينه ، ومعلوم أنه ما طلب ذلك الا تقربا الى الله بهذا العلم ليشكره به ، وعلوم الأنبياء بأمور الدنيا مربوطة بعلوم دينهم فهى فروع عنها ، لأنهم يتصرفون فيها بالوحى وبما فهموه بالوحى الذى أوحى اليهم من العلم الدينى ، فكيف يقال ان العلم هنا ليس هو العلم الدينى ولهذا قال ﴿ انى حفيظ عليم ﴾ فالحفظ احراز المال والعلم معرفة طرق جبايته وتفريقه فى مواضعه المشروعة ، ومعلوم أن أخذه وتفريقه يحتاج الى معرفة الحلال والحرام فليس كل جباية حلالا كما أنه ليس كل تفريق واعطاء حلالا ، وتصريف المال يتناول مقادير الزكاة التى هى أحد أركان الدين وكيفية أخذها ومعرفة مقدار ما تجب فيه وأجرة العامل والناقل والحافظ وغيرهم وكذلك

تفريقه ووضعه يحتاج الى معرفة المستحق ووجه الاستحقاق وغير ذلك ، وهذا هو عين فن الفقه الذى هو من أجلّ علوم الدين ، فكيف يدعى أن علم الصديق عليه السلام هنا ليس علما دينيا ولا يقصد به الحلال والحرام ، ولعل سبب ضلاله فى معرفة معنى هـــذه الآية أنه ظن ان الشئون الاقتصادية والتجارية وتنمية موارد الثروة ونحو ذلك لا يدخل فيها حلال ولا حرام ولا يحتاج من يباشرها الى معرفة الحلال والحرام ثم ركب على هذا أنها لا يمكن أن تدخل تبعا للأمور الدينية ، وهذا مقدار عقله ، وإلا فمعلوم أن الشئون الاقتصادية والمالية ان كانت مباحة فهى محتاجة الى إجرائها على الوجه الشرعى من الحلال والحرام ، وهذا علم دينى ، وان لم تكن مباحة فالانبياء منزهون عن الدخول فيها وطلبها ، فما ذكره على هذه الآية هذيان وضـــلال ظاهر ، والطامة قوله « بل يمكننا أن نقول بدون أن نخشى الغلط ان كل مورد ذكر فيه العلم والعقل ممدوحين والجهل والبله مذمومين فى القرآن لا يراد به العلم والعقل فى الدين الخ »

فيقال له هذا يمكنك أن تقوله ، وهو سهل يسير عليك ، لان الذى يدعى أن النهوض موقوف على الأخذ بكتابه والسقوط موقوف على ترك كتابه لا يمكن أن يغلط بحال من الأحوال ولا ينبغى له أن يخشى الغلط ، فلا بد اذن من أن يقول هذا القول ولأنه من لوازم الخبث والمكر والنفاق وهى من أقسام العلم عندك ، ولكن الذى لا يمكنك هو تصحيحه على ما ادعيته ، وليس كل من جسر على قول ثم قاله يمكنه أن يصححه ، ولهذا كان قولك مجازفة مجردة لا أساس لها ، وانما كان أساسها كونك لم تخش الغلط ، والسبب فى كونك لم تخش الغلط عدم الخوف والحياء فيك فلهذا غلطت بل وسقطت ، ولو انك تستحى أو تخشى الغلط لما أقدمت على هذا الغلط وكذبت على الله وكتابه ودينه وعباده المؤمنين . والعجب من كذبك على القرآن مجاهرة بأن فيه ذكر البله ، ففى أى آية أو سورة وجدت ذكر البله ، بل ذكر البله هنـــا

برهان على أن غلطك غلط ظاهر فاحش بل دسيسة خبيثة . ودعواك أن كل مورد ذكر فيه العلم والعقل ممدوحين فى القرآن لا يراد بهما العلم والعقل فى الدين ، فيقال وهنا أيضا وقعت فى الغلط بل والبهت والزور فلا يمكنك بحال من الاحوال أن تصحح هذه الدعوى ، وغاية ما عندك هى هذه الاستدلالات الواهية وهى حجة عليك لو صحت ، وخليق بمن حاول أن ينزع اسم العلماء الممدوحين فى القرآن عن الانبياء وأتباعهم أن يسقط وأن يغلط وأن يفرط فى الغى والالحاد والكفر ، وقد ظهر لك مما مرّ من النصوص السابقة فى قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾ الآية وما بعدها من الآيات أن العلماء الممدوحين فى القرآن والنصوص الدينية هم علماء الدين خاصة دون غيرهم ، وهى نصوص قطعية فلا حاجة الى اعادتها والاسهاب فى هذه المسائل ، وقد علمت أيضا أنه انعكس قصده وذهب يستدل على نفسه فوقع فى التناقض كما وقع فى التحريف وهتك حرمة النصوص المقدسة

فصل

قال « وما من ريب فى أن من يعلم الأشياء بالوسائل العلمية التجريبية أحق بوصف العلم ممن يعلم ذلك من طريق الألفاظ دون فهم وممن يعلم الحلال والحرام الدينيين من غير حكمة . أيهما أحق بوصف العلم ، آلذى يعلم خبث الزنا والربا والخمر وغيرها وأضرارها الصحية والعقلية والاجتماعية والنفسية والقانونية بالوسائل العلمية والتجريبية والاستقرائية أم الذى يعلم ذلك من طريق النص بدون عقل ومن طريق الشروح والجدل الفقهى »

فيقال : قولك وما من ريب الخ يقال كل الريب فيما ذكرته ، بل الذى يعلم تحريم هذه الأشياء بالنص أعلم من الذى يعلم تحريمها بالتجربة والطرق الصحية بلا أدنى ريب ، فإن من صدق الرسول تصديقا جازما واعتقد أنه لا

يقول إلا الحق فمن لازم ذلك أن يذعن وينقاد لما جاء به بدون قيد ولا شرط فلا يجد فى نفسه حرجا مما قاله ويسلم تسليما كاملا ، ومن توقف فى تصديقه فى تحريم شيء أو تحليله حتى يوافق قوله تجربة صحية أو نحوها فانه لم يصدقه تصديق ايمان واذعان بل انما صدقه لأجل شهادة الطبيب أو المادى أو غيره ، ومن كانت هذه حاله فلا يسمى مسلما فضلا عن أن يسمى عالما إلا على أصول هذا الملحد الذى لا يعبأ بالنصوص ، وأما على أصول الشرع فانه لا يكون الا منافقا زنديقا ، لأنه جعل قول الرسول غير معتبر حتى يشهد لصحة ما قاله طبيب أو غيره فيكون مقدما قول المادى أو الطبيب على قول الرسول عليه الصلاة والسلام . ونقول له أيضا إما أن يكون ورود النص كافيا فى تحريم الزنا مثلا أو لا يكون كافيا ، فان كان كافيا فى إفادة التحريم حصل العلم بتحريمه بالنص وهو المطلوب ، وان لم يكن كافيا إلا بشهادة التمحيص والتجربة له فهذا ليس بعلم دينى ، بل يكون التحريم حينئذ ليس مستفادا من الشرع بل مستفادا من قانون أو غيره ، ومثل هذا لا دخل له فى الدين فلا يجب اتباعه تدينا ، فلا تكون المسئلة والعلم بها من العلم الدينى بل من أمور أخرى ، وهذا شيء خارج عن نفس النزاع هنا ، فانه فى العلم الممدوح فى القرآن ، أما العلوم التى ليست بشرعية فقد تقدم الكلام فيها وفى العالمين بها . ونقول أيضا : تحريم الزنا مثلا إما أن يعرف بطريق النص أو بطريق العقل أو بهما جميعا ، فهل العلم بتحريمه بطريق النص يوجب العلم بتحريمه مطلقا بدون توقف أولا يوجب ذلك ، فان قلت بالأول أفاد العلم بتحريمه وهو المطلوب ، وان قلت بالثانى قيل لك فبأى شيء يجب التحريم ، اذا كان بطريق العقل فهل علمنا بطريق العقل مستقل بتحريمه أو تابع لتحريمه بطريق النص ، فان قلت بالاستقلال قيل لك فهل هذا فى كل شيء ولو لم يات بتحريمه نص ، أو فى هذا وحده ، فان قلت بالأول لم يمكنك طرد هذه القاعدة ، لأنه حينئذ يكون مناط التحريم هو العقل فهو المحلل والمحرم وحده ، فاذن من هو عقله الذى يرجع

اليه فى هذا الأصل ، فان العقول تختلف اختلافا لا ينضبط ، وقل أن توجد مسئلة اتفقت العقول كلها على تحريمها ، بل لا يوجد شىء اتفقت العقول كلها على تحريمه بدون نظر الى دين ، فان هذا غير ممكن فلا يمكن القول به ، وان قلت بالأول وهو أن تحريمه تابع للنص فهو كالمسئلة الاولى التى يكتفى فيها بالنص ، وان قلت بالثالث ـ وهو موافقة العقل للنص والعمل بهما جميعا ـ قيل لك متى ثبت الاتفاق فلا مانع من العمل به فاننا نكون حينئذ مستفيدين التحريم بالنص وقد وافقه العقل ، فكان فى ذلك زيادة علم وليس علما بأصل التحريم لان الأصل هو العلم بالنص لما تقدم من الترجيح ، وبهذا يبطل قوله ان العلم بالوسائل التجريبية أحق بوصف العلم ، فانه مردود لانه خلاف أصول الدين وخلاف أصول المعقولات الصحيحة ، فانه لا ينضبط ، ولأن الوسائل لا يتحصل عليها فى كل مكان ، وأصول الشرع كليات عامة والنص كاف فى ذلك ، ولو كانت التجارب هى المرجع لوجب الغاء الدين ولشاعت الفوضى التى لا ضابط لها ، لأن التجارب لم تزل من أول الدنيا ولم يقع اتفاق بسببها مع الحرص عليها ، وأما النصوص فانما وقع مخالفتها من أجل البغى واختيار العمى على الهدى كما قال تعالى ﴿ وما اختلفوا حتى جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ فى آيات كثيرة صريحة فى أن الشرائع كافية فى بيان الهدى ، وانما جاء الاختلاف بسبب البغى كما قال تعالى ﴿ ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا حتى جاءهم العلم بغيا بينهم ، ان ربك يقضى بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون ، ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ، هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والارض بالحق

ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون . أفرأيت من اتخذ الـهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون . وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ فتأمل هذه الآيات وما فيها من النور والعبر العظيمة ، فانه سبحانه أخبر أنه آتى بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، أى آتاهم ما فيه كفاية لارشادهم وحصولهم على الخير كله ورزقهم من الطيبات فأكمل لهم نعمة الدين ونعمة المادة مع شرف المنزلة ولكنهم اختلفوا ، لماذا ، من أجل البغى لا من أجل قصور فيما جاءهم من الله من الحكم والنبوة أو غموض فى الدلالة بل بسبب البغى والاعتداء فكانت عاقبتهم ما كانت ، ثم بين سبحانه أنه أنزل على عبده محمد ﷺ هذه الشريعة الكاملة الكافية الصحيحة العالية ثم أمره باتباعها ففيها الكفاية التامة ، وهكذا وقع ، فانه لما عمل بها جاءت المكافأة التى أدهشت العالم كله ، فلما أن احتقرت وفرط فيها ولوثت بآراء الجهمية والزنادقة والملاحدة ضعفت كشأن كل قوى عظيم يدخل فيه ما يفسده ويغيره ، فأمره سبحانه أن يتبع هذه الشريعة الغراء ونهاه أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون لئلا تكون عاقبتهم عاقبة من قبلهم ، وهذا صريح فان من خالفها فانه من الذين لا يعلمون ، فان الذى ينحرف عن طريق الرشد والهوى ويختار طريقة الغواية والردى لا شك أنه لا يعلم ، وبمجرد وجود شىء معه من العلم فيما يختص بمعيشته كمجرد وجود شىء من العلم مع كثير من البهائم فى أمور معيشتها . ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين لا يتبعون هذه الشريعة لا يعلمون ، وأنهم لن يغنوا عنه من الله شيئا ، لأنهم ليسوا منه ولا هو منهم ولأنهم ضعفاء مقهورون ومن كان كذلك فانه لن يغنى شيئا فلا داعى الى اتباع مالا يغنى شيئا ، ثم بين أن الظالمين بعضهم أولياء بعض لانهم من جنسهم ففيه بيان أن من لم يتبع هذه الشريعة فلا بد أن يتبع أهواء الذين لايعلمون وانه لا يعلم ولا بد أن يكون ظالما وانه

سيتولى عليه ظالمون لانه اتبع أهواءهم واختارها على هذه الشريعة التى لا بد أن يتولى الله من اتبعها وان الظالمين مع ذلك لن يغنوا عنه من الله شيئا فلا ينفعونه لانهم ظالمون فلا ينال إلا عكس ما قصده من اتباع اهوائهم كقوانينهم ونحوها ، فلهذا قيل :

فما من يد الا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

وقد بين سبحانه أنه ولى المتقين وكفى به وليا وكفى به نصيرا . فأين من وليه ظالم طاغ عاجز ممن وليه عادل رحيم قادر قهار رءوف رحيم لطيف خبير ونعم المولى ونعم النصير ، ومن التجأ الى غيره واعتمد على نفسه دونه فانه قد أساء به الظن ولم يرفيه الكفاية ولم ير انه نعم المولى ونعم النصير ، ثم بين سبحانه أن هذه الشريعة فيها كفاية تامة ونور تام فى الهداية تاكيدا لما قبله فقال ﴿ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة ﴾ ، وهذه هى أصول الخير كله ، فالبصائر هى التى يبصر بها الانسان طريقه فى كل شيء من أموره ، والهدى هو الذى يهتدى به فيعصمه من الضلال ، والرحمة هى اللذة والسرور والروح والفرح والحياة الصحيحة ، ومن كان بهذه المنزلة فلا يخشى الا الله ، ولكن من ترك البصائر والهدى والرحمة فخليق أن يسير فى ظلمة وأن يضل وأن يشقى بلا ريب ، وبقدر تركه لذلك يحصل له من ذلك بمقدار ما تركه ، ثم أخبر سبحانه أنه ليس بصائر وهدى ورحمة لكل أحد من الناس ، لا بل ذلك انما يكون لقوم يوقنون ، وأما الذين فى قلوبهم شك وريب وقلق وضيق وعدم انشراح له فهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد لأن أولئك فى قلوبهم مرض ففيها أخلاط خبيثة من الشكوك والريب . فلا تقبل هذه البصائر ولا هذا الهدى ولا هذه الرحمة ، ثم بين سبحانه وتعالى ما يقطع ظهور جميع الملاحدة وجميع أهواء الذين لا يعلمون وجميع ما فى قلوب الذين لا يوقنون من الشك والريب بقوله تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾

فانه سبحانه علم أن هؤلاء الذين لا يعلمون ولا يؤمنون سيقولون إنه لا فرق بين من عمل الصالحات ومن عمل السيئات فى هذه الدنيا بل النتيجة واحدة هى هى سواء قام بحلها المسلم ام قام بحلها الكافر ، وأن الاعمال الصالحة لها نتائج أخرى غير التقدم فى الحياة ، وان التقدم منوط بالأسباب الطبيعية لا دخل للاسباب المادية فى ذلك ، فاخبر أن هذا الحكم الجائر الاهوج لا يليق بالله بل هو جور وظلم عظيم لا يليق بحكمة الله ، فكيف يجعل الذين آمنوا وصدقوا الله تصديقا جازما لا يداخله ريب ولا شك ، وعملوا الاعمال الصالحة التى أمروا بها ، كمن اجترحوا السيئات فاستكبروا عن الايمان به ، وشمخوا بأنوفهم عن اتباع هذه الشريعة والبصائر والهدى والرحمة ، واتبعوا أهواءهم وأغراضهم وشهواتهم فاجترحوا السيئات ، فان هذا لا يليق بحكمة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، لأن العدل قائم على مجازاة كل نفس بما كسبت ، فكل نفس تعطى حسابها جزاء وفاقا ، ليس هناك ظلم فى أدنى حبة من خردل ، فهو سبحانه قائم بالقسط ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذى أحسنوا بالحسنى ، فلا يجعل من تمرّد عن طاعته وعن عبادته ودعائه كمن اتبع هواه وبدّل نعمة الله كفرا . ثم بين سبحانه أن هذا الكون لم يخلق عبثا ، بل خلق بالحق ، وأن من الحق أن تجزى كل نفس بما كسبت ، وهذا صريح فى أنه سبحانه ربط سننه الدينية بسننه الكونية وجعل الكونية تدور على مقتضى الدينية فمن اتبع سننه الدينية وسار معها استثمر مصالح سننه الكونية وانتفع بها وصارت نتائجه صحيحة سليمة قوية مستمرة ، وأن من عاكسها وعاندها وصادمها وذهب يتخطى سنن الله الدينية ليأخذ مصالح لسننه الكونية فإنه لن ينتفع بذلك بل لا بد أن ينهار ولا بد من أن يتنكد وأن يتنغص وأن لا ينتفع بما استحصل عليه انتفاعا صحيحا قويا . ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين لا يعلمون وهؤلاء الذى لا يوقنون ممن أعرضوا عن هذه الشريعة التى هى البصائر والهدى والرحمة وجعلوا الذين آمنوا وعملوا الصالحات كمن اجترح السيئات فى حكم

العدم قد عوقبوا بأشنع ضروب العقوبات القلبية اللائقة بهم ، فانهم أبوا الا المعاندة والعمى عن الهدى فقال تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ ففى هذا بيان أن كل من خالف الشريعة فانه لا يعلم شيئا بل هو على غاية الجهالة والضلالة وعمى القلب فلا حظ له من العلم البتة ، فان هذا لم يقبل شريعة الله وبصائره ، بل قبل شريعة هواه ، فانه لما لم يقبل الله إلهه وربه فلم يعتمد عليه ويرى فيه الكفاءة التامة اتخذ إلهه هواه فاعتمد على نفسه وراى أن فيها الاستعدادات والمواهب الكامنة الكاملة وأن فى ذاته استعدادا كاملا بأن يقدر على كل شيء ويعلم كل شيء ويحصل على كل شيء ويتغلب على كل شيء فاتخذ هواه الهه الذى يعتمد عليه ، فان الاله هو الذى يعتمد عليه اعتمادا مطلقا وتصرف اليه الرغبة والرهبة مطلقا ، فهواه هو الهه الذى له يعادى وبه يأخذ ويعطى ويتبع ويأمر وينهى وينقاد ، فهو معبوده ، فأضله الله على علم به جل وعلا بانه ساقط خبيث مستحق للطرد والابعاد واللعنة ، لأنه لم يقبل الطيب بل هرب منه وانصاع الى ضده ، فلهذا ختم الله على حواسه الصحيحة لانها كانت مفتحة بفطرتها لقبول البصائر والهدى والرحمة التى خلقت لها ولم تقبل ذلك ، فجوزى بالختم عليها لأنه اختار هذا العمى على الهدى فختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون . ثم أخبر سبحانه عن حالة هؤلاء بأنهم يقولون ﴿ ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحى ﴾ اى يموت أناس ويحيى بدلهم أناس آخرون ﴿ وما يهلكنا الا الدهر ﴾ أى بتعاقبه لانهم يقولون أسباب الموت وكذلك الحياة طبيعية فقط ، ثم قال تعالى ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ يستندون عليه سوى ما يرونه ويشاهدونه من الإحياء والاماتة ، وأما الحقائق الدينية التى تبين ذلك فانهم فى معزل عنها فليس معهم من العلم غير الظن والتخرص الذى أكثر ما يوجد فى الأوهام والأباطيل كما يتوهم الجاهل أن السراب ماء

فانه يظنه ماء ولا يعلم حقيقته لهذا يبنى على ظنه أنه حقائق ظاهرة وهذا ظاهر والمقصود أن ما ذكره من أن العمدة على التجارب والطب من إفادة العلم بالتحليل والتحريم إنما يتمشى على قواعد الملاحدة الذين لا يرون الشرائع شيئا معتبرا يجب التزامه كما هو رأى هذا الرجل، ثم قوله «أما الذى يعلم ذلك من طريق النص بدون عقل» كلام ساقط ، فانه مبنى على رأى ساقط وهو رفض النص حتى يشهد له العقل، وهذا أيضا مبنى على أصل أسقط منه وهو ثبوت وجود التعارض بين صريح العقل وصحيح النص وأن الشرع حرّم ما يوجب العقل تحليله، وهذا كله ممنوع بل باطل، فالمسلمون يعلمون من حيث الجملة أن ما حرمه الله ورسوله فهو موافق للعقل والفطرة، فدعواه هنا ساقطة كما هى مغالطة محضة. وقوله « أى الرجلين أقرب الى اجتناب هذه الخبائث وتركها (لأنه مقتنع بخبثها) وأى الناس أولى بنعت العلم آلذين يتركون الشرك وعبادة الاصنام والمخلوقين لانهم علموا فساد ذلك ومضارّه الاجتماعية والنفسية والعقلية أم الذين لقنوا تحريم ذلك تلقينا مجرّدا من الادراك الحقيقى»

فيقال : أما عند العقلاء من المسلمين الذين يعلمون أن النصوص كافية فى التحريم وأنه يجب اتباعها فانهم يعلمون أن الرجل الذى تركها لموجب النص أعلم وأعقل، وان الذى لم يتركها إلا لأجل علمه بالوسائل التجريبية ونحوها أنه ليس بذى علم ولا عقل ولا دين، لأنه لم يعمل بالنص فى نفس الأمر وإنما عمل به من أجل شهادة التجربة ونحوها، ومن لم يعمل بالنصوص ولا سيما فى أصول الدين كترك الشرك وعبادة الأصنام إلا بشهادة التجارب ونحوها لها فليس بعالم ولا عاقل، بل هو جاهل، بل زنديق كافر ، لأنه لم يتبع الأصل الذى جاء به الرسول ﷺ، ولم يؤمن به إيمانا صادقا جازما ، ويقطع بان ما جاء به هو الحق، وأنه لا يقول على الله الا الحق، وأن أمره بالشىء مصلحة لا شك فيها ، وأن اتباع أوامره الشرعية يتضمن الوسائل التجريبية ويتضمن المصالح الاجتماعية والنفسية وغيرها ، فكل ما أمرنا به

فنحن نعلم أنه خير محض ، وكل ما نهـانا عنه فلا شك أنه شر محض ، وكيف نصدق الطبيب الذى نعرف فساده فى نفسه وفى أكثر اموره ونثـق بقوله فى أبسط دواء ونشك فى ربنا ومالـكنا الذى أوجدنا من العدم على هذه الحـالة التى هى أحسن التقويم ، وتابع علينا النعم التى لا تحصى ، وكيف نصدق الطبيب الذى يعجز عن اجتناب القاذورات مطلقا ونشك فى رب الطبيب الذى خلقه وخلق طبعه ، وكذلك غير الطبيب ممن هو مثله أو دونه ، فمن آمن بما جاء به الرسول بشرط أن توافق أقواله أقوال علماء النفس أو الاجتماع ونحوهم فهو مرتاب شاك وهذا لا شك فى كفره كما لا شك فى تكفير من لم يكفره ، فكل من لم يؤمن بالرسول عليه الصلاة والسلام ويصدق بما جاء به تصديقا جـازما لا يخالجه شك ولا ريب فهو كافر ، لان هذا ليس بمؤمن باجماع المسلمين . ثم إن ما ذكره من الشرك وعبـادة الأصنام ظاهر فى أنه لا ينكر ذلك بل لا بد من علم فساد ذلك ومضاره الاجتماعية والنفسية بالطرق الاجـتماعية والنفسية من جهة أهلها ، والا فالنص لا يكفى عنده كما هو ظاهر كلامه ، فانه لم ير النص كافيا فى ذلك ، ومعلوم ان اقناع الناس بأن الشرك وعبادة الاصنام باطـــل بالوسائل التجريبية أو بأقوال أهل المعرفة بعلم النفس والاجتماع أمر لا يمكن ولا يحصل به نفع البتة ، وهذا الملحد بنفسه قد نقل عن سيده جستاف لوبون أن البشرية لم تتقدم الا فى عهـد الوثنية وعبادة الأصنام كما يأتى ، ومعـلوم أيضا أن أنصار هذه الأمور الشركية يدعون أن هذه الأعمال ليس فيها مضار ولا مفاسد بل هى النفع بعينه عندهم وأنهـا موافقة للعقول لأغراض وأهواء كثيرة لا تحصى . هـذا ما نقوله عن عقـلاء المسلمين وعلمائهم وأما الذين فى قلوبهم مرض فلا شك أنهم يرون أن الذى يتجنب الامور المحرمـة لاجـل شهادة الماديين ونحوهم بخبثها لا من أجل النص أولى بوصف العـلم لأن النص عندهم ليس بعلم وليس شيئا معتبرا ، فان هذا هو مقتضى أصولهم الخبيثـة ، ولهذا كان للجهمية حظ كبير من هـــذا الأصل فانهم يقدمون عقولهم على

بعض النصوص فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض فينكرون صفات الله سبحانه وتعالى كالعلو على العرش وكلامه سبحانه ونحو ذلك من الصفات المنصوص عليها من آيات وأحاديث لا تحصى بمجرد أن عقولهم المنكوسة دلت على خلافها فحكموا عقولهم فى صفاته تعالى ونبذوا كلام الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون

وقوله « وايهم أجدر بهذا الوصف الجميل (يعنى العلم) أقوم وهبهم الله عقولا كبيرة عبقرية فشحذوها ثم استخدموها فى اختراع أشياء عظيمة أسعدت الانسانية كلها ونجت بها من ويلات كانت تعانيها منذ وجدت، وقدمت اليها أمورا كانت محرومة منها أيضا منذ وجدت ، أم قوم ذوو عقول ضيقة حرفية تقليدية عكفوا على زوايا مجهولة منتبذة وراحوا يهذون ويكتبون وليس لهم من سامع ومن مفكر فيهم وفيما يكتبون سوى الغباوة ، وراحوا يكتبون فى تكفير من يصنع كيت وكيت وفى تفسيق وتضليل من يأتى كذا وكذا وفى تقسيم الاحزاب والاوراد اليومية والشهرية والصباحية والمسائية وتعديدها »

فيقال فى جوابه :

ما أنت بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل ولا ذى الرأى والجدل

أما لو كانت هذه الأوضاع والأوصاف الشرعية واللغوية فى يديك وتحت ملكك تعطى من تشاء وتمنع من تشاء فلا باس أن تجود بهذه الاسماء الجميلة الجليلة وهذه الالقاب العالية السامية لسادتك وأوليائك الملاحدة ، أما اذا كانت هذه الأوصاف والأوضاع لها أهل ولها قوانين وقواعد وقيود وحدود رسمها الله ورسوله فلا يمكن للملحد أن يتعداها ويتخطاها ، فلا شك ان الذين وهبهم الله عقولا عظيمة واسعة نيرة أناروا بها الطريق وأقاموا بها السبيل وأسعدوا بها الحياة فأرشدوا الى أكمل سعادة وأصح حياة فأخرجوا الناس من الظلمات الى النور ومن الجهل إلى العلم ومن الجور والظلم والفوضى

والمنازعات الخبيثة الى العدل والاحسان والأخوة الطيبة الكريمة وأخرجوهم مما كانوا يعانونه من البأساء والضراء الى النعماء والسراء ومن الشقاء والبلاء والجحيم والهموم والغموم الى الأفراح والسرور والهناء والنعيم فأقاموا ميزان العدل والقسط والنظام الصحيح كل ذلك بعلمهم وايمانهم وسيرهم على الشرائع السماوية والأخلاق الدينية ـ أولى بالعلم والعقل وكل وصف جميل جليل ، فأين هؤلاء العلماء والكرماء العظماء من قوم لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم حتى ضرب بعضهم ببعض وخسف بقلوبهم حتى كانوا ذوى عقول خبيثة مظلمة ضيقة منحطة جرت على الانسانية بل وغير الانسانية من أصناف المخلوقات الأهوال والويلات والجوع والعرى والظلم والعسف والقهر المنكر والدمار الفظيع والمنازعات الدائمة وإماتة الفضائل والأخلاق السامية فصار العالم فى اضطراب مزعج وقلق دائم وفناء متوقع فلا سامع لضعيف ولا ناصر منهم لمظلوم ولا معارض لقوى ، اسماء باسم العدالة ومسماها الظلم والاستعباد انما همّ أحدهم تقديم مصلحته وتنفيذ ارادته الشخصية ولو فنى فيها بعض العالم وما قدمت لها شيئا من وسائل الراحة واللذة الا اتبعته واضعافه من وسائل الخراب والدمار والازعاج والعذاب والبلاء والمحن ، قدمت للانسانيه أشياء تافهة قد استغنت عنها عصور نيرة زاهرة منعمة وما ضرها فقدها ، ولو أنها اقتصرت عليها فلربما كان فى ذلك نوع شبهة ولكنها قدمت لها خلال هذه فظائع وألوانا من العذاب كان سالمة آمنة منها منذ وجدت من القلاع الجوية والغازات السامة وأنواع الأسلحة الواسعة النطاق صارت أكثر أهدافها الأطفال والشيوخ والعجائز وغيرها من الطوائف الانسانية الضعيفة ، فما كانت الانسانية الأولى فى عهد من عهود الدين الصحيح تُرى فى السنين بعد السنين تئن تحت انقاض الهدم والخراب ، وماكانت ترى تساق كما تساق البهائم بل كما تساق الحمير ويعمل بها أعمال لا تعملها البهائم والوحوش مع أجناسها الى غير ذلك من الاعمال الخبيثة التى مصدر خباثتها الكفر والالحاد والبعد

عن الأديان السماوية

فاى الفريقين أحق بوصف العلم والعقل ، لا شك عند كل ذى بصيرة من أمره أن علماء الدين هم أولى بوصف العلم والعقـل وكل وصف كريم ، وأن الملاحدة أولى بوصف الجهل والغباء والخبث وكل وصف قبيح

أما مغالطته بأحوال بعض اتحادية الصوفية فقد بينا أنه هو أحق بكل ما فيهم من انتقاد ، فان الاتحاد ووحدة الوجود والتجهم وأمثال هـذه الطرائق الخبيثة كلها من شعب الالحاد ، وهى متفرعة من أصله ، فما فيها من خبث فهو مستمدٌ منه ، وعلماء هذه الطرائق ليسوا من علماء الدين بل هم كفار مرتدون كما تقدم بيانه ، وقد نقل الامام أحمد فى رسالته الى مسدد الاجماع على كـفر الجهمية كما نقله شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وعبد الله بن الامام أحمـد فى كتاب السنة والدارمى وغيرهم ، فلا يجوز له ولا ينبغى أن يدخـل سادته الملاحدة مع المسلمين فيشنع عليهم بما يوجد فيهم من عيوب إخوانه وأوليائه الملاحدة ، فان هذا لا يفعله الا من هو مثله منسلخ من الدين والعقل وكل فضيلة ، وأما أئمتنا وسادتنا فقـد بينا أنهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وأئمة أهل القرون المفضلة المعروفون بالدراية والرواية والثبات ومكارم الاخـلاق الذين رفعوا راية الاسلام والعـدل وانتقموا من أنصـار الجور والظـلم ، وما كان اليهود لديهم الا كأخس طبقات الناس لأن هذا هو موضعهم اللائق بهم ، وأما فى عهد سادتك وأوليائك الذين أضفت اليهم اسم العلم فقـد رأيت ما رأيت من الشرور والمظالم الـتى لا تحصى ، ونحن نعـلم ونتيقن أن ما يصيب المسلمين من تقدم اليهود وأمثالهم لا يهمك بل يقـــر عينك ، فانك صرحت على رءوس الأشهاد بأن المسلمين ضالون فى قتالهم كما يأتى فهم عندك أولى من غيرهم فان شبيه الشىء منجذب اليه كما هو المعروف ، ولأنهم كما قلت أهل عقول كبيرة أسعدوا بها الانسانية ، وقد تقدم ما صرحت به عنـد الاستاذ قطب وغـــيره من أن هؤلاء الأجانب قوم مصلحون لا

مستعمرون ، وكل من يعرفك ينقل عنك ما هو أقبح من هـذا ، وكفى بأغلالك هذه شاهداً على خبثك وعداوتك للاسلام والاديان السماوية كلها كما هو واضح

فصل

ثم قال « ومن الأحاديث الدالة على أن العلم فى اطلاق الشرع غير ما ذهب اليه هؤلاء قوله عليه السلام فى قصة تلقيح النخل « أنتم أعلم بأمر دنياكم » . فيقال ليس فى هذا ما يدل على ما ادعيته ، غاية ما فيه إطلاق لفظ العلم ، ونحن لم نمنع هذا ، انما نمنع أن يكون كل من علم شيئا يسمى عالماً ممدوحا ، والعلم هنا علم مضاف الى الدنيا ، ولهذا لم يقل أنتم العلماء أو أهل العلم ، فدل على أنه يريد أنتم أعلم بهذا الامر الدنيوى ، كما يقال فلان أدرى من هذا وأعرف وأعلم بهذا الشىء ، واذا كنت تكتفى بمجرد إطلاق العلم فقد قال تعالى فى الكلاب ﴿ تعلمونهن مما علمكم الله ﴾ فدل على أنهن يعلمن ، اذ الذى لا يعلم لا يعلم ، فالتزم هذا وقل ان الكلب عالم وان الكلاب العالمات بالصيد علماء أو أهل العلم أو من الذين أوتوا العلم والا بطل احتجاجك وتطويلك وتهويلك ، وسيأتى الكلام على ما يتعلق بمعنى الحديث وانما جاء به هنا من أجل لفظ العلم وقد رأيت أنه لا حجة له فيه

فصل

قال « ومما يجب التنبيه اليه هنا ـ لأن الذين ورثوا عن هؤلاء الشيوخ كراهية المعارف لا يفتأون يغلطون ويخلطون فيه ـ أن العلم (١) لا يمكن أن يكون شرا ولا أن يكون داعيا الى الشر والفساد والاجرام والطغيان »

والجواب أن يقال : هـذا العلم الذى تريده وتقصده قد بينا أنه الجهل

---

(١) يريد بالعلم هنا علم الملاحدة كعادته

والظلام ، فقد صار شرا وجرّ الى الاجرام والفساد والطغيان كما وقع ذلك بالمشاهدة والحس وانكاره مكابرة ، لأنه فى الحقيقه ليس بعلم دينى نافع وانما هو جهل مبنى على الحقد والحسد والأخلاق البغيضة ، وتسميتك له بالعلم من باب قلب الحقائق والمسميات الى أضدادها ، وأغلالك هذه كلها مقلوبة تبعا لقلبك المنقلب ، والاسماء لا تغير الحقائق ، والعلم الذى لا يكون شرا ولا داعيا الى الشر وهو الخير المحض والحياة الصحيحة هو علم الدين ولوازمه وما يلتحق به ، وأما أضداد ذلك من العلوم فهو الشر والمصائب والبلاء والوباء كما وقع ذلك بالمشاهدة

ثم قال « وذلك أنهم هبوا وخاصة فى هذه الأيام التى تفاقمت فيها ويلات الحرب يصرخون منادين بسقوط العلم[1] زاعمين أنه هو الذى يشب الحروب وهو الذى يقدم لها الوقود ويزداد اضطرامها والتهابها ، وقد نادى كثير من خطباء المساجد وخطباء الجمعيات فى هذه الايام بمقاطعة علم أوربا والبراءة منه وسألوا الله مخلصين على ما زعموا أن يخلص العالم والانسانية من هذا العلم ومن أهله ، ثم ختموا دعاءهم وادّعاءهم ودعايتهم بمطالبة المسلمين والمخلصين بالرجوع الى الدين ونبذ كل شىء سواه »[2]

والجواب أن يقال : يتبين للقارىء هنا بالبرهان الواضح أنه كان عدوا وخصما لهؤلاء الذين يطالبون المسلمين بالأخذ بالدين ونبذ كل شىء سواه كما هو صريح كلامه ، وبهذا وأمثاله عدوه عدواً للاسلام والمسلمين ، وهو أمر ظاهر لا شك فيه ، فرجل يردّ على علماء يطالبون بالأخذ بالدين ونبذ ما يخالفه لا شك أنه رجل كافر عدو للاسلام متربص به الدوائر ، وكيف

---

(١) يثبت لك من هذا أنه يريد علم الالحاد ، لانهم انما نادوا بسقوطه

(٢) يظهر هنا لنا أنه يريد به علوم البلشفة والالحاد ، لانها هى التى تودى بسقوطها اذ ذاك

ساغ لهذا الملحد أن يجاهر بالرد على هؤلاء العلماء وهم لم يقولوا الا خيراً وحقا ويسوق كلام جستاف لوبون الذى يقول ان الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ثم لا يرده ولا يعارضه بشىء بل يستشهد به بل يصف قائله بانه فيلسوف عظيم ، وأما سهل بن عبد الله التسترى فيدعى أنه صنم من أصنام الصوفية بل يرد" على الزمخشرى الذى يقول « العلم للرحمن جل جلاله » الخ . فلينظر المسلم الغيور على دينه الى هذا التحيز والعداوة المنكرة للدين وأهله والولاء الخالص للالحاد وأهله ، وهؤلاء العلماء العظماء لم يقولوا الا حقا لأنهم رأوا بالمشاهدة وعلموا بالضرورة ما فعلت هذه العلوم بأصحابها حين تركوا علوم الدين الأساسية وازدروا بها وأهلها ماذا أصابهم ، وأكثر هذه العلوم الالحادية هى ما يدعو اليه هذا الملحد من الاعتماد على النفس والعداوة للدعاء والخطب والصلاة وإنكار القضاء والقدر وكون الله لا يغير فى الأسباب وكون نواميس الطبيعة هى التى تحكم هذا العالم وأمثال هذا الهذيان ، فهذه كلها من أصول الالحاد ورفض الأديان ، وقد علم هؤلاء الراسخون فى العلم أن هذه العلوم الالحادية هى التى جرت على الانسانية هذه الفظائع الكبرى ، فلهذا دعوا وطالبوا المسلمين بنبذها والأخذ بطريقة الدين النيرة القوية الصحيحة الآمنة التى تفيد الانسان دينا ودنيا فانها تطلق العقل فى جميع العلوم الصناعية والمادية والتجارية والاقتصادية وتقو"ى الأخلاق وتزكى النفس ، فعلوم الدين هى الأساس القوى الذى من بنى عليه أموره نجح بلا ريب ، فما انتقده هذا المخذول على هؤلاء العلماء الأجلاء انتقاد ساقط لا محل له

ثم قال « فكأن الدعاية [1] ضد العلم [2] لا تزال قائمة ولا تزال متصلة الحلقات منذ كان أولئك الشيوخ هم الطرف الأول وكان هؤلاء الخطباء

---

(١) أى دعاية الأخذ بالدين ونبذ ما سواه

(٢) تقدم تصريحه بأنه علم أوربا فهو العلم عنده

والوعاظ هم الطرف الآخر لها »

فيقال : نعم إن هذه الدعاية الدينية ضد علم الالحاد ، وقد صرحت بانه علم أوربا فهو العلم عندك ، لا تزال قائمة متصلة الحلقات - منذ هبطت هذه الشريعة الطاهرة العالية الى أن يرث الله الارض ومن عليها - بهؤلاء الشيوخ العظماء الأمناء النبلاء بيض الله وجوههم ورفع منازلهم ، ولا تزال هذه الطائفة قائمة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك . نعم إن هذه الدعاية الناجحة - من هؤلاء الشيوخ الفضلاء ضد الالحاد والمبادىء الهدامة - لا تزال قائمة ولا تزال متصلة الحلقات منذ كان أولئك الشيوخ الأولون هم الطرف الاول لهذه الحلقات المحكمة وكان هؤلاء الخطباء والوعاظ هم الطرف الآخر لها . فلا تزال هذه السلسلة الجبارة المتصلة حلقها سلسلة وأغلالا مشدودة فى عنقك لا محيص ولا مخاص لك منها حتى تموت خنقا وحنقا وغيظا بنفاقك وإلحادك ان شاء الله تعالى لانك اخترت ذلك لنفسك ورضيته لها

فصل

قال « والذى يجب أن يقال وأن يعلم ردا على هؤلاء وبيانا للحقيقة أن العلم ليس هو الذى أوقد هذه الحروب ، ولا هو الذى أمر بها ، ولا هو الذى دعا الى إلقاء القنابل على المدن ولا على غيرها ، ولكن الذى أمر بذلك كله هى الاحقاد والمطامع والأنانية والميول الشريرة الموروثه من عصور الجاهلية »

فيقال : هذا حجة عليك ونقض لكلامك الماضى فى دعواك أن هؤلاء هم الذين صنعوا الحياة وأسعدوا الانسانية كلها وأنجوها من ويلات كانت تعانيها فكيف يتفق أن يكون علماء كبيرة عقولهم صنعوا الحياة وأسعدوا الانسانية ومع هذا فقد أذاقوها الويلات والدمار الفظيع ومعهم هذه الخصال الخبيثة الموروثة من عصور الجاهلية من الاحقاد والمطامع والميول الشريرة ، فاين

العلم والحياة والسعادة والنور والصحة وغير ذلك من الأخلاق التى أضفتها اليهم زورا وفجورا ، فما أقبح هـذا التناقض ، بل السبب الوحيد أن هؤلاء أرادوا أن يستغنوا بهذه العلوم الالحادية عن علوم الدين فى رغد العيش والطمأنينة والراحة واستعظموا عبادة الله واستكبروا عنها ورأوا أنهـا لا تنفعهم بل تضرهم فانقلبت عليهم هذه العلوم بلاء وعذابا حيث طلبوا منهـا ضد ما وقع منها ، فلا نجاة للانسانية أبدا الا بوجود الدين السماوى الصحيح يسيرون على ضوئه ويعتمدون عليه ويرتبطون به فيسيروا على نظامه ، فالدين هو العاصم الوحيد من ذلك فانه يحارب هـذه الاخـلاق الخبيثة من المطامع والانانية والاحقاد والميول الشريرة ، فلا دواء لهذه الادواء القاتلة ولا شفاء منهـا الا بالاعتماد عليه والاقتباس من ضوئه ونوره ، فان تعاليمـه الصحيحة المقدسة تزيل هذه الاعراض الخبيثة وتبعدها وتبددها ، فتقضى بان يكون الناس كنفس واحـدة إخوانا وكالاعضاء فى الجسم اذا اشتـكى منه عضو تداعى له الجسد كله بالحمى والسهر ، ولا شك أن هذه الأدواء الخبيثة عنصرها الالحاد ، كما أن هذا الشفاء مصدره النور والروح السماوية ، وقد تقدمت دعواه أن الانسان خلق بطبعه شريرا خبيثا ظالما وأن ما معه من الأخـلاق الحسنة مقتبس من الديانات ، فكيف يتناقض هنا ويشنع على العلماء الذين يطالبون المسلمين بالاخذ بالدين ونبذ ما سواه ، فهى موروثة عن الملاحدة واشباههم سواء كانوا فى عصور الجاهلية أو غيرها ، فالالحاد هو عين الخبث ونقطة دائرته ، أعاذنا الله منه بمنه وكرمه

فصل

قال « ووظيفة العلم والعقل هو إناره الطريق وفتحه فحسب »

فيقال : هذا كلام غير صحيح ، فقد نقضته أيضا فى صحيفة ١٦٩ من هـذه الاغلال بقولك « ولـكن الناس يعلمون جميعا أن مبدأ الاعمال كلها الاعتقاد

وأن العامل انما يتجه ويسير ويعمل على مقتضى ما يوجبه له معتقده » فهذا تصريح منك بان الانسان انما يعمل على ما يوجبه معتقده ، ومعلوم أن المعتقد هو العلم الجازم المتيقن الذى يعتمده الانسان فيعقله ، فاذا كان هذا العلم هو الذى يوجه ويسير ويعمل على مقتضاه فكيف تدعى هنا أنه ينير الطريق فحسب وأن الطباع هى التى تعين سلوكه (١) ومعلوم أن الانسان انما يتعلم ليعلم فيعمل لانه قد ثبت لديه أن العلم يوجب العمل ويدفع اليه ما لم يوجد معارض ، وكل عمل من مكلف إنما يصدر عن علمه الذى يعقله ويعتقده ، فانه اذا علم الشيء فاعتقده قصده ، والناس انما يتعلمون لاجل أن يعملوا وإلا فلا فائدة فى تعلمهم ، لأن المقصود من معرفة الخير اتباعه ومن علم الشر اجتنابه ، فالأعتقاد الجازم والأرادة الجازمة والقدرة توجب وجود الفعل ما لم يمنع من ذلك مانع ، ولما كان علم هؤلاء ليس علما دينيا وانما هو علم مضاد لعلوم الدين أساسه الاغراض والأهواء والمنافسة والحقد والمكر والنفاق كانت عاقبته وثمرته هذه الفظائع والعذاب والدمار والخوف والجوع والعرى ، لأن كل ثمرة فانها تكون من جنس أصلها الذى تمخضت منه ، وأصول هذه الثمرة هو هذه العلوم الخبيثة ، ولو كان الاصل هو العلوم الدينية لكانت ثمرتها الحياة السعيدة والعاقبة الحميدة

ثم قال « وهذا كقوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أى الطريقين طريق الخير والشر ، وقوله تعالى ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وقوله ﴿ انا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ والعلم والعقل لا يفعلان غير ذلك وطباع الانسان هى التى تعين سلوكه واتجاهه »

فيقال : استشهاده بهذه الآيات على مراده هنا من أكبر الادلة على كثافة حجابه ، اذ قاس الله تعالى على أعراض تقوم بالانسان ، فكيف يقاس القائم

(١) سيأتى لفظه بهذا قريبا

بنفسه والقائم عـلى كل نفس بمـا كسبت عـلى أعراض تقوم بغيرهـا من المخلوقات ، والآيات لادلالة فيها إلا على إنارة الطريق فقط، فان الهداية نوعان هداية بيان وإرشاد ، وهداية خلق فعل فى الانسان . فالأول كقوله تعالى ﴿ وانك لتهدى الى صراط مستقيم ﴾ والثانى كقوله تعالى ﴿ انك لا تهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء وهو اعلم بالمهتدين ﴾ وجميع الآيات التى استدل بها هى من النوع الثانى ، فقوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أى بينا له وخلقنا فيه الهداية لهذا أو هذا ، وهذا يناقض دعواه فى العلم فانه عنده لا تأثير له مع أنه نقضه كما تقدم ، وكذلك قوله تعالى ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ففيه دليل على أنه سبحانه هو الذى خلق فيها الالهـام فانه أضافه الى نفسه الـكريمة فهى تعمل على مقتضى هذا الالهام المخلوق فيها من تقوى أو فجور ، وكذلك قوله تعـالى ﴿ انا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ فمعنـاه كمعنى آية ﴿ انا هديناه النجدين ﴾ فالله سبحانه هو الذى يخلق فى العبد الفعل كما يخلق فيـه الاختيار فهو فاعل مختـار بمشيئة الله تعالى ، وليس خلق الفعل هو جـبره واضطراره الى خلاف ما يريده وخلاف ما يناسب طبعه ويستحقه ، فالاجبار هو قسر الانسان على خـلاف ما يريده ويميل اليه ، وأما خلق الفعل فليس كذلك فانه خلق القدرة والارادة والاختيار ، فاذا كان الانسان خبيث الطبع قد فسدت فطرته فانه يميـل الى ما يناسبه من الشر ويليق به بمشيئة الله ، فلا يريد الخير ولا يميل اليه ولا يحبـه بل يكرهه وينفر منه ، فالله سبحانه أنزل كتبه وأرسل رسله وخلق فى الانسان فطرة قابلة لما أنزله وجعل فى الانسان طبيعة غريزية فى طلب ما يحبه والهرب مما يضره ، فاذا ترك الانسان قبول ما جاءه من الله كان تركه هذا دليلا على عدم رغبته وميوله الى الخير ، فلا يكون الله قد قسره على الشر وهو يريد الخير ، لـكن الله تعالى لو علم فيه خيرا لأعانه على نفسه ، ولـكنه ترك الانقياد وترك دعاء الله وطلبه واعانته ، فكان خاليا من قبول الخير فاذا ترك الحق كان تركه هذا باختياره من نفسه وايثاره الباطل

على الحق ، وكل عاقل يميز بين فعل المختار وبين فعل المجبر ، ولو أن رجلا ضرب تأديبا من أجل جريمة فعلها لشكر الناس من أدَّبه ، ولو ضرب من اجل لونه أو صورته لكان الذى ضربه ظالما عند جميع الناس من المقر بالقدر والمنكر له . فالتفريق بين الفعلين بديهى ، والجدال فى ذلك هوس ، وكل انسان يفرق بين من يحسن اليه ومن يسىء اليه وان كان يقر بالقدر ، وما دام كذلك فلن يسوغ له أن يجادل فيه ، وأكثر ما يجىء الخذلان من مخالفة النصوص والجدال فى ذلك كما قال تعالى ﴿ ذلك بانهم كرهوا ما أنزل الله ، فأحبط أعمالهم ﴾ وكما قال تعالى ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ فتبين بهذا أنه سبحانه يخلق فعل العبد الاضلال والهداية ، ولكنه سبحانه لا يخلق الاضلال الا فى القلب القابل للاضلال المائل اليه المريد له ، لا يخلقه فيمن ليس كذلك ، ويخلق الهداية فى قلب من يطلبها ويريدها ويميل اليها . ويدلك دلالة صريحة على هذا الاصل العظيم وأن من يطلب الهداية بصدق واخلاص يعطاها قوله تعالى ﴿ ويهدى اليه من ينيب ﴾ ومعلوم أنه أمر بان تطلب منه وهو لم يأمر بذلك إلا ليعطيها من يطلبها بصدق واخلاص ، وأما من استكبر عنها وأعرض فقد فسد طبعه ، والله سبحانه عدل لا يضع الهداية إلا فى موضعها القابل لها ، فالقلب اذا كان صحيحا حيا كان فيه ميول الى الهداية لأن فطرته تميل الى ما يناسبها فلا بد أن يطلبها من مصدرها ولا بد أن يعطاها ، بخلاف من كان قلبه مملوءا بخليط من الشكوك والشبهات والشهوات والأهواء والأغراض فلا بد أن تكون هذه الامراض مؤثرة فى صحته وحياته فلا يكون فيه قبول فلا يميل بل يعرض فلا ينال شيئا من الهداية الا بقدر طلبه وميوله وحياته . فالله سبحانه أحكم الحاكمين فلا يضع الأشياء إلا فى مواضعها اللائقه بها كما قال

تعالى ﴿ لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ فأخبر تعالى أنه ليس فيهم قبول للخير البتة وأنه لو كان فيهم قبول له لأعطاهم من هذا السمع الطيب الطاهر ما فيه كفاية ، ولكن لو أعطاهم لتولوا ، فان موضع القبول قد فسد كالعود اليابس أو الجسم الفاسد الذى لا يقبل الدواء فلا ينبغى أن يجعل فيه ما ليس قابلا له لأنه وضع للأشياء فى غير مواضعها ، ومن كان طبعه غير مستقيم ولا قابل للحياة الصحيحة ولا المصادر الطيبة فلا بد أن يكون قابلا لضدها لانه لا بد أن يكون هابطا سفليا فلا بد له من قبول لما يناسبه من الأعمال والأخلاق والأقوال والافعال . وسيأتى تتمة لهذا فى مبحث القضاء والقدر ، ولكن يجب هنا أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى كريم جواد رحيم ودود رءوف بالعباد ، فمن صدق معه وأخلص عمله وطلب الهداية صادقا مخلصا له لا بد أن يعطاها فلا يخيب من سأله ، أما من أعرض عنه واستكبر ورأى أن فى نفسه الكفاءة فقد يكله الى نفسه ويوليه ما تولى والله بصير بالعباد

وأما قوله « وطباع الانسان هى التى تعين سلوكه واتجاهه »

فيقال : قد تقدم الكلام على هذا ، وبينا أن تعاليم الانسان تؤثر فى طبعه الذى ينشأ عليه ويتربى عليه ، ولولا ذلك لما كان فى التعليم فائدة ، فالعلم لا بد أن يتبين أثره فى الأعمال التى تثيرها الغرائز والعواطف ، فاذا كان العلم صحيحا كعلم الدين بان أثره فى الهداية والصحة والنتائج الحسنة ، واذا كان بالعكس كان أثره بالعكس ، وهكذا كان الواقع ، فانه لما كان هذا العلم الذى يدعيه ليس هو فى الحقيقة بعلم بل هو الجهل - فانه آراء معكوسه مظلمة خبيثة مبناها على الاطماع والحقد والحسد لا على إقامة الدين والعدل والرحمة والحكمة - كانت نتائجها كذلك نتائج معكوسة خبيثة مظلمة ، فانهم مظلمون ظالمون فى ظلمات بعضها فوق بعض ، والظالمون بعضهم أولياء بعض ، ولهذا لما ذكر الله سبحانه أهل دينه وطاعته وبين ماهم فيه من الأنوار المتصلة بعضها

ببعض ذكر الملاحدة ومن شابههم وبين حالتهم وما هم فيه وأنهم فى ظلمات بعضها فوق بعض كما قال تعالى ﴿ الله نور السموات والارض ، مثل نوره ﴾ اى فى قلب المؤمن كما دل عليه السياق فى ضده من الظلمات ﴿ كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ﴾ لأن فطرته قوية صحيحة فى غاية القبول لمادة النور الذى هو الدين السماوى ﴿ ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ﴾ أى نور فوق نور ، لأنه أبصر فطرته التى خلق الله فيها من الاستعداد التام لقبول مادة الخيرات كلها وهى معرفة الله تعالى وعبادته ، وقد تقدم أن الله سبحانه أفاض على خلقه أثرا من آثار رحمته التى هى من أعظم الأنوار الالهية ، ثم أنزل عليهم هذا النور الخاص العظيم ، فاذا صادف هذا النور ذلك النور الأول وقابله صار نورا على نور ﴿ يهدى الله لنوره من يشاء ﴾ ممن هم أهل للهداية ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم . فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال ﴾ ذكر الله البيوت التى هى المساجد وذكر ذكره ودعاءه وتسبيحه هنا بعد ذكر النور لكونها هى مهابط النور وهى مواضعه التى يقتبس فيها ويستمد منها ، فمن أراد النور فليحافظ على ذلك ، وهذا الخبيث جعل هذه البيوت أدت شر ما يؤدّى كما يأتى تصريحه بذلك . ثم ذكر سبحانه أن أكثر من يستحصل على هذا من هذه صفتهم وهى عدم تقديم أمور دنياهم على دينهم ، ففى هذا بيان أن المنهى عنه هو الغفله والاعراض عن ذكر الله بسبب الدنيا لا تركها مطلقا فقال ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ففى هذا بيان أهل هذا النور وأنهم من هذه صفتهم ، وفى هذا بيان أن من هو بهذه المنزلة فلا يخشى الفقر ولا الذل ، بل يزيده الله من فضله ويسخر له من الأسباب ما لا يعلمه ويهىء

له من أمره رشدا ، فلا بد أن يوفق أهل طاعته الى أسباب قوية ينالون بها العز والمجد والسعادة كما قال تعالى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فالعزة لهؤلاء حكم الهى وسنة لا تبديل لها ولا تحويل ، وذلك بقدر ما مع الانسان من الايمان ، لكن يجب أن يعرف هذا الايمان ويتبع . ثم بين سبحانه وتعالى حال أعمال أعدائه فقال ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ ففى هذا بيان أعمال هؤلاء المجرمين وأن الجاهلين الظمآنين — وما أكثرهم — يحسبون أعمالهم لها حقيقية كما يحسب الظمآن الى الماء أن السراب ماء ، فكل جاهل لا يشك أن السراب ماء ولا يظنه وهما بل يجزم بأنه حقائق لا شك فيها ، وهكذا كان حال هؤلاء المعجبين بهذه الأمور العصرية الالحادية يظنون أنهم على شيء ولكن أكثر هؤلاء لم يجدوا الا السراب فتقطعت أكبادهم عطشا ، واحترقت أفئدتهم تلهفا ، وهذا فى بيان أعمالهم ، ثم بين حال عقولهم وآرائهم فى مقابل حال أوليائه وما معهم من النور والهدى والبصائر فقال ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ وقد شبه هذا الموج المتلاطم بتلك التقلبات الفكرية والهيمان المتدافع فى الشكوك والشبهات ، وأخبر أن هؤلاء فى ظلمات بعضها فوق بعض ، لان الظلمة الاصلية معهم ، فان الفطرة الصحيحة قد فسدت لتتابع الأخلاط الفاسدة والظلمات عليها فطفئت وفسدت فبقيت الظلمة الأصلية ثم جاءتهم الأهواء والشكوك فكانت ظلمة فوق ظلمة ، ثم ان أضيف الى ذلك الالحاد ونحوه تمت الخسارة وجاءت النكبة الكبرى . ثم بين سبحانه أن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، وفيه بيان أنه ليس فى الانسان استعداد ذاتى مستقل بالهداية والوصول الى الخير ، بل ان ذلك موقوف على هبة الله له ذلك ، فيجب طلبه منه ودعاؤه والاستعانة والاستغاثة

به وبدون ذلك لا يكون فيه كفـــاءة مطلقة بل الـكـفاءة الصحيحة القوية المستقيمة بالله تعالى ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾

ودعواه أن الطباع هى التى تعين سلوكه دعوى فاسدة ، فان الطباع غرائز كامنة لا بد لها من محرك يثيرها ، والمحرك فعل لا بد له من فاعل . وأيضا الطباع قد ذكرت أنها الشر والخبث ، والعلم هو الاعتقاد الذى يوجه الانسان ، فاذا كان العـلم مناسبا للشر والخبث كان أعظم دافع الى الشر والخبث ، وان كانت علوما صحيحة قوية لزم أن تكون قاضية على الطباع الخبيثة مانعة لها عن الانطلاق الى ما يلائمهـا ان كانت هى التى تدفع الانسان ، وان كانت ضعيفة عاجزة عن مقاومتها بطل قولك أنهـا علوم صحيحة ناضجة وتعظيمها والثناء عليها ، ولا سيما مع تصريحك بأنهم علموا كل شىء ، فان هذا هو غاية العلم ، ثم دعواك أنها موروثة من عصور الجاهلية يناقض دعواك أنهـا أصيلة غريزية وأنهم يولدون بطبيعة الشر والخبث والظلم وإنما الخير مكتسب اكتسابا

ثم قال « بل هما يعينان على تخفيف وتلطيف ما تجره الاحقـاد والطبـاع الظالمة من شقاء وعذاب »

فيقال أما العلم والعقل اللذان تريدهما فدعواك هـــذه فيهما كذب ظاهر مخالف للواقع ، كيف يخففان ما تجره الاحقاد ونحوها وأنت تقرر أنه يجب أن يكون الدافع هو الحقد والمنافسة والحسد كما تقدم ، فعلومهم هذه مبنية على ما يوافق الاحقاد ، فان أكثرها مؤسس على تنفيذ ما توجبه هذه الاحقاد فيكونان هما اللذان هيجا الأحقاد وفعلا المظالم ، فانهما ليسا بعلم ولا عقـــل صحيحين بل هما جهل وفساد تصور وأوهام لا شك فيها

ثم قال « وكم للعـلم والعقل من وقاية وحمـاية وخدمات فى هـذه الحرب ، ولولا هما لكان الشر أعم وأتم ، فالعلم خير كله ، والجهل لا شىء منه خير »

فيقال : هذا انما يحصل للعلم والعقل الصحيحين ، بخلاف ما تدعو اليه من الجهل وفساد الرأى ، وليست الحماية والوقاية التى ذكرتها ـ ان كانت موجودة ـ

من العلم ، فانك ذكرت سابقا أنه أى العلم ينير الطريق فحسب ، وهنا أضفت اليه فعل هذه الامور ، فما أكثر تناقضك ، وانما هذه الأمور حصلت فى العقل الذى صار فيه بقية من بقايا تعاليم الأديان فيما يختص بالأمور الدنيوية فقط استمسك البشر بها بحكم ضرورة الحاجة اليها فى معاشه واجتماعه ، والا لما كان بينهم وبين البهائم أدنى فرق أى فى أمور المعاش فقط ، ولو أن العقل السليم سلم من هذا الجهل الذى تسميه علما لكانت وقايته أعظم وأجل ، ولكن هذا الجهل أضعفه وأفسد كثيرا من معنويته الصحيحة

وقوله « فالعلم خير كله والجهل لا شىء منه خير »

فيقال أولا : أنت خالفت هذا ، وقد تقدم قولك « ما كل علم محمود ، فرب علم خير منه الجهل » الى آخره . وثانيا : قد ثبت بالدلائل القطعية أن هذا الذى تدعيه علما هو أشنع الجهل وأعظمه ، وأن هذا الذى تدعيه جهلا هو العلم الصحيح الذى لا ريب فيه ، فانك جعلت المكر والخبث والشطرنج ونحو ذلك من أصول العلم ، وجعلت دعاء الله وعبادته والخطب والصلوات وأخلاق الدين كلها جهلا ، وهذا عكس صريح للحقائق كما تقدم

وينبغى أن يعلم أن أولئك الشيوخ العلماء لم يذموا العلم الذى يصح أن يسمى علما وإنما يذمون علوم الالحاد التى من أصولها دعاية هذا الملحد فى أغلاله من الاعتماد على الانسان وانكار القضاء والقدر على الوجه الصحيح وانكار كون الله يغير فى الاسباب ، وما يذكره من الخبائث فى قضية المرأة وغير ذلك ، أما الأمور الصناعية ونحوها فانهم حثوا عليها ورغبوا فيها وكتبهم ومقالاتهم أكبر شاهد على ذلك

ثم قال « ولو كان العلم هو الذى يشب الحروب لما وجدت فى عصور الجهالة مع أنها فى تلك العصور أكثر »

فيقال : كل هذا حجة عليك ، لأن هـذا الجهل كان فى عصور الجاهلية كثيراً جدا ، فان أولئك الذين شبوا الحروب فى عصور الجاهلية انما حمل أكثرهم عليها اعتقادهم أن فيهم الكفاءة الذاتية ولهـذا حاربوا الرسل ولم يلتفتوا الى الدين ، وأيضا كانوا بعيدين عن الأديان التى هى العلوم الصحيحة القاضية بالتآخى والتصادق والتناصح والمودّة ، ولهذا كان هذا القياس مطردا فكلما كانوا أبعد عن الأديان كانوا أشد فوضى وهمجية وأكثر حروبا ، فكان هذا الجهل الذى تدعيه هو الذى يوقع فى المنازعات والاحقاد والأنانية والعدوان المطلق ، وكل هذه هى أسباب الحروب ، على أن دعواك أن عصور الجاهلية أكثر غير مسلم مطلقا ، ولو ثبت هـذا فالحروب الأخيرة أفظع وأشنع وأعظم هلاكا ودمارا

الكلام على المبحث الرابع

وهو قضية تعليم المرأة وسفورها

عنوان هذا المبحث فى أغلاله (أإنسان أم سلعة)

واعلم أن هذا المبحث ليس هو من أهم مقاصد كتابنا هذا ، لأن قضية المرأة فيما يتعلق بتعلمها وسفورها ونحو ذلك قضية طويلة الذيول عريضة المسالك ، لا تزال المعارك فيها بين الكتاب والقراء وغيرهم حامية ، وأكثر الصحف اليومية والشهرية وغيرها لا تخلو من الكلام فيها . وأكثر كلامه هنا خلاصة مقالات أخذها عن غيره ، وقد قوبلت بما هو أصح وأكثر منها ، ولكنه جرى على عادته فى التحريف والتطفيف يذكر ماله وافيا ، ولا يبين ما عليه كما يجب . ثم ان كلامه فى هذه القضية كلام مجمل قد لبس فيه الحق بالباطل ، ولم يقصد الحق والصدق والعدل بل قصد الكذب والتلبس وتشويه سمعة الاسلام على عادته ، لأن الغرض الأكبر من هذه الأغلال هو القضاء التام على أصول الفضائل الدينية وعلى كل المقومات الانسانية وعلى كل عناصر الحياة الدينية والدنيوية ، ولهذا فانه أسهب فى هذا المبحث ، لانه يعلم أن العبث بالنساء وإخراجهن من صيانتهن أصل كبير فى فساد الأمة ، وقد هجم على المرأة فى المبحث وحث حثا متواصلا على إماتتها وقهرها وعسفها واهلاك كل شيء نفيس فيها حتى جعلها أدنى حالة من السلعة التى تباع وتشترى ، بل جعلها كالأتان التى يجب أن تعمل وتبرز وتفعل ما شاءت شهوتها ، فان الأتان هكذا يعمل ويخالط ذكوره إناثه فى كل شيء . وقد مشى على طريقته فى التزوير والكذب والاتيان بالدعاوى غالبا مجملة ملبسة بالحق والباطل ، فافترى على المسلمين بأنهم يحرمون على المرأة العلم ، وهذا من أفجر الدعاوى وأكذبها ، ولا نعلم شعبا ولا أمة موجودة من المسلمين حرمت على نسائها العلم والتعليم النافع ، ولكنه أراد بالعلم علمه الذى يدعو اليه وهو الالحاد وطرق الفساد ،

فان هذا الملحد لما أراد أن يرتد وينقلب ارتد وانقلب فى كل شىء بحيث انك لو عكست أكثر كلامه لكان هذا الاكثر هو الحق ، فانه تصور جميع أصول الحق باطلا وتصور أكثر أصول الباطل حقا فهو كمن يمشى مكبا على وجهه بعد أن كان يمشى سويا على صراط مستقيم . ونحن نتكلم على هذه القضية كلاما مختصرا مفيدا يناسب المقام ويأتى على جميع ما افتراه من القواعد الباطلة .

قال أول البحث :

(أإنسان أم سلعة)

فيقال : ما مرادك بهذا العنوان ، أتريد أنها ليست بسلعة وأن الناس جعلوها سلعة ، أم تريد أمرا آخر . فان أردت الأول فيقال لك : أنت الذى جعلتها سلعة ، فانك أعرضت عن كل ما شرعه لها ربها ورسولها من الحقوق الانسانية التى هى غاية العدل والاحسان ، من العفة والاحصان والصيانة والكرامة والتعليم الصحيح ، وسلكت فيها مسلك السلع المبتذلة فانكرت الزواج صريحا كما يأتى ، وأنكرت تعليم الدين ، وأنكرت إحصانها فى بيتها وخروجها منه لحاجتها ونزهتها المباحة ، وادعيت أنه يجب أن تعلم كل شىء من الموسيقى والرقص بل وكل شىء ، وقد تقدم ادعاؤك أن المكر والخبث داخل فى العلم فتعلم المكر والخبث ، وأن تكون كاحدى البهائم تمرح وتسرح وتجىء وتذهب كالسائمة المهملة كيفما شاءت شهواتها ، وهذا هو شأن بعض السلع البهيمية المبتذلة ، فالاخلاق الانسانية كلها قد جردتها منها تجريدا كاملا فلم تدع الى خصلة انسانية واحدة فى هذا المبحث فى حقوق المرأة البتة ، وانما غايتك أن تزور على المسلمين أنهم فعلوا بالمرأة كيت وكيت كذبا وفجورا غير مستند الى حجة ، ثم تجيب نفسك بنفسك فتدعى لنفسك ثم تشهد لها ثم تحكم لها ، وجميع ما تدعو اليه من تعليمها قد عرفنا مرادك منه ، كما صرحت به كما يأتى من الأخلاق الخبيثة ، أما الأخلاق الدينية وما يتعلق بها فقد علمت أن

المسلمين لا ينكرون ذلك ، وهذه كتب الفقه مملوءة بايجاب تعليم المرأة وتهذيبها وتأديبها ، ولكن كل أخلاق الدين عندك هى الجهل وهى الظلمات والشقاء والعذاب ، ثم انك مطالب ببيان الفرق بين الانسان والسلعة ، ثم اثبات كون المسلمين عاملوا المرأة كمعاملة السلعة ببراهين وأدلة صحيحة ، وأما مجرد الكذب والفجور فكل خبيث وساقط ومنسلخ من الدين لا يعجز عنه ولا يهابه ، بل هو غـــذاء قلبه وروحه

فصل

قال « أما قضية تحريم التعليم على المرأة فهى من أغرب القضايا التى تمر بالتاريخ البشرى »

فيقال : اذا كان تحريم تعليم المرأة من أغرب القضايا فلماذا وقفت فى طريق تعليمها العلم النافع والأخلاق الطيبة وأطلت الجدال والعناد فى الدعاية الى حجابها عن العلم الصحيح والدعوة الى دفعها فى ظلمات الجـــهالة والغى والفضائح المخزية وأنت تعلم بلا ريب أن المسلمين لم يحرموا العلوم الدينية ولا العلوم الدنيوية النافعة كتعليمها أمر دينها من توحيد وصلاة وطهارة ونظافة وغير ذلك وكتعليمها أمور دنياها النافعة كعشرتها مع زوجها وقيامهـــا بأولادها وتربيتهم تربية صحيحة وقيامها فيما يخص بيتها من الأمور الكثيرة المشروعة ، وكذلك تعليمها كل ما تحتاجه حاجة ضرورية أو قد تحتاج اليه من خياطة ونحوها ، فهذا كله لم يحرمه أحد من المسلمين على المرأة ، ولا يمكن بحال من الاحوال أن تثبته عن امام معتبر قوله أو طائفة معدودة من طوائف المسلمين حقا . وهذه الامور كلها لم تعبأ بها وليست هى علما عندك ، وقد أفصحت لنا عن العلم عندك فى البحث الماضى وهو الخبث والمكر وتعليم الموسيقى ودقائق الفلسفة ونحو ذلك من أخلاق الغربيين والملحدين خاصة ، وهذا هو الذى تقصده وتريده من تعليمها ، فاذا كان الامر هو هذا كما ادعيته

فربما قاربت الصدق ، لأن أئمة المسلمين حرموا هذه الامور عليها ولا سيما الشطرنج والموسيقى والرقص والغناء والخلاعة والفجور والدعارة المنكرة والاستهتار الشنيع ، فلا غرابة اذن أن تشنع عليهم فى هذا التقصير وتنسب اليهم كل جهل وضلال ، لان الجهل والضلال عندك هى الاخلاق الدينية وما يتعلق بها

إن كل فرد من أفراد المسلمين يعلم حقيقة العلم أنه لا يوجد رجل ممن يعتد بقوله منع امرأة من تعلم ما ينفعها فى دينها ودنياها ، وهذه عقائد المسلمين يخاطب بها الرجل والمرأة ، وهذه كتب العلم من توحيد وتفسير وفقه وغير ذلك كلها صريحة فى الدلالة على وجوب تعليم المرأة ، وهذه المعارف كذلك ، فكيف يدعى هذا الزائغ أن الناس حرموا على المرأة التعليم ويجاهر بذلك بدون خجل ولا حياء ، والتعليم الدينى أو الدنيوى ليس محصورا فى طريقة واحدة محدودة حدا شرعيا ، بل كل وسيلة أو طريقة يتحصل عليها الانسان فتعينه دينا ودنيا فهى مشروعة ، لكن المفروض منها تعبدا معروف ، والمحرم نصا معروف ، أما ما سوى ذلك فالأصل فى الامور الدينية المحضة الاباحة ، ولا يستثنى من ذلك الا ما استثناه الشارع الحكيم ، هـذا فى المقاصد ، أما الوسائل فهى تابعة لها ، فكل وسيلة يتوصل بها الى واجب أو مشروع فحكمها حكم مقصدها ، وعكسها كذلك حكمها حكم مقصدها ، فطرق التعليم على حسب الأفكار والانظار ، فما حصلت به الفائدة المطلوبة من العلم فهى كافية بحسب الحال والقدرة والحاجة ، وفوق كل ذى علم عليم

واعلم أن هذا الملحد صوّر المرأة فى هذا المبحث فى نظر المسلمين صورة مشوهة منكرة مزورة ، فادعى أنها عندهم كالسلعة تباع وتشترى ، وأنها مدفونة فى بيتها لا حقّ لها فى الخروج مطلقا ، وأن التعليم عليها حرام ، وأن كلامها مع الاجنبى ولو لحاجة حرام ، وأنها مع الرجل كالمملوكة مع المالك يتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب على ما يقتضيه هواه وشهوته وأنانيته وغير ذلك ،

فهى مع الرجل مسلوبة الحقوق من كل ناحية . وهذه الدعوى لو أن أكفر يهودى ادعاها على شعب أو أمة فلا بد أن تعامله معاملة أعدى عدوّ لها

وقال « وقد استطاع الرجل أن يتحكم فيها تحكما عجيبا ، وأن يثقلها بل أن يقتلها بأحكامه الجارفة الطاغية ، فكان له على حسب ما شرع لنفسه وما شرع له واضعو القوانين وهم من الرجال أن يسترقها وأن يجعلها سلعة تباع وتشترى وتوهب وتستوهب ، وأن يستمتع بها كيف أراد بالزنا القهرى أو التراضى عليه بالجعل (١) او الأجر أو بالزواج أو بما يسميه زواجا وبما لا يعد ولا يحصى من الصور التى كلها إرغام » انتهى كلامه بحروفه

فانظر كيف صرح بانكار جميع الصور التى يفعلها الرجل مع المرأة سواء كان ذلك بزواج أو بما يسميه زواجا ولم يستثن من ذلك غير صورة واحدة ، فقد علمت أن هذا الرجل يدعو الى الاباحية المطلقة وذلك أنه لم يجوز للرجل أن يباشر المرأة أو يطأها الا فى صورة واحدة وهو أن يطأها بلا زواج بشرط أن لا يكون لها أجرة فان اختل شرط من هذا فانه غير جائز لديه بل هو ظلم لها ، فلو مثلا وطأها بزواج لم يجز لأنه صرح بذلك كما ترى ، ولو أنه وطئها بأجرة برضاها لم يجز - كما ترى - أووطئها قهرا بالزنا أو غيره لم يجز كما هو صريح كلامه ، فانه أنكر جميع الصور التى تكون بالإرغام ، فلم يبق من الصور التى لا تدخل فى صور الإرغام إلا ثلاث صور : إحداها الزواج وقد صرح تصريحا لا ريب فيه بعدم جوازه ، وفرق بينه وبين ما يسميه الانسان زواجا لان الزواج إما صحيح وإما باطل أو فاسد ، فالزواج الحقيقى أنكره وكذلك أنكر ما يسمى زواجا وليس له حقيقة ، والا لم يكن هنا فرق بين ما يسمى زواجا وزواجا حقيقيا فقد نفى الأمرين كلاهما ، وليس هناك صورة تسمى

---

(١) ذكره للزنا المتراضى عليه بالجعل هنا صريح فى بيان الحالات التى يسوغ فيها وطء المرأة من غيرها بالتفصيل بالرضا والاكراه

زواجا غير الزواج الحقيقى والزواج الذى يسمى بغير حقيقته ، وهو لم يبين كيفية الزواج الصحيح حتى يقال انه يريد زواجا آخر ، ومعلوم أن الزواج الصحيح هو الزواج المطلق فى عرف الناس فانه يطلق على الزواج الصحيح ، واذا قيل هناك زواج وهناك ما يسمى زواجا عرف الناس أن احدهما صحيح والآخر باطل لعدم وجود القسم الثالث ، ولا سيما اذا لم يذكر له صفة ، فلم يبق إلا صورتان من الصور التى ليست بارغام (١) وهما إما الزنا المتراضى عليه بالجعل والأجر ، وهذا قد صرح بانكاره تصريحا ظاهرا ، وإما الزنا المتراضى عليه بدون أجرة وهذا لم ينكره كما ترى . ومعلوم أنه لا ينكر وطء المرأة مطلقا ، واذا كان لا ينكر وطء المرأة مطلقا (٢) وجميع الصور التى يمكن أن توطأ بها المرأة قد صرح بانكارها ما عدا هذه الصورة ، فقد علمنا بلا شك أنه يجيزها ولا يجوّز غيرها ، وهذا صريح كلامه ، ولا يمكنه التملص والتخلص منه إلا بالرجوع والتنازل أو استعمال الحرفة اليهودية التى اعتادها وهى التحريف والمكابرة (٣) ولعل وجه اختياره لهذه الصورة هو أن الوطء على هذه الصورة لا يتأتى إلا من غرام وهيام شديد بالمرأة على هذا الشخص الواطىء ، لانها لا ترضى أن توطأ مجانا إلا اذا كانت بهذه الضرورة الملجئة ، وهذا من رقة تفكيره ودقة شعوره وعطفه الشديد عليها ورحمته بها ومحاماته

---

(١) والحاصل أنه لا يمكن أن يطأ الرجل المرأة إلا فى احدى حالتين إما كرها وهو الارغام وهذا قد أنكره كله ، واما بالرضا وله ثلاث صور اما الزواج واما الزنا بالرضا بالأجر وكلاهما قد أنكره واما بالزنا بدون أجر ، وهذه الصورة سكت عنها ومفهوم كلامه جوازها والا للزم تحريم وطء المرأة مطلقا وهو لا يراه ، فتعين تجويزه بضرورة التقسيم وهو واضح

(٢) ولو انكره فذلك أشنع وأعظم

(٣) المكابرة فى اليهود أمر معروف ، ولهذا قالوا ﴿ ما أنزل الله على بشر من شىء ﴾ مع أن التوراة بين أيديهم

عنها ، ولعل هذا من العلوم المبتكره التى صنعها المتحللون من الأديان كما يقول ، فلهذا يجهلها فى حقائقه الازلية الأبدية . وبهذا وأمثاله من الفضائح يتبين لك أنه عدو للفضائل كلها كما هو عدو للأديان السماوية . وهذا الملحد كما أنه سلك فى كل خلق أشنعه وأفظعه وأخبثه فهو كذلك يريد أن يسلك فى هذا الخلق أبشعه وأخبثه وأفظعه ، وإياك أن تستغرب هذا منه فان فى أغلاله من الفظائع والجرأة على مقام الربوبية والنبوة ما هو اعظم من هذا ، فانه لا يعلم كافر اجترأ على ما اجترأ عليه مع كونه مرتدا منافقا زنديقا متصفا بكل خصلة من خصال الكفر ، وهذا ظاهر لا ينكره إلا بليد جاهل لا يفهم مغزاه ومرماه ، أو ذو هوى قد ضرب الله قلبه بالطبع والختم والاقفال والاغلال

ثم قال « وكان نظره اليها إجمالا وحكمه فيها مثل نظره الى ما يتحصل عليه بالبيع والشراء ، ومثل حكمه فيه ، وكان له أن يفعل كل ما يرضى غرائزه بدون معارضة وبدون قانون يمانع أو يحاكم أو يعاقب ، فكان من بعض أحكامه عليها أن تمنع من النظر وأن يوضع على عينيها حجابان كثيفان يحولان بينها وبين الابصار خيفة أن تنظر الى رجل آخر ، وهذا يغضب غيرة مالكها وسيدها (١) والحجاب الكثيف المتجاوز للحدود الشرعية الموجود اليوم بقية من بقايا ذلك الحجاب وكان أيضا من بعض أحكامه أن يضع رجليها فى القيود طول حياتها أو زمنا طويلا من حياتها وأن يمنعها الخروج مهما كانت الأغراض وأن يحرم عليها الضوء والشمس والسماء وأن لا يباح لها

---

(١) اذا كان مناط المنع هو اغضاب مالكها وسيدها بزعمك فالزنا كذلك يغضبه فصرح باباحته هنا . أما الحجاب فليس المقصود منه منع إبصارها فانها ترى معه ولا يردها عن شىء مباح أصلا . وأيضا فهو منقوض بنساء كثير من البادية فانه لا يعرف عندهن الحجاب ويوجد أيضا من بعض النواحى من لا تحتجب المرأة عن الرجل أصلا ، ومع ذلك فالرجل متفوق عليها فى كل شىء

الـكلام ولا الملـكية أى ملـكية الأموال والعقارات (١) وأن يأبى عليها إبداء الرأى والتعليم وأن يقضى عليها بأنها ليست انسانا وأنهـا ان كانت انسانا فليس لها روح »

والجواب أن يقال كل هذه الأمور التى ذكرهـا هنا كذب ظاهر وفجور لا شك فيه يقصد به تشويه سمعة الاسلام ، غير أن فى مسئلة تغطية الوجـه عن الاجنبى على صورة مخصوصة خلاف بين العلماء يأتى الكلام عليه ، على أن لنا أن نعارض بأن الملاحدة ولا سيما الاشتراكيون فعلوا بها أشنع من هذا فحرموها الملـكية مطلقا وجعلوها من جنس إحـدى البهائم التى يعمل عليهـا وتعطى علفا بمقدار تعبها وبمقدار ما يسد جوعهـا وعراها ، فكلفوها بأنواع الأعمال المرهقة وجعلوها موضعا لقضاء الحاجة فقهروها وعسفوها وأماتوا روحهـا وشرفها وانسانيتها بل جعلوها كاحدى الصور التى يفعل بها مـا شاء المالك بدون قيد ولا شرط ، بخلاف من صانوها واحـترموها وقدروها وأنالوها شدة العطف والراحة والهدوء والطمأنينة التامة ، ومجرد إحصانها فى البيت لا يقضى بكونها كالسلعة فان السلع لا تختص بالاحراز فى البيوت بل أكثر السلع تعرض فى الأسواق والمجامع وفى كل مكان ، بل السلع التى تحرز أنفس من السلع التى تعرض فى كل محل ، وليس بمجرد المعاوضة يوجب التشبيه بالسلع ، فأكثر العمال على اختلاف اعمالهم الـكثيره المتنوعة يعملون بالأجرة بعقود معلومة الشروط ، وقد بينا أنه لم يجعل للسلعة حـدا معروفا يثبت به دخول المرأة فيه حتى يصح له ادعاء السلعة ، فما ذكره كلام ساقط لا محل له البتة

ثم انه عاد الى سجيته فى الخداع فقال (٢) :

---

(١) انظر الى هذا الفجور المنكر فى هذه المسائل الواضحة عند أدنى عامى

(٢) أى لمـا علم أنه قد اسرف فى الـكذب والفجور فاحتاج الى الخـداع ، وهكذا دأبه

« وقد جاهد الاسلام جهاداً عظيما فى سبيل المرأة لانقاذها من هـــذه المظالم والنجاة بها من هذا الجبروت الممقوت ، ففرض لهـا حقوقا عظيمة ، ورفع عنها آصارا وأغلالا ، وعمل أعمالا جليلة لاعطائها النور والحيـــاة الصحيحة ، وفك عنها تلك القيود وسجل حقوقها الواجبة المشروعة تتلى فى الصلوات وفى كل مكان وأمر بتعليمها وتعلمها ، ووجه اليهـا الخطاب والأمر والنهى كما وجه الى الرجل سواء ، ورفع عنها كل إكراه وقهر فى كل صلاتهـا فرفع عنها إكراه الأب والأخ والاقارب كما رفع اكــراه الزوج وأقارب الزوج ، وقد فرض لها الميراث كما فرض للرجل ، وأكثر من وصاياه بها ولها ، وقد صنع لها وفى سبيلها كل شيء جميل طيب ، وكـان من النصوص القاضية الفاصلة فى هذه القضية قوله تعالى ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾ وليس هناك إنصاف وإنقاذ يخطر فى التصور أفضل وأكبر من هـــذا الانصاف والانقاذ اللذين أنزلهما الله فى كتابه المقدس تخليدا لحقوق المرأة ووضعا لهـا فى موضعها الطبيعى »

فيقال : لـكنك أبيت أن تقبل هذا الانصاف ، عارضت ذلك الجهاد الذى جاهده الاسلام فى سبيلها فلم تطب نفسك بكل حقوقهـا الشرعية بل رأيتهـا جوراً وظلما وحيفا كبيرا ، فجميع الحقوق التى فرضها الله لها وعليها لم تقبل منه حقا واحدا بل ضربت به عرض الحـائط ، وذلك أن الله فرض عليهـا الواجبات الدينية قبـل كل شيء كما فرض عليهـا دعاءه وطلبه والاستعانة به ، فأعرضتَ عن ذلك وادعيت أن الدعاء مصرف خبيث لا فائدة فيه ، واجتهدت فى الدعاية الى رفض الدين ، فاى حق دينى واحد ذكرته لها فى هذا المبحث كله بل فى الـكتاب كله ، وقال تعالى فى حقها ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾ فأخذت نصف هذه الجمـلة وضربت بنصفها عرض الحائط لانها لم توافق هواك ، ومعلوم أن هذا الانصاف لم تقبله بل جعلته جورا وظلما لانك رفضته ، ولو أن رجـلا قال ﴿ فويل للمصلين ﴾ واستدل

بذلك على انكار الصلاة وترك قوله تعالى ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ لكان محرّفا للآية لم يقبل ما قاله الله ، فكذلك من استدل بقوله تعالى ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾ وترك ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ فأخبر تعالى أن للرجال عليهن درجة وأنت ساويتها به فزدت عليه بان تعليم المرأة أوجب من تعليم الرجل وادعيت أنها مثله فى كل شيء وقال تعالى ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ وأنت جعلتها مثله فى الحقوق صريحا فأين القبول وأين الانصاف ، وفرض الله لها نصف ميراث الرجل وأنت جعلتها مثله بل هى أحق منه ، وفرض على زوجها وأقاربها تأديبها فقال تعالى ﴿ فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ﴾ وقلت انه رفع الاكراه ولم تفصل ، وأمر أباها وأخاها وغيرهما من الأقارب بتأديبها والاخذ على يدها اذا ما أرادت أن تعمل ما يخل بدينها وشرفها فعاندت ذلك فذكرت أنه مرفوع عنها الاكراه ولم تفصل ، وفرض عليها الزواج وأنت أنكرته صريحا ، فجميع ما سجل الله لها من الحقوق الانسانية عمدت اليه فأفسدته وشوهته ، وجميع ما صنع فى سبيلها من الأشياء الجميلة كالفقه والصيانة والاكرام والاحترام حاولت تغييره وتبديله بالأمور القبيحة المنكرة ، فدعوتها الى المخالطة وهتك عرضها وجعلها كموضع الحاجة للرجال ، فما هى الخصلة الحسنة الدينية التى تنفع المرأة وافقت عليها ودعوت اليها ، فكل ما سجله الله من حقوق المرأة نبذته وقبلت ما سجله الملاحدة فى قوانينهم أعظم القبول وبالاستسلام الكامل وقدمته على كل شيء ، فدعنا من المخادعة

فصل

قال « لو ان قائلا قال ان تعليم المرأة أوجب وأفضل من تعليم الرجل من أجل ما ذكر ومن أجل ما سواه لما كان قوله باطلا ولما كان قائلا غير الحق ، ولو أن قائلا ان الأمة التى لا تتعلم نساؤها لا أمل فى نهوضها ووثوبها ، أو

قال إن الأمة التى لا تتعلم نساؤها لا رجاء فى أن يتعلم رجالهـا تعلما صحيحا مجديا ، أو قال ان الأمة التى يتعلم نساؤهـا - ونقصد بلا شك التعليم الصحيح المثمر - فلا محالة أن تدفع رجالها الى التعليم ، وأن تعد شعبا متعلما ، أو قال ان من أظهر الأسباب فى انحطاط المسلمين وتأخرهم عن الآخرين وعجزهم فى كل الميادين جهل المرأة ، أو قال إن الأمـة التى يتعلم نساؤها دون رجالهـا لأفضل من الأمة التى يتعلم رجالها دون نسائها ، أو قال علموا المرأة ثم املأوا أنفسكم بالثقة والأمل ولا تخشوا بعد تعليمها شيئا - لو أن قائلا قال هـذا كله أو قال بعضه لما قال له العاقلون أخطأت »

فيقال : ما شاء الله يا فيلسوف الزمان ، من أين تعلمت هـذه الفلسفة الدقيقة والسياسة العظيمة ، لقد كان الناس يؤلفون المجلدات الضخمة فى بيان السياسة وعوامل الرقى والتقدم والمجد ، وأنت اختصرت ذلك كله فقربت كل هذا البعيد وجمعت أطرافه كلها حتى أظهرت مخها وخالصها وروحهـا فى عشرة أسطر ونصف سطر ثم اختصرت هـذه الكلمات فى سطر واحـد هو روح السياسة كلها وهو قولك « علموا المرأة ثم املأوا أنفسكم بالثقه والامل ولا تخشوا بعد تعليمها شيئا » فأى فيلسوف فى الدنيا أو سياسى فى هذا الزمان قدر على مثل هذا الذى قدرت عليه ، ولعل هذا من آيات أغلالك ومعجزاته

(يالدر الذى فى لجج البحر) لو أن قائلا قال هـذا كله لما قال له العاقلون أخطأت ، نعم لا يقولون له أخطأت لأن أمره فوق الخطـأ ، لأنه شبيه بالهذيان والثرثرة الفارغة التى يستحى من أن يقولها من له عقل وحياء ، وكيف يقول العاقلون لقائل هذا أخطأت ، بل أقل ما يرد على قائله أن يبصق فى وجهه ، ولو أنك جعلت أقصى ما لديك فى هذه المسئلة معارضة بعض الكتاب الذين عاكسوك فى هذا الرأى لكان أولى بك ، فقد قابلك كثيرون من الكتاب وغيرهم بما يضاد رأيك هذا الذى ذكرته فى هذا المبحث كله ، وبينوا أن تعليمها التعليم الذى تريده هو أصل الفساد والشر كله ، وأنه ما من أمة

تعلمت نساؤهم هذه الجهالات التى تدعو اليها إلا كانت عاقبتها الفشل والتقهقر . ونحن ننقل جملة واحدة للدكتور زكى مبارك و نتحداك تحديا لا هوادة فيه أن تنقضها ان كنت صادقا ، قال فى مقالة له [١] « وانك كلما فتشت مشاكل الناس ومصائبهم وجدت امرأة خلف كل مشكلة ومصيبة ، فالجرائم ترتكب بسبب المرأة ، والبيوت تهدم والابناء تشرد بسبب المرأة ، بل ان العروش تسقط والأمم تنهار بسبب المرأة ، وإلا فمن كان يصدق أن فرنسا مهد الحرية وعنوان الحضارة تسقط بعد سبعة عشر يوما من الهجوم عليها فى خلال الحرب الأخيرة ، ولكن فرنسا كانت قد سقطت خلقيا قبل أن تسقط حربيا ، ولا عجب ونساؤها كن مضرب الأمثال فى الخلاعة والمجون والفجور . . . » [٢] وكلام الكتاب فى هذا كثير جدا ، وهذا الأرعن الأنوك أذل وأصغر وأحقر من أن يبارى هؤلاء فى هذه الميادين أو غيرها أو ينقض كلامهم ، انما شجاعته كلها محصورة فى الأخلاق اليهودية وهى البهت والتحريف وسب الاسلام وأمثال ذلك . وينبغى ملاحظة قوله هنا فى المرأة وتصريحه بأن سبب تأخر المسلمين فى كل الميادين عدم تعليم المرأة وأننا اذا علمناها فلا نخشى شيئا ، وقد ذكر فى المبحث الماضى أن تأخرنا ليس سببه الا شىء واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فانظر الى هذا التناقض والتلون الحربائى ، كما أنه ينبغى أن يلاحظ أنه ذكر فى المبحث الأول أن هناك أناسا يعللون تأخرنا بسفور المرأة ثم رد ذلك وشنع عليهم أعظم التشنيع ، فكيف يشنع عليهم حين عللوا ذلك بسفور المرأة وفسادها ويستصغره وهو هنا علق فلاح

(١) مسامرات الجيب العدد ٨٥ : ١٩٤٧

(٢) قد تبين من هذا الملحد ان شناعاته فى كتبه السابقة على زكى مبارك ليست دينا بل لأغراض نفسية ، فانه فى أغلاله هذه باح بجميع ما يكنه من الالحاد وعداوة الأديان

الأمة ونجاحها بل والوصول الى كل شيء بتعليم المرأة فقط ، وقد عرفناك عن تعليم المرأة ما هو ، إنه يريد بذلك إفسادها وقتلها بالخبث كله ، لانه يعلم انه اذا فتح هذا الباب المشئوم حصل الفساد العام والفوضى والسقوط المعنوى ، وهذا هو الغرض الذى وضعت له هذه الأغلال . ولو ان هذا الملحد اقتصر فى هذه المسئلة على نشر المقالات فى المجلات والجرائد ونحوها كما فعل بعض من يرى ذلك مع أن كل من تكلم فى هذه القضية ممن يرى السفور لم يتجاسر أن يصل الى ما وصل اليه هذا من الخبث والجنون والاسفاف المنكر ، ولكن حمله اعجابه بنفسه وحرصه على رفض الدين على ادخال هذه المسئلة فى هذه الاغلال لتكون حلقة منها ولتكون كاملة فى الخبائث ، ولأنه لما انهار خلقه الدينى انهارت أخلاقه فى كل فضيلة فاستحالت أخلاقه الى أخلاق فى غاية الخبث والنتن والقذارة والدناءة المتناهية ، لهذا سولت له نفسه المنحطة أن يحرض قومه على أن يهتكوا أعراضهم فيبرزوا نساءهم ويعلموهن طرائق الفجور والفسوق مؤملا أن يأخذ هو وأخدانه نصيبهم من كل خبث وفساد معهن ، فان ما عمله هنا فانه من موجبات مكره وخبثه ، ولا يحيق المكر السيء الا باهله

ثم ذكر أن اكثر اصابات الأطفال سببه جهل الأمهات وعدم التعليم ، وهذا غير مسلم ، وليس فيه ما يتعلق به ، ولو فرض على وجه الجدل وقوع بعض شيء منه فاننا فى الواقع نوجب تعلم المرأة وتربية اولادها ونحث على ذلك كما تقدم فلا حجة له فى ذلك

ثم ذكر أحاديث تتضمن أن المرأة كانت تكلم الرجال فى زمنه عليه الصلاة والسلام وأنها تخاطبهم أحيانا كالمرأة التى عرضت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم وذكر قصة ابنتى شعيب عليه الصلاة والسلام اللتين سقى لهما موسى عليه الصلاة والسلام وذكر قوله تعالى ﴿ يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ﴾ الآية وكل هذا الذى استدل به لا حجة له فيه

بل هو حجة قاطعة ظهره ، لان تخصيص هذه المخاطبات وهـذه الوقائع دليل على أن المرأة لا تكلم الرجال إلا فى مواضع مخصوصة للحاجة فقط ، وهذا هو قولنا كما تقدم شرحه ، فمن أين له أنها كانت كالرجـل فى ذلك الزمان تحضر المجالس كما يحضرها الرجال وتمـــتزج معهم وتكلمهم ويكلمونها فى كل حال ، وليس فى هذه الدلائل المذكورة ما يفيد هذا بل تفيد ما ذكرناه كما هو واضح ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يجعلهن صفوفا وحـدهن فى الصلاة ولم يكنّ يصلين بين الرجال فى صف واحد لا فى صلاة عيد ولا جمعة ولا غيرها ، ولم يكنّ يحضرن المجامع التى ليس فيها ذكر الله والشريعة وهكذا كانت جميــــع الوقائع التى كانت المرأة تجتمع مع الاجانب وتكلمهم فيها فانها تجىء وتتكلم بقدر الحاجة الماسة ، ثم ان الآية التى فى الممتحنة دليل على أن المرأة كانت تعلم هذه الاخـــلاق العالية وتبايع على ذلك وهى ترك الشرك والسرقة والزنا وقتـل الأولاد واتيان البهتان بالافتراء ومعصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذه الآية جامعة لآداب المرأة وهى لا تتفق مع تعاليمه التى يدعو اليها بل تضادهــا غاية المضادة ، فان تعليم الموسيقى والشطرنج والمكر والخبث والرقص والغناء ودقائق الفلسفة ونحو ذلك لا يتفق مع هذه الأخـلاق ، بل هذه التعاليم تثير الزنا والسرقة وترك التوحيد واقتراف البهت والافتراء ، ولا نجـــاة لها الا باجتناب هذه الأخلاق الفاسدة والاقتصار على تعاليم الدين وما يلتحق بذلك من تربية الأولاد وعشرة الزوج وأمثال ذلك . ولهـذا فانه لم تستطع أنامله نقل الآية كلها لأنها تهدم بناءه . بل نقل قوله تعالى ﴿ يا أيهـا النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك ... ﴾ فاقتصر على هذا ، وهذا من دقة إلحاده وحرصه على كـــتم الحق

فصل

قال « ولقد جهلت وهانت تلك الامـــة التى تحتاج إزاء الحقائق السافرة

الملموسة الى براهين دينية تقنعها بفائدتها أو بجوازها وجواز الأخذ بها ، واذا ما رأيت أمة تثير غبار الجدل الدينى أمام ما يجدّ من مبتكرات العقل الانسانى مجوزة أو مانعة محللة أو محرمة فاعلم أنها أمة فاشلة مريضة بعقلها وتفكيرها ودينها »

والجواب أن يقال : لقد علمت أن النزاع بيننا وبينك فى تقرير ما ادعيته حقائق سافرة ملموسة ، فان كانت هذه الحقائق السافرة التى ادعيتها مجمعا عليها معروفة بالضرورة أنها حقائق سافرة فهذا لا ننازعك فيه ولم ينازع فيه أحد من أهل الدين ، لان البراهين الدينية شاهدة لها غير مخالفة ، والمسلمون مقتنعون بها ، فلم يطالبك أحد باقامة البراهين عليها لا أنت ولا غيرك ، أما ان كانت هذه الحقائق التى ادعيت أنها سافرة ملموسة غير ظاهرة لغيرك ولا سافرة ، ومنازعك يطلب منك البراهين على تحقيق ما ادعيته فيها من الظهور ، فدعواك أن مطالبته هذه جهل وهوان هى الجهل والهوان ، بل والضلال والكفران ، فان الناس لا يجب عليهم أن يتبعوا كل من ادعى بدعوى فى شيء لأن هذا الشيء من الحقائق السافرة الملموسة ، فلو ساغت هذه الدعوى لادعى كل انسان بأن ما ادعاه فيما يقصده فى كل شيء من الحقائق السافرة الملموسة واكتفى بهذه الدعوى وقبلت منه ، قال الامام مالك « أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاءنا به جبريل الى محمد ﷺ لجدل هؤلاء » وحينئذ يقال لك هذه الدعاوى التى تدعى أنها من الحقائق السافرة الملموسه لا نوافقك على صحتها ، فها أنت بنفسك معترف بأن لك فيها مخالفين وهم الاكثرون ، ومعلوم أن قولك ليس بأولى بالقبول من قول مخالفك ، فتكون المسئلة محتاجة الى اقامة البراهين عليها لثبوت الخلاف فيها ، ولأنها لم يصدق عليها أن تكون من الحقائق السافرة الملموسة فلا بد من إقامة الحجة عليها ، ولولا اقامة البراهين على كل ما تدعيه مما لك فيه منازع لم يتبعك على قولك أحد الا أن تريد أن الناس يصدقونك ويتبعونك فى كل ما تدعيه ، وأن كل

ما تقوله فهو من الحقائق السافره والملموسة وأن تكون المقـدم فى كل أمر كما تقول وتدّعى ، والا فمعلوم عند الناس كلهم أن كل مدع بدعوى هى محل نزاع وخلاف لا يجوز له أن يقول لخصمه ان هذا الذى قلته حقائق سافرة ملموسة يجب على الناس قبولها وأن طلب البراهين عليها جهل وهوان وفشل ومرض فى العقل والتفكير . فتبين ان ما قاله هنا كلام ساقط لا يقوله من يدرى مـا يقول ولا يقبله إلا كل مخذول

ودعواك بعد هذا « أن الجمود شأن من شئون الجماهير الجاهلة » ، فيقال لك : اذا صحت هذه الدعوى فانت أول الناس دخولا فيها ، فان كان الجمود هو الأخـذ بالقول حرفيا بدون مخالفة فلا شك على هـذا أنك جمدت أعظم الجمود ، فانك جمدت على قول بعض ملاحدة الطبائعيين وبعض أهل الهيئة فى أقوالهم فى خلق العالم وفى توالد الشموس والأقمار والنجوم وحدوث الأرض والجبال والنبات والحيوان مع أنهم مختلفون فى ذلك مضطربون فيه ، فأخذت بقول بعضهم وصدقت به حرفيا واعتقدته واحتججت به مع أنك لست من أهل المعرفة بهـذه الفنون العارفين بها ، فـكان تقليدك وجمودك تقليدا أعمى وجمودا لا حـدّ له ، ثم انك مع شدة هـذا الجمود تماع فى مخالفـة النصوص والتملص من دلالتها الواضحة وتصرفها على هواك ، وأما خصومك الذين ترميهم بالجمود فانهم ان كانوا جامدين فهم انما تمسكوا بما قاله ربهم تعالى وتقدس ونبيهم ﷺ امتثالا لأمره ، وتسميتك لهذا جمودا لا يضرهم شيئا قال تعـالى ﴿ اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء قليلا ما تذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وقال تعـالى ﴿ واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقـين يصدون عنك صدودا ﴾ الى قوله ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا ممـا قضيت ويسلموا تسليما ﴾ والآيات فى هـذا أكثر من أن تحصى ، بل هـذا هو المقصود من الرسالة فاين تمسك هـؤلاء

ـ ان كان هذا التمسك يسمى عندك جمودا ـ من جمودك وتقليدك الملاحـــدة الضالين الظالمين ومن حذا حذوهم ممن ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

فصل

واعـــلم أنه أطال فى مسئلة تعليم المرأة ، وقد علمت ما هو التعليم فى اصطلاحه ، وهجم على المسلمين فى تقصيرهم فى تعليمها ، بل ادعى أنهم يحرمون عليها العلم وقد تقدم الجواب عن هذا كله ، وأما مسئلة السفور فيراد به أمران : أحدهما عدم تغطية وجه المرأة عن الأجنبى عند مواجهته للحاجة بدون خلوة وهذا فيه خلاف والجمهور على المنع منه ، والثانى اختلاط الرجال بالنساء وأن المرأة يجب أن تكون كالرجل فى كل شيء فى الخلوة معه والذهاب معه الى كل مكان ومشاركته فى كل عمل بدون أى فرق ، والزوج كالاجنبى فى ذلك ، وهذا هو الذى يريده ويسعى فى نصره وتأييده ، وهذا محرم وممنوع عند جميـــع المسلمين ، ويعرف منعه بالبراهين الصحيحة الواضحه من تأمـل سيرة الصحابة والقرون المفضلة وأقوال أئمة الاسلام فى الـكتب المعتمدة وهى كثيرة شهيرة لا حاجة الى نقلها كلها لأنها معلومة فى مظانها ، وهو لم يبين بالتفصيل الواضح الطرق التى تعلمها المرأة بدون تلبيس بل اطلق العلم هنا اطلاقا فقط ، وقد بين مراده بالعـلم فى المبحث السابق ، وحيث انه لم يبين بالتفصيل الواضح بل جاء بالدعوى بجملة مغمغمة فليس لنا حاجة أن نطيل التفصيل بل نجيبه بما يناسب كلامه من الرد الصحيح المختصر ، ولـكن نحن هنـا ننقل شيئا من كلام بعض الـكتاب المشاهير المعاصرين فى هذه المسئلة ، لان جميع ما قاله ونقله هو من بعض كتاب هذا العصر الذى شغفوا بعلوم الغربيين وسحروا بها ، ولـكنهم لم يصلوا الى ما وصل اليه فى العداوة الظاهرة للاسلام ولم ينافقوا هـذا النفاق المرذول . لهذا استحسنا أن نقابل نقوله الفاسدة بنقول أصح منهـا ، وقد

اقتصرنا على نقلين للكاتبين الشهيرين أحدهما عباس محمود العقاد والثانى مصطفى المنفلوطى . قال العقاد :

المرأة [١]

﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة . . الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . . للذكر مثل حظ الانثيين . . انه من كيدكن إن كيدكن عظيم . . وإلا تصرف عنى كيدهن أصبُ اليهن وأكنْ من الجاهلين ﴾

ميزان العدل الصحيح هو التسوية بين حقوق المرء وواجباته ، فليس من العدل أن تسوى بين اثنين مختلفين فى الحقوق والواجبات ، ذلك هو الظلم بعينه ، بل هو شر من الظلم أيًّا كانت العاقبة التى يؤدى اليها ، لانه هو وضع الشىء فى غير موضعه ، وهو الخطل والاختلال

والتسوية بين الحقوق والواجبات هو العدل الذى فرضته الفلسفة القرآنية للمرأة ، وهو وضع المرأة فى موضعها الصحيح من الطبيعة ومن المجتمع ومن الحياة الفردية ، فمن اللجاجة الفارغة أن يقال إن الرجل والمرأة سواء فى جميع الحقوق وجميع الواجبات لان الطبيعة لا تنشىء جنسين مختلفين لتكون لهما صفات الجنس الواحد ومؤهلاته وأعماله وغايات حياته ، وفى حكم التاريخ الطويل ما يغنى عن الاحتكام الى التقديرات والفروض فيما تتوخاه الطبيعة من الاختلاف بين الذكر والانثى فى نوع الانسان : فلم يكن جنس النساء سواء لجنس الرجال قط فى تاريخ أمة من الأمم التى عاشت فوق هذه الكرة الارضية على اختلاف البيئات والحضارات . وكل ما يقال فى تعليل ذلك يرجع الى علة واحدة وهى تفوّق الرجل على المرأة فى القدرة والتأثير على العموم ، فليست

(١) ص ٤٥ الفلسفة القرآنية ، وقد استعمل لفظ الفلسفة بدل الحكمة فى أكثر المواضع من كتابه

جهالة القرون الأولى سببا صالحا لتعليل هـــذه الفوارق العقلية بين الرجال والنساء فى جميع الأمم لان الجهـل كان حظا مشتركا بين الجنسين ولم يكن مفروضا على النساء وحدهن دون الرجال ، ومن زعم أن الرجل فرض الجهل على المرأة فقبلته وأذعنت له فقد قال انه أقدر من المرأة وانه أحوج الى العلم وأحرص عليه منها . وليس الاستبداد فى القرون الأولى سببا صالحـا لتعليل تلك الفوارق لأن استبداد الحـكومات كان يصيب الرجل فى الحياة العامة قبل أن يصيب المرأة فى حياتها العامة أو حياتها البيتية ، ولم يمنع الاستبداد طائفة من العبيد المسخرين أن ينبغ فيهم العامـل الصناع والشاعر اللبـق والواعظ الحـكيم والأديب الطريف

وليس عجز المرأة عن مجاراة الرجل فى الاعمال العامة ناشئا عن قلة المزاولة لتلك الاعمال لانها زاولت أعمـال البيت ألوف السنين ولا زال الرجل يبزهـا فى هذه الاعمال كلما اشتغل بصناعتها فهو أقدر منهـــا فى الطهو وفى تفصيل الثياب وفنون التجميل وتركيب الأثاث وكل ما يشتركان فيه من أعمـــال البيوت . وقد يرجع الأمر الى الخصائص النفسية فيحتفظ الرجل فيها بتفوقه على الرغم من استعداد المرأة بتلك الخصائص من أقدم عصور التـــاريخ ، فالنواح على الموتى عادة تفرغت لها المرأة منذ عرف الناس الحـداد عـــلى الاموات ، ولـكن الآداب النسوية لم تخرج لنـا يوما قصيدة من قصائد الرثاء تضارع ما نظمه الشعراء الرجال سواء منهم الاميون أو المتعلمون ، وقد كان أكثر الشعراء فى العهود القديمة من الاميين . بل هناك خاصة نفسية لا تتوقف على العلم ولا عـلى الحرية ولا نوع العمل أو الوظيفة فى المجتمعات أو البيوت وهى خاصة الفكاهة وخلق الصور الهزلية والنكات التى يلجأ اليهـا الناس حـين يحال بينهم وبين التعبير الصريح ، وربما كـان الاستبداد والضغط الاجتماعى من دواعى تنشيط هذا السلاح النفسى فى قرائح المستعبدين والمغلوبين ، لانه السلاح الذى ينتقم به المغـلوب لضعفه والمنفذ الذى يفرج به عن ضيقه

وخوفه ، وقد كان ضغط الرجال على النساء خليقا أن يغريهن باستخدام هذا السلاح لتعويض القوة المفقودة والانتقام للحرية المسلوبة ، ولكن الآداب فى النوادر لم تسجل لنا فكاهة واحدة أطلقها النساء على الرجال كما فعل الرجال المغلوبون فى الأمم الحاكمة أو المحكومة على السواء ، أو كما فعلوا فى تصوير رياء المرأة واحتيالها على إخفاء رغباتها وتزويق علاقاتها بالرجال . وهذه الملكة - ملكة الفكاهة - خاصة نفسية لم يقتلعها من طبائع الرجال ظلم ولا جهل ولا فاقة ولا عجز عن العمل فى ميدان الحياة . فمن اللجاجة أن يتجاهل المتجاهلون هذه الفوارق وهى أثبت من كل ما يثبته العلم والعلماء ، وما كان للعلم أن يوجد شيئا لم يكن له وجود فى الوقائع وفى تفكير العقول ، وانما هو أبدا فى مقام التسجيل أو مقام التفسير ، وقد أقام القرآن الفارق بين الجنسين على الأساسين اللذين يقيمانه ويقيمان كل فارق عادل من نوعه وهما أساس الاستعداد الطبيعى وأساس التكاليف الاجتماعية ﴿ الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ فحق القوامة مستمد من التفوق الطبيعى فى استعداد الرجل ومستمد كذلك من نهوض الرجل بأعباء المجتمع وتكاليف الحياة البيتية : فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة ولو كانت مثله فى القدرة العقلية والجسدية ، لانها تنصرف عن هذا الكفاح قسرا فى فترة الحمل والرضاعة . وهو الكفيل بتدبير معاشها وتوفير الوقت لها فى المنزل لتربية الأبناء وتيسير أسباب الراحة والطمأنينة البيتية ، وكلاهما فارق ضرورى تقضى به وظائف الجنسين ويقضى به توزيع العمل فى البيئة الانسانية كلما تقدم الانسان واتسعت فى نفسه وفى مجتمعه عوامل العطف وملكات العقل وخصائص المزاج ، ويقضى به اختلاف الحقوق والواجبات ، ذلك اختلاف لم يخلق لالغاء الفوارق بل للاعتراف بها وتوجيهها الى وجهتها المعقولة . ولا نحسب أن المجتمع الانسانى يفرغ من مشكلاته المعقدة فى سياسة الامة وسياسة البيت وسياسة الحياة الفردية حتى يثوب الى

هـذا التقسيم الطبيعى الذى لا محيص عنه فيعمل الرجال عمـل الرجال ويعمل النساء عمل النساء ، وتقام دولة المرأة فى البيت ودولة الرجل فى معترك الحياة فالمجتمع الذى يتزاحم فيه النساء والرجال على عمل واحد فى المصانع والأسواق لن يكون مجتمعا صالحـا مستقيما عـلى سواء الفطرة مستجمعا لأسباب الرضى والاستقرار بين بنيه وبناته لأنه مجتمع يبذر جهوده تبـذير السرف والخطل على غـير طائل ، ويختل فيه نظام المعمل والسوق كما يختل فيه نظـام الأسرة والبيت ، فالمرأة لم تزود بالعطف والحنان والرفق بالطفولة والقدرة على فهمها وافهامها والسهر على رعايتها فى أطوارهـا الأولى لتهجر البيت وتلقى بنفسها فى غمار الاسواق والدكاكين . وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأنا ولا بأخطر عاقبة من سياسة البيت لانهما عدلان متقابلان : عالم العراك والجهاد يقابله عالم السكينة والاطمئنان ، وتدبير الجيل الحاضر يقابله تدبير الجيل المقبل ، وكلاهما فى اللزوم وجلالة الخطر سواء . وانما الآفة كلها من حب المحاكاة بغير نظر الى معنى المحاكاة ، فان المرأة يخيل اليها أنها لا ترفع الضعة عن نفسها إلا اذا عملت عمل الرجال وطالبت بحقوق الرجال وقيل إن النساء والرجال سواء فى جميع الاعمـــال والاحوال ، ولولا مركب النقص لكان للمرأة فخر بمملكة البيت وتنشئة المستقبل فيه لا يقل عن فخر الرجال بسياسة الحاضر وحسن القيام على مشكلات المجتمع التى تحتاج الى الجهد والـكفاح ، وهى لو رجعت الى سليقتها لأحست ان زهوها بالامومة أعـــلى لديها وألصق بطبعها من الزهو بولاية الحـكم ورآسه الديوان ، فليس فى العواطف الانسانية شعور يمـلأ فراغ قلب المرأة كما يمـلأه الشعور بالتوفيق فى الزواج والتوفيق فى انماء البنين الصالحـين والبنات الصالحات . وقد لوحظ هـذا الاعتبار فى تقسيم الميراث بين الذكور والاناث فأعطى الرجل مثـل حظ الانثيين وبنيت هذه القسمة قبـل كل شىء عـلى اعتبار واحـد وهو أن الرجـل يتكفل بمعيشة المرأة وهى مشغولة بأمر البيت ورعاية الأسرة وأنه هو الذى يجمع الثروة ويكدح فى طلب المال ، فمن

العدل أن يعطى منه نصيبين : على قدر سعيه فى تحصيله ، وعلى قدر حاجاته التى تشتمل على حاجات النساء ومن يعولهم من الزوجات والابناء . ووصف القرآن المرأة بالكيد العظيم ، وهو وصف لا يناقض رجحان الرجال عليها فى العقل والتدبير ، لان سلاحها فى هذا الكيد من أسلحة الطبيعة التى تستميل بها الرجل اليها وتغرس فى نفسه حب الاجابة لغوايتها ، ولم تزل الحيلة عوضا عن القدرة ودليلا على نقصها فى ناحية من نواحيها ، ومن المشاهدات المحسوسة أن المرأة تصر على طلبتها وتلح فى إصرارها ، لأنها تعجز عن صرف الفكرة من رأسها اذا خطرت لها وهجست فى ضميرها ، فهى تطرد الفكرة من هنا فتعاودها من هناك ، وهى تعالج الخلاص منها فلا تفلح فى علاجها ولا تزال فريسة لهواجسها فى يقظتها ومنامها حتى تستريح منها بالانجاز والتنفيذ ، فهى تثابر على الطلب لأنها عاجزة عن الخلاص من الحاجة والتغلب على معاودته ومراجعاته ، وهى تستمد القوة من هذا الضعف الذى يتعقبها فلا يرحمها ولا يريحها فتبدو كالمطاردة وهى طريدة وتتراءى كالغالبة وهى مغلوبة ، فتجمع بين الضعف العظيم وتعتمد على غواية الطبيعة فى نجاح كيدها حين يخذلها الضعف ويسلمها للنزوة الملحة والوسواس المقيم ، على أن هذه التفرقه بين الجنسين لا تتعدى تكاليف المعيشة وعلاقات المجتمع الى تكاليف العقيدة وفضائل الاخلاق ومطالب الروح ، لأن المرأة تخاطب فى القرآن الكريم كما يخاطب الرجل فى هذه الأمور ، وتندب لكل ما يندب له من الفرائض والأخلاق التى تجمل بذوى الخير والصلاح ، ومن أمثلة ذلك هذه الآية الكريمة من سورة الأحزاب ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما ﴾ ولهذا كانت المرأة تشهد الصلاة الجامعة فى المساجد

وتؤدى فريضة الحج سافرة غير مقنعة وتبايع النبي عليه السلام كما بايعه الرجال اما الحجاب الذى كثر فيه اللغط فالقرآن لم يتعرض له الا بمقدار ما يحق لكل مجتمع سليم أن يتعرض لحياطة الأخلاق والأعراض ، لان شهوات الجنس أخطر من كثير من الاضرار التى تحتاط لها الجماعات البشرية بالحد من الحرية فى بعض الأحوال ، وقد سمحت القوانين بالحد من الحرية فى سبيل تأمين الأموال وحراسة الطرق والمواصلات ووقاية السابلة من أخطار المركبات والسيارات ، فمن السخف أن يقال ان الفرد يحظر عليه الانطلاق على هواه فى شئون كهذه ويباح له أن ينطلق فى أهواء الشهوة الجنسية بغير ضابط من قبيل الحيطة والرقابة التى لا تعوقه عن مباح ، واذا رجعنا الى نصوص القرآن لم نرفيها ما يحرم على المرأة شيئا لا يجب على القانون أن يحرمه فى أحدث المجتمعات ، فلا يجوز للمرأة أن تتبرج تبرّج الجاهلية الاولى ، وفصلت آيات الحجاب ذلك فى سورة النور فجاء فيها ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن او آباء بعولتهن أو ابنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى اخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ وفحوى ذلك أن المرأة لا يجوز لها بزينة جسدها التصدى للغواية بين الغرباء ، وهى فى حل بعد ذلك أن تلقى من تشاء ممن تجمعها بهم مجالس الأسرة من الرجال أو النساء . وما من عقل سليم يرى أن الشرائع تتخطى حدودها حين تعرض لمنع التبذل والغواية على هذا النحو الصريح ، وما من عقل سليم يبدو له أن حراسة الأعراض والأخلاق بمثل هذه الحيطة فضول من الشرائع والقوانين أو تصرّف لا نظير له فى المجتمعات البشرية التى تتكفل بحراسة الاموال

والارواح . فلا فائدة للرجل ولا للمرأة ولا للأمة فى جملتها من هذا الرياء الذى يجزم باستحالة الاخطار الشهوانية حين تستثار بغواية الزينة المكشوفة ، وهو فى الوقت نفسه لا ينزه النفس البشرية من سرقة الدراهم والسلع اذا عرضت بغير حيطة لكل من يمد اليها يده ، ومن حاول التفرقه بين الأمرين بالتفرقة بين الطمع فى الجماد والطمع فى مخلوق إنسانى يؤكد ضرورة الحيطة هنا من حيث يريد أن يبطلها أو يضعفها هناك ، لأن الخطر الذى تتلقى فيه الرغبة من الجانبين أولى بالحيطة من خطر مقصور على رغبة السارق دون الجماد والمسروق ، ولعل الغربيين قد لمسوا من أضرار الاباحة المطلقة فى مقابلة الجنسين ما يحور بهم الى الصواب فى مسئلة (الحجاب) فيفهمون الحكمة فى الاعتدال بين الاباحة المطلقة والقسر الشديد فى هذه المسئلة التى لا يغنى فيها الرياء عن الحقيقة ، ويدركون أن أخطار الشهوات الجنسية شيء يحسب له حساب فى الشرائع والآداب ، لانه حساب الاعراض والانساب ، وخير ما يطلب من الشريعة عدل وصحة تقدير ، ونحن لا نلتزم العدل ولا صحة التقدير حين نتجاوز بالكائن الى طبيعته فى حقوقه وواجباته أو حين نطلب من الطبيعة مالا يستطاع .

٭ ٭ ٭

وقال الكاتب المنفلوطى فى مقال له فى مسئلة الحجاب (١) :

ذهب فلان الى أوربا وما ننكر من أمره شيئا ، فلبث فيها بضع سنين ثم عاد وما بقى مما كنا نعرف منه شيء : ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة . وذهب بقلب نقى طاهر يأنس بالعفو ويستريح الى العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها وعلى السماء وخالقها . وذهب بنفس غضة خاشعة ترى

---

(١) العبرات ص ٤٩

كل نفس فوقها ، وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا ترى شيئا فوقها ولا تلق نظرة واحدة على ما تحتها . وذهب بنفس مملوءة حكمة ورأيا ، وعاد برأس كرأس التمثال المثقب لا يملأه الا الهواء المتردد . وذهب وما على الأرض أحب اليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر فى عينيه منهما . وكنت أرى ان هذه الصور الغريبة التى يتراءى بها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار الى أوطانهم انما هى أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغا لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تنصل وتتطاير ذراتها فى أجواء السماء ، وأن مكان المدنية من نفوسهم مكان الوجه من المرآة اذا انحرف عنها زال خياله منها ، فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ، فلبسته على علاته ، وفاء بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر ، متحملا فى سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره مالا طاقة لمثلى احتمال مثله ، حتى جاء فى ذات ليلة بداهية الدواهى ومصيبة المصائب فكانت آخر عهدى به . دخلت عليه فرأيته واجما مكتئبا ، فحييته فأومأ الى بالتحية إيماء ، فسألته ما باله فقال : ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة فى عناء لا أعرف السبيل الى الخلاص منه ، ولا أدرى مصير أمرى فيه . قلت وأى امرأة تريد . قال تلك التى يسميها الناس زوجتى ، وانا أسميها الصخرة العاتية فى طريق مطالبى وآمالى . قلت انك كثير الآمال يا سيدى ففى أى آمالك تحدث ، قال ليس لى فى الحياة الا أمل واحد وهو أن اغمض عينى ثم أفتحها فلا أرى برقعا على وجه امرأة فى هذا البلد . قلت ذلك مالا تملكه ولا رأى لك فيه . قال ان كثيرا من الناس يرون فى الحجاب رأيى ويتمنون فى أمره ما أتمنى ولا يحول بين نزعه عن وجوه نسائهم وابرازهن الى الرجال يجالسنهم كما يجلس بعضهم الى بعض الا العجز والضعف والهيبة التى لا تزال تلم بنفس الشرقى كلما حاول الاقدام على أمر جديد ، فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادى[1] القديم الذى وقف سدادون

(١) اى القديم ، نسبة الى عاد

سعادة الأمة وارتقائها دهرا طويلا ، وأن يتم على يدى ما لم يتم على يد أحد غيرى من دعاة الحرية وأشياعها ، فعرضت الأمر على زوجتى فأكبرته وأعظمته وخيل اليها أنى جئتها باحدى النكبات العظام والرزايا الجسام ، وزعمت أنها إن برزت للرجال فانها لا تستطيع أن تبرز الى النساء بعد ذلك حياء منهن وخجلا ، ولا خجل هناك ولا حياء ولكنه الموت والجمود والذل الذى ضربه الله على هؤلياء النساء فى هذا البلد أن يعشن فى قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينقلهن من مقبرة الدنيا الى مقبرة الآخرة ، فلا بد لى أن أبلغ أمنيتى وأن أعالج هذا الرأس القاسى المتحجر علاجا ينتهى باحدى الحسنيين إما بكسره وإما بشفائه . فورد على من حديثه ما ملأ نفسى هما وحزنا ، ونظرت اليه نظرة الراحم الرائى وقلت : أعالم أنت أيها الصديق ما تقول . قال نعم أقول الحقيقة التى أعتقدها وأدين نفسى بها واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعا حيث وقعت . قلت هل تأذن لى أن أقول لك انك عشت فترة طويلة فى ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يوما من الأيام وأنت فيهم بالطمع فى شىء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه ، قال ربما وقع لى شىء من ذلك ، فماذا تريد . قلت أريد أن أقول لك انى أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم باعراض الناس منك . قال ان المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال وهى من شرفها وعفتها فى حصن حصين لا تمتدّ اليه المطامع . فداخلنى ما لم أملك نفسى معه وقلت له تلك هى الخدعة التى يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمة التى يعثر بها فى زوايا رءوسكم فينحدر منها الى عقولكم ومداركم فيفسدها عليكم ، فالشرف كلمة لا وجود لها إلا فى قواميس اللغة ومعاجمها ، فان أردنا أن نفتش عنها فى قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها ، والنفس الانسانية كالغدير الراكد لا يزال صافيا رائقا حتى يسقط فيه حجر فاذا هو مستنقع كدر ، والعفة لون من الوان

النفس لا جوهر من جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة . قال أتنكر وجود العفة بين الناس ، قلت لا أنكرها لأنى أعلم أنها موجودة بين البله والضعفاء والمتكلفين ، ولكننى أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقه المترفقة اذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه . فى أى جوّ من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم : أفى جوّ المتعلمين وفيهم من سئل مرة لم لم يتزوج فأجاب نساء البلد جميعا نسائى ، ام فى جوّ الطلبة وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه حياء وخجلا إن خلت محفظته يوما من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته أو اقفرت من رسائل الحب والغرام ، أم فى جوّ الرعاع والغوغاء وكثير منهم يدخل البيت خادما ذليلا ويخرج صهرا كريما . وبعد فما هذا الولع بقصة المرأة والتمطق [١] بحديثها والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها وحريتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم فى أنفسكم فلم يبق الا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم ، هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فان عجزتم عن الرجال فانتم عن النساء أعجز . أبواب الفخر أمامكم كثيرة فاطرقوا أيها شئتم ودعوا هذا الباب موصدا ، فانكم ان فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلا عظيما وشقاء طويلا . أرونى رجلا واحدا منكم يستطيع أن يزعم فى نفسه أنه يمتلك هواه بين يدى امرأة يرضاها فأصدّق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدى رجل ترضاه . انكم تكلفون المرأة ما تعلمون انكم تعجزون عنه وتطلبون عندها مالا تعرفونه عند أنفسكم ، فانتم تخاطرون بها فى معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها ، وما أحسبكم الا خاسرين . ما شكت المرأة اليكم ظلما ، ولا تقدمت اليكم فى أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ، وما تمضغكم

---

(١) التمطق التصويت باللسان عند استطابة الطعام

ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها . انها لا تشكو الا فضولكم وإسفافكم ومضايقتكم لها ووقوفكم فى وجهها حيثما سارت وأينما حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلا الا أن تسجن نفسها بنفسها فى بيتها فوق ما سجنها أهلها ، فأوصدت من دونها بابها وأسبلت أستارها تبرما بكم وفرارا من فضولكم . فواعجبا لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها . انكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها فى ديار يسيل جوها تبرجا وسفورا ويتدفق خلاعة واستهتارا ، وتودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذى خلفتموه هناك . لقد كنا وكانت العفة فى سقاء من الحجاب موكوء ، فما زلتم به تثقبون فى جوانبه كل يوم ثقبا ، والعفة تسيل منه قطرة قطرة ، حتى تقبض وتكرش ، ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة . عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة فى بيتها راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة فى واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدى ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها الى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف فى خضوعها لابيها وائتمارها بأمر زوجها ونزولها عند رضاهما ، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فان رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هى أن الزواج أساس الحب ، فقلتم لها ان هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا باوفر منك عقلا ولا أفضل رأيا ولا أقدر على النظر لك من النظر لنفسك ، فلا حق لهم فى هذا السلطان الذى يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها وتمردت على زوجها وأصبح البيت الذى كان بالأمس عرسا من الاعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ولا يخبو أوارها . وقلتم لها لا بد لك أن تختارى زوجك بنفسك حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة

مستقبلك فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها عن يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الاليم ، وقلتم لهـا ان الحب أساس الزواج فما زالت تقلب عينيها فى وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فغنيت به عنه ، وقلتم لها ان سعادة المرأة فى حياتها أن يكون زوجها عشيقها وما كانت تعرف الا أن الزوج غير العشيق فاصبحت كل يوم زوجا جديدا يحيى من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم فلا قديما استبقت ولا جديدا أفادت ، وقلتم لها لا بد أن تتعلمى لتحسنى تربية ولدك والقيام على شئون بيتك فتعلمت كل شىء إلا تربية ولدها والقيام على شئون بيتها ، وقلتم لها نحن لا نتزوج من النساء الا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا وشعورها شعورنا ، فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم ترفيه غير أسماء الخليعات المستهترات والضاحكات اللاعبات والاعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم وتنزل عند محبتكم ، ثم مشت اليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضا كما تعرض الأمة نفسها فى سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونبوتم عنها وقلتم لها إنا لا نتزوج النساء العاهرات كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعا ساقطات اذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أباها الخليع وترفع عنها المحتشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت . وكذلك انتشرت الريبة فى نفوس الأمة جميعا وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما وأصبحت البيوت كالأديرة (١) لا يرى فيها الرائى الا رجالا مترهبين ونساء عانسات

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها .

---

(١) الأديرة جميع دير

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة فى حاجة الى العلم ، فليهذبها أبوها وأخوها ، فالتهذيب أنفع لهـا من العلم(١) والى اختيار الزوج العادل الرحيم ، فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم ، والى النور والهواء تبرز اليهما وتتمتع فيهما برؤية الحياة فيأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم فى غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفا عليها من الذئاب ، فان عجزنا أن نأخذ الآباء والاخوة والازواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعا نسائها ورجالها فليست المرأة بأقدر على اصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها

أعجب ما أعجب له من شئونكم أنكم تعلمتم كل شىء إلا شيئا واحدا هو أدنى الى مداركـكم أن تعلموه قبل كل شىء وهو أن لكل تربة نباتا ينبت فيها ، ولكل نبات زمنا ينمو فيه . رأيتم العلماء فى أوربا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم فى أمة لا يزال سوادها الأعظم فى حاجة الى معرفة حروف الهجاء . . ورأيتم الرجل الأوربى حرًّا مطلقا يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد لانه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته فى الساعة التى يعلم فيها أنه قد وصل الى حدود الحرية التى رسمها لنفسه فلا يتخطاها ، فرأيتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلا ضعيف الارادة والعزيمة يعيش فى حياته الأدبية فى رأس منحدر زلق إن زلت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردَّى فى قرارتها ، ورأيتم الزوج الأوربى الذى أطفأت بيئته غيرته وزالت خشونة نفسه وحرشتها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء وتصاحب من تشاء وتخلو بمن تشاء فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد ، فأردتم من الرجل الشرقى الغيور المتلهب أن يقف موقفه ويستمسك استمساكه ، ورأيتم المرأة

---

(١) يعنى علم ما لم يكن ضروريا كما بيناه فيما سبق

الأوربية الجريئة المتفتية تستطيع فى كثير من مواقفها مع الرجال أن تحتفظ بنفسها وكرامتها ، فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها وتحتفظ بنفسها احتفاظها ، وكل نبات يزرع فى أرض غير أرضه أو فى ساعة غير ساعته إما أن تأباه الارض فتلفظه وإما أن يستنبت فيها فيفسدها

انا نضرع اليكم باسم الشرف الوطنى والحرمة الدينية ان تتركوا تلك البقية من نساء الأمة آمنات مطمئنات فى بيوتهن ، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن ، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف ، فان أبيتم إلا أن تفعلوا فانظروا بانفسكم قليلا ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التى ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا فى حياتكم الجديدة سعداء آمنين

فما زاد الفتى أن ابتسم فى وجهى ابتسامة الهزء والسخرية وقال تلك حماقات ما جئنا الا لنعالجها فلنصطبر عليها حتى يقضى الله بيننا وبينها . فقلت له لك أمرك فى نفسك وأهلك فاصنع بهما ما تشاء وائذن لى أن أقول لك انى لا أستطيع أن أختلف الى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسى لأن الساعة التى ينفرج لى فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلك تقتلنى حياء وخجلا . ثم انصرفت وكان هذا فراق ما بينى وبينه

وما هى إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلانا هتك الستر فى منزله بين نسائه ورجاله ، وأن بيته أصبح مغشيا لا تزال النعال خافقة ببابه . فذرفت عينى دمعة لا أعلم هل هى دمعة الغيرة على العرض المذال أو الحزن على الصديق المفقود

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره ولا يزورنى ولا ألقاه فى طريقه إلا قليلا فأحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجرى لما كان بيننا ذكر ، ثم أنطلق فى سبيلى

وإني لعائد الى منزلي ليلة أمس ـ وقد مضى الشطر الأول من الليل ـ اذ رأيته خارجا من منزله يمشي مشية الذاهل الحائر ، وبجانبه جندي من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده ، فأهمني أمره ، ودنوت منه فسألته عن شأنه فقال لا علم لي بشيء سوى أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني الى مخفر الشرطة ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سببا ، وما أنا بالرجل المذنب ولا المريب ، فهل استطيع أن أرجوك يا صديقي بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي علني أحتاج الى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشئون . قلت لا أحبَّ الي من ذلك . ومشيت معه صامتا لا أحدثه ولا يقول لي شيئا . ثم شعرت كأنه يزوّر في نفسه كلاما يريد أن يفضي به الي فيمنعه الخجل والحياء ، ففاتحته الحديث وقلت له ألا تستطيع أن تذكر لهذه الدعوة سببا . فنظر الي نظرة حائرة وقال إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث ، فقد رابني من أمرها أنها لم تعد الى المنزل حتى الساعة ، وما كان ذلك شأنها من قبل . قلت أما كان يصحبها أحد ، قال لا ، قلت ألا تعلم المكان الذي ذهبت اليه ، قال لا ، قلت ومم تخاف عليها ، قال لا أخاف شيئا سوى أني أعلم أنها امرأة غيور حمقاء فلعل بعض الناس حاول العبث في طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرهما الى مخفر الشرطة . وكنا قد وصلنا الى المخفر فاقتادنا الجندي الى قاعة المأمور فوقفنا بين يديه فأشار الى جندي أمامه إشارة لم نفهمها ثم استدنى الفتى اليه وقال له : يسوءني أن أقول لك يا سيدي إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة في حال غير صالحة ، فاقتادوهما الى المخفر ، فزعمت المرأة أن لها بك صلة ، فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها ، فان كانت صادقة أذنا لها بالانصراف معك اكراما لك وإبقاء على شرفك ، والا فهي امرأة عاهر لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما ، وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه

فاذا المرأة زوجته ، واذا الرجل أحد اصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيونا وآذانا ، ثم سقط مكانه مغشيا عليه ، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة الى منزل أبيها ففعل ، وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى فى مركبة الى منزله

ثم ذكر السيد المنفلوطى رحمه الله آخر القصة ، وحاصلها أن الفتى مات كمدا وحسرة من هذه الفضيحة التى اختتم بها حياته

☆

ومن عجائب هذا الملحد قوله فى آخر هذا المبحث ما نصه « وقد تصاغ هذه الحجة بالأسلوب الآتى : هل العلم خير وفضيلة أم شر ورذيلة ، فان كان الحق هو الأول فلماذا يحرم على المرأة ، وان كان الحق هو الثانى فلماذا يباح للرجل ، ولا جواب عن هذا » انتهى

فيقال له بل الجواب عن هذا أسهل من الردة عليك ، وهو أن يقال : لا نسلم أن ما تدعو اليه علم وفضيلة ، بل هو جهل ورذيلة ، والعلم الصحيح قد بينا ايجاب تعليمها إياه . وان أبيت الا أن يكون علما فأنت قد قررت بانه ما كل علم محمود ورب علم خير منه الجهل كما تقدمت عبارتك بنصها فاذا كنت مقرا بانه ما كل علم محمود ، وأنه رب علم خير منه الجهل ، فهذا منه ، واذا كان هو شراً ورذيلة فنحن لم نجز للرجل أن يتعلم ما تدعو اليه حتى يلزم ما ذكرته ، فان هذا كله مبنى على مقدمات باطلة احداها أن الرجل يجب أن يكون كالمرأة فى كل شيء وهذا باطل شرعا وحسا وعقلا قال تعالى ﴿ وليس الذكر كالانثى ﴾ فانه لو كان الرجل مثل الانثى لكان أنثى مثلها أو لكانت هى رجلا فلما كانت مختصة بالانوثة وأنها ليست مثله فى كل شيء من طبيعتها لزم أن لا تكون مثله فى جميع الأحكام من كل وجه ، فان التسوية بين المختلفين من أكبر الظلم وأعظم الفساد فى العقول ، وقد قال تعالى ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ،

وللرجال عليهن درجة ﴾ وهذا نص فى التفريق . والثانية أن هذا الذى تدعو اليه علم ، وهذا باطل أيضا . والثالثة أن كل علم نافع ، وهذا باطل كذلك ، فان تعليم السحر وطرق المعاصى مضر ، وأنت معترف بأنه ليس كل علم محموداً فهذه الدعوى ساقطة قطعا ، بل عليك أن تقرر أن هذا الذى تدعو اليه علم بالمعنى الصحيح ثم تقرر أن كل علم نافع ثم تبين هذا العلم الذى تدعو اليه وتصرح بحقيقته ، ثم تقيم البراهين على أنه نافع وأنه داخل فى العلم النافع ، ثم بعد هذا تقيم الأدلة على إيجاب تسوية الرجل بالمرأة فى كل شىء وإلا فليس كل علم نافع للرجل تستحقه المرأة مطلقا ، وأنت لم تفعل شيئا من هذا بل ادعيت ايجاب تعليمها وايجاب مساواتها بالرجل فى كل شىء ، وهذه الدعوى لا يعسر على أدنى جاهل أن يدعيها لأنها دعوى مجردة فيكتفى فى منعها بأن يقال قد أوجبنا تعليمها النافع ولا يجب مساواتها بالرجل فى كل شىء لثبوت الفارق المعنوى والصورى ، وهذا ظاهر والله اعلم

الكلام على المبحث الخامس

عنوانه فى كتابه :

(كراهة الحياة الدنيا ـ امتداح الجوع والفقر والمرض ـ الدعاية الواسعة للزهد المخدر ـ هل جاء الدين لمحاربة العمران)

وقد اشتمل كلامه هذا على أربعة أمور : أحدها أن المسلمين كلهم رغبوا فى كراهة الحياة الدنيا ، والثانى أنهم امتدحوا الجوع والفقر والمرض ، والثالث أنهم وسعوا الدعاية للزهد المخدر ، والرابع أنهم نسبوا الى الدين أنه جاء لمحاربة العمران

فهذه الأمور الأربعة التى خلط فيها الحق بالباطل قد رمى المسلمين بها ، وأوهم الأجانب وأعداء الاسلام أن المسلمين يدينون بها ، وأنها من أصول الاسلام لديهم عاملين بها بدون فرق ، وأنهم على هذه الحالة مستمرين بها وأنها من الأسباب التى أخرتهم . وقد قلنا غير مرة ان موضوع هذه الأغلال هو الدعاية ضد الاسلام وتشويه سمعته والتنفير منه ، وغرضه من هذا البهت أن الدين قد فسد ، وهذا الاسلام ليس بدين يقدم أهله ، فهو يتذرع بكل وسيلة الى رفضه والتحذير من الدخول فيه

ونحن نتكلم عن كل أمر من هذه الأمور التى ذكرها كلاما مجملا ، ثم نذكر ما اعتمده فى هذه الدعوى ، ونجيب عنه مفصلا كما وعدنا بذلك سابقا :

أما الأمر الأول ـ وهو دعواه أن المسلمين أوجبوا كراهة الحياة الدنيا ـ فإما أن يريد أنهم كرهوها وعملوا بالكراهية فرفضوها ولم يسعوا فى طلبها ، وإما أن يريد أنهم كرهوها ولم يعملوا بالكراهة . فان أراد الأول فيكفى فى تكذيبه الواقع والمشاهدة ، ولا أبين من برهان الحس والمشاهدة ، فان هذا يقتضى أنهم رفضوها وجلسوا عاكفين فى المساجد والمعابد وعطلوا معايشهم

وملاهيهم وجميع ما فيها من لذة مباحة وغير مباحة ، فان هذه حال من كره الدنيا ومقتها ولم يعمل بها ، ومعلوم أن هذا خــلاف الواقع فى كل مكان وزمان من ظهور الاسلام الى هذا الوقت ، وأدنى عاقل يعلم أن الناس اليوم متهالكون على الدنيا منهمكون فى محبتها انهماكا شديدا ، وأكثرهم يقدمها على كل شيء من خلق ودين . ومن العجب أن هذا الملحد لمــا رأى الناس أشد حاجة الى التمسك بالدين حين فسدت أخلاقهم بترك أكثر آدابه وأخلاقه أخذ فى التنفير منه والدعوة الى ضده ، وقد كانوا أشد حاجة الى إخراجهم من هذه الوهدة التى وأدت شرفهم وقضت على عفتهم وقتلت كرامتهم ورجولتهم فى محبة الدنيا . وهذا أخذ فى تحذيرهم عن الخروج منها والدعاية الى ارتكاسهم فى ذلتها وحسرتها ، وما مثله فى هذه الدعوى إلا كمثل من أتى الى قوم قد أصيبوا بأنواع الامراض والأسقام والأوجاع فى أجسادهم وعقولهم من شدة الجشع وكثرة الخلط وتناول الأغذية الكثيرة المتنوعة عند الشهوات ومطالعات الافكار والآراء والمذاهب والمعتقدات المختلفة - فلما رآهم وفكر فيهم قال لهم ما علتكم الا من أشياء قليلة هى شدة الجوع وعــدم الأكل ومتابعة الصيام والاقتصار على طعام واحد وعدم التفكر والنظر فى العلوم والآداب والفلسفة فلو أنكم أكثرتم الأكل واجتهدتم فى ذلك ووسعتم دائرة علومكم فى الفلسفة والنظريات ولم تقتصروا على أكل واحد وعلم واحد لكان ذلك هو شفاءكم الذى ليس لكم شفاء غيره ، فهكذا كانت نظرية هذا المغرور فى هذه الأغلال ، فانها مقلوبة منعكسة

وان أراد الثانى وهو أنهم كرهوها ولم يعملوا بهذه الكراهة ، بل عضوا عليها بالنواجذ وتقاتلوا عليها وتشاتموا وتقاطعوا الارحام وعمــلوا كل ما أمكنهم من الاحتيال على اقتناصها من كل وجه وبكل وسيلة كما هو الواقع ، فقد خالفوا الكراهة وصارت هذه وجودها كعدمها ، فان القول اذا لم يكن له اثر من العمل فوجوده كعدمه ، وان أراد أن بعضهم كرهها وبعضهم لم

يكرهها بل أحبها حبا جما ، قلنا أنت لم تفصل فعممت الدعوى وذكرت ما لم تحط به علما ، ولو قدر ثبوت هذا فانه لا أثر له فى تأخر ، فما من أمة أو شعب إلا ويوجد فيهم من هـذا الاختلاف شىء كثير فى طلب المعيشة وغيرهـا ، وجميع الناس يعلمون أن جانب الزهد وكراهة الدنيا فى النصارى أظهر منه فى جانب اليهود منذ العصور القديمـة ، ومعلوم الفرق بين تقدم هؤلاء وتأخر هؤلاء من آلاف السنين الطويلة ، فلم يكن حب اليهود للدنيـا مفيدا لهم الملك والسلطان بل أفادهم الذل والمسكنة ولم يكن التقصير فى ذلك مؤثرا فى تقـدم النصارى عليهم . وليس الجشع والجنون عـلى الدنيا طريقا للتقدم عند جميـع العقلاء ، بل هو طريق الذل والمسكنة ، لأن طالبها لا بد أن يضطر الى الملق والنفاق والضراعة والتذلل والمكر والخبث وأكل السحت للكذب والتحريف للكلم عن مواضعه ، وهذه هى علل التأخر كلها ، وليس من الممكن أن يتقدم فرد أو شعب أو أمة فيها هذه الخصال أو أكثرها ، بل بقدر ما معها من هذه الخصال سيكون نصيبها من الذل والمسكنة ، فان العزة كتبهـا الله للمؤمنـين ، وهذه الأخلاق المرذولة تضاد أخلاق الايمان من كل وجه كما هو الواقع

أما الأمر الثانى . وهو دعواه أن المسلمين امتدحوا الجوع والفقر والمرض . فهذه الدعوى كسابقتها التى قبلها فى البهت والفجور والمكابرة ، فليس فى المسلمين من يعتدّ بقوله من مدح هذه الأمور أبدا ، ولا يمكنه أن يثبت هذه الدعوى عـــلى طائفة من المسلمين إلا أن يريد أن يدخل أسلافه من الاتحـــادية وأضرابهم فى المسلمين ، فقد يدّعى هذا المشاكس المعاكس أنه يوجد فى بعض أقوال الاتحـادية الصوفية شىء من ذلك ، ولـكن يقـال له قد قلت انه ليس المسلم هو الذى يتتبع أخطاء المخطئين وأغـلاط المغالطين . وأيضا لا نسلم أن من قال شيئا من ذلك هو ممن يعتدّ بقوله ، فعليـك أن تثبت أن الذى ادعى بمثل ما قلت من المسلمين وأنه يعتد بقوله وأنه لم يذكر كلاما يخالفه ، وهذا لا يمكنك أن تجـده أبدا . وأيضا فانه يوجد فى كتب الصوفية من الحثّ عـلى

الدنيا والاستغناء عما فى أيدى الناس أكثر مما يوجد فيها من الزهد فلا يجوز لك أن تأخذ منها ما فيه شبهة لك وتترك ما هو حجة عليك . وأيضا فكتب الصوفية فيها كثير من الشرك وتعطيل الصفات وتحريف الكلم عن مواضعه وتقرير الاتحاد وغير ذلك ، ومعلوم أن هذا أضر على الاسلام وعلى الأمة من كلامهم فى الزهد ، لأن هذا قدح فى روح الدين ، وذاك كلام لا يتابعهم عليه إلا أقل القليل وهو فى أمور فرعية ، فما بالك أعرضت عن ذلك كله وتمسكت بهذه الخصلة اليهودية . أما ما يوجد فى كتب بعض الفقهاء من الآثار ونحوها فى مدح الفقر خاصة دون الجوع والمرض فليس المراد ما يفهمه هذا الملحد وأضرابه ممن أعمى الله بصائرهم من أنه كراهة المال ومقته ونبذه وتبذيره وعداوته بالكلية ، فان هذا لا يقوله ولا يريده أحد من المسلمين ، بل المراد من ذلك هو الصبر عليه والاحتساب والطمأنينة والثقة بالله تعالى والجد والاجتهاد والثبات والتبصر والنظر فيما يزيله ، والبراهين على هذا كثيرة جدا ، منها أن هؤلاء الذين يمدحون الصبر على الفقر فى كتبهم يذكرون فى هذه الكتب نفسها الترغيب فى الاكتساب والعفاف والجود والكرم والصدقة وإعانة الضعيف والملهوف ، ومن المعلوم أن هذه الأمور لا توجد مع نبذ المال ورفضه وترك الدنيا وكراهيتها بحال ، ولهذا تجدهم يذكرون فى هذه الكتب نفسها النهى عن اضاعة المال وتبذيره والخروج منه بالكلية ، ويوجبون الاكتساب ويجعلونه فرضا واجبا يحرم على الانسان تركه . ولما أراد سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن يوصى بماله كله أمره النبى ﷺ بالثلث فقط وقال « الثلث والثلث كثير » وقد أمر بالاكتساب ونهى عن إضاعة المال نهيا شديدا ، وكذلك كان الفقهاء فى كتبهم وأهل العلم ، ولو كان المراد بالفقر هو الاعدام من المال بالكلية لأمروا الناس أن يحرقوا أموالهم ويبذروها فى القفار والبحور ويفسدوها بجميع أنواع الافساد ، ولا حاجة حينئذ الى كتب الأحكام التى فيها من كتاب البيوع الى كتاب الاقرار أو كتاب الميراث .

وهذا الملحد يأتى الى أشياء أوضح من الشمس فيغالط فيها ، وإلا فحرص الناس على الدنيا أمر لا يحتاج الى أن يطنب فى الاستدلال عليه ، وليس حرصهم عليها كحرصهم على الدين ولا عشر معشاره ، ومع ذلك شنع عليهم بالعمل بالعبادة والدعاء وغيره من أمور الدين ، وشنع عليهم بتقصيرهم فى الحرص على الدنيا ، ونحن نعلم مراده بذلك كله ، وهو أنه يريد أن يقول شيئا فتمنعه الجرأة والخوف والنفاق من التصريح به مرة واحدة بدون مغالطة : يريد أن يقول ان الناس لم يعبدوا الدنيا ويكفروا بالآخرة ويرفضوا الدين رفضا باتا ، هذا هو مراده ، ولكنه هاب ذلك ولا معنى لهذه الهيبة فان أصحابه وجميره الذين تفرس فيهم الغباء والبلادة لو قال هذا لوجدوا له عذرا ، وأما غير أصحابه ممن يعرف مغزاه ومرماه فانه يعرف أن هذا هو مراده فلا يخاف ولا يحزن ، فقد وجد جوا خاليا فليبض فيه وليصفر وليقل ما يريد . ولو أن قائلا قال له فما هذا البيع والشراء والوظائف والاجارات والدكاكين والمعاملات التى لا تعد ولا تحصى لأى شىء هذه هل هى دالة على كراهة الدنيا أو على غير ذلك لم يكن له جواب على هذا الا المكابرة وأن يقول انهم لم يحرصوا عليها ، ولو قيل له أثبت لنا كيفية الحرص الذى تريده بحدوده حتى نعرف وجهه وهل هم داخلون فيه أم خارجون عنه لم يكن له جواب غير ما ذكرنا من عبادتها والكفر بكل ما يخالف ذلك . وهذا الملحد يأتى بالطامات التى لا تطاق : تارة يدعى أن المسلمين يحرمون العلم ويرونه شركا فى الربوبية ، وتارة يدعى أنهم يكرهون الدنيا ويمقتونها وهو يرى الملاعنة والمحاكمة والمشاتمة والمقاتلة عليها ، فالى اى حدّ يذهبون فى محبتها . وكذلك العلم قد بينا أن أدنى جاهل لو قلت له انك تكره العلم لم يرض بذلك فكيف بأمة عظيمة يقول انها تبلغ اربعمائة مليون ، وقد بينا ان هذه هى طريقته فى أغلاله هذه كلها ، فانه يخترع الكذب ثم يرمى به المسلمين ثم يجيب نفسه بنفسه . وكون العلماء رضى الله عنهم أثنوا على الاكتساب وأثنوا مع ذلك على

الاحتساب للفقر والصبر عليه مع بذل الجهد فى ابتغاء الرزق ممـا يدل على محاسن هذه الشريعة الغراء وصحة نظر علمائها ، فان الانسان إذا عمـل ما فى وسعه فى طلب الرزق فقد يوفق وربما تعترضه عوارض وموانع لا قبل له بها فـلا يوفق فتصيبه مصائب تؤدى به الى الحاجـة والفقر كما هو الواقع ، فان الدنيا مطبوعة على التغير والتكدر وتقلب الاحوال ، فهى ممزوجة خـيراتها بشرورها وسراؤها بضرائها ، فلا بد للانسان أن يناله شىء من مصائبهـا من الفقر والمرض والجوع ، فكان من رحمة الله ومحاسن شريعته المطهرة أن رغب فى الصبر على هذه المصائب والاحتساب عند الله تعالى لأجرها ، وإن لم يكن المرء مأمورا بدخوله فيها ، بل اذا أصابه شىء من ذلك فعليه أن يحتسب أجره عند الله وينزل فاقته وحاجته بربه مع التماس المخرج مما هو فيـه ان كان لذلك مخرج ، ويستعين الله عـلى ذلك فيحصل له أجر الصابرين كما يحصل للأغنياء أجر الشاكرين ، فيكون ما عمله من الصبر والاحتساب مثمرا له ثمرة يستعيض بها عما فاته من المصيبة ، فينقلب حينئذ المصاب فيه خيرا وتكون تلك المصيبة خيرا له ، كما ورد « عجبا للمؤمن ، كل أمره خـير له ، ان أصابته سراء فشكر كان خـيرا له ، وان أصابته ضراء فصبر كان خيرا له » وكل هـــذا من آثار رحمته تبارك وتعالى ولطفه بعباده وأنه بهم رءوف رحيم ، ولو أن الله سبحانه جعل الفقر والمصائب ذنبا وجرما كما عدّه هذا المارق لاحترق المؤمن حزنـا وأسفا وأساء الظن بربه ورأى انه مكلف مالا يطيق . وهكذا القـــول فى الجوع والمرض ، فان الذى مدح الجوع لم يمدح نفس الجوع الذى هو الألم وانما مدح الصبر عليه والاحتساب عند الله اذا وقع . ولهذا كان هؤلاء الذين يمدحون لا يذكرون فضل الجوع بل يذكرون فضل الصبر والاحتساب ونحو ذلك ، ولو حذفوا المضاف فهو جائز أيضا لانهم لم يخاطبوا الزنادقة والمنافقين وانمـا يخاطبون من هو مثلهم ممن يعرف كلامهم ومرامهم ، لانهم قد ذكروا تحريم الاضرار بالبدن والنفس بالجوع أو غيره ، وفى حـديث سلمان « ان

لنفسك عليك حقا ولزوجك عليك حقا » والأخبار فى هـذا كثيرة . أما ما ذكره عن المرض وادخـاله مع الفقر والجوع فهو من دسائسه الخبيثة التى اعتادها فى مضائق كلامه ، والا فهو يرى أن المستشفيات والاطبـاء وما اليهم فى جميع مـدن الاسلام أكثر من أن تحصر ، وهو يعـلم أن الحكومات الاسلامية تنفق على ذلك الأموال الطائلة وتحرص عـلى ذلك غاية الحرص ، وهو يعـلم أيضا أن الـكتب مشحونة بالأمر بالتداوى ووجوب اجتنـاب ما يضر حتى جعـلوا من أصول الأشياء المحرمة كون هـذا الشىء يضر بالبدن ، فاذا ثبت أنه مضر فيكون محرما بهذا الاعتبار ، وهذا غاية النهى عن اجتناب وسائل الأمراض ، ولم نعلم أحدا من المسلمين مـــدح المرض بالمعنى الذى يريده ، وانما مدحوا الصبر والاحتساب على وقوعه قهرا مع فعل ما يخففه أو يزيله كما أنهم أمروا بالصبر والاحتساب عند موت الأبناء والآباء ، ولم يكن ذلك ترغيبا فى قتلهم ، وكما أمروا بالصبر على فقد البصر أو غيره من المصائب البدنية ولم يكن ذلك ترغيبا فى العمى ولا أمراً بالعمى ، وأمثال ذلك كثير فكل المصائب التى يصاب بها الانسان بدون اختياره يرغبون فى الصبر عليها والاحتساب لأجرها مع كونهم لا يأمرون بفعل الوسائل التى تقرب منها كما قال تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين ﴾ وقد أوجب كثير من العلماء التداوى واستحبه بعضهم ولم يحرمه أحد من أهل العلم ، فكيف يقال انهم امتدحوا المرض ، ولـكن مقصوده هو ما ذكرناه فى الأمر الذى قبله وهو كون هذا الدين يأمر بالمرض فهو فاسد ، هذا مقصود هذا المغرور المسكين المحتال العنيد

فصل

قال « كراهة الحيــاة الدنيا ـ امتداح الجوع والفقر والمرض ـ الدعاية الواسعة للزهد المخدر ـ هل جاء الدين لمحاربة العمران

اللهم من آمن بى وصدقنى وعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأقل ماله وولده وحبب اليه لقاءك وعجل اليه القضاء ، ومن لم يؤمن بى ولم يصدقنى ولم يعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فاكثر ماله وولده وأطل عمره (زعموه حديثا نبويا صحيحا)[1]

نزل علىّ جبريل بأحسن ماكان يأتينى فى صورة فقال ان السلام يقرؤك السلام يا محمد ويقول إنى أوحيت الى الدنيا أن تمردى وتنكدى وتضيق وتشددى على أوليائى حتى يحبوا لقائى ، وتوسعى وتسهلى وتطيبى لأعدائى حتى يكرهوا لقائى ، فانى جعلتها سجنا لأوليائى وجنة لاعدائى (زعموه حديثا نبويا)

جاء رجل فقال يا رسول الله إنى لاحبك (ثلاث مرات) فقال ان كنت تحبنى فأعد للفقر تجفافا فان الفقر أسرع الى من يحبنى من السيل الى منتهاه . وعن أنس قال : جاء رجل النبى فقال : انى أحبك . فقال : استعد للفاقة . وفى حديث آخر اصبر يا أبا سعيد فان الفقر الى من يحبنى منكم أسرع من السيل من اعلى الوادى ومن أعلى الجبل الى أسفله (زعموها أحاديث نبوية)

والجواب أن يقال : قد صدر هذا المبحث بهذه الروايات مستدلا بها على تصحيح دعواه بان المسلمين كرهوا الحياة الدنيا وامتدحوا الفقر والجوع والمرض ، وبهذا وبغيره من جميع نصوص أغلاله بل وبروحه أيضا تعرف أنه شديد الولع بتتبع كل ما فيه شبهة الى القدح فى الدين ، وأنه يتوسل بكل مافى وسعه وبكل مافى قدرته من وسيلة - مهما كانت حالتها من الضعف والنكارة - الى التنفير عن الاسلام وسبه وشتمه وإضافة كل قدح وذم اليه

وهذه الروايات التى استشهد بها لا تفيده شيئا البتة ، فانه إما أن يريد بالاستشهاد بها أن المسلمين رووها وصححوها وعملوا بها ، واما أن يريد أنهم رووها ولم يصححوها ولم يعملوا بها . فان أراد الأول فقد كذب وادعى

---

(١) هذا تهكم بالمسلمين ، فمن هو الذى زعمه صحيحا

زورا وفجورا ظاهرا ، وهو لم يستدل على صحة هذه الدعوى إلا بمجرد سياق الروايات على وجه التهكم والاستهزاء ، فتكون دعوى مجردة فتقابل بالمنع والرد ، فعليه أن يقرر أن المسلمين رووها فى كتبهم المعتمدة وصححوها ثم عملوا بها . فلا بد من هذه المقدمات الثلاث حتى تصح دعواه هذه التى قدح فى المسلمين بها . والمقدمات الثلاث كلها باطلة فلا يمكنه ان يثبتها وهو لم يذكر الا روايتها على وجه الاستهزاء والسخرية ، وهذا لا يكفى ، فليس كل ما يروى من حديث فى كتاب من الكتب يكون صحيحا ، وهو معترف بهذا فى صراعه الذى صرع فيه ، بل ولا يكون معمولا به أيضا ، بل قد توجد أحاديث صحيحة لم يعمل بها ، بل هو نفسه قد كذب بأحاديث صحيحة فى أغلاله هذه ، فليجعل هذه الروايات على الأقل مثلها

والحديث الاول الذى ذكر أنهم زعموا أنه صحيح كذب وفجور ، بل أكثر اهل العلم على أنه ضعيف لا تقوم به حجة ، فلم يروه إلا ابن ماجه بسند ضعيف ، وكذلك سائر الروايات من جنسه . وهذا الملحد يعلم أنه توجد روايات كثيرة فيها الحث على الشرك والقدح فى الصحابة وغير ذلك فلم عدل عنها وجاء بهذه الروايات وتلك أعظم ضررا وأشد خطرا ، واذا كان يراها صحيحة وأنهم عملوا بها فليس ايراده لها ورده عليها ـ بهذا الوجه المنكر من السخرية والاستهزاء ـ ردًّا على المسلمين ، بل هو رد على مَن قالها وهو الرسول ﷺ ، فلا حاجة الى الرد على المسلمين لانهم مأمورون بالامتثال والسمع والطاعة . وان اراد الثانى وهو أنهم عملوا بها وهى غير صحيحة فهذا أيضا بهتان ظاهر ومكابرة للحس والضرورة على ما شرحناه من قبل ، فان المسلمين قد حثوا على طلب الرزق كما قال تعالى ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ وأدنى رجل عامى يرى الناس كلهم ساعين جادّين فى طلب أرزاقهم ، وكلهم يحبون الله ورسوله ، وهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم قد كان فيهم أغنياء وهم يحبون الرسول محبة تفوق محبة النفس والولد والمال . وان أراد الثالث

وهو أنهم رووها ولم يعملوا بها فلا وجـه لايرادها واستشهاده بـها ، لأن الروايات التى لم يعمل بها وجودها كعدمها . فتبين أن استشهاده بهذه الروايات على القدح فى المسلمين محاولة منكرة خبيثة لا حجة له فيها على كل تقدير

وهذا الملحد يعلم أن الله سبحانه أمر بطلب الرزق وأباح لعباده من الطيبات مالا يدخل تحت حصر ، وكل ذلك أعرض عنه للقصد الذى ذكرناه ، قال الله تعـالى وتقدس ﴿ قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة ﴾ الآية . وهذه الآية أصل عظيم فى هذه المسئلة ، فقد بين سبحانه وتعـالى أنه أخرج الطيبات من الرزق لعباده المؤمنين وبين أن ذلك لهم فى الدنيا ، فيكون غيرهم انمـــا دخل تبعا ، ولهذا اذا خلت الأرض من المؤمنين قامت القيمة كما فى الحـديث « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الارض الله الله » لان موجبـات الرحمة وآثارها قد انعدمت فلا يكون هناك رحمة البتة ، ومتى زال أثر الرحمة حل البلاء والدمار الفظيع . وقد بين الله سبحانه فى هـــذه الآية أنها - أى الطيبات والزينة - خالصة للمؤمنين يوم القيمة لأنها أثر من آثار الرحمة فتتبع مواضعها المتحدة ، لانهم حينئذ يكونون خالصين من مخالطة الـكفار فى الدار كما أن أولئك اختصوا بما يليق بهم من الظلمة والطرد والابعاد ، لانهم عبدوا الطبيعة المظلمة العاتية فكانوا فى الظلمات والشرور ، لان جميع الشرور سلبية من مقتضيات الطبيعة كما قال عليه الصلاة والسلام والشر ليس اليك ، فكل اختص بما يناسبه فالذين اتبعوا النور والرحمـة وآمنوا بالنور والرحمـة كانوا فى نور ورحمة ، وأولئك الذى استكبروا وكانت أعينهم فى غطاء عن النور والرحمـة وانحرفوا الى ظلمة الطبيعة فعبدوهـا واعتمدوها كانوا فى ظلماتها وشرورها . وهذا عين العدل والقيام بالقسط . فالآية تقتضى أن المؤمنين هم أهل هـذه الحياة الدنيا بما فيها من زينة وجمال وطيبات ، وانما دخل غير المؤمنين تبعا كما أن كثيرا من الحيوانات يحصل لها أكثر مما يحصل للانسان من الراحة ورغد

العيش الذى لا يعدو أن يكون شهوات نفسانية فقط

وينبغى أن يعلم أن الله سبحانه لم يذم الحياة الدنيا مطلقا ولم يمدحها مطلقا، بل ذم من قدمها على الآخرة واستحبها عليها كما هو رأى هذا الضال ، ومدح من أخذ نصيبه منها ولم ينس نصيبه من الآخرة : قال الله تعالى ﴿ ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ وقال تعالى ﴿ ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة ، اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الأخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين . قال انما أوتيته على علم عندى ﴾ يعنى بما فىَّ من الاستعداد والمواهب التى مكنتنى من معرفة طرق المكاسب والتجارة بل بقدرتى الذاتية فلن ينالنى شىء . فانه جواب على كلام أولئك النصحاء . قال الله ردا عليه ﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ﴾ أى فلا القوة ولا الجمع يغنى عن صاحبه شيئا فلا ينفعه غير طاعة الله تعالى فانها العروة الوثقى كما قال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور ﴾ فلا ينفع شىء من القوة مهما كانت دون الله سبحانه وتعالى وقال تعالى ﴿ من كفر بالله من بعد ايمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة والله لا يهدى القوم الظالمين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ وما أخلق هذا الملحد بالدخول فى هذه الآيات ، فانه ارتد مستحبا الحياة الدنيا على الآخرة . نسئل الله السلامة بمنه وكرمه

فصل

ثم قال «كانت العرب فى جاهليتهم ولا سيما قريش تنظر الى الحياة الدنيا بعين المشوق المتيم ، وكانوا يحبون المال حبا جما ، ويأكلون التراث أكلا لما ، كما أخبر القرآن عنهم . وكانوا يحبون الطيبات ويستمتعون بكل ما استطاعوا الاستمتاع به منها . وكانوا يفاخرون ويكاثرون بذلك . وكانوا يمقتون الفقر والفاقة وكل ألوان الشقاء والعوز ويرونـــها من النقائص والعيوب والعجز كالبخل والجبن وفقدان المروءة . ومن أمثالهم السائرة فى هذا «القبر ولا الفقر» وكانوا من أجل هذه الروح الماليـة الدنيوية الاستمتاعية تجارا كلهم ولا سيما أشرافهم وساداتهم ، وكانوا يعظمون من شأن التجارة كل التعظيم ، ويرون المهارة فيها والحذق والقدرة برهـان الرجولة ودليل الشرف والسيادة . وفى دلائل النبوة : كانت قريش قوما تجارا ، ومن لم يكن تاجرا لديهم فليس بشىء ، حتى لقد قيل : ان كلمة قريش معناها التاجر»

والجواب أن يقال : اضطرت الحال هـذا المخذول الى أن احتج عـــلى مقصوده فى مـدح الحيـاة الدنيا بأفعال كفار العرب وقريش فى جاهليتهم ، وهذا برهان على أنه جاهل المذهب والنظر والتفكير ، وقد نسى المسكين قوله فيما سبق ان الانسانية كانت فى وقت نزول القرآن لا تبعد جـــدا عن طور الحيوان ، وانهم ما كانوا يعرفون الحقائق انما كانوا يعرفون الظواهر ويحكمون على الالمام الظاهرى فلا غرابة فى كثرة تقلباته وتناقضه واضطرابه فانه منافق مرتاب . ولو أن هذا المارق أضاف الى هذه الدعاوى التى ذكرها ما كانت عليه العرب وقريش فى جاهليتها من الخصال الأخرى المذمومـة لـكان من جنس احتجاجه هذا سواء ، فلو قال وكانت أيضا تاكل الميتة وتقتل البنات وكانت شديدة المحبة لعبادة الاصنام والمحاماة عنها ، وكان الفوضى والهمجية والتقليد الأعمى كل ذلك قد ساد وانتشر فى زمانها وذكر نحو هذه الخصال مما هو كثير

لكان قد أدى الحقيقة . أما اقتصاره على كونهم يحبون التجارة فهو خلل ظاهر واحتجاج ساقط ، فان افعالهم ليست من الحجة فى شىء وأفعالهم الأخرى كعبادة الأوثان وأكل الميتة ووأد النبات أبرز وأظهر من أعمالهم فى التجارة ، فان التجارة ليست من خصائصهم ، أو لو أنه عدل عن الاحتجاج بأفعال العرب فى التجارة فى جاهليتهم الى أفعال اليهود فى التجارة فانهم فى هذه الخصلة أمهر وأحذق وأقدر ، ولا ندرى كيف صرف هذا المخذول عن الاحتجاج بالآيات البينات ونصوص السنة التى لا تحصى فى فضل الغنى والتكسب وإباحة الطيبات كما أشرنا الى ذلك وذهب يحتج بأفعال الجاهلية ، ولكن هذا هو اللائق بالقلب المقلوب ، فلا بد أن يكون تفكيره ونظريته مقلوبة ، ولو لم يعلم المسلمون أن اكتساب المال والغنى مما أمرت به الشريعة المطهرة لكان فعل الجاهلية هذا دليلا على كراهته أو تحريمه ، فاننا مأمورون بمخالفة أخلاق الجاهلية فيما اختصوا به ، ولكن المسلمين ولله الحمد أغنياء فى هذه المسئلة وغيرها عن أن يحتجوا بأفعال الجاهلية فيها ، ومن لم يكن له دليل الا أفعال الجاهلية فقد خاب وخسر

ويقال له أيضا اذا كانت العرب ولا سيما قريش كما زعمت تجارا وفيهم حرص شديد على جمع التجارة ، فأى شىء نفعهم ذلك ، وهل كان ذلك سببا لتقدمهم على غيرهم ، فقد مكثوا سنين متطاولة على هذه التجارة وما نالوا ملكا وسلطانا بها ، غاية مافى ذلك أنهم بقوا على مكانتهم وحرمتهم لا بسبب التجارة بل بسبب البيت الحرام . وقد علم أن الصحابة الذين قاتلوهم يوم بدر وغيره كانوا أقل منهم مالا ومع ذلك تقدموا عليهم وقهروهم ، وقد كانت الأمم المجاورة لهم أوسع تجارة وأعرف بكثير من هذه الأمور التجارية والاقتصادية والصناعية فكيف تقتصر على تجارة قريش فى هذا الاحتجاج الساقط . ولقد كان من المعلوم بالضرورة من دين الاسلام ان هذا التقدم الذى ناله العرب وقريش انما كان بسبب الدين العظيم والقيام به ، وان التجارة لادخل لها فى

ذلك البتة ، فإن الامم التى حاربتهم أعظم منهم تجارة وأكثر عدة وعددا ، وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يغزون بعض الغزوات مع النبي ﷺ فى حالة معروفة من الفقر والعوز فقد غزوا غزوة تبوك وكان أحدهم لا يناله فى هذه الغزوة فى اليوم إلا تمرة واحدة ، وقد ثبت فى الصحيح أنه ﷺ كان يأخذ الشهر والشهرين لا يوقد فى بيته نار ، ومن تتبع ما عليه الصحابة من أول وقت النبوة علم يقينا ما هم عليه من عدم التجارة وضيق العيش ، وأنهم انما نالوا ما نالوه من العزّ والتمكين والتقدم على غيرهم بايمانهم القوى وعزيمتهم الصادقه وتزودهم بزاد التقوى ، ليس ذلك بسبب التجارة ، فان الكفار الذين قاتلوهم وأخذوا مما لكهم كانوا أوسع تجارة واحسن أثاثا ورياشا . ولو أن قائلا عارض هذا المخذول واحتج على فضل الفقر بما جرى للصحابة من التقدم والتمكين مع ما هم عليه لم يكن احتجاجه بأضعف من احتجاج هذا الزائغ

ونحن نقول ان الواجب بذل الجهد فى تحصيل الأسباب الدينية والدنيوية واستعمال جميع الوسائل التى بها عزّ الاسلام والمسلمين ، وأن يؤخذ لكل زمان وحال ما تحتاجه الامة فى قوام دينها ودنياها . ثم انه أخذ يوسع الكلام كعادته فى كون قريش والعرب حريصين على جمع التجارة وجمع الأموال والاستمتاع بها ، وقد عرفناك سقوط هذه الحجة ، وأنه لا يحتج بها إلا أعمى البصيرة ، وقد عرفت أن ذلك لم يقدمهم على غيرهم ، وانما قدمهم الايمان والاعمال الصالحة ، وعرفت أيضا أن هذا الى القدح فى التجارة أقرب من المدح لها ، واننا لم نمدح الاكتساب ولا الاستغناء باعمال الجاهلية ، بل بالدلائل السمعية والعقلية

فصل

ثم شرع يستدل على حب الجمال والتوسع فى الاستمتاع به فقال :

«وقد كان حب الجمال دائما هو مبدأ حب الحياة ، ومن الممكن أن يقال

على نحو آخر إن حب الحياة بداية حب الجمال فأنت صادق إن قلت أحب الجمال فأحب الحياة أو قلت أحب الحياة فأحب الجمال ، وقد بلغ العرب فى أيام الجاهلية (١) فى حب الجمال مبلغا جعلهم يكادون يصيرونه أى الجمال ويصيرون التغنى به موضوع شعرهم وأدبهم وخيالهم المشبوب ومنطقهم الدفاق» ثم أطال فى توسيع هذا المعنى بان العرب كانوا يحبون الجمال ، وأسهب فى الاستدلال عليه ، ولا حاجة الى ذلك فان المسلمين لم ينكروا حبّ الجمال بل حثوا عليه ورغبوا فيه وأوجبوا حبه ، ولكن الشأن فى معرفة هذا الجمال ، فانه جعل الالحاد وانواع الاخلاق الخبيثة القبيحة هى الجمال ، وجعل الجمال البديع الحقيق الذى أعلاه عبادة الله ودعاؤه وذكره واتباع شريعته المطهرة وما تتضمنه من العدل والتزكية والتربية العالية كل ذلك عنده ليس من الجمال ، بل جعله خبيثا وقبيحا قبحه الله ، فانه جعل الدعاء مصرفا خبيثا وجعل المنابر والمساجد أدت شرّ ما يؤدى حيث قال « فأقبح بها من منابر أشاعت الموت والظلام » الى آخره فجعل التسبيح والتقديس ومصدر كل جمال شرا وقبحا . وهذه هى عادته فى عكس الحقائق ، ولهذا فانه استدل بأفعال الجاهلية وأعرض عن الكتاب والسنة وكلام أئمة المسلمين فى حب الجمال والزينه وبيانهما ، والمسلمون ولله الحمد على صراط مستقيم فى حب الجمال وغيره ، فهم يحبون الجمال الذى هو الجمال حقيقة كما يحبون الطيبات التى هى الطيبات حقيقة ، فيحبون ما أعطاهم الله من فضله وأباحه لهم من النساء والبنين والأنعام والحرث والأثاث وجميع المتاع ونحو ذلك الحب المشروع المعقول ويبغضون ما يناقض ذلك مما يدعى كل زنديق أنه جمال ، وهو فى الحقيقة ليس بجمال بل هو القبح بعينه كأنواع المحرمات من الفواحش وذرائعها كالرقص وسائر الملاهى والخمر وأنواع المسكرات وأمثال ذلك ، فمن ادعى أن المسلمين يكرهون الجمال

---

(١) نسى المسكين دعواه أنهم لا يبعدون كثيرا عن الطور الحيوانى

مطلقا فقد كابر وباهت ، ويكفى فى تكذيبه هذه الأمور المشاهدة فى أخلاقهم ولباسهم ومساكنهم وفرشهم وجميع أمتعتهم وغيرها ، ومن ادعى أن كل ما يراه بعقله جمالا فهو جمال من فواحش وغيرها فقد ضل وتناقض ، ولا يمكنه بحال أن تقبل دعواه ، لأن آراء الناس وأذواقهم تختلف وليس كل جمال عند انسان يكون جمالا عند سائر الناس ، بل الجمال الحقيقى هو ما يلائم النفس مما أباحه الله ورسوله من الزينة والطيبات ، والقبح ما يخالف ذلك . قال تعالى ﴿ قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أن الجمال كله والطيبات كلها للذين آمنوا فى الحياة الدنيا وأنها خالصة لهم يوم القيمة ، وتضمنت أن الملاحدة والمنسلخين من الدين ليس لهم نصيب من الزينه والطيبات مطلقا فى الآخرة ، أما فى الدنيا فان ما معهم منه فهو كعارية مستردة أخذوها بسبب المجاورة للمؤمنين لا بالأصالة . ولا شك أنه سيكون حظهم منها على هذا تافها ظاهريا فقط ، فهذا الرجل أبعد الناس عن الجمال والطيبات لانه ملحد منسلخ لا نصيب له فى الايمان فلا نصيب له فى الجمال ، فان كان قد نال منه شيئا فان ذلك بسبب ادعائه ومجاورته المؤمنين كالحيوانات التى تدخل تبعا لغيرها فقد يحصل لها شىء من اللذة فى الاكل والشرب وغير ذلك ، فالجمال الحقيقى هو أبعد الخلق منه فلا يسوغ له فى العقل والدين أن يدعى حب الجمال كما لا يجوز له أن يتشبع بما لم يعطه فالمتشبع بما لم يعطه كلابس ثوبى زور ، ولا يحل لنا أن نقره ونقبل دعواه هذه لمصادمتها للحقائق ، فلا ينبغى السكوت عن هذا الادعاء المنكر فانه قد ثبت ثبوتا كالشمس ما هو عليه فى آرائه وافكاره الباطنة والظاهرة

فصل

ومن عجيب أمره أنه ترك جميع ما ورد فى فضل الجمال وحب الزينة المباحة

واستدل على ما ادعاه من فضل المال وفضل الكسب بقول خديجة رضى الله عنها للنبى صلى الله عليه وسلم « انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » وذكر أن رجلا مشركا قال لابى بكر مثل ذلك (١) قال « والشاهد فى الروايتين قوله تكسب المعدوم أى تكسب الشىء المعدوم الذى لا يستطيع أحد سواك أن يكسبه لبعد مناله ، ولان كسبه يحتاج لوسائل قوية وأعمال بارعة حاذقة وأساليب هى القوة والمهارة ونفس متوثبة طموح ، وهذا يساوى أن يقال : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لرجل تاجر ماهر ، وأن يقال ان مثلك لا يخرج ولا يخرجه الناس (٢) لانك رجل تفوق الرجال جميعا فى القدرة على كسب المال وعلى النجاح فى التجارات ، وهذا آية فى أن قريشا كانت ترى القدرة على كسب المال وعلى الثراء الممتاز من فضائل الرجال النادرة المعدودة »

والجواب أن يقال قد تقدم الكلام عن مثل هذا ، وأن المسلمين يرون كسب المال وانفاقه فى موضوعاته المشروعة من أفضل الأعمال . ثم كلامه هنا على هذا الحديث غير مستقيم ، فان دعواه فى قولها تكسب المعدوم أنك تاجر ماهر تفوق الرجال فى القدرة على التجارة دعوى باطلة ، فلم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه المنزلة حين قالت له خديجة ذلك ، وقد صانه الله عن أن يكون همه وبذل جهده هو جمع التجارة والمهارة والتفوق فيها ، وكذلك أبو بكر فانه لم يكن معروفا بهذه الخصلة ، وسيرته مشهورة . ثم كلامه يتضمن أن كل من هو متفوق فى التجارة والقدرة عليها لا يخزيه الله أبدا ، وقد قرر هذا

---

(١) لم يقتصر على قول خديجة حتى أضاف اليه قول هذا المشرك ليكون أقوى له عنده

(٢) ليس فى الحديث نفى للخروج ، وانما فيه نفى الخزى ، ولكنه يتخبط تخبط الأعمى

المخذول فى أغلاله هذه أن اليهود أمهر الناس فى معرفة التجارة وأقدرهم على تحصيلها فعلى هذا لا يخزيهم الله أبدا ، ومعلوم أن الله قد أخزاهم خزيا عظيما ، فهذا الذى ادعاه كما أنه باطل فهو لم يقع وليست المهارة فى التجارة ممدوحة مطلقا ولا مذمومة مطلقا ، بل ان كان المطلوب من التجارة العفة والتقوى على طاعة الله وصرفها فى وجوهها المشروعة فهى ممدوحة ، وان كان المراد بذلك عكس هذا كالمفاخرة والرياء والسمعة وانفاقها فى المحرمات فهى مذمومة ، وليس المراد بكسب المعدوم فى الحديث المهارة فى التجارة والتفوق فى طلبها - كما زعم - فالحديث لم يدل على هذا ولا أشار اليه ، انما فيه الثناء على كسب المعدوم ثم انفاقه فى وجوهه المشروعة ، والكسب يوجد بدون مهارة فالمهارة كسب خاص ، ولو كانت خديجة تريد ذلك لوصفت هذا الكسب بالمهارة أو التفوق ونحو ذلك ، ثم ان خديجة لم تقتصر على نعته بكونه يكسب المعدوم فقط بل ذكرت هذه الاوصاف كلها فباجتماعها توجد نتيجتها ، أما مجرد كسب المعدوم فقط فليس فى الحديث ما يدل عليه ، ولا فضيلة فيه إلا بقرينة مشروعة ، وإلا فكم من كاسب معاقب ومأزور ، فالسارق واللص ونحوهما يكسبون المعدوم وهم مذمومون . وهذا الرجل اقتصر على ما ظنه موافقا لهواه وترك الخصال الاخرى التى تضادّ رأيه ودعايته ، فاى حجة له فى هذا على ما يقصد ، بل هو حجة عليه ، لأن دعايته ترمى الى الجشع الشديد والحرص على كسبه من كل وجه ثم البخل به مطلقا كما هى سجيته المعروفة فيه ، وهذا ينافى مقتضى الحديث ، لأن فيه الاعانة على نوائب الحق وصلة الرحم وهذا هو الذى دعى اليه المسلمون من الحث على كسبه وانفاقه فى وجوهه النافعة ، وهذا هو العدل . ثم الحديث أيضا حجة عليه من ناحية اخرى لان فيه الترغيب على صلة الرحم ولا يعرف احد أشد من هذا الرجل بعدا عن صلة الرحم ، وقد قدمنا أن له والدة موجودة الآن قد غاب عنها ما ينيف عن ثلاثين سنة ولم يعرفها بشىء من الصلة لا رسالة ولا نفقة ولا غيرها وأما أبوه فقد مات فى

صغره ، ولهذا أخزى الله هذا الرجل خزيا ليس وراءه خزى وجعله بالحالة التى ظهر بها فى أغلاله

فصل

ثم أطال فى مدح اكتساب المال وحب الجمال وأن قريشا كانت حريصة على الكسب وتنمية التجارة ، وتقدم الجواب عن هذا ، ثم ذكر أن العرب كانوا فى استعداد تام بسبب التجارة عند ظهور النبوة ، وأن الاماكن المجاورة للجزيرة قد أثقلتها الاديان المحرفة وانهم فى حالة سوء ولذلك وصلوا الى ما وصلوا اليه ، وكل هذا كذب وفجور ، وهو يرمى الى قصد خبيث وهو أن العرب انما تقدموا على غيرهم لاستعدادهم فى التجارة وفساد ديانة مجاوريهم ، لم يتقدموا بسبب الدين الذى جاء به محمد ﷺ ، ولا أشد جراة وخبثا وإلحادا وعنادا من هذه الدعوى نعوذ بالله من الخذلان . وقد سبق الكلام على مثل هذا أول الكتاب وفى مواضع أخر . ثم أخذ فى التشنيع على المؤلفين الأولين وادعى أنهم لم يؤلفوا كتبا نافعة وأنهم أكثروا من تأليف الكتب المشتملة على امتداح الآلام والعذاب والأمراض والأسقام والجهل والغباء والجنون والخبل ، وقد تقدم الجواب عن هذا كله وبينا أنه تشنيع بحت يقصد به اشانة الملة الاسلامية الغراء وتكريه بعض العلماء فى قلوب الرؤساء وقلوب الجاهلين بأحوالهم ، وقد أكثر من هذه الدعاية الخبيثة فى نبذته العجفاء التى سماها (كيف ذل المسلمون) وفيها من الجنون والتخليط والخبط والتشكيك فى الدين ما يطول وصفه ، ولا تصلح تلك النبذة مقدمة للصراع بل هى مقدمة للصراع الذى صرع فيه فى هذه الاغلال وان هذا هو اللائق بها ، وقد بينا أنه ان كان يريد ان جميع المسلمين صنفوا فى هذه الآراء التى ادعاها فقد كذب ، فان الكتب المصنفة فى الآداب والتوحيد والطب والنظافة وفضل الاكتساب أكثر من أن تحصر . وان كان يريد أن فى المنتسبين الى المسلمين من صنف فى

ذلك فيقال وفيهم أيضا من صنف فى الالحاد وفى الشرك وعبادة الأصنام وعبادة القبور والصالحين وتعطيل صفات رب العالمين وفى السحر والمجون وأنواع الملاهى ، فما بالك أعرضت عن هذا كله وهو أشد ضررا فلم تذكر شيئا من هذه الكتب ولم تشنع على أهلها بل ضربت صفحا عنها ، فما سبب هذا الاعراض والسكوت ، وقدكان الواجب عليك فى مثل هذه الامور أن تبين من دعا الى هذه الامور التى أنكرتها ثم تبين حجته ثم تبين مخالفته ثم تذكر ما يعتمد عليه ، أما مجرد مجازفتك ورميك المسلمين بهذه المقادح بمجرد الدعوى فهذا مما يدل على سوء سريرتك وخبث طويتك ، وهذا هو الواقع الذى لا ريب فيه ، وما أحسن ما قال الامام أبو الوفاء بن عقيل فى هؤلاء الذين جعلوا أقصى ما لديهم هو التحسر على الدنيا والغفلة عن الدين وعدم المبالاة بتضييعه حيث قال [1] « من عجيب ما نقدت أحوال الناس كثرة ما ناحوا على خراب الديار وموت الاقارب والاسلاف والتحسر على الأرزاق بذم الزمان وأهله وذكر نكد العيش فيه ، وقد رأوا من انهدام الاسلام وتشعث الاديان وموت السنن وظهور البدع وارتكاب المعاصى وتقضى العمر فى الفارغ الذى لايجدى ، فلا أحد منهم ناح على دينه ولا بكى على فارط عمره ولا تأسى على فائت دهره ، ولا لذلك سبب إلا قلة مبالاتهم بالاديان ، وعظم الدنيا فى عيونهم ضد ما كان عليه السلف الصالح يرضون بالبلاغ وينوحون على الدين » انتهى

ثم قال « وانى استطيع أن أقول هنا ، ولست أشك فى صدق ما أريد أن أقول ، اننا لو حشدنا جميع المؤلفات التى تركها هؤلاء (يعنى المؤلفين) ثم جهدنا أن نخرج منها كتابا واحدا أو رسالة واحدة لا تمدح الفقر والشقاء ولا تذم الحياة والجمال لأعوزنا هذا الكتاب ، ولما وجدنا تلك الرسالة . وقد

---

(١) الآداب الشرعية ج ٢ ص ٢٥٦

اطالوا الكلام جدا ولونوا الحجج والأساليب فى الثناء على هذه الآفة ومشتقاتها ـ أعنى الفقر ـ وقد ذكروا أن أعمال الخير كلها تنطوى تحت هذه اللفظة وأنه ـ أى الفقر ـ كل شىء »

والجواب أن يقال أولا قولك « ولا أشك فى صدق ما أريد أن أقول » يقال ونحن لا نشك فى كذب ما قلته ، واذا كنت لا تشك فى صدق نفسك فهل تريد أن تدعو الناس الى أن يأتموا بك فى ذلك ، أم تريد أن تجعل الناس كالانعام « إذا مشيت فكلهم فى أثرك ، وان وقفت فما فى الناس من يجرى » كما تقول . فما هذه الفضول والرعونات الفارغة ، وسواء كنت صادقا فيما ادعيته من أنك لا تشك فى صدق نفسك أو كاذبا فليس بواجب على أحـــد من الناس أن يقبل قولك بمجرد دعواك أنك لا تشك فى صدق ما تقول ، كيف وقد حكى الله سبحانه وتعالى عن بعض خلقه أنهم عملوا أعمالا معتقدين أنهم على هدى فيها وكانوا على أبعد الضلال ، فقال تعـــالى ﴿ قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ ، وقال تعالى ﴿ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة انهم اتخـــذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ ، وقال تعالى ﴿ أفرأيت من زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ الى أمثال ذلك من النصوص الكثيرة الصريحة الدالة على أنه ليس الكفر والضلال محصورا فى معرفة الحق وتركه عنادا ، بل من أعرض عن طلب الحق ورضى بما هو عليه من الرأى أو قدم آراء أسلافه أو غيرهم واتبع هواه أو أنكر ما عرف بالضرورة من دين الاسلام فى أصول الدين فهو كافر سواء كان ذلك جهلا أو عناداً ، فمن بلغته الحجة بلاغا يمكنه فهمه بحيث يفهمها جنسه فأعرض عنها ولم يلتفت اليها ، أو فهمها وأعرض عنها فلا

شك فى كفره ، ومن رد ما علم بالضرورة من دين الاسلام فهو كافر ، وإلا لساغ لكل كافر أن يدعى فى كل حجة أنها لم تظهر له ، وأصول الدين واضحة كالشمس ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية [1] «كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر ، سواء اعتقد كذبه ، أو استكبر عن الايمان به ، أو اعرض عنه اتباعا لما يهواه ، أو ارتاب فيما جاء به . فكل مكذب بما جاء به فهو كافر ، وقد يكون كافرا من لا يكذبه اذا لم يؤمن به ، ولهذا أخبر فى غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك اتباع ما أنزله ، وان كان له نظر جدل واجتهاد فى عقليات وأمور غير ذلك وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين » انتهى . وذلك لان المقصود من الرسالة أمران أحدهما التصديق الخالص ، والثانى المتابعة والانقياد ، وهو أمر مجمع عليه عند المسلمين كلهم ، فان من صدق الرسول ولم يتابعه ويذعن لما جاء به فهو كافر ، فان فرعون مصدق برسالة موسى ولكنه أبى أن يتابعه استكبارا كما قال تعالى حاكيا عن موسى أنه قال ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والارض بصائر ، وانى لاظنك يا فرعون مثبورا ﴾ ومحال أن يقسم موسى على شىء لم يثبت وقال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ وكذلك كان أكثر كفار قريش أو كلهم علموا صدق الرسول ﷺ فتركوا متابعته اتباعا لاهوائهم كما قال تعالى ﴿ قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ فهؤلاء كلهم مصدقون بالرسالة ولكنهم كفار لانهم لم ينقادوا لما جاء به ، فاذا لم تحصل المتابعة لم يحصل الايمان ، سواء كان ذلك عنادا أو اعراضا عن طلب الهدى ، وأصول الدين كلها واضحة كالشمس ، كما قال عليه الصلاة والسلام « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » ، وكل ذى عقل يعلم

---

(١) فى كتاب العقل والنقل ص ٢٢٩ ج ١

أن من قصد اتباع الحق واجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد والحرص فلا بد أن يتبين له الحق بيانا واضحا جليا ، كما قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ وقال تعالى ﴿ الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب ﴾ فمن أناب الى الله هداه اليه والى ذكره بلا شك ، فالذى يريد الهداية فليسلك طريق الانابة ، والانابة هى الرجوع الى الله وقصده وطلب توفيقه ، وطريق الضلال عدم الانابة عن استكبار وتمرد واتباع للهوى والاسلاف ونحو ذلك . وقد وجد المنافقون والزنادقة ـ كهذا الملحد ـ طريقة الخداع والمكر ظلا باردا يلجئون اليه ويستريحون فيه متى عوتبوا على ما يصدر منهم من الأمور الكفرية فان هذا الملحد كثيرا ما يقول لمجالسيه ومعارضيه وفى كل مكاتبة لمن يخافهم ويرهبهم : اننى ما قصدت إلا الحق والاحسان ، ولكن الناس لم يفهموا كلامى . وقد أضل بهذه الأعذار البسيطة من طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، فاخذ بعضهم يعتذر عنه ويقول : قد يكون له قصد حسن ، وما درى هؤلاء أن هذا الاعتذار هو عين اعتذار المنافقين الأولين الذين ذكر الله عنهم أنهم فى الدرك الأسفل من النار ، ان كثيرا من الكفار أيضا يعتذرون بهذه الأعذار نفسها ، حتى فرعون فانه قال لقومه ﴿ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ ، وقال تعالى عن المنافقين ﴿ واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون ، ألا انهم هم المفسدون ﴾ الآيات . وقال تعالى ﴿ ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ، واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ، فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ، أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ، وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ، ولو أنهم اذ ظلموا

انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ . فليتأمل العاقل مافى هذه الآيات من العبر العظيمة ، وليزنْ نفسه ودينه بها ليكون على بصيرة من أمره ، فقد بين الله فيها صفة المنافقين بيانا أوضح من الشمس ، وبين فيها حالة المؤمنين حقا . وقال تعالى ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا الا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون ﴾ ولو أن المسلمين أطاعوا كل من تزندق وقدح فى الاسلام والمسلمين وادعى أنه يريد الاصلاح لفسد الدين ولسادت الفوضى فيه وعبث به ولعب كل من شاء من أصناف بنى آدم ، فان الله جعل لكل شيء قدرا فجعل للصادق دلالة على صدقه والكاذب كذلك جعل له علامة على كذبه فمن هجم على دين الاسلام وأهله وأضاف اليه واليهم كل ما خطر على باله من المقادح التى لا تبقى ولا تذر ثم ادعى أنه مجتهد وأنه يريد الاحسان فلا شك أن من صدقه فهو مصاب فى دينه وعقله ، فعليه أن يبكى على نفسه ، وليعالج عقله ، وليعلم أنه لم يعرف دين الاسلام الذى يدين به ربه بحدوده الشرعية ، فان أكفر يهودى أو غير يهودى لا يعجزه أن يفعل هذا ويقضى غرضه من العداء والمكر والخبث ويدعى كهذه الدعوى ، ونحن لا نشك فى أن هـذا الملحد يعلم حقيقة العلم أن ما صنعه فى هذه الأغلال مضاد لشريعة الاسلام وغيرها من الأديان مضادة لا ريب فيها ، ولكنه اضطر الى النفاق والمخادعة لأمور مفهومة يعرفها أكثر الناس ، وما ذكرناه فهو على فرض أنه لا يعلم جدلا ، والا فنحن نباهله على أنه لا يعلم ذلك ونعوذ بالله أن تبلغ بنا الجهالة والحماقة وفساد العقل الى أن نصدقه فى خداعه ومكره ، فان هـذا من أعظم الضلالة والعماية والغواية عن سواء السبيل . أما دعواه أنه لو حشد جميع المؤلفات « لم يجد كتابا واحدا ولا رسالة واحدة خالية من مدح الفقر والشقاء

وذم الحياة والجمال ، فيقال له ان أردت أن كتب أهل العلم من أهل السنة المعمول بها موجود فيها هذه الأشياء فاياك أن تحشدها فانك لا تجد فى واحد منها شيئا مما ذكرته على ما تريده أبدا بل ولا كلمة ولا نصف كلمة ، وان أردت بالمؤلفات مؤلفات أسلافك من الاتحادية وأضرابهم فالمسلمون مخالفون لك ولهم فى كل ما تقولونه فى أصول الدين وقواعد الاسلام وفروعه ، مع أن فى كتب هؤلاء أشياء أخرى تضادّ ما ادعيته ، فلا يصح توجيه هذا البهت الى المسلمين على كل تقدير . وياليتنا نعلم فى أى كتاب من كتب أهل السنة وجدت مدح الشقاء ، وان كلمة الفقر تنطوى تحتها أعمال الخير ، وان كلمة الفقر هى كل شىء ، لو تكلم بهذا الكلام صبى يسيل لعابه على صدره لا ستكثر الناس منه ذلك فكيف بصاحب الحقائق الأزلية الابدية التى تتركها أمة فتهوى وتأخذ بها أمة فتنهض واذا مشى فكل الناس فى أثره واذا وقف فما فى الناس من يجرى

فصل

ثم ذكر روايات يزعم أنها فى ذم الغنى ومدح الفقر ولم يعزها الى شىء من الكتب ، وليس فيها ما يدل على مراده أبدا ، ومع هذا فادعى أنها مزورة ، واذا كان مدعيا تزويرها فالجواب عنها كالجواب عن الروايات التى أوردها فى أول البحث ، لكن فى هذه أحاديث حرّفها كقوله عليه السلام « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » فادعى أن المساكين هم الفقراء البائسون اليائسون ، وادعى أن القرآن يدل على هذا ، وهذا كذب وفجور على اللغة وعلى الشرع ، بل المساكين هم من يجدون بعض كفايتهم المعيشية فقط كما قرر ذلك الفقهاء ، وهذا لا علاقة له ببؤس ولا يأس ، فكم من فقير أشجع وأنشط وأدين وأثبت وأعقل وأعلم من مائة غنى أو أكثر ، وهل ضر الصحابة الذين غزوا الروم وهم على تلك الحالة المعروفة ما أصابهم

من القلة ، وهل يقال انهم بائسون يائسون ، فالشجاعة والنشاط والدين والهمة العالية ليست مربوطة بالدرهم والدينار ، وانما هى مربوطة بالقلوب والأديان ، والدرهم والدينار مادة واحدة ضعيفة من مواد كثيرة فى حياة الانسان وقوته وصحته ونشاطه ، ولا يلزم من ضعف هذه المادة الواحدة ضعف حياة الانسان ، فان مادة الدين ودعاء الله وعبادته أعظم مادة للقلوب وحياتها الصحيحة ، والفقر من هذا هو الفقر المدقع المميت ، وانما التجارة سبب من الاسباب اذا استعملت على وجهها نفعت ، وإلا فقد تكون سببا للموت .

وكذلك انتقاده على حديث «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها» فقد حرّفه كعادته فانه حذف آخره الذى يبين المراد من الدنيا الملعونة وأنه ليس جميع ما فيها ملعون فانه قال « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، الا ذكر الله تعالى وما والاه ، أو عالم أو متعلم » وليس فى هذا ما ينتقد ، فان الامور المباحة والمشروعة اذا استعملت على وجهها داخلة فى قوله عليه السلام « وما والاه » وأما الامور المحرمة فلا شك أنها ملعونة وملعون أهلها وملعون من احبها ودعا اليها . ومن العجب انتقاده حديث « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » وهو حديث صحيح متفق عليه ، ولعله استغرب واستشكل كونها بهذا الرخص عند الله مع كونها غالية عنده وعند اليهود ، فكيف تكون الى هذا الحد فى الرخص عند الله بحيث تكون أرخص من جناح البعوضة ، فان هذا رخص عظيم جدا لا تطيقه نفسه ولا يمكن أن يدخل عقله ، وكيف يبخل عن والدته الشفيقة بادنى رسالة وتكون الدنيا كلها من أولها الى آخرها عند الله أرخص من جناح بعوضة مع صغر جناح البعوضة وضآلته وضعفه وحقارته ، ويا ليته لاحظ رخص الآخرة بل والدين وأهله فى عينه مع عظم هذه الأمور وجلالتها ليكون على بصيرة ، ولهذا فانه أورد هذا الحديث فى التشنيع على المسلمين ظنا منه أنهم يحبونها كحبه لها ، هذا مع كون الحديث لا علاقة له بأمر ولا نهى وانما فيه اخبار من الله لئلا

يغتروا بها ويركنوا اليها ، وليس فيه انكم ايها المسلمون اجعلوا الدنيا عندكم كذلك ، ثم انه عليه السلام برهن على ذلك بقوله ما سقى كافرا منها شربة ماء ، وهذا برهان قاطع اذ كونه سبحانه يعطى أعداءه منها عطاء موفورا مع محاربتهم له ومبارزته بالعظائم دليل على أنها ليست بشىء لديه ، وفيه تسلية عظيمة للمؤمن ، وليس فيه منع للتكسب ولا للاجتهاد فى العمل والتجارة ، فان الاكتساب للعفة والاستغناء غير الاكتساب للرياء والفجور ، فالمؤمن ربما انه اذا رأى الكافر غنيا مع ما هو عليه من المعاصى والكفر يستغرب هذا ، فأخبر بان الدنيا ليست عند الله بشىء ، إنما الشىء العظيم هو الدين والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ وكما قال تعالى ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ وقد انتقد أيضا حديث «ماذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» رواه أحمد وصححه الترمذى ، وقد أورده هذا الرجل بلفظ ماذئبان ضاريان أرسلا فى غنم بأسرع فسادا فيها من امرىء فى دينه يحب الشرف والمال وهذا اللفظ الذى أورده خلاف اللفظ المشهور ، وهو لم يعزه الى شىء من الكتب بل أورده كعادته على وجه التهكم ، وفيه تحريف بشع ، لان الفرق بين هذه الرواية التى ذكرها وبين الرواية التى ذكرناها فرق واضح ، لان الرواية الاولى فيها لفظ الحرص وهذه فيها لفظ الحب وفرق ظاهر بين الحب والحرص فليس كل من أحب شيئا حرص عليه ، وهذا الحديث الذى انتقده المعارض من جوامع الكلم الذى أوتيه صلوات الله وسلامه عليه ، فان هذا الحديث العظيم اشتمل على أمرين عظيمين وهما التحذير من الحرص على الشرف وعلى المال ، وشبه حرص الانسان عليهما بالذئبين الجائعين ، لأن الحرص على المال يوقع فى الجشع والخيانة والرشوة وابتذال العرض والسرقة وشهادة الزور ، كما يوقع فى الذل والخضوع ودناءة النفس وسقوط المروءة ، بل ربما يوصل

الى الكفر ، ولا شك أن هذا يفسد الدين . فهو كالذئب الضارى ، لأن اندفاع الانسان استرسالا مع هذا الحرص كاندفاع الذئب الضارى لهذه الغنم التى تغتنم وينتفع بها الانسان باحسن الانتفاع ، فهى كاعمال الدين . وأما الحرص على الشرف فهو يوقع فى الفتن وسفك الدماء والفوضى والكبر والاعجاب وغمط الحق والمكر والاحتيال وكذلك الأعمال التى يوجبها الحرص على المال فأكثرها مشترك بين الحرص على هذا وهذا . وهذان الخلقان هما اللذان ذكر الله سبحانه عن اليهود فى قوله ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ فالاول فى الحرص على الشرف والثانى الحرص على المال ، وهذا جماع الحرص على حب الشهوات ، كما أن تحريف الكلام هو جماع الانقياد للشبهات ، ومتى اجتمع حب الشهوات واتباع الشبهات تمت الخسارة وحلت موجباتها ، ولهذا كان اليهود من أشد الناس تعلقا بهذين الخلقين ، وقد كان لهذا الملحد الحظ الأكبر من ذلك مع زيادة الردة وعداوة الأديان . ومن لطف الله أنه لم يقدره على شىء بل ولم يمكنه من أدنى وظيفة والله بعباده خبير بصير . ولا شك أن الحرص الشديد على حب الشرف ربما يؤدى الى الكفر كما فعل جبلة بن الأيهم وغيره كما قال عليه السلام « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» ولا شك أن هذا الحرص كالذئب الضارى الذى يفسد الغنم فان هذه الاخلاق تفسد الدين أعظم من فساد الذئب للغنم ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لم ينكر طلب المال من وجهه واكتسابه من وجهه ، بل رغب فى ذلك وأمر به ، وإنما نهى عن الحرص والجشع الذى يفسد النفس ويذهب المعنوية الانسانية ، فلا وجه لانتقاده ، مع أنه كان من الواجب عليه اذا أراد أن يعارض فى مثل هذه الأمور أن يتكلم فى صحة الحديث أو ضعفه ، ثم يبين ما اشتمل عليه من المعانى ، ثم يبين مخالفته لما ينبغى ، وهو لم يفعل شيئا من ذلك ، وما ذكرناه على الحديث زيادة فائدة ، وإلا فمجرد مطالبته ببيان وجه الانتقاد كاف فى رده ، وهو انما يهمه انتقاد الأحاديث فقط ، وسواء

كانت صحيحة أو ضعيفة انما يهمه نصرة رأيه من غير نظر الى هتك حرمة الأحاديث ومعاندة من قالها ، فهو يكتب فى أغلاله كل ما خطر على باله مما يوافق هواه ولا يبالى ، لأن غرضه الذى يقصده لا يتم فى رأيه الا بذلك ، وقد فقد الخوف والدين والحياء فلم يبق لديه مانع من الفجور والقحة يحجزه ، لأن هذه الموانع قد زالت وحل محلها الاستهتار والقحة وعدم الدين

واعلم أن جميع ما ينتقده على الاحاديث الصحيحة هو من جنس انتقاده هذا ، فنكتفى بمطالبته فى كل حديث يورده على وجه الانتقاد بيان صحته أو ضعفه وبيان معناه وأن المسلمين عملوا به ، وإلا فايراده والاحتجاج به ممنوع ومضروب به وجهه ، لأنه تهكم واستهزاء لا طائل تحته ، وليس من التحقيق والعلم فى شىء لأنه يدل على سوء طوية وقد أعرض عن الأحاديث الكثيرة الصحيحة فى مدح التكسب والاستغناء وتحريم البطالة والسؤال لغير حاجة وتمسك بما لادلالة فيه

اذا عرف هذا فاعلم أن الأحاديث الضعيفة التى يوردها وكذلك ما ينقله عن كتب الصوفية ونحوهم لا تعلق له فيه بشىء ، لأنه لا يرد على المسلمين فان حكم الحديث الضعيف عندهم معروف وهو عدم الاحتجاج به ، وأما كتب الصوفية أو الاتحادية فقد أجمعوا على عدم العمل بها ومن حسن الظن بهم فانه يقول لا يجوز الأخذ بظاهرها ، فكان عدم العمل بها متفقا عليه ، وبهذا يندفع جميع ما بناه على هذه الروايات والنقول الصوفية ، على أن ما نقله قليل جدا بالنسبة الى ما افتراه وزوره ، فان أكثر كلامه اختراع أوهام لا حقيقة لها ، يخترعها ثم يشرع فى الرد عليها بعد أن يرمى بها المسلمين البرآء منها ، ومعلوم أن هذا لا يفعله إلا من أصيب فى دينه وعقله جميعا ، وهذا هو الواقع فى هذا الرجل المسكين المخذول المستكبر

فصل

ثم أخذ على النووى أنه أنشد ثلاثة أبيات فى أول كتابه رياض الصالحين فى الزهد ، وانتقده وحط عليه وشنع غاية التشنيع من أجلها لأنها فى القناعة ولا وجه لانتقاده وتشنيعه لأنها مع كونها ليس فيها مدح للشقاء والجوع ، وأن الخير كله منطو تحت كلمة الفقر فقد ذكر فى نفس الكتاب المذكور بابا فى فضل الاكتساب ، وساق فيه أحاديث فى ذكر فضل الاستغناء كذلك ، فما باله أعرض عن ذلك وتمسك بالابيات ، والنووى كغيره لم يرد ما عناه هذا الرجل أن الزهد هو التجرد من الدنيا ومن أسباب المعيشة ونحوها ، انما أراد ما أراده غيره من العلماء على ما شرحناه فيما سبق . ويا ليت هذا المخذول وازن بين أبيات النووى وبين أبياته التى سقناها فى مطلع هذا الكتاب ليعرف الفرق ، ولو أنه وازن بينه وبين أبيات كثيرة للاتحادية وأمثالهم فى تحريف الصفات والترغيب فى الشرك وغيره من الفجور والفسوق والاستهتار بالديانات لعلم الفرق ولعلم ما ينشأ عن ذلك من الأضرار العظيمة المضرة بالاسلام وأهله ، ولكنه لا يهمه ذلك لانه لا يرى لفساد الأخلاق دخلا فى تقدم ولا تأخر . ثم ذكر أن ابن أبى الدنيا وضع كتابا فى هذا الغرض فى ذم الدنيا فقال « وقد وجدنا كتبا كاملة قد وضعت لهذه الأغراض ، فوجدنا ابن ابى الدنيا وهو أحد الحادين بالفقراء يؤلف كتابا يسميه من غير أن يشعر أنه أخطأ أو أنه يمكن أن يعد مخطئا [1] فى ذم الدنيا ووجدنا كتبا كثيرة تسمى كتاب الزهد [2] وهذا كله معلوم لا فائدة فى الاطناب فيه »

فيقال : لا حاجة لك فى تتبع ابن ابى الدنيا والامام أحمد والنووى

---

(١) انما يعد مخطئا عندك وعند الملاحدة كما انك تعد مخطئا بل ومرتدأ بما فعلته فى هذا

(٢) يشير الى كتاب الزهد للامام احمد الذى طبع حديثا

وغيرهم فى تخطئتهم فى ذم الدنيا فانها اذا كانت الدنيا عندك هى الغاية الغالية وكنت كالمحامى عنها فوجه اللوم اذن الى القرآن الكريم فان الله تعالى ذمها وهؤلاء لم يقولوا فى ذمها أعظم مما ورد فى النصوص القرآنية والاحاديث النبوية قال الله تعالى ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ وقال تعالى ﴿ما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ وقال تعالى ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾ وقال تعالى ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وان الله لا يهدى الظالمين﴾ وقال تعالى ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ وقال تعالى ﴿انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار﴾ الى أمثال ذلك من الآيات التى لا تحصى مما فيه ذم الحياة الدنيا وتقديمها على الآخرة كصنيع هذا الملحد فانه رفض الآخرة رفضا باتا بل ادعى أن الايمان بها عامل تأخر كما يأتى ، وهذا عكس لدعاية القرآن ، كما أن أغلاله كلها كذلك ، وهذا الزائغ يذم ابن ابى الدنيا حين وضع كتابا يحذِّر فيه من الاغترار بالدنيا ويذكر فيه النصوص الدينية وهو قد صنع هذه الأغلال فى ذم الدين والدعوة الى نبذ الآخرة مستدلا على ذلك بأقوال الملاحدة والزنادقة ، فأين من ذم الاغترار بالدنيا ممن ذم الدين والآخرة فيكون هو من الحادين بالملاحدة اذا كان ابن أبى الدنيا من الحادين بالفقراء ، واذا كان هذا المخذول معترضا على ابن ابى الدنيا وغيره كالإمام أحمد حيث صنف كتاب الزهد المشهور وجعل سهل بن عبد الله التسترى أحد أصنام الزهاد فسماه صنما ، فليس هذا كله بعجيب ممن حارب الله ورسوله ودينه ، فان من فعل هذا فلا بد أن يفعل كل ما فيه مضادة للاسلام وأهله . والعجب أنه جعل سهلا التسترى صنما بمجرد تحذيره من الاغترار بالدنيا وجعل جستاف لوبون فيلسوفا عظيما وهو الذى ادعى أن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ، فانظر الى هذه العداوة المنكرة لعلماء الدين وشدة الولاء للملاحدة وأضرابهم ، وهذا الملحد قد أعرض عن جميع ما لأئمة المسلمين من

الفضائل العديدة والمواقف الحميدة فى نصر الاسلام والجهاد فى ذات الله ولم يعترف لهم بحبة خردل من فضيلة ، بل أخذ يتتبع ما وجد لهم من سهو وأخطاء تافهة لا يسلم منها إلا الأنبياء فيأخذ فى التشنيع الطويل العريض عليهم ويرميهم بالمقادح السيئة ، ثم مع هذا لم ينتقد ملحداً واحدا ولا زنديقا ولا أنكر عليهم قولا واحدا مع كثرة ما ينشرونه من القدح فى الديانات والاستهزاء والتهكم بها ، بل حمدهم على ذلك وعظمهم واعتمد أقوالهم وتمسك بها بكلتا يديه وجعلها حججا يحتج بها فى القدح فى دين المسلمين . ثم انه أعجب جدا بكلمة نسبها الى عمرو بن العاص وهى « اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا » وهذه الكلمة ان صحت عن عمرو بن العاص فليست مما يمدح عليه ، فان قول النبى ﷺ لعبد الله بن عمر « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، واذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، واذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لسقمك ومن حياتك لموتك » الحديث - خير من قول عمرو بن العاص وأحسن أثرا وأعظم فائدة . وقد يظن من عميت بصيرته أن حديث ابن عمر هذا يوجب الاعراض عما يجب من الدنيا ، وأنه يوجب التأخر ، وهذا ظن معكوس ، بل هذا الحديث يدل على الحزم والعزم ومواصلة السير فى العمل للأمور النافعة فى الدنيا والآخرة ، فانه يفيد أن الانسان يجب عليه أن لا يثق بالدنيا ولا يغتر بها فان ذلك يوجب الغفله والتساهل فى الاخلاد الى الذل والمسكنة وعدم الأخذ بالحيطة والحذر التام لما ينفعه فى دينه ودنياه ، ومعلوم أن الغريب يكون على غاية من الحذر من الناس وعدم الوثوق بمن يجهله ويستعد بما فى وسعه بما يقيم حاله ويثق بمن يعرفه ممن هو جنسه ، ولهذا أكده بقوله « وخذ من صحتك لسقمك » وهذا غاية الحث على العمل للدين والدنيا والبعد عن العجز والكسل ، وكذلك قوله « ومن حياتك لموتك » فيكون الانسان قويا نشيطا حازما يقظا ، وأين هذا من هذه القولة التى نقلها عن عمرو بن العاص ان صحت عنه وهى قوله « اعمل الدنيا كأنك تعيش أبدا »

فان هذا قول ساقط فان الذى يرى أنه يعيش أبدا لا يعمل للآخرة بل يرفضها ولا يعمل للدنيا عملا كبيرا بل ينسجم فى الراحة والكسل ويتراخى فى العمل لأنه يسوف نفسه بالعمل من وقت الى وقت آخر لانه يرى الزمان ممتدا أمامه، ففى إمكانه أن يقضى أمله متى شاء ، ويستمتع بشهواته فينغمس فى الملاهى والخلاعة ويقضى شهواته ، وهكذا تذهب به الايام لأنه يرى أنه سيعيش أبدا فلا يعمل عملا كبيرا ، ولهذا كان أكثر المنغمسين فى شهوات أنفسهم لبطونهم وفروجهم هم من أولئك الذين لا يفكرون فى الآخرة والموت وما بعده من الحساب والعقاب ، بخلاف المؤمنين الذين يستعدون للآخرة ويأخذون من صحتهم لسقمهم ومن حياتهم لموتهم فانهم أقوى نفوسا وأثبت أفئدة وأكبر وأكثر أعمالا وأصح آراء وأوسع عقولا ، فلهذا حافظوا على كلتا المصلحتين الدينية والدنيوية فاغتنموا أوقاتهم النفيسة الفاضلة

فصل

ثم أطال فى التشنيع على المسلمين بأنهم مدحوا الفقر والجوع والأمراض ، واخترع ما شاءت شهوته وهواه ، فأخذ يطعن فى الهواء ويحارب الأوهام ويخاطب الاحلام ثم قال «ولقد تطورت هذه الأعراض الجنونية عند هؤلاء تطورا مخيفا فذهبوا مدفوعين أمام هذه الأعراض والأمراض كل مذهب من طرق السخف والعماية » وأطال من هذا الهذيان والقدح فى الاسلام وأهله ، وكل هذا قد تقدم الجواب عنه وأنه فجور وزور وبهتان لا ريب فيه ، وأن الغرض المقصود منه أن الاسلام قد فسد فارفضوه ، وقد تقدم ما نقلناه عنه من الصراع أنه قال « وليس المسلم بالذى يتتبع أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين » الخ وقد بينا أن العلماء صنفوا فى الطهارة والنظافة وحب العمل والاجتهاد والتكسب ، وحرموا الاضرار بالنفس والبدن فى كتب أكثر من أن تحصى ، وهى مجلدات معروفة قد ملأت المكاتب ، وقل أن نجد كتابا

ليس فيه النهى عن الاضرار بالنفس أو يخلو من الحث على الطهارة والنظافة ، وهذا كتاب (فضل السعى والحركة) مجلد مستقل مطبوع كله فى الحث على العمل ، وأمثاله أكثر من أن يحصر

ثم ذكر عنهم أنهم لم يقفوا عند مدح الفقر والفاقة بل تجاوزوا ذلك وقاموا يمدحون الأمراض والأسقام ، وأطال من هذا ، ثم ذكر عن كتاب (الاحياء) للغزالى أنه نقل فيه قال : جاءت امرأة الى الرسول فقالت يا رسول الله ان عندى فتاة جميلة أحببت أن أهديها لك زوجة ، فقال قبلتها . ثم قالت : يارسول الله الا أنها لم تمرض . فقال عليه السلام : اذن لا حاجة لى بها » ثم ساق روايات من هذا الجنس ، وذكر أن السيوطى صنف كتابا فى هذا الموضوع . والعجب أنه كثيرا ما ينقل الروايات ثم يقدح فيها ثم يشنع على المسلمين بوجودها فى كتبهم مع علمه بأنهم لم يعملوا بها ، ومع علمه بأنهم لا يعتقدون أن أهلها معصومون من الخطأ ، ومع علمه بأنه قد يوجد فى هذه الكتب من الشرك ونفى الصفات وغيرها أضعاف أضعاف ما يوجد فيها مما ذكره ، ولكن هذا الملحد سريع الانطلاق الى نقل كل ما يجد فيه رائحة من القدح فى الدين ، والا فهو يعلم حقيقة العلم أن مثل كتب الغزالى وابن عربى وغيرهم لا يعتمد على كل ما فيها ، بل يعلم أن فيها بدعا تنافى الدين ، وقد كان من الواجب عليه لو كان يريد الحق انتقادها من هذه الناحية ، وهو يعلم أيضا أن كتاب الاحياء هذا قد قدح فيه كثير من العلماء ويكفى ما حشاه فيه من الأحاديث الموضوعة والضعيفة من دون أن ينبه عليها ، وقد جرى احراقه فى المغرب برأى جمع عظيم من علماء المسلمين فكيف يتتبع هذا الملحد أغلاطه ويجعلها سهاما يرمى بها الاسلام مع أن فيه من الثناء على النظافة وتجنب الامراض والأسقام وحب الاكتساب شيئا كثيرا ، ولو أن هذا الملحد وجه هذا التشنيع الذى شنع به على الغزالى الى جنس السبكى وابنه وابن حجر الهيتمى وأمثالهم من المتعصبين له المغالين فيه لكان أولى به ، أما توجيه التشنيع

بما فيه هو وأمثاله على المسلمين مع انكارهم له فلا يفعله الا خبيث السريرة مطموس البصيرة ، والله سبحانه قد بين لنا فى كتابه العزيز وجوب تجنب المضار وسؤاله العافية فقال تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين ﴾ وقد أمر عباده أن يقولوا ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ وقد قال ﷺ « اللهم انا نسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » وأمر بذلك وقال عليه السلام « اسئلوا الله العافية » وأمر بشيء من مبادىء الطب ، وأباح للمريض والمسافر والمرضع الفطر رفقا بهم ، وقال « يسروا ولا تعسروا » وكتب المسلمين فيها مالا يعد ولا يحصى من بيان الادوية واستحبابها ، وذهب كثير الى وجوب التداوى ، فما هذا الارجاف والصياح والجنون والتحامل المنكر فى الدعاية بأن المسلمين يمدحون الاسقام والأمراض والجوع والشقاء ، قبحه الله ما أجرأه وأفجره

فصل

وكذلك دعواه أن المسلمين يحرمون أو يكرهون البناء والعمران ، وأنهم ينسبون الى الدين أنه جاء بذلك ، كذب وبهت ظاهر بهذا الاطلاق ، وقد حاول أن يؤيد هذه الدعوى الكاذبة المرذولة بأن نقل بعض روايات فيها النهى عن البناء ، مع أنه اعترف بانها لم تصح ، فلا ندرى أهذا الملحد يشنع على المسلمين بروايتها أو بالعمل بها ، فان كلامه متهافت متناقض ، وأدنى رجل من العامة فضلا عن غيره يعلم أن المسلمين لا يحرمون البناء ولا يكرهونه وهذه كتب الفقه وغيرها من جميع المذاهب مملوءة بذكر البناء وحكم الجوار وأحكام بيع البيوت والدكاكين وغيرها ، فالحس والمشاهدة بالحواس كل ذلك يكذبه ، فان مدن الاسلام وقراه كثيرة معروفة

وليس يصح فى الاذهان شيء ... اذا احتاج النهار الى دليل

وأى فجور أعظم من الادعاء على المسلمين أنهم يكرهون العمران

ويحاربونه ، وهو يرى المسلمين كلهم من أهل القرى حالين فى البناء يدخلونه ويخرجون منه ويصلون فيه فى كل وقت وحين ، ومن بلغ به الفجور الى هذا الحد فقد بلغ الغاية فى الخبث والمكابرة وسوء الاعتقاد . ثم ان هذا الملحد لم يكتف بهذه الدعاوى الخبيثة بل تمادى به البلاء والشقاء وسوء القضاء الى أن أضاف الى المسلمين أنهم يمدحون القذارة والوساخة ونقل بعض روايات مجهولة لا تكاد تعرف وليست عن امام معروف مستدلا بها على هذا التزوير ، وضرب صفحا عن جميع ما قاله ونقله علماء الملة فى كتبهم من وجوب الطهارة والنظافة وتحريم مباشرة الأقذار والاوساخ ، وأدنى كتاب من كتب المسلمين موجود هذا فيه ، فأعرض عن هذا كله وتتبع مافى كتب الاتحادية من الصوفية ونحوهم ، فكأن عليه عهدا وثيقا بينه وبين الملاحدة أن لا يجد رواية أو خصلة فى رجل من مجموع من ينسب نفسه للاسلام فيها شىء من النقد والعيب إلا ذكرها وأضافها الى المسلمين ، وقد بينا أن الغرض من وضع هذه الأغلال هو تشويه سمعة الاسلام ، وهيهات وما كيد الكافرين إلا فى ضلال . وقد ألجأته الضرورة هذا المخذول الى أن احتج بأنه يوجد فى تذكرة الانطاكى شىء من هذا ، وادعى أنه كثيرا ما يوصى بأكل القمل والحشرات ، وهذا غاية ما قدر عليه هذا الزائغ ، ونسى أن فى تذكرة الانطاكى صريح الشرك الأكبر ومخاطبة النجوم ودعاءها ، وهو يعلم أن المسلمين يكفرون من فعل هذا مع أن الانطاكى هذا نفسه ذكر فى تذكرته هذه الحث على استعمال النظافة واجتناب الاوساخ أكثر مما ذكر عنه ، مع ان هذا النقل كذب بهذا الاطلاق - ثم أطال فى ذم الفقر والمرض والجهل على عادته فى تكرار العبارات والاسهاب فى المعنى الواحد ، وقد سبق الكلام عن هذا مرارا فلا حاجة الى اعادته

وذكر أن الجمال يجب أن يحب ، وقد تقدم الكلام عن هذا أيضا . ثم انه ذهب فى تفسير الجمال الى غير ما ذكره أهل العلم حيث تكلم على حديث ان الله جميل يحب الجمال فقال ، من الأحاديث الطيبة الجميلة فى هذا الباب أن رجلا

سأل النبي الكريم قال : ان أحدنا يحب أن يكون ثوبه أجمل من ثوب أخيه ونعله أجمل من نعل أخيه هل فى هذا باس أو كبر ، فقال عليه السلام « ان الله جميل يحب الجمال » كلمة تقوم على معناها الحضارة الانسانية كلها ، بل التاريخ أجمع بل الوجود كله . ان جميع ما كتبه علماء الاجتماع والفلسفة وغيرهم فى تجميل الحياة وتجميل العمل وتجميل كل ما يتناوله الانسان لا يبلغ مبلغ هذا الحديث فى القوة وفى الحث والتحريض ، لماذا خلق الله الشمس والقمر والنجوم وسائر المجموعات الشمسية ما يرى منها بالعين المجردة ومالا يرى منها الا بالآلات الدقيقة المقربة ومالا يرى منها البتة[1] ، لماذا خلق الله هذه كلها جميلة بارعة الجمال ، ولماذا خلق الله الليل الجميل والنهار الجميل والألوان الجميلة والأصوات الجميلة والمناظر الجميلة والانسان الجميل والحيوان الجميل وكل هذا الوجود الجميل ، خلقه كذلك لانه يحب الجمال ، ولماذا يحب الجمال ، يحبه لانه تعالى جميل والجميل يحب أن يكون كل شيء جميلا » . ثم اطال من هذه الثرثرة التى يستحى العاقل من حكايتها ، وقد جعل الوجود كله جميلا ثم جعل الجمال يحبه الله من أجل أنه جميل ، ثم ركب على هذا بأن الجميل يحب ان يكون كل شيء جميلا ، فعلى هذا فليس فى الوجود شيء قبيح ، وقد قال تعالى ﴿ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين ﴾ فأخبر عن هؤلاء الملاحدة المعاندين لرسوله أنه أتبعهم فى الدنيا لعنة وأنهم فى الآخرة من المقبوحين ، ومعلوم أنهم من هذا الوجود ومن خلق الله ، ولكن لما كانوا ملاحدة كانوا مقبوحين بسبب ما عملوه من القبائح المضادة لمصادر الجمال التى هى الأعمال الصالحة . وكل ما ذكره على هذا الحديث تهور مركب ليس عليه أثارة من علم وهو تكلم فى ذات الله وصفاته بلا دليل بل جرأة على الله ، وليس فى الحديث ما يشير الى هذا الذى ادعاه بل الحديث يدل على خلافه فانه قال عليه الصلاة

---

(١) الذى لا يرى البتة من الذى أخبرك به

والسلام «ان الله جميل يحب الجمال» ولم يقل يحب الوجود لانه جميل بل خص الجمال بالمحبة وحده ، ومعلوم أن الكفر والنفاق والالحاد ليس من الجمال فى شىء ، بل هو القبح بعينه ، وكل قبح فى الدنيا فانه منه فالله لا يحبه لانه قبيح قال الله تعالى ﴿ والله لا يحب كل خوّان كفور ﴾ وقال تعالى ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ وقال تعالى ﴿ ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلك بانهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ﴾ ومعلوم أن هذا الذى أسخط الله هو الكفر بأنواعه ، وقال تعالى ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ فاذا كان سبحانه يحب الجمال فمعلوم أنه انما يحب ما أمر به من الأعمال الصالحة ويكره ما يضاد ذلك من الفواحش وأنواع الكفر فيكون أولى الناس دخولا فى هذا الحديث هم أهل الدين الصحيح وأن الملاحدة ليس لهم حظ منه ، وقد فهم الصحابى أن الله لا يحب الوجود كله ، والا لو فهم ذلك لم يسأل ، لأنه لا فرق إذن بين أن تكون نعله حسنة أو غير حسنة وكذلك ثوبه لانه كله محبوب فانه كله من الوجود ، وأدنى عاقل يعلم أن الله سبحانه جعل هذا الوجود من ضدين متباينين من جمال وقبح ونور وظلمة وكفر وايمان ، فالايمان كله وجميع فروعه ومتعلقاته وشعبه جميل ، فالله سبحانه يحبه ويحب أهله ، والكفر بجميع أصوله وفروعه ومتعلقاته قبيح فالله يكرهه ويكره أهله كما أخبر بذلك كما تقدم فاذا كان سبحانه يحب المؤمن وايمانه ويكره الكافر وكفره فكيف يدعى أن الوجود كله جميل ثم يذكر النجوم والليل والنهار فأى علاقة لهذا بهذا ، وان الشموس منها شىء يرى وشىء لا يرى وأمثال هذا الهذيان ، فمن أين له أن الله يحب هذه الاشياء كلها وأن كل ما خلقه فهو يحبه فان هذا ممنوع شرعا وعقلا ، فكل ما فى الوجود من ذوات وأقوال وافعال فهى خلقه ، ومع ذلك فهو يحب صالحها ويكره طالحها . ثم انه لعظم شقائه فسر الجمال المذكور فى الحديث بالجمال المادى فتناقض لان كلامه فيما تقدم شامل للجميع فقال « وليعلم أن الجمال المذكور هنا هو المادى ، وذلك

لانه ذكر فى جواب السؤال عن جمال النعل والثوب ، فالله يحب جمال الثراء وجمال البيت وجمال الملبس وجمال الظاهر والباطن وجمال الصناعة والزراعة وجمال الحياة وجمال كل شيء » هكذا قال ، وهو برهان على شدة جرأة على الله ، والكلام فى ذاته بما لا علم له به ، وهو مما يدل على عدم مبالاته بمقام الربوبية والنبوة . فهذا الاطلاق الذى ذكره غير صحيح ولا مقبول ولا معقول ، فان الله سبحانه لا يحب مظاهر هذه الاشياء المادية أعنى صورها وذاتها ، وليس فى الحديث دلالة على هذا ، فمن ادعى أن الله تعالى يحب مظاهر هذه الأشياء فقد اجترأ على مقام الربوبية وهو كفر صريح ، وكيف يحب سبحانه مظاهر الصناعات بما فيها من مكاين وأدوات وساعات وسكاكين وإبر وحبال وأقفال وأدهان وزيوت وغير ذلك ، وكيف يحب مظهر جمال الزراعة على اختلاف أنواعها وأشكالها ، وكذلك الثياب ، بل هذا الرجل عمم حب جمال كل شيء ، فمن أين له أن الله يحب مادة جمال كل شيء والرسول صلى الله عليه وسلم لم يذكر جمال كل شيء ، وفى الصحيح « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » وهذا الحديث نص صريح مفيد بمنطوقه أنه سبحانه لا يحب مظاهر هذه الصور المادية كلها ولا ينظر اليها ، وهو شامل لجميع الاموال من الصناعة والزراعة والمأكل والملبس وغير ذلك ، كما أنه شامل لجميع الصور من الآدميين ، والملحد بنى تقريره على ما فهمه بفهمه المعكوس فى الحديث المتقدم بأن ذلك مفهوم الحديث ، وهذا الخبر الصحيح أفاد بالمنطوق نفى ما فهمه مطلقا ، ودلالة المنطوق مقدمة على دلالة المفهوم بالاتفاق . فالذى أفاده حديث « ان الله جميل يحب الجمال » ليس هو ما فهمه الخصم ، بل أفاد أنه سبحانه يحب المتخلق بهذا الخلق الذى هو الجمال ، لا يحب نفس الشيء المتجمل به أى المادة التى يتجمل بها كما فهمه الزائغ ، فانه قرر أن المراد بالجمال الجمال المادّى ، وليس كذلك ، بل الجمال هنا هو الجمال الفعلى الخلقى ، فان الصحابى

سأله عن استعمال هذه الأمور ومحبته لهذا الاستعمال ، فاجابه بذلك الجواب ، فدل على أن المراد بالمحبوب هو نفس الخلق ، وذلك كالصدقة فانها تطلق على المال الذى يتصدق به وتطلق على نفس فعل المتصدق ، فالله سبحانه يحب نفس هذا الفعل الذى يبتغى به وجهه ، لا نفس المال المتصدق به . وهو سبحانه يحب الستر وهو نفس الفعل لا الآلة التى يستتر بها ، ويحب الجمال الذى هو نفس التجمل وليس هو الاشياء المادية التى يتجمل بها ، فانه لو أخذها عاص فلبسها فهى بحالتها لا محبوبة ولا مكروهة لذاتها كما تقدم . وبالجملة فحديث « ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبهم وأعمالكم » صريح فى الدلالة على ما ذكرنا ، فان الجمال الذى هو التجمل من الأعمال التى ينظر الله اليها بحسب نيات القلوب ، وهذا الحديث دل بمنطوقه أن الذى ينظر الله اليه الأعمال وما يتعلق بالقلوب لا الى الصور المادية ، ثم من أين له أنه يحب الزراعة والصناعة وجمال كل شيء وليس فى الحديث ذكر لهذا ، فهل هذا إلا من مجاوزة الحدود ، وقد سبق قوله « وكل هذا الوجود الجميل » فعلى هذا فكل هذه المخلوقات يحبها الله من حيوان ونبات وجماد . والبلية استدلاله على ذلك بالحديث ، فجمع بين الكذب على الله تعالى والكذب على رسوله عليه الصلاة والسلام بهذا الهذيان البارد ، والرسول ﷺ لم يقل للصحابى الذى سأله عن لبسه للنعل الحسن والثوب الحسن ان الله يحب النعال أو الثياب الحسنة أو يحب هذه الاشياء الحسنة ، بل قال « ان الله جميل يحب الجمال » لانه عليه الصلاة والسلام فهم أن مقصود الصحابى التجمل بلبسها كما هو ظاهر كلامه فى سؤاله ، والجمال الدينى نوعان : جمال الباطن بالعمل الصالح والتقوى ، وجمال الظاهر بالنظافة واللباس المباح الجميل الذى يستره ، فالجمال الباطنى هو المقصود والظاهر تبع له ، فالله سبحانه يحب من الانسان أن يتجمل بظاهره وباطنه ، ولهذا ورد فى الحديث « الطهور شطر الايمان » لانه جمال الظاهر ، كما ورد فى الحديث الآخر فضل من قال « أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمداً

رسول الله . اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من عبادك المتطهرين ، فى آخر الوضوء ليجتمع للانسان جمال الظاهر بالطهارة وجمال الباطن بالشهادة والدعاء المتضمن للتوحيد ، فكون الانسان يتجمل باللباس والخلق الحسن أمام الناس ولا سيما فى المجامع من الأمور المحبوبة . ولا شك أن جمال الظاهر كالسمت الحسن يدل على جمال الباطن غالبا ، وهو وسيلة اليه ، واذا اعتاد الانسان التجمل بأحدهما اعتاد الآخر ، فتجمل الظاهر لا بد أن يكون له علاقة بتجمل الباطن ، ولا بد أن يكون بينهما مناسبة وإلا كان رياء فلا بد أن يفضح صاحبه ، وليس كل جميل فى لغة قوم وعرفهم يكون جميلا فى الشرع ولا كل جميل عند طائفة يكون جميلا عند كل الناس ، بل الجمال الممدوح يجب أن يكون له ضابط يفهم به ، وهو ما شرعه الله ورسوله وما كان متعلقا بذلك ، ولكن يجب أن يفهم أن جميع المحرمات وشعب الكفر كلها قبائح ليست من الجمال الممدوح فى شىء وان سماها أهلها جمالا فان ذلك يفضى الى أن كل الاشياء جميلة ممدوحة وهو خلاف الشرع والعقل والضرورة ولا قائل به ، فما ادعاه على هذا الحديث من الهذيان والثرثرة الفارغة فهو من مهازله التى أعتادها فى الخداع والبهرجة والتمويه على الغوغاء وضعفاء البصائر

اذا عرفت هذا عرفت سقوط كلامه كله فى توسيع العبارات فى الجمال وأنه تهور لا حاصل له ، ولم ينكر أحد من المسلمين حب الجمال ، فما ادعاه كلام لا محل له البتة . ولا ينبغى لمثله التكلم فى الجمال والدخول فى موضوعه ، فانه مقبوح باطنا وظاهرا فدخوله فى ميدان الجمال والتكلم فيه من أكبر الاغلاط التى وقع فيها فانه دخل فيما هو أجنبى عنه ، ولهذا كان كلامه فيه متهافتا متناقضا منعكسا لأنه دخل فى شىء لا يعرفه ولا يفهمه كشأن كل داخل فيما لا يعرفه ولا يفهمه ، فتجب مجاهدته ودفاعه والحيولة بينه وبين هذه المباحث الجليلة الجميلة لكيلا يلوثها بقذارته وقبحه بما يعلقه عليها من هذه الافكار الخبيثة

فصل

ثم رجع واطال فى ذم الفقر والوساخة والبؤس وأكثر من الاستدلال على حب الجمال والنظافة ، وكل هذا لا محل له ولا وجه للاطالة فيه ، لان المسلمين لم ينكروا حب الجمال واجتناب الأوساخ وحب العلم والعمل ، وتقدم الكلام عن مثل هذا مرارا . ثم انه بعد أن فرغ من هذه اللجاجة فيما علقه على حب الجمال من كونه تعالى يحب الجمال المادى - كما يقول - أخذ يتفلسف فى تحليل خلواته ﷺ بربه وعبادته له ، فجمع بين الجرأه على الله ورسوله فقال « ويشهد لذهابه (يعنى النبى عليه السلام) فى حب الجمال مذهب الكمال أنه كان دائما يحتضن الطبيعة ويحنو عليها ويعمل على اجتلائها وعلى الخلوة بها . ها إننى أراه الآن عليه السلام متسللا من مخدعه نصف الليل أو بعده قليلا أو قبله قليلا بعد أن عقد الكرى على الأجفان ، وها هو ذا خارج من حجرته برفق وهون خشية أن يوقظ أهله ، وها هو ذا مسرع الى الخروج من المدينة تاركا وراءه المبانى والبيوت ميمما البقيع أو غيره ، ثم هو ذا شاخص ببصره النافذ الى السماء الصافية والى ما انتظم على صفحتها من نجوم متلألئة تبعث الهدوء والاشراق الى العقل والى القلب . انه واقف فى الظلام الرائع ، ان النسيم الخفيف اللطيف ليمر على وجهه المشرق بالأمل والجمال فيلامسه ملامسة خفيفة فيخفق قلبه بالسرور والرضا وبالأمل الوضاء . انه فى الصحراء . انه يناجى السكون والظلام والنسيم والسماء (١) انه يخاطب ما حوله بلغة فوق الحروف والألفاظ (٢) . انها لغة تموت عندها الألفاظ والحروف . انه يرى كل شيء جميلا لانه هو جميل . انه يدرك من جمال ذلك بقدر جمال نفسه

---

(١) من الذى أخبرك أنه يناجى السكون والظلام والنسيم الى آخره

(٢) من الذى علمك اياها حتى درستها وفهمتها ثم ترجمت عنها ، فان مثل هذا لا يعرف الا بالوحى ، فهل أوحى اليك بذلك

ومزاجه . انه لا يرى هناك قبيحا لان نفسه ليس فيها قبيح والمرء انما يرى الاشياء بنفسه وطبعه ، فكن جميلا تر الوجود جميلا . انه يرى فى الكواكب فوقه الاشراق والارتفاع والنظام والدوام فتمتلىء نفسه الكبيرة بهذه المعانى ويذهب تصوره لها الى أن رسالته يجب أن تشرق اشراقها وترتفع ارتفاعها وتدوم دوامها وتنتظم انتظامها . انه يغمره من هذا الاشراق والارتفاع والانتظام والدوام ما يرفع عن نفسه الحدود والقيود والموانع . انه يقفل من هذا المشهد الرائع معتقدا أنه لا شىء يستطيع أن يقف فى طريق الجمال الذى تزوّد به ما شهد ورأى والذى قفل به عن أن يتم وعن أن يأخذ طريقه الى الوجود . انه رأى قمرا واحدا وسع نوره الكون وشهد سماء واحدة قد أظلت الوجود ، وانه الآن ليرى قلبا واحدا يستطيع أن يتسع للوجود وأن يملأه ضياء وحرارة . انه يشاهد انسانا واحدا يقدر أن يحمل هذا القلب . ها هو ذا قافل وها هو ذا يدخل المدينة يشرق عليها لتشرق هى على الدنيا . انه لا يستطيع فراق الطبيعة (١) لأنه لا يستطيع فراق الجمال ، ان كل شىء فيها يروعه جمالا ، وان الليل والنهار والظلام والضياء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والكسوف والخسوف والرعد والبرق والغيم والصحو والرياح والنسائم والجبال والسهول والأنهار (٢) والغدران وكل النبات والحيوانات وكل ساكن ومتحرك ، ان كل شىء من هذا ليأخذ بلبه وببصره (٣)

(١) هنا وصل الهدف ، فالجمال الذى يدعو اليه ويمدحه جمال الطبيعة اى جمال المادة والا فجمال الايمان والاعمال ليس عنده بشىء

(٢) ليس فى الحجاز ولا فى المواضع التى أتاها عليه السلام أنهار البتة

(٣) اذن فالرسول كالطفل دائما فى روعة ودهشة ، اذا كانت هذه الموجودات كلها تروعه فليس فى الزمان لحظة واحدة تخلو من هذه المظاهر الطبيعية . وقد تقدم ما ذكره عن الانسان الأول أنه يهرب من كل متحرك مضطرب ، ويعبد كل متحرك مضطرب ، وهنا ادعى أنه عليه السلام دائما فى روعة ودهشة مأخوذ بلبه وببصره بسبب هذه المظاهر ، أما التوجه الى الله فانه أعرض عنه ولم يلتفت اليه

ويلهمه الجمال ، لقد وسعت روحه الوجود كله »

والجواب ان يقال : ليتأمل المسلم العاقل هـذا الكلام من أوله الى آخره ولينظر الى هذه القحة والجسارة المرذولة التى لم يسبق اليها ، وحسبك دليلا على بطلانها أن كلامه هذا تضمن أن هذا الرجل علم مافى نفس الرسول ﷺ وما يخطر على باله وما يخالج ضميره وما توسوس به نفسه ، لأنه أخبر عما تكنه الضمائر وما يجرى فى الخواطر ، فان هذه الأمور مما لا يطلع عليه الا الله كقوله « انه كان دائما يحتضن الطبيعة ويحنو عليها » فأين دليله على هـذه القولة الكاذبة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا . ولم نعلم أحدا من كفرة الأولين والآخرين اجترأ على هذه الدعوى فادعى أنه عليه السلام كان يحتضن الطبيعة وأنه لا يستطيع الخروج عنها وأنه يحبها لأنه يحب الجمال ، وكقوله « فيخفق قلبه بالسرور والرضا » وكقوله « انه يرى كل شىء جميلا لأنه هو جميل ، انه يدرك جمال ذلك بقدر جمال نفسه ومزاجه ، لانه لا يرى هناك قبيحا » وكقوله « ان كل شىء فيها يروعه » الى قوله « وكل شىء يأخذ بلبه وببصره » فكل هذا بهت للرسول عليه السلام وجرأة على مقامه الكريم ووقاحة زائدة وفضول لا يتكلم به من له أدنى مسكة من عقل . وقد عاتب الله الذى يرفعون أصواتهم فوق صوته وأخبر أن ذلك من أسباب حبوط العمل لأن ذلك دليل على عدم هيبته وتعزيره وتوقيره وتعظيمه واحترامه ، فكيف بمن يترجم عما فى ضميره ويدّعى عليه بأنه يحتضن الطبيعة وأن كل شىء يروعه ويأخذ بلبه ولا يستطيع فراق الطبيعة ، يقول ذلك بمجرد ظنونه الخاطئة وأفكاره الفاسدة ، وكل هـذا الكلام الذى ذكره هنا يتضمن أنه عليه الصلاة والسلام كان يعبد الطبيعة ويتعشق مظاهرها ويهيم بها فى خلواته وأنه دائما موجه فكرته اليها معلق آماله عليها ، ولهذا قال فيما يأتى « انه بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة وبمناجاتها » الخ وهذا كله صريح الكفر بل خلواته ﷺ هى فى التفكير فى آيات الله والأنس بربه وذكره وتسبيحه

وتقديسه والتوجه اليه ومناجاته ودعائه والتضرع اليه سبحانه وتعالى كما دلت على ذلك الاحاديث الصحيحة فى الأذكار وغيرها . وهذه المقالة انما يذهب الى بعضها ملاحدة الاتحادية وأمثالهم من زنادقة الفلاسفة ، وانما اتصلت اليه من طريقهم . والعجب أنه ترك ذكر صلاته فى جوف الليل ودعائه وتضرعه الى الله ، مع أن قيامه وصلاته ودعاءه بالليل كان معتادا ، بخلاف خروجه الى الصحراء . ولكن لما كانت هذه العبادات تناقض دعوته أعرض عنها وذهب يتفلسف ذلك التفلسف الفارغ لاجل أن يظن أنه بهذا على شيء من التحقيق

فصل

ثم قال « لقد بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة وبمناجاتها فوق غار حراء ، وختمها بمناجاتها أيضا وهو فى حجرة عائشة بينما كان يجود بانفاسه ، فلقد كان فى تلك الساعة شاخصا ببصره الى السماء لا يحوله عنها هول ولا أهل ، ويقول : اللهم فى الرفيق الأعلى »

فيقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله فى البهت والكذب على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأنه كان يصرف آماله ويوجه همته دائما الى الطبيعة ، وكل هذا دعاية صريحة الى التعلق على الطبيعة وعبادتها ، فلم يكتف بالدعوة اليها حتى تجاوز الى نسبة الرسول عليه السلام الى كونه لا يستطيع فراقها وأنه دائما يناجيها ويخاطبها ويتعشقها وأنها تروعه وتأخذ بلبه وتلهمه الجمال . وهنا صرح بأن الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يخلو بربه ولا ابتدأ رسالته بمناجاته ولا كان يناجيه بالدعاء والذكر والتسبيح والتكبير والتحميد والاستغفار ، وانما كان كالفيلسوف الطبيعى الذى قصر همته على التفكير فى الطبيعة ومظاهرها ، فهو يناجى الطبيعة ويخلو بها ، وهذا يتضمن أنه كان يعبدها ، لأن العبادة ليست بأكثر من التوجه والمناجاة والخلوة وتعليق الآمال ونحو ذلك ، فهذا هو روح العبادة ، وليس وراء هذا القول كفر وزندقة . ثم العجب من

دعواه أنه ختم رسالته بمناجاة الطبيعة أيضا ، واستشهاده على ذلك بقوله « اللهم فى الرفيق الأعلى » فهل قال « يا الطبيعة فى الرفيق الأعلى » حتى يكون شاهدا لما ادعاه . بل هذا يتضمن أن الله تعالى هو الطبيعة بمقتضى استشهاده . ثم من أين لهذا الملحد أن نبى الله ﷺ كان يناجى الطبيعة ، فان هذا لا يخبر به إلا من حضره وشاهده ورافقه فى خلواته أو ثبت ذلك بطرق متواترة فان ادعاء مثل هذا أمر كبير عظيم فى الأمور الدينية لا يجترىء عليه إلا من لا يعبأ بالديانة ولا يحترمها كهذا الملحد ، فكيف يجوز له أن يتفوه به بمجرد أن خطر على باله بدون نظر الى ما وراء ذلك من الخطيئة الكبرى دينا ودنيا . ثم قوله « فوق غار حراء » خطأ آخر مركب على ما قبله ، فالمعروف فى الصحاح وغيرها فى غار حراء لا فوقه ، وفرق بين هذا وهذا ، وبطلان مثل هذا أشهر من أن يطنب فى رده

فصل

ثم رجع الى مدح الجمال المادى وذم الفقر والمرض والجوع لأنه وجد هذه القشور المنبوذة تراثا رخيصا فى إمكانه أن يحشو كتابه الذى هو أغلاله من هذه البضاعة ، لهذا أخذ يلعب فى هذا الميدان الواسع كيفما أراد ، وقد نقل هنا عبارات للصوفية أكثرها لم يبين قائلها ، وقد وجد كتب الصوفية ملجأ مستطابا له يلجأ اليه اذا احتاج الى شبهة يرمى بها الاسلام ، وقد بينا مرارا فيما سبق أن المسلمين براء من كل ما تقوله الاتحادية وأنه هو أولى بهم ، ولو أن يهوديا احتج علينا بكلام هذا الملحد فى الاسلام والمسلمين واستدل به لكان احتجاجه من جنس احتجاج هذا الملحد بكلام الاتحادية بمجرد أن كلا منهما يدعى نفاقا أنه مسلم ، لكن الاتحادية أحسن حالا من هذا بكثير كما نبهنا على هذا فيما تقدم ، واذا كان ناقما على هؤلاء الصوفية فى دعايتهم هذه ، فمن الواجب عليه أن يفرد لهم تأليفا منفرداً ويوجه اليهم الذم ويرد عليهم

بالأدلة الصحيحة لا بمجرد الاستهزاء والتهكم ، ولكن هو أحقر وأصغر من أن يرد عليهم ، فانهم أكبر عقولا وأصح آراء منه ومن أمثاله ، وانما غايته أن يشابههم فى حثالة فكرة من أفكارهم ، وهم لم يتجاسروا أن يتفوهوا بمثل ما تفوه به ، فان غاية ما يعارضهم به أن يثبت ضرر الجوع وهم فى امكانهم أن يثبتوا ضرر التخمة وكثرة الخلط . وكذلك الفقر فى امكانهم أن يثبتوا ضرر الجشع والطمع والشح على الدنيا والتخبط فيها وأخذها على غير وجهها وأن يستدلوا بالنصوص والاضرار العظيمة التى حصلت بسبب ذلك . وأما المرض فلم يمدحه أحد وفى إمكانهم أن يعارضوه بأنه حث على أسباب الأمراض المعنوية والمادية فان كتابه هذا كله فى الحث على الأمراض ولا سيما أمراض القلوب لأن مرضها من أعظم أسباب مرض الأبدان ومرضها هو الضرر الحقيقى وهو الداء العضال ، ونحن قد سلكنا المسلك الأوسط فى هذه الأمور على ما بيناه فيما سبق

ثم ذكر أن التعاليم الفاسدة أو الصحيحة إذا تعلمها الصغير فانها تنتقل الى خزانة العقل الباطن وتنطبع انطباعا شديدا جدا فتظل مهيمنة عليه بحيث يكون كالمستحيل عليه الخروج منها ، وهذه الدعوى باطله على هذا الاطلاق ، فان الله سبحانه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لجميع الناس صغيرهم وكبيرهم ، فلو كانت التعاليم على حسب ما ذكر لم يستجب للرسل أحد من الكبار والشيوخ وأمثالهم ، وهذا خلاف الواقع ، فقد علم بلا أدنى شك أنهم قد استجاب لهم أناس كثيرون من سائر أصناف بنى آدم من صغير وكبير إلا من حق عليه القول ، وكذلك الدعايات فانها تؤثر فى الكبار كثيرا والتائبون من الكبار لا يعدهم ولا يحصيهم الا الله ، وكذلك المرتدون — وهذا الملحد منهم — أكثر من أن يحصوا ، وهذا الرجل مكث ماشاء الله على ما يدعى من أنه تعلم الدين الصحيح فى صغره ومكث مدة طويلة ثم انقلب على وجهه هذا الانقلاب المفاجىء المنكر الذى لم نعلم أحدا من العالمين سبقه

الى مثله ، فانه يوجد من ينقلب من بدعة الى بدعة أو من حق الى بدعة أو من ملة الى ملة أخرى كاليهودية والنصرانية ، ويوجد أيضا من يرتد مطلقا ولكن لا يتعرض للأديان ، أما هذا فانه تجاوز هذه الحدود كلها فلم يقتنع بالردة من دين الى آخر ولا بالردة مطلقا بل كفر ونافق وألحد وحارب الله ورسوله والمؤمنين بمحاربة الاديان كلها حربا لم يعمله أحد فيما نعلم من الملحدين الهدامين ، ولهذا كان عند أولى العلم من أعداء الأديان الباذلين ما فى وسعهم لازالتها وإماتتها وهدمها ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون

وبالجملة فما ذكره من تأثير التعاليم فى حالة الصغر وأن الصغير لا يقدر أن يتخلص بعد ذلك من تعاليمه غير مقبول ولا معقول لما ذكرنا . ونحن لا ننكر تأثير التعاليم فى الصغر فى نفس الانسان فى الجملة ، لكن ننكر حكمه على أن الخروج منها مستحيل او كالمستحيل اقتداء بما زعمه أن سادته علماء النفس قرروا ذلك فقدم قولهم - لو صدق - على الشرع والعقل والحس والضرورة ، وهذا واضح ولله الحمد

فصل

ثم ذكر شيئا عن حالته السابقة قبل أن يعمل أغلاله التى خنق بها ، وقصده وغرضه من هذا تصوير حالة المؤمن القانع بما آتاه الله ، ليوهم الأجانب ومن لم يعرف الدين أن المؤمنين هذه هى حالتهم ليكرهوا الايمان وينفروا منه ويمقتوا أهله ، فهو يتوسل بكل ما يقدر عليه فى التنفير عن الاسلام والقدح فيه وفى أهله ولو بالحكاية عن نفسه والقدح فيها فقال :

« ان ذكرى تفيض بالمرارة والحسرة (١) تعاودنى كلما مرّ بخاطرى عصر مشئوم قضيته مسحورا بهذه الآراء ، كنت أفر من الحياة ومما يعلى من قيمة

(١) الآن ذقت المرارة والحسرة والخسارة

الحياة . لقد كنت لا أجد ما يحملني عــلى أن أرفع قدمي لو علمت أني اذا رفعتها تكشف ما تحتها عن أعز ما عليه يتقاتل الاحياء ، وقد ضاعت على من أجل ذلك فرص كان يمكن الافادة منها لا يمكن استرجاعهــا . كان الغرور الديني (١) قد افسد عـلى كل شعور بالوجود وبجماله ، وكنت مؤمنا بأن من في المجتمع لو كانوا يرون رأيي ويزهدون زهدي لوقفت الأعمـال كلهـا ولمـا وجد العالم بدا من أن يخرب (٢) كنت أنظر الى من يهتمون بالحياة وبمن فيها ومن يعملون لها ويجاملون ويخالقون من أجلهـا بعين أقل ما فيهـا الاحتقار والاستصغار ، وكنت لا أبالي بأحد مهما كان عظيما ومهما كان قادرا على النفع والضر ، وما كنت أفكر في أن أجد فرصة للقائه أو للقرب منه أو الاتصال به (٣) وكنت لا أخالق إنسانا رغبة فيما يتخالق الآخرون من أجله ، وكان شعاري في تلك الفترة قول ذلك المغرور المخدوع مثلي :

اذا صح منك الودّ فالكل هين   وكل الذى فوق التراب تراب
فليتك تحـلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خراب

نعم كنت أعتقد أن الكل هين وأن جميع ما فوق التراب وما في العـالم من جمال وطيبات وحاجات ومن أقوام وأمم وشعوب تراب ، وكنت لا أبالي أن يحلو شيء من ذلك أو يمر ولا أن يرضى ويغضب ولا أن يعمر ويخرب كما يقول هـذا الشاعر المسكين ، وكنت أرى أني بذلك أرضى الله وأني اذا أرضيته فلن يضرني شيء ، وكانت الدنيا كلها تدور من حولي من غير

---

(١) هنا اعترف بان حالته الأولى كانت على غرور ديني

(٢) لعلك انما تحللت من دينك لتعمر العالم ولتصنع الحياة كما تدعى أن المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة

(٣) هذا مجاهره بالكذب ، فانه في تلك السنين كان يعمل في التملق والتردد على أبواب الاغنياء وذوى السلطة دائما من أجل أغراضه الدنيوية

أن أدور معها أو أحس دورانها ، وكان يخيل الى والى غروري الديني الأعمى أنه لا قوة كقوتي لأن الله معي واهب القوى (١) فليقو العالم كما شاء وليجمع من الأسباب ما طاب له وليحاول من أجل نفسه ما يحاول ، فان ذلك كله لا قيمة له ولا خطر بالنسبة الى قوة من استقوى بطاعة الله ، ومن ترك الأسباب جملة مستمسكا بأسباب الله وحدها ، وكان يبدو لى أنه بقدر ايمان الانسان بذلك وبقدر كراهته العالم والوجود والدنيا والانسانية كلها وبقدر استصغاره لها واحتقاره اياها وكفره بها ومغاضبتها ومجانبتها بل سبها ولعنها يكون قربه من الله ورضاه عنه ودلاله عليه ، وكانت هذه الاعتقادات أو الخيالات تهبط بي وتعلو وتجعل لى وجودا خاصا وعالما خاصا ودنيا خاصة تدور من أجل واحد وتوجد لأجل واحد أيضا ، واحد أرضى الله ووهب له كل معانيه فوهب له على حسب ما يظن كل ما يريد ، ولو كان فى جملة ما يريد اعزاز الأمم واذلالها » انتهى

والجواب أن يقال أولا : ان أكثر ما ذكره هنا عن حالته السابقة كذب ظاهر تكذبه أفعاله وأقواله الصادرة منه فى ذلك الحين ، وانما قصد بهذا تشويه حالة المؤمن القانع عند من لم يعرف الايمان والقناعة ، وحسبك دليلا على فجوره فى هذه الدعوى سيرته مع أمه وعقوقه لها وعدم صلتها بشيء لا قليل ولا كثير بل ولا رسالة واحدة ما ينيف عن ثلاثين سنة مع أنه أخذ مدة طويلة وهو يستلم رواتب وغيرها بل كان مشغوفا متهالكا على حب المادة

---

(١) ولكن الآن يخيل اليك والى غرورك الالحادى المعكوس أن لا قوة كقوتك ، لانك قررت بأن فى الانسان استعداداً ذاتيا فى إمكانه أن يصل به الى كل شيء وأن يتغلب على كل شيء كما تقدم ، فغرورك معك انما بدلت متعلقه وهو الدين كما تزعم بالالحاد . ولعل هذا الخيال مما حدا بك الى تأليف هذا الكتاب لتتخذ زعيما على الأقل للعروبة

الى حد بعيد عند كل من عرفه ، بل كان معروفا عند كثير من المطلعين على حالته بانه كان يؤجر نفسه فى انشاء المقالات يعرض بها للناس بالنقد والسباب وقد اشتهر ما عمله قبل ردته بسنة حين وصوله الى الحجاز من اللجاج والتملق والمصانعة الزائدة واستعمال ما أمكنه من الوسائل فى التوسط له بادخاله احدى الوظائف العلمية ، فلما أخفق عمله عمل مافى وسعه فى طلب زيادة راتب فعمل من المزاحمة والملق والتذلل مالا يحتاج الى شرح طويل فان شهرته فى ذلك تغنى عن التطويل

ثانيا : على فرض التنزل معه نقول أظهر ما ذكر عن نفسه فى هذه الجملة القناعة فقط ، ولكنها مدخولة بشيء كثير من العجب وفساد الاعتقاد والزهو . وهذه الآفات كثيرا ما تظهر فى ملامح كتبه ومقالاته كلها ، وقد ازدادت هذه السجايا فى نفسه حتى انفجرت عن هذا البركان الذى تلوثت به ثيابه اللامعة وصحابه وجميع من حوله ومن اتصل به ، فهذه الأغلال هى ثمرة هذه السجايا الكامنة العريقة فيه ، ولا شك أن نظريته التى ذكرها عن نفسه فى زهده نظرية باطلة فالمؤمن القوى الايمان يجب أن يكون على حذر من مكر الله ، ويجب عليه أن لا يعتمد إلا على الله سبحانه وتعالى ، وأن يعلم أنه مأمور بفعل الأسباب التى تقيم دينه ودنياه ، وأن يعلم أن الله تعالى سيعينه متى صحح نيته وأخلص عمله ما لم يكن هناك مانع من جهة العبد ، أما أنه يشتم الدنيا ويلعنها ويعتقد أن فى وسعه أن يفعل الله له فى هذه الدنيا كما يريد ولو كان من ذلك إعزاز الأمم وإذلالها فهذا لا يعتقده إلا جاهل مغرور مثله ، ولهذا كان مصحوبا بالغرور فى حياته كلها ، فهذا الغرور الذى انتقده على نفسه هو معه الآن ، وانما ألقى الأخلاق الدينية فقط (١) وأبدلها بأخلاق إلحادية ، فتلك الاخلاق انعدمت حين لوثتها قذارة الغرور والكبر والاعجاب ، وكانت تلك

---

(١) أى إن كان ثم شيء

الأخلاق الضئيلة المدخوله ممسكة له عن السقوط ، فلما ذهبت أثقلت دماغه هذه الاخلاق الباقية معه فسقط منكسا على أم رأسه فى هذه الهاوية السحيقة والعياذ بالله . وكذلك ما ذكره أيضا من القناعة ورضاه بالعيش والطمأنينة والراحة - لو صح - فهو لأن نفسه كانت مرتفعة بقدر ما معها من الايمان ، فلما ذهب ذلك الايمان انحط وأخلد الى الارض فأصابه ما أصاب الذى يلهث على الدنيا بهذه الشدة الغريبة والجشع الفظيع ، فاستعاض عن الايمان بالالحاد ، وعن القناعة باللهث والجشع ، وبقيت معه طبائعه القديمة من الغرور والعجب واسفاف النفس وفساد الاعتقاد ، فازداد رجسا الى رجسه نسأل الله السلامة بمنه وكرمه

فصل

ثم قال « وكانت الخطب الاسبوعية التى أسمعها والعظات الأخرى المتجددة المتكرره المستمرة والكتب التى أقرأها لا تدع فرصة لى لتنبعث غريزة أو تنطلق طبيعة من الغرائز والطبائع الكامنة [١] فى أعماق النفس وفى ثنايا الوجود الانسانى التى تدفع الى العمل والى حب الحياة ، وكانت تلك الغرائز والطبائع والمعانى الانسانية عندى معقلة لا تستطيع الانبعاث ولا الانطلاق ولا العمل ، كانت الخطب أيام الجمعات إحدى النكبات [٢] وذلك أنها لتكررها كل أسبوع استطاعت أن تجعل تخديرها مستمرا مضمونا متجددا ، فالطبيعة الانسانية تأبى الشقاء والبؤس وتأبى أن تبقى مستذلة راضية [٣] مستسلمة لذلك إلا اذا أمكن أن تعقد وأن تمنع القيام بوظيفتها بأن تعمل لها عملية تخدير أو

---

(١) قد ذكر أنها شريرة خبيثة كما تقدم

(٢) تأمل هذا ، فهل اجترأ أكفر كافر على مثل هذا القول

(٣) نسى دعواه أن الانسان بطبعه شرير خبيث ظالم شيطان جاهل

تنويم صناعى أو شىء آخر من تلك العمليات المبيدة . وكانت خطبة يوم الجمعة من أعظم وأقوى ما يقوم بهذه العملية لانها لتكررها لا تترك فرصة لانطلاق معنى طيب من معانى الانسانية » انتهى

قلت قد تقدم له شىء من الكلام فى سب الخطب ، ولكنه لم يشف غيظه فأعاده هنا بما به من قلق الخبث والحقد على الدين وأهله ، وقد أطال الكلام فى سب هذا المظهر الأعظم الاسلامى ، وأفرغ جميع ما يحمله فى صدره من القيح والعداوة المنكرة ، وهذا الملحد مصاب - كما قلنا غير مرة - بانقلاب القلب والفكر والرأى والقول والعمل ، ولهذا فانه يأتى الى الأمور التى هى أوضح من الشمس ضحوا فى نصف النهار فينكرها ويكابر فى جحودها ، كمثل ما ذكره فى هذه الجملة الخبيثة من ان الخطب فى المساجد تخدر عن العمل ، وقد علم بالضرورة والمشاهدة أنها هى التى توقظ الطبائع وتنفخ فيها روح القوة والنشاط والحماسة الحادة ، فهؤلاء الذين يصلون الجمعة ويستمعون الخطب أعظم الناس شجاعة وقوة وثباتا وقياما بالأعمال وأشدهم مكافحة للأسباب القائمة ضد أعمالهم ، وان أولئك الاباحية الذين لا يحضرون الخطب أيام الجمع هم أعجز الناس وأكسلهم وأوهنهم ، فلا تجدهم الا فى مواضع الرقص والخلاعة وأنواع الملاهى ، فلا يعملون أعمالا دينية إلا مدفوعين اليها دفعا ولو تركوا لما عملوا أعمالا نافعة أبدا ، ولهذا لا يوجد التخنث والجبن والوهن والكسل إلا فيهم ، واذا أردت تحقيق ذلك فانظر الى الذين يعتادون المساجد والى الذين يعتادون مواضع اللهو وانظر الى أيهما أنشط وأقوى قلوبا وأعز أنفسا . ومن أعجب العجب أن هذا الزنديق قد أبصر ورأى هؤلاء الذين يشربون الخمور وأنواع المسكرات والمخدرات فى الفنادق ومواضع اللهو والغناء فلم يتكلم فيهم بشىء ، بل أشار الى الرضا عنهم مع كثرتهم وفسادهم وعموم ضررهم ، وعمد الى هؤلاء الأقوياء النصحاء الأقلين الذين يصلون الجمع ويستمعون الخطب التى تشتمل على ذكر الله ودعائه

وتقديسه تعالى فتوقظ حرارة الايمان وتلهبها وتبعث القوى النفسية فادعى أنها تخدر ، مع أن هؤلاء هم الذين ينفعون الأمة دائما فى جميع مواقفها ، فهو ينظر الى الخمر والمخدرات فيسكت عنها ويعمد الى ضدها فيدعى أنها تخدر ، ولا عجب فليس ينتظر من الملحد الاباحى أن يقول : هؤلاء المسلمون الذين هم أعظم الناس حضورا للخطب والاستماع لها هم أشد الناس مناعة وقوة فى جميع الأعمال التى يباشرونها ، بخلاف المارقين فانهم أسأم الناس وأخونهم فى جميع أحوالهم وأعمالهم . ثم ما هو وجه التخدير وما كيفيته ، هل هو السكوت لاستماع الخطب ، فالسكوت لا بد منه سواء كانت الخطب دينية او دنيوية فى الجمعة أو غيرها ، بل لا بد لكل سامع كلام من الانصات وإلا فلا فائدة لكلام المتكلم ، أو هو شىء آخر فلِمَ لم تبينه ، وإنما مرادك التنفير والتشويه . واذا كان هذا الملحد قد عرف هذا من نفسه وأن مواعظ الشرع فى منابر المساجد تخدره لان نفسه سريعة الانحدار الى ما يلائم أخلاقها ، والخطب تخدر أحاسيس الشر والغرور والاعجاب والزهو ، فليس له أن يقيس الناس على طبعه ، فان الناس لو كانوا مثله لكانوا زنادقة ملاحدة إباحية ، ولا شك أن هذه الاخلاق الخبيثة لا تلائم الخطب بل تمنعها وتعقلها وتمسكها عن التدهور بصاحبها ، وهذا كما يفعل الصبى الذى ينطلق أمام شهواته فيمنعه أبوه أو ناصح له فيظن أنه يعقله ويمنعه عن شىء مستحسن ، وهو انما يمنعه عن الشر والسقوط ويدفعه الى العمل النافع والآداب الصحيحة

وقوله « كانت الخطب أيام الجمعات إحدى النكبات » هكذا ادعى الملحد مجاهرة على رءوس الأشهاد فى وسط هذه الامم التى تقدس هذا المظهر الذى هو أعظم مظهر دينى إسلامى أسبوعى ، فجعله إحدى النكبات بدون جمجمة ولا تكتم ولا خوف ولا حياء ، فواغوثاه

حقا لقد هزلت وقام يسومها   نذل غبى غافل متغال

وهل هذا إلا من أعظم الأسباب التى أوصلت المسلمين الى هذه الحالة ،

وأى كفر فى الدنيا أظهر من هـــذا الـكفر . ولا شك أن الخطب أيام الجمعات إحدى النكبات عليه وعلى أمثاله من الملاحدة ، فانها هى التى أحرجت صدورهم وأذاقتهم عظيم البلاء ومرارة العناء لانها ضد اعتقادهم وضد مقاصدهم بل هى حربهم ، فان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ، ويحبون الانطلاق فى ميادين الاباحية المطلقة والصد عن سبيل الله ، وهذه الأمور لا تتفق مع الخطب فهى إحدى النكبات عليها وعلى أصحابها ، ولهذا كانت حربا مستمرا متجددا مضمونا لهؤلاء الأغبياء والأشقياء الهدامين لانها تحذر عن الاباحية وتحافظ على تقويم الفطرة وتصفيتها وصقلها وتحذر عن الشهوات واتباع الهوى ، فهى الدواء الوحيد لهذه الادواء القاتلة ، ولهذا شرعها الله تعالى فى كل أسبوع لطفا وحفظا لعباده وحماية لهم عن السقوط فى دركات الخبائث والرذائل التى يحاول كل زنديق ملحد أن يدفع كل ضعيف فى هاويتها . وحاصل ما ذكره عن التخدير ، وتطويله فى ذلك ، أن الخطب تمنع اندفاع الطبيعة عن قضاء وطرها من عمل وشهوة ، وقد سبق كلامه أن الانسان خلق شريرا خبيثا ظالما وأنه ان لم يعلم نشأ على العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط ، وأن ما به من الخير والاحسان فهو مكتسب من الأديان ، وأن المجردين من الأديان ينشأون على الشر والخبث ، وهنا يدعى أن الخطب تخدر عن انبعاث الطبيعة على العمل ، فانظر الى هذا التناقض المنكر . وقد بينا فيما سلف أن الانسان له طبيعتان طبيعة عقلية فطرية حنيفية وثابة تطلب العمل النافع والنشاط فيه ، وتمنع ما يعوقه عن ذلك من العجز والكسل والشهوات البهيمية التى هى أسباب الوهن والفتور وضعف الهمة ، فهذه الفطرة موافقة للخطب وهى لها بمنزلة المادة الصحيحة التى تمدها عن الفتور وتنشطها وتلهبها وتدفعها الى الأعمال النافعة الناجحة البارعة القوية ، وأما الطبيعة الثـــانية فهى مكتسبة منحطة سببها حب الشهوات والتعلق بالشبهات ، وهى تبعث على المفاسد وحب الراحة والعجز والكسل والجبن

«والفتور وقضاء الشهوات النفسانية ، وهى تضاد الطبيعة الأولى وتضاد مقاصد الخطب فلا تتفق معها فهى مسلطة عليها وهى أعظم أعدائها فانها تعقلها وتصادمها وتمنعها عن مقاصدها فهى إحدى النكبات عليها وعلى أصحابها ، وخليق بأهل هذه الطبيعة أن يعادوا الخطب ويعادوا أهلها ومن قام بها ، لأن التباين والتضاد فى المقاصد والآراء وغيرها هو أصل المنافرة والمعاداة فى كل شىء

فصل

قال « ان القوانين تعاقب من تناول المخدرات مرة فى خفية وعلى حذر ، ولكنها تبيح تخدير الآلاف بل مئات الملايين فى المساجد والجمعات كل أسبوع بل كل يوم أحيانا ، ثم تحث هؤلاء المخدرين على أن يخدروا بل وتجازيهم وتوظفهم وتقطع لهم من أموال الدولة المكافآت الشهرية [١] وهذا بلا ريب من أعجب مناقضات القوانين وغرائبها » انتهى

والجواب أن نقول : اذا كان الحال ما ذكرت فنحن ننبئك بما هو أعجب مما ذكرته ، ذلك أن القوانين تعاقب أشد العقوبات من يحاول العبث بنظامها ودستورها الذى تمضى عليه أحكامها وتنزل به أفدح العقوبات اذا حاول قلبه رأسا لعقب ، وتعاقب أيضا أشد العقوبات من يقف ازاء مبادئها الأساسية المحترمة ، وتعاقب كذلك من يشتم أديانها ويطعن مجاهرة فيها ، ومع هذا كله فقد ثبت ثبوتا لا مرية فيه أن هذه الأمور كلها قد اجتمعت فيك وصدرت منك مجاهرة على رءوس الاشهاد ، ومع هذا كله تركتك وأهملتك وغضت الطرف عنك وعاملتك بخلاف أوضاع قوانينها ودستورها الذى تجرى

---

(١) هذا برهان على أنها ليست من التخدير فى شىء ، وأنه لم يرها تخديرا غيرك ، وان هذا برهان على ضلالك

أحكامها عليه ، فان كانت فى إكرامها لهؤلاء الذين يذكرون الله ويدعونه على المنابر فى بيوته التى أذن أن ترفع ويصلون له فيها ويعبدونه مناقضة مع أنهم أحق الناس كلهم بمال الله الذى تفضل به على عباده فانه انما أعطاهم ليعبدوه فهى - أى القوانين فى ترك من حارب الله ورسوله والمسلمين وشن الغارة على هذه المبادىء المقدسة - أعظم تناقضا ، وان لم تكن متناقضة بطلت دعواك .
ونحن لا نشك كما لا يشك غيرنا من المسلمين أن المقصود من كلامك هذا هو الحث على محاربة هذه العبادات ومطاردة أهلها ، وان مغزى هذه الدعوى هو مغزى قول الذين قالوا لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا قال تعالى ﴿ ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ والمسلمون كلهم على اختلاف مذاهبهم من أولهم الى آخرهم يعلمون ويعتقدون أن خطب يوم الجمعة من أعظم واجبات الدين كالصلاة بلا فرق وهى من أعظم شعائره وانها فرض لازم من فروضه وأركانه اللازمة ، فمن قدح فى الخطب والخطباء وطلب ازالتها وطرد أهلها وجعلها بمنزلة الخمر أو الحشيش فقد صرح بأنه يجب رفض الدين ومجاهدة أهله وتعذيبهم ، فان هذا من أعظم مظاهره ولا سيما مع ما تقدم من دعواه أن الدعاء مصرف خبيث ، ومعلوم أن الخطب تحميد وتشهد وصلاة على النبى ﷺ ومواعظ من القرآن والسنة وما يتضمن ذلك ، وهذا كله موجود فى القرآن وفى الصلاة وفى جميع العبادات ، وهذه المصاحف قد ملأت اكثر الأمكنة فليطلب تحريقها اذن ، فان من قدح فى هذه المظاهر فلا شك أنه قادح فى الاسلام مجاهرة ، وكلامه من أول اغلاله الى آخرها يدور على هذا القصد الملعون ، وليت شعرى كيف تجاهل هذا الخبيث مافى مواضع اللهو من الغناء والاستهتار والفجور والخلاعة وما فى بيوت السينما من هذه الأمور التى لا تعد ولا تحصى وما تنشره المجلات والجرائد اليومية والشهرية والاسبوعية من الحث المتواصل على الفسوق والفجور وضروب المفاسد التى تفوت الحصر بصورها ومقالاتها ، لِمَ لم يدع

فيها مثل هذه الدعوى وهو يعلم حقيقة العلم أن الذين شغفوا بهذه الامور أكثر من أهل المساجد والمنابر وأن هذه تستغرق الوقت كله بدون نتيجة مثمرة (١) ـ نعم ان سكوته عنها بل ترغيبه فيها وتحامله على أهل المساجد والمنابر من أعظم البراهين على خبث طويته وأنه أعدى عدو للاسلام وأهله وأنه عمل هذه الاغلال خدمة لاعداء الدين واتباعا لهواه وشهوته وانخراطا فى سلك الملحدين الهدامين المعتدين

فصل

ثم قال « لقد أريد أن تؤدى المنابر والمساجد أعظم المنافع للانسانية ، فأدت شر ما يؤدَّى ، أريد منها أن تحي فأماتت ، وأن تعز فأذلت ، وأن تهدى فأضلت ، وأن تبعث على العمل فبعثت على الكسل ، وأن تمدح الحياة فامتدحت الموت ، وأن ترفع من شأن الجهال وتحببه فرفعت من شأن الدمامة وحببتها اليها (٢) وأن تملأ النفوس بالحقائق فملأتها بالأوهام ، وأن تخلق شعوبا متوثبة فخلقت شعوبا خاملة عاجزة تنتظر وجودها وحياتها من خارجها لا من أنفسها ، معلقة أبصارها دائما بالسماء ، منتظرة أن تمطر عليها الذهب والفضة والسيادة والوجود والعز وكل ما يؤمل ، ولا تنظر الى نفسها والى طبيعتها (٣) فاقبح بها من منابر أشاعت الموت والدمار والظلام والجهل »

فيقال : ايه ، كل هذا عندك ، كل هذا أنت مضمره من هذه السنين الطويلة ، لقد تكلفت أمرا كبيرا ، وكيف ضم صدرك هذا القيح كله فى هذه

---

(١) بل تميت أخلاق الرجولة والكرامة والحياة موتا لاحياة بعده صحيحة

(٢) قد علمت مما مر أن الدمامة والجهل والموت هى عنده علوم الدين ، فقبح الله من يخفى عليه كفر قائل هذا الكلام

(٣) قد تقدم قوله ان الانسان خلق بطبيعته شريرا خبيثا ظالما ، فهل يريد أن تنظر الى هذه الغرائز . فقبحه الله ما أقذر كلامه

المدة ، فلا عجب اذن ان ذكرت فيما سبق أنك مكثت ست سنين كشبه مريض تشفى اذا حدثت فيها وتمرض اذا سكت عنها ، فلا بد اذن من إخراج هذا البلاء المضغوط الذى أكل صدرك وقلبك والا قتلك ، لقد خاب سعيك ولطم وجهك وساءت لك العقبى وأصبحت من الخاسرين ، لقد قذفت من حالق وتدهورت فى أشنع المزالق فلم يشف لك فؤاد ، بل زادك عذابا فوق العذاب ، حتى كنت أحقر من قمامة وأقذر من نخامة ، وازددت بذلك رجسا الى رجسك وبلاء على بلائك ، وما أخلقك بدخولك فيمن قال الله فيهم ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون ﴾ وقد زاد فى هذه الجملة الحط على المساجد علاوة على المنابر فادعى أنها أدت شر ما يودّى . ومعلوم أن المساجد لا تؤدى الا الصلاة وقراءة القرآن وذكر الله تعالى ، فانها لم تبن الا لذلك ، وكذلك المنابر فانها لم توضع الا لحمد الله والثناء عليه وتحميده وتمجيده وتقديسه والأمر بتقواه ، فهذا هو شر ما يؤدى عنده ، أما ما يجرى فى مواضع الملاهى من الغناء والرقص وشتم الدين والاستهانة بحرماته والفسوق والفواحش ونحو ذلك فهذا لا باس به أو هو خير مايؤدى لأنه أشار فيما سبق الى انتقاد من أنكر علم الشطرنج والموسيقى ، ولانه فيما يزعم فى مقام الدعاية فى مقاومة كل معطل عن العمل فلو كان فى ذلك أدنى شرّ لذكره أو اشار اليه ، وقد تقدمت دعواه أن تأخرنا ليس لفساد فى الاخلاق ، ومعلوم أن استغراق الأوقات فى هذه الأمور أعظم من استغراق أوقات ضئيلة على المنابر وفى المساجد ، وقد بينا فيما سبق أنه يريد بالموت والذل والضلال والكسل والدمامة والاوهام - الاخلاق الدينية ويريد بالحياة والعزّ والحقائق والعلم والجمال الانغماس فى قضاء الشهوات والانطلاق فى الاباحية وعبادة الطبيعة والمادة ، وخليق بمن هذا معتقده أن يحمل على الخطب فى المساجد هذه الحملات الجنونية لانها ضد دعايته وارادته وأفكاره فى أغلاله ، وقد ظن أنه بهذه الترهات والقحة الزائدة سيغير الخطب أو يزيلها ويشفى

غيظه منها وأهلها ، وهيهات وما كيد الكافرين الا فى ضلال

وهل حط قدر البدر عند طلوعه اذا ما كلاب أنكرته فهرت
وما ان يضر البحر ان قام احمق على شطه يرمى اليه بصخرة

وقد بين فى هذا وجه انتقاده على المسلمين فى خطبهم ، ذلك بأنهم يتوجهون الى الله تعالى ويلجئون اليه فى دعائهم ، ومعلوم أن هذا شامل الخطب الدينية كلها ، وقد أكد هذا بقوله ينتظر وجودها وحياتها وحاجاتها من خارجها لا من أنفسها وطبيعتها ، فكل من لم يطلب حاجته من نفسه وطبيعته فهو مؤد شر ما يؤدى وفعل ما ذكر من الشناعات ، وقد صدق فانهم فى الخطب والمساجد لا يعبدون أنفسهم ويسبحونها ويقدسونها ويصلون لها ، وانما يطلب المسلمون ذلك من الله ، وقد نسى هذا الملحد دعواه فيما سبق أن الانسان خلق بطبيعته شريرا خبيثا ظالما وأنه شيطان وأنه اذا تركها بدون تعليم ينشأ على العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط ، فهو يريد بهذه الدعاية الخبيثة أن ينظروا فى خطبهم ومساجدهم الى أنفسهم وطبيعتهم التى صرح بأنها شريرة خبيثة ظالمة مطبوعة على العدوان المطلق فيطلبون منها الخير والوجود[1] وكل ما يؤمل ، ويعرضوا عن التوجه الى الله الذى له الكمال المطلق الرحيم الرءوف القدوس الجواد الكريم . فواغوثاه كم تضمن هذا الكلام من الخبث والكفر العظيم والدعاية الملتوية التى حقيقتها الدعاية الى الموت والدمار العاجل ، وهذه هى عادته يوجه أحدّ سهم لديه الى روح الدين وقلبه ، فهو دائما يصادم ويحارب الدعاء والتوجه والافتقار الى الله والاستعانة والاستغاثة به ، وهذا هو روح الدين ، ومع ذلك يصرف كل عنايته الى التوجه الى مالا يغنى شيئا مع تقريره أنه شيطان شرير خبيث ظالم فسبحان من قلب قلبه وجعله بهذه الحالة الممسوخة خبثا وقبحا . ويا ليت هذا الملحد صدق

---

(١) ما ندرى ما هذا الوجود

فى جملة الناس وأنهم جميعا على هذه الحالة فى الاعتماد والتوجه الى الله تعالى والاستعانة به فى كل أمورهم محققين ذلك قولا وعملا ، فانهم لو فعلوا ذلك لبلغوا آمالهم ، وانما جاءهم هذا البلاء من أجل ترك غالبهم تحقيق هذا التوجه الى السماء وتقصيرهم فى إخلاصه والمحافظة عليه ، اذ تفرقوا شيعا فبعض منهم قصد بحاجاته مخلوقات عاجزة عن دفع أضعف شىء عنها ، وقصد بعض آخر نفسه وطبيعته واعتمد عليها اغترارا بأمثال هذه الآراء السخيفة فترك الخطب والمساجد ، وانماع فى الملاهى وغيرها ، وظن المسكين أن توجهه الى خالقه وفاطره الذى بيده ملكوت كل شىء لا ينفعه ولا يجديه شيئا فاستصغر هذا الامر العظيم واحتقره ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . وهذا حال كثير من فروخ الملاحدة العصريين الذين شمخوا بأنوفهم عن التقيد بالتعاليم السماوية فكانت عاقبة هؤلاء أن لعنوا فى الدنيا والآخرة ولم يحصلوا شيئا مما راموه ، بل كانوا على أسوأ حالة وأخسر نتيجة وضل عنهم ما كانوا يفترون

وقوله « فأقبح بها من منابر ، أشاعت الموت والدمار والظلام والجهل »

فيقال : اخسأ يا عدو الله ، ولن تعدو قدرك ، هذه نفثة مقهور وأنة معثور ، موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ، فان هذه المنابر المنيرة لتكونن شجى فى حلقك وقذى فى عينك وريبة فى قلبك الى أن يقطع الله دابرك . فيالله ويا للمسلمين من هذا الوقح الزنديق كيف يقبح أبرز مظهر دينى أسبوعى من مظاهر الأمة الاسلامية فى عباداتها مجاهرة ثم لا يرجم كما يرجم أمثاله من المعتدين . تالله لقد عاد الاسلام غريبا كما بدأ ، وتالله لقد اصبحنا بسبب ترك مثل هذا الوزغ شماتة للعدى ، فانا لله وانا اليه راجعون

فصل

ثم قال الملحد « كم ارثى لهؤلاء البائسين المساكين الجائعين العارين حينما

أراهم يوم الجمعة وآذانهم مرهفة وأعينهم مشدودة بذلك الخطيب الذى عبث بجسده الناحل المشوه الجهل والشقاء وكل ضروب الحرمان ، ينتظرون منه أن يطعمهم وأن يكسوهم وأن يهبهم الصحة والعافية وأن يبنى لهم المنازل الجميلة وأن يقضى لهم كل حاجة ورغبة وأن يقدم لهم الاستقلال والسيادة كهدية خالصة رخيصة ، وأن يدخلهم أخـــيرا مع النبيين والصديقين والشهداء فى صنوف الأبرار المقربين ، والثمن لذلك كله لا يعدو كليمات خفيفات مبهمات مجهولات يتمتمون بها ، وبعض حركات يمثلونها أو تمثل بهم كما هو الصحيح بدون أن يفقهوا لها معنى أو يدروا لها غرضا وغاية ، وكم أرثى لهم وأبكى وهم يتمايلون تحت ذلك الخطيب ويهزون رءوسهم الفارغـــة ويترنحون بأعطافهم المحطمة تحت تلك الأسمال البالية الممزقة كلما سمعوا وعدا أو وعيدا وكلما سمعوا الآمال الضخمة الرخيصة تزجى اليهم والأهوال المذهلة تصب عليهم »

والجواب أن يقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله تشنيع واستهزاء بحت وتهكم بمظاهر الأديان السماوية ومحاربة لها بدون حجة ، وقد ادعى - على وجه المغالطة - أنهم يطلبون هذه الأمور كلها من الخطيب ، فمرة يقول يطلبونها من السماء وحينا يطلبونهـا من الخطيب ، وادعى أيضا أن المستمعين ينتظرون الاجابة من الخطيب (١) وكل هذا تهكم ونباح مرذول لا يتكلم به الا مخبول ، وقد بلغت الوقاحة بهـذا الملحد مبلغا لم يصل اليـه قبله ملحد ولا بشر كافر ، فقوله كم أرثى لهؤلاء البائسين المساكين الى قوله كم أرثى لهم وأبكى فيقال له ان كنت ترثى لهم وتبكى سخرية بهم فهم يحمدون الله الذى عافاهم مما ابتلاك به ويرثون لك ويقولون ﴿ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ وقد سبقك من هو

---

(١) يفهم من كلامه أن الخطيب يأتى كل يوم جمعة بخبز وعمائم وأقمشة يقسمها على المصلين ، فانظر الى هذه القحة والفجور الزائد

على شاكلتك بهذه السخرية والاستهزاء بذكر الله وعبادته كما قال تعالى ﴿ وإذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ وكما قال تعالى عن المنافقين انهم يقولون لمن آمن مع النبي ﷺ ﴿ غرّ هؤلاء دينهم ﴾ وقال تعالى ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ وقال تعالى مخبرا عنهم ﴿ ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ فكان عاقبة كل من هؤلاء وهؤلاء ما ذكره الله تعالى بقوله ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ فانقلبت الحال وأصبح المستهزىء هو المستهزأ به ، وأضحى الساخر هو الذى يسخر منه ، ونحن نقول لهذا المبتلى وما أرسلت على هؤلاء المستمعين حافظا ومسيطرا ورقيبا ، ومجرد ما ذكرته هنا تهكما واستهزاء لا فائدة فيه ولا طائل تحته ، ولو أنك ناصح فعليك أن تذكر فعلهم وحجتهم ثم تبين خطأهم وترد حجتهم ثم تثبت طريق الرشد فحسب ، أما هذا التهكم والسخرية بهم فهو برهان على أنك ذو هوى وعداوة لهم ، لأن هذه الدعاية ليست بطريق نصح بل طريق عداوة فخطؤك واعتداؤك عليهم ثابت بمجرد هذه الدعوى ونحوها من أقوالك وافعالك ، فكان ما تدعيه عليهم باطلا بكل حال لان ذلك دعوى عدو على عدوه بدون حجة ، مع أن أكثر هؤلاء المستمعين أكبر منك وأعلى منزلة دينا ودنيا ، وكثير من هؤلاء تقبل يديه وقدميه وتعمل معه من الملق والذل والضراعة كما شوهد ذلك وعرف ، فكيف تستهزىء بهم وأنت معهم بهذه الحالة ، ولعل هذا من علم الخبث والمكر الذى مدحته فى ما سبق

وقولك « والثمن لذلك كله كليمات خفيفات مبهمات مجهولات يتمتمون بها » فيقال : قد علم المسلمون أن الخطب مشتملة على حمد الله والشهادتين والصلاة على النبي ﷺ والأمر بتقوى الله وطاعته ، فاذا كانت هذه لا تجدى

شيئا ولا نفع فيها وقد كان عليه الصلاة والسلام ثم أصحابه بعده والمسلمون الى هذا الوقت يفعلونها ولا تغنى شيئا غير التعب والنصب وأغلالك هذه هى التى يبصر بهـــا طريق العقل فقد ضل هؤلاء كلهم وكانوا سفهاء وأصبت أنت وحدك ورثيت لهؤلاء من أجل هـذا الخطأ ، مع أنك ذكرت فى حـــاصل أغلالك مشكلة لم يوجد لها حل الى اليوم ، فلا عجب ممن هذه حاله أن يستهزىء بعقول رجال الأمة جميعا من أولهم الى آخرهم . ويقال لك أيضا : ان كان هذا التصغير والتحقير للخطب ، وانكار النفع فيها فى قولك « انهـــا كليمات خفيفات مبهمات » من حيث ما هيتها وكونها كليمات أى ألفاظا مشتملة على أصوات وحروف ذات مقاطع ، فيقـال لك : هكذا جميع الـكلام [1] حتى أغلالك هذه التى جعلت السيادة كلها معلقة بها هى كذلك ، وهل شب الحروب الا الكلام ، ولم تطرد سابقا من الأزهر الا بالكليمات ، وهل نافقت وحصلت على بعض الشيء من مقاصدك الدنيوية التافهة الا بالكليمات ، وهل حط قدرك وجعلك مشتوما فى كل ناد ومحفل الا بالكليمات ، ولم يستحل أبوك أمك الا بالكليمات ، والنكاح والطلاق والعقود والعهود وتعلم نواميس الطبيعة والموسيقى والمكر والخبث والفلسفة كل ذلك لا يمكن علمه الا بالكليمات ، بل الحياة قائمة بين الناس بالكليمات والحركات ، فالعلة فى هذه الأمور واحدة ، فمـــا الذى خصص ذكر الله وعبادته بعدم الفائدة من أجل أنها كليمات وحركات ، وغيرها كذلك وكل الفائدة فيه . فتشنيعك هذا تشنيع ساقط بالمرة . وان كنت تريد بذلك أنها لا فائدة فيها فقط ، عاد النزاع بيننا وبينك الى نفس الفـائدة وهو موضوع البحث ، فيكون تصغيرك وتحقيرك لهـا حينئذ كفرا وضلالا لأنه

---

(١) ومعلوم أن سادتك من الملاحدة من أعظم الناس استعمالا للدعاية واعتمادا عليها معتقدين أنها سبب عظيم من أسباب التقدم والنصر ، وهى كلمات فقط ، فلم لم تعترض عليها فى ذلك

تهكم واستهزاء بالفاظ دينية محضة ، واذن نقول لك دعواك أنه لا فائدة فيها دعوى مضروب بها وجهك ، وانما يفيدك ذلك لو أقمت الأدلة على ما ادعيته ، وانت لم تفعل شيئا من ذلك وانما غايتك فى هذه الدعوى أنك شنعت بالتهكم والاستهزاء المجرد ، فنحن نعارضك بمثل دعواك أو أصح منها ونقول : لا فائدة فى كل كلماتك . ويكفينا دليلا على أنها كلمات ساقطة أنك لم تسبق اليها ولا لك فيها سلف ، وأنت مقر ومعترف بأن هذا الذى تدعيه مخالف لما كنت معتقده من قبل مع ادعائك فى اعتقادك الأول أنه على براهين وأدلة صحيحة ، ومعلوم أن البراهين لا تتناقض ، ومجموع هذه الامور وغيرها برهان على أنك مريب مضطرب فى رأيك فلا يعتد به . ونقول : انه منذ ظهر فجر النبوة الى هذا الوقت وهذه الخطب العالية تتلى على المنابر على رءوس الاشهاد من الملايين وملايين الملايين من سادات البشر وغيرهم وما عارض فيها أحد بلفظة واحدة من جميع أهل الملل بل عظموها وقدسوها . وهذه الصلاة تؤدى فى المساجد كل يوم مرارا معروفة من ظهور الاسلام الى هذا الوقت وجميع اهل الاديان يعظمونها ويحترمونها ، وكل هذه المظاهر الدينية مشتملة على أذكار مشروعة كالتحميد والشهادتين وقراءة القرآن والصلاة على النبى ﷺ ، فادنى عقل سليم يعلم بان الفائدة الحاصلة من كلمات الخطباء أعظم وأجل وأكبر من الفائدة الحاصلة من كلمات أغلالك هذه أو غيرها ـ هذا لو قدر أن فيها فائدة ، كيف وهى الخسارة الأبدية ـ فبطل كلامك على كل تقدير ، وصار هذا البكاء والرثاء الذى صدر منك ـ كما تقول ـ بكاء ورثاء كبكاء الاطفال والمعتوهين والمجانين الذى لا معنى له ، وصارت حالك أحط حالة من البائسين والمساكين ، فالأولى أن تنعى على نفسك ما نعيته على غيرك فانك أولى بذلك

وقوله « وبعض حركات يمثلونها أو تمثل بهم كما هو الصحيح » يعنى أن الصلاة كالخطبة حركات لا معنى لها وأنه يرثى لأهلها ، فعبر عن الصلاة بالصفة لا بالاسم ، فكأنه هاب قليلا ، ولا معنى لهذه الهيبة ، فان من عرف

الدين لا تشكل عليه هذه الغمغمة مع صرائح الكفر فى غيرها . ومن طبع الله على قلبه وأعمى بصيرته فلن يتأثر من ذلك ولو صرح به ، فلو عبر عن الصلاة بالاسم الصريح لاستراح من هذه العقدة النفسية فيما يكنه من هـذا الرأى الخبيث المضر ، ولا شك أن من قدح فى الخطب قدح فى الصلاة ، والخشوع فى الصلاة أظهر من السكوت فى الخطبة ، وقد صرح بأن المساجد أدت شر ما يؤدى . ثم القول فيما ادعاه فى الصلاة من كونها حركات يمثلونها أو تمثل بهم كالقول فى الكلمات سواء على ما مرّ ، لأن أعمـال الناس كلهم حركات من خير وشر ، فلا معنى لتخصيص الصلاة بالقدح وعدم الفائدة من أجل ذلك ، فان هذه العلة يشترك فيها سائر الأعمال ، والحكم يدور مع علته وجودا وعـدما

فصل

قال الملحد « لقد كان من الممكن أن تنطلق شرارة أو تنبعث عاصفة من الطاقة الانسانية الأبدية الكامنة فى أعماقهم فتضىء لهم الطريق أو ترتفع بهم عن هذه الوهدة وتنقلهم من هذا المكان الذليل لو تيسر أن ينقذوا من براثن هؤلاء المخدرين ، ولكن هذا الاجتماع الاسبوعى مفروض فرضا ، وهذه الخطب مفروضة على هذا الاجتماع فرضا ، فاين النجاة وأين الفرار »

فيقال كيف تنطلق من أعماقهم شرارة تضىء لهم الطريق وأنت قد قررت ان أعماقهم مطبوعة على الخبث والشر والظلم والجهل ، وانهم إن لم يعلموا بقوا على الاخلاق الوحشية وبقوا على العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط كما تقدم ، فلما أن قام هؤلاء العلماء يضيئون لهم الطريق بالانوار السماوية ويبعثون فى قلوبهم الحرارة الايمانية الفطرية ويرشدونهم الى سلوك الطريق النافعة الدينية والدنيوية ادعيت أنهم يخدرونهم ، وانما حملك على هذا البغض والمقت لهم لاغراض أردتها معروفة ، وما دعايتك هذه الا دفعا لهم

فى الوهدة المظلمة السحيقة واضلالا لهم عن معرفة الحقيقة ، وكل هذه الدعوى سب صريح لله تعالى ولاديانه وللدائنين بها ، فانك معترف بان هذا الاجتماع مفروض فرضا وهذه الخطب كذلك مفروضة فرضا ، فادعيت فى هذا الذى فرضه الله على عباده أنه لا فائدة فيه سوى التخدير والتعويق ومنع اضاءة الطريق ، وأنه شر وخبث ، وتركت ما فرضه الملاحدة وأعداء الملل من الكفر والفجور والفسوق والغناء وإماتة الأرواح المعنوية فى الشعوب كلها ، وقد علمت أن الذى فرض الخطب والاجتماع لها هو الله رب العالمين على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام ، وأن الذين عملوا مواضع الفجور هم أصناف الملحدين الظالمين فجعلت هؤلاء الذين أخرجوا الناس من الظلمات الى النور هم الذين وقفوا للناس فى طريق الخلاص والنجاة والنجاح وصدوهم عن ذلك وحالوا بينهم وبين السعادة والحياة فخدروهم وعقلوهم وصبوا عليهم الذلة والمسكنة وصفدوهم بالأغلال والقيود ، ولذلك ادعيت أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وانبيائهم ما وهبوا الحياة شيئا جديدا ، وادعيت أن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الاديان المنحرفون عنها ، فأى طعن فى الله وشرعه وأنبيائه أعظم من هذا الطعن ، بل لم نعلم أحدا من الأولين والآخرين من جميع الطواغيت وأعداء الديانات تجاسر على هذا وبلغ هذا المبلغ ، فلعن الله من قال هذا الكلام ولعن من رضى به أو راج عليه . وقد بينا فيما سبق أنه لولا هذه الأذكار والخطب النيرة والدعوات الدينية التى هى وقود حرارة الايمان فى قلوب الناس لما عاش على وجه الأرض أحد ولسقط الناس فى الهلاك والدمار والفناء السرمدى ، ولهذا قال النبى ﷺ « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الارض الله الله » ، وهذا دليل على أنه اذا خليت الأرض من ذكر الله حل عليها الغضب واللعنة الماحقة النهائية لزوال موجبات الرحمة ، فالاذكار هى مادة حياة القلوب وحياة الأرواح وسرورها ونعيمها ، وانك لا تكاد تجد رجلا خاليا من ذكر الله وطاعته الا وهو منكد العيش منغص الحياة قد

ضاقت عليه الارض بما رحبت كما قال تعالى ﴿ ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ﴾ وقال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ فالأذكار الدينية هى الاستمداد من مصدر النور والحياة والقوة ، وبقدر هذا الاستمداد يكون مقدار النور والحياة والقوة من زيادة ونقص . وقد بينا فيما سبق أن مادة الدعاء والذكر والعبادة هى الـــتى تبعث القوى الكامنة فى أعماق الفطرة ، وهى الدافع القوى للطاقة الانسانية وأعظم ملهب لها ومنير لهـا الطريق ، وأكبر مصادم للـكسل والوهن وضعف الهـمة ومضايقات النفس ، فان ما تتضمنه من الترغيب والترهيب والحث المتواصل على إقامة العدل والانصاف وتحديد شدة الجشع والهلع ومقت الظلم والاستعباد والجور والعسف والارهاق وأمثال ذلك هو أصل الوسائل التى تتركز عليهـا جميع خطب الخطباء وحماسة المتحمسين ، ولهذا لا يوجد أشد حماسة وأعظم غـــيرة وقوة شكيمة ولا أقوى رجولة ولا أشد حبـا للعـدل والانصاف والاحسان ممن نشأوا فى هذه البيئات الدينية وطبعوا بطابع هذه التربية العالية النقية ، وهذا بخلاف أولئك الذين عاشوا فى تربية الفجور والالحاد والنفاق وحب الملاهى فلا يوجد أحط أنفسا ولا أسخف آراء ولا أظهر فهاهة منهم ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، ولولا غربة الدين لما احتاج الانسان أن ينبه عـلى كلامه فى هذه الأمور لمصادمته الشرائع السماوية مصادمة لا أظهر منها . وهذا الملحد لمـــا كان منكوس القلب معكوس الرأى مطموس البصيرة مركوس السريرة رأى الأشياء كلها على عكس حقائقها كالمريض الذى فسد مزاجه فانه يحس الاشياء على خلاف طبائعها ، قال الشاعر :

وما على العنبر الفواح من حرج ... أن مات من شمه الزبال والجعل

فهو كالجعل الذى اعتاد الخبائث فهو يندفع اليها ويسقط عليها وينفر غاية النفرة أو يموت من الروائح الطيبة ، فانه ملحد خبيث قد ملىء بغضا للاسلام من مفرق رأسه الى قدمه ، فماذا فعل معه الخطباء وأهل الدين الذين يعبدون

الله فى مساجدهم حتى يوجه اليهم سهام الذم والحط الشديد عليهم ويجعلهم هدفه فى كل ما خطر على باله من سباب واتهام وشتم وعداوة على غـير ما جرم فعلوه ، بل ما نقم منهم الا أن رفعوه وحموه ونصروه لما حاط به البلاء من كل جانب وطرد من الازهر ولم يجد من يؤويه ، ولـكن نفسه نفس خبيثة وفى الحكمة المتقدمة « أبت النفس الخبيثة أن تخرج من الدنيا الا وقد أساءت الى من أحسن اليها » كما أشرنا الى هذا فيما سبق ، ولعل هذا الزنديق ان استراح من هذه الخطب بهـذا الشهيق والنهيق مما يجد فى قلبه من العـداوة والحريق ، فما ضر الا نفسه ولا ازداد الا رجسا الى رجسه ، وما مثله فى هذا إلا كمثل ذبابة تطن فى أذن فيل ، أو بعوضة تعد فى التماثيل ، ولا استفاد من هـذا الاعتداء والمكر والافتراء الا الصغار والعـذاب والبـلاء ، قال الله تعالى ﴿ سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾

فصل

قال الملحد « قد يجوز أن يختلف المصلحون فى كثير من طرق إصلاحهم ، ولـكن ليس مما يجوز الاختـلاف فيه أن الواجب الدينى والوطنى والانسانى يلزم باصلاح هؤلاء الخطباء وهذه الخطب ، واما الحيلولة بينهم وبين ضحاياهم وإما شىء آخر »

فيقال : أنت لم تبـين وجـه ذنبهم وضرر خطبهم حـتى تعرف طـرق اصلاحها ، ولم تبين وجه الاصلاح هنا الا بمجرد دعواك أنهم يخدرون بها تعنى أنهم يسكتون عند سماع الخطيب . ومعلوم أن السكوت لا بد منه عـند كل خطيب وواعظ ومتكلم بحق أو بباطل ، وهـذا لا يمكن اصلاحه بحـال . وأما ذنبهم فلم تذكر له وجها الا بمجرد دعواك أنهم يطلبون حاجاتهم من السماء لا من أنفسهم وطبيعتهم ، وهـذا شامل لجـميع الخطب الدينية بجميع أنواعها ، فانها كلها فى التوجه الى الله والطلب منه لا من النفس والطبيعة عـلى

المنابر ، فان المنابر لم توضع للاعمال انما وضعت للدعاء والذكر والأمر بتقوى الله ، هـذه هى خطب الدين الاسلامى عـلى المنـابر ، وليس من المشروع فى خطب الاسلام من عهد الرسالة الى هذا العهـد أن المسلمين يطلبون حاجاتهم من أنفسهم وطبيعتهم أتريد منهم أن يردوا أيديهم فى أفواههم أو يمدوها الى أنفسهم وطبيعتهم التى قررتَ أنها خبيثة ظالمة شريرة ، أم تريد أنهم يطلبونك أنت وحدك كما ادعيت ذلك حيث قلت :

لو أنصفوا كنتُ المقدمَ فى الأمر (١)

ولم يطلبوا غيرى لدى الحـادث النكر

الى آخر أبياتك القذرة . وحاصل هذا الانتقاد كله أنهم يطلبون من الله حاجاتهم لا يطلبونها من أنفسهم ، فهم يعبدون الله ويدعونه ، لأن التوجه القولى والفعلى هو روح العبادة ولبها ، ولما كنت معتقدا الالحاد أنكرت هذا لأن العبادة على مقتضى أصلك لا محل لها أو أنه سبحانه لا يستحقها فلا ينفع احدا بطاعته ، فصار مرادك بهذا الاصلاح هو رفض التوجه الى الله والاعتماد إما عليك واما على طبعهم فيصلحون الخطب بالحث على رفض التوجه الى الله وفعل الأعمـال الدينية لان لهـا عندك نتائج أخرى هى الملهـــاة والمصرف الخبيث ، فيعتمدون على الطبيعة وحدهـــا ويصرفون كل هممهم الى الطبيعة ونواميسها ، ومعرفة هذا تتوقف عـلى الـكفر بتصرف الله فى ملكه وتدبيره له بقطع السبب عن مسببه أحيانا والتحكم فى النتائج والنهايات ، لان الانسان لا يكون سببيـا محضا الا بذلك ، وليس النجاح مكتوبا الا للسببى المحض كما صرحت بذلك فيما يأتى (٢) ، وهـذا لا يمكن الوصول اليه الا بالـكفر بالله ،

---

(١) الشطر الاول مزحوف فى التفعيلة الأولى وهو قبيح باجماع العروضيين ، فاجتمع فيه القبح فى وزنه ومعناه ولفظه

(٢) أى فى المشكلة

لأنك قررت بأنه لا اله بلا فعـــل ، ثم قررت أن الاقرار بالفعل يوجب الاقرار بتغير الأسباب وهذا يوجب التأخر وهو خلاف المطلوب ، ثم ذكرت أن هذه الطريق لا يوصل اليها إلا بشيء واحـد وهو مقابلة الطبيعة الكامـلة بطبيعتها الكاملة ، ثم ان هذا عندك شيء عزيز الوجود جدا فلا يمكن الوصول اليه أيضا الا من طريق واحدة لا طريق سواها وهو التمسك بأغلالك هذه ، التمسك بالحقائق الازلية الابدية ، التمسك بهذه الافكار التى لن يستغنى عنهـا مسلم واحد بين أربعمائة مليون مسلم ، التمسك بهـا والاعتصام بها لانك قلت تتركها أمة فتهوى وتأخذ بها أمة فتنهض ، فاذا عرج الانسان الى سمـاواتك هذه التى اخترعتها ووصل الى ملكوت حقائقك الأزلية الأبدية استخرج كنوز نواميس الطبيعة وقوانينها منها ، أما بدون ذلك فويل له ثم ويل له ثم ويل له ، لأنك أغلقت الأبواب كلها فى وجهه فقلت صريحـا « تتركه أمـة فتهوى » فلو حاد عن طريق هذه الأغلال هوى ولا حول ولا قوة الا بالله ، ولـكنه اذا تمسك واعتصم ولم يحد فانه ينهض ، وكل الأمم والافراد تطلب النهوض ، فها هو ذا ، فعلى جميع الناس أن يصلحوا خطبهم بابدالها بهذه الأغـــلال فيخطب بها على المنابر ، لأن اصلاحهم كله معقود بناصية الاعتصام بها ، ولان أربعمائة المليون المسلم لن يستغنوا عن معرفته والأخذ به ، وهو حديث عهد فلا يمكن إفاضة تعاليمه على هذه الملايين المتقطعة فى الارض أمما إلا بأن يُنْشر ويخطب به على المنابر لتحصل الافادة العامـة بذلك ، وبذلك يحصل المقصود وهو الحيلولة بين الناس وبين التوجه الى ربهم ، كما يحصل تقديمك فى الأمم واتخاذك إلها ، أو على الأقل تكون مـنزلتك فى برزخ فويق الرسول ودون المولى . فلقد تحجرت واسعا وطولت الطريق فى طلب ما تتمناه ، فلهذا كانت عاقبتك أشنع عاقبة : لقد كان من الواجب المحتم على كل عاقل يريد أن يتكلم فى مسألة فرعية من فروع الأحكام فى الفقه فيقدح فيها فيشوهها ويتهكم بهـا وبأهلها ، عليه فى ذلك شرعا وعقلا ونظرا أن يذكر المسألة بصورتها الواقعية ،

ثم يذكر دليل من فعلها ، ثم يذكر انتقاده عليها ، ثم يذكر دليل انتقاده ، ثم يجيب عن دليلها ويعرضه على الناس بدون تهكم ولا استهزاء احتراما للدين ولأهله ، فكيف بمن يهجم على أبرز مظهر من مظاهر الدين الحنيف فى كل أسبوع ، وكله يشتمل على أصل الدين وروحه وركنه الأكبر ، فيقدح فيه بكل ما خطر على باله من سباب واتهام ، ويقدح فى أهله ويتهكم ويستهزىء بهم ويسفههم تسفيها لا يقدم عليه من له أدنى عقل وحياء ، فهل هذا كله إلا من الجرأة على الله وعلى أديانه وعلى الأمم التى تدين به ، وهل السكوت عنه إلا من ضعف الدين وإدباره ، وذهاب عظمته واحترامه وتقديسه من قلوب الناس ، وأن أكثرهم نسوا الله فنسيهم وأعرضوا عنه فولاهم ما تولوه ، وان الظالمين بعضهم أولياء بعض . وهذه المواضع الجنونية التى حط فيها على الخطب والصلاة والمساجد والمنابر هى من المواضع التى افترسه فيها الشيطان وتخبطه من المس ، فزاده رجسا الى رجسه وعلة الى علته كما اختار لنفسه ذلك ، عافانا الله مما ابتلى به

فصل

ثم قال « وقد أراد جماعة من المتأخرين أن يجددوا فى معنى الزهد وأن يجعلوه عصريا فقالوا ان الزهد محله القلب لا اليد ، يعنون أن القلب هو الذى يجب أن يزهد فى الدنيا وأن يكرهها ويعرض عنها ، أما اليد فلا باس بأن تجمع وتعمل ، وقد ظنوا أنهم بذلك قد وفقوا بين أقوال هؤلاء الشيوخ وبين ما تطلبه الحياة من عمل ونشاط »

قلت : ما نسبه الى هؤلاء العلماء فى قولهم ان الزهد محله القلب صحيح ، ولكن تفسيره لكلامهم باطل وضلال ، فانهم قالوا ان الزهد محله القلب لا اليد ، وهو فسره بغير ما يريدون ، فانه قال يعنون أن القلب هو الذى يجب أن يزهد فى الدنيا وأن يكرهها ويعرض عنها ، وهذا تفسير غير مطابق ولا

وجه له ولا يفهم أصلا من كلامهم ، فلم يعنوه ، ولا فى لفظهم ما يـدل عليه ، فهم لم يقولوا ان الزهد بغض القلب للدنيا وكراهته لها وإعراضه عنها ، وانما قالوا محله القلب لا اليد ، وفرق ظاهر بين قولهم محله القلب وبين ما يدعيه من الكراهة والاعراض ، بل مقصودهم من القول هنـا هو اطمئنان القلب فيما حصل له من الدنيا بدون جشع ولهف عليها ، هذا مقصودهم وهذا هو الزهد الحقيقى لا ما ادعاه ، فاعتراضه اعـــتراض ساقط لا وجه له البته . قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى مسألة الزهد فى المال (١) : « اذا سلم فيه القلب من الهلع واليد من العدوان كان صاحبه محمودا وان كان معه مال عظيم ، بل قد يكون مع هذا زاهدا أزهد من فقير هلوع » انتهى . وكلام الأئمة فى مسألة الزهـد على هذا المعنى ، فالزهد طمأنينة قلب الانسان بما آتاه الله من الدنيا بعد فعل ما يجب استحصاله مما هو من ضرورات الحياة ، وهذا شامل للعمل والنشاط فيه ، لأنه متى كانت الأمة محتاجة الى ذلك وجب السعى فيه لأنه من المصالح الدينية الضرورية ، والاجتهاد فى العمل النافع لا ينافى الطمأنينة ، فان الطمأنينة اذا كان المقصود بها أمر دينى فهى موجودة مع العمل والنشاط فيه ، وأما اذا كان العمل مقصودا به منافسة وحقد فهـذا لا يحصل فيه طمأنينة قلب سواء اجتهد أو لم يجتهد ، فكم من عاجز كسلان ياكل أنامله غيظا وكمدا عـلى عدوه بدون عمل ، وكم من هادىء ثابت الجأش جاد فى عمله سائر فى طريقه باهتمام واخلاص وقوة ، فليس بين حب الدنيا والهلع عليها والاجتهـــاد فى العمل ملازمة ، بل قوة العمل والملازمة عليه يرجع الى العوامل الباعثة له ، فان كانت دينية صادرة عن ايمـان صادق واعتقاد قوىَ العمل ودام النشاط فيـه واستمر استمرارا صحيحا ، وان كانت العوامل والبواعث دنيوية محضة فهو بحسب تلك العوامل فى القوة والضعف ، فقد يكون قويـا وقد يكون ضعيفا

---

(١) الآداب الشرعية ص ٢٥٣

وهو الأغلب ، ولكن اذا قوى فلا بد أن تكون قوته دون قوة العمل الذى باعثه عوامل دينية صرفة ، وأكثر ما يكون ضعيفا اذا كان إجباريا أو كان لمصالح شخصية مؤقتة ، وهذا هو الغالب

ثم قال « وفات هؤلاء أن هذه الفكرة مستحيلة متناقضة ، وذلك أنه من غير الممكن أن يكره المرء الدنيا بقلبه أو لا يحبها بقلبه ثم يعمل لها باهتمام مصابرا على مشقات الطلب والعمل »

قلت : ما فاتهم هذا الذى ذكرته ، ولكنك فهمت من كلامهم ما لم يقصدوه ، وفاتك أن هذا الذى قررته واعترضت به انما يصح على أصلك الذى فسرت به الزهد القلبى ، أما على أصلهم فلا يرد هذا الذى ادعيته عليه ابدا ، فانك اصلت أصلا من كيسك ، وفرّعت عليه على حسب ما تريده وتهواه ، وببطلان الأصل يبطل التفريع عليه

ثم قال « لأن الذى يبعث على ذلك هو حب النتيجة التى يرجو تحصيلها ، والا لما قام بعمل شاق الا أن يكره إكراها »

فيقال : اذا كان الذى يبعث الانسان هو حب النتيجة التى يرجو تحصيلها فهذا الباعث لا يوجد على أكمل الوجوه إلا فى التقوى والعمل الصالح ، لأن ذلك يتضمن طلب حصول نتيجة العمل وهو سعادة الدارين ، فلا أكبر ولا أجل من هذا الأمل الدنيوى الأخروى ، فان الله تعالى يقول ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون ﴾ فالعمل اذن تابع لحب هذه النتيجة العظيمة ، وبقدر محبتها فى القلب يكون العمل فى الضعف والقوة ، وهذا فى الأعمال الاختيارية لانها المقصودة هنا ، بخلاف الإجبار ، وقد يكون لذلك شأن آخر . ثم ان هذا الامل العظيم انما يحركه وينميه ويبعثه ويقويه مادته الدينية ، وأعظم هذه المادة هى تكرر الخطب فى الجمع والوعظ فى الجماعات ، فتكون الخطب لذلك هى التى تنير الطريق وتنفخ روح القوة والنشاط والاستمرار فيه ، والتوجه

الى الله وعبادته هو نور وهو الروح ، ومعلوم ان كل نتيجة فهى بقدر العمل ، وكل عمل فهو بقدر العلم ، وكل علم فهو بقدر صحة التصور ، وانما يحصل ذلك بتحرير النفس والعقل وطرد كل المؤثرات الفاسدة من الشهوات والشبهات التى تحول بينه وبين ادراك الحقائق ، ولا يمكن أن تحرر النفس والعقل بدون فهم النصوص الدينية والانقياد لها ، لأن من أعرض عن ذلك فلا بد أن يعتنق نصوصا غيرها ولا بد أن تكون فاسدة أو أكثرها فاسد ، وحينئذ إما أن تحصل الحيرة والقلق والاشكالات ويرجع الانسان الى حيث ابتدأ ، واما أن يقف فى عرض الطريق بدون الحصول على حقيقة ، واما أن يضطر الى تقليد فكرة غيره على غير براهين صادقة ، وكل هذه الأمور الثلاثة لا ينشأ عنها الا الضرر المحض ، أما النصوص الدينية فانها وفق الفطرة ، وهى تنير القلب والعقل ، فتمنع النفس والعقل عن الخروج الى سبل الأوهام والخرافات وتطلقه فى السبل الصحيحة الموصلة للحقائق ، فليس فى النصوص حرف واحد يمنع عن الأعمال النافعة والتفكير فى كل ما به نفع للبشرية . لكن هناك أمور لامعة كالسراب قد يظن الجاهل أنها ماء فتمنع عنها لكونها ضررا محضا ، أو لأن ضررها أكثر من نفعها (١) . وهذا كله مع من يصدّق بالنصوص ، أما من هو خلاف هذا فله شأن آخر ، وقد قال تعالى ﴿ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور﴾ فعلق النجاة والنجاح على التوجه الصحيح والعمل الصحيح ، فمتى حصل التناسب بين التوجه الذى هو طريق العلم ، والعمل المصدق له وهو التوجه الفعلى ، حصل النجاح فى الأعمال الأخرى التى لا تتنافى مع هذا ، فالغفلة عن الذكر

---

(١) ويدلك على هذا أنك تجد كل من خالف النصوص من فحول النظار وغيرهم على كثرتهم ليس فيهم الا من هو معترف بالحيرة والشك والقلق ، مع ما فى كلامهم من التناقض ، ومع ادّعائهم أنهم أهل المعقولات الصحيحة

والدعاء والعبادة هو المرض الذى لا بد أن يؤدى الى الموت الذى لا حياة صحيحة بعده

ثم قال « بل الذى يمكن فى هذه المسألة هو العكس ، أى إنه من الممكن أن يحب قلبه وتزهد يده ، فمن الواقع المشاهد أن تكون محبا للدنيا وللمال جدا بدون أن يمنعك هذا الحب من الانفاق وصرف مافى اليد رجاء المثوبة أو رجاء أمر آخر أو طاعة لعاطفة نبيلة ، وكل الذين يجودون بأموالهم هم من هذا النوع »

قلت : هذا خروج عن المقصود ، فانه فى التوفيق بين الزهد والعمل للانتاج المادى ، ليس هو فى التوفيق بين الزهد والانفاق . وكلامك هنا فى الثانى والمقصود هو الأول ، فانك اذا عكست المسألة ـ كما تزعم ـ فعليك أن تقرر أن الزهد فى اليد وحب المال فى القلب يبعث على العمل بالقوة والنشاط عكس الادعاء الأول ، وهذا لا يمكنك أبدا ، ولهذا لما أعجزك عدلت الى المغالطة بأمر آخر وهو وجود الانفاق مع حب المال ، وأولئك العلماء لم يتعرضوا لهذا حتى تدعيه ، انما ادعوا أن حب المال فى القلب لا ينافى الزهد فليس الزهد عندهم هو بغض القلب للمال وكراهيته ـ كما تدعى ـ بل الزهد هو ما ذكرنا تعريفه فيما تقدم ، فالاعتراض هنا ساقط لا محل له

ثم قال « وقد أشار القرآن الى هذا فى قوله ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقوله ﴿ ولكن البر من آمن بالله ـ الى قوله ـ وآتى المال على حبه ذوى القربى ﴾ وقوله ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ وهذه الآيات صريحة فى أن المؤمنين الذين يحبهم الله ويشيد بهم وبأوصافهم كتابه هم الذين يحبون المال »

فيقال : وهذا لا ينفعك شيئا ، بل هو حجة عليك ، لان الآيات الكريمات ليس فيها دليل على أن حب المال بالقلب والزهد باليد باعث على العمل ، لأن هذا هو مقتضى ما ادعيته آنفا ، والآيات انما أفادت بيان حال هؤلاء المنفقين

أموالهم فى هذه الأمور الجليلة مع حبهم لها ، وهذا شاهد لقولنا الذى قررناه من أن الزهد ليس هو بغض المال بل حبه لأجل وضعه فى موضعه النافع ، فحبه لأجل وضعه فى طرقه لا ينافى الزهد ، وانما الذى ينافى الزهد هو الحرص والشح كاجتلابه من غير طرقه أو تقديم محبته على واجب دينى ، ثم منع حقوقه أو منعه عن مستحقه . وهذه الآيات فيها مدح هؤلاء لكونهم قدموا محبة الله ودينه واتباع أوامره على محبة المال ، فهذا دليل على أن محبتهم للدين راجحة على محبة المال ، ومعلوم أنه متى تزاحم محبوبان فى القلب فلا بد من ميل القلب الى الأكبر الأقوى ، وهذا بخلاف الجشع والحرص الشديد مع إهمال عمل اليد فانه لا يحصل به شيء من الانفاق الخيرى ، وكثيرا ما يقدم على فعل الطاعة الواجبة وهذا يتنافى مع الزهد

ودعواه أن هؤلاء المؤمنين الذين يحبهم الله ويشيد بهم وبأوصافهم كتابه هم الذين يحبون المال ، فهذه الدعوى فجور صريح وبهت للقرآن العزيز ومغالطة خبيثة ، فليس فى القرآن آية واحدة فيها الثناء على الذين يحبون المال مطلقا ، وإنما أثنى على هؤلاء من أجل تقديم حب الطاعة على حب المال وإنفاقهم فى طاعة الله مع حبهم لهذه النفقة لا من أجل حب المال ، فذكر حب المال هنا غير مقصود ، بل بيان لكونهم قدموا هذا العمل الدينى المالى مع محبتهم لمالهم ، لان هذا يدل على صدق الايمان والاخلاص وحسن الظن بالله ، وكل هذا يناقض أصوله ، ولهذا رام التخاص بالانحراف الى تحريف النص والمغالطة فى ذلك ، فحب المال بدون إنفاق مشروع ليس ممدوحا فى الشرع أبدا

ثم قال « أما هؤلاء المحرومون الحارمون فيزعمون أن حب الدنيا والمال رأس كل خطيئة ، فالمرء اذن قد يحب المال ثم ينفقه ولكنه ان يكرهه ثم يعمل له »

فيقال : أما أن « حب الدنيا رأس كل خطيئة » فهو حديث رواه البيهقى ، والواقع يصدقه ، وانما الذى يمنعه من أن يكون رأس كل خطيئة اذا عمل فيه

بمـا يوجبه الامر الشرعى ، وحينئذ لا يكون خطيئة لأن العمل به فى الوجوه الشرعية أخرج صاحبه عن أن يكون مخطئا مفتونا به مقدما له على طاعة الله ، فأصل فرض الزكاة وجميع النفقات الواجبة والمستحبة انمـا شرعت لامتحان العبد بماذا يفعل بهذا المال الذى حـل بيده فضلا من الله ونعمة ، فقد خرج العبد الى الدنيا مجردا من كل شىء منها ، ثم خول هذا المال الذى هو مـادة الحياة وأكثر اللذات كما قال تعالى ﴿ انمـا أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ فمن الخلق من تصل محبته للمال الى سويداء قلبه ، فان عمل بما أوجب الله عليه فيه فقـد قدم طاعة الله على محبته لمـاله ، وخرج عن أن يكون عبـدا للدرهم والدينار ، وكان فى دعوى الايمان صادقا ، وان قدم محبة المال علم أن دعواه فى الايمان غير صحيحة بل مدخولة وانما ذلك إما رياء أو لقصد آخر لا ايمـانا صادقا خالصا ، فلا يمكن اجتماع الايمان الصادق الخـالص ومنع الزكاة أبدا ، كما لا يمكن ذلك مع ترك الصلاة والصوم ، لان الاعمـال البدنية والمـالية والنفسية تابعة لاعتقاد القلب من صحة وفساد .

وقوله « فالمرء اذن قد يحب المال ثم ينفقه » فنقول : قد يكون ذلك ، ثم ماذا ، فليس فى ذلك حجة لك ، فان خصومك لا ينكرون هذا ، ثم الانفـاق نوعان شرعى وغير شرعى ، فالمحبة الراجحة على حب المـال هى التى تدفع الى إنفاقه ، إما الى هذا وإما الى ذاك ، فصاحب المال الذى يحبه لا بد أن ينفق منه شيئا ولا بد أن تكون نفقته له تابعة لجاذبية المحبة الراجحة على محبته إما طاعة واما معصية

وقوله « ولـكنه لن يكرهه ويعمل له » يقال أولا هذا ادعاء لا محـل له ، وخصومك لم يتعرضوا له فى مسألة الزهد ألبتة فلا وجه لايراده . ثانيا ليس من الممتنع أن يكرهه ويعمل له من أجـل أمر آخر قد يكون دافعه أرجح من عامل الـكراهة ، فان كثيرا من الناس يكره المعاصى ويعمل لها بل يسلك طرق المخاطرات فيها مع كراهته لها ، وقد يكره ظـلم شخص فيدفعه الطمع

وحب الدنيا الى ظلمه أو قتله لان هذا العامل الأقوى ترجح على هذا العامل الأضعف ، وأمثال هذا كثير

فصل

ثم عاودته سجيته فى التناقض ، فذكر هنا كلاما طويلا هدم به جميع ما ذكره فى صدر هذا المبحث فى محاربة الزهد والقناعة ، ووجه فيه نظرية الزهد والقناعه وحسن تأثيرهما ، ننقله هنا لتعلم أن هذا الرجل من الذين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين قال : « غير أن هذه المسألة قد تدرس على وجه آخر فيبدو من دراستها على هذا الوجه أن لما يقوله الزهديون وجها ، أو إنه هو الوجه الصحيح ، ذلك أن فى القضايا المتفق عليها أن الاختلاف بين الناس فى وضعهم الاجتماعى وفى تفاوت درجاتهم من حيث الغنى والفقر والصحة والمرض والقوة والضعف والعز والذل وغير هذه الأمور لا يمكن أن يقضى عليه ، بل يوجد الى جانب الغنىّ الواحد عشرات الفقراء أو مئاتهم أو آلافهم ولو فقراء نسبيا ، كما يوجد تحت أقدام السيد الأعلى عشرات الملايين أو مئاتهم يهتفون بحياته وباسمه اذا بدا ويخضعون لأوامره اذا غاب ، وهكذا القول فى كل ناحية من نواحى هذه الحياة المحكمة التعقيد . وحينئذ فالمسألة ذات فرضين : أحدهما أن الحياة يجب أن تقوم على التنافس الحرّ المطلق الذى لا حدود له ولا قيود ، وأن من عجز عن منافسة الآخرين ومغالبتهم فى غرض من أغراضه أو شهوة من شهواته لزمه أن يعد نفسه مغبونا محروما ، ووجب عليه أن لا يقر له قرار ولا تهدأ له نفس ولا يبطل له مسعى حتى يوفى على كل شهواته وأغراضه وحتى يرد المنهل الذى ورده الآخرون السابقون وأسلحته فى ذلك اتلاف جسمه وارهاق نفسه . وثانى الفرضين أن الأمر دون ذلك كله ، وأن الدنيا ما هى الا حاجة قليلة يكفى منها ما أمسك الحياة ، وأن التفاوت فى مظهرها مثل التفاوت فى مظهر الموت : يحمل عليها وليس

منها، ويكون بها ولكن لا يكونها . وان القميص الحريرى يلبسه الحى بالنسبة الى القميص القطنى أو لما دونه هو ككفن الحرير يلف به الميت بالنسبة لكفن القطن أو لما دونه ، وان المرء ليس الا عقله وفكره وأخلاقه ، أى ليس الا ذاته المعنوية ، وليس هو ما يتصل به اتصالا مما ليس فيه ذاتيا . اما الفرض الاول فمما لا شك فى عنفه على البشرية وقسوته عليها ، فان البشر لا يستغنون فى حال من الأحوال عن القرار والرضا كله أو بعضه بما هم فيه والا هلكوا أو عصفت بهم الحسرات ، وما الرضا والقرار فى هذه الحياة الا كالظل والماء والخصب بالنسبة للصحراء المجدبة المشبوبة عليها الشمس المحرقة ، وإن البقاء فى هذه الحياة بدون هذين الأمرين ـ الرضا والقرار ـ مستحيل استحالة الحياة فى هذه الصحراء بدون الماء والظل والخصب . ولا شك أن هذا الفرض فى الحياة ينتزع منها أسبابها ، ولن يوجد شيء اذا لم توجد أسبابه ، فاذا قامت الفكرة الانسانية العامة على ان وجودها لا يعدو أن يكون ملحمة مادية قاسية متواصلة وأن حظ كل فرد منها هو ما يغتصبه تحت غبار هذه الملحمة وأن سعادته وشقاءه منوطان بها ، فلا شك أنها ـ أى الانسانية ـ ستحرم حينئذ حرمانا باتا من السعادة والهدوء والاستقرار ، فان كل انسان بالغا ما بلغ سيجد أمام عينيه من هو فوقه فى شيء أو فى أشياء كثيرة ، وسيجد مجال التطلع والتشوق شاسعا واسعا دائما ، وسيشقيه هذا الفرق وهذه الفروق ، وسيمر عليه أحلى مافى حياته من طيبات ، وسيبقى من هذه الناحية ولاجل هذا الوجه وإن نال أقصى ما يتطلع اليه أكثر النفوس مثل من حرم الحرمان كله ، لأن كلا منهما يرى من هو فوقه ومن ميز عليه فى أمر من الأمور ، ويبصر ما قعدت به عنه قواه ويداه ، وسوف يظل هذا الشعور والاعتبار مبعث آلام لا تنتهى ، ومصدر اعتداءات لا ضابط لها . فان أكثر العدوان الذى يقع بين البشر دائما انما يقع بالايمان العميق بالمادية ، ولا شيء يستطيع القضاء على هذا العدوان المنتشر فى كل زمان ومكان ما لم يتغير النظر الى الحياة

والى حقيقة الانسان ، وما لم تهذب هذه النظرة المادية الجشعة الطاغية . وعلى هذا فلا مفر من إقرار مبدأ القناعة ، ولا بد من الايمان بالافتراض الثانى ، وفيه وحده شفاء الانسانية المضمون من داء الجشع الذى أشقاها وأشقى معها الوجود كله . ولا ريب أن من أعظم أسباب هذه الحروب الشاملة هو هذا الايمان بالمادية والانقياد لنزعاتها ونزواتها وشهواتها ، ولو أنها نهنهت من هذا الايمان وكفكفت من غلوائه لكان فى ذلك بعض النجاة أو كلها . ولهذا فقد قامت الأديان والفلسفات القديمة على هذا الافتراض ، وأمعنت فى تجميله وتحسينه والدعوة الصادقة اليه ، وجاء فى الحديث النهى عن أن ينظر المرء الى من فضل عليه فى الدنيا ، وأمر بان ينظر الى من هو دونه لهذا الغرض نفسه ، وفى الكتاب ﴿ لا تمدّن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾ . هما رجلان أحدهما طلعة طمعة ممدودة عيناه وقلبه وآماله الى أبعد الآمال والآماد والى مالا تستطيع قواه البشرية أن توصله اليه ، يريد كل ما يرى بل وما لا يرى مما قد يخطر بباله ، ويحسد كل مجدود ويتأوه غيظا وحسرة ويفور حقدا وألما كلما أبصر نعمة نالها انسان ، وكلما أبصر من هو فوقه فى شيء من الأشياء . وسيبقى هكذا حياته جميعها ولا قرار ولا رضا ولا سرور ولا سعادة ولا غبطة ولا التذاذ بشيء مما يلتذ به الناس ، فأى انسان هذا ، وأية حياة هذه التى يحياها هذا الرجل . ورجل آخر يعيش بجسمه لا بآماله ، ويعمل لحياته لا لأطماعه ، فلا يطلب الا ما طلبته الحياة ، ولا يحتاج الى غير ما يمنحه البقاء والوجود ، مثله كمثل الأزهار أو الأطيار وهذه المخلوقات اللطيفة الجميلة المبرأة من كل حقد وحسد وطمع وأمل يغصها بالآلام ويقض مضاجعها بالحسرات والآهات ويجلد أعصابها جلدا متواصلا حتى تصاب بما يعزّ الشفاء منه ويقضى عليها بان تشب هذه الحروب الجهنمية بلا رحمة ولا انسانية إجابة لآمالها وأطماعها ، وتسعد كما تسعد هذه الأزهار والأطيار والمخلوقات الأخرى الجميلة ويقرّ قرارها ويهدأ هدوءها ويتناول الحياة مثل

تناولها هى - أى يتناولها بقدر ما يقول له وجوده وبقاؤه تناول ، لا بقدر ما تقول له أطماعه ذلك . فيعيش هو ومن حوله فى سلام أبدى ونعمة مطلقة شاملة ورضا لا ينتهى . وهؤلاء الذين مدحوا الفقر والقناعة وذموا الحرص والجشع والتهالك انما قصدوا هذه المعانى الطاهرة الخيرية ، وقد أرادوا أن يسموا بالانسانية على أطماعها المادية ، وأن يقربوها فى معانيها واخلاقها من الملائكة ، وأن يغسلوا من قلوبها الغل والحسد والبغضاء التى يسببها حب المادة والاسراف فى طلب المادة وما يتصل به . وأرادوا أيضا أن يعزّوها . والانسانية قد تستغنى عن أشياء كثيرة ، ولكن شيئا واحدا لن تجد ما يغنيها عنه ، هذا الشىء هو العزاء الذى يخلق لها الرضا . وقد وجد أناس كثيرون فى ثنايا التاريخ المختلفة استطاعوا أن يحيوا بهذه المعانى وأن يجدوا فيها لذتهم وحاجتهم متأثرين بهذه الدعوة الطيبة متقمصين هذه الروح الخيرة ، فكانوا ملائكة انسانيين ، وكانوا منارا يأوى اليه كل من ضلت سفينته الخلقية فى خضم المطامع والأهواء المفسدة ، وكانوا هدى يجذب كل من جارت به ضلالاته فعمى عن الطريق » انتهى

والجواب أن يقال : ما ذكره هنا فى توجيه فكرة الزهد حجة عليه ، وأكثره مقتضب من بعض المقالات المؤيدة لهذه الفكرة ، وقد أدخل فيه بعض المجازفات من الجانبين كعادته ، ومع هذا فقد أقر بصحة أكثره رغم تحامله على ضده . ثم انه بعدُ أخذ يناقش فى بعض أشياء منه ، وقد سبق لك بيان نظريتنا التى هى نظرية المسلمين فى هذه المسألة فى صدر هذا المبحث وغيره ، وان ماذهبنا اليه خلاف ما فهمه وخلاف ما أراده ، فارجع اليه ، فمناقشته لما ذكره هو بنفسه فى هذه الجملة غير واردة على قولنا انما ترد على ما ادعاه لنفسه بنفسه لا على ما أصلناه نحن ، فهى مناقشة ساقطة لا محل لها البتة

وقال بعد سياق كلامه الآنف الذكر « كل هذا يمكن أن يقال ، وكثير منه

صحيح ، ولكن لا تكون نتيجته اثبات فضيلة الفقر [١] والقناعة ، ولن يدل بمجموعه على ذلك ، وما تقدم فى هذا الفصل يكفى قضاء فى هذه القضية »

قلت : قد سبق الكلام فى تعريف فضيلة الفقر وبيان المراد به عند من أطلق هذا اللفظ ، وكذلك القناعة ، فلا معنى لاعتراضه هنا البتة . وقوله وما تقدم فى هذا الفصل يكفى قضاء فى هذه القضية ، يقال قد بينا ما اعتمد عليه هنالك وأجبنا عليه بما فيه كفاية

فصل

ثم أخذ يناقش كلامه السابق فى فضيلة الزهد والقناعة ، ولكنه يؤديه أحيانا كعادته فى القلق والتناقض فقال « أما أن الانسان لن يستغنى فى حياته عن العزاء الذى يهبه الرضا فسألة تجل عن الخلاف ، ولو أن انسانا ما فقد هذا العنصر النفسى فقدا تاما بحيث لم يبق أمامه جانب واحد يرضيه ويعزيه أو جانب واحد يحدث له بعض الرضا وقليلا من العزاء لهلك لا محالة إما انتحارا واما أسى وحسرة ، وكل انسان إنما يعيش بقدر ما له فى وجوده من آمال صادقة أو كاذبة تفيض على نفسه المتلهفة ألوانا مختلفة من هذين العنصرين الضروريين للحياة الانسانية »

فيقال : هذا موافق لقولنا لكنك خالفته فيما تقدم ، فان العزاء الذى يهبه الرضا هو نفس القناعة كما سبق

ثم قال « ولكن ليس طريق ذلك هو الفقر والبؤس والشقاء »

قلت : هذه مراوغة وخروج عن موضوع البحث ، فقد تقدم تعريفنا للفقر ، وهو يرجع الى الرضا والعزاء الذى مدحته ، وأما البؤس والشقاء

---

(١) لو قال الزهد والقناعة لكان أصوب ، لأن بحثه فى الزهد لا فى الفقر ، فلا حاجة الى هذه المغالطة

فادخالها هنا مغالطة ظاهرة ، فاننا لم نمدحهما قط ، فالاعتراض ساقط من أصله ، بل كان يجب عليك هنا أن تقول ليس طريق ذلك هو الزهد والقناعة ، لأن البحث فى هذا ، لكن انحرفت عنه لكونه ينقض أصلك

ثم قال « وانما طرقه أشياء أخرى ، منها رياضة المرء عاطفيا وعقليا على الشعور بالسعادة وعلى الاحتمال الجميل وتلقى المكروه بالصبر والابتسام ومحاولة الخروج منه بالنصر والظفر دون الاستسلام ، وأن يكون مثله مثل الجندى المغوار يشج الموت ويدفعه باليمين والشمال وهو يهزج أهازيج الحياة »

فيقال : وهذا أيضا موافق لما ذهبنا اليه فى تعريف الزهد والقناعة وبيان الفقر ، وهو يناقض ما ذهب اليه ، وهو من جنس ما ادعاه قريبا ، وانما غير العبارة فقط . وليست العبارات هى المقصودة بل المقصود فى مثل هذه الامور هى المعانى لا الألفاظ

فصل

قال « ومنها إعطاؤه الصحة الكاملة والجسم القوى السوى ، فان الاكتئاب واليأس انحراف فى الطبع ، وانحراف الطبع نتيجة طبيعية لانحراف الصحة »

فيقال : وهذا أيضا غير وارد ، فقد سبق قولنا فى تحريم التعرض للأمراض وانهاك القوى الجسمية وأن المسلمين لم يمدحوا الأمراض والأسقام بل أمروا بالتداوى والمحافظة على الصحة بكل ممكن . ثم كرر الكلام فى مدح الصحة وذم المرض ، وقد سبق الكلام على هذا مرارا فلا فائدة فى اعادته

ثم قال « ثم ان الحياة وأهلها ليست وليسوا طوع أهوائنا ، بل هى سائرة وهم سائرون فى الطريق شئنا ذلك أم أبيناه ، فاذا نحن رضينا لأنفسنا القناعة واخترناها نصيبا فان الآخرين لن يرضوا لانفسهم هذا الذى رضيناه بل سيسيرون فى الطريق الآخر وحينئذ لن يدعونا فى هدوئنا وقرارنا وسعادتنا النفسية الخالية »

فيقال : وهذا أيضا ليس بوارد علينا ، لاننا لم نقل ان القناعة هى السكوت والراحة فقط وترك ما يجب القيام به من أمور الدنيا والدين ، بل قد عرفنا أن القناعة هى الرضا بالقضاء باطمئنان وثبات ، وفعل ما يجب فعله مما فيه قوام الدنيا والدين ، ونحن انما أنكرنا الجشع والهلع على الدنيا ، هذا هو مقصودنا من الاطمئنان والثبات ، وهذا هو المسلك الوسط بين التفريط والافراط ، وحينئذ فلا يرد ما ذكره على ما أردناه

فصل

قال « وأما القول بأن الجشع المادى هو الذى يوقع فى الحروب والشرور والعدوان بين الناس ، فهو قول فيه كثير من سمات الحق والصدق ، غير أنه لا مراء فى أن الفقر أو خوف الفقر وأن الحاجة أو خوف الحاجة هما اللذان يوقعان بين الخلق أكثر هذه العداوات والاعتداءات »

فيقال : قد اعترف هنا - كما ترى - بان الجشع المادى هو الذى يوقع فى الحروب والشرور ، ولكن ذكر أن الفقر أو خوف الحاجة يوقعان فى ذلك أيضا ، وهذا قول مدخول متدافع ، فان خوف الفقر أو خوف الحاجة غير الفقر والحاجة ، بل هو كثيرا ما يكون ضربا من الجشع ، فان الجشع ضرورة عدوانية مبدأها اللجاجة والضراوة فى الاعتداء وعدم الصبر والثبات ، ونحن فسرنا الفقر الذى عناه العلماء بغير الاعدام وبغير الحاجة التى يدعيها كما تقدم ، فعلى هذا لا يرد ما ذكره ، فان الفقر ان صحبه أمر دينى حجزه عن الوقوع فى الشرور والحروب ، ووجهه الى جهة أخرى لدفع الحاجة والضرورة ، وإن لم يصحبه دين فهو سبب مع غيره من أسباب وعوامل الشر والظلم ، وكثيرا ما ينقلب الى الجشع والعدوان اذا لم يصحبه دين

ثم قال « واللصوص وأضرابهم من العادين على الأمن العام وأكثرهم - ومن الممكن أن يقال بصدق كلهم - من المفلسين المفلوكين ، وان الحروب

تقع بين الفقراء كما تقع بين الاغنياء »

فيقال : هذا شاهد لقولنا ، فان الدافع للصوص وأضرابهم على التلصص وغير التلصص ليس هو الفقر ، وانما هو الجشع ، فكم من فقير لم يتلصص ، وأما الجشع فلا بد أن يحمل صاحبه على التلصص أو السرقة أو قطع الطريق ونحو ذلك من طريق العدوان من السلب والنهب ، وقوله « ان الحرب قد تقع بين الفقراء كما تقع بين الاغنياء » يقال : هــذا خروج عن البحث ، فانه فى الجشع والقناعة لافى الفقر والغنى ، وعلى فرض التسليم فى هذا نقول : اذا كانت تقع بين الفقراء والاغنياء فانما تقع لا لأجل الفقر والغنى بل لأجل الجشع فى الفقير والطمع المفرط فى الغنى ، وكثيرا ما تأتى من ناحية الطمع ، فان الاعتداء غالبا انما يكون من ناحية القوى ، فالطمع ضرب من الهلع واللهف الذى تصاب به القلوب ، ولهذا كانت الحروب العظيمة تأتى من جانب الدول الكبار ، مع كونها ليست فقيرة ، وهذا بالنظر الى عدم وجود دين معهما ، أما اذا وجد الايمان الدينى الصحيح فى أحدهما أو كليهما فانه لا يكاد يقع بينهما حرب ولا شرّ فيما يختص بالمادة ، بل انما يقع لاجل المبدأ ونحوه ، فنظام الدين العادل يرفع المشاكل التى تنتج الحروب أو يخفف من ذلك بحسب قوته فى القلوب وضعفه ، وبالجملة فكل خلق ـ سواء اكان فقرا أو غنى أو سعادة أو شقاء أو غير ذلك ـ يخلو من الاخلاق الدينية فلا بد أن يوقع صاحبه فى اعتداء وعداوة لا حدّ لهــا ، فقد تقدم أن الدين هو الفيصل بين البهائم والانسان ، فاذا فقد غلبت عليه الطبيعة الحيوانية فكان كالوحوش ونحوها التى لا تفتأ تتقاتل وتتصادم فى أكثر حياتها . فالاخلاق الدينية هى العاصم الوحيد للشرور كلها ، وفقدانها هو الدخول فى المشاكل المتولدة عنها الظلم والظلمات التى من دخلها كان من الهالكين . وهذا المغرور أخذ فى تحليل البحث بدون استقامة فكر ، فلم ينظر الى الدين مطلقا ، فضل وأضل ، ولو جعل الدين معه فى كل خلق لعلم أنه هو الذى يهذب الخلق ويمنعه عن خروجه عن حده

المعتدل الفطرى ، ولكنه نبذه وراءه ظهريا ، والعجب من قوله بعد هذا :

« بل ان عهود القناعة والزهادة الدينية كان يشب الحروب على نطاق أوسع وأفظع مما تشبه عهود المادية المالية الجشعة ، وكل هذا صحيح لا ريب فى صحته »

فيقال : بل هو باطل ، ولا شك فى بطلانه ، بل هو من المهازل والمضحكات التى لا يتكلم بها إلا مسلوب العقل ، فهذه الدعوى مكابرة ظاهرة ، فما هى عهود القناعة والزهادة الدينية التى شبت الحروب على نطاق أوسع وافظع مما تشبه عهود المادية الجشعة ، وفى أى وقت صار هذا ، وأين وجد ، فلا يمكن لأحد أن يثبت هذا أبدا ، فان الحروب التى فى القرون الوسطى والتى قبلها وبعدها ليس منشأها القناعة والزهد ، بل منشأها الجشع والتكالب على الدنيا والمزاحمة فى الرئاسات ، فأى قناعة فى هذا ، وأى زهد . وكونها وقعت فى عهد توجد فيه القناعة لا يغنى شيئا ، إنما الكلام فى كون القناعة والزهد هى الأسباب فى إثارتها ، ويكفيك دليلا على فساد هذه الدعوى وجود هذه الحروب الاخيرة فلا أوسع ولا أفظع ولا أشنع منها ، ولا شك أن الذى شبها هو الجشع المادى المالى الذى هو ضد القناعة والزهد ، وهذا أمر معلوم بالضرورة والحس ، فدعواه هذه من أقبح الفجور وأسمج الكذب ، وقد تقدم قوله ان هذه الحرب لم تصب البشرية بحرب أفظع منها ، فهذا تناقض ظاهر .

وقوله « فالدعوة الى القناعة والزهادة لا تعطى الخير المرجو منها ، ولكنها تجلب الشر المخشى منها فقط »

فيقال : بل القناعة والزهادة على الوجه الذى شرحناه تعطى الخير المرجو منها كما يجب ، وانما الذى يجلب الشر ولا يعطى الخير هو الدعوة الى الجشع والطمع الجنونى الذى هو ضد الزهد والقناعة ، وقد وقع أثر هذا بالعيان واليقين ثم قال « فان الانسان مدفوع مسير بغرائز معينة أصيلة فيه ، فاذا صادفت

دعوات دينية أو غير دينية تكافح فى ظاهرها هذه الغرائز الطبيعية كانت النتيجة أن تختفى هذه الغرائز عينها تحت مظاهر أخرى قد تكون أعظم فتكا وإيقاعا بالانسانية وبأصحابها »

فيقال هذا كلام ساقط مرذول لا يقوله من يدرى ما يقول ، فما هى هذه الغرائز المعينة الاصيلة فيه ، فان الغرائز تختلف اختلافا كثيرا متباينا ، فان أردت أن هذه الغرائز فطرية طبيعية خيرية فلا نسلم أن الدعوات الدينية تضغطها حتى تختفى تحتها ، بل تكون الدعوات الدينية عونا لها وإمدادا لها فيتفق الداعى الخارجى والغريزة الداخلية فيحصل الخير والعدل والاستقامة التى هى أضداد الشر ، وان كانت الغرائز خبيثة شريرة كانت الدعوات الدينية تعديلا لها وتخفيفا من آثارها وتلطيفا لها ، وذلك بحسب القوة والضعف من الجانبين ، وهذا مطلوب أيضا بحسب الإمكان ، وان كانت الدعوات غير دينية والغرائز كذلك حصل الشر المخشى وتوسعت دائرة الظلم والشرور فكان ما ذكره حجة عليه لانه لم يجعل للدعوات الدينية تأثيرا فى الغرائز مطلقا بل جعلها مضادة للغرائز الاصيلة من كل وجه ، وهذا فى نهاية السقوط كما هو ظاهر

فصل

قال « وأما الحديث القائل (انظروا الى من هو دونكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم) فهو حديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية ، ذلك أن الانسان مجبول على الغيرة من الآخرين وعلى الحسد للمتفوقين الناجحين ، والغيرة والحسد قد يجلبان الشر الكثير بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر ويؤذى ويظلم المحسود والمنفوس عليه ، وقد يترتب على هذين الأمرين شرور كثيرة وآفات اجتماعية شاملة »

فيقال : هذا الكلام مع كونه موافقا لقولنا فى مسألة الزهد والقناعة فهو أيضا يبطل ما ذكره فى ص ٢٩ فى تشنيعه الأول على الخطباء ودعائهم على

أعدائهم الظالمين حيث قال « حتى تفيض ألسنتهم[1] بالسوء والسباب ، وتفيض قلوبهم بالحقد على المتفوقين والحسد لهم » ثم قال فى ص ٣٠ « وقد كان المفروض فى هذه الشعوب والأفراد الحانقة الغاضبة المهتاجة على من ظلموها أو فاقوها وسبقوها أن يقوموا بعمل تّما مثمر لتحطيم هذه الحواجز والقيود والاغلال والفروق الظاهرة المخزية تدفعهـــا قوة الحنق وقوة الحسد والمنافسة » انتهى فكيف يشنع هنالك على الخطباء ويأمرهم برفض الخطب والقيام على عدوهم بدافع قوة الحسد والغيرة والحنق ، وهنا يدعى أن الغيرة والحسد يجلبان الشر الكثير بأن يتألم ويشق الحاسد الغائر . ويدعى هنا أيضا أن هذا الحديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية ، ومعلوم أن قوة الحقد والحسد والغـيرة حالة نفسية طاغية ، وانما النافع القوى الذى ليس بحالة نفسية طاغية هو دافع الايمان وحب الدين ، وقد تقدم كلامه هناك فى الحث على إلهاب هذه الحـالة النفسية الطاغيـة وهى الحسد والغيرة والحقد حـتى سب الدعاء وجعله مصرفا خبيثا من أجلها ، وها هنا انعكس كلامه وادعاؤه كله كما ترى ، ولا عجب فهذا ديدنه فى أغلاله كلها ، ونحن ولله الحمد على صراط مستقيم نقول انه لا يمكن لنا بحال من الأحوال أن ندرك استقلالنا التام الا اذا بنينا أعمالنا كلها على الايمان الصادق والاعتقاد القوى الصحيح ، وذلك لا يحصل إلا بالاخذ فى الاخلاق الدينية الصحيحة على ما تقدم شرحه مرارا

فصل

قال « ويمكن تصور هذه الاحتمالات مـتى فكرنا فى شعب أو مجتمع كل فرد فيه يغلى غيظا عـلى من هو أرفع منه فى شأن من الشئون ، ثم فكرنـا أن هذا الغيظ قد يتطوّر الى محاولة الـكيد والايقاع ما أمكن ، وأقل ما لهـــذه

---

(١) اى ألسنة المسلمين

الحالة من احتمال أن يفقد الاخلاص والتعاون والحب والانسجام بين أفراد هذا الشعب ، وعاقبة هذه الآفات لن تكون سوى الانحلال العام الذى لا ريب فيه ، فكان لا بد من وضع علاج لهذا ، وكان من المعلوم أن البشر كما يتحاسدون ويتغايرون فانهم يتلاشى بعضهم ببعض وتخفف آلام فريق منهم آلام الآخرين على حد قولهم المشهور « اذا عمت المصيبة هانت » أما الانفراد بالألم وبالظلم الاجتماعى وبالمصيبة فهذا مما لا يطيقه الانسان ، فكان من الصواب إذن أن يلفت (١) المصاب الى المصابين ويدل المتألم على مكان المتألمين ليهون هذا من شعوره بالرزء ومن احساسه بالبلوى ، فارشد الى أن ينظر الى من هم أشد منه هولا وخطبا ورزءا »

فيقال : وهذا أيضا مع ما فيه من الاسهاب الفارغ لا حجة له فيه ولا تعلق للحديث به ، وهو فى الجملة موافق لما ذكرناه فى الزهد والقناعة كما تقدم ، فهو يناقض ما شنع به على أهل الزهد والقناعة فيما سبق كما هو ظاهر

فصل

قال « وأما قوله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة للدنيا ﴾ فهو فى موضع النهى عن الحسد (٢) وعن التطلع الى ما هو فى حوزة الآخرين ، فان هذا صنيع الأطفال والنساء العاجزات ، وهو صنيع لا يوصل الى غير الألم والغيظ والحقد ، ولكن العاقل اللبيب يجب عليه أن يطلب لنفسه وأن يسعى لها وأن يبلغها كل آمالها إن استطاع من زهرة الحياة الدنيا وغيرها (٣) بدون أن ياكل أنامله ونفسه تشوقا الى ما متع به

(١) تقدم له نحو هذه العبارة فى استعمال « يلفت » فى غير محلها

(٢) تقدم تحريضه على الحسد ومنافسة الآخرين فى المبحث الثانى ، فانظر الى كلامه هنا كيف نقض به ذاك

(٣) ما ندرى ما المراد من غيرها

غيره من عباد الله »

قلت : كلامه هذا من جنس ما تقدم ، وقد عرفت ما فيه ، غير أنه ألحد في الآية الحادا بينا - كعادته - فانه حذف منها ما يفسد تقريره ، وهو قوله ﴿ لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ فآخر الآية يبطل دعواه من أنه يجب على العاقل أن يبلغ نفسه آماله إن استطاع من زهرة الحياة الدنيا وغيرها ، فهذا يناقض فحوى الآية ، فان الله بين أن ذلك فتنة وابتلاء لا لأجل أن يبلغ الانسان كل آمال نفسه منها ومن غيرها ان استطاع ، ولهذا قال ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ ، أى فيجب أن يطلب الذى هو خير وأبقى منها . ومن مدّ عينيه الى ما لغيره من زهرة الحياة الدنيا وطلب إعطاء النفس آمالها فقد عصى الله ، فان الله نهى عن أن يمد الانسان عينيه الى هذه الزهرة ، وبين أن ذلك فتنة ، وأن الأولى للانسان أن يمد عينيه الى الآخرة التى هى خير وأبقى كما قال فى الآية الآخرى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ ومعلوم أن ما قاله يتضمن أن الاهتمام بها أعظم من الاهتمام بالآخرة ، وهو خلاف أمر القرآن المتضمن النهى عن مدّ العين الى ما متع الله به الكفرة من زهرة الحياة الدنيا ، لأن الله انما أعطاهم إياها فتنة ، والا فرزقه سبحانه خير من هذه الزهرة التى هى فتنة ومتاع الى حين فلا يغبط عليها إلا من هو منقوص العقل والدين كما هو الواقع

ثم قال « فالآية فى غير معنى الزهد والقناعة الهابطة بالهمم وبالجهود والأعمال والانتاج الانسانى ، فالواجب علينا أن نشيد ثقافتنا على تحبيب الحياة وتحبيب العمل من أجلها ، وأن نمقت بكل قوانا أمثال حكمة ذلك السفيه القائل « زيادة المرء فى دنياه نقصان » وأن نؤمن بذلك القول الجديد الجميل فى تعريف معنى السعادة « انها هى القدرة على العمل » نعم ان السعادة هى القدرة على العمل ، وليست هى العمل بدون القدرة عليه ، وليست أيضا هى البطالة والكسل ذهابا وراء ذلك المخدر القديم الشنيع : الزهادة والقناعة »

فيقال : بل الآية فى معنى الزهد والقناعة بالمعنى الذى قرره المسلمون كما ذكرناه ، لا على ما فسرته بمقتضى شهوتك وارادتك ، فانك عدو للاسلام فلا يقبل ادعاؤك عليه وعلى أهله ، فانك فسرت ذلك بما يهبط الهمم والجهود لقصد التنفير ، واذن فالواجب أن نضرب بثقافتك هذه عرض الحائط ونشيد الثقافة على حب الآخرة والى ما يقرب منها من أمور الدنيا من مشروع أو مباح ، فنشيدها على حب الدين وحب العمل به وما يعزه ويجله ويحترمه فنعيش فى ظله سعداء آمنين بخلاف من شيد ثقافته على حب الدنيا دون الآخرة ، فانه يصبح خوانا كفورا كالكلب دائما يلهث على الدنيا متراخيا فى أعماله كلها إلا فى شهوته وهواه ، لأنه مدفوع بهما ، فهو دائما يتطلب ما يرضى شخصيته ونفسه من هذه الحياة ولو أوقد بالبشرية كلها لانضاج خبزته . فتعاليم الدين هى تعاليم الحياة الصحيحة ، وما خالفها وضادّها فهو الموت بعينه كما تقدم تقريره

وأما اعتراضه على قول القائل وهو أبو الفتح البستى « زيادة المرء فى دنياه نقصان » وتسفيهه له فهو من جنس اعتراضاته الأخرى التى لا وجه لها ، لأن مقصود القائل أن زيادة المرء من هذه الدنيا نقص فى الحقيقة ، لان الانسان دائما ينقص إلا فى طاعة الله كما قال تعالى ﴿ والعصر ان الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ السورة . فأخبر تعالى أن الانسان فى خسارة إلا من آمن وعمل صالحا ، ومعلوم أن الخسارة بمعنى النقص ، وهذا القائل الحكيم ذكر أن الانسان فى نقص إلا من ازداد من الخير ، فانه قال :

زيادة المرء فى دنياه نقصان   وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لاثبات له   فان معناه فى التحقيق فقدان

فهذا القائل استثنى من يكسب فى دنياه الخير ، ومعلوم أن الايمان والعمل الصالح هو رأس الخير ، فمعنى كلام هذا القائل فيه من معنى سورة العصر التى قال فيها الامام الشافعى « لو ما أنزل الله حجة على خلقه الا هذه السورة لكفتهم » لانها أخبرت عن الخاسر من الرابح فى نوع الانسان ، وبينت

طريقة الربح كما بينت طريق الخسارة ، وهى المخالفة لطرق الربح على ما بينه فى هذه السورة وسورة التين ، ولهذا عد العلماء هذا القول من الحكم ، وجعلوه فى الأبواب والكتب التى يذكرون فيها الحكم ، حتى جاء هذا المعكوس فأراد أن يعاكسهم ، وهيهات ، فان البيت فى غاية الصحة والحكمة والبراعة الفائقة

وقوله « وأن نؤمن بذلك القول الجديد الجميل فى تعريف معنى السعادة انها هى القدرة على العمل » فيقال : هذا ليس بشىء ، فهو قول مجمل ليس فيه جمال ولا جدّة وليسَ فيه تعريف للسعادة فلا يجب الايمان به ، فالقدرة على العمل ليست بسعادة ولا شقاوة ، انما السعادة هى تحصيل نتيجة العمل المقدور عليه على الوجه المطلوب الصحيح ، هذه هى السعادة ، والا فالقدرة على العمل وسيلة للسعادة وللشقاء ايضا ، وقد تكون ناجحة فى عمل مثمر صحيح فتحصل السعادة ، وقد تكون ناجحة فى عمل غير صحيح فتكون وبالا على صاحبها ، وقد لا تنجح مطلقا فتكون فاشلة وعملها حابط فيورث الحسرة والندامة فتكون شقاء أيضا ، فكثير من الناس يقدر على العمل لكن ليس له من قدرته على عمله الا التعب والنصب ، كالاسير الذى يعمل لغيره ، وكالأفراد الكثيرة فى الشعوب الاشتراكية المضغوطة التى لا يحصل لها من أعمـــالها إلا كما يحصل للبهيمة مقابل عملها أو دونه ، وثمرته الناضجة لغيرها . فالسعادة تناط بنتيجة العمل فقط . على أنه أيضا لا يلزم من القدرة على العمل وجود العمل ، فليست القدرة هى الفعل ، ولا بد من العلم بوضعية العمل فليس من قدر على شىء يعلمه ، ولا بد من الارادة الجازمة معها ، ولا بد من انتفاء المعارض . فالقدرة سبب واحد من أسباب نتيجة واحدة من نتائج كثيرة ، فأين السعادة . فقولك « نعم ان السعادة هى القدرة على العمل » نقول : لا بل السعادة حصول النتيجة الصحيحة من الأمر المطلوب ، والقدرة لا تكفى فى ذلك . وقولك : وليست هى الغمل بدون القدرة عليه ، يقال : لا يوجد عمل بدون القدرة عليه ، فهذه ثرثرة باردة ، وكأنك تريد أن تقول وليست هى ترك العمل مـــع القدرة

فحانتك القريحة المقبوحة على مقتضى تفريعك على القناعة ، أما نفى السعادة عن العمل بدون القدرة عليه فلا يصح على هذا القول الذى قلته ، اللهم الا أن يكون من متشابه حقائقك الازلية الابدية التى لا يعلمها الا أنت أو الراسخة أقدامهم فى أوحال علمك ، وأما غيرهم فلا معنى له عندهم البتة . وقوله « وليست أيضا هى البطالة والكسل ذهابا وراء ذلك المخدر » فيقال : وليست هى أيضا ذلك اللهث والجشع والتهالك وراء تلك المجازفات الجنونية الطائشة ، وليس هذا الادعاء وارداً على قولنا فى الزهد والقناعة على معناهما الشرعى عند المسلمين ، فانما يتأتى على ما اخترعه هو ، ويكفى أنه أنكر لفظ الزهد مطلقا مع اقرار أئمة المسلمين كالامام أحمد والشافعى وغيرهم حتى صنف الامام أحمد فى ذلك كتابا يعرف بهذا الاسم ، ونقل فيه أقوال أئمة المسلمين ، فشمخ هذا الملحد بانفه عن هؤلاء الأئمة وعن رأيهم وعقائدهم ، ولكنه أرغم هذا الأنف الذى شمخ به فى نجاسات الملاحدة وخبائثهم ، وطاب له ذلك وهدأت عليه نفسه وغذيت به روحه لانه يناسبها

فصل

ثم قال « كان الرسول عليه السلام يتعوّذ ويقول فى تعوّذه : اللهم انى أعوذ بك من الفقر والكفر ، فقالوا : يارسول الله وهل يكون الفقر عدل الكفر - أى مثله - فقال : هما عدلان . حديث صحيح »

فيقال : بل هو حديث غير صحيح ، بل باطل بهذا اللفظ ، لم يقل النبى ﷺ ان الفقر عدل للكفر ، وهذا الرجل لا يتحاشى فى الكذب على الرسول ﷺ ولا يبالى فى ذلك ، ويسوق الحديث ولا يعزوه الى شىء من الكتب ، ثم يصححه بمجرد هواه ، ولم يسبقه أحد من أهل العلم الى دعواه ففى اى كتاب وجد أن النبى ﷺ جعل الفقر عدل الكفر ، وقد أجمع المسلمون أنه لو مات فقير ورثه أقاربه من المسلمين ولو مات كافر لم يرثه أقاربه من المسلمين ، وليس

للكفر عدل من الذنوب ، مع أن الفقر ليس بذنب البتة فكيف يكون عدل الكفر ، هذا لا يسوغ فى عقل ولا دين ، قال تعالى ﴿ ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾ فأخبر تعالى أن الكفار شر الدواب عند الله ، وليس الفقراء هم شر الدواب عند الله ، وقد قال تعالى ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ﴾ الى قوله ﴿ وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ فأثنى عليهم مع أنه نعتهم بأنهم فقراء ، فكيف يثنى عليهم وهم كالكفار على مقتضى قول هذا الملحد ، وقال تعالى ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله ﴾ الآية فأثنى عليهم مع وصفهم بالفقر ، بل من ادعى أن الفقر كالكفر عند الله فلا شك أنه كافر فان الكفر جريمة اختيارية بخلاف الفقر ، وقد فرق الله بينهما فى كتابه العزيز وأجمع المسلمون على ذلك ، وهذا الملحد يأتى بالطامات التى لا تطاق من الكذب على الله وعلى رسوله وكتابه والمؤمنين فيجعلها أصولا ، ثم يشرع فى التفريع عليها . فمن ذلك أنه يأتى الى الأحاديث الباطلة فيقول فى بعضها « حديث صحيح » ويأتى الى الاحاديث الصحيحة المتفق عليها أو المروية فى الصحاح فيقول « هذه مزورة أو كذب » كما فعل فى حديث « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » ونحوه من الأحاديث المروية فى الصحيحين وغيرها . فهو يريد أن يفرض على المسلمين أن يكون هو المقدم فى كل أمر ، هو المقدم فى علم الحديث وعلم الفقه والفلسفة والتفسير واللغة والشعر والهيئة وكل العلم ، بل يريد أن يكون العلم كله له فلا يطلب من غيره ولا يرغب الى سواه ، وهو المقدم فى أمور الدين والدنيا : جنون وغباوة لا حد لها . وقد سبق الكلام فى بيان الفقر عند المسلمين فى أول هذا البحث ، فاذا عرفت أن هذا الحديث غير صحيح وأن النبى ﷺ لم يجعل الفقر عدلا للكفر بطل ما فرّعه على الحديث لانه مبنى على أصل باطل كعادته فى التفريع على أوهامه التى يخترعها ويرمى بها الاسلام ثم يطيل التفريع عليها ، فهو يدعى لنفسه ويشهد لها ويحكم لها ،

ومجرد قرن الفقر بالكفر فى الاستعاذة لا يفيد مساواته به وأن يكون عدلا له ، فانه قرن معه الكسل والجبن والبخل وليست هذه الاخلاق كفرا عند جميع المسلمين

فصل

ومن عجائب تناقضه ومخازيه ما قاله فى معرض هذا المبحث لما أسرف فى بهت المسلمين بأنهم رفضوا الدنيا وكرهوا المال والجمال واعتنقوا الزهد وعرف أن الناس سيعلمون بهته وكذبه وفساد دعواه فقد أورد على نفسه اعتراضا أهوج وأجاب عنه بكلام ساقط ، وقد بينا لك فيما تقدم أنه يرى فى نفسه القدرة التامة على الخروج من كل تناقض يقوله أو يدعيه ، ولهذا فانه لا يعبأ بما يرد على كلامه من كفر وتناقض وزور وفجور ، لأنه يرى أنه أوتى من العلم والمعرفة والدهاء والمكر والخبث مالم يؤته أحد غيره فيمكنه بذلك ان يخرج من كل تناقض كما أخبر بذلك عن نفسه فى أبياته الكثيرة المتقدمة ولا سيما قوله :

ولم يذكروا غيرى متى ذكر الذكا ولم يبصروا غيرى لدى غيبة البدر

وقوله :

اذا قلت قولا أمن الدهر واستحى وهاب مقالى أن ينازعه الدربا

الى غير ذلك مما أسلفناه من الشواهد ، فمن تكون هذه منزلته كيف يجوز عليه التناقض أم كيف يليق به الغلط أو الخطأ ، هذا مما لا يكون على زعمه أبدا ، فقال :

« فاذا حاول معترض أن يعترض وأن يقول إنه ـ وان كان رأيهم وقولهم فى الحياة وفى طلب المادة والمال كما ذكر ـ الا أن هذه الآراء والاقوال لا تأثير لها فى انحطاطهم وعجزهم وضعفهم ، لأنه لا يوجد منهم إنسان واحد يترك الدنيا ويأبى المال رغبة فى أن يكون زاهدا وعملا [1] بأقاويل هؤلاء

---

(١) كذا بأصله

الشيوخ الغابرين ، بل انهم كلهم كما شاهدنا يعبدون المال والمادة ويحاولون كسبها بكل الطرق - حتى الطرق المحرمة كالغش والتزوير والسرقة - وبكل الوسائل ، فلا تأثير لهذه الأفكار والآراء الميتة الموجودة فى تلك الكتب الميتة ، كتب أولئك الميتين ، فى حالة المسلمين الواهنة الواهية الفقيرة » انتهى

فبالله عليك انظر الى هذا الايراد الأهوج الذى صنعه لنفسه على ما أحب ، كيف يكون رأى المسلمين فى الحياة وفى طلب المادة كما ذكره من الزهد ، ومع هذا يعبدون المال والمادة ، هذا من أمحل المحال ، اذ كيف يزهد الانسان فى المال دينا ومع هذا يعبده ، لكن هذا الملحد مبتلى بالتناقض . حتى فى الايرادات التى يوردها على نفسه ، وقد بينا فيما سبق نظرية أئمة المسلمين فى الاكتساب والزهد وحب الحياة فى أول البحث

ثم قال مجيبا نفسه بنفسه على هذا الايراد « اذا قال قائل هذا واعترض هذا الاعتراض ، قيل فى الجواب : ليس هناك شك فى أن المسلمين جماهيرهم وخواصهم يحبون المال والدنيا ، ويحاولون ويتمنون كسبها ونيلها والاستزادة منها بكل الطرق حتى المحرمة منها » ، هذا كلامه ، فاعتبروا يا أولى الابصار وأنصفونا : كيف يترجم أول البحث بكراهة الدنيا والزهد المخدر ، ثم يقول هنا ليس هناك شك فى أن المسلمين جماهيرهم وخواصهم يحبون المال والدنيا الخ . هناك يدعى أنهم كرهوها ووسعوا الدعاية فى الزهد ثم يأخذ فى الاستدلال على ذلك حتى صورهم عاكفين فى المساجد تاركين الدنيا بالكلية ، وهنا يدعى أنهم يحبونها ويحاولون ويتمنون نيلها بكل الطرق حتى المحرمة ، وأن ذلك ما فيه شك . هذا القائل المستكبر يظن أن الناس كلهم دجويون أو أن المسلمين قوم مغفلون فهو يريد أن يخاطبهم كلهم بمخاطباته الدجوى تلك المخاطبات الساذجة الوقحة التى لا يتكلم بها من له عقل وحياء

يا بلعام زمانه ، نظنك رأيت بعضا من الناس يمدحون هذيانك وثرثرتك الفارغة فى بعض نبذك الهوجاء فظننت أن المسلمين هم أولئك الذين لعبوا

بعقلك وأغروك على الجنون النهائى . يا بلعام زمانه ، ما ندرى من علمك هذا الهذيان والسخافات الجنونية التى ليس وراءها سخف وجنون

يا بلعام زمانه ، ما وجدت من الاعتراضات إلا هذا الاعتراض السخيف ثم هذه الاجابة الهوجاء تأتى فتقول على رءوس الاشهاد انهم كرهوا الحياة واشتغلوا بالزهد والقناعة حتى اثر ذلك فيهم هذا الانحدار العظيم ، ثم تنتكس رأسا لعقب فتقول ليس هناك شك فى أن المسلمين جماهيرهم وخواصهم يحبون الدنيا والمال ويحاولون ويتمنون كسبها ونيلها والاستزادة منها بكل الطرق حتى المحرمة منها . لو أصابك الله بالخرس لكان أستر لك ، فلقد والله فضحت نفسك ولوثت العلم ، فوا أسفى على سمعة العلم والدين من أمثال هذا المختال المسكين

ثم انه لعظم شقائه أراد أن يفسر الماء بالماء لانه لغزارة بحره قادر على أن يجمع بين متضادات أفكاره وآرائه فقال « ولكن يجب تدبر المسألة جيدا وفهمها من كل وجوهها »

فيقال : نعم اذا صار دماغ الانسان فى العظمة مثل دماغك ، وكان عقله مثل عقلك ، أمكنه حينئذ أن يتدبرها . أما والناس بهذه الحالة :

« اذا مشيت فكل الناس فى أثرك   وان وقفت فما فى الناس من يجرى »

فكيف ـ والحالة هذه ـ يمكننا أن نتدبرها ونفهمها من كل وجوهها المظلمة

أو لعلك انما تريد بهذا الخطاب أولئك الذين أغروك وغروك واغتروا بك ، فان كنت تريد هؤلاء فهؤلاء لا يحتاجون الى تدبر مطلقا ، بل هم قد عرفوا سبيلهم معك ، لانهم ماداموا راضين عنك فسيحملون كل ما تقوله على الوجه الأحسن مهما كان الأمر ، وان كرهوك من أجل أمر دنيوى فانهم سينبذون كلامك نبذ النواة مهما كانت حالته ، لان هؤلاء لا يتبعون الحق والحقيقة معك وانما يتبعون أهواءهم ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾

ثم قال الدر الذى فى لجج البحر « ذلك أنهم يحبون الدنيا والمال بغرائزهم وشهواتهم ، ولكنهم يكرهونها ويذمونها بأفكارهم وآرائهم وعقولهم وعقائدهم وأديانهم وأقوالهم ودعاواهم [١]، فبالشهوات والغرائز يريدون ذلك ويطلبونه وبالاعتقاد والدين والعقل والرأى يرفضونه وينكرونه ، فتتعارض القوى والعوامل فيهم فاذا وجدوا الدنيا والمادة سهلة قريبة لا تحتاج الى عناء ولا عمل أخذوها واحتاشوها بسلطان الشهوات والغرائز والطباع [٢] بالطرق كلها والوسائل أجمع حتى المحرمة ، وهذا فى الاغلب ، واذا وجدوها بعيدة المنال محوجة الى الجدّ والدأب ـ وهى كذلك فى الأوقات والحالات ما خلا النادر الشاذ ـ تعلقوا باعتقادهم ورأيهم وقولهم وبمذهبهم القائل : ان الحرص على المادة والدنيا جريمة وغواية ، والقائل لهم أيضا : ان الزهد والفقر والقناعة فضيلة وهداية فيكسلون ويكلون ويعجزون عن الطلب وعن الجهاد فى سبيل ذلك ، فيخرج من هذا أن يكونوا حريصين على الدنيا التى تؤخذ بالوسائل المحرمة لانها حينئذ تكون فى الغالب سهلة قليلة الاعنات والعناء بعيدين عنها زاهدين فيها اذا كانت تطلب وتنال بالجلاد والجلادة ، وهذا أعجب شىء ، على أنه هو الواقع الحاصل المشهود » انتهى حله لهذا الايراد

ونحن لا ندرى هل هذا من محكم حقائقه أو من متشابهها ، وقد قدمنا الجواب عن مثل هذا أول البحث ، ولكن نزيد هنا بما يمحقه عن آخره ، وذلك من وجوه :

أحدها أن ما ادعيته من كونهم يحبونها بغرائزهم ويكرهونها باعتقادهم دعوى فى غاية البطلان ، ولعلك نسيت دعواك فى صحيفة ١٦٩ فى قولك

---

(١) كذا بالأصل

(٢) كذا بالأصل

« ولكن الناس يعلمون جميعا أن مبدأ الأعمال كلها الاعتقادات ، وأن العامل انما يتجه ويسير ويعمل على مقتضى ما يوجبه له معتقده » وكذلك قولك فيما تقدم ان الذى يشب الحروب هى الغرائز والميول الشريرة ، ومعلوم أنها لا تشبها إلا رغبة فى المادة ، وعوامل الزهد هنا إن كانت دينية قوية منعت الغرائز المضادة لها ولم يكن ثم حب ولا تمن ولا حرص شديد يوجب أخذها بطرق الحرام ، وان كانت عوامل الزهد ضعيفة فحصول ما يضادها كاف فى تحصيلها وأخذها بالجد والاجتهاد

الوجه الثانى أن كلامك هذا مجمل ملبس ليس كافيا فى الإجابة على السؤال ، فاننا نتحداك تحديا لا هوادة فيه أن تبين لنا الطريق المفيد فى تحصيلها ثم تثبت أن المسلمين تركوا هذا الطريق وأنهم لم يعملوا به من أجل زهدهم وقناعتهم لا لعجزهم ، وهذا لا يمكنك أبدا

الوجه الثالث أنه لا يوجد فى الدنيا طريق واحد سواء كان ذلك الطريق مشروعا أو مباحا أو محرما يمكن تحصيل الدنيا به الا وقد سلكه طوائف من هذه الأمم الاسلامية كما سلكه غيرهم من الدول الأخرى ، ولكن التوفيق بيد الله ، وحيث انهم أطاعوا أكثر دينهم لم ينفعهم ذلك ، وأما غيرهم فقد بينا الفارق والسبب فيهم فيما تقدم

الوجه الرابع أن قولك « فاذا وجدوا الدنيا سهلة قريبة لا تحتاج الى عناء ولا عمل أخذوها واحتاشوها » قول ساقط ، فانهم لم يخصوا هذا الطريق بالاكتساب ، بل أراقوا دماءهم ، ومنهم من خرج من دينه ، ومنهم من غامر بحياته فى هذا السبيل وفى غير ذلك من الأعمال الشاقة ، فمنهم من حصل بعض مقصوده ، ومنهم من عجز عن ذلك . فدعواك أنهم لا يأخذونها إلا بالطرق القريبة كذب ظاهر لا يخفى عن أدنى عاقل

الوجه الخامس أن قولك « واذا وجدوها بعيدة المنال محوجة الى الجد والدأب ـ الى قولك ـ تعلقوا باعتقادهم ورأيهم » قول أسقط من الذى قبله ،

فما هو الطريق الذى يرونه بعيد المنال فلم يأتوه بل تركوه من أجل الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، أليس انهم من زمان الخلفاء الى هذا الوقت وهم يتقاتلون عليها ويتشاتمون ويتلاعنون ويتقاطعون ، فما هى أسباب الفتن وانقسام المسلمين على أنفسهم هذا الانقسام المتباين ، هل هذا كله من الرغبة فى الآخرة أو أكثره من أجل حب الدنيا ، بل كل هذه الفتن وهذه الخيانات وهذا الجلاد والجهاد والمجالدة والمجاهدة والمعاندة والمعارك المتصلة حلقها كلها من أجل الدنيا ، فدعواك أنهم يتركونها إذا وجدوها محوجة الى الجد والدأب دعوى فى نهاية السقوط ، وهى أوضح فى بطلانها من أن يسهب فيها

الوجه السادس أن الزهد الحقيق الآن وقبل الآن من مئات السنين لا يوجد الا اسمه فى بطون الكتب فقط ، وأنت تعلم ذلك ، وانما أتيت به هنا تشويها لسمعة المسلمين ، وإلا فبين لنا حكومة واحدة اعتمدت هذا الزهد واعتنقته واتخذته لها دستورا تسير عليه أو دينا تتعبد به ، بل الزهد والقناعة والصبر على الفقر قد كان أكثر فى زمان التابعين والصحابة ، وكانوا فى غاية العزة والتقدم ، وما ضرهم وجود الزهد فيهم ، وليس بلاء المسلمين الزهد ولا كراهة الحياة الدنيا ، فان هذا لا يوجد أبدا ، وكل ما قلته من أول البحث الى آخره فى محاربة الزهد والقناعة والحث على الدنيا وأن الناس كرهوها كله لا أصل له ، وإسهابك هذا وإطنابك كله لكونك تدور على شىء واحد وهو أنهم لم يكفروا بالآخرة ويرفضوها ، فجعلت عدم كفرهم بالآخرة هو كراهة الدنيا والزهد فيها . فهذه العقدة النفسية هى التى طوحت بك فى هذا الميدان الى هذا التطويل والتهويل والدوران المتعاكس الذى لا طائل تحته

الوجه السابع أن اعتراضك هذا ثم اجابتك عنه ـ على ما فيه من سخافة وغثاثة ورثاثة ـ كاف فى بطلان جميع ما قررته فى هذا المبحث ، لأنك جعلت المسلمين مجردين من العمل والاحتساب والاخذ للدنيا مطلقا وتركها مطلقا ، وهنا اعترفت صريحا بانهم يحبون المال والدنيا ، وأنهم يحاولون ويتمنون

كسبها ونيلها والاستزادة منها ، ثم قلت صريحا ان هذا (بكل الطرق حتى المحرمة منها) ، وهذا تناقض واضح . ثم ان ما يوجد فى بعض المسلمين من الفروق والتفاوت فى الحرص عليها يوجد مثله فى الشعوب الراقية الاخرى ، بل الزهد فى النصارى أكثر ، فان حرصهم دون حرص اليهود بكثير باتفاق الناس ، ومع هذا تقدموا عليهم ، بل تكاد تكون الشعوب النصرانية أقل الشعوب فى الحرص على كسب المادة من كل وجوهها منذ القرون الطويلة ، ومع هذا فقد تقدموا على غيرهم هذا التقدم العظيم . وقد بينا فيما مضى أن الحرص الشديد على الدنيا والتهالك عليها هو أساس الضعف والانحلال لأنه يوقع فى الذلة والخيانة وترك الجهاد والجلاد ويجعل صاحبه مخلدا الى الارض راضيا بالارغام والذلة والمسكنة وفساد الخلق والدين ، لانه اذا كان قصده الحقيقى هو المادة والدنيا لم يتطلب ما وراء ذلك مما قد يكون سببا فى فقره وإفلاسه ، فما ذكره هنا على هذا الاعتراض ليس بشىء ، وانما لجأ اليه خشية افتضاحه فيما زوره من الكذب فى الزهد والقناعة ، فأراد أن يموّه به على من قل نصيبه من العقل والفهم والدين ، وهيهات وما أحسن ما قيل فى مثله :

ولقد أقول لمن تحرش للهوى ... عرّضتَ نفسك للبلا فاستهدف

واعلم أن مناقشته فى مثل هذا الهذيان الكثير والرعونات الساقطة توجب التطويل والإسهاب وضياع الوقت بدون فائدة كبيرة ، لأن كلامه كله من هذا النمط ، وحسبنا أن نتتبع جميع ما يعتمده من أصول كلامه فى مضادة الأديان والهجوم عليها ، لان ذلك هو ما قصدناه ، مع أن أكثر كلامه مكرر ، كما نبهنا على هذا مرارا ، والله لا يصلح عمل المفسدين

﴿ تم الجزء الاول ﴾

ويليه الجزء الثانى أوله « الكلام على المبحث السادس »
عنوان فى كتابه (هل فى سنن الله محاباة) الخ

فهرس

صفحة

